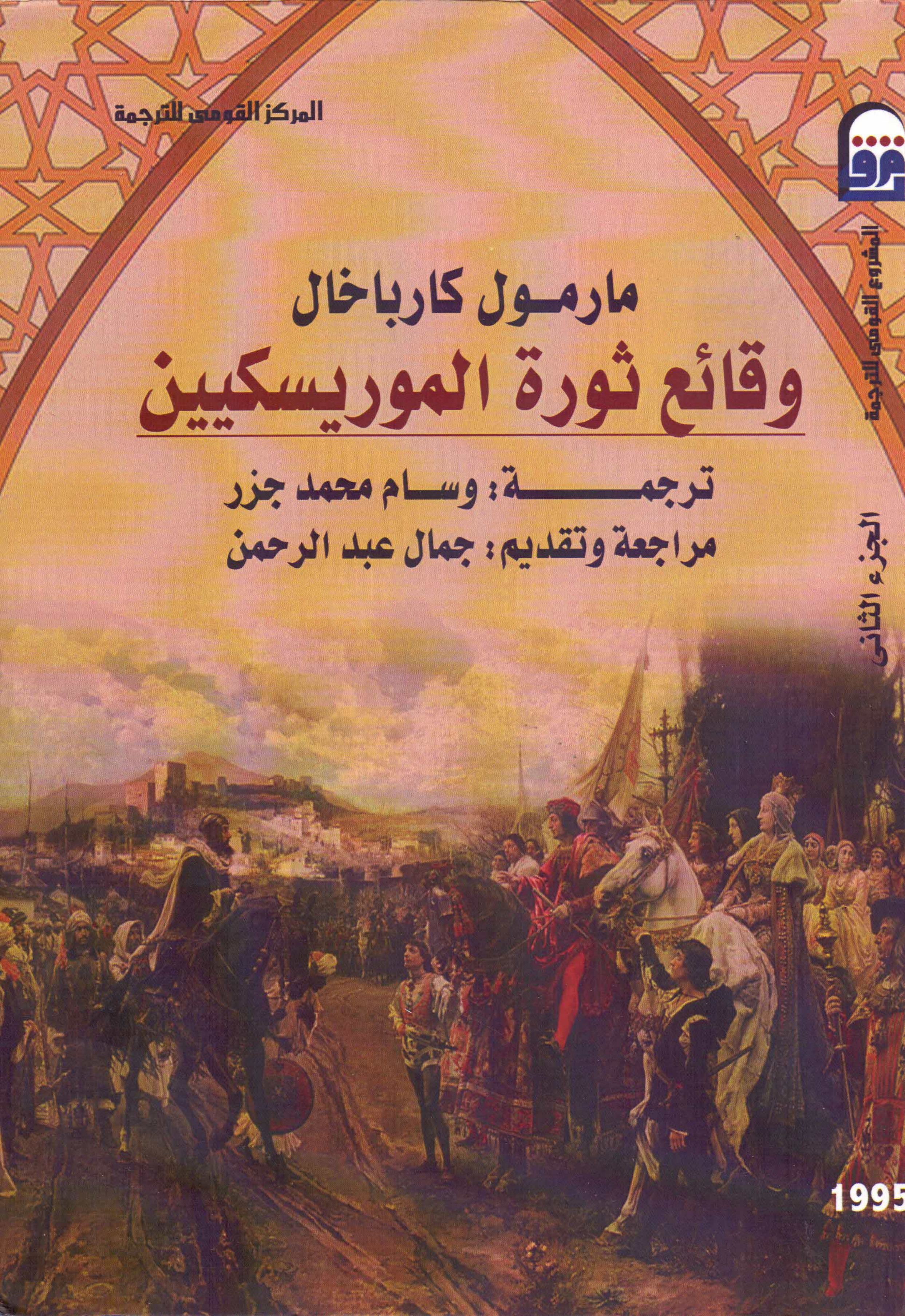

المركز القومى للترجمة
المشروع القومى للترجمة
مارمول كارباخال
وقائع ثورة الموريسكيين
ترجمة: وسام محمد جزر
مراجعة وتقديم: جمال عبد الرحمن
الجزء الثانى
1995



يروى هذا الكتاب وقائع ثورة الموريسكيين، التى وقعت بين عامى 1568 و1570؛ احتجاجًا على سوء أوضاعهم، وإعادة تنصيب ملك مسلم فى غرناطة خلال تلك الفترة.

ويعد مؤلف الكتاب أكثر انحيازًا إلى وجهة النظر الرسمية من غيرها، وقد حاز شهرة واسعة؛ بحيث صار عمدة المؤرخين الإسبان، وغيرهم فيما يتعلق بهذه الأحداث.

ينقل المؤلف هنا عدة وثائق لا يتضمنها كتاب آخر، وبصدور هذا الكتاب نضع أمام المؤرخ العربى وجهات نظر متعددة، يكمل بعضها بعضًا، كما نقدم قاعدة مكتملة لدراسة وقائع ثورة الموريسكيين.

استسلام غرناطة فى عام ١٤٩٢ للفنان: فرانسيسكو أورتيز
تصميم الغلاف: هانى عبد الخالق

وقائع ثورة الموريسكيين

(الجزء الثانى)

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: 1995
- وقائع ثورة الموريسكيين: الجزء الثانى
- مارمول كارباخال
- وسام محمد جزر
- جمال عبد الرحمن
- الطبعة الأولى 2012

هذه ترجمة كتاب:
Historia de la Rebelión y Castigo de los Moriscos del Reino de Granada
Por: Luis del Mármol y Carvajal

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524 Fax: 27354554

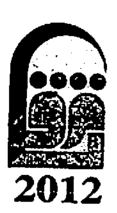
وقائع ثورة الموريسكيين

(الجزء الثانى)

تأليف : مارمول كارباخال

ترجمة : وسام محمد جزر

مراجعة وتقديم : جمال عبد الرحمن



2012

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

كارباخال؛ مارمول.
وقائع ثورة الموريسكيين؛ (الجزء الثانى)؛ تأليف: مارمول كارباخال؛
ترجمة: وسام محمد جزر؛ مراجعة وتقديم: جمال عبد الرحمن
ط١ - القاهرة: المركز القومى للترجمة، ٢٠١٢
٥٥٢ ص؛ ٢٤ سم
١- إسبانيا - تاريخ - أسرة هابسبرج - الفترة الأولى (١٥١٦-١٥٩٨)
٢- المسلمون فى أوروبا
(أ) جزر، وسام محمد (مترجمة)
(ب) عبد الرحمن، جمال (مراجع ومقدم)
(جـ) العنـوان ٩٤٦,٠٤

رقم الإيداع ٢٠١١/١٩٦٦٠
الترقيم الدولى I.S.B.N. 978 - 977 - 704 - 833 - 0
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العـربى وتعـريفه بها، والأفكـار التى تتضمنـهـا هى اجتهــادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

(الكتـاب السـادس)

الفصل الأول

يتناول قيام كل من ألبارو فلوريس وأنطونيو دى أبيلا بنهب بلدة بالور، فى أعقاب استسلام بقاع البشرات، وكيف تم اعتقالهما مع من كان بصحبتهما من الرجال.

كان ماركيز مونديخار يسعى بشتى السبل الممكنة لإنهاء مسألة إخضاع الأراضى، واعتقال أو قتل ابن أمية والصغير. فى أعقاب فشل غاسبار مالدونادو فى القيام بتلك المهمة، عيّن القائد جواسيس لتقصى أمرهما، خاصةً من بين بنى ثابا Aben Zabas الذين كانوا يقطنون بالور، وكانوا أعداءً لهم(*). بينما هو يولى ذاك الأمر كل تلك العناية، تم إبلاغه بترددهما فى بعض الليالى على ذاك الموضع ، وكيف أن ابن أمية لابد له من حضور حفل عرس سوف يقام فى دار أبيه؛ و سيمسى ممكنًا اعتقاله بسهولة، إذا ما باغته بالفعل أربعون أو خمسون رجلاً على نحو مفاجئ؛ لأنه لا يصحبه سوى عدد قليل من الرجال، فأمر باستدعاء كل من خيرونيمو دى تابيا Jerónimo de Tapia وأندريس كاماتشو Andrés Camacho – وهما من قادة مجموعات مكافحة التلصص– وكليهما متمرس فى شئون الصيد وخبير بتلك الأراضى؛ فعهد إليهما بتلك المهمة، ليضطلعا بها فى جد واجتهاد، مع أربعين جنديًا يقومان باختيارهم من كتيبتيهما .

انطلق القائدان من أورخيبا فى اليوم الخامس والعشرين من شهر مارس، ووصلا ليلاً إلى بالور العليا Válor el alto، فتركا الرجال كامنين بين بعض الشجيرات واقتربا

(*) انظر الكتاب الخامس، الفصل الرابع والثلاثين، ص١٣٨. (المترجمة)

بمفردهما من المنازل. فلمّا ألفيا الأبواب مفتوحة، دلفا إلى الداخل وأضاءا الأنوار؛ ثم جابا جميع الغرف، فلم يعثرا على أى أفراد أو دلالات تشير إلى أن المكان كان عامراً منذ وقت بعيد؛ فخرجا منه، وذهبا إلى المحل الذى تركا به الجنود. فسمعا خلال الطريق ضجيجًا فى بالور السفلى Válor el bajo، وأحسا بصرير السلاح؛ وبينما هما ينصتان السمع، إذا بهما يبصران خروج رجل مسلم من أحد المنازل، وهو يحمل رحالين صغيرين مملوئين. انتظره القائدان فى أحد الممرات الكائنة بالطريق، ثم خرجا إليه واعتقلاه حتى يعرفا من أولئك الناس الذين يطلقون المنجنيق. فأخبرهما الرجل أن ابن أمية موجود فى البلدة، داخل بيت موريسكى من أصدقائه، يعزف أنغام العرس؛ وبرفقته العديد من القواسين والرماة من الثوار الجبليين، والجند المسلمين، وغيرهم ممن ذهبوا للانضمام إليه فى أعقاب الإغارة على لاروليس. رجع القائدان بعد تلقيهما لتلك الأنباء، لأنهما لم يجرؤا على اقتحام القرية فى ظل عدد الرجال القليل الذى يرافقهما، لكونها عامرة بالأهالى، حيث احتشد بها من استسلموا فى بالور العليا وغيرها من البلدان. إبان وصولهما إلى أورخيبا، أخبرا ماركيز مونديخار بكل ما قصه المسلم عليهما. وعندما سألهما الماركيز عن عدد الرجال الكافى لمحاصرة المكان وتنفيذ المهمة المرجوة، ردا عليه بأن أربعمائة رجل سيكون عدداً كافيًا لتحقيق ذلك.

فى تلك الليلة عاد ألبارو فلوريس من الخارج، فأمره الماركيز أن يتوجه إلى بالور السفلى برفقة القائد أنطونيو دى أبيلا Antonio de Ávila –وهو من مواطنى مدريد–، وأن يصطحبا معهما القائدين، وستمائة قواس منتقين من جميع الكتائب. فيحيط الجمع بالمكان ليلاً دون أن يشعر بهم أحد، ثم ينذروا أيًا من بنى ثابا لكى يرشدهم إلى المنازل التى من الممكن أن يوجد بها ابن أمية؛ فيحاصروها فى آن واحد، ويسعوا إلى اعتقاله أو قتله. وإذا لم يعثروا عليه، فليستعلموا عن وجوده هناك فى تلك الأيام، والموضع الذى يحتمى به. وقد علمنا أيضًا أن الماركيز أمر ألبارو فلوريس بمطالبة نواب مجلس البلدة بتسليمه الموريسكيات المملوكات لصاحب الجلالة، اللواتى كان قد أودعهن لديه فى خوبيليس؛ وأن يحملهن إلى أورخيبا، حيث تجتمع باقى النسوة.

في أعقاب تلقي ذاك الأمر، غادر القادة المعسكر في يوم الأربعاء، الموافق الثلاثين من شهر مارس. وأثناء عبورهم الجسر المجاور لبلدة البسيط قاموا باستعراض الجيش، فألفوا في حوزتهم ستمائة وخمسين رجلاً؛ بالإضافة إلى من تبعوهم لاحقًا دون أن تصدر إليهم الأوامر بذلك، ظنًا منهم أنهم متوجهون للقيام بغارة كبيرة؛ أو بعض المغامرين الذين يحملون كميات من النقود، ويرغبون في توظيفها في شراء إماء وثياب وحلي. لأنه في الحملات العسكرية الشبيهة بتلك، دائمًا ما يغتنم الجنود الفرصة، سواء كانوا يخوضون الحرب بإخلاص أم لا. وحينما يعثرون -بعد انتهاء المعركة- على من يشترون منه تلك الأشياء، فإنه يبيعهم إياها بثمن بخس. احتشد لديهم ما يقرب من ثمانمائة رجل، وساروا طيلة ذاك اليوم باتجاه البحر، مخلّفين بالور على الجانب الأيسر لتضليل الجواسيس.

في اليوم التالي، عثروا على أربعين جنديًا في معقل مطريل؛ وكانوا بإحدى الجادات، غافلين للغاية عن مهامهم، وينتظرون مجيء رفاق آخرين ليتوجهوا معًا لنهب إحدى القرى. فاصطحبوهم معهم، واستكملوا مسيرتهم، وأخذوا يلفون ويدورون من موضع إلى آخر. في الصباح الباكر من يوم الجمعة، شاهدوا خمسين جنديًا يهبطون إحدى الروابي وهم يلوذون بالفرار، وكان يلاحقهم الكثير من المسلمين الذين يطلقون صيحات الحرب. كان أولئك من أدرا، وكانوا قد خرجوا معًا في جمع يربو على المائة؛ فقسّموا أنفسهم إلى كتيبتين، من أجل نهب قريتي موروتاس وتورونّ في آن واحد. في تورونّ، دافع المسلمون عن أنفسهم، وقتلوا منهم أحد عشر رجلاً. وفي موروتاس، قضى المسيحيون ليلتهم في الكنيسة، وقدم لهم الأهالي وجبة العشاء، وكذا الغذاء في اليوم التالي. وعند رحيلهم، قاموا بسرقة المنازل في مقابل استضافتهم لهم[1]؛ ثم بادروا بالهرب محملين بالغنائم. فخرج المسلمون يقتفون أثرهم وهم يصيحون، وكانوا سيذبحونهم جميعًا لو لم يتصادف وصول رجالنا إليهم. قام القادة بضمهم إلى

---

(١) هكذا يسخر مارمول من تصرفات بعض الجنود المسيحيين ممن لم يلتزموا بتعليمات قادتهم. (المراجع)

صفوفهم كما فعلوا بالآخرين، وتوجه الجمع صوب بالور بعد أن قاموا بدورة كبيرة فى الطريق. وصل القادة إلى هناك ليلة السبت الموافق الثانى من شهر إبريل، وقبل أن يدخلوا إلى البلدة قسّموا الرجال إلى فريقين لكى يتمكنوا من محاصرة الموضع كله فى أن واحد.

احتل كل من أنطونيو دى أبيلا وخيرونيمو دى تابيا سفح الجبل عن طريق سبيل للرعاة يفضى مباشرةً إلى المنازل، بينما عبر كل من ألبارو فلوريس وكاماتشو هوة كان لابد لهم من المرور بها لاحتلال المنطقة المرتفعة الكائنة ناحية الجبل. كان يتعين على الجميع الوصول فى نفس الوقت. لمّا كان الطريق الذى سلكه ألبارو فلوريس أطول وأكثر صعوبة -نظرًا لكبر المنخفض وعمقه- فقد سبقه أنطونيو دى أبيلا فى الوصول إلى موقعه. كان المسلمون قد أقاموا نقطة الحراسة الخاصة بهم فى الطريق إلى جانب أحد الصلبان، خوفًا من الجنود الذين يجوبون الأراضى ويحدثون الأضرار. فتقدم إليهم خيرونيمو دى تابيا، وأمرهم ألا يشيعوا الفوضى، لأن من أتوا لزيارة تلك الأراضى هم جنود ألبارو فلوريس. حينما تعرف عليه أحد أفراد بنى ثابا الذى كان معهم، توجه إليه واحتضنه، وتوسل إليه أن يشغل الرجال حتى يذهب هو لمقابلة ألبارو فلوريس، لأنه يعلم ما سيقدمون عليه. فى أثناء صعود ابن ثابا من المنخفض، عند المنطقة الواقعة خارج نطاق المنازل، بحثًا عن ألبارو فلوريس، ناداه باسمه؛ وأشهر فى يده صك الأمان الذى منحه إياه ماركيز مونديخار. لمّا كانت الليلة مقمرة، وقد ظهر شبحه من بعيد، أطلق عليه أحد الجنود عيارًا ناريًا، فلم يخطئه، وأرداه قتيلاً على الأرض. شرع المسلمون الذين كانوا برفقته فى الصراخ، وأشهر المسيحيون أسلحتهم. أغار جنود أنطونيو دى أبيلا على الرجال الذين يقومون بالحراسة عند الصليب، ودخل هؤلاء وأولئك إلى البلدة أفواجًا؛ فقتلوا كل من مر أمامهم من المسلمين، ونهبوا المنازل، وأسروا النساء، وقاموا بتجميع المغانم فى الكنيسة، كما لو كانوا قد قدموا عمدًا من أجل الاضطلاع بتلك المهمة.

لم يكن الفجر قد لاح كليًا حينما شرع المسلمون -الذين استطاعوا الفرار من الجنود- في إصدار إشارات دخانية في البلدة. فأخبر خيرونيمو دي تابيا وكاماتشو القادة، انطلاقًا من كونهما رجلين متمرسين، أنهما ينصحاهم بترك الفيء والعودة قبل فوات الأوان؛ لأن أمامهم ثمانية فراسخ من الطريق الوعر والمنحدر حتى يبلغوا أورخيبا. وأنه إذا ما أغار الأعداء عليهم، فإنهم سيواجهون خطر الهلاك. أراد ألبارو فلوريس الأخذ بنصحهما، بيد أن أنطونيو دي أبيلا سخر منه؛ قائلاً إن بإمكانه عبور إفريقية بأسرها مع من في حوزته من الرجال، ومحملاً بمغانم تفوق تلك التي ظفروا بها. اتفق سائر الجنود والمغامرين على ذلك الرأي الذي لا يقل في الجشع عنه في العجرفة؛ فأخرجوا المسلمات من الكنيسة بعد أن ارتفعت الشمس في السماء، وشكّلوا سريتين: احتل ألبارو فلوريس الطليعة مع إحداها، وبقت الأخرى في المؤخرة تحت إمرة أنطونيو دي أبيلا. كما تم إيداع المسلمات -اللواتي تجاوز عددهن ألفًا ومائتي نفس- في المنتصف، مع بعض الرماة على كلا الجانبين. أثناء مسيرة هؤلاء وأولئك، توقف أنطونيو دي أبيلا مع مائتين وخمسين جنديًا إلى جوار المنازل، تحسبًا لهجوم الأعداء -الذين أخذوا في القدوم عبر تلك السفوح وهم يطلقون صيحات الحرب- على الرجال، خلال نزولهم من إحدى الروابي، التي كان يتعين عليهم عبورها للوصول إلى الطريق الأصلي.

في تلك الأونة، أدرك المسلمون -الذين جُرِدوا من نسائهم وبنيهم وممتلكاتهم- أن ما قام به الجنود مخالف للأوامر، فبعثوا برجلين في بادئ الأمر، ليخبرا القادة بأن ينتبهوا إلى صكوك الأمان التي كان ماركيز مونديخار قد منحهم إياها، وإلى كونهم خاضعين، وإنه لا يوجد داع لإلحاق كل تلك الأضرار بهم. وإذا كان ما جرى هو مخالفة من قبل بعض الجنود، فقد حدث ما حدث؛ وعليهم أن يتركوا لهم نساءهم وأولادهم، لأنهم يرغبون في أن يسود ديارهم السلام والطمأنينة. وإذا لم يتم ذلك، فإنهم سيُشهِدون الرب على تلك الوقائع. أجاب أنطونيو دي أبيلا الرجلين بكلمات مهينة، ونعتهما بالكلبين الخائنين للرب والملك، وأنهما أويا الطاغية في بيوتهما، وحذراه لكي يرحل عند قدوم المسيحيين؛ ثم أمر بإعدامهما رميًا بالرصاص.

حينما شـهد المسلمون ذاك الأمر، هب منهم ما يقارب الخمسمائة رجل -كان غالبيتهم من العزل- لمباغتة الجنود المائتين والخمسين أثناء نزولهم من الهضبة المفضية إلى السفح. فهاجموهم كما يفعل الرجال الآيسين، وهزموهم، وقتلوا أنطونيو دى أبيلا وما يزيد على ثلاثين من جنده؛ بينما لاذ المسيحيون الآخرون بالفرار فى خسة صوب السرية. أمسى كل الخاضعين فى حالة من الهياج، نظراً للأضرار التى باتوا يتعرضون لها على يد الجنود العصاة منذ اقتحامهم لاروليس. حينما سرت أنباء ما اقترفه المسيحيون فى بالور فى بلدان الجوار، وكيف أنهم أسروا سائر النساء الموريسكيات، لم يتهاون المسلمون فى تلبية الإشارات الدخانية؛ وصاروا يجدّون فى طلبهم كلما تراءى لهم موضع أفضل للانقضاض على الجنود المضطربين، الذين افتقروا إلى النصح، والنظام، والحمية فى آن واحد. فبات المسلمون يظهرون للجنود - أثناء سيرهم-عبر الممرات وسبل الرعاة التى كان لهم دراية بها، ليجرحوهم أو يقتلوهم دون أن يصيبهم هم مكروه. قام فوج من المسلمين باختراق السرايا عند موضع النساء فى المنتصف، فقتلوا ما يربو على خمسين جندياً، واستولوا منهم على أكثر من ثلاثمائة امرأة، واصطحبوهن معهم. فى أعقاب هؤلاء، باغت الركب آخرون، وآخرون غيرهم، حتى لم يبقوا على أى من النساء؛ وكان رجالنا يقاتلون بتكاسل شديد، فبدا وكأن السماء قد صبت جام غضبها على أولئك الجنود الجشعين(٢).

حث من بالمقدمة الخطى، حتى وصلوا إلى ممر ضيق يقع بين جبلين. وكان لابد لهم من عبوره بطريقة غير منتظمة، فتخلوا عن السير على السلاسل الجبلية العالية - كدأب الرجال المنضبطين- ليسلكوا وادياً ضيقاً وعميقاً، حيث كانوا بالكاد يستطيعون المرور متراصين. حينما أسرع من فى طليعة الركب فى المسير، للخروج من ذاك المعبر السيء، وتركوا من بالمؤخرة يجابهون الأخطار، شكّل الجنود صفاً طويلاً للغاية، مما أتاح للمسلمين فرصة قطع الطريق عليهم. فانقضوا عليهم من جهات عديدة، وسرقوا ما تبقى معهم، وأجهزوا على القائد أرييتا Arrieta، الذى تصدى لهم فى استبسال

---

(٢) مرة أخرى ينتقد مارمول جشع المتطوعين المسيحيين فى الحرب. (المراجع)

لفترة طويلة، وشن بعض الهجمات على الأعداء. بينما الناس أخذون فى الانتشار، كان كل من القائد ألبارو فلوريس وكاماتشو يعملان قدر الإمكان لمنع الجنود من الهرب. حينما أدركا أن مجهوداتهما ليست ذات جدوى، لأن أعداد المسلمين باتت تتزايد، وصارت همم المسيحيين تفتر لحظةً تلو الأخرى، اتفقا على تأمين حياتهما باللجوء إلى الجبال إلى حيث تلقى بهم الأقدار. بات الرجلان يتخلصان من الأسلحة والثياب، لكى يصيرا أخف أثناء سيرهما؛ فتمكن كاماتشو من النجاة بحياته؛ بينما ألقى ألبارو فلوريس بنفسه على إحدى الصخور - بعد أن انقطع نفسه- فأدركه الأعداء هناك، وقتلوه. أسفرت تلك الواقعة البائسة عن إكساب المسلمين الحماسة، حيث فُقِدَ فى ذاك اليوم ما يقرب من ألف[٣] مسيحى، وقدر وفير من الأسلحة والمتاع التى كانوا يحملونها؛ مما أسهم فى تعويض المسلمين جيداً عن الأضرار التى لحقت بهم فى لاروليس.

بدا ذاك الأمر وكأنه مشيئة الرب حقًّا، لأنه كان من المفترض أن يكفى جندى واحد لمجابهة عشرة من المسلمين الأشرار العزل. لكن ما حدث أن رجلاً مسلمًا واحداً كان يقضى على عشرة مسيحيين، لما ألفى صدورهم يعتمل بها الخوف والجشع المفرطين فى آن واحد، حتى إنهم لم يرغبوا أن يدعوا المغانم من أيديهم أثناء مجابهتهم للمخاطر. ابتعد ستون جنديًا ليسلكوا واديًا منخفضًا، وتوجهوا لينزلوا ببلدة أدرا، حيث كان برفقتهم دليل قدير. تحصّن خمسون آخرون فى برج إحدى الكنائس، حيث أحاط بهم المسلمون، وأحرقوهم أحياء. لم يتمكن سوى القلائل من الفرار إلى الجبل مع خيرونيمو دى تابيا وأندريس كاماتشو، بينما لقى القائدان الآخران مصرعهما. انسحب أهالى بالور فى النهاية، بعد أن واصلوا ملاحقة الرجال لمسافة تربو على أربعة فراسخ؛ حيث كان الجنود يصلون إلى القرى مجهدين من الطريق وقد أعياهم العطش،

(٣) ربما كان الرقم مبالغًا فيه. (المراجع)

فيخرج السكان ليرووا ظمأهم ويقوموا بنحرهم. بعث المواطنون برجل إلى ماركيز مونديخار، ليبرئ ساحتهم من التهم التى من الممكن أن تُعزى إليهم. وألقوا بالأمر على كاهل القادة، وقالوا إنهم مستعدون لتسليم الأسلحة التى أخذوها من المسيحيين لاحقًا، لأنهم لا يرغبون سوى فى إقرار السلام. كان الماركيز يود الاستماع إليهم وقبول أعذارهم، بيد أن الغضب الذى اجتاح كل من بالمعسكر -صغارًا وكبارًا- صار عارمًا، ولم تكن أية حجة بكافية لتهدئة ثورتهم. قال الرجال إن المسلمين لا يسعون سوى للتضليل والشرور، وإن ماركيز مونديخار يدع أولئك الملحدين -الذين يعتبرهم رعاياه- يقومون بخداعه. ولم تكن هناك قلة فى الأشخاص البارزين الذين لجأوا إلى جلالة الملك بعرائض شكاوى، منتهزين فرصة تلك الخسارة الفادحة.

الفصل الثانى

يتناول قتل مسلمى تورونّ للقائد دييغو غاسكا، وقيام جنوده بنهب ذاك الموضع.

بعد مرور يومين على تلك الموقعة، أراد القائد دييغو غاسكا أن يشفى غليله من أهالى تورون، نظراً للأحد عشر جندياً التابعين له الذين قتلهم المواطنون، بعد أن حرضه على ذلك نفر من الرجال الذين كانوا ينتمون لتلك البلدة. فأغار عليها فى صبيحة أحد الأيام، بجنود المشاة والفرسان القادمين من أدرا، وقام بمحاصرة المكان. خرج حاجب القرية ونواب مجلس البلدية إليه، ليعرضوا عليه صك الأمان الذى فى حوزتهم. وأخبروه أن أهالى القرية رعايا مخلصون لخدمة الرب وجلالة الملك، وأنهم أطلقوا سراح المسيحيين القاطنين بين ظهرانيهم، ولم يسمحوا بحرق الكنيسة، وأنهم حينما باتت الظروف مواتية، ذهبوا إلى الماركيز لإعلان خضوعهم؛ حيث لم يجسروا على القيام بذلك من قبل خوفًا من الثوار الجبليين، وأنهم يتضرعون إليه من أجل أن يقف إلى جوارهم، ويدخلهم فى كنفه؛ وألا يدع الفرصة سانحة أمام من يرغبون فى إلحاق الضرر بهم، كما كان الحال مع نفر من الجنود العصاة، الذين قدموا إلى هناك فى تلك الأيام الماضية، وكانوا يودون نهب ديارهم.

أجاب دييغو غاسكا الأهالى بأنه لن يقوم بإيذائهم، وإنما سيبحث عن الأسلحة المخبأة لديهم، وعن تلك التى استولوا عليها من المسيحيين القتلى؛ كما سيلقى القبض على القتلة، لكى ينالوا جزاءهم أمام العدالة. وما إن دلف إلى البلدة -بعدما تجاهل الطلبات التى تقدم له بها الخاضعون، بموجب صك الأمان الذى فى حوزتهم- حتى انطلق الجنود من عقالهم، وبادروا بالانفصال عن الركب واقتحام البيوت، بحثًا عما

يحقق منفعتهم الخاصة. عندما دخل دييغو غاسكا مكانًا، وكان به نفر من المسلمين المشكوك في أمرهم، وجه إليه أحدهم كلمات غير لائقة: فقال له إن ما يقوم به هو سرقة الناس، وليس البحث عن الجناة. فلمّا أراد القائد أن يلكمه، أخرج المسلم خنجرًا كان قد خبأه، وغرزه في جسده. في أعقاب ذلك أجهز الجنود الحاضرون على القاتل وعلى من كانوا معه؛ واستشاطوا غضبًا لدى رؤيتهم المصير التعيس الذى لقاه قائدهم، فأطلقوا نيران أسلحتهم في عجالة إيذانًا ببدء المعركة، دون أن يراعوا أى اعتبارات أخرى. كما سارعوا بالكيفية ذاتها إلى الهجوم على المواطنين المسلحين والعزل، فقتلوا منهم مائة وعشرين شخصًا؛ وسرقوا البلدة؛ وسبوا النساء والأطفال. رجع الجنود إلى مقر إقامتهم، مخلّفين وراءهم البيوت مشتعلة؛ وقسّموا الفيء، وكأنهم كانوا ينفذون أوامر محددة صدرت إليهم للاضطلاع بتلك المهمة؛ وقد غطى موت القائد على كل ما جرى.

كان دييغو غاسكا فتى مغوارًا. وكان قد أفلح في هزيمة ابن أمية ثلاث مرات عندما أغار هذا الأخير على أدرا، في أثناء وجود السيد دييغو بها. أما المرة الأولى، فكانت في يوم الثامن من شهر يناير عام ١٥٦٩، وقد اصطحب المسلم خلالها ثمانية آلاف رجل، بينما رافق القائد دييغو ستون فارسًا وثلاثمائة راجل، فغلبه وقتل مائتى مسلم[٤]. وكانت الثانية في اليوم الرابع والعشرين من الشهر ذاته، حيث عاود ابن أمية الهجوم على ذلك المعقل؛ فأفشل مسعاه، وأجهز على مائتين وعشرين مسلما آخرين من أتباعه. وكانت المرة الثالثة والأخيرة عندما سلبه ابن أمية ماشيةً من أدرا؛ فخرج إليه، واستخلصها منه، وأجبره على التراجع بعد أن ألحق به خسائر. وهكذا أسهمت تلك الانتصارات، وغيرها من الغارات التى اضطلع بها داخل الأراضى وانتهت بفوزه، في ذياع صيته بين المحاربين. فأسفوا لرحيله، خاصةً جنده – فطالما سعى قدر استطاعته لإفادتهم. وهو الأمر الذى يؤدى في أحيان كثيرة إلى التعاطف.

(٤) العبارة بهذا الشكل تذكرنا بالمعارك التى خاضها رودريغو ضد المسلمين في "ملحمة السيد"، دائمًا كان يحقق النصر، مع أن أعداءه يفوقونه عددًا. (المراجع)

الفصل الثالث

يتناول قلاقل أخرى أثارها المتمردون فى تلك الآونة فى البقاع الخاضعة.

فى تلك الآونة كان الجنود -الذين توجهوا مع الكاهن القانونى تورّيخوس لإخضاع بقاع جبل فيلابرِس- حانقين لرؤيتهم مدى انتشار أجواء السلم؛ فتركوه وذهبوا. وقد انفصل مائتان وخمسون منهم عن الركب أثناء مسيرتهم. ووصلوا إلى بلدة باياركا Bayarca، وقاموا بنهبها وتوجهوا منها إلى البشرات. بيد أن مسلمى المنطقة حشدوا صفوفهم، وأغاروا عليهم، وذبحوهم جميعًا فى ذات اليوم الذى وقعت فيه حادثة تورون. كذلك فقد خرجت فى تلك الأثناء كتيبة مشاة من أهالى لورقة، من معسكر ماركيز بلش. وباتت تجوب بقاع بيرخا ودالياس لسرقتها جميعًا، حتى وصلت إلى بيثينة Pezcina - التى كان بها اثنان من جنود الحراسة. و كان ماركيز مونديخار قد تركهما مع الأهالى، ليقوما -إذا ما وصل بعض الجنود المخالفين إلى البلدة- بإشهار صك الأمان، ومنعهم من إحداث أضرار بها. على الرغم من أن الجنديين خرجا لملاقاة الكتيبة مع حاجب البلدة، وعرضا الصك على الجنود، فإنهم تصرفوا وكأنهم غير مجبرين على الالتزام بما جاء فيه، وكأنه لم يصدر عن ماركيز بلش. فاقتحموا المنازل فى غيظ، وقاموا بنهبها؛ كما أسروا ألفا وخمسمائة نفس -ما بين امرأة وطفل-؛ وقتلوا أحد جنديى الماركيز لأنه زجرهم على أفعالهم، وما يزيد على ثلاثين من المسلمين الخاضعين. فما كان من باقى الأهالى -وكانوا كثر- إلا أن فروا صوب الجبال؛ فحشدوا أعدادًا أكبر من الرجال من البقاع المتاخمة، وخرجوا لقطع الطريق عليهم. استغل المواطنون فرصة ظهور ضباب كثيف للغاية، وهطول الأمطار المصحوبة بالبرد

–وكان أمراً يصب فى صالحهم– لينقض عليه الجنود من اتجاهات مختلفة، وهم يطلقون صيحات حرب مدوية. عندما لم يتسن للجنود الإفادة من بنادقهم –لأن الفتائل المشتعلة انطفأت لدى البعض؛ بينما ابتل مسحوق البارود لدى البعض الآخر، حينما كشفوا الغطاء عن مخزن الذخيرة الموجود فى أسلحتهم– تمكن المسلمون من الهجوم عليهم؛ كما أنهم كانوا فى ذات الوقت محملين بمغانم كثيرة من نساء وأطفال وماشية ومتاع. فنجح الموريسكيون فى هزيمتهم، ونحروهم جميعًا، واستولوا منهم على كميات كبيرة من البنادق والأقواس الفولاذية والسيوف، استطاعوا من خلالها تسليح من كانوا عزلاً.

عاد المسلمون إلى ديارهم، فى أعقاب تحقيق ذاك الانتصار والظفر بتلك المغانم، أقل سروراً من الحالة التى عادة ما يكون عليها من لهم الغلبة، لأن أصحاب الرأى السديد أدركوا أن الأمر سيعجل بفنائهم. لم يكن ذاك حال السيد دييغو راميريث دى آرو –صاحب قلعة شلوبانية– الذى توجه صوب موليبثار، وهى إحدى القرى التى تدخل فى نطاق سلطته، وكان قد لجأ إليها كثير من المسلمين الخاضعين، إلى جانب بعض المسلمين المقاتلين. عندما ألفاهم القائد يقطعون عيدان قصب السكر بالأجر فى بعض الحقول، اعتقلهم جميعًا. ثم مر إلى البلدة، فنهبها وسبى نساءها، دون أن يلقى من يتصدى له أثناء الذهاب أو الإياب. تم تقسيم تلك الغنائم بينه وبين السيد سانشو دى لِيّبا، لأن القوات كانت تضم رجالاً من جنود البرية والبحرية. كان المسلمون من نصيب السيد سانشو، الذى حملهم للتجديف على متن السفن؛ بينما بيعت النساء كإماء. لم يقل ما اقترفه قادة وجنود المعاقل، فى البقاع التى تخضع لسلطتهم، عما رويناه. حيث خرجوا فى حملات صغيرة، بحثًا عن منفعتهم الخاصة فى تلك الأجواء التى تتأرجح بين الحرب والسلام، قبل أن يتم إخضاع الأراضى بالكامل.

الفصل الرابع

يتناول كيف عاود مسلمو البشرات القيام بالثورة، وإشعال نيران الحرب، عقب انضمامهم إلى صف ابن أمية؛ بالإضافة إلى بعض الإجراءات التى قام بها جلالة الملك آنذاك.

حدثت تلك الاضطرابات والكثير من الوقائع الأخرى حينما كان ماركيز مونديخار ما زال موجوداً فى أورخيبا، فى انتظار تحرك السيد خوان دى أوستريا من العاصمة. وقد تحركوا بحيث كان الجنود المسلحون بالرماح وجنود المؤخرة يحيطون بجنود المشاة الذين انتظموا فى صفوف. وكان المنظر على هذا النحو يبث السرور، لولا أن السرور المبالغ فيه من قِبل البعض أيقظ الألم الذى يعتمل فى قلوب من فقدوا آباءهم، وأزواجهم، وأولادهم، وإخوانهم. فاشتعلوا غيظًا، فقد تصوروا أن الثوار سيفلتون من العقاب، وأن القائد العام هو الذى تبنى مسألة العفو عنهم. فى أعقاب خروج ماركيز مونديخار من البشرات، باتت الفرصة سانحة أمام ابن أمية لبسط سيطرته عليها كيفما شاء. لمّا لم يعد يتردد فى ارتكاب أى أعمال وحشية -لأنه لم يعد هناك من يخشاه- أمر بقتل العديد من الرجالات البارزين، والحجاب، ونواب مجالس البلدية من المستسلمين؛ وقال إنه يفعل ذلك لقيامهم بتسليم أنفسهم دون أن يحصلوا على إذن منه. كما بعث برسله إلى بلاد المغرب، لكى ينشروا أنباء عودة الانتصارات من جديد، والمصارع الكبرى التى لقيها المسيحيون. مما أثار الحمية فى نفوس العديد من الرجال المضطربين - الذين لم يكونوا قد حزموا أمرهم بعد، ظنًا منهم أن تلك الثورة هى شأن عابر- حتى يقدموا على إغاثته: فأمده بعضهم بالرجال والسفن، بينما دفع البعض الآخر أموالهم لتزويده بالأسلحة والذخائر.

الفصل الخامس

يتناول كيفية استقبال السيد خوان دى أوستريا لدى دخوله إلى غرناطة.

غادر السيد خوان دى أوستريا حدائق أرانخويث Aranjuez فى سادس أيام شهر إبريل. وكان قد توجه إلى هناك لتقبيل يدى صاحب الجلالة وتوديعه قبل مواصلة مسيرته، مصطحبًا معه لويس كيخادا. فشرع فى قطع مسافات متوسطة فى كل يوم إلى أن وصل إلى حصن اللوز -الذى يقع على بعد خمسة فراسخ من غرناطة - بعد ستة أيام. باتت المدينة تموج فى أجواء من البهجة، حينما وردت أنباء وصول السيد خوان ودخوله إلى البلدة فى اليوم التالى. وأمسى الجميع متشوقين للاحتفال بأميرهم شقيق جلالة الملك، ومولاهم الذى تعمر قلوبهم بحبه. خرج ماركيز مونديخار فى ذات اليوم برفقة كتيبة الفرسان التابعة لخوان دى كارباخال، وبعض القادة المقربين والفرسان، من أقربائه وأصدقائه؛ ليبيت تلك الليلة مع السيد خوان فى حصن اللوز؛ وينطلقا معًا فى صباح اليوم التالى إلى غرناطة. تقدم ماركيز مونديخار المسيرة، وصعد إلى حصن الحمراء، لكى يفسح المجال لإجراء مراسم الاستقبال. كان كونت تنديًا هو أول من خرج للترحيب بالسيد خوان دى أوستريا، يرافقه مائتان من الفرسان بكل أسلحتهم: مائة من كتيبة تيّو غونثاليث دى أغيلار، ومائة من كتيبته -التى كان يترأسها غونثالو تشاكون. أما الجمع الثانى فقد ارتدى سائر أفراده الثياب الموريسكية، بينما لبس الآخرون قمصانًا من الساتان وحرير التافتاه القرمزى -وفقًا لتقاليدنا المعهودة. وقد تسلح هؤلاء وأولئك جيدًا بالتروس، والخوذات، والدروع، والحراب. فباتوا، باتخاذهم لزينتهم وتسلحهم بعتادهم، يمثلون منظرًا بديعًا وباعثًا على السرور.

وصل كونت تنديًا حتى قرية البلوط Albolote - التى تبعد مسافة فرسخ ونصف من المدينة- ثم عاد أدراجه، عقب تقديمه للتحية الواجبة؛ لكى يفسح المجال لغيره من السادة والفرسان الآخرين، الذين يرغبون فى تحية الأمير. كان سيادة الرئيس قد تلقى أوامر من جلالة الملك بشأن الترتيبات الواجب اتخاذها لاستقبال الأمير، والتى تمثلت فى: توجه الرئيس برفقة أربعة فقط من المستشارين الحقوقيين، بالإضافة إلى مأمورى الجرائم؛ وذهاب المأمور القضائى بصحبة أربعة من عمد القرى ونوابهم؛ وكذا رئيس الأساقفة مع أربع شخصيات من أعضاء المجمع الديرانى، يقوم هو باختيارهم. حينما علم الرئيس بقرب قدوم السيد خوان، خرج للانضمام إلى رئيس الأساقفة عند مفرق الطرق الكائن عند مدخل شارع إلبيرة، إلى جوار عمود الثور Toro. فلزم رئيس الأساقفة الجانب الأيسر، وخرج الجمع إلى المشفى الملكى، ثم ساروا مسافة مدى رمح وصولاً إلى جدول بيرو Beyro، وهو الموضع الذى ستجرى فيه مراسم الاستقبال.

وصل السيد خوان دى أوستريا فى الوقت ذاته، فتقدم الرئيس أولاً حينما شهد اقترابه، ودنا منه فى تواضع للترحيب به؛ فأحسن السيد خوان استقباله للغاية، وكان حاملاً قبعته فى يده، واحتضنه لبعض الوقت. ثم تنحى إلى أحد الجوانب، ليتقدم رئيس الأساقفة ويقوم بنفس الأمر معه. فيما بعد توالت وفود المستقبلين تبعًا لأقدميتهم، بدءًا بالمستشارين الحقوقيين والعمد، فالشخصيات الكنسية، ثم المأمور القضائى وعمد القرى، على تلك الشاكلة؛ وفى النهاية حضر الفرسان والمواطنون البارزون. كان سيادة الرئيس يقدم كل فرد منهم إلى السيد خوان، فيستقبلهم بمحبة بالغة، حتى شعروا جميعًا بالرضى. فى أعقاب انتهاء تلك المراسم، قام كونت ميراندا -الذى حضر برفقة السيد خوان- بالتقدم إلى الأمام، فتوسط رئيس المحكمة ورئيس الأساقفة، ليضحى سيادة الرئيس على الجانب الأيمن. ثم ساروا صوب المدينة وسط حشد لا يصدق من الناس، حتى أنهم غطوا تلك الحقول جميعًا. كانت قد شُكِّلت كتيبة من قوات المشاة بأسرها فى سهل بِيرو. عندما أضحت الصفوف الأولى لذاك الجمع بمحاذاتهم، شرع

الرماة فى إطلاق الأعيرة النارية، ودونما توقف؛ حتى أن الطلقات باتت تنهمر فى دفعة واحدة بارعة الجمال، لترسم منظرًا بدا بديعًا للغاية، ليس فقط لمن لم يشهدوا شيئًا مماثلاً من قبل، وإنما أيضًا للجنود المتمرسين الذين يتمتعون بخبرة كبيرة فى تلك الأمور. فلم تقو عينا ذاك الشاب -الذى استطاع بحميته القتالية إحراز انتصارنا البحرى- إلا أن يتعلق نظرها بحشود المشاة، الذين تخطى عددهم عشرة آلاف رجل.

لم يكن الجمع قد ابتعد كثيرًا حينما خرج لملاقاته حشد آخر من المستقبلين، وذلك فى مشهد يستثير الرحمة ويستدر الشفقة، رغمًا عن إنه قد أُعِدّ بمهارة(٥) لإثارة الغضب فى نفس السيد خوان ضد الموريسكيين. حيث خرجت أكثر من أربعمائة امرأة مسيحية، ممن كن أسيرات فى البشرات؛ واجتمعن كلهن مجردات من الزينة ومفعمات بالأسى، يندين الأرض بعبراتهن، وينثرن عليها شعورهن الشقراء. حينما دنا السيد خوان منهن، كتم بعضهن نحيبهن الموجع، لكن ليس من دون تأوه ونشيج؛ فاحتضن آلامهن وقلن له: " العدالة ياسيدى! العدالة هى مطلب تلك الأرامل واليتيمات البائسات، اللواتى أحببن البكاء عوضًا عن أزواجهن وأبائهن. فإنهن لم يستشعرن كل ذاك الألم إزاء سماعهن لطلقات الأسلحة التى قتلهن بها المارقون، هن وأبناءهن، وإخوانهن، وأقاربهن؛ كما أحسسن به حينما أدركن أنه سيتم العفو عنهم". وواصلن بث شكاواهن، وبتن يتحدثن واحدة تلو الأخرى بأصوات مختلطة؛ فلان قلب السيد خوان دى أوستريا لدى رؤيته لهن على تلك الحالة، وقال لهن أن يصمتن. كما أنه عزّاهن، وطلب منهن التحلى بالصبر، والتأكد من أنه سيحقق لهن العدالة حينما يضحى ذلك ممكنًا.

من هناك دلف إلى المدينة، فرأى بها مظاهر حزن أقل، ومظاهر زينة وسرور أكثر. حيث اكتست النوافذ المشرفة على الشوارع التى سيعبر منها السيد خوان بأقمشة موشاة بالذهب والحرير، وقد أطلت منها العديد من السيدات والفتيات النبيلات،

---

(٥) من السهل تخيل الجهة التى أعدت هذا المشهد حتى لا يلين قلب الأمير ويعفو عن الموريسكيين. لم يكونوا أصحاب الأراضى قطعًا. (المراجع)

المتحليات بالزينة الفخمة، ممن جئن من سائر أرجاء المدينة لرؤيته. فمر بالطرقات وهو ينظر من جهة إلى أخرى، فى هيئة لا يقل جمالها عن وقارها، حتى وصل إلى مقر المحكمة العليا. وكان الرئيس قد أعد له مسكنًا بها، وذلك فى بعض القاعات المزينة بفخامة تتفق ومكانة الشخص الذى سينزل بها. وقد قام كل من رئيس الأساقفة وكونت تينديًا بتوديع السيد خوان قبل أن يترجل من على صهوة فرسه، بينما رافقه سيادة الرئيس حتى أودعه مقر إقامته قبل أن ينصرف.

الفصل السادس

يتناول كيف أناب موريسكيو البيّازين بعض الأشخاص للتوجه لتقبيل يدى السيد خوان دى أوستريا، وإخباره بأحوالهم.

حينما تراءى للموريسكيين أن السيد خوان دى أوستريا قد استراح من عناء الطريق، اجتمع أكثر رجالهم ثراء وبروزا، وأنابوا أربعة أفراد من أفضلهم معرفةً باللغة القشتالية، حتى يتوجهوا -برفقة النائب العام- لتقبيل يديه نيابةً عن الأمة الموريسكية بأسرها، وليقصوا على مسامعه ما كان من شئونهم. توجه النواب إلى مقر إقامة السيد خوان، وعقب تقديمهم لفروض الولاء والطاعة، تحدث النائب العام على النحو التالى: "إن هؤلاء الرجال يشعرون بسعادة غامرة لدى رؤيتهم لسموكم، وقد جئتم إلى المدينة لمعالجة الشرور الكثيرة التى تحدث بها، والتى تمثل بالنسبة لهم الهلاك المحقق. وهم يخشون أن يكون البعض قد لاكوهم بالألسنة، وزودوا سيادتكم بمعلومات زائفة حول ولائهم، قائلين إنهم هم مقترفو الشرور، أو إنهم آووا الآثمين. بيد أنهم لديهم ثقة فى الرب، وفى عطف وحنو جلالة الملك، حتى يتم الوقوف إلى جانب الأوفياء والإحسان إليهم؛ كما تقتضى العدالة تطبيق العقاب الرادع على من يظهر تورطهم فى نشوب التمرد. وهم يشكون من مضايقة القائمين على شئون العدالة ورجال الحرب لهم، ومطالبتهم بتقديم الرشاوى؛ كما أن الجنود يسرقون ضياعهم وينتهكون حرمات منازلهم، بينما لم يعالج رؤساؤهم تلك المسألة حتى الآن. وهم يتضرعون إلى سيادتكم أن تحلوا تلك القضية، التى طالما أضرتهم فى الماضى؛ والحيلولة دون حدوث ذلك فى المستقبل؛ وذلك على نحو يمنع إعاشة الجنود فى ديارهم، ويتيح لهم حرية الذهاب آمنين مطمئنين إلى أشغالهم. وهم يدركون جيداً أن كل فرد فى هذه المملكة يحاول

تعضيد رأيه السيء، أو يرفع من قدره، على النحو الذى حمل الكثيرين على التخوف من أمور اختلقوها هم أنفسهم. لكن وجود سموكم يطمئنهم، فهم يضعون حياتهم، وشرفهم، وممتلكاتهم تحت مظلة حماك وكنفك".

إلى هنا انتهت كلمات النائب العام. وقد أجابه السيد خوان دى أوستريا، فى سكينة أخاذة أضفاها الرب على محياه، بالكلمات التالية: "لقد أمرنى مولاى الملك بالمجيء إلى هذه المملكة لإقرار الهدوء والطمأنينة بها. فلتتأكدوا أن كل من كان وفيًا لمولانا وربنا، ولجلالة الملك -كما تقولون- فسوف تتم مراعاته، والوقوف بجواره وتكريمه، كما أننا سنحافظ على حرياتكم وممتلكاتكم. لكن عليكم أن تدركوا أيضًا أنه إلى جانب تطبيق المساواة والشفقة مع من يستحقونهما، فإن من لا ينطبق عليهم ذاك الأمر سوف يعاقبون فى حزم شديد. وفيما يتعلق بالأضرار التى يقول نائبكم العام إنكم تعرضتم لها، فلتعطونى مذكراتكم فى ذاك الصدد، وأنا سآمر بالتحقيق فيها ومعالجتها لاحقًا. وأود أن أنبهكم إلى أن تكون أقوالكم فى جانب الصواب؛ وإلا ستكونون قد أسأتم إلى أنفسكم". وهكذا انصرف الموريسكيون. وقد نصّب السيد خوان دى أوستريا فيما بعد الأب لوبيث دى ميسا López de Mesa -القاضى فى محكمة غرناطة العليا- مستشارًا ماليًا وقانونيًا عامًا، وأحال إليه كل شكاوى الموريسكيين. أما بالنسبة للأملاك المصادرة، والأمور المتعلقة بممتلكات جلالة الملك، فقد رسّم كلاً من الأب رودريغو باثكيث دى أرثى Rodrigo Vázquez de Arce والأب مونتينيغرو سارمينتو Montenegro Sarmiento مستشارين حقوقيين لها.

الفصل السابع

يتناول كيف شرع السيد خوان دى أوستريا فى تفهم مسألة الثورة، والروايات التى قدمها كل من ماركيز مونديخار والرئيس فى المجلس.

مكث السيد خوان دى أوستريا عدة أيام فى غرناطة دون أن يعقد مجلس الشورى، فى انتظار قدوم دوق سيسا؛ حيث كان -وفقًا لما ذكرناه آنفًا- أحد المستشارين الذين كان لابد من وجودهم إلى جواره. وفى تلك الأثناء قام بزيارة البيّازين، وسائر أسوار المدينة من الداخل ومن الخارج. كما نظم نقاط الحراسة، والنوبات والدوريات فى الأماكن الملائمة التى يلزم حراستها؛ وذلك من أجل أمن المدينة وسلامتها، وأيضًا لمنع إلحاق الضرر بالموريسكيين. وقد ساعد فى الأمر برمته كل من ماركيز مونديخار ولويس كيسادا. وصل دوق سيسا فى اليوم الحادى والعشرين من شهر إبريل، وبدأ فى مباشرة أعماله. فى اليوم التالى أُقيم استعراض عام، وذلك للوقوف على عدد المشاة والفرسان الموجودين فى المدينة وبقاع الغوطة، سواء كانوا من الأهالى أو الغرباء. فى أعقاب ذلك اجتمع الرجال للتشاور حول أفضل السبل موائمةً للأوضاع من أجل نهجها. وكان جلالة الملك قد أمر بالاستماع إلى روايات كل من ماركيز مونديخار ورئيس المحكمة قبل القيام بأى شىء، لكونهما أكثر شخصين قادرين على تزويده بالمعلومات حول ذاك الصدد.

كان ماركيز مونديخار أول من تصدى للحديث، فراح يشرح بالتفصيل الدقيق مجريات الحرب بأسرها، والأمور التى قام بها من جانبه حتى تصل الأمور إلى الوضع الراهن، فقلل من شأن التمرد فى ظل انضباط المقاتلين، ورجح جانب القتال كأقصر

الحلول وأكثرها أمنا. وقال إن النظام والخطة اللذين يمكن وضعهما للإسراع فى تحقيق الأمر يتمثلان فى واحد من ثلاثة سبل. السبيل الأول يقضى بالمضى قدمًا فى مسألة الإخضاع، لأن بقاع البشرات لا تزال راغبة فى الأمر وتطالب به. عقب استسلامهم، سيصدر إليه الأمر بحشد الجميع فى موضعى بيرخا وداليـاس؛ وهو ما يمكن تنفيذه فى سهولة بالغة نظرًا لإطاعتهم للأوامر؛ وهو سيتولى إيداعهم هناك. بعد تجميعهم فى تلك الأراضى المستوية، وبسط النفوذ على المناطق الجبلية بواسطة المحاربين، فسيضحى فى الإمكان تنفيذ ما يأمر به جلالة الملك فى يسر، لأن الثوار الجبليين لم يعد أمامهم سوى البحر على الطرف الآخر -كما هو الوضع فى الوقت الحالى. أما السبيل الثانى، فى حال عدم تحقيق الأول للنتائج المرجوة ، فيتمثل فى وضع معاقل من المحاربين فى الأماكن المناسبة -على النسق الذى كان قد فكر فيه- لأن أهل القرى يلحون فى المطالبة بذلك، وهم ملتزمون بالتكفل بنفقات إعاشة الجنود، من أجل حمايتهم من الشرور والأضرار التى يلحقها بهم الرجال الضالون. وما أن توضع تلك المعاقل، سيصبح من الممكن إرسالهم برفقة أحد الحجاب لإلقاء القبض على أكثر الرجال اقترافًا للآثام، ومن يبدو أنهم يستحقون العقاب. أما السبيل الثالث، إذا ما تراءى للجمع أنه يتعين استخدام المزيد من الحزم معهم، فسيكون السماح للماركيز بمعاودة الدخول إلى البشرات مع ألف من الجنود ومائتين من الفرسان. على أن يقوم، بمساعدة هؤلاء ومن كان قد أبقى عليهم فى أورخيبا، بتدمير الغلال وإحراق كافة المؤن الموجودة لديهم -وكان قد امتنع عن القيام بذلك للإفادة منه فيما بعد. وفى حال تزويده هو بما يلزمه، لابد للثوار من القدوم إليه للاستسلام وأيديهم مغلولة".

إلى هنا أنهى ماركيز مونديخار حديثه. فما كان من السيد خوان دى أوستريا، الذى كان ينصت فى اهتمام إلى ما يقوله، إلا أن التفت إلى الرئيس، وقال له أن يخبرهم هو أيضًا بما يعتقد أنه من الضرورى القيام به للانتهاء من تلك القضية على وجه السرعة. وقد عرض الرئيس رأيه على النحو التالى: " على الرغم من أن جلالة الملك قد أمر بأن أقدم العون هنا إلى جانب سيادتكم، فإننى لم أعتقد قط بأننى سأضطر لإبداء رأيى فى شئون الحرب. فأنا لا أتعامل معها ولا أفهم فيها، وهذه أشياء

تبتعد كثيراً عن اختصاصات وظيفتي؛ وخاصةً حينما يوجد هنا من يعي تلك الأمور جيداً، مثل دوق سيسا، وماركيز مونديخار، ولويس كيخادا. لكن بما أنني قد أُمِرت بذلك، فسوف أقول ما أشعر به، وما أظهرته لى التجربة خلال تلك الأيام المنصرمة. هناك أمران أيها السيد الموقر لابد من القيام بهما -فى وجهة نظرى- قبل اللجوء إلى أى طرق لمعالجة الأمور، حتى تحظى تلك الإجرءات بنهاية جيدة. الأمر الأول هو إخراج أولئك الموريسكيين من البيّازين ومن قرى الغوطة والجبل، وإيداعهم مناطق تقع إلى الداخل؛ لأنه طوال وجودهم هنا لن يكفوا عن الوقوف فى صف الثوار، ومساعدتهم عن طريق إمدادهم بالتنبيهات، والأسلحة، والرجال؛ وسيبيت من الصعب محاولة إعاقتهم عن القيام بذلك، لأنه لا يمكننا وضع أبواب للحقول. أما الأمر الآخر، فإنه من أجل تهدئة غضب سيدنا وربنا، من جراء كثرة الآثام وانتهاك المقدسات التى اقترفها الملحدون الخائنون، فإنه من المناسب أن ينالوا عقاباً رادعاً. وسيضحى من الجيد البدء بقرية لاس ألبانيويلاس، التى يوجد بها العديد ممن ألحقوا أضراراً بالغةً بالكنائس، حيث ازدروا وحطموا كل الأشياء المقدسة؛ وقد لجأ ثوار الجبل إلى هناك بحجة قدومهم للاستسلام. وقد قام الأهالى باستضافتهم فى منازلهم تحت ذاك الستار، لكى يتسنى لهم مناصرتهم بصورة أفضل؛ فهم يخرجون معهم لسرقة ونهب المسيحيين فى سائر الإقليم، ونحن لدينا الكثير من الروايات حول ذاك الصدد. هذان الأمران على جانب كبير من الأهمية، وإذا ما تم تنفيذهما، يمكن التوصل إلى قرار -بقدر أكبر من الاتفاق- حول ما يراه سموكم أكثر موائمةً لخدمة الرب وجلالة الملك". بهذا انتهى الاجتماع لذاك اليوم. وقد تم، فى الجلسات الأخرى التى انعقدت لاحقًا، تداول القضية بشكل أكثر توسعا؛ وذلك على النحو الذى سنسوقه فى الفصل التالى.

الفصل الثامن

يتناول الآراء التى تم تداولها فى غرناطة حول إخراج الموريسكيين من هناك، وبعض الإجراءات التى قام بها السيد خوان دى أوستريا.

هذان الرأيان -اللذان لا يقل تضاربهما عن الاختلاف الكائن بين من أدليا بهما[٦]- أبقيا أعضاء المجلس فى حالة من الاضطراب على مدار عدة أيام. وفى الاجتماعات الأخرى، التى عولجت فيها ذات القضية، لم يتوقف ظهور التباين فى وجهات النظر والآراء فى ذاك الصدد. كان دوق سيسا مؤيداً لإخراج الموريسكيين من البيّازين، بينما صعّب كل من رئيس الأساقفة ولويس كيخادا الأمر للغاية؛ حيث بدا لهما أنه سيصير من المستحيل طرد ذلك العدد الضخم من الأفراد من منازلهم دون حدوث قلاقل. كما عارض ماركيز مونديخار ذاك الشأن، وقال كيف يمكن إخلاء مملكة كتلك من أهلها، حيث سيفسد محصول الفواكه فى الأراضى، وذكر أن هذا الإجراء يتماشى للغاية مع تلك الأمة المعتادة على المعيشة بين تلك الجبال، والتى تقتات على النذر اليسير، وهذا لا يصب فى مصلحة المسيحيين. قدم إلى غرناطة فى غضون تلك الأيام الأب بيربيّسكا دى مُونياتونِيس Birviesca de Muñatones -عضو المجلس الملكى، ومجلس شورى جلالة الملك- وذلك أيضًا من أجل تقديم يد العون بالقرب من شخص السيد خوان دى أوستريا. فى بادئ الأمر لم يبد له أن طرد الموريسكيين من الأرض يمثل حلاً جيداً،

---

(٦) يشير كثير من الباحثين -خاصةً كارو باروخا- إلى العداء الشديد بين ماركيز مونديخار ورئيس محكمة غرناطة، فقد كان الأول متعاطفًا مع الموريسكيين كشأن آل مندوثا، بينما كان الثانى متشدداً. (المراجع)

نظرًا لما سيسفر عنه الأمر من معوقات فيما بعد. بيد أن كلاً من الرئيس والأب بوهوركيس Bohorques استمالوه لاحقًا لتبنى وجهة نظرهم، بعد أن قدما العديد من الحجج.

حينما أدرك ماركيز مونديخار أن صوته أضحى وحيدًا، نظرًا لعدم تخليه عن رأيه الأول، بات موقفه متماشيًا مع رغبة الجميع؛ حيث كانت الأضرار التى تسبب بها المسلمون فى تلك الآونة فادحة بالفعل، وكانت صادرة من الأماكن الخاضعة. بيد أن موافقته كانت على نحو حاول فيه إعاقة الأمور وبيان وجود معوقات ضخمة، دونما إبداء معارضة. فقال إنه لا يسعنا سوى الإقرار باقتراف الموريسكيين لجرائم شنيعة، وبخاصة من ثار منهم؛ بيد أن طرد جميع الموجودين بالملكة منها لا يعد إجراءً آمنًا. بل إننى أدرك أنهم يفضلون أن يتم أولاً تقطيعهم إربًا جميعًا، على مغادرة ديارهم واللجوء إلى الأماكن التى يؤمروا بالتجمع فيها. إنه ليس من الجيد أن نغفل معاقبة المذنبين فى حزم، لكن من بين الموريسكيين هناك العديدون ممن لم يرتكبوا الجرائم التى قام بها الآخرون، أو حتى ثاروا على الحكم. كما أن الكثيرين منهم أقدموا على ما فعلوا رغمًا عنهم، حيث أجبرهم الأشرار على ذلك؛ ولمّا كانت الأمور على تلك الشاكلة، فإنه سيضحى من الأفضل اتباع أحد الحلول التى تقدمت بها، وعدم تطبيق تلك الإجراءات شديدة الحزم، أو الحكم عليهم بعقوبات مماثلة. فإذا ما كان المجلس يرى أمرًا آخر، فإن أقصر الطرق للانتهاء من الأمر برمته هو انتهاج آخر السبل التى اقترحتها. حينما أدرك فى نهاية الأمر مدى الوقع السيئ الذى لقيته آراؤه، صاغها كتابةً، وبعث بها إلى جلالة الملك مع ولده الثانى السيد إنييغو دى مندوثا(٧).

دار العديد من المناقشات حول ذلك الأمر، واستغرقت المناقشات مدةً طويلةً، مما أتاح للثوار فرصة إعادة تكوين صفوفهم، كما ذكرنا من قبل. لمّا باتت الشرور تزداد واحدًا تلو الآخر، عقد الجمع عزمهم على أن الطريقة الأكثر موائمةً هى إقصاؤهم بقوة

(٧) لاحظ أن ماركيز مونديخار لا يتخلى عن تعاطفه مع الموريسكيين، رغم انحيازه الظاهرى لآراء المجلس. (المراجع)

السلاح، حتى يذعنوا ويقدموا على فعل ما يؤمرون به. لم يتهاون السيد خوان دى أوستريا فى تلك الآونة، وحكم بما يقتضيه أمن تلك المملكة. وحينما حزم أمره وقرر استكمال مسيرة الحرب، على الرغم من أن تأخير شنها كان أمرًا يؤرقه، أمر بتجهيز كافة الأمور اللازمة للقيام بذلك على وجه السرعة، حيث أصدر أوامر جديدة إلى المدن والنبلاء لكى يقدموا خدماتهم فى تلك الحرب، عن طريق إرسال الرجال، وبذل الأموال من أجل دفع رواتب الجنود ومنعهم من الرحيل. وفى تلك الأثناء قرر إغاثة الحملة بنقود من أملاك جلالة الملك، حيث كان يرغب فى تخفيف الأعباء التى يضطلع بها موريسكيو البيّازين والغوطة. كما قرر من جديد تعيين قادة يتكفلون بتجنيد عسكر من المشاة والفرسان بالأجر. وقسم الرجال إلى ثلاثة أقسام، ووزعهم على ثلاثة من القادة القدماء، حتى يتولوا أمرهم بمعاونة نواب. وهؤلاء القادة هم: أنطونيو مورينو، وإيرناندو دى أرونيا، والسيد فرانثيسكو دى مندوثا Francisco de Mendoza – و كان من أهالى قلعة عبد السلام. وكذلك فقد قام بتجهيز المعاقل، فترك فى بعضها من كان بها من القادة، بينما نصّب قادة جدد فى البعض الآخر. فأوكل منطقة بسطة إلى السيد إنريكى إنريكيث، بينما أمّر السيد دييغو دى بيّا روّيل على مدينة ألمرية، وترأس السيد دييغو راميريث دى آرو قوات شلوبانية. كما أرسل السيد لوبى دى بالينثويلا Lope de Valenzuela –وكان من مواطنى بياسة– إلى المنكب، ليقوم بدور المفوض العام فى البيّازين تحت إشراف ماركيز مونديخار؛ أما مطريل، فقد عهد بها إلى السيد لويس دى بالبِيديا Luis de Valvidia. وقد طلب منهم جميعًا توخى الحذر الشديد، لأنه قد وردت إليــه أنباء حــول وصول سفن من بلاد المغرب إلى ساحل البشرات، محملةً بالرجــال والأسلحة والذخائر، لتدعيم الثوار.

كما أصدر السيد خوان قرارات متعلقة بتعزيز أمن الحصــون والقلاع، وتأمين الطرق، لأن المسلمين استغلوا حلول فصل الصيف –الذى كان ملائمًا للغاية لتطلعاتهم– ، فخرجوا فى جرأة للاستيلاء على الرجال والمواشى، والهجوم على الدوريات المتوجهة للانضمام إلى معسكر ماركيز بلش وإلى أورخيبا. فسلّم القائد ناباس دى بويبلا Navas de Puebla مقاليد الأمور فى حصن قلهرة، وأمّر خوان بيريث

دى بارغاس Juan Pérez de Vargas –وهو من أهالى غرناطة– على حصن فينيانا. كما تقلّد رئاسة حصن غور السيد دييغو دى كاستيّا، سيد ذاك المكان، والذى يقطن به أيضًا؛ وترأس دييغو بونثى –أحد مواطنى إشبيلية– حصن بادول. عهد السيد خوان دى أوستريا برجال الحامة إلى القائد إيرنان كاريّو دى كوينكا، آمرًا إياه أن يقوم ببعض الغارات فى منطقة غواخاراس لتأمين تلك الأراضى. كما أسند قيادة قوات البلدان السبع إلى السيد ألونسو دى ميخيّا Alonso de Mejía أحد وجهاء غرناطة، وأمره بأن يقيم فى حصن اللوز؛ وأن يعمل على تأمين طريق غرناطة ووادى آش، حيث يهبط المسلمون من الجبال للقيام بالعديد من عمليات النهب. أما السيد إيرناندو ألباريث دى بوهوركيس Hernando Álvarez de Bohorques –أحد أهالى بيّا مارتين Villa-Martín– الذى كان قد حضر منذ البداية عندما سرت أنباء وقوع الثورة، واصطحب عشرين فارسًا وبعض المشاة على نفقته الخاصة؛ وقد انتهى الآن من تكوين سرية قوامها مائتان وخمسون جنديًا –فقد أمره السيد خوان بالإقامة فى موضع غيبيخار، على مقربة من جبل كوغويّوس. كما أصدر إليه الأوامر ليجوب أرجاء تلك المنطقة؛ ويشن غارات على الجهة التى يقع بها ذاك الجبل، والتى يخرج منها المسلمون ليلاً لنهب الماشية من الغوطة، وإحداث أضرار أخرى.

فى أعقاب القيام بكل تلك الإجراءات، بالإضافة إلى أمور أخرى سوف نغفل ذكرها، وجه السيد خوان دى أوستريا أمرًا إلى السيد فرانثيسكو دى سوليس Francisco de Solís –وهو من أهالى باداخوث– لكى يشغل منصب المفوض العام والمورد العام، بتكليف من جلالة الملك؛ وأن ينصّب فرانثيسكو دى سالابلانكا Francisco de Salablanca مراجعًا عامًا لحسابات الجيش[8]. على أن يضطلع كلاهما بشراء المؤونة، والأسلحة، والذخائر، وسائر الأمور الأخرى التى تلزم المقاتلين. كما أمر السيد خوان بأن يُنادى بين الناس للمرة الثانية أنه على كل الموريسكيين الذين قدموا إلى البيّازين

(٨) مبلغ علمنا أن المؤلف نفسه كان مراجعًا لحسابات الجيش خلال الحرب. (المراجع)

من القرى الجبلية ومن الغوطة أن يعودوا إلى ديارهم حفاظًا على حياتهم. فى نهاية الأمر، صدرت الأوامر لإقرار شتى الأمور اللازمة لتشكيل جيش يكفى لمواصلة الحرب بكفاءة ومهنية. وحتى يتم منع الثوار من الإفادة من مواشى الموريسكيين المسالمين فى البقاع المتاخمة لغرناطة، قرر أن يتم تجميعها كلها فى الغوطة؛ وقد تولى تلك المهمة السيد أنطونيو دى لونا والسيد لويس دى كوردوبا، كل بمفرده. فاضطلع السيد لويس دى كوردوبا بإجلائها من جبل كوغويّوس، بينما أرسل غونثالو أرغوتى دى مولينا لجمعها من البقاع الجبلية. وقد رافقه ثلاثون رام على صهوة الجياد، قام بإرسالهم على نفقته الخاصة، بعد أن أودع رجاله على متن السفن كما أسلفنا؛ بالإضافة إلى ثلاثين من حملة الرماح. أما السيد أنطونيو دى لونا، فقد تولى تجميع الماشية من المواضع الكائنة ناحية وادى ليكرين. وسوف نستعرض الآن ما دار فى تلك الآونة فى المنطقة التى يشغلها ماركيز بلش.

الفصل التاسع

يتناول كيف أراد ماركيز بلش وضع قواته فى البشرات، وإنشاء معقل حصين فى ميناء رباحة؛ والكيفية التى أعيق بها دخوله، وتغلب المسلمين على الجنود الذين تولوا إقامة المعقل.

فى أعقاب قضاء ماركيز بلش أيامًا عديدةً فى تيركى؛ ورغبةً منه فى القيام بعمل جيد، دون أن يستشير السيد خوان دى أوستريا حول ما ينتويه حتى مغادرته وقواته مقر إقامتهم؛ توجه إلى أندرش، وذلك بعد أن بعث السيد خوان إنريكى فى المقدمة حاملاً تقريرًا حول الحالة التى بلغتها شئون الحرب -كان جلالة الملك قد طالبه بتزويده إياه- ، وبتنبيه حول مغادرته لموضعه. من أجل أن تتمكن الدوريات التى ستحمل إليه المؤن من المرور بأمان من وادى آش، أصدر الماركيز أمرًا إلى السيد بدرو أرياس دى أبيلا -المأمور القضائى لتلك المدينة- لكى ينشئ نقطة حراسة فى أعلى ميناء رباحة يمكنها استيعاب كتيبتى مشاة فيها، وذلك بغرض إقامة معقل يهدف لتأمين ذلك المعبر.

بعد أن علم السيد خوان دى أوستريا بتحرك القوات، والنية التى يسعى ماركيز بلش إلى تحقيقها؛ وعقب استطلاع رأى مجلس المشورة، أرسل إليه كتابًا على وجه السرعة ، أمرًا إياه أن يوقف مسيرته وألا يمضى إلى الأمام بمجرد تسلمه ذلك الكتاب، لأن ذاك الأمر هو ما يتماشى مع صالح جلالة الملك. كما أفهمه إنه إذا ما توغل داخل تلك الرقعة من البشرات، فسوف يتراجع الأعداء باتجاه أورخيبا، ويغيرون على معسكر

السيد خوان دى مندوثا، الذى ينقصه الكثير من الرجال، وقد يتمكنون من إحلال الهزيمة به. لم يكن ذاك هو الداعى لتوخى الحذر، بل كان حجة لحرمانه من القيام بالحملة التى كان يرغب فى شنها وفقًا لأهوائه الشخصية. فى نهاية الأمر أوقف الماركيز مسيرته إبان تسلمه للرسالة، وتخلى عن الطريق الذى كان يسلكه، وتوجه للإقامة فى موضع بيرخا، ليضحى أكثر قربًا من مسعاه. وقد تذرع بتدعيم مدينة ألمرية، والاستفادة بمواقع تلك الطاعة وطاعة داليّاس. كما لم يفلح فى تحقيق مغزاه بإقامة المعقل. وكان بدرو أرياس دى أبيلا قد أرسل القائد غونثالو إيرنانديث، وهو رجل مغوار وُلِدَ وتربى فى وهران، ليضطلع بتلك المهمة برفقة ثلاث من كتائب المشاة: كتيبتى أُبدة -اللتين يترأسهما خورخى دى ريبيرا Jorge de Ribera وأرنالدوس دى أورتيغا Arnaldos de Ortega-، وكتيبة أخرى تابعة لخوان دى بينابيديس Juan de Benavides -أحد مواطنى وادى آش.

فى أعقاب بدء العمل، وإقامة بعض الحوائط المنخفضة على غرار الخنادق، لكى يحتمى بها الرجال، اجتمع فى اليوم الثالث من شهر مايو ثلاثة قادة مسلمين، وهم: الحانون Hanon من غيبيخار، والفوتِيّ من لانتيّرا Lanteyra، والثيرّيا Zerrea من ثوخار Zújar. وأغاروا على النقطة الحصينة عندما كان الجنود منهمكين فى الإسراع فى أعمال البناء، وكان ما لدى الموريسكيين من رجال يفوق جنود معسكرنا بقليل. أشهرت الدوريات أسلحتها وأطلقت التنبيهات إزاء رؤيتها للمسلمين، فقام غونثالو إيرنانديث بدفع مجموعة قوامها مائة وخمسون رام، وأودعها عند حافة الجبل. وبعد أن أصدر أوامره إلى الألوية لكى تصطف على هيئة سرايا خارج النقطة الحصينة، خرج فى صحبة نفر من الجنود لاستطلاع أحوال الأعداء. قسّم المسلمون أنفسهم إلى عدة مجموعات، وإن كان كل منها يحوى عددًا قليلاً من الرجال. فتمركز بعضهم عند الطريق الملكى -الذى كان غونثالو إيرنانديث متوجهًا صوبه-، بينما سلك آخرون سبل رعاة كان لهم دراية بها؛ ثم هجم الجميع فى آن واحد على الجنود المصاحبين للألوية. وباتوا يطلقون

صرخات حرب مدوية، مما حمل الجنود على الاعتقاد بأن أعدادهم تفوق عددهم الحقيقى. أراد خوان دى بينابيديس التحصن داخل الأسوار الهزيلة، مخالفًا بذلك رأى نفر من الجنود القدامى، الذين قالوا إنه لا ينبغى إظهار الضعف أمام الأعداء فى أى وقت من الأوقات. وكان ذاك هو ما حدث، فما أن أدار الجنود وجوههم وتوجهت الرايات صوب النقطة الحصينة، حتى تحرك المسلمون فى سرعة فائقة ودخلوا فى أعقابهم؛ فاضطرب رجالنا للغاية بحيث لم يجد فيه الأعداء من يتصدى لهم.

قتل المسلمون كلاً من خوان دى بينابيديس، والضابط بدروسا Pedrosa –الذى كان يتولى قيادة كتيبة أرنالدوس دى أورتيغا، الذى كان يرقد مريضًا فى وادى آش. وقد لاذ الباقون بالفرار، وهرب الرماة على أثرهم، دون أن يستطيع غونثالو إيرنانديث إيقافهم؛ مما شكّل عارًا كبيرًا على أمتنا. تتبع المسلمون آثارهم، وقتلوا مائة وسبعين جنديًا، وظفروا بلواء خوان دى بينابيديس. أما الرايتان الأخريان، فقد أنقذ فيليثيانو تشاكون Feliciano Chacón راية لخورخى دى ريبيرا، الراية التى يحملها بعد جهود مضنية؛ بينما استخلص عبد أسود مُحرر راية أرنالدوس دى أورتيغا– التى كان يحملها. تمكن غونثالو إيرنانديث من الفرار بأعجوبة، على غرار ما يحدث فى العديد من الأحايين عندما يُبقى الموت على حياة أقل الناس مهابةً له، حيث عبر ما بين الأعداء دون أن يقدر أحد على التعرض له. وصل باقى الرجال أجمعين إلى وادى آش مجردين من الأسلحة، حيث كانوا قد تخلوا عن البنادق والسيوف لتخفيف الحمل، وعلى الرغم من ذلك فقد كانت الثياب[٩] ثقيلة الوزن.

حينما وردت أنباء تلك الفضيحة إلى غرناطة، أراد السيد خوان دى أوستريا أن يضع شخصًا ينوب عنه فى وادى آش؛ حيث تراءى له أن المأمور القضائى يجب أن يُقال بسبب ما قام به، لأنه لم ترده أوامر مسبقة منه. فنصّب القائد فرانثيسكو دى

(٩) موضوع ثياب ذلك العصر يغرى بالدراسة. (المراجع)

مولينا -وهو أحد مواطنى أبدة- رئيسًا للقوات المحاربة فى تلك الأرجـاء. ورغبةً منه فى تلافى حدوث كارثة فى منطقة أورخيبا التى يوجد بها السيد خوان دى مندوثا سارمينتو، أرسل السيد لويس دى كوردوبا على رأس عدد من جنود المشاة والفرسان لتدعيم ذاك المعسكر. انطلق السيد خوان من غرناطة فى يوم الاثنين الموافق الثالث عشر من شهر يونيو، فوصل فى ذات اليوم إلى أورخيبا. وقد مكث بها إلى أن تم تقسيم ذاك المعسكر، على النسق الذى سنتعرض له عندما يحين الحديث عن ذاك الأمر.

الفصل العاشر

يتناول الاستعدادات والاحتياطات التى قام بها ابن أمية فى البشرات فى تلك الآونة، وكيف أشعل الثورة فى لا بيثا.

كانت ترد تنبيهات إلى ابن أمية حول كل ما يدور فى غرناطة، وذلك من خلال موريسكيى البيّازين الذين كانوا يذهبون كل يوم إلى البشرات. فما كان منه -حينما أدرك أن الأمر برمته يتوقف على استعجال وصول الإغاثة من بلاد المغرب- إلا أنه بادر بإرسال الهدايا بسرعة قصوى إلى أصحاب القلاع والفقهاء المقربين إلى الشريف عبد الله el jarife Abdalá، وإلى حاكم الجزائر أولوج على، لنيل رضاهم، ولإقناعهم بما يريد. وعلى الرغم من أن النجدة لم تصله، وأنا لا أعتقد أن مسألة إرسالها قد خطرت ببالهم[١٠]، فإنهم لم يكفوا عن بث الآمال الجيدة فى نفسهم. فى تطوان، زعموا أن بعض المتطوعين المسلمين بين التجار والجنود، وسيعبرون إلى البشرات محملين بالأسلحة والذخائر والبضائع الأخرى الضرورية. أما أولوج على فقد قال إنه لا ينتظر سوى قدوم الأربعين سفينة التى أرسلها إليه سيده السلطان التركى من المشرق، لكى يتوجه لاحقًا لإغاثة الموريسكيين على متن تلك السفن بالإضافة إلى أساطيل الجزائر. قام ابن أمية بإذاعة تلك الأخبار بطريقة تزيد كثيرًا عن حجمها الحقيقى، لكى يتحمس

(١٠) يرى ماركيث بيانويبا أن هناك عوائق كانت تحول دون وصول مساعدات تركية إلى الموريسكيين، وأن السلطات كانت تعلم ذلك، وإن كانت تحدثت عن خطر تركى لأسباب سياسية. انظر "القضية الموريسكية من وجهة نظر أخرى، ترجمة عائشة سويلم، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥. (المراجع)

المسلمون الثائرون عندما يرون أن السلطان التركى يتولى إنقاذهم، ولكى يتبع ذلك نشوب الثورة بين صفوف من لم يقوموا بها إلى الآن، لعدم وجود جيش من المسيحيين فى البشرات قادر على مهاجتهم؛ كما أفهمهم عدة أمور -كانت صائبة بالفعل- وهى: أن أورخيبا لا يوجد بها سوى أعداد قليلة من الجنود؛ وإن ماركيز بلش لا يعتمد سوى على رأيه ومكانته الشخصية، بعد أن تم تفكيك معسكره، وهروب القدر الأكبر من جنوده الذين كانوا فى حوزته فى تيركى.

فى نهاية الأمر، شرع أهالى البشرات فى إعمار مساكنهم، و فلاحة الحقول عامدين؛ كما باتوا يخرجون فى دوريات حراسة لتمشيط الأراضى، وهو ما كانت قد جرت عليه العادة لدى أسلافهم قبيل فتح تلك المملكة. وبلغ الأمر أنهم أنشأوا سوقًا فى مدينة أوخيخار دى الباثيتى، أمسوا يبيعون فيه الأسلحة، والذخائر، والمؤن، وبضائع أخرى بوفرة كبيرة تضاهى ما يجرى فى مدينة تطوان. حينما أبصر ابن أمية القدر الوفير من الأناس الذين صاروا يفدون إليه من كل صوب وحدب، اعتد بنفسه وغره تلقيبه بملك البشرات؛ وكان لقبًا ذا وقع كريه للغاية على أسماع الرعايا المخلصين لجلالة الملك. فأراد أن يعمد إلى إقامة دولة جديدة، وتعيين القادة ومسئولى الحرب والقائمين على شئون العدالة، حيث نصّب خيرونيمو المالح -حاجب فيريّرة- حاكمًا على سند وادى آش، ونهر المنصورة، وحدود وادى آش وبسطة. أما دييغو لوبيث بن عبو -الذى كان قد برأ من مرضه- فولاه على مناطق بوكيّرة وفيريّرة، كما عيّن ميغيل دى غرانادا شابا حاكمًا على حدود أورخيبا. وقد منح ابن مكنون حكم خيرغال، وبلدتى لوتشار ومارتشينا، وجبال فيلابرِس وغادور، إلى جانب نهر ألمرية. وعيّن الخيرونثيّو والرانداتى على كل من وادى ليكرين، وحدود المنكب وشلوبانية ومطريل، وغيرها من البقاع؛ كما رسّم قادة غيرهم على بقاع أخرى. وقد منحهم ابن أمية شهادات ممهورة باسمه حتى يطيعهم المسلمون، وأمرهم أن يعملوا على نشوب الثورة فى شتى الأرجاء على وجه السرعة. أما من يمتنع عن الامتثال لهم، فعليهم قتله ومصادرة ممتلكاته لصالح مجلسه؛ كما يتعين عليهم حصد خمس الغنائم التى يظفرون بها لتغطية نفقات الحرب.

وعيّن ابن أمية فى عضوية مجلسه كلاً من: السيد إيرناندو الصغير، والدالاى، ومُشَرّف كالديرون Moxarraf Calderón -أحد مواطنى أوخيخار-، وإيرناندو الحبقى Hernando el Habaquí -الذى كان قد توجه خلال تلك الأيام إلى الجبل، لأنه كان قد تم اعتقاله فى وادى آش على خلفية الاشتباه فى قيامه بالثورة؛ أو -كما أخبرنا هو لاحقًا- كان السبب هو توجهه إلى البلاط لمعارضة تنفيذ المرسوم. فى أعقاب إطلاق المأمور القضائى لتلك المدينة سراحه بكفالة، تنامى إلى علمه أنه قد صدر قرار بالقبض عليه من جديد. قام أولئك الرجال كلهم، والكثيرون غيرهم ممن رافقوا ابن أمية، بالدعوة إلى قيام المملكة التى وصفوها بالجديدة والقائمة بفضل الله. لم يتخلف عن ذاك الحشد سوى ابن فرج، الذى كان متهربًا من ابن أمية، خشية أن يأمر ذاك الأخير بشنقه. وهو ما كان ليحدث بالفعل فى حال تمكن ابن أمية من وضع يديه عليه، لأنه أشاع الاضطرابات بين الناس مرات عديدة، وأتى بالكثير من التصرفات التعسفية المخالفة للعرف، رغبةً منه فى أن يضحى مطاعًا بوصفه حاكمًا على المسلمين. وسوف نقص عليكم فيما بعد ما آل إليه حال ذاك الخائن، لكى لا نهمل شيئًا يتعلق بالتاريخ.

آنذاك حشد ابن أمية ما يربو على خمسة آلاف رجل، وتوجه بهم لنشر الثورة فى موضع لا بيثا؛ فاقتاد سائر المقيمين بها إلى البشرات، وقد قُيّدَت أيدى غالبيتهم قسرًا، لعدم رغبتهم فى القيام بالثورة. بيد أنه لم ينتظر من أجل الهجوم على الحصن، كما أن قائد الحصن لم يخرج منه إلا فى أعقاب تراجع العدو. عندئذ أنهى جمع ما تبقى فى المنازل، وتزود بالكثير من المؤن التى لم يقدر الموريسكيون على حملها، ثم أودعها فى الحصن.

الفصل الحادى عشر

يتناول كيف توجه المالح لإشاعة الثورة فى بلدة فينيانا، وكيف أغاث فرانثيسكو دى مولينا الحصن برجال وادى آش.

فى تلك الأثناء، قام خيرونيمو المالح بالإغارة على بلدة فينيانا. حيث فكر فى احتلال ذاك الحصن، لأنه المعبر الذى تمر به دوريات الحراسة التى تذهب بالمؤونة إلى معسكر ماركيز بلش. فاصطحب معه موريسكيى سند وادى آش، بالإضافة إلى الكثيرين غيرهم من البشرات، وبلغها فى الساعة التى طلع فيها النهار على البلدة. حيث قام بتجميع كافة الأهالى -رجالاً ونساء- محملين بأمتعتهم وتتقدمهم ماشيتهم، وأرسلهم إلى البشرات. لم يتمكن من احتلال الحصن، أو إلحاق الضرر بالمسيحيين. لأنهم لمّا لم يأمنوا على أنفسهم بين جيرانهم، احتشدوا داخل الحصن، وأصبحوا يدافعون عنه؛ فقتلوا وجرحوا بعض المسلمين. كانت إحدى مجموعات الجنود موجودة بالكنيسة -الكائنة بالجوار- لحراسة المؤن التى تفرغها الدوريات المتوجهة صوب وادى آش، ريثما يأتى المقاتلون الذين سيرافقونها ويمضون بها إلى الأمام. إزاء تفوق المسلمين من حيث إمكانية الهجوم عليها، هدموا أحد الحوائط، التى تتيح لهم الدخول إلى الجنود من خلالها على الأقدام فى يسر. ههنا بات من الضرورى أن يهجر رجالنا الكنيسة، ويلجأوا إلى باب مرتفع يفضى إلى الحصن. فما كان من الأعداء -الذين لم يتمكنوا من التغلب عليها- إلا أن أضرموا النيران فى المعبد، ورجعوا إلى الجبال.

كان فرانثيسكو دى مولينا قد تلقى تحذيراً فى وادى آش فى ذاك اليوم نفسه، حول نية المالح فى الإغارة على تلك البلدة. فخرج لإغاثتها يرافقه ثمانمائة رام ولوائين من الفرسان، وظل يقطع الطريق طوال الليل، حتى وصل فى اليوم التالى بعد طلوع النهار. حينما ألفى المسلمين قد غادروا المحل، لم يرغب فى ملاحقتهم، لأنه ظن أنهم يتفوقون عليه بفارق كبير؛ فترك بعض المقاتلين فى الحصن، وتوجه إلى مدينة وادى آش. فى أعقاب ذلك، قام السيد خوان دى أوستريا بإرسال السيد خوان بيريث دى بارغاس لتأمين المدينة -كما ذكرنا آنفًا- على رأس كتيبة من المشاة وعدد من الفرسان. فتولى ذاك الأخير حمايتها على مدار الحرب، كما أنه غادرها فى بعض الأحيان ليشن غارات ناجحة فى ذلك الإقليم.

الفصل الثانى عشر

يتناول اندلاع الثورة فى مواضع غيخار، ودودار، وكينتار؛ وإصدار السيد خوان دى أوستريا أوامر لترحيل أهالى بينوس ومونانشيل إلى غوطة غرناطة.

تقع قرية غيخار على مسافة ثلاثة فراسخ إلى الشرق من مدينة غرناطة. ويبدأ نهر شنيل مسيرته فى المنطقة الكائنة بينها وبين جبل شلير. والقرية مقسمة إلى ثلاثة أحياء، يوجد بأوسطها جبل بُنيت به إحدى القلاع فى قديم الزمن. كما تحيط به الجبال العالية من كل الاتجاهات، فأضحى المحل بالهوة الموجودة بالمنتصف. هناك طريقان شديدا الانحدار والوعورة لبلوغ غيخار من غرناطة: أحدهما يمتد صعودا على الجهة اليمنى مرورًا ببلدة بينوس، وهو أقصرهما وأكثرهما وعورة؛ أما الآخر، فيعبر نهر المياه البيضاء على الجهة اليسرى، ويخترق بلدتى دودار وكينتار، ليصعد أعلى الجبل على هيئة متعرجة فى الناحية الشمالية. كانت تلك الأماكن، وباقى المواضع القريبة منها، والكائنة بين الوهاد الجبلية، ترقب الأوضاع وتنتظر ما سيقدم عليه موريسكيو البيّازين لتحذو حذوهم.

هجر بعض الأهالى منازلهم، وتوجهوا للانضمام إلى الثوار فى بداية نشوب الثورة، نظرًا لصدور أحكام ضدهم. فى تلك الأرجاء تم صناعة السلالم اللازمة لتسلق أسوار حصن الحمراء -كما أشرنا آنفًا(*)-، كما أن غالبية الرجال الذين جاهروا

(*) انظر الكتاب الرابع، الفصل الأول. (المترجمة)

بعقيدة محمد فى البيّازين كانوا ينتمون إلى تلك البقاع. وكان أولئك هم من تولوا إقناع ابن أمية بالذهاب لنشر الثورة فى تلك المواضع، فما كان منه سوى إرسال بدرو دى مندوثا الحسينى[11] Pedro de Mendoza el Husceni فى تلك الآونة على رأس عدد غفير من الرجال ليشيع بها التمرد.

حينما تنامت تلك الوقائع إلى علم السيد خوان دى أوستريا فى غرناطة، اتخذ إجرائين: كان أولهما هو تولى السيد أنطونيو دى لونا، ومن يرافقه من الرجال، إجلاء الموريسكيين من موناتشيل وبينوس وغيرها من البقاع المجاورة؛ وذلك للحيلولة دون اقتياد المسلمين لهم إلى الجبل -وفقًا لأقوالهم- واصطحابهم إلى ثوبيا Zubia وأوخيخار -وهما موضعان بالغوطة- حيث تراءى له إنهم سيبيتون أكثر أمنًا هناك. أما الأمر الآخر فكان استطلاع جبل غيخار، ليرى إذا ما كان بمقدورنا إقامة نقطة منيعة، وإنشاء معقل به؛ لأن المسلمين كانوا يهبطون من تلك الناحية، ويواصلون مسيرتهم إلى أن يبلغوا موضع ثينيس -الواقع على مسافة فرسخ من غرناطة-، ويحدثون أضرارًا بالغة. ود السيد أنطونيو دى لونا الذهاب لتولى تلك المهمة بذاته؛ وأثناء استكشافه للأماكن، مر باتجاه غيخار فى صحبة الفرسان وثلث قوات المشاة، بيد أنه لم يتدبر أمر الحصن أنذاك. حيث رأى كل من لويس كيخادا والقائد إيرناندو دى أورونيا إنه لا يمكن مد يد العون أو إغاثته دون تكبد مشقة كبيرة، نظرًا لوعورة الطريق. وإن مغبة القيام بذاك الأمر، والمعوقات التى ستواجههم تفوق النفع الذى سيعود عليهم؛ وهكذا رجعوا فى ذات اليوم إلى غرناطة.

قام السيد أنطونيو دى لونا بحشد أهالى هذين الموضعين فى الكنائس، وقد لقى شغبًا وفوضى ليست بالقليلة من قبل القادة والجنود أثناء اضطلاعه بذاك الأمر. لأنهم حملوا الموريسكيين والموريسكيات على إيداع ممتلكاتهم المنقولة فى منزلين كبيرين،

---

(١١) من الشائع بين الموريسكيين اختلاط الأسماء العربية بالإسبانية، أحيانًا يكون الاسم إسبانيًا واللقب العائلى عربيا، وأحيانًا يكون العكس. (المراجع)

بحجة أنها ستصير آمنة بصورة أفضل على ذاك النحو إبان مغادرتهم للمكان. فيما بعد، اصطحبوهم إلى الغوطة، دون أن يسمحوا لهم بأخذها معهم. أثناء قيامهم بتقسيم الفيء فيما بينهم، قام الكثيرون منهم بإخفاء الفتيات والغلمان، واتخذوهم عبيداً وإماءً لهم. فقد كان الجشع داءً مستفحلاً لدى رجالنا في ذاك العصر، فكانوا كلما وقعت أعينهم على شيء -سواء كان لأصدقاء أم أعداء- يرغبون في الاستيلاء عليه بأسره. وكان يحزنهم أن الثورة لم تندلع في بقاع المملكة بأسرها، ليضحى لديهم ما يسرقون ومن يأسرون[١٢]. في أعقاب مغادرة رجالنا لغيخار، هبط المسلمون الذين كانوا قد رحلوا إلى جبل شلير ليسكنوا منازلهم. كما أمر ابن أمية بدرو دي مندوثا أن يقتحم البلدة، ويتولى تحصينها وتأمينها؛ وهو ما قام به، إلى أن أغار عليه السيد خوان دي أوستريا، وألحق به الهزيمة كما سنروي في موضع لاحق.

(١٢) لا يستطيع مارمول أن يتغافل عن سلبيات الجنود المسيحيين في أثناء الحرب ضد الموريسكيين. (المراجع)

الفصل الثالث عشر

يتناول استيلاء المسلمين على إحدى الدوريات التى كانت متوجهة من غرناطة إلى وادى آش، وكيفية خروج فرانثيسكو دى مولينا للإغارة عليهم، وهزيمته لهم، واستردادها منهم.

فى نفس ذاك الوقت، خرج من البشرات مائتا مسلم، وهبطوا الجبل المشرف على نهر المياه البيضاء، ثم توجهوا ليعبروا أعلى بلدة لا بيثا، وعبر بقعة فى الجبل ما بين حصن اللوز ووادى آش -وتدعى البونتال el Puntal- وصلوا إلى نزل تيخادا Tejada. وهناك أعدوا كميناً عند بعض الوهاد الموجودة على مقربة من المكان، فى انتظار عبور أى دورية تابعة للمسيحيين؛ حيث كان ذاك المحل على الطريق الملكى الذى يتجه من وادى أورتونا إلى وادى آش. تصادف مرور فيليثيانو تشاكون برفقة سرية من الجنود، ومعهم أربعين صندوقًا محملاً بالمؤن، بالإضافة إلى امرأة متزوجة حديثًا ومعها كل جهاز العرس. فأغار الموريسكيون عليهم، وقتلوا ثمانية جنود، بينما فر الباقون؛ ثم استولوا على ما كان بحوزتهم من متاع، وعادوا أدراجهم إلى الجبل.

ورد تنبيه حول ذاك الأمر إلى وادى آش. فامتطى فرانثيسكو دى مولينا جواده، وخرج مع نفر من المواطنين الذين انضموا إليه للبحث عن المسلمين، تاركًا أوامر لسلاحى الفرسان والمشاة لكى يلحقا به. ومضى يتتبع آثارهم فى الدرب الذى سلكوه، حتى وصل إليهم على مقربة من لا بيثا، عندما كانوا يتهيأون لارتقاء الجبل. على الرغم من عدم وجود أكثر من ثلاثة عشر فارسًا مع السيد فرانثيسكو - حيث لم يتسن للباقين اللحاق به- تراءى له أنه قد يستطيع تعطيلهم بمن معه من الرجال، ريثما تصل

القوات دفعة واحدة. فأطلق العنان لفرسه، وشرع ينادى اسمى سانتياغو والقديسة باربرا المباركين -وكانا شفيعيه-، ثم بادر بالهجوم عليهم فى حماس. لكن كان لابد له من استشعار خيبة الأمل، حيث إنه كان يظن أن رفاقه سيتبعوه؛ وحينما أدار رأسه رأى أنه لا يوجد إلى جواره سوى ثلاثة أفراد: عالم اللاهوت فونسيكا، وإيرنان بايّى دى بالاثيوس ، وخوان ديل كاستيّو Juan del Castillo -وكلهم من مواطنى وادى آش. فقاتلوا كما يفعل الرجال الشرفاء، وجُرِحَ ثلاثتهم، وقتل المسلمون اثنين من خيولهم. وكادوا يقتلونهم هم لولا فرانثيسكو دى مولينا - الذى تسلح بشتى الأسلحة، وخاض فى وسط كتيبة المسلمين مرتين-، حيث رجع إليهم وأنقذهم. وباتوا يساعدون بعضهم بعضاً فى شجاعة بالغة، فأعاقوا الأعداء، وطعنوا بعضهم بالرماح؛ كما أخروهم إلى أن انضم إليهم الفرسان المتأخرون، والرجال الذين لم يرغبوا فى المشاركة فى الهجوم. فشنوا عليهم هجمات عديدة، ونجحوا فى اختراق كتيبة المسلمين، وألحقوا بهم الهزيمة، ودفعوهم إلى الهرب. مات فى ذاك اليوم ستة وعشرون من المسلمين، وجُرِحَ الكثيرون؛ كما فقدوا أحد الألوية، والمتاع الذى كان بحوزتهم ويضم الغنائم كلها. بينما لم يكن هناك موتى بين صفوف المسيحيين. فى ذاك المساء، عاد الرجال إلى مدينة وادى آش فى أعقاب تحقيق ذاك الانتصار، وتم استقبالهم فى سرور.

الفصل الرابع عشر

يتناول كيفية تعرض قائد عام قوات قشتالة لعاصفة، أثناء مجيئه من إيطاليا على رأس أربع وعشرين سفينة محملة بجنود المشاة، ورسوه فى ميناء بالاموس.

فى أثناء وقوع تلك الأحداث فى مملكة غرناطة، كان قائد قوات قشتالة قد قام -امتثالاً لأمر جلالة الملك- بتحميل جنود المشاة الإسبان، الموجودين بوحدات الجيش فى نابولى، على متن السفن بسرعة كبيرة. وشرع فى الإبحار غربًا برفقة أربع وعشرين سفينة، حتى وصل ميناء مدينة مارسيليا، التى تقع على سواحل فرنسا. رغم اعتدال الطقس هناك فإنه مع حلول الليل، بدأت قوة رياح ناربونا تشتد، وهبت عاصفة بحرية شديدة، مصحوبة برياح عاتية، جعلت السفن تبحر منفردة، كل منها وفقًا لتعليمات قائدها.

ارتطمت سفينة استيفانو دى مار Estéfano de Mar -وهو من أهالى جنوة- فى منتصف الخليج بسفينة أخرى من أحد الجوانب؛ فتم انقاذ السفينة التى تلقت الصدمة؛ بينما انفلقت تلك الأخرى، وهوت إلى الأعماق. وقد فُقِدَ سائر الرجال الذين كانوا على متن تلك السفينة، وثلاث سفن أخرى انقلبت على أعقابها. وصلت سفن أخرى إلى ميناء سردينيا، الذى بلغه السيد ألبارو باثان Álvaro Bazán ماركيز سانتا كروث فى أعقاب انقضاء العاصفة. وقد صحبته السفن التى تأتمر بأمره فى نابولى، والتى كان قد أبقى عليها لتأمين ساحل إيطاليا. فما كان منه إلا أن قام بإصلاح خمس سفن كانت قد تحطمت من جراء العاصفة على وجه السرعة، وحمل على متنها، ومتن السفن التابعة له،

أكثر عدد من الجنود تسنى له؛ وأبحر عائدًا إلى بالاموس Palamós. هناك ألفى القائد العام على متن بارجته التى تقود الأسطول، وتسع سفن أخرى كانت قد تبعته وسلكت مسلكه.

استمرت تلك العاصفة على مدار ثلاثة أيام دونما توقف. وبات من الضرورى التخفيف من الحمولة، حتى أن الجنود أمسوا يقذفون بالأسلحة والثياب إلى البحر. وقد وصلت بارجة قائد الأسطول إلى بالاموس مهشمة للغاية، حتى أن الأتراك والمسلمين المحكوم عليهم بالتجديف تجرأوا وأرادوا الانقلاب عليها. بيد أن رجالنا شعروا بهم، وأمر القائد العام بتنفيذ الإعدام فى أشد المذنبين. ثم زود الجنود بما يحتاجون إليه، وانطلق ليعود باتجاه الغرب بأسرع وأفضل كيفية. أما ماركيز سانتا كروث، فقد ترك لديه جنود المشاة فى وحدات الجيش الإسبانى، الذين جلبهم على متن السفن التابعة له؛ وعاد أدراجه إلى الشرق. أحضر القائد العام فى تلك السفن اثنتى عشرة كتيبة من الجنود القدامى: عشرة منها من وحدات الجيش الإسبانى فى نابولى[١٣]، وواحدة من القوات التابعة لبيامونتى Piamonte، وأخرى من تلك التابعة للومبارديا Lombardía.

كان قادة وحدات الجيش الإسبانى القادمة من نابولى هم: السيد بدرو دى باديّا Pedro de Padilla، والسيد ألونسو دى لوثون Alonso de Luzón، وبدرو بيرموديث دى سانتيس Pedro Bermídez de Santis، وروى فرانكو دى بويترون Ruy Franco de Buitrón، وبدرو راميريث دى أريّانا Pedro Ramírez de Arellano، وأنطونيو خواريث Antonio Juírez، والقائد مارتينيث Martínez، وألونسو بيلتران دى لا بينيا Alonso Beltrán de la Peña، وماركيز اسبيخو Espejo، والقائد أوريخون Orejón. وصل سبعة من أولئك القادة العشرة إلى إسبانيا، لأن آخر اثنين مكثا فى نابولى، وأرسلا نيابةً عنهما معاونيهما. أما القائد مارتينيث فقد غرق فى البحر،

---

(١٣) إحضار وحدات من الجيش الإسبانى الموجود فى إيطاليا لمواجهة الموريسكيين يعنى أن ثورة الموريسكيين كانت تمثل خطرًا حقيقيًا. (المراجع)

وتولى كارلوس دى أنتيّــون Carlos de Antillón رئاسة كتيبتــه، وكان يتـولى قيادة بعض وحدات الجيش الإسبـانى. ترأس القــائد مــارتين دى أبيـلا Martín de Ávila كتيبة القــوات التــابعة لبيامونتى، أما تـلك التابعة للومبارديًا فقـد قادها السيد لويس غايتان Luis Gaitán.

حضر بالإضافة إلى أولئك الرجال العديد من الفرسان والجنود المتطوعين، الذين قدموا على نفقتهم الخاصة لمجرد المشاركة فى تلك الحملة. وقد وصل هؤلاء إلى البر فى حالة شديدة من العرى والتجرد من السلاح، حتى إنه كان من الضرورى للغاية شىء من الوقت والهمـة من أجل إصــلاح هيئـتـهم؛ وإعـادة تزويد الكتـائب بالرجـال، والأسلحة، والملابس. حينما تم تنبيه ماركيز بلش إلى مجىء أولئك الرجال، والهيئـة التى قدموا عليها، كان لديه الوقت لإرسال كتاب إلى صاحب الجلالة، يتضرع إليه فيه أن يأمـر بمنحـه إياهم؛ كـمـا تطوع أن يأخذ على عاتقـه وضع نـهاية لمسـألة الثورة بمساعدة أولئك الرجال، إلى جـانب من فى حوزتـه من الجنود فى بيـرخـا. فـبعث إليه جلالة الملك برسالة تحوى أمرًا، مفاده أن يدع القائد العام تلك القوات بأكملها على البـر، بمجرد رسوه فى بلدة أدرا، لكى يضـمـها مـاركيز بلش إلى قواته. بيد أن ذاك القرار لم يدخل حيز التنفيذ، لأن القائد العام وصل إلى شاطئ أدرا فى أول أيام شـهر مـايو، ولم يمكث بهـا سـوى سـاعـة واحدة؛ ثم عـاد أدراجه باتجـاه المنكب وبلش، حـيث اضطلع بمهمة جبل فريخيليانا المنيـع، وذلك على النحو الذى سنسرده حينما نتعرض لتلك الحـادثة. فلندعه يبـحـر الآن، ولنتابع التحـركات التى كانت تجــرى فى تلك الأيام فى جبل منتميس.

الفصل الخامس عشر

يتناول وصفًا لجبل منتميس، وكيفية شروع الموريسكيين التابعين لكانييس دى أثيتونو فى إشاعة الثورة فى الأراضى، ومحاصرة الحصن.

يقع جبل منتميس عند أطراف مدينة بلش، وهو -كما ذكرنا آنفًا- يُعَد بمثابة فرع ينفصل عن الجبل الأكبر إلى الأسفل من موانئ صالحة، ليمضى فى مسيرته صوب البحر الأبيض المتوسط. ويبلغ طوله، منذ بدايته وحتى وصوله إلى البحر، ثمانية فراسخ؛ أما عرضه فستة فراسخ -تزيد أو تنقص بعض الشىء فى بعض الأجزاء. تتسم تلك الأراضى كلها بالوعورة الشديدة، على الرغم من خصوبتها؛ كما تكثر بها الغيلات. وبها وفرة من عيون المياه الباردة والمفيدة للصحة، ينبع منها العديد من الجداول ذات المياه الصافية، التى تنساب لتشكل مسارها ما بين صخور وأحجار تلك الأودية. فيقوم قاطنو تلك الأراضى باستخراج المياه عن طريق إقامة السواقى على سفوح الجبال، ليرووا حقولهم ومزارعهم ورعاية الأغنام مزدهرة فى تلك الجبال، نظراً لتمتعها بمراع جميلة صيفًا وشتاء مع حلول الثلوج والصقيع، ترتع الماشية على الأطراف الأخرى من مدينة بلش وهى ذات مساحة شاسعة، وطقسها شديد الاعتدال. حيث يحدها من الناحية الغربية شرق مالقة، ومن المشرق أراضى المنكب. إلى الشمال توجد حدود مدينة الحامة وبادية أرشيذونة، وإلى الجنوب البحر الأبيض المتوسط المواجه للسواحل الأيبيرية.

تنتشر الكرمات فى سائر أرجاء الجبل، فيصنع المواطنون من العنب الزبيب لمجفف والنبيذ، -الذى يد[illegible]نا لتجار الشمال، ممن يفدون إلى برج ساحل بلش فى كل

عام لتعبئة سفنهم. حيث يحملونه إلى بريطانيا، وإنجلترا، وفلانديس؛ ومنها يعبرون به إلى ألمانيا والنرويج، وبقاع أخرى. بالإضافة إلى ذلك، فإن محاصيل الحنطة واللوز تعود عليهم بالكثير من الأموال؛ كما إنهم يحصدون قدرًا وافرًا من القمح يكفى لإعاشتهم. أما صناعة الحرير، فهى متوافرة بكميات كبيرة وعلى درجة عالية من الجودة، حتى إنها تضاهى أجود ما يفد إلى جمرك الحرير(*) فى غرناطة. تعلو المنطقة سماء شديدة الصفاء، وهواءها عليل، يبعث جوًا من البهجة الشديدة، يجعل من يولدون بها سريعى الحركة، وأشداء، وذوى همة عالية. حتى أن الملوك المسلمين كانوا يعدونهم قديمًا أشجع الرجال، وأكثرهم نشاطًا، وأشدهم تأثيرًا فى مملكة غرناطة؛ وكانوا يعتمدون عليهم فى كافة المناسبات المهمة.

تضم تلك المنطقة اثنتين وعشرين قرية آهلة بالسكان الأثرياء. وأسماء تلك الأماكن -بدءًا من الجهة المقابلة للبحر- هى كالتالى: توروّكس Torrox، ولاوتين Lautin، وبيريانا، والغارّوبو Algarrobo، وسهيلة Cuheila، وأريناس Arenas، ومنتميس، ودايمالوس Daimalos، ونيرخا Nerja، وكومبيتا Competa، وفريخيليانا، وسايالونغا Sayalonga، وسالاريس، وكورومبيلا Curumbila، وباتارخيكس Batarjix، وأرتشيس Arches، وكانييس دى البيد Canilles de Albaide، وبن إسكالار Benesscaler، وسِيديّا Sedella، وروبيتى، وكانييس دى أثّيتونو Canilles de Aceituno، وألكاوثين Alcaucín.

توجد قلعة مهمة فى كانييس دى أثّيتونو. وكان ماركيز قمارش -الذى تتبعه تلك القلعة- قد رأس عليها رجلاً يدعى غونثالو دى كاركامو Gonzalo de Cárcamo. وهو شخص حكيم، وعلى قدر كبير من الثقة؛ كما إنه من النبلاء، حيث ينحدر من

(*) سوق عام أو محل لتحصيل الجمارك، كان يرتاده المزارعون قديمًا فى شتى أنحاء مملكة غرناطة، لدفع الضرائب التى يقررها الملوك المسلمون على إنتاجهم من الحرير. Real Academia Española, Diccionario de la lengua Española, vigésima primera edición, tomo I, pag. 86. (المترجمة)

آل كاركامو فى قرطبة. حينما تم تنبيهه إلى اندلاع الثورة فى البشرات، ولما كان الحصن فى حالة سيئة ويحتاج إلى إصلاحات -حيث كانت أسواره مملوءة بالثغرات فى العديد من الأماكن-؛ كتب إلى ماركيز قمارش فى ذاك الصدد. وريثما يصله الرجال والأوامر للقيام بترميمه، أودع بداخله المسيحيين المقيمين بالبلدة ونساءهم وبنيهم. بعث إليه الماركيز بستين جندياً، وكمية من الذخائر؛ كما أصدر إليه أوامر بأن يحمل الموريسكيين على إصلاح الأسوار. وهو ما قاموا به: حيث أمدوا السيد غونثالو بالعمال، والبعير لجلب المواد، على نسق مكّنه من صيانته خلال فترة وجيزة. ولم تقابله أى عوائق على الإطلاق، لأنه كان بين هؤلاء الرجال الجبليين الكثير من الأشخاص ذوى العقل الراجح، الذين أضمروا مخططهم، وأظهروا خضوعهم لتنفيذ المرسوم؛ على الرغم من أن مسألة اللغة كانت متعبة للغاية بالنسبة إليهم.

بينما الأهالى يظهرون المسالمة والهدوء، قدم -ربما لإثارة الاضطرابات بينهم- أحد المسلمين الذين استطاعوا الفرار من غواخاراس، وكان يدعى المؤذن Almueden؛ وكانت امرأته أسيرة لدى رجل مسيحى من أهالى كانييس دى أثّيتونو. رغبةً منه فى رؤيتها والسعى لانقاذها، استطاع التوجه مع جماعة من المسلمين -بفضل تدخل نفر من أصدقائه- إلى طاحونة تقع على مقربة من المكان، على طريق سِيدياً، كانت مخفية عن الأنظار عند المنطقة الجبلية. توجه لرؤيته أهالى تلك البقاع: بعضهم كان من معارفه، والبعض الآخر كان يود معرفة ما يجرى فى البشرات. عندما رآهم المسلم متعلقين بالأخبار -عندما حان أوان مناقشة شئون الثورة- أقنعهم بدرجة كبيرة من أجل القيام بها. وعرض عليهم أن يرتب الأمر مع ابن أمية لكى يرسل لهم قوات إغاثة، أو أن يُحضره هو بنفسه إذا ما دعت الحاجة لذلك. وأخذ يقص عليهم روايات مختلقة حول وقائع ناجحة؛ ومصارع ضخمة بين صفوف المسيحيين، بلغت مبلغ من قتل من المسلمين فى بالور وغيرها من الأماكن؛ وعمليات إنقاذ كبرى قادمة من بلاد المغرب. فأثار حمية أولئك الرجال، وهيجهم إلى درجة لم يعودوا يطيقون معها الانتظار إلى أن تحين ساعة الانضمام إلى صفوف الثوار.

كان هناك موريسكي واحد يشغل منصب نائب في مجلس بلدية كانييس دي أثّيتونو، يدعى لويس مينديث Luis Méndez، كان قد نصحهم -ما بين الخوف والرجاء- ألا يقدموا على الثورة تحت أي ظرف من الظروف طالما بقت البيّازين قائمة على حالها، لأن ذلك يعنى فناءهم. لكن على الرغم من موافقتهم إياه في الرأى، لم يكف الصبيان عن إثارة القلاقل. كان برفقة المؤذن أحد الثوار الجبليين من أهالى سِيديّا، يدعى أندريس الخُريران Andrés el Xorairan. وقد رغب كلاهما في القيام بعملية سطو قبل مغادرة المحل، فباتا يسألان عن موضع يؤمانه لتنفيذ مقصدهما والعودة سالمين. فأخبرهم أهالى كانييس أن هناك صاحب خان موسر ويمتلك أموالاً كثيرة في نزل بدرو ميادو Pedro Mellado، الكائن أسفل ميناء صالحة. ولكن من الضرورى أن يذهب إلى هناك عدد كبير من الرجال، لأن إحدى كتائب الجنود التابعة لبلش تتجول في تلك المنطقة، ومن المحتمل أن يصطدموا بها. ثم عرضوا عليهما أن يقوموا بمرافقتهما هم وبعض أهالى سِيديّا ومواضع أخرى مجاورة، بعد أن اتفقوا أنه لن يدخل النزل سوى الغرباء فحسب، فاحتشد ما يربو على ستين رجلاً مسلحين بالأقواس الفولاذية والبنادق.

في يوم السبت الموافق الثالث والعشرين من شهر إبريل عام ١٥٦٩، توجه الجمع لنصب كمين عند بعض الروابى التى لا تبعد كثيراً عن النزل. عقب حلول مساء يوم الأحد التالى، تراءى للرجل أن الفرصة باتت سانحة لتنفيذ الهجوم. فخلّف وراءه أهالى المناطق الجبلية لمراقبة الأوضاع، وهبط الخُريران مع عشرين من الثوار الجبليين الغرباء للإغارة على الخان. فألفى الأبواب مفتوحة، وبدرو رويث غيرّيرو Pedro Ruiz Guerrero -كان ذاك هو اسم صاحب الخان- وجندى آخر يدعى دومينغو لوثيرو Domingo Lucero، جالسين على إحدى المصاطب وكل واحد منهما حاملاً بندقية في يده. فظنوا أن الكتيبة بأسرها موجودة داخل النزل، فداروا على أعقابهم لمغادرة الخان، مما أعطى الفرصة للمسيحيين للصعود إلى الربوة والتحصن بها، حاملين معهما امرأة صاحب الخان وابنته الصغيرة، حيث لم يتمكنا من إيواء الباقين. تأخر المسلمون في الدخول فيما بعد، وتبعهم نفر من أهالى كانييس دى أثّيتونو، فأضرموا النيران في النزل،

وهددوا أصحابه بإحراقهم أحياءً إذا لم يعطوهم النقود التى فى حوزتهم. فهبطت زوجة صاحب الخان من مكمنها -خوفًا من الموت- وأعطتهم صندوقًا صغيرًا يحوى مائة دوقية. حينما أضحت النقود فى حيازة الخُريران، قبض على السيدة، وقال للرجلين إنهم سيجهزون عليها إذا لم يسلماهم الأسلحة أيضًا. فما كان من المرأة إلا أن طلبتها من زوجها وهى تذرف الدمع الغزير، لكنه رفض إعطاءها إياهم، ورد عليها إنه لابد له من الموت وهو يحمل الأسلحة بين ذراعيه.

فى غمار ذاك الحوار، وصلت إلى المحل كتيبة غاسبار ألونسو Gaspar Alonso -وهو أحد أهالى بلش- وكانت تتولى تأمين ذاك المعبر. فشرعوا فى إطلاق نيران بعض البنادق على المسلمين الذين يتولون المراقبة، واشتبكوا معهم فى مناوشات خفيفة، لم تفلح سوى فى إخراج من كانوا بداخل الخان إلى الخارج، فى أعقاب استيلائهم على ما كان فيه. فى ذاك الوقت، سنحت الفرصة للرجلين المسيحيين للخروج إلى الحقول: فاقتاد الجندى الفتاة وخبأها خلف بعض الشجيرات، بينما لاذ هو بالفرار بأفضل كيفية سنحت له. كان من الممكن أن يسلك صاحب النزل ذات النهج، بيد أنه سمع زوجته تصرخ أثناء إيذاء أعداء الرب لها؛ ومع رغبته فى الوقوف إلى جوارها قتلوه هو أيضًا. حينما لم يبق لديهم ما يقومون به، تراجع الثوار إلى الجبل، مخلّفين وراءهم تسعة قتلى فى الخان . كان المواطن المالقى حامل الإجازة بدرو غيرّيرا Pedro Guerrera يشغل منصب قاضى القضاة فى مدينة بلش. حينما تنامى إلى علمه ما اقترفه الثوار الجبليون فى النزل، طلب التقصى عن ذاك الجرم. وعندما وجد الذنب يقع على عاتق الكثير من أهالى كانييس دى أثّيتونو، وسِيديّا، وسالاريس، وكورومبيلا، حرك دعوى ضدهم. كما أفاد من القرار الذى صدر لصالح قضاة المحكمة العليا فى غرناطة، والذى يقضى بتمكين محاكم العدل الأميرية من الدخول إلى الضيعات واعتقال المجرمين. صمم السيد بدرو على الذهاب لإلقاء القبض على مواطنى كانييس دى أثّيتونو المذنبين. واصطحب معه القائد لويس دى باث Luis de Paz، وفرسان كتيبته، والكثير من الرجال الآخرين من المدينة؛ وتوجه صوب البلدة، ودلف إليها فى الصباح الباكر. وذلك دون أن ينبه قائد الحصن غونثالو دى كاركامو -وكان أيضًا يشغل منصب قاض عام- إلى ما يزمع القيام به.

وردت تنبيهات إلى غرناطة حول إرسال ابن أمية سبعة آلاف مسلم إلى الغرب، لتدعيم جبل منتميس، والشرقية، وهوة مالقة؛ ولنشر الثورة فى سائر تلك البلدان. وإنه قد أذاع نبأ تسلمه خطابات من أولوج على -والى الباب العالى على الجزائر- يعده فيها بالمجيء لإنقاذه على وجه السرعة. حينما أدرك السيد خوان دى أوستريا أنه لابد لابن أمية من السعى لاحتلال إحدى البقاع الساحلية، حتى يتسنى له استقبال مراكب الأتراك، كتب إلى مدينة بلش حتى تبيت متأهبةً لذاك الأمر؛ لأن ذلك الموضع ملائم للمسعى الذى يطمح العدو إلى تحقيقه. وبناءً على ذلك، قام المجمع الديرانى باتخاذ الإجراءات اللازمة فى ذاك الصدد، مع أصحاب القلاع التى تقع فى الحيز التابع له. فبعث خطابًا إلى غونثالو دى كاركامو خصيصًا، آمرًا إياه بوضع اثنى عشر رجلاً على قمة ربوة مرتفعة تقع بجوار قلعة منتميس، يمكن للمرء منها كشف المدينة وحصن كانييس دى أثّيتونو، على أن يقوموا بدوريات ليلاً ونهارًا. وإنه فى حال قدوم مسلمين لمحاصرة القلعة، أو إذا ما علم بدخولهم إلى تلك الناحية، فعليه إرسال ثلاث إشارات دخانية من برج اليمين(*) -إذا ما كان الوقت نهارًا-، أو إشعال ثلاث شعلات فى ذاك البرج أثناء الليل. وحينما تجيبه الدورية الموجودة على الربوة، فليدرك أن المدينة قد تلقت تحذيرًا من أجل إرسال قوات لإغاثته. فإذا كانت أعداد المسلمين غفيرة، فليرسل العديد من الإشارات الدخانية، أو ليُلقِ الكثير من المشاعل المشتعلة إلى الأسفل. وليفهم أنه يتعين عليه سلك النهج ذاته حيال معرفته باندلاع الثورة فى الأراضى. وقد أمر السيد غونثالو بنفسه الموريسكيين أن يرسلوا دوريات حراسة حول المكان فى كل ليلة، وأن ينبهوه إذا ما شهدوا مقدم حشد من الأفراد. فقام أولئك بتنفيذ ما طُلِبَ منهم بمنتهى النشاط، بعد أن أفهموهم إنه يؤسفهم مجيء أناس غرباء لإثارة القلاقل بينهم.

(*) أكثر أجزاء الحصن مناعةً، وفيه يقسم القائد المعين على الإخلاص الدائم، والاستبسال فى الدفاع عنه إبان توليه منصبه. Real Academia Española, Diccionario de la lengua Española, vigésima primera edición, tomo II, pag. 1999. (المترجمة)

حينئذ وصل بدرو غيراً مع ما يزيد على ستمائة من الرجال فى الساعة التى ذكرناها آنفًا، وكان ينتوى محاصرة المكان، والدخول للقيام بما يريد من اعتقالات. التقى جنود الطليعة بكتيبة الحراسة التى شكّلها الموريسكيون، وكانت بمحاذاة مفرق طرق بين الطريقين المفضيين إلى بلش وغرناطة؛ فظنوا سوءًا بتلك المأمورية، فهجموا عليهم من دون تريث، وجرحوا واحداً منهم، وحملوا الباقين على الهرب. وما كان الأمر لينتهى عند ذاك القدر الضئيل، لولا الجهود المضنية التى بذلها كل من قاضى القضاة، والقائد لويس دى باث، وبيلتران دى أندياً Beltrán de Andía –النائب بمجلس تلك المدينة– لإيقاف الناس؛ فكان من المؤكد أن يقدموا على تدمير المكان وسلبه، نظراً لكم الغضب الذى كان يعتمل فى نفوسهم. حينما أحس القاضى بالهجوم المفاجئ، تأهب وأشهر السلاح مع الرجال القلائل الذين كانوا بصحبته فى الحصن، بعد أن اعتقد أن هناك مسلمين غرباء فى الأراضى. فلمّا أدرك أنهم القائمون على شئون العدالة فى بلش، سعى لتهدئة الأجواء بالبلدة، حيث طالب قاضى القضاة ألا يدلف إلى الداخل، أو يتعدى على نطاق سلطة ماركيز قمارش، أو يثير الفوضى بين الأهالى الهادئين. وأظهر له اعتراضات كثيرة حول ذلك الأمر، بيد أن كل ذلك لم يفلح فى الحيلولة دون دخول القاضى برفقة بعض الرجال، واعتقاله لثمانية من الموريسكيين، واصطحابه لهم عند رجوعه إلى بلش. حيث قام بإخضاعهم لتعذيب قاس من أجل التحقيق معهم، وقد أظهرت اعترافاتهم تورط عدد كبير من المذنبين – سواء من كانيّيس أو من مواضع جبلية أخرى؛ فأمر باعتقال بعضهم وباشر المحاكمة.

شرع السيد بدرو فى تنفيذ العقوبة فى اليوم الثانى والعشرين من شهر مايو. فبعث مذكرة قضائية بالحكم إلى قاضى كانييس دى أثّيتونو، طالبًا منه إلقاء القبض على أربعة من الموريسكيين ثبت تورطهم فى الأمر، وتسليمهم إلى مواطن بلش السيد ألونسو غونثاليث إنريكيث Alonso González Enríquez، الذى توجه لاحضارهم برفقة أربعين جنديًا من فصيلته؛ فقام باعتقالهم وتسليمهم. كان أحد أولئك الرجال هو الموريسكى نائب مجلس البلدية المدعو لويس مينديث، الذى ذكرنا آنفًا حضوره اجتماع الطاحونة؛

بالإضـافة إلى شـيوخ أخـرين، انتاب الأهـالى كلهم الحـزن الشـديد لسـجنهم؛ حـتى أن بعضـهم أقدم على استدعـاء رجال ليخـرجوا لملاقـاتهم وسلبهم من الطـريق. بيد أن قـائد الكتـيـبـة بات يحث الخطى، حـتى غـادر بهم تلك الجـبـال قـبل أن يصل الآخـرون لتنفـيذ مـأربهم.

أسـفرت تلك الاعـتـقـالات عن إشـاعـة الاضـطراب فى الأراضـى. فى اليـوم التـالى الموافق الاثنين، أثناء قدوم جندى من ناحية مدينة بلش حاملاً بندقيته على كتفه، أطلقوا عليـه سـهمًا من بعض الشـجيـرات، فـاخترق السـهم طرفى معطفه. وقد انتـهى الأمـر بخـروج موريسـكيين من الذين ثاروا بالفـعل إلى ذاك المر، لانتظار قـدوم أى مسـيحى ضـال ممن يروحـون ويغدون من بلش وإليها، لكى يجهزا عليه، ويسلباه بندقيته من أجل أن يتسلح بها أحدهمـا. بيد أن الأمـر لم يكن كما يحسبان، لأن الجندى تصدى لهمـا، وعبر من خلالهما دون أن يضايقاه؛ ثم ذهب لتنبيه غونثالو دى كاركامو إلى الأمر. فما كان من القائد، الذى أراد أن يعلم إذا مـا كـان هناك أشـــرار يعيشـون فى الأراضـى، إلا أن أرسل قائد إحدى الفصائل –ويدعى مارتين نونيث Martín Núñez– برفقة أربعة عشر رام؛ آمراً إياه ألا يبتعد كثيراً، ليمنح نفسه فرصة التراجع إلى الحصن فى الوقت المناسب إذا ما دعت الحاجة لذلك.

توجه الجنود للانقضاض على شـاب موريسكى كان مضجعـًا أسفل شجرة زيتون وسـيفـه فى يده. حينمـا رآهم مـقبلين نحـوه نـهض، وبادر بالهـرب فـتسلق أعلى رابيـة يطلقون عليـها مبارك الأحـواز Embarc Alahauyz، وهـو يصـرخ باللـغة العربيـة ويقـول: "أغيثونى أيها البواسل!". فى أعقاب ذلك، خرج من منخفض تحت مظلة ما يربو على مائتى مسلم يتقدمهم الخُريران وقائد آخر اسمه ابن عبد الله Aben Audalla، رافعين رايةً جديدةً من حرير التفتاه الملون. فهجموا على رجالنا، ولاحقوهم حتى البلدة. نجا قائد الفصيلة ومن تبعه من الرجال، حيث لجأوا إلى الحصن عبر شعاب جبلية وسبل رعاة كان لهم دراية بها؛ بينما قتل أربعة مسيحيون سلكوا طريقًا مغايراً. إزاء اقتحام

المسلمين للشوارع دفعةً واحدةً، شرعت الموريسكيات فى البكاء والعويل، عندما قال لهم الثوار الجبليون أن يتركن منازلهن ويسرن صوب الجبل؛ فدافعت الكثير من الموريسكيات عن أنفسهن، وأخبرن الثوار أن يدعنهن لحالهن، لأنهن لا يرغبن فى الثورة على الحكم أو الذهاب إلى أى موضع آخر. فى تلك الآونة، سنحت الفرصة لصاحب القلعة لكى يقوم بتجميع المواطنين المسيحيين الموجودين خارج الحصن، وكان من بينهم بعض العائلات الموريسكية التى أتت للاحتماء به؛ فطرد عشرين عاملاً كانوا يقومون بإصلاح الأسوار، واتخذ وضعية الدفاع.

أدرك السيد غونثالو أن ذاك الانقلاب ليس أمرًا مدبرًا بين كافة الأهالى. وأن الجزء الأكبر منهم يجهل الأمر، باستثناء المعتدين الذين بادروا بالقيام به فى أعقاب انضمامهم إلى أولئك الرجال الضالين. لأنه لو كان الأمر بخلاف ذلك، لكان بمقدور الأهالى القضاء على قائد الفصيلة ومن معه من الجنود وهم فى مأمن، وتجريدهم من أسلحتهم، حينما دخلوا فارين إلى شوارع البلدة، وقد أعياهم التعب وتقطعت أنفاسهم. وهم لم يكتفوا بعدم القيام بذلك فحسب، بل إنهم عاونوا الجنود، ووقفوا إلى جوارهم حتى إيداعهم فى الحصن. لم تكن البلدة قد أعلنت بأسرها عن اندلاع الثورة، حينما ظهرت فى ساحة البلدة راية من حرير التفتاة الملون، وقد فقدت رونقها لقدمها، وعليها أقمار خضراء ضخمة. وقد عُرِفَ لاحقًا أنها كانت محفوظة لدى فرانثيسكو دى روخاس Francisco de Rojas، وهو موريسكى من أهالى البلدة، وترجع ملكيتها إلى أسلافه منذ عهد المسلمين؛ وكانوا قد رفعوها فى أثناء المعارك التى دارت فى منطقة رُندة الجبلية.

فى الوقت ذاته ظهر لواء آخر أبيض اللون، تولى الثوار وضعه على حجر مرتفع يعلو البلدة من ناحية سيديًا، كانوا يطلقون عليه حجر العُقّاب Haxar el Aocab؛ لكى يقوموا من ذاك الموضع بتنبيه الثوار لدى رؤيتهم قدوم رجال من بلش. وقد أقدم كافة الغلمان والجنود، فى شجاعة متناهية، على وضع أطراف رداءات الموريسكيات على

رؤوسهم، وخمر بيضاء حول أجسادهم، لكى يظهروا كالأتراك. كما أرسلوا النساء، مع الأمتعة والماشية، إلى الجبل الذى يعلو موضع سِيديًا؛ ثم حاصروا القلعة، وأخذوا يهاجمونها على مدار ذاك اليوم حتى حلول الظلام. دافع صاحب القلعة عنها فى شجاعة، إلى جانب اثنين وثلاثين مسيحيا كانوا موجودين بالداخل، والجنود العشرين، واثنى عشر فرداً من أهالى البلدة؛ لأن الباقين كانوا قد غادروا المكان. فى نفس ذاك اليوم اندلعت الثورة فى موضعى سِيديًا وسالاريس، واحتشد الأهالى معاً.

الفصل السادس عشر

يتناول كيفية إنقاذ أريبالو دى ثواثو -مأمور بلش القضائى- لحصن كانييس دى أثيتونو.

لم يتوان غونثالو دى كاركامو عن إرسال الإشارات الدخانية، حينما أشاع المسلمون الثورة فى البلدة. بيد أن الطقس كان مشمسًا للغاية، فلم يتمكن جنود بلش الذين يتولون دورية المراقبة على الربوة -التى أشرنا إليها آنفًا- من ملاحظتها؛ أو ربما غفلوا عن أداء واجبهم. حينما رأى السيد غونثالو أنهم لم يجيبوه على النسق المتفق عليه، شرعت النسوة -اللواتى ألفين أنفسهن محاصرات- فى استشعار الكرب؛ وطالبنه، وهن يذرفن الدمع الغزير، أن يبعث أحد الرجال الموجودين بالقلعة إلى المدينة لتنبيه من بها إلى ما دار، من أجل أن يبعثوا إليهم من ينجدهم. حتى أنهن أنفسهن تضرعن إلى رجل موريسكى يدعى خوان نابارّو Juan Navarro -كان قد قبض عليه على خلفية عدد من الديون- لكى يضطلع بتلك المهمة؛ ووعدنه بمكافآت مجزية نظير قيامه بذلك. فما كان من الرجل إلا أن تطوع أن يذهب ويأتى إليهم بالرد. حينما تراءى لصاحب القلعة، أنه فى حال عدم تنفيذ الرجل لما تعهد به، فإنه لن يضيره كثيراً وجود فرد زائد من الأعداء فى الحقول، كتب رسالة إلى المجمع الديرانى لمدينة بلش. وحث الموريسكى على القيام بواجبه من أجل أن يحسن إليه، ثم خاط له الخطاب فى بطانة الثوب. فى غمار انهماك المسلمين فى إخراج الأمتعة من المنازل، وإرسال النساء إلى النقطة المنيعة فى سيديّا، باتت الفرصة مواتية أمام السيد غونثالو من أجل إلقاء الرسول من الفتحة الخفية الموجودة ببوابة الحصن. حيث قال له أن يخبر المسلمين أنه يلوذ بالفرار، إذا ما سألوه عن شىء ما.

دلف الرجل إلى شوارع المدينة مهرولاً، كمن هرب من سجن. فقابل ثلاثة مسلمين سألوه كيف أتى من تلك الناحية، فاستحلفهم بالله أن يجيروه لأن الجنود يلاحقونه. لم يدعه الرجال يمر فحسب، بل شجعوه على استكمال طريقه، وساروا برفقته حتى الساحة. وهناك ألفى واحداً من أشقائه يرفع راية المسلمين، فأخبرهم أنه يرغب أولاً في الذهاب لجلب قوس كان قد خبأه. ثم انطلق نزولاً في الطريق الموازى لنهر لاغيث Laguiz، ليسلك بعدها الطريق المفضى إلى بلش. فحذر المسيحيين الموجودين عند الطواحين وأشخاصا غيرهم إلى اندلاع الثورة في الأراضى؛ ثم وصل إلى المدينة وأعطى الرسالة لأريبالو دى ثواثو، الذى كان قد حضر إلى هناك قادماً من مالقة من أجل حماية المدينة، في أعقاب تسلمه رسالة التحذير الثانية التى بعثها إليه السيد خوان دى أوستريا. حيث بات مختصًا بإجراء بعض الإصلاحات، من أجل تأمين المواطنين داخل الأسوار المهدمة. ود السيد أريبالو معرفة إذا ما كان الانقلاب قاصراً على أهالى البلدة فحسب، أم أن غرباء قد حضروا إليها لإثارة أهلها. قبيل اتخاذه قرار إنقاذ الحصن، أراد إرسال الموريسكى ذاته إلى غونثالو دى كاركامو ليخطره بكنه الأناس الموجودين بالجبل، لكنه لم يستطع الذهاب في ذاك اليوم لكونه قد جاء متعبًا للغاية.

بات المجمع الديرانى بأكمله قلقًا للغاية لعدم تيقنه من أمر يحمل ذلك القدر من الأهمية. فهم من ناحية يخشون إرسال المقاتلين لإغاثة كانييس –التى تقع على بعد ثلاثة فراسخ كبيرة من هنا– حيث يمكن لمسلمى البقاع الجبلية الأخرى الإغارة على المدينة في توقيت يتيح لهم الوصول إلى مبتغاهم. ومن ناحية أخرى يرغبون في إنقاذ ذاك الحصن، لكى لا يضيع أمام أعينهم. أراد المجمع في نهاية الأمر معرفة ما يجرى، فأرسل إلى مجلس بنى مُقرّة Bena Mocarra –بدلاً من الانتظار ليوم آخر– آمراً إياه أن يبعث رجلين محل ثقة من الموريسكيين برسالة من المأمور القضائى إلى غونثالو دى كاركامو، يطالبه فيها بإخطاره إذا ما كان المسلمون الذين تبقّوا في البشرات هم من عملوا على إثارة البلدة، أم أن الأمر يقتصر على الأهالى فحسب، وكم عدد الرجال اللازمين لإغاثته في رأيه. توجه رجلان موريسكيان من أهالى تلك البلدة –أحدهما

يدعى إيرناندو الثوردى Hernando el Zordi –بتلك الرسالة؛ بعد إعطائهما أمراً بالوصول ليلاً إلى الجزء المنخفض من الحصن، وتسليمها إلى القائد. وحتى يتمكنا من القيام بمهمتهما بطريقة أكثر أمنًا، أمرهما أن يحملا معهما بندقيتين وسيفيهما.

عندما باتا على مقربة من البلدة، فى البقعة التى بدت لهما أنها أقل موضع قد يستشعر وجودهما فيه أحد، وثبا على كتيبة الحراسة والدورية اللتين نظمهما الثوار الجبليين. على الرغم من أنهما خاطباهم بلغتهم، وأخبراهم بكونهما من الثوار، فإنهم لم يصدقوهما، وأرادوا الإجهاز عليهما، حيث قالوا إنهما يدبران مكيدة ما. وكان الأمر سينتهى نهاية سيئة، لولا أن تصادف أن وصل إلى هناك مسلم من بلدة كانييس ذاتها، يدعى فرانثيسكو تاوث Francisco Tauz. وكان يعرف الثوردى، فضمنه، وقال إنه رجل ذو سمعة طيبة، وإنه من الخطأ الإساءة إليهما. وإذا ما تصرفوا على هذا النحو فلن يجرؤ أحد على الانضمام إليهم. كما أن الثوردى –بوصفه رجلاً ماكرًا– أخبرهم أن أهالى بنى مُقرّة قد بعثوهما ليريا إذا ما كانت أنباء اندلاع الثورة فى الجبل صحيحة. فهم يرغبون فى القيام بذات الشىء، إذا ما أمدوهم برجال لنجدتهم، على أن يرافقوهما خلال الطريق، لأنهما يخافان من قوات بلش لكونهما أعزلين. حينما استمع تاوث إلى تلك الكلمات، صار يقفز من فرط السرور، وبات يسأله عدة مرات إذا كان ما يقول صحيحًا. فلمّا أكد له صحة الأمر، قال للثوار الجبليين إن المسلمين لن يرد عليهم يومًا أفضل أو أسعد من الذى يعلمون فيه أن بنى مُقرّة ترغب فى الثورة على الحكم. لأنه لن يبقى موضع فى الشرقية أو هوة مالقة إلا سيحذو حذوها.

أفلح ذلك الأمر فى تهدئة الغرباء، الذين حملوا الموريسكيين إلى قائدهم خُريران. فمنحاه ضمانهما المزعوم[١٤]، الذى حفظ لهما حياتهما؛ وكانا قد نجحا فى سرد الأمر بأسلوب يبعث على تصديقهما. ففرح بهما، وأمرهما أن يرجعا إلى بنى مُقرّة؛ وأن يخبرا الأهالى أنه يتعهد بإغاثتهم، عن طريق إرسال قوات تفوق تخيلاتهم، خلال ثلاثة أيام.

---

(١٤) يقصد المعلومات غير الصحيحة التى أدليا بها. (المراجع)

حينما سمعه الثوردى ينطق بتلك العبارات، أدرك أنه ينتظر وصول رجال من الخارج، فأجابه على النحو التالى: "سيدى، لا أدرى ما الذى سيمكنهم من الانتظار كل ذاك الوقت؟ لقد حزموا ثيابهم بالفعل! وإذا أحس بهم من فى بلش، فسوف ينحرونهم". أعجب المسلم بما قال، وأطرق هنيهة، ثم قال لهما أن يذهبا ويعودا فى صباح الغد، وسوف يرسل معهما دورية حراسة قوامها مائتا جندى من البواسل، الذين لن يدير أحدهما وجهه أمام عشرة من محاربى بلش؛ ولن يمنى الأمر بالفشل. كما أنه سيضع -على سبيل الإشارة- رايةً ملونةً مع طلوع الشمس أعلى الطاحونة التى يطلقون عليه بُويِبى Poaype، لكى يدركا أن الرجال بانتظارهما. ثم أمر بتقديم وجبة عشاء فخمة لهما، وصرفهما من عنده بتلك الأنباء السارة.

فى صباح اليوم التالى خيم على البلدة صمت رهيب، فبدت وكأنما لم يبق بها كائن حى؛ فرغب الجنود فى الخروج من الحصن لجمع ما خلّفه الموريسكيون فى المنازل. إلا أن القائد لم يوافق على ذلك، على الرغم من كثرة إلحاحهم عليه، لأنه ارتاب فى وجود خدعة ما. فأرسل موريسكيًا آخر -كان قد احتمى مع زوجه وأبنائه بالحصن- ليرى إذا ما كان الأعداء قد غادروا المكان. فما أن دلف من بوابة البلدة، حتى أُلقِى القبض عليه، وحُمِلَ إلى الخُريران ظنًا فى كونه مسيحى، لأنه كان لاجئًا لدى المسيحيين. فأمر ذاك الأخير باقتياده إلى حصن سِيديًا، وتسليمه إلى القاضى الذى عينه نائبًا عنه لينفذ فيه حكم العدالة. أراد الخُريران الوفاء بالكلمة التى أعطاها إلى موريسكيى بنى مُقرّة، فأرسل رايته الملونة فى المقدمة برفقة عشرة من المسلمين، لكى يتولوا وضعها على مشارف فج الأبيث Fax Alaviz، أعلى صخرة كان يُطلَق عليها حجر الأبراكانا Haxar Alabracana - وتلك التسمية تعنى صخرة قرن الماعز[١٥] Cornicabra. وهو موضع مرتفع وبارز، يحظى المرء فيه بإطلالة جيدة للغاية. عندما احتشد ما يربو على خمسمائة مسلم، نزل لينضم إليهم، من أجل أن يتوجهوا لنصب كمين عند طاحونة بُويِبى عقب حلول المساء، كما قال من قبل.

---

(١٥) العلاقة بين الاسمين ليست واضحة لدينا. (المراجع)

ترك الخُريران بالبلدة رجلا مسلما يدعى ألونسو مونتيكال Alonso Montical برفقة فوج آخر من أهالي البلدة، بالإضافة إلى مواطني سِيديًا وبعض المواضع الأخرى، الذين قدموا إلى هناك عقب معرفتهم باندلاع الثورة في كانييس. وقد أمره ألا يوقف الهجوم على المحاصرين، أثناء ذهابه لتولي أمر بني مُقرّة والعودة مرة أخرى. دارت معركة شديدة للغاية، ودامت لما يزيد على ساعتين، قاتل خلالها حاكم الحصن ومن معه باستبسال شديد؛ وفي نهاية الأمر تراجع المسلمون قبيل انتصاف النهار بساعتين بعد أن منيوا بخسائر. كان الثوردي ورفيقه قد تأخرا أكثر مما أرادا في توصيل أخبار ما جرى إلى مدينة بلش. حيث عطلهما إلحاح المسلمين، الذين توافدوا عليهما من أجل التحقق منهما عن صحة الأخبار التي تفيد برغبة بني مُقرّة في الانضمام إلى ركب الثورة؛ لأن السعادة التي شعروا بها حيال ذاك الأمر كانت غامرة. أمسى المأمور القضائي لبلش متحفظًا، فهو لا يدري أقتل الرجلان، أم أنهما انضما إلى صفوف المسلمين؟ فأمر باستدعاء الموريسكي، الذي كان قد حمل إليه كتاب قائد الحصن، وبعثه برسالة أخرى، تحمل نفس فحوى كتابه الذي تسلمه. وعهد إليه أن يسعى لتسليمها على وجه السرعة، وأن يرجع إليه لاحقًا بالجواب.

وصل الرجل في الوقت الذي كان المسلمون عائدين فيه من المعركة، فاختبأ خلف شجرة زيتون – توجد إلى الخلف قليلاً من الحصن. ثم أشار إليهم بعباءته، حتى يؤمنوا له الطريق إلى أن يبلغ الحصن. فهم القائد مغزاه، أو أمّنه، حيث أصدر أوامر بتوجيه الرماة إلى تلك الناحية، بطريقة مكنت الرجل من الوصول سالمًا إلى أحد أجزاء السور التي تقع بين برجين، وكان بها نافذةٌ ضخمةٌ؛ فرفعوه بحبل إلى أعلى. قرأ القائد الرسالة التي بحوزته، ثم بعثه برسالةٍ أخرى ردًا عليها، أنبأ فيها أريبالو دي ثواثو أنه حتى ذلك الوقت ليس هناك سوى المسلمين الموجودين بالأراضي، ومعهم بعض الغرباء. لكنه إبان وصول الموريسكي إلى سد نهر بلش، أدرك أنهم سيدعمون المكان بما يزيد على خمسمائة مقاتل من المشاة والفرسان؛ لأن الرجلين الموريسكيين التابعين لبلدة مُقرّة كانا قد وصلا إلى المكان، وقصا عليه رواية دقيقة للغاية حول ما جرى.

اكتشف كل من المحاصَرين والمحاصِرين فى آن واحد وجود رجالنا. فنكّس المسلمون الراية البيضاء التى كانوا قد وضعوها على حجر العقاب، وتخلى مونتيكال ومن يرافقونه عن محاصرة الحصن، وخرجوا يلوذون بالفرار صوب الجبل. كما رجع الخُريران إلى ميناء سِيديًا، وتوجه من هناك للتوغل فى الجبل؛ وهكذا لم تجد قوات الإغاثة عند قدومها أى مسلمين لمحاربتهم. لكن كان من الممكن أن يُحدِثوا أثرًا كبيرًا إذا ما لاحقوهم، لأنهم كانوا جميعًا منهزمين ومشتتين من الخوف. تقدم أحد السيافين، وكان يدعى دييغو مورينو Diego Moreno، إلى الأمام مع رجال آخرين من رفاقه؛ وظل يسير لبعض الوقت، حتى أمره المأمور القضائى بالتراجع، بعد أن اكتفى بإنقاذ الحصن. وقام بإخراج مائة من النساء والأطفال الذين كانوا بداخله، وترك مع القائد عشرين جنديًا؛ ثم قفل عائدًا إلى بلش فى تلك الليلة. أما المسلمون فقد لجأوا إلى نقطتهم المنيعة.

الفصل السابع عشر

يتناول اندلاع الثورة فى كومبيتا، ومواضع جبل منتميس الأخرى، وتحصن أهلها بجبل فريخيليانا المنيع.

فى أعقاب ثورة مواطنى كانييس دى أثّيتونو، وسِيديّا، وسولارِس، سار على نهجهم أهالى كومبيتا ومواضع جبل منتميس الأخرى. وقد حرّضهم على ذلك رجل من أهل كومبيتا يدعى مارتين الوزير Martín Alguacil؛ وهو رجل نبيل يتمتع بنفوذ كبير بين الناس، نظراً لكونه من أصل سلالة آل الوزير، الذين كانوا يحكمون تلك الأراضى فى عهد المسلمين. كان ذاك الموريسكى يتظاهر بكونه مسيحيًا مخلصًا، وشخصًا متفانيًا فى خدمة صاحب الجلالة؛ كما أن ذاك الاسم أكسبه ثقة الآخرين، حيث عُهِدَ إليه بتقسيم الضرائب المفروضة التى يدفعها الموريسكيون فى تلك الناحية. وكان سيادة الرئيس بدرو دى ديثا قد كلفه، هو وبيرناردينو دى رِيّنا Bernardino de Reina –نائب مجلس بلدية بلش، الذى ينتمى أيضًا إلى الأمة الموريسكية، ويتولى توزيع الضرائب المفروضة فى الشرقية بمالقة– بتوزيع المعاطف والتنورات التى يتصدق بها جلالة الملك على الأرامل والنساء الفقيرات. وكان يحثهما على حض الأهالى على التخلى عن الأزياء والعادات الموريسكية، والرضا بما جاء فى المرسوم. وكان كلاهما قد أدى واجبه المنوط به على نحو جيد، كما كان الناس يظنون أن منتميس ما زالت مستقرة نظراً للاحترام الذى يلقاه مارتين الوزير.

كان ذاك الأخير قد حضر فى تلك الأيام إلى بلش، ومثل أمام المحاكم –بصفته الشخصية– ليدلى بشهادة. فقال إنه مسيحى صالح، وإنه سيحيا ويموت على دين

يسوع المسيح، وأنه سيؤدى، بإخلاص وعلى أكمل وجه، كل ما يؤمر به؛ بوصفه من الرعايا الأوفياء لجلالة الملك. بيد أنه كان مخادعًا، لأنه كان قد علم أن المدينة تنتوى جلب بعض الأهالى البارزين من المناطق الجبلية، واعتقالهم للحيلولة دون قيام المواطنين الآخرين بالثورة. حينما أدرك أنه لابد وأن يمسى واحداً منهم، أقدم على القيام بذاك الإجراء من أجل الإفلات من ذاك المصير؛ وهكذا عاد أدراجه إلى كومبيتا. فى أعقاب ذلك، أرسل أريبالو دى ثواثو يستدعيه لتشجيعه على المحافظة على ولائه، والعمل على تحقيق الأمر ذاته بين المواطنين؛ فلم يرغب فى الذهاب، وسعى لتأليب الأهالى على الحكم.

قام الرجل بحشد مواطنى كومبيتا، ومواضع أخرى متاخمة، وساق إليهم حجته على النسق التالى: " أيها الأخوة والأصدقاء! يا من تفكرون فى التحرر من أعباء تلك البلوى التى أنزلها بنا أهل البشرات، ها أنتم تشهدون المقابل الذى نحصل عليه جزاء إخلاصنا. إن السلطات القضائية فى بلش تود القضاء علينا جميعًا، على أثر حماقة اقترفها الثوار الجبليون، فى صحبة نفر من الغلمان التافهين قليلى الإدراك، فى نزل بدرو ميّادو. فهم لم يقنعوا بإعدام العديد من أصدقائنا وأقاربنا، ممن نعرف أنهم لم يكن لهم دخل فى الأمر أو علم به؛ بعد أن حملوهم على إدانة أنفسهم بأنفسهم، عقب إخضاعهم لأساليب تعذيب مبتكرة ووحشية. وفى الوقت الذى يأسفون فيه لمشاهدة الأمة الموريسكية تثور على الحكم، بينما نحن فقط نلتزم الهدوء فى ديارنا، انظروا ههنا رسالة يستدعينى فيها المأمور القضائى. وأنا أدرك أن الغرض هو اعتقالى وقتلى، لأنه ما من مسألة أخرى تربطه بى أو تربطنى به. كما أنه أرسل يستدعى إيرنانو الدرّة Hernando el Darra. بات الموت أمراً محققًا، وقد تراءى لى أن أمنى به نظير الاضطلاع بأمر لن يُلحق بى الخزى على أقل تقدير، ألا وهو الدفاع عن حريتنا. إذا ما متنا ونحن نقاتل، فسوف تعيدنا أمنا الأرض من حيث أتينا. ومن ليس لديه قبر يؤويه، سيجد سماءً تظله. معاذ الله أن يُقال إن رجال منتميس لم يجسروا على الموت من أجل وطنهم. إن ابن أمية رجل صاحب نفوذ، وقد حقق الكثير من الانتصارات على المسيحيين؛ وسوف يأتيه أناس من إفريقيا لإغاثته. كما أن الباب العالى قد وعده

بالوقوف إلى جانبه، وهو ما ينتظره فى تلك اللحظات. إن بلاد المغرب بأسرها تتأهب للدفاع عنا. فليأت ابن أمية إذن لرئاستنا جميعًا، ولنكن له طائعين، فإن المسيحيين قد صنّفونا كمسلمين. فلا نتيح لهم فرصة خرق القانون، وتطبيق الشدة فحسب، عن طريق حملنا إلى المشنقة واحدًا واحدًا".

إلى هنا أنهى مارتين الوزير حديثه. وقد استحسن الجميع رأيه، وأجابوه بأن صبرهم قد زاد عن الحد، مع تحملهم لكل تلك الإهانات التى لحقت بهم. فقاموا من فورهم وأخرجوا الأسلحة التى كانت مخبأة لديهم. ثم زينوه بمآزر قيمة من الحرير والذهب -وكأنه أحد القديسين-، وأركبوه بغلة بيضاء، وأقبلوا عليه جميعًا لتقبيل يده وردائه. فما كان من الرجل إلا أن باح عن مكنون قلبه، فرفع يديه وشخصت عيناه إلى السماء وهو يقول: "أحمدك وأثنى عليك يا إلهى أن جعلتنى أرى هذا اليوم". ثم قاموا هنالك بتعيين قادة مخصصين لكل موضع من المواضع. وحينما تراءى لهم أنه من الأفضل أن يقوموا جميعًا بحشد صفوفهم فى جبل فريخيليانا، وهو مكان حصين للغاية ويقع على مقربة من البحر؛ أرسلوا إلى أهالى حصن سِيديًا، مطالبين إياهم بالقدوم للانضمام إليهم. كان أولئك المواطنون يؤمنون بما لديهم من اعتقادات باطلة حول قبور أربعة من المرابطين، يُقَال إنهم مدفونون فى رباط كانييس دى أثّيتونو، الكائن بجوار الحصن. فباتوا لا يريدون أن يهجروا المكان، حتى أنهم بعثوا إليهم بأمتعة وأناس، وحملوهم على ألا يقدموا على أمر أخر يخالف إرادة شيخ مسلم يدعى خوررون دى ليمون Jorron de Leimon. وكان قد أخبرهم ألا يدعوا المكان لأى سبب من الأسباب، لأنه موضع مبارك، ولطالما شهد فيه المسلمون أحداثًا سعيدةً فى كنف أولئك القديسين؛ وأن ذاك الأمر مدون فى كتبهم المقدسة. حينما أدرك الرجل أن تحذيراته لم تفلح معهم، وإنهم يستريحون أكثر إلى الانصياع لمشيئة مارتين الوزير، ظل يصيح وينادى مرارًا وتكرارًا حول ذاك الصدد؛ حتى جُنّ، وفقد رشده، كما فقد قدرته على النطق والإدراك.

فى أعقاب تجميع الكل فى كومبيتا، قاموا بتنصيب إيرناندو الدرّة حاكمًا وقائدًا عامًا. وكان يلقى بينهم مكانةً رفيعةً للغاية، لأن أسلافه كانوا قضاة وحجاب فريخيليانا

إبان حكم المسلمين. كما عيّنوا ثلاثة فقهاء كمستشارين للأمور الدنيوية وشئون العقيدة: أحدهما من سيديّا، والآخر من سالاريس، والثالث من دايمالوس. لم يُلحِق أولئك الأناس أى أذى بجيرانهم المسيحيين، لأن الشكوك التى كانت تراود أولئك القوم حملتهم جميعًا على توخى الحذر. فأرسلوا من بقى بينهم من الكهنة القانونيين إلى بلش، وكان من ضمنهم شخص يدعى كريستوبال دى فريّاس Cristóbal de Frías، يشغل منصب الكاهن القانونى لكومبيتا، أقدم على التحصن فى برج الكنيسة برفقة ثلاثة أو أربعة مسيحيين آخرين.

أراد مارتين الوزير أن يدفع عن نفسه وزر ذاك التصرف أمام المسئولين فى بلش. وأن يُفهِمهم أن الثورة قد نشبت رغمًا عن إرادته، وأن المسلمين الغرباء قد حملوهم على القيام بها؛ وأن هناك عددًا غفيرًا منهم فى البلدة، مما يحول دون الخروج لمجابهتهم إلى أن يلتزم الأهالى جانب الحرص. فأمر بنقل الناس إلى محيط الكنيسة، وجعلهم ينقلون الأسلحة والثياب من موضعها لكى تبدو كثيرة العدد. بعد أن قاموا بذاك ثلاث أو أربع مرات، وصل إلى البرج، ونادى على الكاهن القانونى، وأمره أن يتشجع لأنه لن يسمح أن يلحقه أذى، هو ومن معه. وعليهم أن يذهبوا فى أمان إلى بلش، ويخبروا المواطنين أن الخِيرونثيّو قد أشعل الثورة فى الأراضى بمساعدة أناس غرباء. وأن أهل منتميس يأسفون كثيرًا لذاك الأمر، فهم -بوصفهم مسيحيين صالحين، ورعايا أوفياء لجلالة الملك- ما كانوا يرغبون أن تصدر أى أحداث من قبلهم. وأن يؤكدوا لهم أنهم لن يتعرضوا لهم أو يعرضوا منازلهم لأى سوء، بل سيسعون لتحقيق كل ما فيه نفعهم، لأنهم أصدقاء وجيران. ثم أمدهم بنفر من الرجال المسلحين لمرافقتهم، وأرسلهم إلى مدينة بلش؛ أما هو، فقد مضى للالتجاء إلى حصن فريخيليانا، مصطحبًا معه سائر النساء، والماشية، والثياب.

الفصل الثامن عشر

يتناول حشد أريبالو دى ثواثو للرجال الذين يقعون تحت نطاق سطته، وتوجهه للإغارة على الموريسكيين، ووصفا لجبل فريخيليانا.

عندما ألفى الكاهن القانونى كريستوبال دى فريّاس نفسه فى بلش، حمد الرب كثيراً أن أنجاه من الخطر الذى كان محدقًا به. فلمّا شهد المدينة تموج بالاضطرابات، حيث كانت القوات تعد العدة للخروج إلى الجبل فى تلك الليلة؛ إضافةً إلى أنه لم يكن قد طرح مخاوفه جانبًا؛ بالغ فى تصوير قوة الثوار على نحو يتخطى بكثير حقيقة الأمر، وقال إن الأرض تغص بالمسلمين الغرباء. هذا على الرغم من أن بعض رفاقه الذين قدموا بصحبته بددوا تلك المخاوف، مؤكدين أن الرجال الذين مروا فى محيط الكنيسة عدة مرات أثناء وجودهم بالداخل، هم نفس الأشخاص؛ وإنهم قد تعرفوا على الكثيرين منهم؛ وأن المسلم الخبيث قد دبر الأمر على سبيل الخداع، لكى تظن المدينة أنه قد أتته قوات إغاثة من البشرات. أوقف المأمور القضائى خروج الحملة فى تلك الليلة، لمّا لم يتمكن من حزم أمره وتصديق جانب أكثر من الجانب الأخر. ولكن فى اليوم التالى، فى أعقاب إصرار المدينة على الاضطلاع بالحملة، وبعد قدوم كتيبتين من مدينة مالقة، تحت قيادة كل من السيد بدرو دى كوايّا Pedro de Coalla، وإيرناندو دوارتى دى بارّينتو Hernando Duarte de Barriento؛ انطلق من المدينة فى يوم السابع والعشرين من شهر مايو من العام ذاته، مصطحبًا أولئك الرجال، إلى جانب القوات الموجودة بالمدينة، والتى بلغ قوامها ثمانمائة جندى أخر من المشاة، ومائة فارس. كان قادة المشاة هم: ألونسو ثاباتا Alonso Zapata، وبيلتران دى أنديّا، وماركوس دى لا بارّيرا Marcos de la Barrera، وخوان مورينو دى بيّالوبوس Juan Moreno de Villalobos.

بينما ترأس الفرسان لويس دى باث، وكان كل من هؤلاء وأولئك نوابًا فى مجالس تلك المدن. فتوجه القائد العام السيد أريبالو دى ثواثو إلى موضع تورّوكس فى تلك الليلة، وهى تقع على الساحل، فى البقعة التى يبرز فيها جبل منتميس من البحر. وكان موريسكيو ذلك الموضع قد احتشدوا فى الكنيسة، بعد أن حملوا ثيابهم، ونساءهم، وبنيهم؛ وقالوا إنهم مسيحيون. فلمّا شهدوا إطلال الرايات ومعها كل ذاك العدد من الرجال، أرادوا الاحتماء بالقلعة؛ وإزاء عدم رغبة المسيحيين الموجودين بداخلها فى استقبالهم، عادوا على أعقابهم وساروا صوب الجبل، حيث توجهوا للانضمام للثوار.

بات رجالنا ليلتهم تلك فى تورّوكس. وكان قد وصل إلى هناك مائة وستون جنديًا من المنكب، وهم -تبعًا لأقوالهم- قد خرجوا لاستعادة قطيع من الماشية كان المسلمون قد سلبوهم إياه؛ فلمّا ألفوا أنفسهم قد ابتعدوا كل تلك المسافة، لم يجسروا على العودة، مخافة أن ينصبوا لهم كمينًا. فى الصباح الباكر من اليوم التالى، انطلق أريبالو دى ثواثو عائدًا إلى جبل فريخيليانا الذى يبعد مسافة فرسخ ونصف من هناك. وقد وصل بالقرب من الساعة العاشرة فى الصباح إلى المنطقة التى يوجد بها عين مياه يسمونها ألامو Álamo -وهى كائنة ما بين الغرب والجنوب- وبها سهل فسيح يمكن لسلاح الفرسان التحرك فى أرجائه. وقد ألفوا هناك بعض الأمتعة، والثياب، والمؤن التى لم يتسن للمسلمين الذين راحوا يلتجئون بالحصن إمكانية الصعود بها إلى أعلى الجبل. وهو ما يجعلنا ندرك إنه لو لم تتأخر قوات بلش فى الخروج كل ذاك الوقت، للحقوا بهم خارج الجبل، ولكان فى استطاعتهم إحداث أثر بالغ مهما بلغ تعداد القوات.

يقع ذاك الجبل ما بين قرية كومبيتا والبحر. ويوجد إلى الشرق منه نهر تشيّار Chíllar -الذى ينحدر ما بين منخفضات جبلية شديدة الوعورة. بينما يحده من الغرب نهر لاوتين، الذى يتجه ليصب فى البحر، بعد مسيرة تضاهى ذاك الآخر فى الوعورة. من جهة الشمال يهوى جبل منتميس ليكون منحدرًا عميقًا للغاية، ومنه يبدأ جبل فريخيليانا فى البروز إلى أعلى حتى يبلغ ارتفاعًا شديدًا، ثم يعود ليهبط مرة أخرى من ناحية

الجنوب، ليشكّل منخفضًا بالغ الانحدار. وهو ينقسم فيما بعد مكونًا ربوتين: أولاهما كائنة ما بين الشرق والجنوب، وهى تفضى إلى بلدة فريخيليانا؛ أما الثانية -التى تقترب أكثر من اتجاه الغرب- فتؤدى إلى قلعة نيرخا. هذا ويكون الجبل فى مستوى أعلى بكثير، من دون وجود موانع فى أى اتجاه من الاتجاهات لتفرض سيطرتها عليه. أما المداخل المفضية إليه، فهى أجراف بالغة الوعورة وأحجارها قائمة الانحدار، حتى أن عددًا قليلاً من الرجال بالأعلى يمكنه الدفاع عنها فى مواجهة أى جيش جرار. فى الناحية التى تحوى نهر تشيّار، توجد ساقية تستخرج المياه التى تروى أراضى وحقول فريخيليانا، -التى كانت مهجورة فى تلك الآونة. كما أنها تمررها إلى سفح الجبل، وهو الداعى الرئيس الذى حضّ المسلمين على التحصن هناك، حيث لا يمكن حرمانهم من المياه دون خوض صعوبات مضنية. أما عين مياه ألامو -التى تقع على تلك الجهة الثانية، ما بين الغرب والجنوب- فكانت موجودة إلى الوراء منهم قليلاً. يوجد فى أعلى الجبل مجال فسيح، لا يتسم بالانبساط الشديد أو الانحدار الشديد، وهو يتسع لقاطنى جبل منتميس كافة، ولأعداد أكبر -إن وجدت.

فى أعقاب تراجع المسلمين إلى الأعلى، اتخذوا وضعية الدفاع، بعد أن أدركوا أن المسيحيين -بوصفهم رجال حرب- سيقيمون معسكرهم، ثم سيتخذون ما يلزم فيما بعد. وقد ساد بينهم قدر كبير من الاختلاف والفوضى -كما أكد لنا نفر منهم- حينما شهدوا مجىء كل ذلك العدد من الرجال؛ حتى أن الجزء الغالب منهم كان يود العدول عن رأيهم. وربما لو كانوا قد استسلموا جميعًا، لم نكن لنتكبد إراقة ذاك الكم الكبير من الدماء المسيحية التى أريقت. ريثما كان أريبالو دى ثواثو يبحث ما يتعين عليه القيام به، قامت إحدى المجموعات، التى كان قد بعث بها لاستطلاع الأخبار، بالتقدم إلى أعلى الجبل أكثر من الحد المناسب؛ وأخذوا فى الاشتباك مع بعض المسلمين الذين خرجوا لملاقاتهم. فشرع أولئك فى التراجع إلى الأعلى، وهم يقاتلون فى فتور، حتى بدا وكأنهم يفسحون المجال لدخول رجالنا.

حينئذ أمر أريبالو دى ثواثو بتقدم باقى الرجال، والبدء فى القتال، وتتبع آثار من تراجعوا. لكن القادة -الذين كانوا قد اجتمعوا للتشاور- وصلوا سريعًا إلى تلك الناحية،

حينما أبصروا تقدم المسيحيين تجاههم. وقد تقدمهم جميعًا درّة فى بهاء ورونق، حاملاً عصا فى يده، وبات يطلق صيحات عالية، وينهال ضربًا على من يقدم على التراجع. وقد جعلهم القائد يعاودون الهجوم على رجالنا -وهم متأرجحون ما بين مشاعر الخوف والخزى. وكان جنودنا مصممين على مواصلة التقدم إلى الأمام، فى عزم تضاهى خطورته تهوره، لأنه كان هناك ما يربو على ثلاثة آلاف مسلم متمركزين على حافة المنطقة العليا. ورغم أنه كان بينهم عدد قليل من الرماة والقواسين، فقد كان فيهم العديد من الجنود المسلحين بالمقاليع؛ وقد شرع هؤلاء فى إلقاء كم هائل من الأحجار، حتى إنه بدا وكأن رجالنا تعلوهم سحابة من الثلوج. وكان صوت قعقعة المقاليع مدويًا، إلى الحد الذى جعله يضاهى وابلاً جميلاً من طلقات الأسلحة النارية. وكانت الحجار تنهمر فى غضب عارم، حتى أن الأسلحة الهجومية لم تفلح فى التصدى لها.

وقد شهدنا فى ذاك اليوم ترسًا دائريًا وقد اخترقه أحد المسلمين بحجر، وكان واحد من الجنود يحمله كساتر. فاخترقته حصاة ضخمة وغليظة كأنها قبضة، ليعبر نصفها إلى الجانب الآخر. شرع الرجال فى التوافد من كل صوب وحدب؛ وحمل الأعداء على رجالنا على نسق أجبرهم على التراجع بدون نظام، مخلّفين وراءهم بعض الألوية لتجابه خطر الفقد. وكانت رايتا كل من ألونسو ثاباتا وخوان مورينو دى بيّالوبوس ستفقدان لامحالة، لو لم ينقذاهما بنفسيهما؛ ثم يتراجعا وهما يقاتلان ويصدان زخم الأعداء. أفاد رجال مشاتنا كثيراً من عدم تجرؤ المسلمين على مغادرة وعورة جبلهم، خوفًا من سلاح الفرسان؛ الذى شاهدوه وقد اصطف فى انتظار هبوطهم إلى بقعة تتيح له الدخول فى المعركة. قاتلوا فى ضراوة حتى بلغوا موضع سيوفهم. وعلى الرغم من أن الكثير منهم قد لقى حتفه من جراء طلقات البنادق، أثناء هبوطهم دون غطاء يقيهم هجوم رماتنا -الذين كانوا يطلقون عليهم نيران أسلحتهم لدرء الهجوم عن أنفسهم-؛ فقد تمكنوا مع ذلك من قتل عشرين مسيحيًا، وجرح ما يزيد على مائة وخمسين. وكانوا سيحدثون أضراراً أفدح لو كان معهم أسلحة، أو لو أنهم جسروا على الاستمرار فى ملاحقتهم.

في أعـقـاب تراجع الرجـال ومـداواة الجـرحى، أمـر أريبـالو دى ثواثو بحـشـد الصـفـوف، وقفل عـائدًا إلى بلش فى وقت مـتـأخر للغاية من تلك الليلة، دون أن يغـامر أكثر بحظوظ الحملة. حيث لـم يكن يشـعر بالسرور، وكانت تنتابه رغبةً عارمـةً فى معاقبة أولئك الهمجيين.

الفصل التاسع عشر

يتناول كيف تلقى ماركيز بلش تحذيراً فى بيرخا عن توجه ابن أمية للإغارة عليه، وتهيئه لانتظاره.

كان ماركيز بلش موجوداً فى بيرخا فى صحبة جيش صغير، لأن العدد الأكبر من الرجال كان قد هجره، كما أسلفنا آنفاً، حيث غادر البعض الحملة للاستمتاع بالفيء الذى غنموه، بينما لم يقدر آخرون على مكابدة الأعمال والحاجة الشديدة التى يتعرضون لها هناك. وانطلاقاً من كون الماركيز رجلاً حريصاً على أداء المهام المنوطة به، سعى لمعرفة ما يقوم به الأعداء. بعد أن مكث الماركيز عدة أيام، دون أن ترد إليه أنباء مؤكدة فى ذاك الصدد، تلقى تنبيهاً حول مشاهدة نيران على قمة إحدى الروابى القريبة من المعسكر كل ليلة، وكانت تبدو كإشارات يرسلها المسلمون. فبعث بقائد أحد الكتائب، ويدعى فرانثيسكو دى ثيربانتس Francisco de Cervantes، أن يتوجه ليلاً لاستطلاع الأمر؛ وذلك برفقة عشرين جندياً من أفراد كتيبته. وقد أظهر الرجل همةً عاليةً، فجلب له رجلاً مسلماً من جواسيس ابن أمية، بعد أن ألقى القبض عليه. وكان ذاك الشخص -كما عُرِفَ لاحقاً- هو من يشعل تلك النيران بالليل، بينما يختبئ أثناء النهار فى مدخنة أحد البيوت الموجودة فى دالّياس.

تم إحضار ذاك الرجل إلى بيرخا، وأمر الماركيز بتعذيبه. فاعترف بالكيفية التى حشد بها ابن أمية محاربى البشرات فى قرية بالور؛ وكيف أنه قام باستعراض عام للقوات، فألفى لديه ما يربو على عشرة آلاف مسلم مجتمعين؛ وأن غالبيتهم مسلحون بالبنادق والأقواس الفولاذية. كما أنه قد قرر شن معركة صباحاً على بيرخا على رأس

هؤلاء الأشخاص جميعًا، لأنه حينما أرسل يسأل موريسكيي البيّازين في غرناطة والغوطة، ونهر المنصورة، كيف لهم أن يشاهدوا ملكهم شاهرًا أسلحته في يديه لنيل الحرية، بينما يتسمون هم بالدعة والهدوء؛ في الوقت الذي يجب أن يكونوا أول الثائرين! ولما أخبرهم إنهم إذا لم يبادروا بإعلان الثورة، فإنه سيصدر أوامره حتى يدمرهم المسيحيون عن آخرهم، أجابوه بأنهم لا يجرؤون على حزم أمرهم، طالما بقي ماركيز بلش في البشرات في صحبة معسكره بعد أن تشكلت صفوفه؛ وإنهم سيثورون على الحكم في حال قتله أو إلقاء القبض عليه. كما أخبرهم الجاسوس أنه في غمار تعجّل ابن أمية لشن تلك الحملة، ورغبته في معرفة إذا ما كان المعسكر سيغادر بيرخا، فقد قام بزرع ذلك الجاسوس. وأن تلك النيران التي كان يشعلها كل ليلة، كانت إشارة على أن المعسكر لا يزال مستقراً.

كان المسلمون قد ألقوا القبض على خمسة جواسيس من معسكرنا. وكان ماركيز بلش يتوخى الحذر الشديد، حيث اعتبر ما أظهروه من همة بالغة دلالةً على المكر. وحينما نظر فيما اعترف به المسلم، أدرك أنه يقول الحقيقة دونما شك، وأنه قد صدرت الأوامر لتنفيذ حدث ما. حيال رغبته في الإمعان في التيقن من تلك الأمور التي ينبغي له معرفتها، انطلق القائد توماس دي إيرّيرا Tomás de Herrera –الذي تولى قيادة فرسان أدرا، في أعقاب وفاة دييغو غاسكا– ليلاً يرافقه نفر من رفاقه؛ فاعتقل ثلاثة من الموريسكيين، وأحضرهم موثوقي الأيدي إلى المعسكر. شكر ماركيز بلش له صنيعه كثيراً، وأمر مستشاره القانوني الأب ناباس دي بويبلا بإخضاعهم للتعذيب. لم يشأ اثنان منهم الإفصاح عن أي شيء، بينما أعلن الثالث عن صحة ما أدلى به الجاسوس آنفًا؛ وقال لهم أن يشنقوه إذا لم يأت ابن أمية للإغارة على المعسكر في غضون ثلاثة أو أربعة أيام. وأنه سيصطحب معه سائر الجموع التي حشدها في بالور، مقسمةً إلى ثلاث مجموعات: ليهجم بأولاها على البلدة من البقعة السهلية، حتى يجذب سلاح الفرسان إلى تلك الناحية؛ لكي يتسنى له الانقضاض على المخيمات بالقسمين المتبقيين وهو بمأمن. لأنه كان ينتوي من خلال سلوك ذاك النهج أن يفرّق جموع المسيحيين،

حتى لا يتصدوا له أو يفرضوا سيطرتهم عليه فى أى وقت من الأوقات. كما أن كل من سيحضرون برفقته هم أناس منتقون: فأحدثهم سنًا لا يقل عن العشرين، وأكبرهم لا يتخطى الأربعين عامًا.

أسفرت تلك الاعترافات عن تنامى حذر ماركيز بلش، الذى تعاظم كثيرًا عندما وصل المسلمون فى أحد الأيام إلى التجول فى بيرخا، وحملهم لأمتعة باتوا يجمعون بها الأعشاب من أجل إطعام الخيول، وهو أمر لم يكونوا قد جسروا على القيام به من قبل، وفهم الماركيز أن مجيئهم كان اختبارًا، حتى يروا إذا ما كان الرجال سيهرعون لدق ناقوس الخطر؛ وكذلك لحساب بعد المسافة التى تفصل سلاح الفرسان عن جموع المشاة. على ضوء رغبة ماركيز بلش فى استعراض ومشاهدة ما فى حوزته من جنود، دون أن يعى أحد الغاية التى يسعى إلى تحقيقها، أمر بخروج الفرسان والمشاة على سبيل المرح، للقيام ببعض المناوشات فى الحقول. لاحقًا، بعد أن حل الظلام الدامس، أمر باستدعاء السيد خوان إنريكيث -الذى كان قد عاد من غرناطة-، وكل من السادة دييغو، وخوان، وفرانثيسكو فاخاردو؛ بالإضافة إلى السيد دييغو دى لِيّبا، وفرسان وقادة آخرين ممن يضطلعون بأدوار فى مجلسه. وحينما أمسوا مجتمعين فى مقر إقامته، ظل يجول فى أرجاء غرفته لوقت طويل دون أن ينبس ببنت شفة، وهو لا يدرى ما العمل.

تراءى له إنه إذا ما أعلن عن مجىء ابن أمية، فإن غالبية من معه هناك من الرجال سيدعونه ويرحلون؛ وكان عددهم لا يرتقى إلى ألفين وخمسمائة جندى -من المشاة والفرسان. وإذا ما كتم الأمر، فكان يخشى أن يفاجئه العدو وهو غافل. فى نهاية الأمر، بعد أن ظل مترددًا فى فكره، خاطبهم على النحو التالى: "أنتم تظنون أيها السادة أن ما قمنا به اليوم كان بداعى الترفيه. فلتعلموا إذن أن الغرض كان الوقوف على ما لدينا من جنود، لأننى لم أكن أريد القيام باستعراض عام. وقد عثرت على قوات مشاة هزيلة، وأعداد ضئيلة ودون المستوى من الفرسان. لابد للمسلمين من الإغارة على مخيمنا هذه الليلة لا محالة. فانظروا ما الذى يتعين علينا فعله فى رأيكم. وأنا إلى جانب كونى أتحدث عن أناس على قدر عال من الكفاءة، فها قد رأينا المحل

الذى ننزل به: فهو ليس بالمنيع، أو الآمن، أو بالذى يمكن الدفاع عنه. وإذا ما ذهبنا من هنا، فإننا هالكون لا محالة، وكذا الحال إذا ما بقينا!".

فى أعقاب ترديده لتلك الكلمات الأخيرة مرات عديدة، أجابه السيد خوان إنريكى متسائلاً لم لم يأمر بإقامة متاريس بالمكان، وتعزيزه، على مدار الشهر الذى قضاه مستقراً به، لمّا كان على دراية بمدى قلة تحصين ذاك الموضع؟ فرد الماركيز على قوله وهو يستشيط غضبًا: "لا يمكننى قول أى شىء فى ذاك الصدد، إلى أن ينتهى ذاك الأمر الآخر إلى خير أو إلى شر". وقد ظل الحوار دائراً، إلى أن تم تبنى قرار بأن أفضل حل -على ضوء ضيق الوقت الشديد- هو إصدار الأوامر إلى الجنود للاحتشاد خلف ألويتهم؛ وحمل الأسلحة فى أيديهم، حتى لا يباغتهم الأعداء وهم غافلون. استحسن الماركيز ذاك الرأى، بيد أنه لم يشأ أن يفصح عن الغاية التى من أجلها يُتَخَذ ذاك الإجراء. بل رأى أن يتم إخبار الرجال أنه يرغب فى الانتقال إلى مخيم آخر قريب فى مكان مستو، لكى يضحى مناسبًا للجياد.

عقب التوصل إلى ذاك الاتفاق، أمر الماركيز القائد رودريغو دى مورا Rodrigo de Mora -الذى كان يشغل منصب قائد الجند- أن يتم دق الطبول لحشد الرجال؛ وأن يتخذ كافة الرجال مواضعهم؛ وأن يتم تحميل المتاع، على أن يُقَال لهم إن ذاك الأمر يجرى من أجل نقل المعسكر. من ناحية أخرى، أخبر الماركيز من بالمجلس أن ينبهوا القادة إلى ما ينتوون فى سرية، لكى لا يتوانوا، ويلزموا جانب الحرص مع الجنود. كان هناك من نقل التحذير على نسق مغاير للغاية لما جرى: حيث اكتفوا بالقول إنه عليهم ألا يضطربوا، على الرغم من مشاهدتهم لحزم الأمتعة، لأن الأمر لا يتعدى كونه تجميعًا للرجال؛ وهو ما كلف الجميع ثمنًا غاليًا. فى نهاية الأمر، قام الماركيز بتدعيم نقاط الحراسة، ومضاعفة الدوريات، ووضع فرسان على مسافات بعيدة، لكى يستطيعوا تحذير الجنود قبل وقت كاف. وبعد أن حمل أسلحته على عاتقه -وكان دائمًا ما يحضرها أثناء اختبارات الرماية-، وسرّج فرسه وكبح جماحه، مكث ما تبقى من الليل فى انتظار العدو.

الفصل العشرون

يتناول الكيفية التى أغار بها ابن أمية على معسكر ماركيز بلش فى بيرخا.

انطلق من أوخيخار فى تلك الليلة كل من: ابن أمية، والسيد إيرناندو الصغير، وخيرونيمو المالح، وابن مكنون، وخوان خيرونثّيو، والكثيرون غيرهم من القادة المسلمين؛ يرافقهم ما يربوعلى عشرة آلاف رجل. وقد وصلوا على مقربة من بيرخا فى الوقت الذى كانت طبول المعسكر تدق فيه لحشد الرجال. على الرغم من أنهم أحسوا بأن المسيحيين قد استشعروا قدومهم، فإنهم لم يكفوا عن مواصلة التقدم فى مسيرتهم. سار فى المقدمة العديد من المسلمين الذين يرتدون القمصان أعلى الثياب، من أجل أن يتم التعرف عليهم فى ظلام الليل. وقد تبعهم فيما بعد ما يقرب من ألفى رجل سيراً على الأقدام. وكان من بين هؤلاء الكثير من المغاربة، الذين يعتمرون أكاليل الزهور على رؤوسهم، لأنهم كانوا قد أقسموا أن ينتصروا أو يموتوا مجاهدين **muxehedines**؛ وهو ما يعنى فى شريعة محمد أن يصبحوا شهداء. كان أولئك الأشقياء، الذين غرر بهم الشيطان، لا يهابون الموت؛ وهم يزجون بأنفسهم بين الأخطار البالغة، ليتبعوا أملاً زائفًا فى الفوز بالنعيم الأبدى. فوصلوا إلى دورياتنا فى عزيمة ماضية، مما لم يدع أمام رجالنا مجالاً للتراجع فى الوقت المناسب. فوثبوا جميعًا كالعفاريت على المكان، وبادر بعضهم بإشهار أسلحته، بينما شرع البعض الآخر فى إطلاق سيل من الغضب العارم من نيران بنادقه، وإصدار صيحات مدوية -وفقًا لطريقتهم المعهودة- ؛ حتى أنهم صمّوا آذان سائر من بتلك الساحات.

دلف المسلمون إلى المعسكر من خلال الثكنة التى يشغلها مواطن تشينتشيّا **Chinchilla** القائد باريّونويبو **Barrionuevo**، برفقة سرية من أبناء المواضع الخاضعة فى لامانشا،

ممن غادروا إمارة بِبينا. فلمّا لم يلاقوا المقاومة التى كان يُفتَرض أن يبديها أناس محتاطون للهجوم، أمعنوا فى التقدم إلى الأمام؛ حتى أن ماركيز بلش بالكاد تمكن من امتطاء صهوة فرسه، من أجل الخروج إلى ساحة المعركة - التى كانت تقع إلى جوار مقر إقامته- قبل أن يمسوا قريبين للغاية منه. فى تلك الآونة تسبب النصح الذى قدمه الماركيز فى الإضرار برجالنا، لأن الجنود قد أعاقتهم الأمتعة، كما أن الأمتعة أدت إلى عرقلة الحركة فى الطرقات؛ ولو تصادف دخول الأعداء من الباب الذى كان الجنود سيخرجون منه، كان المسلمون سيردون الكثير من الجنود قتلى، ولربما تمكنوا من القضاء على القوات. بعد أن تلاشت حدة مشاعر الخوف الأولى، التى حملت الجنود على التقهقر إلى نقاط الحراسة، قام فرسان آل فاخاردو، والقادة: غوالتيرو، وموراً، وليون -الذين كانوا يترأسون سلاح المشاة- بالتصدى للهجوم برفقة نفر من الجنود بلغ عددهم خمسمائة. كما هب لنجدتهم الرجال الذين لم يكونوا قد فرغوا بعد من حمل الألوية، فقاتلوا ببسالة فى مواجهة الأعداء المثابرين -الذين اجتهدوا من أجل تحقيق الانتصار-؛ وأرغموهم على إيقاف تقدمهم، بعد أن قتلوا الكثيرين منهم.

ظل ماركيز بلش ساكنًا إزاء كل تلك الأحداث، حيث مكث فى ساحة القتال إلى جوار الفرسان دون أن يبادر إلى الهجوم، فى انتظار أن تسنح له فرصة جيدة للخروج إلى ميدان المعركة، لأنه كان يضع ثقته فى سلاح الفرسان، ولم يرغب فى تعريضه إلى الزخم الأول لهجوم الأعداء. وحينما أدرك ابن أمية الأهمية البالغة لتحقيقه ذلك الانتصار، بات يمد المقاتلين دائمًا برجال لتعزيزهم. على الرغم من أن هؤلاء لم يتمتعوا بنفس الحماس الذى اتسم به أولئك، بيد أن أعدادهم الوفيرة جعلت القتال ضاريًا. وأخذت القذائف والسهام تنهال على المعسكر بغزارة، حتى لم يعد هناك موقع آمن فى المكان بأسره. وقد باتت الهمم تتعالى مع تعزيزات المقاتلين الجديدة، وتجددت المعركة على نحو أجبر ماركيز بلش على إغاثة رجاله بنفسه؛ بعد أن ترك السيد فرانثيسكو فاخاردو فى الميدان مع كتيبة من المشاة. فخرج من فتحة فى أحد الحوائط الترابية كان قد أمر بإحداثها، لأن الطريق كان يغص بالأمتعة، على نحو أعاق الخيول من المرور؛ وتوجه للإغارة على الأعداء من جهتين. بيد أن السيد خوان إنريكيث اعترض طريقه،

وقال له أن يتذكر ما أخبره به الجاسوس، وأن يتوقف حتى ينظر إذا ما كان فوج أضخم من الرجال آتيًا من المنطقة المستوية. فأرسل الماركيز السيد ألونسو أبيث بينيغاس ليستطلع وجود غيمة من الغبار، أو إشارة إلى قدوم المزيد من المسلمين من خلف المكان.

فى تلك الآونة، كان رجالنا قد باتت لهم اليد الطولى فى المعركة، بينما لاذ المسلمون بالفرار. بثت الهزيمة التى ألحقها الجنود بالمسلمين الشجاعة فى أنفسهم، فأجهزوا عليهم. كما تبعوا السيد لويس فاخاردو مع انبلاج ضوء الصباح، وتوجهوا لملاحقتهم عبر الحقول، إلى أن وصلوا إلى بعض الأطراف التى تنحدر من جبل شلير. قام السيد خوان فاخاردو باعتلاء الجبل برفقة خمسمائة من الرماة، بينما سلك السيد ليون طريق داليّاس فى صحبة مائتين أخرين. وقد قُطِعَ الطريق على ستة وستين من المجاهدين المسلمين فى أحد الشوارع المسدودة داخل المكان، فلقوا حتفهم هناك جميعًا. توفى فى ذاك اليوم ألف وخمسمائة من المسلمين، وفقدوا عشرة ألوية، وعددا من الخيول والمهرات -التى اصطحبوها مزودة بالسروج والألجمة، بالإضافة إلى الكثير من الأمتعة المحملة بالمؤونة. وقد مات من بين صفوفنا اثنان وعشرون جنديًا، وسيّافان، وكان هناك العديد من الجرحى. كانت تلك الواقعة السعيدة ذات أهمية بالغة، لأنه لو خرج الأعداء منتصرين، ما كان ليبقى موريسكى واحد فى غرناطة بأسرها إلا وسيثور على الحكم. أما من بادروا بالهرب عبر الجبال، فقد وصلوا إلى بلدة أندرش وأنفاسهم مقطعة ويشعرون بقدر كبير من الإعياء. لو لم يأمر ماركيز بلش بإيقاف الرجال الذين كانوا يلاحقونهم، كانوا سيتمكنون من نحرهم بسهولة. بيد أن الماركيز لم يسمح لهم بالمضى قدمًا، لأنه كان يخشى باستمرار أن يقدم ابن أمية على مباغتته من ناحية أخرى. فحشد كافة الرجال، وعاد أدراجه إلى مقر إقامته.

تم تنبيه الماركيز لاحقًا إلى أنه فى أثناء هجوم المسلمين على المكان، قام بعض الجنود باللجوء إلى الأبراج، فى الوقت الذى انخرط فيه رفقاؤهم فى القتال. فأمر بإحضارهم للمثول أمامه، وسألهم عن الكتائب التى يتبعونها. وحينما أجابوه

-وهم يشعرون بخوف شديد من أن يأمر بمعاقبتهم- بأنهم ينتمون إلى الكتائب القادمة من لا مانشا؛ ضحك الماركيز، وخاطبهم على النسق التالى: "لا يدهشنى أنكم، يا من تجهلون طبيعة المسلمين، ولم يسبق لكم مواجهتهم، تهابون صراخهم وصيحاتهم القتالية. لكنكم إسبان، ولا ينقصكم شيء لكى تضحوا جنوداً سوى التعامل مع المسلمين. أما العقوبة التى أود أن أوقعها عليكم، نظير ما أظهرتم من تخاذل، فهى أن تتولوا تجميع جثث القتلى كافة، وتقومون بتكديسها وإحراقها. وهكذا ستتخلصون من مشاعر الخوف تلك التى اكتسبتموها". ثم أمر مستشاره القانونى ناباس دى بوبيلا أن يصحبهم؛ فجمعوا جثث ألف وأربعمائة وتسع وأربعين جسداً لمسلم قتيل، وأحرقوها.

وكذلك فقد أضرم المستشار القانونى النيران فى تسعين مسلمًا، كانوا قد تحصنوا فى مبان عدد من الطواحين الكائنة خارج البلدة. ولمّا لم يكن المعسكر على حال جيد فى ذاك المقر، حيث كان يعانى نقصًا حادًا فى المؤن، فقد انتقل إلى بلدة أدرا؛ فى أعقاب مرور ثمانية أيام على تحقيق ذاك الانتصار. وقد ظل يقتات هناك لأيام عديدة على القمح الذى جلبه الجنود من معسكر داليّاس، إلى أن أُرسِل إليه المزيد من الجنود؛ وصدرت إليه الأوامر بالدخول إلى البشرات. ولم يكن الدور الذى لعبه ذاك الحادث فى شن تلك الحملة صغيراً.

الفصل الحادى والعشرون

يتناول الكيفية التى أغار بها السيد أنطونيو دى لونا على قرية لاس ألبانيويلاس، التى كانت مسالمة، نظرًا لأن أهلها أخفوا محاربين من المسلمين.

فى تلك الآونة كان المسلمون يحدثون أضرارًا بالغةً فى أرجاء غرناطة، ولوشة، والحامة. وذلك من خلال سبى، وقتل، وسرقة المسيحيين؛ حيث لم يعد هناك شىء آمن فى كل تلك المقاطعات. وقد أمسى من المعتاد أن يخرج أهالى بقاع الوادى إلى هاوية الساقية، لانتظار الدوريات التى تمضى بالمؤن إلى معقلى تابلاتى وأورخيبا. وفى بعض الأحايين كانوا يقتلون الجنود وسائقى عربات الإمداد، ويستولون عليها منهم؛ على الرغم من زعم المسلمين بأنهم قد خضعوا لحكم جلالة الملك. ولمّا كان المسيحيون يحسبون أن العديد من أهالى لاس ألبانيويلاس –وهو أحد المواضع الخاضعة– ضالعون فى ذاك الأمر، وإنه يتم استقبال الثوار هناك؛ أخذ السيد خوان دى أوستريا برأى سيادة الرئيس بدرو دى ديثا، وقرر أن يطبق عليهم عقوبة رادعة. حيث قال إنه إذا ما كانت الحروب تُدار بالحزم، فإن إعادة لانضباط العسكرى لسابق عهده يعد أمرًا ضروريًا وشديد المواءمة لتلك المعركة، حتى يدب الخوف فى نفوس باقى الأهالى.

عقب التشاور فى الأمر مع جلالة الملك، صدرت الأوامر إلى السيد أنطونيو دى لونا، لكى يتوجه للاضطلاع بمهمة إنزال العقوبة المزمعة. على أن ترافقه قوات المشاة والفرسان المقيمة فى قرى الغوطة، إلى جانب المائة رمّاح التابعين لإثيخا، والذين يخضعون لسلطة تِيّو غونثاليث دى أغيلار. وبما أن حاجب البلدة بارتولومى

دى سانتا ماريا(*) كان قد قدم خدمات جليلة، وتحذيرات حقيقية، فإنه لم يكن من الإنصاف أن يلقى نفس العقوبة التى تُطبَّق على الأشرار. فأرسل إلى الكاهن القانونى أوخيدا -وكان صديقًا حميمًا له- وإلى الرجال، لكى يولوه عنايتهم.

وصل السيد أنطونيو دى لونا إلى البادول فى أول أيام شهر يونيو. وقد علم إبان وصوله كيف أنه قد أُذيع فى أرجاء لاس ألبانيويلاس فى اليوم السابق، إنه يحظر على أى من الأهالى استضافة مسلمين غرباء؛ وأنه يتعين على الموجودين بالبلدة الخروج منها. حينما تراءى له أنه قد تم تنبيههم، لم يشأ مغادرة البلدة فى تلك الليلة، حتى يحيط السيد خوان دى أوستريا علمًا بما حدث. فأرسل إليه ذاك الأخير يأمره بتنفيذ ما تم الاتفاق عليه على الرغم من ذلك.

فى أعقاب تلقى ذاك الأمر الثانى، انطلق السيد أنطونيو ليلاً من مقر إقامته، مصطحبًا معه السيد لويس دى كاردونا Luis de Cardona -الابن الأكبر لدوق سوما Soma. وقد قابل فى الطريق أربعة من الموريسكيين، كانوا قادمين من لاس ألبانيويلاس إلى بادول، مع شحنات الخبز التى يسهمون بها كل أسبوع فى إطعام محاربى ذاك المعقل؛ فأمر بطعنهم بالرماح. ثم واصل تقدمه دون توقف، وأغار على الحى الكائن بالموضع الرئيس بعد طلوع الصباح. سنحت الفرصة للوبى -الثائر الجبلى الشهير- ،الذى كان موجودًا بالداخل مع أناس من المحاربين، للهرب إلى الجبل. ومكث الجانب الأكبر من الأهالى فى ديارهم فى الخفاء، بوصفهم رجالا بدوا وكأنهم لم يقترفوا ذنبًا، وإنه يكفى طردهم للمسلمين الغرباء حتى يتم الصفح عنهم. حينما أحس الأهالى بالجلبة التى أحدثها الجنود، الذين اقتحموا الشوارع غاضبين، خرج بعضهم لتبرئة ساحتهم؛ بيد أن هؤلاء وغيرهم لقوا حتفهم، ولم يتسن للكاهن القانونى أوخيدا حماية صديقه حاجب البلدة.

(*) انظر الفصل التاسع والثلاثين من الكتاب الرابع؛ والفصلين الرابع والثامن والثلاثين من الكتاب الخامس. (المترجمة)

فرّ الأناس غير المحاربين إلى الجبل، ظنًا منهم فى إمكانية نجاتهم فى تلك الناحية. لكن تيّو غونثاليث دى أغيلار، الذى كان فى الطليعة مع الفرسان، انقض عليهم أعلى أحد السفوح؛ وحملهم على إنزال ما يربو على ألف وخمسمائة امرأة إلى الأسفل، بالإضافة إلى كم هائل من الأمتعة؛ فبسط المشاة نفوذهم عليها جميعًا. وكان من الجائز أن يهلك هو خلال تلك المطاردة، لأنه أثناء ارتقائه الجبل، تعلق فرسه بين صخرتين، فى موضع مفرط فى الضيق، فلم يتمكن من الدوران إلى الخلف أو المضى قدمًا. بات من الضرورى بالنسبة إليه الترجل عن حصانه والتخلى عنه، لكن سيّافين من أفراد كتيبته حضرا لنجدة الفرس فيما بعد ؛ فلم يقدرا على إخراجه، وأوقعاه إلى أسفل الهاوية؛ فهبط على جبل من الرمال كان قد حمله تيار المياه إلى ذاك الموضع، وقُطعت إحدى رجليه الأماميتين. على الرغم من ذلك، فقد هبطا من أجله، وحملاه - بينما هو على تلك الشاكلة- لأنهما لم يرغبا أن يُقال فى أى وقت من الأوقات إن المسلمين قد استولوا على فرس القائد.

فى ذاك اليوم احتمى أحد المسلمين البواسل بداره، حاملاً قوسًا فولاذيًا فى يده. واستطاع، عبر نافذة صغيرة فى إحدى الغرف، أن يردى حامل راية كتيبة السيد بدرو دى بينيدا **Pedro de Pineda** قتيلاً. وكان قد دلف بالراية إلى الداخل بحثًا عما يسرقه. وقد قام بالأمر ذاته مع جنديين آخرين أرادا التراجع لاسترداد الراية. فاختلف إلى ذاك الرجل السيد بدرو دى بينيدا، وجندى من كتيبته يدعى ثاياس **Zayas**، وهو من أهالى إشبيلية؛ وأخذ يقذفه بالرماح بينما المسلم محتمى بترس دائرى وخوذة، كانت ذات نفع كبير. فلمّا أخطأ المسلم إصابة هدفه، بادره ثاياس بطعنة سيف اخترقته؛ فانقض عليه المسلم والسيف قد عبرجسده من جهة إلى أخرى، وصارع إلى أن انتزع خنجرًا كان يحمله فى وسطه. فطعنه به بشدة رغمًا عن إصابته بالسيف، حتى أنه أغمده فى جسده، وكاد أن يقتله لولا أن حالت إصابته دون ذلك. ففى نهاية الأمر، لم يقو على مقاومة إغماءة الموت؛ فكف عن الاشتباك، وهوى إلى الأرض؛ فقطع الجندى رأسه، واستعاد القائد رايته.

عقب الانتهاء من ذلك الأمر، أراد القادة والجنود نهب المنازل؛ لأنها كانت عامرة بالثروات، التى كان الأهالى قد جلبوها من أماكن أخرى، لكون ذلك الموضع خاضعًا، وما كانوا يرغبون فى تركها للأعداء. بيد أن السيد أنطونيو دى لونا لم يوافق على القيام بذلك؛ وقال أنه قد ورده تحذير حول مجىء ما يزيد على ستة آلاف مسلم من غواخاراس، استجابة للإشارات الدخانية التى تم إرسالها؛ وأنه ليس من الملائم أن يتوقف. ورغمًا عن وجود الكثير من المطالبة بذاك الأمر، كان لابد للمنازل أن تظل ممتلئة. عاد رجالنا إلى بادول -التى تقع على مسافة فرسخين من هناك- فى ذاك اليوم، مصطحبين ما يربو على ألفى وخمسمائة نفس أسيرة، وكمًا ضخمًا من الأمتعة والماشية من كل شكل ولون. أمر السيد خوان دى أوستريا بتقسيم ذلك الفىء بين الجنود، واتخاذ الأسيرات إماءً. كما أطلق سراح زوجة بارتولومى دى سانتا ماريا، وبناته، وبنات إخوته؛ بعد أن دفع لمن وقعن فى جعبته لحسن حظه ستمائة دوقية من الأموال الخاصة بجلالة الملك. بالإضافة إلى ذلك، فقد منحهن إذنًا حتى يتمكّن من العيش فى غرناطة، أو أينما يشأن فى تلك المملكة.

الفصل الثاني والعشرون

يتناول وصول القائد العام لقوات قشتالة إلى شاطئ بلش، وتصميمه على الاضطلاع بالحملة بذاته وبرفقة الرجال الذين معه، في أعقاب تنبيهه إلى ما جرى أثناء واقعة جبل فريخيليانا.

وصل القائد العام لرهبانية قشتالة العسكرية إلى أدرا فى أول أيام شهر مايو، ولم يبق هناك أكثر من ساعة واحدة. ثم أبحر بالخمس وعشرين سفينة التى ترافقه إلى مدينة المنكب، حيث تم تنبيهه إلى كل ما جرى لرجالنا فى جبل فريخيليانا، الكائنة بجبل منتميس. فأبحر صوب شاطئ بلش، ووصل إلى برج البحر -الذى يقع على مسافة تزيد قليلاً على نصف فرسخ من المدينة- فى الوقت الذى كان أريبالو دى ثواثو يعمل بحرص بالغ على تشتيت المسلمين الذين كانوا قد احتشدوا هناك. فبادر ذلك الأخير بالتوجه إلى ساحل البحر، بعد أن شاهد السفن. ولمّا كان القائد العام يرغب فى أن يعلم ما حدث بالضبط، والحالة التى وصلت إليها الأمور فى تلك الناحية، فقد أرسل فرقاطة إلى البر. صعد أريبالو دى ثواثو على متنها، وذهب للقائه فى السفينة الملكية؛ حيث تداولوا الأمر، والأهمية البالغة التى يمثلها تشتيت أولئك المسلمين، قبل أن تقوى شوكتهم أكثر مع إمدادهم بقوات تعزيز خارجية؛ كما تباحثوا حول اقتحام ذلك الجبل عنوةً، حيث احتشد به رجال وثروات جبل منتميس.

بادر القائد العام، الذى لم يكن يسعده شيء أكثر من توظيف أولئك الجنود المتميزين فى أمر يمكن الانتفاع به، بالحديث قائلاً إنه يسره الاضطلاع بتلك الحملة على عاتقه؛ بيد أنه لم تصدر إليه الأوامر فى ذاك الصدد. كما أنه لم يأت مزوداً بالمؤن أو الأمور الضرورية الأخرى. وقد تراءى له -بمقتضى عدد الأعداء المجتمعين والمكان

الذى يتمتع بذاك القدر من الحصانة- إنه سيصبح من الضرورى توافر عدد أكبر من الرجال، وتدابير شديدة الملائمة للأوضاع. لكنه فى النهاية ذلل كافة تلك العقبات بنيته الصادقة؛ كما أنه أدرك من حديث المأمور القضائى كم الفرسان والراجلين، الذين يمكن تجميعهم من البقاع التى تدخل تحت نطاق سلطته؛ وما يمكن تزويده به من مؤن ومتاع. لم يتبق سوى صدور القرار. وبينما كان يتم الإسراع فى تجهيز الأشياء الأخرى، أرسل الفارس القطالونى ميغيل دى مونكادا Miguel de Moncada -وكان أحد أبناء عمومته- عن طريق البريد إلى غرناطة، من أجل أن يحيط السيد خوان دى أوستريا علمًا بذاك الأمر، ويطلب منه الإذن لتنفيذه. فى أعقاب مغادرة السيد ميغيل دى مونكادا، أمر المأمور القضائى القائد العام بإنزال الجنود من على متن السفن؛ وقام باستعراض عام للقوات، فألفى لديهم ألفين وستمائة من جنود إيطاليا، وأربعمائة من جنود البحرية العاديين. للحيلولة دون إضاعة الوقت، ريثما تصله الأوامر من السيد خوان دى أوستريا، بعث بالسيد مارتين دى باديًا Martín de Padilla -الذى أمسى فيما بعد حاكمًا على قشتالة، وقائدًا لأسطول إسبانيا- برفقة مائتين من رماة بلش وستين فارسًا، لاستكشاف الحصن، ورؤية إذا ما كان هناك نفر من المسلمين المتمردين يجولون خارج أسواره، ليتمكن من استطلاع الأنباء بعد استجوابهم.

وصل السيد خوان دى مونكادا إلى غرناطة، وقص على المجلس الأمر الذى جاء من أجله. ثم عاد أدراجه إلى بلش بالهمة ذاتها، بعد أن صدرت إليه الأوامر الخاصة باضطلاع القائد العام بتلك الحملة. أرسل المجلس لاحقًا يأمر السيد غوميث دى فيغيروا Gómez de Figueroa -المأمور القضائى لكل من: لوشة، والحامة، وقلعة يحصب- ، والأب سوتو Soto -الحاكم العام لبلدة أرشدونة- ، لكى يتوجها للانضمام إلى القائد العام برفقة أكبر عدد يتسنى لهما جمعه من المشاة والفرسان التابعين لهما. حيث أدرك المجلس أنه من الضرورى توفير أعداد من الرجال تفوق الموجودين حاليًا، من أجل تحقيق الهدف المرجو. لكن حينما وصلا إلى هناك، كان الوقت متأخرًا، على الرغم من العجلة الشديدة التى أظهراها عند الإعداد للحملة.

الفصل الثالث والعشرون

يتناول قيام القائد العام بحشد الرجال كلهم فى توروّكس، ثم توجهه من هناك لنصب معسكره أعلى جبل فريخيليانا.

فى أعقاب اتخاذ كافة الإجراءات اللازمة لشن الحملة، انطلق أريبالو دى ثواثو من بلش فى سادس أيام شهر يونيو، يرافقه ألفان ومائتا راجل وأربعمائة فارس، من المدينتين التابعتين لنطاق سلطته. وتوجه لنصب معسكره على مقربة من بلدة توروّكس، فى أحد الأماكن الحصينة القريبة من النهر. فى ذات اليوم رسى على البر القائد العام لرهبانية قشتالة العسكرية. وتوجه لاستطلاع الحصن فى صحبة السيد خوان دى كارديناس Juan de Cardenas –الذى أضحى الآن كونت ميراندا–، والسيد بدرو دى باديًا، والسيد خوان دى ثانوغيرا، وفرسان وقادة آخرين. فشاهد –فى أثناء عودته– مقاتلى المدينتين؛ مما بث فى نفسه سرورًا بالغًا إزاء رؤية مدى التنظيم الجيد لصفوفهم. فرجع للمكوث على متن السفن خلال تلك الليلة، وفى اليوم التالى قام بإنزال جنود المشاة التابعين له على شاطئ قلعة توروّكس.

بعد أن اصطف هؤلاء وأولئك فى مواضعهم، سار كلا المعسكرين –كل على حدة– متوجهين إلى الأعداء. توجه القائد العام إلى عين مياه ألامو لإقامة معسكره عندها، بينما قام المأمور القضائى –من ناحية أخرى– بنصب معسكره إلى جوار البقعة التى يُطلَق عليها عين أثيبوتشال Acebuchal. وذلك على أرض ظليلة كائنة ما بين الشمال والشرق، على مقربة من ميناء بلانكو (الأبيض) Blanco. كان قادة قوات مشاة مالقة هم: إيرنان دوارتى دى بارّينتوس، والسيد بدرو دى كوايًا، وغوميث باثكيث Gómez Vázquez،

ولويس دى بالديبيا، والحلف بدرو دى بيّالوبوس Pedro de Villalobos. كما ترأس قوات بلش كل من: أنطونيو بيريث Antonio Pérez، وماركوس دى لا بارّيرا، وفرانثيسكو دى بيّالوبوس Francisco de Villalobos. وكان سلاح الفرسان تحت إمرة لويس دى باث؛ بينما شغل منصب قيادة الجند كل من: القائد بيرينخل كانثير دى آموس Berengel Cáncer de Amos، ومارتين دى أنديًا Martín de Andía -وكلاهما من مواطنى بلش.

استطلع السيد مارتين دى باديًا الجبل، وأشار إلى كونه منيعا للغاية، وإنه لا يمكن اعتلاؤه من دون تكبد مشقة بالغة وخوض مخاطر شديدة. على الرغم من أن القائد العام كان يوافقه فى الرأى، فإن ما تحلى به من بصيرة نافذة وشجاعة غامرة، قاداه إلى إفهام الجنود أن الأمر ليس بالصعوبة التى يبدو عليها؛ وقال لهم إنه ما من طريق، مهما بلغت وعورته، تعجز فضيلة وعزيمة الجندى الجيد أن تسلك سبيلاً فيه. كان المكان الذى يعسكر به المأمور القضائى وعرًا وغير آمن، بيد أنه كانت هناك فائدة كبيرة من وراء احتلاله، لأنه كان يمثل المدخل الذى يمكن أن يسلكه أهالى البشرات لإغاثة الأعداء. وكان القائد العام قد عبر إلى هناك من أجل استطلاع أحوال إقامة المعسكر، وإصدار الأوامر حول ما ينبغى القيام به؛ ثم عاد إلى معسكره. وقد بات الجميع فى تلك الليلة شاهرين أسلحتهم، دون أن يحدث شىء يذكر.

حدث اشتباكان فى صبيحة اليوم التالى. نشب الأول مع قوات بلش مالقة، أثناء قطعهم مياه الساقية عن المسلمين؛ بينما حدث الآخر مع السيد ميغيل دى مونكادا، الذى كان قد خرج لاستكشاف أحوال الجبل من الجهة الشرقية، فى صحبة سبعمائة رام وخمسين فارسًا. ظل القائد يسير بالأسفل، حتى بلغ ربوة فريخيليانا؛ فشرع يتسلقها إلى أن وصل إلى ارتفاع كبير، وقام ببعض المناوشات مع نفر من المسلمين، حتى تمكن من اكتشاف المنطقة المنبسطة الكائنة على قمة الجبل. وقد أبصر أعدادًا غفيرة من الخيام، والأكواخ المقامة من أغصان الأشجار، حتى أنه بدا وكأن جيشًا جرارًا قد احتشد فى تلك البقعة. قُتِل بعض المسلمين فى غمار تلك الاشتباكات،

بينما تراجع المسيحيون إلى مخيمهم دون أن ينالهم أذى. كانت الهمم والأسلحة حاضرة من أجل شن الهجوم، الذى كان يمثل رغبةً عارمةً لدى رجالنا.

فى عشية عيد القديس بيرنابيه، أصدر القائد العام أوامره ليلاً إلى القادة، حول ما ينبغى على كل منهم الاضطلاع به، حيث أمر السيد بدرو دى باديًا أن يتوجه إلى ربوة بينيّوس Pinillos الكائنة ما بين الغرب والجنوب، وهو الموضع الذى كان السيد أريبالو دى ثواثو قد شغله فى البداية. وذلك برفقة ثلاث مجموعات من المشاة المنتمين إلى وحدات الجيش، بعد تدعيمها. أما الربوة الأخرى المسماة فريخيليانا، والتى تقع على الجهة اليمنى، فيحتلها السيد خوان دى كارديناس، شقيق السيد بدرو دى ثونيغا -كونت ميراندا-، الذى خلفه فى شغل ذاك المنصب، يصحبه أربعمائة من المقاتلين المتطوعين، ونفر من الرجال القادمين من إيطاليا. بينما تمركز القائد مارتين دى باديًا -الذى يشغل الآن منصب الحاكم العام لقشتالة، وكونت سانتا غاديا Santa Gadea- على ربوة أخرى صغيرة كانت توجد ما بين هاتين الأخريين. وذلك فى صحبة ثلاثمائة جندى من غاليرا، وبعض جنود مالقة وبلش، وأحد كتائب وحدات الجيش الإسبانى فى نابولى. فيما يتعلق بالمنطقة التى يقع بها ميناء بلانكو (الأبيض)، حيث توجد الأرض الظليلة التى أتينا على ذكرها آنفًا، فقد أمر القائد العام أن يعتلى رجال المدينتين - الذين كانوا يعسكرون فى اتجاه تلك البقعة- الربوة التى تحمل اسم كونكا Conca. لمّا كان لابد للهجوم من أن يتم فى وقت واحد، وللحيلو[illegible] البعض لوجود البعض الآخر، فقد أمرهم القائد العام أن يبعثوا [illegible] إبان وصولهم إلى مواقعهم. وألا يتحركوا حتى يسمعوا دوى طلقة مدفع صادرة من التكنة الخاصة به. وسوف نستعرض فى الفصل القادم سير المعركة، والكيفية التى تم بها فتح الحصن.

الفصل الرابع والعشرون

يتناول الهجوم الذى تم شنه على حصن فريخيليانا، وكيفية التغلب عليه بقوة السلاح.

فى أثناء تهيؤ الرجال، واتخاذهم مواضعهم، تأهبًا لسماع إشارة بدء الهجوم، أراد الجنود القادمون من إيطاليا، والذين كانوا تحت إمرة بدرو دى باديًا، أن يظفروا بشرف ومثوبة إحراز النصر. فاستبقوا الاشارة، وشرعوا فى الصعود إلى أعلى الربوة فى حماس، لكن سرعان ما لقى غالبيتهم مصرعه أو أصيب، ولم ينج من ذاك المصير سوى نفر قليل؛ لأن المسلمين كانوا فى انتظارهم بكثرة وراء تحصيناتهم، فأمطروهم بوابل من السهام والحجارة. هذا ولم يطلقوا عليهم الكثير من نيران بنادقهم، لأنه لم يكن لديهم سوى القليل منها؛ فأجبروهم على التقهقر بعد أن ألحقوا بهم خسائر، حتى أنهم كانوا قد بادروا بالتراجع. حينما شهد القائد العام الفوضى، أمر بإطلاق إشارة الهجوم، للحيلولة دون فقدانه لأولئك الجنود الجسورين. وقد تم الأمر فى سرعة وحماس شديدين، مما دل على مدى رغبة رجالنا العارمة فى الاشتباك بالأيدى مع الهمجيين الملحدين، فقد ساروا فى طرق وعرة ومنحدرة يخشى الفارون أنفسهم السير فيها.

كان هناك من نال منهم الإعياء نيلاً شديداً قبل أن يصلوا إلى القمة؛ مما ضاعف من حاجتهم إلى الاحتماء والابتعاد عن مسار الأحجار والصخور، التى كان الأعداء يقذفونها لكى تتدحرج نحوهم. ولم يكن ذاك الأمر هو أقل المخاطر التى واجهوها، حيث أضيف إلى ذلك عائق آخر شديد الضخامة. وهو أن الربوة التى كانوا يعتلونها لم تكن تسمح باندفاع الرجال فى سلاسة، كما أن المسلمين كانوا قد قاموا -فى دهاء شديد-

بنزع الشجيرات، وقطع الروابط التى شكّلتها الصخور، لكى لا يعثر الجنود على ما يسندون عليه أقدامهم، أو يجدوا ما يقبضون عليه بأيديهم. على الرغم من أن تلك الصعوبات قد خففت من اندفاع الجنود القدامى، فإن الكثيرين قد تغلبوا عليها بما تمتعوا به من جسارة؛ حتى وصلوا للالتصاق بتحصينات الأعداء.

هنالك نشبت معركة محتدمة للغاية، وحامية الوطيس بين كلا الجانبين. فلم يعد يُسمع سوى دوى الأسلحة، والأنات المفجعة لمن هووا نتيجة لعدم انتظام الصخور؛ حيث كان ذاك الموضع يصب فى صالح المسلمين أكثر منه فى صالح رجالنا. كان الهمجيون قد شرعوا فى الخروج بالفعل من الحصن، فتمكنوا بخفة حركتهم البالغة من جرح وقتل المسيحيين. وأخذ رجالنا فى التراجع، حتى يعيدوا تنظيم صفوفهم، حينما أدركوا أن حظهم عاثر أثناء القتال. عندئذ، بدأت كتائب مدينتى مالقة وبلش -فى أعقاب سماعهم لدوى المدفعية- فى تسلق حافة كونكا، والتى كانت تحوى فرسخًا مليئًا بالعقبات؛ فنجحوا فى تحقيق النصر المأمول، بعد أن ساعدتهم الفوضى التى أحدثها جنود إيطاليا. كان الأعداء يثقون فى التحصين الذى حبت به الطبيعة الجبل عند تلك المنطقة، دونما تدخل من البشر. فقد كانت تسد المدخل صخرة قائمة الانحدار ليس بها طريق أو سبيل، وقد بدت وكأنه من المستحيل أن يطأها بشر. وكان ذلك هو الداعى وراء توافد أفواج الرجال على المحل الذى تراءى لهم أنه يحتاج إلى مقاومة أكبر.

كان جنود المشاة مقسمين بين ثلاثة أماكن: حيث تواجد بعضهم عند ربوة ميناء بلانكو، والبعض الأخر عند الأرض الظليلة ذاتها(*)، بينما كان الفوج الأكبر منهم عند حافة ربوة كونكا. فى الوقت الذى احتل فيه المأمور القضائى المؤخرة مع الفرسان، ولم يتبق سوى مائتى جندى يضطلعون بمهمة حماية المخيمات. حينما وصل جنود الطليعة إلى الصخرة التى أتينا على ذكرها، وعلى الرغم من أنهم وجدوا بعض المقاومة، فقد بدأوا فى صعودها حبوًا على أيديهم وأرجلهم، وعلى أفضل نحو تسنى لهم. فباتوا يساعدون

(*) انظر الفصل السابق. (المترجمة)

بعضهم بعضًا، ولكن ليس دون وقوع قتلى بين بعض البواسل، الذين خطوا بدمائهم الطريق الذى سلكه رفاقهم. قام غونثالو دى بُوثميديانو Gonzalo de Bozmediano -وهو من بلش- برفع منشفة بيضاء على حد السيف. وكان حاملا الراية: إيرناندو دى كارابيو Hernando de Caraveo -المالقى-، وغاسبار ثيريثو Gaspar Cerezo - وهو من بلش-، كل على حدة، هما أول من رفعا أعلامهما وبرزا إلى ساحة القتال عند الحصن. وقد صحبهما قاداتهما والجنود، الذين تغلبوا بحماستهم على عقبة الصعود الصعبة، وتصدوا لهجوم الأعداء؛ بعد أن أمطروهم بنصيب وافر من الأحجار والسهام من تلك الناحية. ومضوا يحتلون مساحات شاسعة من الحصن، حتى أتيحت الفرصة للرجال الآخرين للصعود إلى الأعلى.

فى أعقاب ذلك، صعد نافخو الأبواق على الأقدام، وبادروا بعزف لحن الانتصار، وهو ما بث الجبن فى نفوس الأعداء وثبط من هممهم. بينما تعالت همة الرجال البواسل التابعين لوحدات الجيش الإسبانى فى نابولى، الذين كانوا قد رجعوا على أعقابهم ليعاودوا الهجوم على الأعداء. وقد ألمّ بهم مصير سيئ؛ كما حدث فى الهجوم الأول؛ فأمرهم القائد العام بالتراجع. اكتسب المقاتلون روحًا جديدة، وبدا الأمر وكأن القتال قد بدأ لتوه. فمن بين المائتى مسلم أو يزيدون، الذين خرجوا للهجوم على رجالنا، لم يعد أى منهم إلى الحصن؛ حيث جعلهم المسيحيون طعمة للسيوف. وحينما ألفوا المدخل خاويًا، أغاروا على الباقين على نحو حملهم على إلقاء أنفسهم إلى أسفل تلك الوهاد؛ بعد أن تعلقت آمالهم بأقدامهم، وباتوا يبحثون عن المواضع الأكثر وعورة بالجبل، والتى يمكنهم الفرار إليها والاحتماء بها.

كان أكبر هجوم شنه الأعداء، هو الإغارة على منخفضين ضيقين. كان أولهما يقع بالقرب من ربوة فريخيليانا، والآخر عند ميناء بلانكو؛ وهناك التحم معهم الفرسان التابعين لأريبالو دى ثواثو، وقتلوا منهم الكثير. وقد لجأ أناس غيرهم إلى أماكن أخرى، فوقعوا كذلك فى قبضة قوات المشاة. فى النهاية، قُتِل ألفا مسلم من بين الأربعة آلاف الذين كانوا بالحصن، بينما تمكن الباقون من الذهاب إلى البشرات؛

وكان الكثيرون منهم يعانون من جراح بالغة، حتى أنهم ماتوا في الطريق. كان هناك بعض المسلمات اللواتى قاتلن مثل الذكور البواسل، ومددن يد العون إلى أزواجهن، وإخوانهن، وأبنائهن. فلمّا شهدن ضياع الحصن، ألقين بأنفسهن على أشد الصخور وعورةً؛ لأنهم كن يفضلن الموت مقطعات إربًا إربًا، على الوقوع فى قبضة المسيحيين. بينما لم تنقص أخريات الشجاعة اللازمة لتوخى جانب الحذر، فحملن أبناءهن على أكتافهن، وبتن يقفزن من صخرة إلى صخرة كالماعز.

تم أسر ثلاثة آلاف نفس. وكان الفيء المكون من الحرير والذهب والفضة واللؤلؤ يساوى ثمنًا غاليًا. كما استولى رجالنا على كميات كبيرة من المواشى، والأغنام، والقمح، والشعير، ومؤن أخرى كان المسلمون قد جمعوها داخل الحصن بكميات كانت تكفى لإعاشتهم لأيام عديدة. لم يحرز رجالنا ذلك النصر دون أن تُهدَر دماؤهم، حيث لقى ما يزيد على أربعمائة فرد مصرعهم خلال تلك الهجمات؛ كان من بينهم السيد بدرو دى ساندوبال Pedro de Sandobal –ابن أخ أسقف أوسما. كما أفرزت المعارك ما يربو على ثمانمائة من الجرحى، وكان الجانب الأكبر منهم ينتمى للجنود القادمين من إيطاليا. كما أُصيب جميع القادة تقريبًا، وكان من ضمن الجرحى: السيد خوان دى كارديناس، والسيد أنطونيو لوثون Antonio Luzón، والسيد لويس غايتان، وكارلوس دى أنتيِّون، وفرسان آخرون.

فى أعقاب فتح الحصن وسلب ما كان به، قضى القائد العام ليلته تلك فى المعسكر، بعد أن عهد إلى سيادة القائد ألونسو لوثون بالإماء والفيء الذى غنموه هناك. فى اليوم التالى، سار إلى توروكس، بعد أن هدَّم التحصينات، وتخلص من المؤن والأشياء الأخرى التى لا يمكن حملها؛ كما أنه أصدر أوامره بمداواة الجرحى. وقد صعد من هناك على متن السفن، ليبحر إلى مالقة. فأُحسِنَ استقباله، وقام المواطنون باستضافة الفرسان والجنود فى عطف ومودة. فاعتنوا بهم وداووهم، وهو ما كان أمرًا ضروريًا، نظرًا للمشقة التى تكبدوها فى البحر والبر. توجه أريبالو دى ثواثو إلى بلش برفقة الجنود الذين يدخلون فى نطاق سلطته. وقد أفاد الجنود الأصحاء من تلك المناسبة كثيرًا.

وكان الأمر سينطبق على الجميع، لو أن توزيع الإماء -اللواتى أمسين من نصيب جنود وحدات الجيش الإسبانى فى نابولى- كان قد تم فيما بعد. بيد أنه تأخر لعدة شهور، حتى هلكن، كما هو معتاد بالنسبة للأشياء المشتركة بين الناس. ولمّا حان الوقت لتسلمهن، كن قد لقين حتفهن أو غادرن المكان.

كان حصن فريخيليانا قد فُتِحَ بالكاد، حينما قام رجال لوشة، والحامة، وقلعة يحصب، وأرشدونة -الذين يقرب عددهم من ثمانمائة جندى من المشاة والفرسان- بالذهاب إلى جبل منتميس. عندما وصلوا إلى هناك، ورأوا إنه ليس هناك ما يقومون به، جالوا كما يحلو لهم. فجمعوا الأغنام التى تسنى لهم العثور عليها فى الحقول، كما نهبوا من ديار المسلمين العديد من المخابىء العامرة بالثياب والحلى، التى أخفاها أولئك القوم إبان صعودهم إلى الجبل. ثم قفلوا عائدين إلى منازلهم، بعد أن غنموا ما لا يقل عما حصل عليه من شاركوا فى القتال.

الفصل الخامس والعشرون

يتناول إرسال ابن أمية من يتولى إشعال الثورة فى مواضع نهر المنصورة، ووصفًا لتلك الأراضى.

نهر المنصورة يعنى نهر الانتصار[١٦]. وهو ينبع من إحدى عيون المياة الموجودة على الطريق المؤدى من كانييس فى بسطة إلى سيرون، وتدعى فوينكالينتى[١٧] Fuencaliente. يجرى النهر فى واد عامر بالغيلات، متوجهًا إلى قرية تيخولا؛ مخلّفًا وراءه فى الروابى الكائنة على الجهة اليمنى -والتى تبتعد قليلاً عن مساره- البلدان التالية: سيرون، والديرة، وبايارگا، ولوكار Lúcar، وسييرّو Sierro، وسوفلوى Sofloy، وألمونيا، وبورشينا -التى تحمل صفة المدينة-، وأولولا، وفينيكس Fínix، ولانتيّرا Lanteyra، وكانتوريا Cantoria، وليخار Lījar، وكودبار Códbar، وإيرّاكس Errax، والبورش el Borx، وألبولياس Alboleas، وسوخورا Sujura أو سورخينا Surgena، وأوبيرا، ولاس كويباس، ولوبرين Lubrín، وأوريّكال Urriecal، وأنتى Ante، وبيدار Védar، وسيرينا Serena، وتيريسا، وكابريرا، وبنى تاغلا Benitagla، وألبانتشيس Albánchez. ثم يصب فى البحر الأبيض المتوسط عند برج مونتروى Montroy الذى يقع على مسافة فرسخ إلى الغرب من مدينة بيرا.

أما القرى الموجودة فى الجبال الكائنة إلى الشرق من المسار الذى يقطعه النهر ليصب فى البحر، فهى: لوكوس Lucus، وسومونتين Somontin، وبارتالوبا Partaloba،

---

(١٦) هذه من المرات القلائل التى يصيب فيها مارمول من حيث اللغة. (المراجع)

(١٧) يعنى العين السخنة أو الدافئة. (المراجع)

وكودبار Códbar، وأوريا، وألبوش، وبلش الروبيو، وبلش البلانكو. كما يحده من الناحية الغربية جبلي باكاريس Bacares وفيلابريس، الذى يُطلَق على الموضع الرئيس به تاهالي Tahalí. أما المواضع الأخرى، فهي: سينيس Senes، وتشيركوس Chercos، والكودية، والحبرة Alhabra، وبنى الوزير العالية Benalguacil el alto، وبنى الوزير المنخفضة Benalguacil el bajo، وبنى كانون Benicanon، وسينيمينا Senimina، وخينيثيت Xenecit، وكاسترو، وأوليلا دى كاسترو، وأوليلا ديل كامبو.

يقع كل من منخفض وإمارة بسطة إلى الشمال من مجرى النهر، ويضم البلدان التالية: كانييس، وبنى أماوريل Benamaurel، وثوخار، وفريلة Freyla، وكويار، وغويسكار، وكاستيّخا، وأورثي، وغاليرا، وكورتيس، بالإضافة إلى بلدان أخرى. بينما يحده من الناحية الشرقية جبلي بلش la sierra de los Vélez وموخاكار Mojácar، ومن الجنوب البحر الأبيض المتوسط.

سائر تلك البقاع عامرة بالقمح والخضروات. كما ينتج الأهالى الكثير من الحرير عالى الجودة؛ ولديهم وفرة فى رؤوس الماشية. وتكتسى سفوح الجبال على جوانب النهر بغيلات من أشجار الفاكهة والخضروات ذات جمال خلاب، حيث ترويها مياه العيون التى تنبع من تلك الجبال، وتنحدر إلى أن تصب فى النهر الرئيس. والفاكهة بجميع أنواعها مبكرة وتتميز بطعم لذيذ للغاية. تتمتع غالبية البلدان بوجود قلاع قديمة كائنة بمواقع حصينة بفعل الطبيعة؛ وبعضها بلغ قدرًا من التحصين، قد يجعل منها غير قابلة للاختراق بالقليل من المجهود.

ود الثوار تأليب كافة مواضع ذاك النهر على حكم جلالة الملك، إبان اضطلاعهم بنشر الثورة فى خيرغال؛ بيد أن خشيتهم من ماركيز بلش، الذى كان قد دخل إلى تلك البقعة -كما أسلفنا فى موضع سابق(*)-، حالت دون قيامهم بذلك. وقد سيطر عليهم ذاك الخوف طوال فترة إقامته فى تيركى. فلمّا خرج ماركيز مونديخار من البشرات،

(*) انظر الفصل الرابع والثلاثين، الكتاب الرابع. (المترجمة)

وحشد ماركيز بلش رجاله فى بيرخا، ومن بعدها فى أدرا، حضر المسلمون إلى جبال خيرغال وباكاريس، وبدءوا فى شن الهجمات على نهر المنصورة. هنا واتت ابن أمية الشجاعة لإرسال من يتولى إثارة أهالى تلك الأراضى. فى غمار سعيه لتحقيق ذاك الهدف، توجه أحد المسلمين المصاحبين له إلى موضع ألمونيا، وانطلاقًا من رغبته فى مواساة زوجة وبنات خيرونيمو المالح -اللواتى كن محتجزات لدى القائد دييغو راميريث- ، قال لهن أن يتشجعن، لأنهن سينلن حريتهن خلال خمسة عشر يومًا، وأن المالح سيأتى بذاته على رأس أناس كثيرين لتأليب تلك القرى. كان دييغو راميريث قد بالغ فى إحسان معاملة تلك الموريسكيات، وأودعهن فى دار أحد الموريسكيين من أصدقائه. حينما أردن أن يشكرن له حسن صنيعه، أخبرنه بما قاله لهن المسلم، حتى يتسنى له التزام جانب الحذر فى الوقت المناسب. فما كان من الرجل إلا أن أرسل كتابًا إلى السيد خوان دى أوستريا، يرجوه أن يبعث له ببعض المقاتلين، لكى يتمكن من تأمين تلك الأراضى قبل دخول المسلمين إليها، وإلا سوف تضيع.

لمّا لم يكن فى الإمكان تنفيذ ذاك الأمر بالسرعة التى تقتضيها الحاجة، فقد حدث فى يوم الثانى عشر من شهر يونيو من عام ١٥٦٩، أن هبط من البشرات كل من الغورّى -قادمًا من أندرش-، والبليغى el Peligui -قادمًا من خيرغال؛ كما صحبهما المالح، وقادة آخرون من المسلمين، بالإضافة إلى أربعة آلاف مقاتل. فأغاروا أولاً على بورشينا، وكانوا سيبيدون من بها من المسيحيين، لولا وجود السيد رومان Román -الكاهن القانونى لماكاييلا Macaela-، الذى كان أسيرًا بالبشرات، وعاد فى الليلة الماضية. حيث حذرهم إلى تركه لأولئك القوم وقد احتشدوا من أجل المجىء لمهاجمة البلدة مع بزوغ الفجر. عندما رأى الأهالى إن الحصن لا يوجد به قائد أو مقاتلون، لم يجرؤوا على الاحتماء بداخله، على الرغم من موقعه المنيع. فتركوه مهجورًا، وفروا إلى أوريا، وبيرا، وأجزاء أخرى. وحينما وصل المسلمون، كان المسيحيون قد غادروا البلدة منذ ثلاث ساعات فقط؛ فلم ينجحوا سوى فى نشر الثورة بين الموريسكيين القاطنين بها.

أمـا من لم يرغب منهم فى القيـام بذلك، فـقـد انهـالوا عليـهم ضـربًا بالعـصى، واصطحبوهم معهم موثوقى الأيدى. كان هناك ثلاثة من الموريسكيين البارزين لا يرغبون فى الثـورة على الحكم، فـهـجـروا نسـاءهـم وبنيـهم؛ حـيث لجـأ اثنـان منهم إلى أوريا، واحتمى الثـالث بكانتوريا. أما الباقون جميعًا، فقد توجهوا -إما بإرادتهم، أو رغمًا عنهم- إلى البشرات، حاملين معهم نساءهم وثرواتهم. قام الموريسكيون بسرقة الكنيسة وتدميرها، ثم نهبوا منازل المسيحيين، وقتلوا امرأة عجوزًا لم تشأ مغادرة الموضـع مع بقية الأهالى. نظرًا لعدم رغبتهم فى ترك ذلك الحصن مهجورًا، لما يتمتع به من مقومات؛ فقد أودعوا بداخله مقاتلين للحفاظ عليه. وقد أفادوا من أخشاب سقف الكنيسة -التى قاموا بتخريبها- لإجراء بعض الإصلاحات به، وتزويده بعدد من الغرف؛ كما شيدوا برجًا من الحجر المدقوق فى تلك الناحية. فى أعقاب قيامهم بذلك، مروا إلى أولولا والمواضع الأخرى، فأثاروا من بها من الموريسكيين، ثم نهبوا وخربوا الكنائس وبيوت المسيحيين، إلا أنهم لم يقتلوا أحدًا منهم، لأن المسلمين جميعًا كانوا قد أخذوا حذرهم، بعد تنبيه امرأة المالح وبناته لهم.

قضى موريسكيو سيرون ثلاثة أيام دون أن يعلنوا ثورتهم. حيث أعاقهم عن القيام بذلك شخص من مدريد يدعى دييغو دى ميرونس Diego de Mirones، وكان ينوب عن ماركيز بيينا فى حيازة قلعة ذاك الموضع، التى كانت تخضع لنطاق سلطته. كان السيد دييغو يولى دوريات الحراسة عنايةً شـديدةً؛ بعد أن بعث بزوجه وأبنائه إلى قشتالة، برفقة جنود طاقم الحماية، ومن يعيشون فى ذلك الموضع من المسيحيين -الذين يبلغ عددهم جميعًا مائة وثلاثين رجلاً. حينما تنامى إلى علمه أن الموريسكيين يشعلون الثورة فى مواضع النهر، حشد جميع النسوة المسيحيات داخل القلعة. أثناء وجود القادة المسلمين فى منطقة النهر، أرسلوا إليه من يخبره إنه انطلاقًا من حرصهم الشديد على صالحه، وأسفهم لما بدر منه، فإنهم ينصحونه بتسليمهم ذاك الحصن. وإنه إذا ما قام بذلك، فسيدعونه يرحل مع كل من بحوزته فى الداخل، وسيصحبونه إلى أن يودعوه موضعًا آمنًا بالقرب من بسطة. أما إذا لم يقم بذلك، فلن يفلت هو ومن معه من الموت. تسلّم دييغو دى ميرونس رسالتهم بمحيا طلق، وأمر بإطعام المسلمين الذين

حملاها إليه، ولبى مطلبهما بمنح كل واحد منهما زوجًا من النعال. ثم أجابهما بأنه يتقدم بوافر الشكر للقادة المسلمين لما أولوه من عنايه لشئونهم، بيد أنه يتولى شئون القلعة بالنيابة عن ماركيز بيينا، وأنه قد كاتبه ليرى ما يأمر به فى ذاك الصدد. وحينما يرد إليه القرار -وهو ما سيحدث فى القريب العاجل-، فسيمسى أكثر تأكدًا عند إعطائهم الرد.

عندما رجع الرجلان المسلمان بتلك الإجابة، أدرك القادة أن الغرض من وراءها هو المماطلة. وفى غضون يومين، قام المالح والحانون بالإغارة عليه مع كل من بصحبتهما من الرجال، وأشعلوا الثورة بين موريسكيى البلدة؛ ثم حاصروه على مدى اثنى عشر يومًا. وعندما أدركوا فى النهاية أنه يصد هجومهم، وأنهم لا يمتلكون مدفعية تتيح لهم إمكانية قصفه؛ كما أنهم لن يقدروا على إحراز النصر إذا ما دارت معركة بالأيدى؛ فكوا عنه الحصار. انتقلت الأفواج إلى تاهالى -وهو الموضع الذى يتبع السيد إنريكى إنريكيث-، فأثاروا من به من الموريسكيين. ثم حاصروا القلعة وهاجموها، وكان بداخلها السيد ألبارو دى لونا Álvaro de Luna، وهو أحد مواطنى باثار Bazar، مع خمسين جنديًا. كان أول ما فعلوه هو مهاجمة المتراس، وأخذوا يخرقونه حتى صنعوا فتحة فى الحائط؛ فدلفوا إلى الداخل، وأخرجوا الخيول التى كانت داخل إحدى الحظائر. ثم أرسلوا إلى صاحب القلعة يطالبونه بالاستسلام، وأخبروه أنهم سيحسنون معاملة كل الموجودين داخل القلعة، لكونها تابعة لسلطة السيد إنريكى إنريكيث. كما أنهم سيتركونهم يرحلون فى حرية إلى حيث يشاءون، حاملين أسلحتهم ومنقولاتهم. دارت مناقشات كثيرة حول ذاك الأمر، وقبل الحاكم -ما بين الخوف والرجاء- الاتفاق، على أن يمهلوه يومين اثنين فقط لتنفيذه؛ فرفع عنه المسلمون الحصار.

أقدم السيد ألبارو دى لونا على تلك الفعلة، رغمًا عن تعارضها ومشيئة رجل موريسكى يدعى خوان الوزير Juan Alguacil، وأحد أولاده. وهما من أثرى أثرياء البلدة، وكانا قد تحصنا معه داخل القلعة. فطالباه بعدم الاستسلام، لأنهما يعرضان عليه الدفاع عنه مع الموجودين داخل القلعة. لكنهما لم يتمكنا من إقناعه، بل ثارت ثائرته عليهما،

وأودعهما سجنًا مظلمًا تحت الأرض. ثم غادر القلعة، فى غضون المهلة التى منحها إياه القادة، يرافقه جميع الجنود وخمس سيدات يرتدين ثياب الرجال، وتوجه إلى مدينة ألمرية. اقتحم المسلمون القلعة، وعثروا على هذين الموريسكيين فى السجن المظلم، فأخرجوهما منه، وشنقوهما فيما بعد -وقد انتبه مليًا إلى الأمر من لا يزالون هناك. أكد لنا أناس، أخبرونا بحضورهم لتلك الواقعة، إنهما ماتا مسيحيين. وقالا إنهما يموتان لعدم خيانتهما للرب أو للملك.

فى أعقاب الظفر بقلعة تاهالى، انتقل المسلمون إلى كانتوريا. فحاصروا تلك البلدة ليوم واحد فقط، قبل أن تستسلم لهم، لأن مواطنيها كانوا جميعًا من المسلمين. وقد مضوا فى نشر الثورة فى مواضع النهر الأخرى، متبعين ذاك النسق، باستثناء قرى: أوريا، ولاس كويباس، وسيرون -التى دافعت عن قلاعها آنذاك.

الفصل السادس والعشرون

يتناول الكيفية التى عاد بها المسلمون لمحاصرة قلعة سيرون، وتوجه السيد ألونسو دى كارباخال لإغاثتها، والأوامر التى صدرت إليه بشأن عدم الذهاب إلى هناك، وعودته إلى بلدته خودار.

نزولاً على رغبة ابن أمية فى الانتهاء من احتلال كافة قرى نهر المنصورة، من أجل شن الحرب فى تلك المنطقة، حشد أكبر عدد تسنى له من الرجال، وذهب للتمركز فى جبل باكاريس. ثم أرسل من هناك قائداً يدعى ميثيبى Mecebe للإغارة على قلعة سيرون؛ فحاصرها برفقة خمسة آلاف مسلم، فى اليوم العاشر من شهر يونيو من ذاك العام، وسط سرور عارم وصيحات حرب مدوية. كان دييغو دى ميرونيس قد أرسل جندياً إلى بسطة، لكى يوجه تحذيراً من هناك إلى جلالة الملك وإلى السيد خوان دى أوستريا، حول الحالة الراهنة؛ فخرج الرجل ليلاً، وتمكن من تنفيذ المهمة التى جاء من أجلها دون أن يعيقه المسلمون عن القيام بذلك. بيد أنه فى تلك الآونة كان السيد خوان دى أوستريا على دراية بتعجل المسلمين للهجوم على القلعة -من خلال بعض الجواسيس-، وكان قد سعى لمعالجة ذلك الأمر. فاتخذ قراراً فى المجلس يفيد بوجوب توجه عدد كاف من الرجال لإغاثة القلعة، تحسبًا لاضطرارهم للاشتباك مع العدو هناك. نظراً لعدم توفر جنود نظاميين يمكن ذهابهم على وجه السرعة التى يقتضيها الأمر، قرر المجلس تكليف السيد ألونسو دى كارباخال Alonso de Carvajal -سيد خودار- بتلك المهمة؛ وحثه على حشد أكبر عدد يتسنى له من بين أقربائه، وأصدقائه، ورعاياه، من أجل الاضطلاع بمهمة الانقاذ.

كان ذلك القرار سيحالفه قدر كبير من النجاح، لو لم يتعارض معه قرار آخر. لأن جلالة الملك، حينما تم تنبيهه إلى أمر الحصار، كتب فى تلك الأثناء إلى ماركيز بلش، لكى يسعى لنجدة ذلك الحصن؛ حيث تراءى لجلالته أنه ما من أحد يمكنه إغاثته على نحو أسرع، نظراً لوجود معسكره فى أدرا، إلى جوار الحصن. تم تنبيه السيد خوان دى أوستريا إلى إصدار ذلك الأمر، فى الوقت الذى كان فيه السيد ألفونسو[١٨] دى كارباخال قد غادر بسطة يرافقه ألف وخمسمائة من حملة البنادق، ومائة وخمسون فارساً، والكثيرون من فرسان ووجهاء أبدة وبياسة، من أصدقاء وأقارب عائلته. فى نفس الآونة تقريباً، بينما كان السيد خوان دى أوستريا مجتمعاً فى أحد الأيام مع أعضاء المجلس، وصلته رسالة من ماركيز بلش، يخبره فيها بأن صاحب الجلالة قد عهد إليه بإغاثة قلعة سيرون. وأنه على ضوء بعد المسافة بينها وبين أدرا، فإنه يرى أن يحل محله فى الذهاب واحد من ثلاثة أشخاص: إما خوان رودريغيث دى بيّافويرتى مالدونادو - المأمور القضائى لغرناطة-، أو السيد لويس دى كوردوبا، أو السيد رودريغو دى بينابيديس Rodrigo de Benavides. على أن يرافقه ألف وخمسمائة راجل، وثلاثمائة فارس، وهو عدد كاف للاضطلاع بتلك المهمة.

تسبب ذلك الخطاب فى إشاعة الفوضى بين أعضاء المجلس، نظراً لما شكّله من عائق؛ فبات الرجال فى دهشة، ولم يقدروا على اتخاذ قرار حول مضى السيد ألونسو دى كارباخال قدماً فى تنفيذ الأوامر التى صدرت إليه من السيد خوان دى أوستريا، أو توجيه الأمر إليه بإيقاف مسيرته. قال لويس كيخادا إنه لا ينبغى إصدار قرار فى أعقاب الأمر الذى وجهه جلالة الملك إلى ماركيز بلش. بينما أصر سيادة الرئيس على ضرورة تنفيذ القرار الذى أصدره السيد خوان دى أوستريا إلى السيد ألونسو دى كارباخال، لأن المجلس الأعلى ما كان ليصدر أمراً معارضاً. وهو يمتلك النفوذ والأهلية للاضطلاع بذلك الأمر، انطلاقاً من موقعه كقائد عام. كما ينبغى على وجه الخصوص

---

(١٨) ورد الاسم قبل ذلك فى صيغة "ألونسو" (المراجع)

النظر إلى العائق الذى سيمثله فقد تلك القلعة، إذا ما حدث أى تأخير فى اتخاذ القرار. وضرب المثل بما جرى فى أثناء حكم الإمبراطور كارلوس، عندما كان هو بذاته يشغل منصب قائد الميدان لوحدات الجيش الإسبانى فى نابولى؛ وقد عوّل خلال تلك الأزمة على أحد الفرسان الاستثنائيين، بينما أوكل نائب الملك بدرو دى توليدو Pedro de Toledo الأمر إلى شخص آخر. فصدرت الأوامر أن يتم تنفيذ قرار نائب الملك، الذى أصدره انطلاقًا من منصبه كقائد عام.

كان لدى غالبية أعضاء المجلس الرأى نفسه ، بيد أن السيد خوان دى أوستريا دعم ما قاله السيد لويس كيخادا، وقرر عودة السيد ألونسو دى كارباخال. حيث وصلته فيما بعد رسالة أخرى من ماركيز بلش، يخبره فيها إنه قد عهد بالمهمة إلى صهره -السيد إنريكى إنريكيث- الموجود على مقربة من المحل فى بسطة، بعد أن تبين له صعوبة ذهاب أحد الفرسان الثلاثة الذين أشار إليهم لتولى عملية الإنقاذ. وقد عُرِفَ إن كل ذاك الحرص الذى أولاه ماركيز بلش للأمر، كان من أجل إبطال القرار الصادر بشأن السيد ألونسو دى كارباخال -وكان قد علم بصدوره- ؛ وذلك رغبةً منه فى إرسال أحد أعوانه. كان ماركيز بلش رجلاً مغواراً وفارساً شجاعًا وفطنًا، لكن لم يكن ممكنًا أن يقرر المرء أقصى ما حدد سمات شخصيته: أكانت شجاعته، وإقدامه، وفطنته؛ أم غروره وسعيه وراء الشهرة، مصحوبًا بتطلعه إلى نيل المناصب؟

لنعد الآن إلى روايتنا، حيث كتب السيد خوان دى أوستريا رسالةً فيما بعد إلى السيد ألونسو دى كارباخال، يأمره فيها أن يوقف مسيرته أينما تصله تلك الرسالة، وأن يعود إلى دياره، وأن يشكر -بالنيابة عنه- للرجال الذين يرافقونه الحماسة التى دفعتهم للقيام بتلك الحملة؛ إلا إنه هناك عدة أمور تراءت للمجلس وجعلت من المناسب إيقافها. وحينما بلغته الرسالة أثناء وجوده فى كويار -قبل أن يصل إلى بسطة بمسافة فرسخ واحد - عاد أدراجه وهو يشعر بضيق شديد، لعدم تركهم إياه يكمل المهمة التى كان قد خرج من أجلها. لندع الآن أمر إغاثة تلك القلعة، الذى احتوى على الكثير من

المتناقضات، نظراً لصدور قرارين بصدده، ونتطرق إلى طرد الموريسكيين من البيّازين في غرناطة. وكان سيادة الرئيس ودوق سيسا قد أمعنا فى إصرارهما على تنفيذ ذلك الأمر، حيث بدا لهما أن إولئك القوم ليس لهم جدوى، وإنه من الممكن أن ينجم عن وجودهم فى المدينة أضراراً بالغة.

الفصل السابع والعشرون

ويتناول كيفية إخراج الموريسكيين من البيّازين، وتوطينهم داخل المملكة.

كانت كل الأمور التى تشغل المجلس فى تلك الأيام تتعلق بالقرار الذى تم اتخاذه بشأن طرد الموريسكيين من البيّازين، وذلك على ضوء تدهور شئون الحرب فى كل يوم. لأن المسلمين لم يعودوا ينشرون الثورة فى القرى من أجل إخراج أهلها منها، كسابق عهدهم؛ بل للدفاع عنها، وباتوا يأملون ويثقون فى تحقيق أمور أعظم؛ وهو ما كان على ما يبدو الداعى وراء التراخى الذى شهدناه بين صفوف رجالنا، حيث لم يبتّوا فى أى من الأمور المطروحة لمعالجتها. فى النهاية، جاء أمر من صاحب الجلالة يقضى بإيداع جميع موريسكيى غرناطة والبيّازين -الذين يزيد عمرهم عن عشرة أعوام ويقل عن الستين- بالداخل، بأدنى قدر ممكن من الشغب. وأن يتم اصطحابهم إلى مواضع أندلوثيا، وغيرها من القرى المتاخمة خارج نطاق تلك المملكة؛ وأن يُسلّموا إلى القائمين على شئون العدالة مع الكشوف الخاصة بهم، حتى يمكن حصرهم. ومن أجل أن يتم ذاك الأمر دون إثارة قلاقل، فلابد من إفهامهم إنه يتم إبعادهم عن المخاطر حرصاً على صالحهم وراحة بالهم؛ وأنه فى أعقاب إخضاع الأراضى، فسوف يتم إحصاؤهم، وإثابة المخلصين منهم.

فى أعقاب إقرار الطريقة التى سيدخل بها هذا الأمر حيز التنفيذ، أمر السيد خوان دى أوستريا -عشية عيد القديس خوان فى شهر يونيو- بتهيئة المحاربين الموجودين بالمدينة وبقاع الغوطة إلى ما سيجرى. بعدها صدر منشور عام يقضى بأن يحتشد فى الكنائس سائر الموريسكيين والمدجنين الذين يقطنون فى مدينة غرناطة

أو البيّازين أوالقصبة -سواءً من الأهالى أو الغرباء. ولما كان هؤلاء القوم يشعرون بخوف شديد -لكونهم أشخاصا يدركون جيداً الجرم الذى اقترفوه، ونظراً لخشيتهم أن يتم حبسهم وإنزال عقوبة رادعة بهم- استسلموا، لأنه لم يتسن لهم القيام بأمر أخر. عندما شهد الأب ألبوتودو الكرب الشديد الذى ألمّ بهم، توجه إلى سيادة الرئيس بدرو ديثا، ونقل إليه مشاعر الرهبة والغم التى انتابتهم. فقال له ذاك الأخير أن يذهب إليهم، ويخبرهم بالنيابة عنه ألا يخافوا، لأنه يضمن لهم حياتهم. وإذا كانوا يرغبون أن يمنحهم صك أمان ممهوراً باسمه، فسوف يعطيهم إياه؛ وبالفعل قام الأب بكتابة الصك، ودفعه لسيادة الرئيس لكى يوقعه؛ وهو ما قام به من أجل طمأنتهم. وقد بث فيهم ذاك الأمر قدراً من السلوى، لأنهم ظنوا إنه لن يخدعهم لكونه رجل دين. بيد أن أكثر ما أمّنهم كان العهد الذى منحهم إياه السيد خوان دى أوستريا، فى أعقاب حبسهم داخل الكنائس؛ حيث أخبرهم إنه -باسم جلالة الملك- يشملهم بكنفه ويسبغ عليهم الحماية الملكية. وقد أكد لهم أنه لن ينالهم أى ضير، وأن إخراجهم من غرناطة يهدف إلى إقصائهم عن الخطر الذى يتعرضون له بوجودهم فى وسط المحاربين. كما أن السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس[١٩] أكد لهم أن ما يحدث هو لصالحهم، وهو ما أدى إلى طمأنة الرجال ذوى البصيرة النافذة، الذين قاموا بدورهم ببث السكينة فى نفوس الباقين.

قضى الموريسكيون ليلتهم تلك فى صحبة بعض كتائب المشاة، التى تواجدت على أبواب الكنائس لتأمينهم. فى صباح اليوم التالى، بعد أن تم تنبيه سائر المقاتلين إلى الأمر، واصطفت سراياهم فى المنطقة السهلية الكائنة بين باب البيرة والمشفى الملكى، قام كل من: السيد خوان دى أوستريا، ودوق سيسا، وماركيز مونديخار، ولويس كيخادا، والأب بيريبيسكا دى مونياتونيس -كل على حدة، تفادياً لوقوع أعمال شغب- بإخراجهم من هناك، واقتادوهم فى المنتصف، ما بين كتائب الرماة، حتى أودعوهم

(١٩) لاحظ أن سليل أسرة بنى نصر لم يتوقف عن مساندة الموريسكيين خلال الأحداث. (المراجع)

شيئًا فشيئًا في المشفى الملكي. وكان بالداخل فرانثيسكو غـوتيريث دي كويـيـار Francisco Gutiérrez de Cuéllar -الفارس التابع لمذهب القديس سانتياغو، ونائب رئيس قلم المحاسبين- الذي كان قد حضر إلى غرناطة في ذلك اليوم، بموجب القرار الذي أصدره جلالة الملك، وقد رافقه نفر من المحاسبين والكتبة، بغية تدوين أسماء وأعمار المحتجزين، حتى يمكن إحصاء وحساب من يروحون ومن يمكثون، وتسليم القوائم الخاصة بهم إلى مأموري القضاء في البقاع التي سيقصدونها. كان المشهد محزنًا لدى مشاهدة كل أولئك الرجال -من كافة الأعمار- مطأطئين رؤوسهم، وقد عقدوا أيديهم، وانهمرت العبرات على وجوههم. وقد اكتست وجوههم بالحزن والألم، عندما ألفوا أنفسهم يغادرون ديارهم العامرة، وأسرهم، ووطنهم، وبينتهم، وضياعهم، وكل الأملاك التي كانت في حوزتهم؛ كما أنهم لم يكونوا يعلمون علم اليقين المصير الذي سيلاقونه. وقد ضرب ذاك الأمر مثلاً رادعًا، لتدرك الرعية من خلاله مدى الخير الذي سيحل عليهم، عندما يكونون رعايا أوفياء لملوكهم وأسيادهم الطبيعيين. فهم، في نهاية الأمر، من يتولون حمايتهم والدفاع عنهم؛ وفي المقابل، فإن الخائن لن يجد من يجيره.

على الرغم من كل الحرص والعناية التي أولاها السيد خوان دي أوستريا، وأفراد المجلس لتلك المهمة، حدث في ذلك اليوم أمر كان سيتوجب معه قتلهم جميعًا. حيث أن السيد ألونسو دي أريانو Alonso de Arellano -أحد قادة مشاة إشبيلية- ود أن يأتي بجديد يميز كتيبته عما سواها من الفرق الأخرى، فوضع صليبًا يحمل هيئة المسيح المصلوب على سن أحد الرماح، وغطاه بخمار أسود، ثم أمر بحمله في مقدمة الصفوف. حينما دلف من باب البيرة يصحبه الموريسكيون التابعون لكنيستين وسط الجنود، أبصر أولئك التعساء ذلك الشعار، وفطنوا إلى أنهم يسوقونهم إلى مصارعهم؛ حتى أن الموريسكيات اللواتي كن يبكين من خلفهم أدركن نفس الشيء. وقد شهدنا إحداهن تطلق صيحاتًا مدوية، وتقول باللغة العربية[٢٠] وهي تشد شعرها: "يا لكم من بائسين،

(٢٠) لاحظ أن اللغة العربية هي اللغة الطبيعية التي يتكلمها الموريسكي عندما يلم به أمر مفاجيء. (المراجع)

إنهم يقتادونكم كما تُساق الخراف إلى المذابح! ألم يكن من الأفضل لكم بكثير الموت في دياركم التي ولدتم بها؟". إبان وصول تلك الجموع إلى باب المشفى الملكي، والخوف يعتمل في نفوسها، حدث أن أحد رؤساء الشرطة يدعى بيلاسكو Velasco، وجه ضربةً بالعصا إلى واحد من الغلمان الموريسكيين كان يفتقر إلى الفطنة قليلاً، وكان يحمل تحت ذراعه نصف قالب من الطوب؛ فألقى الموريسكي الحجر عليه وجرحه في أذنه. فبادر إليه جنود الحراسة المسلحين بالرماح ذات البلطة، وقتلوا الموريسكي.

بيد أن الأمر لم يكن ليقف عند ذاك الحد، لأن الجنود كانوا سيبيدونهم عن بكرة أبيهم، عندما ظنوا أن من أُصيب هو السيد خوان دي أوستريا -الذي كان يرتدي الألوان ذاتها الخاصة بثياب بيلاسكو. إلا أن الأمير المقدام هبَّ ليحول بينهم وبين الرجال، ووقف في المنتصف وهو يقول بصوت عال: "ما بالكم أيها الجنود؟ ألا ترون أنه إذا كان الرب يسوءه شرور المارقين، فإن غضبه يمسي أشد على أولئك الذين يعتنقون شريعته؟ فأنتم ملزمون بنهج الطريق القويم أكثر من أي صنف آخر من البشر، خاصةً فيما يتعلق بمسألة الأمانة. انظروا إذن إلى ما تفعلون! ولا تنتهكوا الأمان الذي منحتهم إياه، لأنه لم يحدث إلى الآن ما يستدعي انتهاكه. وحتى إذا ما تأخرت عدالة السماء، فإن دلائل عقاب الرب ستظهر للعيان!" فنجح من خلال تلك الحجج وغيرها -التي تأرجحت ما بين الترغيب والترهيب- في تهدئتهم. رغبةً في الحيلولة دون اندلاع القلاقل في المدينة، وقتل الجنود لمن يشاهدون في الطرقات من الموريسكيين، أمر الأمير خوان كلاً من السيد فرانثيسكو دي سوليس وإياي[٢١] أن نتوجه إلى أبواب المدينة، وألا ندع أحداً يدلف إليها. علاوةً على ذلك، فقد أمر رئيس الشرطة بأن يذهب لمداواة جرحه؛ وألا يخبر أحداً بأن هناك من تسبب في إصابته، بل أن يقول إن جواده هو قد نطحه برأسه.

---

(٢١) يتحدث مارمول عن واقعة حضرها بنفسه. (المراجع)

فى النهاية هدأت الأمور، وتم إيداع سائر الموريسكيين فى ذلك المشفى؛ وهو مبنى شديد الفخامة وفسيح للغاية، كانت الملكة الكاثوليكية إيسابيل قد أمرت بتشييده، فى أعقاب الاستيلاء على تلك المدينة بفترة وجيزة؛ وذلك لعلاج المصابين بشتى الأمراض، وإيداع المجانين فيها. وقد اقتادهم المحاربون من هناك إلى نواحى أندلوثيا، مخلّفين وراءهم آنذاك الكثير من الغلمان والشيوخ، والعديد من ذوى المناصب الذين يلزم وجودهم فى المدينة، وآخرين من أصحاب الحظوة[٢٢]. وقد بقى كذلك المدجنون[٢٣]، الذين زعموا أنه لا ينبغى معاملتهم بنفس النهج المتبع مع الموريسكيين، لأنهم دخلوا فى زمرة الرعايا المسيحيين فى أوقات الرخاء، ولم يكونوا مجبرين بدافع الحاجة كأولئك القوم. كما أن أسلافهم قد قاتلوا تحت راية الأمراء المسيحيين فى الحروب، فى الوقت الذى كان بإمكانهم الانضمام إلى صف الملوك المسلمين؛ فتم التغاضى عنهم عندئذ من هذا المنطلق.

بعد الانتهاء من ذلك الأمر، بدأت تسود المدينة أجواء أكثر أمنًا. بيد أن من كانوا قد شهدوا الرخاء، والنظام، والفخامة التى اتسمت بها الديار، والضياع، والمزارع - التى قضى فيها الموريسكيون أوقات فراغهم، وتمتعوا بأسباب اللهو والتسلية- شعروا بالأسى الشديد، بعد أن رأوها فى غضون أيام قلائل وقد باتت خربة ومهدمة، وفى حالة يرثى لها. حتى أن تعرض تلك المدينة، التى كانت تفيض بالسعادة، لذلك القدر الكبير من الدمار بدا أمرًا جيدًا، حتى يدرك الناس أن مظاهر الرخاء أكثر عرضة لنكبات الحظ العثر. كان أهالى البيّازين لديهم نبوءة، وكان مفادها -وفقًا لما أخبرنا به نفر منهم- أنه سيأتى عليهم زمن يشهدون فيه سيل جدول من الدماء الموريسكية ينهمر من

---

(٢٢) أى أن إجلاء الموريسكيين لم يكن كاملاً. هذا يفسر -جزئيًا- بقاء التراث الأندلسى فى غرناطة حتى بعد نفى الموريسكيين إلى مناطق قشتالية. (المراجع)

(٢٣) لا نفهم بالضبط ما الذى يعنيه مارمول بكلمة "مدجنين"، فالواقع أن هذا المصطلح لم يعد دقيقًا اعتبارًا من فبراير عام ١٥٠٢ عندما حُظرت ممارسة الشعائر الإسلامية بشكل رسمى. على أى حال فقد تحول "المدجنون" إلى مسيحيين أو إلى موريسكيين بعد ذلك التاريخ، ولم يعد المصطلح مستخدما. (المراجع)

أعلى القصبة، ليغطى صخرةً كبيرةً كائنةً على جانب ذلك الطريق، إلى جوار عمود الفضل pilar de la Merced. ومن الممكن أن نقول إن نبوءتهم قد تحققت فى ذلك اليوم، لأننا شاهدنا نزول أعداد هائلة من الموريسكيين من كل بقعة فى ذاك المرتفع إلى الأسفل، حتى أنهم غطوا الطريق والجبل؛ وإذا أمعنا فى الأمر مليًا، فقد كانوا يمثلون الدماء الحقيقية التى وردت فى نبوئتهم. فلندعهم الآن وحظهم العثر، حيث أن من بقوا سوف يلحقون بهم عما قريب؛ ولنعد إلى نهر المنصورة، الذى كنا قد تركنا الحديث عنه عند حصار قلعة سيرون.

الفصل الثامن والعشرون

يتناول كيفية إرسال السيد إنريكى إنريكيث لأخيه السيد أنطونيو إنريكيث لإغاثة قلعة سيرون، وتمكن المسلمين من إلحاق الهزيمة به.

كان المسلمون فى تلك الأونة يضغطون بشدة على المسيحيين المحاصرين داخل قلعة سيرون. وحينما تنامى إلى علم السيد خوان دى أوستريا، أن السيد إنريكى إنريكيث كان ينقصه الاستعداد الجيد لتلك الحملة، وأنه لا يستطيع الذهاب للاضطلاع بعملية الإنقاذ بذاته -وفقًا لأقوال ماركيز بلش-، بعث إليه بالسيد لويس دى كوردوبا - وكان أحد الفرسان الثلاثة الذين عينهم السيد خوان لتلك المهمة فى بادئ الأمر(*). فى غمار استعداد الرجال وتهيئهم للرحيل، وإصدار القرارات حول الأمور اللازمة لشن الحملة، بادر السيد خوان بإرسال القائد أنطونيو مورينو أولاً. بيد أنه ألمّ به مرض فى بسطة، نجم على أثره تأخر وصول النجدة، التى أتت على مهل لا يتناسب وضرورة الحال، وأسفر عن وقوع الصعوبات التى سنسوقها لاحقًا.

عندما وجد القائد دييغو دى ميرونيس نفسه فى مأزق عصيب، نظرًا لعدم توفر مياه تكفى لكل ذلك العدد الموجود بحوزته فى الداخل؛ وكان المتسببون فيما حدث هم الجنود والأهالى أنفسهم، الذين شُغلوا بنهب منازل البلدة فى أعقاب مغادرة الموريسكيين، ولم يرغبوا فى ملء الجب - الذى كان سيعود عليهم بالنفع أكثر من الغنائم الحقيرة التى أودعوها داخل القلعة-؛ حمل ثلاثة من الجنود ضخام الجثة ذوى

(*) انظر الفصل السادس والعشرين. (المترجمة)

أصول عربية على التدلي من أسوار القلعة ليلاً، وأمرهم أن يحاولوا قدر استطاعتهم التخفي، والمرور من معسكر الأعداء -كل على حدة-؛ وأن يتوجهوا إلى مدينة بسطة لإنذار من بها بالحال التي تركوه عليها؛ وأن يقولوا للسيد إنريكي إنريكيث أن يبعث له بقوات إغاثة. في أثناء العودة، عليهم أن يسعوا لجلب بعض الذخيرة على أكتافهم - على أفضل نحو يتسنى لهم. كما نبههم القائد أنهم إذا تبين لهم عدم تمكنهم -حيال رجوعهم- من بلوغ القلعة في أمان، فليبعثوا له بإشارة دخانية في أثناء النهار، من ربوة خابيا Javea، التي تقع على مسافة فرسخين من سيرون من ناحية بسطة. وإذا ما رد عليهم بإشارة أخرى من برج القسم فليتقدموا؛ وإلا فليعودوا أدراجهم.

غادر أولئك الجنود الثلاثة القلعة -على النحو الذي أسلفناه- في يوم عيد القديس بدرو، الموافق التاسع والعشرين من شهر يونيو. وقد حالفهم حظ وافر، حيث تمكنوا من العبور وسط معسكر المسلمين، دون أن يتم التعرف عليهم. فوصلوا إلى بسطة، ونقلوا إلى السيد إنريكي الرسالة التي يحملونها. لكن ذلك الأخير لم يذهب لنجدة القلعة، لأنه كان مريضاً؛ كما أنه لم يرسل إليها المدد حينئذ، لأنه كان يفتقر إلى أعداد كافية تتيح له القيام بذلك، وكان ينتظر أن يرد إليه المزيد من الخارج. فأمر بتزويد كل منهم بصرّة من البارود، وصرفهم، بعد أن أمرهم بإخبار القائد ميرونيس أنه سيأتي لنجدته على وجه السرعة، وأن عليه تأخير المواجهة قدر استطاعته. حدث فيما بعد أن الموريسكيين القاطنين في مدينة بسطة أبصروا الجنود الثلاثة، وأدركوا ما هم بصدده، لأنه كان لديهم جواسيس داخل منزل السيد إنريكي ذاته. ورغبةً منهم في تحذير المسلمين، أخذوا أوصافهم، وأرسلوا أحد الموريسكيين إلى القائد ميثيبي لتنبيهه إلى الأمر، حتى يحرص على إلقاء القبض عليهم إذا ما حضروا إلى المعسكر.

لجأ ذلك القائد إلى خدعة حربية كان من الممكن أن تعود عليه بالنفع، حيث أمر بتوجه بعض المسلمين من المتحدثين بالإسبانية إلى القلعة، ليقولوا لمن بها إن المسيحيين الثلاثة الذين كانوا قد أرسلوهم إلى بسطة لقوا حتفهم، ويخبروهم بما لديهم من أوصافهم؛ ويقنعوهم بالاستسلام، لأنه ما من سبيل لنجاتهم، بل إنهم هالكون لا محالة. بيد أن المحاصرين أدركوا لاحقًا أن ما يقوله المسلمون ليس صحيحًا، لأن الجنود

أرسلوا الإشارة الدخانية التى أمروا بإرسالها من ربوة خابيا، ولم يجيبهم من بالقلعة؛ فأدركوا بوضوح أنهم قد عادوا أدراجهم إلى بسطة، بمقتضى الأوامر التى صدرت إليهم. وقد شعروا بشيء من العزاء بعد أن أدركوا إنهم تمكنوا من المرور وتبليغ رسالتهم.

أعقب ذلك بفترة وجيزة أن عزم السيد إنريكى على إرسال قوات إغاثة برفقة شقيقه السيد أنطونيو إنريكيث، لكنها كانت هزيلة للغاية: حيث تكونت من خمسمائة من حاملى البنادق، وستين فارسًا؛ وقد صدرت إليها الأوامر بالدخول إلى سيرون من موضع لوكار -الذى يبعد عنها بمسافة ثلاثة فراسخ على ضفاف ذات النهر. وصل السيد أنطونيو إنريكيث برفقة أولئك الجنود إلى لوكار، فلم يعثر بها سوى على النساء داخل المنازل، واثنى عشر رجلاً كانوا قد تحصنوا داخل القلعة، فلم يشأ أن يوقف مسيرته لقتالهم. حينما شاهدهم السيد أنطونيو يرسلون إشارات دخانية ضخمة، وينادى بعضهم على بعض فى الأراضى، أدرك أنهم سيحشدون عددًا ضخمًا من الرجال لمواجهته، وعاد أدراجه إلى بسطة دون أن يبلغ سيرون. وبالفعل لم يخنه تفكيره، لأن الميثيبى لبى نداء الإشارات الدخانية بكل من فى صحبته من الرجال. فى أثناء وجود رجالنا فى ضيعة خاوكا Jauca، وكانوا بالكاد قد وصلوا إلى هناك، أغار المسلمون عليهم. فلمّا ألفوهم غافلين، أفلحوا فى هزيمتهم بعد أن قاموا بهجوم مباغت؛ فقتلوا ما يربو على مائتى جندى، وحملوا الباقين على الفرار. ثم عادوا إلى سيرون ذلك اليوم محملين بالأسلحة والغنائم، وهم يشعرون بالسرور الغامر للنصر الذى أحرزوه. فيما بعد أرسل ميثيبى رسالةً إلى ميرونيس، يخبره فيها ألا يصر أكثر من ذلك على المقاومة غير ذات الجدوى، لأنها لن تفيده كثيراً. وهو يعلمه فى خطابه بموت كل المسيحيين الذين حضروا لإغاثته، كما أنه سوف يعقد معه أى اتفاق يطلبه إذا ما قرر تسليمه تلك القلعة.

الفصل التاسع والعشرون

يتناول كيفية خروج دييغو دى ميرونيس للبحث عمن يغيثه، وأسره، وتسليم المحاصرين لقلعة سيرون.

أدرك المحاصرون عندئذ أنه لابد أن يكون رجالنا قد منوا بهزيمة ما، لأن الذخيرة التى كان يطلقها المسلمون كان صداها أفضل من تلك الموجهة صوبهم. وقد أدى ذلك الأمر، بالإضافة إلى مشاهدتهم للفرحة العارمة التى طغت على المعسكر بأكمله، إلى شروع من بداخل القلعة فى الشعور باليأس. فى خضم الحيرة الشديدة التى انتابتهم، شهدوا إطلال خمسين فارساً كان السيد إنريكى قد أرسلهم لإلقاء نظرة على القلعة من بعد، وأيضًا من أجل الإبقاء على الأمل فى نفوس المحاصرين، حتى مجىء السيد لويس دى كوردوبا بصحبة الجنود القادمين من غرناطة؛ حيث تنامى إلى علمه أن السيد خوان دى أوستريا قد أرسله لتولى مسألة الإنقاذ. تسبب أولئك الفرسان فى تنامى القلق الذى كان يمر به المحاصرون، لأنهم حينما أبصروا تراجعهم قبل أن يبلغوا القلعة، ظنوا أنهم يلوذون بالفرار. وبمرور الوقت بات خوفهم يتنامى، وبدأ نقص المياه الذى أغمّهم كثيراً يتفاقم. قرر دييغو دى ميرونيس مغادرة القلعة بذاته ليلاً، يصحبه ثلاثون من حملة البنادق، ليخترق بهم معسكر الأعداء، ويذهب للبحث عمن يغيثه قبل أن يموت الناس عطشاً.

غادر السيد دييغو القلعة عقب اتخاذ ذلك القرار، وأخذ يتبادل إطلاق النيران مع المسلمين، فعبر من خلالهم جميعًا دون أن يفقد رجلاً واحداً؛ وكان الجمع سينجو بسهولة بالغة، لو لم يتوقف الجنود -الذين كانوا سيموتون من شدة العطش- عند النهر

لفترة طويلة لكى يرووا عطشهم. فسنحت الفرصة للمسلمين للحاق بهم، حيث تتبعوا آثارهم من جهات مختلفة، وساروا وراء الفتائل المشتعلة فى البنادق؛ فاشتبكوا مع أربعة عشر جنديًا منهم وأردوهم قتلى، بينما تمكن الستة عشر جنديًا الآخرون من الهرب تحت جنح الظلام، فوصلوا فى اليوم التالى إلى بسطة. أما دييغو دى ميرونيس -الذى كان ممتطيًا جواده- فقد ظل يسير طوال الليل تائهًا من هوة إلى هوة، ولم يتمكن من اتباعه سوى غلام واحد. بعد أن أرهقه كثرة الدوران -نظرًا لعدم خبرته بتلك الأراضى- أطلق العنان لفرسه ليذهب أينما شاء. حينما ظن إنه بات على مقربة من كانييس، التى تقع فى منخفض بسطة، ألفى نفسه فى كرمات سيرون، لأن الجواد -الذى كان قد تربى فى ذلك الموضع- رجع إلى المكان الذى يحن إليه. اكتشف المسلمون الذين كانوا فى أبراج المراقبة وجوده، فهبطوا إليه، وتتبعوا خطاه. وفى النهاية ألقوا القبض عليه، بعد أن أضحى الفرس عاجزًا عن الحركة من فرط الإرهاق. سر الأعداء كثيرًا لذاك الاعتقال، لأنهم فطنوا إلى أن المحاصرين سيستسلمون على أثره؛ وحملوا السيد دييغو إلى خيمة الميثيبى، وكان بها كذلك المالح -الذى كان قد حضر فى تلك الآونة إلى المعسكر. فاتفقا معه على أن يحمل المسيحيين على تسليم القلعة، وفى المقابل سيمنحونه حريته، هو وكل من بالداخل -صغارًا وكبارًا، رجالاً ونساءً- على أن يخلّفوا وراءهم الأسلحة، وألا يحمل أى منهم معه ما يزيد على ثمانية ريالات. وقالوا له، ما بين الترغيب والترهيب، إنه إذا لم يوافق فإنه سيلقى ميتة قاسية.

لمّا ألفى السيد دييغو نفسه أسيرًا، ونظرًا لمعرفته بالمعوقات التى يتعرض لها من بالقلعة، ومدى صعوبة بقائهم على قيد الحياة، تراءى له أن ذلك الحل مقبول؛ لأنه كان يظن أن المسلمين سيفون بوعدهم. فحمله الأعداء مكبل الأيدى إلى أحد المنازل الكائنة بجوار بوابة القلعة، وأخذ ينادى على غونثاليث González -كاتبه الخاص- وعلى مسيحيين آخرين بأسمائهم، وقص على مسامعهم النكبة التى ألمت به، ورجاهم أن يهبط أحدهم لتأمين عقد الاتفاق، لأن القادة قد أحكموا الحصار، على نحو بدا له أنهم لن يفكوه. خرج الكاتب فى أعقاب ذلك، وبرفقته ثلاثة من المسيحيين، للاتفاق على بنود معاهدة تسليم القلعة مع القادة على النحو الذى أسلفناه، وبالشروط المذكورة.

وفى الحادى عشر من يوليو عام ١٥٦٩ سلم المسيحيون القلعة للمسلمين. بيد أن أعداء الرب لم يحفظوا لهم شيئًا مما عاهدوهم عليه، فاتخذوا من النساء والأطفال عبيدًا، وقتلوا الرجال جميعًا فى وحشية، وكان ضمن القتلى اثنان من القساوسة مقيمى شعائر القداس، وأربعة من النساء العجائز. عندما سأل أحد أهالى سيرون المسلمين المالح حول كيفية اقترافه مثل تلك الفعلة الشنعاء، أبرز له خطابًا من ابن أمية يأمره فيها ألا يدع على قيد الحياة أى مسيحى يتجاوز عمره اثنى عشر عامًا، وأن يعقب ذلك إرسال دييغو دى ميرونيس وسائر النساء إليه فى باكاريس. وقد قُتِل فى ذاك اليوم مائة وخمسون مسيحيًا، وأُسرت ثمانون امرأة. فى اليوم التالى وصل إلى مشارف سيرون السيد إنريكى إنريكيث والقائد أنطونيو مورينو، مصطحبين معهما طلائع قوات الإغاثة؛ فلمّا ألفوا المنازل تغص بجثث المسيحيين القتلى، والقلعة محتلة من قبل المسلمين، عادوا أدراجهم. وقد قام السيد لويس دى كوردوبا بالأمر ذاته، فرجع وهو فى الطريق، بعد أن عرف بأن سيرون قد فُقِدَت.

الفصل الثلاثون

يتناول الأوامر التي أصدرها السيد خوان دى أوستريا بشأن تزويد قلعتى بلش وأوريا بالرجال، وكيف عهد بتلك المهمة إلى السيد خوان دى أرو.

فى أعقاب فقد قلعة سيرون، أضحى المسلمون سادةً على كافة قرى نهر المنصورة. نظراً للخطر المحدق ببلدتى بلش وأوريا - بسبب وجود العديد من الموريسكيين وقلة المسيحيين بهما-، و بناءً على عدم توافر أعداد كافية من المقاتلين للدفاع عن حصن بلش البلانكو -الذى توجد به بنات ماركيز بلش-، وقلة ما به من مياه، لأن البئر الكائنة بداخله كانت متصدعة ولا تحتفظ بالماء، طلب سيادة الرئيس بدرو دى ديثا من السيد خوان دى أوستريا بإلحاح شديد أن يأمر بتدعيم هاتين القريتين، لكى لا يحدث العدو بها أضراراً. وذلك على ضوء الأوضاع الراهنة: فماركيز بلش كان يعسكر فى البشرات، ولن يتمكن من انقاذهما، حيث توجد إمكانية لإغارة المسلمين عليها من أجل احتلالهما وإثارة من بهما من المسلمين؛ هناك أمر أخر لا ينبغى القيام به، ألا وهو إخراج الماركيز من البشرات واستدعاؤه إلى تلك الناحية، وهذا شىء سينجم عنه العديد من الأضرار.

بادر السيد خوان بإصدار قرار بهذا الصدد، فكتب رسالة إلى الأب بدرو ديل أوديو Pedro del Odio -أحد مستشارى المحكمة الملكية- الذى كان موجوداً فى مدينة لورقة للفصل فى إحدى الجرائم، من أجل أن يمد هاتين البلدتين على وجه السرعة بالرجال، والمؤن، والذخائر، وسائر الأمور الأخرى اللازمة للدفاع عنهما. كما وجه أمراً إلى السيد خوان دى آرو Juan de Aro -قائد سلاح فرسان ماركيز كاربيو Carpio -

الذى كان فى طريقه إلى غرناطة، لكى يعسكر بكتيبته فى بلش البلانكو، وأن يحرص على حماية تلك الناحية، ويسعى لتلافى أى أضرار قد يلحقها به المسلمون. لم يبعث بدرو ديل أوريو سوى بأربعين جنديًا مع دييغو راميريث -قائد ألمونيا- حيث لم يتسن له إخراج عدد أكبر من الرجال من لورقة. فتوجه القائد راميريث برفقة أولئك الرجال، وستين آخرين من حملة البنادق كانت مدينة مرسية قد أرسلتهم للمشاركة فى الحملة، لاحتلال حصن أوريا. وحينما تراءى له أنه ليس آمنًا بدرجة كافية هناك، أخرج كميات من الذخيرة : بارود وفتائل البنادق ورصاص، بالإضافة إلى الكثير من الإماء الموريسكيات اللواتى كان ماركيز بلش قد أودعهن بالداخل، واصطحب كل تلك الأشياء معه إلى بلش البلانكو. ما بين هؤلاء الجنود، وأولئك الذين قدموا مع السيد خوان دى أرو، تم عندئذ تأمين هذين الموضعين -اللذين كانا سيتعرضان لخطر بالغ لو أغار عليهما المسلمون قبل أن تصلهما تلك النجدة. حيث سعى المالح لاحتلال حصن أوريا برفقة ما يربو على ثلاثة آلاف رجل، وعندما ألفى مقاومة من قبل الجنود الموجودين داخله، أشاع الثورة فى البلدة، وحمل كل الأهالى الموريسكيين معه إلى الجبال، وذلك فى يوم عيد القديس سانتياغو من ذاك العام ١٥٦٩.

الفصل الحادى والثلاثون

يتناول كيف أرسل ابن أمية رسالة إلى السيد خوان دى أوستريا، مطالبًا إياه بإطلاق سراح أبيه وأخيه الأسيرين فى غرناطة.

بعد أن بسط ابن أمية سيطرته على حصون نهر المنصورة، نصّب المالح قائداً عاماً على تلك الجبهة، وتوجه هو إلى القصور فى أندرش، ومنها قام بإرسال رجاله إلى المناطق الواقعة تحت نفوذه. وهو ما دعاه إلى الزهو، فقرر إنه من المناسب أن يسعى لإطلاق سراح أبيه وأخيه، اللذين كانا ما زالا محتجزين فى سجن المحكمة العليا فى غرناطة -كما أسلفنا. من أجل الاضطلاع بذاك الأمر قام بإرسال غلام مسيحى - كان قد أُسِرَ فى سيرون- بثلاث رسائل: واحدة إلى السيد لويس دى أوستريا، والثانية إلى السيد لويس دى كوردوبا، أما الثالثة فكانت موجهة إلى ماركيز بلش، وقد رجاه فيها أن يرشد ذلك الصبى إلى الطريق المؤدى إلى غرناطة بالرسالة التى يحملها. كما زوّد الغلام بجواز مرور مكتوب باللغة العربية، لكى لا يمسه المسلمون بسوء خلال الطريق(٢٤). وكان فحواه -بعد ترجمته إلى اللغة الرومانثية- على النسق التالى: "بسم الله الرحمن الرحيم. من القائد الأعلى المعظم -أدام الله عزه- مولاى الملك محمد بن أمية، فرج الله على يديه كرب المنكوبين والمغمومين فى الغرب. اعلموا جميعًا أن هذا الغلام مسيحى من سيرون، وأنه متوجه إلى غرناطة فى شئون خاصة بى، ومتعلقة بصالح المسلمين والمسيحيين، كما هى عادة المكاتبات بين الملوك. على كل من يراه

---

(٢٤) هذا معناه أن عامة المسلمين فى عام ١٥٦٩ كانوا يجيدون العربية. (المراجع)

أو يقابله أن يدعه يواصل مسيرته فى حرية، وأن يعينه، ويقف إلى جواره من أجل أن ينفذ المهمة التى خرج من أجلها. لأن من يقوم بخلاف ذلك، فيعيقه أو يلقى القبض عليه، سيكون قد حكم على نفسه أن يُطاح برأسه. كما ذُكِرَ بالأسفل: "كتبه ابن تشابيلا Aben Chapela، بأمر من الملك". كما جاء على الجهة اليسرى أسفل السطور حروف كبيرة، بدت وكأنها بخط يد ابن أمية، لتسطر: "هذا صحيح". فيما يعد تقليداً لنسق الملوك المسلمين فى إفريقيا، الذين لم يعتادوا على كتابة أسمائهم عند التوقيع، بل كتابة تلك الكلمات، التى تدل على مزيد من العظمة.

إبان وصول الفتى بالكتاب الذى يحمله إلى قلهرّة، أرشده ماركيز بلش إلى طريق غرناطة. فتوجه مباشرةً إلى الحمراء، وأعطى الرسائل إلى ماركيز مونديخار، وأخبره كيف أن ابن أمية قد بعثه فقط من أجل تسليمها، وأنه منحه حريته فى مقابل الاضطلاع بذلك الأمر، إلا أنه لا يدرى شيئًا عن فحواها. فتوجه الماركيز إلى السيد خوان دى أوستريا -ومعه الفتى- واجتمع أعضاء المجلس، فأراد بعضهم أن يدخل الرسول لنقل الرسالة بذاته. بيد أن الأب بيربيسكا دى مونتانيونيس قال إن السماح بمقابلة سفير مارق وخائن، يحمل السلاح بين يديه، هو أمر لا يتماشى مع مكانة السيد خوان دى أوستريا، وإنه عليهم تكليف أحد الموجودين هناك برؤية الرسائل وفحص الغلام، على أن ينقل فحواها لاحقًا فى أثناء انعقاد المجلس. فيما بعد عُهِد بالأمر إلى الأب مونتانيونيس ذاته، ففضّ الرسائل، ووجد أن محتوى الرسالة الموجهة إلى السيد خوان دى أوستريا هى أن ابن أمية قد تنامى إلى علمه التعذيب الذى تعرض له كل من السيد أنطونيو دى بالور، وأخيه السيد فرانثيسكو. وأن كليهما لا علاقة له بما يبدر منه هو، وأن الداعى وراء نشوب تلك الثورة لم يكن سوى الإهانات التى حدثت على أيدى رجال الشرطة. وهو يرجو السيد خوان بشدة أن يأمر بإحسان معاملتهما، وإلا فإنه من ناحية أخرى سيقدم على قتل كل من فى حوزته من المسيحيين. وإذا ما أراد فداءهم أو مبادلتهم بآخرين، فإنه سيقايضهم بثمانين أسيراً. وإذا ما استوجب الأمر تقديم رجال من الموجودين فى بلاد المغرب، فإنه سيأمر بجلبهم من أجل اتمام الصفقة، حتى لو كانوا يخضعون لنطاق سلطة الباب العالى.

كان هذا هو ما نصت عليه الرسالة الخاصة بالسيد خوان دى أوستريا. أما تلك الموجهة إلى السيد لويس دى كوردوبا، فلم يضمّنها سوى توصيته إياه أن يبحث ذلك الأمر مع السيد خوان دى أوستريا. عندما نقل الأب إلى المجلس ما جاء فى سياق الرسالتين، اتفق الحاضرون على عدم الرد عليه؛ على أن يتولى السيد أنطونيو دى بالور ذاته الكتابة إليه، ليؤكد له أنهما يلقيان معاملةً حسنةً، وإنه لم يتم تعذيبهما؛ وأن يخبره بوجهة نظره فى ذاك الصدد، فينصحه -بوصفه أباه- أن يرجع عن طريق الفجور الذى يسلكه؛ فما كان من الأب إلا أن قام بذلك. وفى غضون أيام قليلة، عاد ابن أمية إلى كتابة رسالة أخرى، ردًا على تلك التى بعثها إليه أبوه -عن طريق غيخار-، ووجهها إلى القائد شُعيبى Xoaybi -الذى كان يتولى حماية ذلك المعقل- وأرفق بها خطابًا آخر إليه، كان نصه كما يلى: "بعد حمد الله والثناء عليه، من القائد الأعلى المغوار ... مولاى محمد بن أمية -نصره الله- سلام من الله ورحمة وبركة على صديقه المقرب قائد غيخار الشعيبى. إن ما أرجوه منك يا أخى هو أن تبادر بإرسال ذاك الخطاب -الذى سيصلكم مكتوبًا باللغة القشتالية- إلى غرناطة، والزموا الحذر، ولا تعمدوا إلى إثارة أى قرية حتى يبلغكم الرد عليها؛ وفى أعقاب ذلك سوف آمركم أنا بما يتعين عليكم القيام به. وأستحلفكم بالله أن تتحروا الكتمان؛ وسوف آتى قريبًا لرؤيتكم، وسأمدكم بكل ما يرضيكم. سلام الله وبركاته عليكم".

إلى هنا تنتهى الرسالة الموجهة إلى القائد الشعيبى، التى كنا قد عثرنا[٢٥] عليها فى الأصل بمسكنه، عندما تمكن السيد خوان دى أوستريا لاحقًا من الظفر ببلدة غيخار. وفيما يبدو، فإن الخائن لم يبعث بالرسالة الأخرى إلى غرناطة؛ ولابد أن يكون قد فضّها، ورأى فحواها، فاحتفظ بها من أجل أن يطعن عليه بالكذب. وهكذا يتضح أن المسلمين -بوصفهم أناسًا ينزعون إلى الشك- قد حنقوا على ابن أمية عندما أدركوا

(٢٥) الواقع أن مارمول كان مسئولاً عن حسابات الجيش، لكنه ينسب إلى نفسه أعمالاً لا تتعلق بوظيفته أثناء الحرب. (المراجع)

أنه يسعى إلى الإضرار بهم. وقد أقنعهم بذلك بعض الغاضبين الذين كانوا يكرهونه نظراً للأفعال الوحشية التى اقترفها فى حق الرجال الأكثر بروزاً فى أمتهم؛ فبدءوا يدبرون لقتله فى الخفاء، وهو ما قاموا به فى النهاية -كما سنروى لكم فى موضع لاحق.

الفصل الثانى والثلاثون

يتناول الكيفية التى حشد بها ابن أمية قواته فى أندرش للإغارة على ألمرية، وهجوم السيد غارثيا دى بيّارّويل على غيثيخا، وإفساد المخطط الذى ينتويه.

كنا قد ذكرنا فى الفصل السادس والثلاثين من الكتاب الخامس، كيف أن السيد غارثيا دى بيّارّويل كان قد أمر بشنق حاجب تابيرناس فرانثيسكو لوبيث، حينما عاد لتولى قيادة مقاتلى ألمرية. لأنه خشى أن يرسل ماركيز بلش فى طلبه، استجابةً لرجاء نفر من أقاربه الموريسكيين، ممن استسلموا، وساهموا فى إخضاع موريسكى آخر -لا يقل عنه إقدامًا- يدعى ألونسو لوبيث Alonso López، وابن له يدعى بدرو لوبيث Pedro López. وكانا قد انضما فى تلك الأيام إلى معسكرنا، ثم هربا فيما بعد إلى الجبل؛ فحشدا عددًا من المسلمين، جالا بهم الأراضى، وألحقا بالمسيحيين أضرارًا بالغة، حيث أسرا وقتلا أناسًا كثيرين. كما قاما بتعزيز التحصينات فى قلعة تابيرناس، وحافظوا عليها، إلى أن احتل السيد خوان دى أوسترياس حصون نهر المنصورة، كما سيرد فى موضع لاحق. كان الموريسكيان يلحان فى الطلب على ابن أمية لكى يغير على ألمرية، وقد سهلا له تلك المهمة عندما زعما أنه لا يوجد فى المدينة محاربون يكفون للدفاع عنها، وخاصةً فى ظل وجود عدد غفير من الموريسكيين داخل أسوارها؛ وكان لدى الرجلين جواسيس بين الأهالى.

لم يخطئ الموريسكيان فيما قالاه، لأن ماركيز بلش كان قد طلب من السيد غارثيا دى بيّا رّويل -خلال شهر مارس الفائت- كتيبة الفرسان خاصته من أجل الاضطلاع بإحدى المهمات. أرسل إليه السيد غارثيا خوان دى لاس إيراس -حامل راية قواته- برفقة ثلاثين سيّافًا منتقين، إلى جانب سرية المشاة التى تتبع

القائد بيرناردينو دى كيسادا Bernardino de Quesada. فلم يعد إليه الرجال لاحقًا، وكان من تبقى معه من الجنود قليلى العدد؛ كما كانت المدينة شبه محاصرة، وظل الأعداء يضيقون الخناق على المدينة، حتى أن المسيحيين ما عادوا يجرؤون على الخروج من الأسوار؛ خاصةً بعد أن ورد إليهم تنبيه حول سعى ابن أمية لإخراجهم من إحدى الجهات، وإحاطتهم بالأسوار؛ ثم الهجوم على المدينة من جهة أخرى، وقطع الطريق عليهم خارج المدينة. حتى أنه حاول تنفيذ تلك الخطة مرتين، فبعث ما يربو على ألف مسلم ليلاً لاحتلال الحقول؛ فما كان من الجنود إلا أن اصطحبوا معهم الموريسكيين المسالمين القاطنين بتلك الأراضى، وقتلوا من لم يشأ أن يذهب معهم.

فى النهاية، قام ابن أمية بحشد أعداد غفيرة من الرجال فى أندرش، بعد أن عقد العزم على فرض الحصار على ألمرية، واحتلال ذلك الميناء -الذى يمثل أهمية بالغة لاستقبال السفن القادمة من إفريقيا. حينما تم تحذير السيد غارثيا دى بيًا رّويل إلى ذلك الأمر من قبل جواسيسه -على الرغم من أنهم لم يكونوا واثقين مما ينتويه ابن أمية، حيث أخبره البعض أن الحشود كانت تستعد للهجوم على ألمرية، بينما قال آخرون إن الهجوم سيكون على أدرا- أراد أن يدرك المخطط الذى يسعى ابن أمية إلى تحقيقه، أو الحيلولة دون تنفيذه إن أمكن. فغادر ألمرية فى الثالث والعشرين من شهر يوليو، يصاحبه مائتا جندى من حملة البنادق وثلاثون فارسًا؛ وسار فى ذلك اليوم حتى بلغ إينوكس -التى تقع إلى الشرق من ألمرية- دون أن يفصح عما ينتويه، لكى لا يأسى موريسكيو المدينة للأمر، ويحذروا أقرباءهم إلى ما يجرى؛ وحينما حل الظلام أمر بإيقاف المسيرة. حشد السيد غارثيا الجنود، وأخبرهم بالغرض الذى أخرجهم من أجله من المدينة؛ وكيف أنهم متجهون للإغارة على غيثيخا -التى يدرك وجود محاربين مسلمين بها- وأنه يرجو من الله أن يبلوا بلاءً حسنًا.

كانت بلدة غيثيخا تبعد أربعة فراسخ عن أندرش -التى جمع بها ابن أمية رجاله-، وكان هذا هو السبب الذى أراد من أجله بعض من رافقوا السيد غارثيا دى بيًا رّويل إرجاء الحملة إلى مناسبة أفضل، حينما يضحى معسكر العدو على مسافة أبعد؛

بيد أنه أقنعهم على نحو حملهم على استكمال الطريق، فعادوا ليسلكوا الناحية الشمالية، وقد واصلوا مسيرتهم طوال تلك الليلة بمشقة بالغة، لأنه بالإضافة إلى وعورة التضاريس وانحدارها الشديد، فقد كان الظلام حالكًا. مع بزوغ الفجر، توجه رجالنا للهجوم على البلدة. مكث السيد غارثيا دى بيّا روّيل فى المنطقة الخارجية مع مائة من حملة البنادق وخمسة عشر فارسًا فى صفوف منتظمة، بينما انقض شقيقه -السيد كريستوبال دى بينابيديس- على الموضع برفقة من تبقى من الرجال؛ فقتل العديد من المسلمين، وخرج إلى الجهة الأخرى مع نفر من الجنود، للحاق بمن يلوذون بالفرار صعودًا إلى الجبل.

فى تلك الآونة، أمر السيد غارثيا دى بيّا روّيل بإطلاق إشارة حشد القوات، لأن الكثير من الرجال كانوا قد انفصلوا عن الركب بعد أن أغرتهم مطاردة الأعداء؛ وهو كان يدرك أنه مع وجود ابن أمية على مسافة قريبة للغاية من البلدة، لن يتخلف عن تلبية نداء الإشارات الدخانية التى يرسلها المسلمون من الجبال. فى أعقاب تجميع رجالنا، عاد القائد أدراجه ليتوجه صوب ألمرية مع مائة وثلاثين أسيرة، والعديد من المتاع المحمل بالثياب. لم تتأخر النجدة التى بعث بها ابن أمية كثيرًا فى الوصول، حيث تمكن المسلمون الأخف حركة من اللحاق بمؤخرة الجيش عند المنخفض الذى يطلقون عليه رامون Ramón - الذى يقع على بعد فرسخين ونصف الفرسخ من ألمرية. كانت مؤخرة الجيش تضم كلاً من: السيد غارثيا، والسيد كريستوبال دى بينابيديس، وفرسانا وجنودًا آخرين من ذوى الصيت، فنصبوا كمينًا خلف أحد التلال، فى انتظار اقتراب الأعداء حتى ينقضوا عليهم. بيد أن المسلمين عدّلوا مسارهم، وسلكوا أعلى ربوة كائنة على الجهة اليسرى، وشرعوا فى إطلاق النيران على رجالنا من هناك. كان يتقدمهم جميعًا أحد المسلمين يتولى تحفيز الآخرين، وإطلاق صيحات مدوية مناديًا بأن يهجموا عليهم دون خوف؛ فأرداه واحد من الجنود صريعًا برصاص بندقيته. عقب وفاة ذلك الجندى خارت قوى الباقين جميعًا، وانصرفوا للمكوث فى تلك الروابى. لمّا لم يعد هناك من يلاحق المسيحيين، واصلوا مسيرتهم وهم محملين بكل الغنائم، ودلفوا إلى ألمرية قبل انتصاف النهار بساعة.

تركت تلك الحملة وقعًا شديدًا، لأن ابن أمية عدل عن رأيه، بعد أن أدرك أن موريسكيي المرية قد كذبوه القول؛ وأن المدينة بها رجال أكثر واحتياطات أفضل مما أخبروه به. ومنذ ذلك الحين بات حانقًا عليهم، حتى أنه أمر بقتل كل من وقع تحت يديه، بمجرد أن وردت إليه أنباء حول رؤيتهم يتحدثون إلى السيد غارثيا دى بيًا روّيل، ظنًا منه أنهم جواسيس؛ وخلال برهة وجيزة قتل ثلاثة وعشرون موريسكيًا من المدينة ونواحيها، قضى عليهم فى وحشية. حيث أمر بدفن بعضهم حتى الخاصرة، وقذفهم بالقوس؛ بينما قطّع آخرون إلى أشلاء وهم على قيد الحياة، كما أمر بنشر أحد الرجال إلى نصفين بالمنشار. منذ ذلك الحين باتوا يشعرون بخوف شديد، حتى إن الكثيرين تخلوا عن ذلك الدور؛ ولولا الربح الوفير الذى تدره تلك الوظيفة، ما كان ابن أمية ليعثر على من يود أن يصبح جاسوسًا.

الفصل الثالث والثلاثون

يتناول الحملة التى شنها السيد أنطونيو دى لونا على وادى ليكرين، والتى توفى خلالها القائد ثيسبيديس، وبعض الاشتباكات التى دارت فى خلال تلك الأيام مع الأعداء فى منطقة شلوبانية.

كان أهالى بينيوس ديل بايى Pinillos del Valle قد عادوا إلى ديارهم فى تلك الآونة. ولمّا كان بينهم نفر من المحاربين المسلمين الذين يحدثون بعض الأضرار، فقد أصدر السيد خوان دى أوستريا أمرًا إلى السيد أنطونيو دى لونا، لكى يتوجه -برفقة الكتائب التى تعسكر فى غوطة غرناطة- لشن غارة صباحية على ذلك الموقع؛ وأن يصطحب معه فى الطريق بعض الرجال الموجودين فى معقل تابلاتى. قام السيد أنطونيو بجمع ثلاثة آلاف ومائتى راجل، ومائة وعشرين فارسًا، ووصل بهما إلى تابلاتى عشية عيد القديس سانتياغو. عندما لم يجد بها القائد ثيسبيديس Céspedes -حاكم المعقل وقائد قواته، الذى كان قد ذهب إلى إحدى القرى الخاضعة هناك على مقربة من البلدة- أصدر أمرًا إلى القائد خوان دياث دى أوريا Juan Díaz de Orea، لكى يبلغه حال وصوله أن يرسل -قبيل بزوغ الفجر بساعتين- كتيبتى مشاة من الثلاثة الموجودين لديه؛ على أن يسلكوا طريق بينيوس الذى يقع على الجهة اليمنى، ويتوجهوا للإغارة على المكان عند الفجر؛ لأنه سيقوم بالأمر ذاته مع كل من برفقته من الرجال.

عندما أدرك السيد أنطونيو أن المسلمين الذين شهدوا مقدمه قد أخذوا حذرهم، وسيقومون بتكذيب الأخبار التى ينقلها الجواسيس، قرر أن يعود من حيث أتى،

حتى يعتقدوا أنها دورية حراسة كانت تجلب المؤن، وقد عادت إلى غرناطة. فقضت القوات تلك الليلة فى مكمن ببلدة بيثنار، حتى رأى أنه لم يبق من الليل إلا الوقت اللازم لقطع الطريق والهجوم على بينيوس فى الصباح. ما كاد السيد أنطونيو دى لونا يبرح تابلاتى، حتى وصل إليها القائد ثيسبيديس؛ وحينما رأى ما أمر به السيد أنطونيو، أراد أن يذهب بذاته مع الرجال، على الرغم من أن نفراً من أصدقائه قد نصحوه بعدم القيام بتلك الحملة، لأنه لم ترد إليه قرارات بشأنها من السيد خوان دى أوستريا، كما أنه لم يكن على وفاق مع السيد أنطونيو دى لونا.

فى صباح اليوم التالى -وكان يوم عيد القديس سانتياغو، الموافق الخامس والعشرين من يوليو- أغارت قواتنا كلها على موضع بينيوس مع بزوغ الفجر. بيد أنهم لم يفلحوا فى تحقيق مأربهم، لأن المسلمين كانوا قد تنبهوا إلى الأمر، وارتقوا الجبال مع نسائهم وبنيهم. عندما أدرك السيد أنطونيو دى لونا أنه قد جانبه الصواب، عاد ليتجه صوب بلدتى لاس ألبونيويلاس وسالاريس. فلمّا بلغ ريستابال -حيث كانت سائر تلك البقاع متجاورة- أمر القائد ثيسبيديس أن يسلك الطريق العلوى الذى يفضى صعوداً إلى لاس ألبونيويلاس، برفقة مائتين من حملة البنادق، على أن يصحبه فرانثيسكو دى أرويو Francisco de Arroyo مع جنود فرقة بدرو دى بيلتشيس؛ بينما عبر هو مع جميع الرجال الباقين إلى بلدة سالاريس، من أجل محاصرة هذين الموضعين فى آن واحد. إبان وصول القائد ثيسبيديس إلى أعلى الجبل الكائن ما بين ريستابال ولاس ألبانيويلاس، شاهد فوجًا من المسلمين على ربوة دائرية، تقع على الجانب الأيسر فى وسط منطقة منبسطة، وقد أودعوا خلفهم النساء، والأمتعة، والماشية، فى وادى الجبل المشرف على ريستابال. فهجر الطريق الذى كان يسلكه، واتجه نحوهم، فشرع الرماة فى تبادل إطلاق النيران؛ ومع أول دفعة، أُطلقَت على صدره رصاصة من أحد البنادق، فاخترقت مقدمة الدرع المتين الذى كان يرتديه، وخرّ صريعا على الأرض. بادر الكثير من المسلمين -الذين كانوا يجوبون تلك الجبال ومبعثرين فى أرجائها- بالهجوم على المسيحيين الذين كانوا يصحبون القائد ثيسبيديس،

حتى اضطروهم إلى التراجع على نسق غير منتظم، مخلّفين وراءهم بعض الجنود قتلى؛ وكان من بين الموتى رجل يدعى ناربـاييث دى خيمينا Narváez de Jimena، الذى قاتل فى ذاك اليوم كإسبانى أصيل إلى جوار قائده من أجل استعادة جثته.

لم يتمكن السيد أنطونيو دى لونا من نجدتهم، لأنه كان موجوداً فى الجهة المقابلة من أحد المنخفضات الكائنة بين الربوتين؛ كما أن الفرسان، الذين كانوا يصحبون ولده السيد ألبارو دى لونا، قد تراجعوا لاحقًا بعد أن منيوا بالهزيمة. قال البعض إن السيد أنطونيو دى لونا لم يشـأ أن يغيث القائد ثيسبيديس، لكنه لا يجدر بنا أن نظن صدور مثل ذلك التصرف القاسى من قبل فارس مسيحى؛ أو إنه كان سيصل فى الوقت المناسب لإنقاذ حياته -إذا ما كان قد هب لنجدته-؛ لأن المسلمين كانوا قد صرعوه عقب بداية الاشتباك. بل إننا فطنا إلى أن ما تسبب فى موته كان حماسه الزائد، ورغبته فى اقتحام المواضع التى يوجد بها المسلمون على طول الوادى، وذلك انطلاقًا من إقدامه ورغبته فى الاضطلاع بدور مهم. فى نهاية الأمر، لم يرغب السيد أنطونيو دى لونا أن يقطع المنخفض الذى كان يفصله عن الربوة التى يدور بها الاشتباك، لأنه فى أعقاب نهبه لبلدة سالاريس، جمع القادة للتشاور وإقرار النهج الذى سيسلكونه؛ وبعد أن دار العديد من النقاشات فى هذا الصدد، وفى ضوء مشاهدته لتزايد أعداد المسلمين، أخذ فى التراجع إلى بادول من طريق يختلف عن ذلك الذى كان قد قطعه من قبل؛ وخلّف وراءه القائد لاثارو دى إيريديا Lázaro de Heredia -وكان فتى مغواراً- ليحتل مؤخرة الجيش مع كتيبته، ويتولى تجميع الرجال الذين كانوا يأتوه شبه منهزمين.

تابع المسلمون ملاحقة الجيش على امتداد التضاريس الوعرة، لكنهم لم يجسروا على المضى قدمًا خوفًا من سلاح الفرسان؛ فرجعوا إلى سالاريس، وقتلوا نفراً من الجنود كانوا قد مكثوا بالبلدة لنهب منازلها. أما حامل راية ثيسبيديس، فقد احتمى بالكنيسة مع ثلاثة من الجنود، وظل يدافع عن نفسه هنالك على مدار ثلاثة أيام،

حتى أضرم المسلمون فيهم النيران، وأحرقوهم بالداخل. ولم يحمل السيّافون معهم سوى بعض الماشية التى تصادف عثورهم عليها ضالة فى الطريق، وكمية من الأمتعة والثياب كانوا قد أخرجوها من البلدة، وست أسيرات.

رفعت الحادثة التى وقعت فى ذلك اليوم من همة الثوار. وفى الأسبوع الذى تلاها، فى أثناء مرافقة حامل الراية موريث Moriz كتائب مشاة مدينة تروخيو Trujillo -التى يترأسها القائد خوان دى تشابيس دى أوريانا Juan Chaves de Orellana- لاصطحاب إحدى دوريات الحراسة المتوجهة من بادول إلى تابلاتى، بعث الماكوش el Macox ثلاثمائة جندى مسلحين بالبنادق لانتظارها عند منخفض تالارا Talará. فخرجوا لملاقاتها من أحد الكمائن التى كانوا قد نصبوها، وألحقوا بها الهزيمة؛ كما قتلوا حامل الراية، بالإضافة إلى كل من كان بها من الجنود. لكن أعقب تلك الواقعة إرسال السيد خوان دى أوستريا لدورية أخرى من باب توخى الحذر؛ وقد رافقها كل من القائد إنييغو دى أرويو سانتيستيبان Iñigo de Arroyo Santisteban، وبدرو دى بيلتشيس -الذى كان يُعرف باسم "ذى الرجل الخشبية"- فتركا معبر تالارا، الذى كان من المعلوم وجود المسلمين به، وسلكا ممراً آخر يعلوه يُطلَق عليه نوغاليس Nogales. فأفلتوا منهم على نحو أتاح لهم الوصول إلى الجهة الأخرى من المنخفض مع طلوع النهار، ليبلغوا تابلاتى آمنين؛ فأودعوا بها نصف كمية المؤونة التى معهم، بينما حمل النصف الآخر القائد غاسبار دى ألاركون Gaspar de Alarcón -الذى حضر من أورخيبا للقيام بذلك الأمر. فى أعقاب ذلك بفترة وجيزة، صدرت الأوامر بإخراج المعقل من تابلاتى، ونقله إلى الساقية، وكان موضعًا أكثر موائمةً لتأمين الطريق ودوريات الحراسة.

فى بعض الأحيان كان مسلمو وادى ليكرين يجمعون صفوفهم مع المسلمين فى لاس غواخاراس، وكان خيرونتيو يصحبهم ليجوبوا الأراضى الواقعة باتجاه مطريل وشلوبانية؛ فخرج الفرسان لملاقاتهم، وعلى الرغم من قلة عددهم، فقد ألحقوا بهم خسائر فادحة. كان القائد المسلم قد حشد آنذاك ستمائة من الرماة، وذهب بهم

لينصب فخًا وراء الربوة التى تُدعَى أتشو Hacho. وفى أثناء سير بعض المسيحيين الضالين فى الحقول، خرج عليهم، فقتل واحدًا وجرح آخر، بينما فر الباقون وعادوا إلى البلدة. وعندما قرعت دوريات الحراسة ناقوس الخطر، أمر السيد دييغو راميريث دى آرو بإطلاق دانة مدفع لتحذير من بمطريل التى تقع على مسافة فرسخ واحد من هناك، وكلها أراضى منبسطة.

خرج السيد لويس دى بالدبيا للبحث عن الأعداء فى ستين فارسًا ، وكان هؤلاء يتبعون كتيبته وكتيبة أرخونا Arjona العامرة بالفرسان -الذين كانوا موجودين معه بغرض حماية تلك البلدة. عندما استشعر الأعداء إطلاق نيران المدفعية، هربوا إلى الجبال؛ فلحق بهم السيد لويس عند تلال تيرماى Termay- التى تقع إلى الغرب من شلوبانية. وفى أثناء احتدام القتال، خرج إليه السيد دييغو راميريث مع سبعة فرسان فحسب كانوا معه؛ فانقض كلاهما على الأعداء فى حماسة، وألحقا بهم الهزيمة، وأجبراهم على الفرار. تقدم القائدان حتى أضحيا بجوار إترابو، فأضرما النيران فى المحاصيل، وأحرقوا تلك التلال بأسرها؛ ثم عادا إلى معقليهما، نظرًا لعدم وجود جنود مشاة معهما لكى يمكنوهما من شن هجوم على البلدة. حدث فى ذلك اليوم أن اشتبك واحد من مشاة المسلمين مع أحد السيّافين، فأوقعه من على صهوة فرسه، واستولى على الحصان، ثم ركبه حتى ينطلق به. بيد أن سيافًا آخر من مطريل -يدعى دييغو بيريث تريبنيو Diego Pérez Treviño- اندفع نحوه بجواده، بعد أن رآه يغادر بجواد المسيحى. فلحق به، ووضع يده على الطاقم الذى يزين رأس الحصان، فتشبث به الجندى المسلم، حتى إن كلاهما وقع على الأرض. وقد تصارعا لفترة من الزمن، حتى قتل تريبينيو المسلم فى النهاية؛ وهكذا استرد الفرس، وأعطاه إلى صاحبه من جديد.

(الكتاب السابع)

الفصل الأول

ويتناول الأوامر التى أصدرها جلالة الملك من أجل تعزيز جيش ماركيز بلش، وكيف أمره بإخضاع البشرات.

كان جيش ماركيز بلش لا يزال معسكرًا فى أدرا دون أن يضطلع بأى حملة، لأنه لم يكن يضم سوى عددا قليل من الرجال؛ إضافةً إلى النقص الحاد فى المؤن، لأن الجنود كانوا قد أتوا بالفعل على القمح والشعير اللذين ألفوهما فى حقول دالياس. انطلاقًا من رغبة الماركيز فى مغادرة ذلك الموقع، طالب بتدعيم جيشه، وتزويده بالرجال، وبكل ما يلزم من أمور أخرى لابد من توافرها حتى يتسنى له القضاء على العدو وإخضاع الأراضى. بعد أن دارت نقاشات مطولة فى مجلس جلالة الملك حول قيام الماركيز بتلك المهمة، اتُخِذَ قرار بأن يدخل الأمر حيز التنفيذ، لأن الوضع لم يعد يحتمل التأخير لوقت أطول. هنا صدرت الأوامر إلى القائد العام للقوات لكى يحمل على متن السفن التابعة له كلاً من: الجنود المحنكين القادمين من إيطاليا[1]، والرجال الذين كانوا تحت قيادة السيد خوان دى مندوثا فى أورخيبا -على أن يقلهم من شاطئ مطريل-، والفرق الخمسة التى تتبع ماركيز فابارا Favara- وكانت عبارة عن الكتائب الأربعة الخاصة بمدينة قرطبة والتى يرأسها كل من فرانثيسكو دى سيمانكاس، وكوسمى دى أرمنتا، والسيد بدرو دى أثيبيدو Pedro de Acevedo، والسيد دييغو دى أرغوتى- بالإضافة إلى الكتيبة التى يقودها هو؛ وكذلك السيد سانشو دى لييبا،

(١) لم يكن الوضع فى إيطاليا يسمح باستدعاء قوات من هناك، ومن ثم فإن ترك جبهة إيطاليا والعودة يعنى أن أمر ثورة الموريسكيين كان خطيرًا. (المراجع)

الذى ذهب لإحضار ألف رجل قطالانى محتشدين فى تورتوسا Tortosa، وذلك تحت قيادة أحد فرسان جمعية القديس سانتياغو، وكان يدعى أنتيك ساريّرا Antic Sarreira؛ على أن يتوجه بكل تلك الجموع إلى معسكر ماركيز بلش.

كما صدرت الأوامر إلى القائد فرانثيسكو دى مولينا لكى يسلّم من بحوزته من المقاتلين فى وادى آش إلى السيد رودريغو دى بينابيديس -شقيق كونت سانتيستيبان، وأن يتوجه إلى أورخيبا، ويعسكر بها مع ألف راجل وخمسمائة فارس سوف يُسلَّمون إليه فى غرناطة. على أن يتوجه السيد لويس دى كوردوبا -قائد سلاح الفرسان الموجود فى أورخيبا- إلى غرناطة؛ وقد تم تنفيذ كل تلك الأوامر لاحقًا. اصطحب القائد العام الجنود القدامى وباقى الرجال جميعًا إلى قرية أدرا؛ كما قام بثلاث رحلات من مطريل، لينقل المؤن والذخيرة والمتاع؛ بينما حمل السيد سانشو دى لييبا جنود وحدات الجيش الإسبانى من القطالانيين. بادر متعهدو التوريدات فى كل من غرناطة ومالقة باستعجال كميات هائلة من المؤونة؛ فبعثها مورد غرناطة إلى أورخيبا، بينما نقلها مورد مالقة إلى أدرا بحرًا. ولم يتم التغاضى سوى عن إيداع المؤن فى قلهرّة -وهو شىء كان ماركيز بلش قد طالب به مرارًا وتكرارًا- إما لأن الأمر لم يبد ضروريًا أو لأسباب أخرى تراءت للمجلس؛ ووفقًا لسير الأحداث لاحقًا، فقد اتضحت الأهمية البالغة لذلك المطلب، ومدى الضرر البالغ الذى نجم عن عدم وضعها هناك. كما أنه لم يتم توفير كل المؤن الذى طلبه الماركيز، لأنه كان يتم الحصول عليها بصعوبة كبيرة، حيث فر منهم العديد من سائقى عربات التموين، لأنهم كانوا ينهكون الكثيرين منهم، أو يتركوهم يموتون جوعًا لعدم رغبتهم فى خدمتهم. حيث استشرت آنذاك الرشاوى والسرقات وسوء المعاملة التى أخضعهم لها الحجاب والمفتشين.

فى تلك الآونة، كانت هناك آراء متباينة فى مجلس غرناطة، حول الأمر الذى ينبغى توجيهه إلى ماركيز بلش. فقد أراد منه البعض أن يتوجه إلى بيرا، للتأكد من الشبهات المثارة حول موريسكيى مملكتى مرسية وبلنسية وكل ذلك الساحل، وتهدئة الثورة المشتعلة فى نهر المنصورة. بينما أراد آخرون أن يبقى مستقرًا فى أدرا، على أن يخرج

منها لتنفيذ المهام اللازمة لإخضاع البشرات، وتفكيك صفوف العدو. بعد أن قضى السيد خوان دى أوستريا يومًا فى تباحث تلك المسألة، قال إنه يرى أن تمركز الجيش فى أدرا لن يمكنهم من إمداده بما يلزم على نحو جيد. لأن الطريق -برًا- سيكون طويلاً للغاية على دوريات الحراسة، التى لابد لها من الذهاب من غرناطة إلى أورخيبا، ومنها إلى أدرا؛ كما أنه لن يتسنى لهم إرسال السفن -بحرًا- فى أمان، نظرًا للأحوال الجوية المتقلبة. كما تراءى له ضرورة وجود الجيش فى منطقة تجعله أكثر قربًا من العدو، وتجعل تزويده بالإمدادات أقل صعوبة؛ وإنه من الملائم نصب المعسكر فى بلدة أوخيخار بالبشرات، فهو موضع يتوسط الطاعات، وموقعه المتميز فى المنتصف يسهل على القوات الخروج للقيام بالمهام المنوطة بهم -وهو أمر لا يمكن الاضطلاع به بصورة جيدة من بيرا، نظرًا لموقعها البعيد.

بعد أن استقر الجميع على ذلك الرأى، عرض عليهم ماركيز مونديخار عائقًا كان يبدو كبيرًا من وجهة نظره، لأنه كان لابد من المرور حتمًا على بيرخا من أجل الذهاب من أدرا إلى أوخيخار. وهناك ممر، فى الطريق بين بيرخا وأوخيخار، يتعين عنده عبور الجبل من صخرة مثقوبة، لا يمكن للجيش المرور منها سوى رجلا تلو الآخر؛ وإذا ما تمركز الأعداء هناك -حيث لابد لهم من الاستجابة للإشارات الدخانية، التى سيتم إشعالها حين رؤية الجيش يغادر موقعه- فمن الممكن أن يلحق بالمسيحيين ضرر بالغ. أدى ذاك العائق إلى إثارة جو من القلق بين أعضاء المجلس، لأنهم كانوا يدركون أنه لا يوجد طريق سواه ؛ فأمروا بمثول الأدلاء[٢] أمامهم، واستفسروا منهم بصفة خاصة عما إذا كان هناك طريق آخر يمكن السير فيه، من أجل تجنب المعبر الذى تحدث عنه ماركيز مونديخار. فأجابهم هؤلاء بأنه إذا ما دار الجيش حول المكان لمسافة فرسخ، فسيصبح من الممكن تلافى المرور به، حيث سيتجه الرجال إلى لوكاينينا، ومنها إلى أوخيخار. رغمًا عن أنهم سيعبرون ممرًا سيئًا آخر فى أحد المنخفضات، يطلق عليه

(٢) أشخاص على دراية بمسالك الجبال والطرق غير المعروفة لعامة الناس. (المراجع)

المسلمون حوض البقر Haudar el Bacar، لكنه ليس بقدر الصعوبة التى يتسم بها معبر الصخرة المثقوبة Peña Horadada. فى النهاية أجمع المجلس على الكتابة إلى ماركيز بلش، لكى يسلك الطريق الذى أخبرهم به الأدلاء، ويتوجه للتمركز فى أوخيخار، دون إضاعة الوقت أو الفرصة فى الإعداد لما يجب عمله. وفيما يتعلق بالإمدادات، فإنهم سيقومون بما يلزم لتزويده بها. وسوف نتناول فى الفصل التالى الأحداث التى وقعت له فى الطريق.

الفصل الثانى

ويتناول مغادرة الماركيز لأدرا مع جيشه، وكيف خرج إليه المسلمون في الطريق، وهزيمته لهم، وعبوره إلى أوخيخار.

في أعقاب تنبيه ماركيز بلش إلى المكان الذى يتوجب عليه بلوغه، والطريق الذى يتعين عليه السير فيه، وبعد تهيئة كل الأمور للانطلاق، أمر الماركيز بمنح المحاربين مؤن تكفيهم لخمسة أيام. ثم انطلق من بلدة أدرا في يوم السادس والعشرين من شهر يوليو عام ١٥٩٦، يرافقه اثنا عشر ألف راجل وأربعمائة فارس؛ وذلك بعد أن أمر الرجال بتحميل كل المؤن والذخائر التى يمكن للأمتعة استيعابها. كان جيشه منتظم الصفوف: حيث قسمت المشاة إلى ثلاثة فرق -كل واحدة منها على مرمى بصر الأخرى. ترأس قوات الطليعة ماركيز فابارا، بينما قاد قوات المنتصف كل من السيد بدرو دى باديا، والسيد خوان دى مندوثا، والسيد خوان فاخاردو -الذى كان قائداً على قوات المشاة التى كانت تحت إمرة ماركيز بلش في أدرا-؛ وقاد أنتيك ساريّرا مؤخرة الجيش. أما الأمتعة فقد توسطت المسيرة، وجاء ماركيز بلش خلف الجميع يصاحبه سلاح الفرسان. وصل الجيش في تلك الليلة إلى بلدة بيرخا، ومكثوا بها ثلاثة أيام. بعد أن استعلم ماركيز بلش جيداً عن الطريق الذى لابد له أن يسلكه، من أجل تفادى ممر الصخرة المثقوبة، انطلق في صباح اليوم التالى متوجهًا إلى أوخيخار عن طريق لوكاينينا، وقد انتظمت سائر صفوف الجيش على النحو الذى اتبعته في أثناء مغادرة أدرا، ما عدا جنود بعض وحدات الجيش الإسبانى التى سارت مبعثرة. فأضحى السيد خوان دى مندوثا يتقدم الصفوف، يليه ماركيز فابارا، ثم تبعه ماركيز بلش برفقة سلاح

الفرسان، ومن ورائه أنتيك ساريّرا والسيد خوان فاخاردو، بينما سار خلفهم جميعًا السيد بدرو دى باديا.

كان ابن أمية قد تلقى أنباء عن الجيش القوى الذى يتم تجهيزه لملاقاته، فقام باتخاذ ثلاثة تدابير: حيث بعث إيرناندو الحبقى إلى الجزائر برسائل، حتى يسعى لجلب أى قوات لنجدته؛ كما حمل السيد إيرناندو الصغير على التوجه لجمع أكبر عدد من الرجال يتسنى له حشده من نواحى ألمرية، ونهر المنصورة، وجبال بسطة وفيلابريس؛ وأصدر أوامره إلى بدرو دى مندوثا الحسين لكى يدافع عن مدخل البشرات ضد هجوم جيشنا، مع خمسة آلاف رجل. بيد أن الحسين ذاته أخبرنا[٣] لاحقًا أنه لم يتلق أمرًا بالقتال، وإنما بمناوشة الجيش، لأن المسلمين كانوا قد اتفقوا على عدم القتال إلى أن تجتمع سائر قواتهم. فى أثناء مسيرة صفوف جيشنا شيئًا فشيئًا، وأذرع قواتنا من حملة البنادق تصحبهم فى حرية على كلا الجانبين، بينما يتقدم الركب بعض الفرسان والمشاة لاستطلاع الطريق، فإذا بالكشافون يصلون -فى الساعة الثامنة صباحًا- إلى بعض المنحدرات الجبلية الكائنة إلى اليمين من ممر حوض البقر، حيث اكتشفوا وجود المسلمين -الذين كانوا متناثرين على تلك الروابى، وهم يطلقون صيحات حرب مدوية. استمر السيد خوان دى مندوثا فى طريقه، ووصل إلى سهل يقع إلى جوار المنخفض، حيث أوقف مسيرة الجنود بعد أن أصبح فى مواجهة الأعداء. فشرع أولئك فى سب الجنود، وجاءوا بأقوال وأفعال فاحشة اعتاد من هم على شاكلتهم من الهمجيين الإتيان بها.

هبط بعض الجنود إلى المنخفض، رغبةً منهم فى الشروع فى تبادل إطلاق النيران مع الأعداء، ريثما يحتل ماركيز بلش إحدى الروابى مع سلاح الفرسان. فلمّا شهد الماركيز بدء الاشتباك دون أمر منه، أرسل من يأمر السيد خوان دى مندوثا بالتوقف؛ ثم مر هو إلى المقدمة، وعنّفه قائلاً إن هذه جرأة من جانبه، كان من الممكن أن تورد

(٣) مارمول يستقى الأخبار من مصادرها، بما فى ذلك مصادر الأعداء. (المراجع)

الجيش مورد التهلكة. وبينما إمارات الغضب بادية على وجهه، أمر السيد خوان فاخاردو أن يتقدم إلى الطليعة برفقة ألفين من المشاة، وأن يبادر بالهجوم على الأعداء، محاولاً تنحيتهم عن تلك المواضع. ومن ناحية أخرى قام بإرسال السيد خوان إنريكيث إلى أعلى الهوة مع بعض الفرسان، للبحث عن معبر يمكن لسلاح الفرسان المرور من خلاله. بدأ المسلمون فى الدوران على أعقابهم، وخلال فترة وجيزة انسحبوا. لكنهم ما لبثوا أن عاودوا الالتفاف، مظهرين رغبتهم فى القيام بأى هجوم، بوصفهم أناساً يفترض أن يتولوا الدفاع عن ذلك المعبر. وعندما أبصروا صعود ذراع آخر من حملة البنادق، وفى المنتصف بعض الفرسان الذين أخذوا يحاصرونهم، لم يجسروا على الانتظار، ولاذوا بالهرب. فى تلك الآونة، كان جنود المقدمة قد بدأوا فى مناداة سلاح الفرسان من أجل أن يلحق بهم؛ فما كان من ماركيز بلش إلا أن ذهب وسار على أثرهم، مخلفًا وراءه -أعلى الربوة- السيد خوان إنريكيث فى صحبة ألوية المقاتلين القطالانيين، وجنود وحدات الجيش الإسبانى فى نابولى.

كان المسلمون يفرون عبر تلك الروابى عائدين إلى لوكاينينا، ولم تواتهم الشجاعة للانتظار فى أى مكان، فواصلوا سيرهم إلى أوخيخار ومنها إلى بالور -حيث مكان وجود ابن أمية- بعد أن خلّفوا وراءهم أكثر من خمسين قتيلاً ممن تمكن رجالنا من اللحاق بهم؛ وكان من الممكن أن يجهز جنودنا على المزيد منهم، لولا الحر الشديد، الذى خارت بسببه قوى الخيل والرجال، وكان هناك بعض الجنود ممن ماتوا عطشاً فى أثناء المطاردة. وقد أمضى جيشنا ليلته تلك فى لوكاينينا، بعد أن اختل نظام صفوفه إلى حد بعيد، حتى أن ماركيز بلش ترجل عن فرسه أسفل بعض أشجار السنديان. فى تلك الأثناء، رأى السيد خوان إنريكيث الممر الذى يعلو المنخفض خاويًا، فحمل المشاة على التقدم إلى الأمام، وبقى مع الفرسان لتأمين عبور المتاع، إذا ما قام الأعداء بأى هجوم. كان عدم إقدام العدو على الهجوم أمرًا جيدًا، نظرًا للارتباك والفوضى العارمة التى حدثت؛ حيث سقطت الأمتعة واحدًا فوق الآخر، ومات الكثيرون. ولّما كان من الضرورى تحصيل الذخيرة والمؤن التى كانت فى حوزتهم، توقف الجيش لفترة طويلة،

حتى حل عليهم الظلام. حينئذ اجتمع القادة للتشاور، واتفقوا على البقاء في ذلك الموضع حتى اليوم التالي، وأرسلوا سيافين لإخبار ماركيز بلش بما جرى، من أجل أن يضع كتيبتين أو ثلاثة للحراسة في الطريق، من أجل مرافقة المتاع الذي بدأوا في إرساله شيئًا فشيئًا؛ بيد أن ذلك الأمر لم يتم تنفيذه، لأن السيافين لم يعثرا عليه خلال تلك الليلة، بسبب ترجله عن جواده على النحو الذي ذكرناه آنفًا.

في اليوم التالي قام القادة بتحميل الأمتعة، وإعدادها للطريق على أفضل وجه تسنى لهم -بعد تكبد صعوبات ليست بالهينة-؛ فسار السيافون في المقدمة محملين بالبارود، والرصاص، والحبال الخاصة بالجنود الذين قضوا نحبهم، على ظهور الدواب، حتى لا تظل تلك الذخيرة هناك. انطلق الماركيز من مقر مبيته في لوكاينينا، بعد أن قام بحشد كل الرجال، وتوجه في ذلك اليوم إلى أوخيخار؛ ثم دلف إلى المدينة حتى أضحى على مرأى من الأعداء -الذين تشكلوا على هيئة صف واحد- على سفوح الجبال، فتراجعوا فيما بعد إلى بالور دون أن يبادروه بالهجوم. في تلك الليلة ذاتها وصل السيد إيرناندو الصغير بصحبة أعداد هائلة من الرجال الذين جمعهم من البقاع التي كان قد قصدها. وعندما شاهد الصغير جيشنا الموجود في أوخيخار، وعلم مدى تخاذل الحسين عن الدفاع عن المعبر الذي كان قد ذهب لحمايته، وأنه لم يجرؤ كذلك على الهجوم في اليوم التالي، فقد الثقة في مسألة الحرب، وقال إنه لم يعد هناك وقت للانتظار؛ فعاد أدراجه إلى مورتاس، ومات -في غضون أربعة أيام- متأثرًا بمرض ألم به، وذلك في مكان يدعى ميثينا دي تيديل[٤] Mecina de Tedel. مكث ماركيز بلش في أوخيخار طوال يومين، وحينما تنامى إلى علمه أن ابن أمية قد حشد رجال البشرات في بالور، وأنه عازم على القتال، بدا له أنه ما من حاجة للانتظار قبل الذهاب للقضاء عليه؛ فأراد استطلاع الطريق الذي يمكن أن يسلكه، من أجل أن تصير اليد العليا لسلاح الفرسان، ويستطيعوا ملاحقة العدو. وقد أخبره المرشدون أنه لا يوجد طريق

(٤) ورد الاسم قبل ذلك ميثينا دي توديل (المترجمة).

يتيح له الذهاب عبر الأراضى السهلية، بل إنه يتعين عليه الدوران حول المكان على مدار يوم كامل، ثم المبيت فى الطريق عند بقعة تفتقـــر إلى المياه؛ فأراد أن يذهب هو بذاته لاستكشاف الطريق. عندما تراءى له أن الدرب الأيمن الذى يسير صعوداً باتجاه النهر ليس بقدر الصعوبة التى تحدث عنها المرشدون، قرر أن يسلكه طلبًا للعدو.

الفصل الثالث

يتناول كيف توجه جيشنا لملاحقة العدو، وكيف قاتله فى بالور، وتغلب عليه.

فى أعقاب استطلاع ماركيز بلش للطريق، وعزمه على السير فيه، شرع فى التحرك مع الجيش بأكمله فى اليوم الثالث من شهر أغسطس، وذلك بعد الاستماع إلى القداس، وقيام كل المؤمنين بتمجيد الرب. ترأس طليعة القوات السيد بدرو دى باديا، الذى كان معه الجنود القدامى فى وحدات الجيش الإسبانى، بالإضافة إلى الجزء الأكبر من وحدات الجيش الإسبانى من القرويين -وقد اختلط هؤلاء بأولئك. ثم تبعه ماركيز بلش برفقة سلاح الفرسان، وكان يحمل أسلحة سوداء بلون الفولاذ، ويعتمر على رأسه خوذة مكسوة بالريش يطوقها إطار أحمر، وينتهى بعقدة كبيرة للغاية من الخلف؛ وقد حمل فى يده رمحًا سميكًا، قويًا طويلاً. أما الجواد الذى كان يعتلى صهوته، فلونه أبيض يميل إلى الصفرة، ويغطيه سرج يعلوه ريش كثيف عند مقدمة رأس الفرس؛ الذى وقف بعد أن اكتسى بحلته فى هياج شديد، مزهوًا بنفسه وهو يلوك اللجام الحريرى بأسنانه، فباتت هيئته وهو يشرف على تلك الحقول خير تمثيل لأبهة وقوة القائد العام الذى يمتطيه. بعد سلاح الفرسان صُفَت الأمتعة، ثم تلاها فى المنتصف ماركيز فابارا مع كتائبه وعدد من كتائب مملكة مرسية. وفى مؤخرة الجيش جاء أنتيك ساريّرا مع القطالانيين، يتبعه السيد خوان دى مندوثا. كانت جميع تلك السرايا لها أذرع من الجنود حملة البنادق على كلا الجانبين، فكانوا يشغلون السفوح وقمم الروابى التى بدا من الممكن أن يتربص بهم الأعداء من خلالها. وشرعوا يسيرون شيئًا فشيئًا على تلك الهيئة إلى أعلى النهر.

كان العدو قد تمركز مع رجاله جميعًا على سفح إحدى الروابى الكائنة أسفل بالور، وقد رفعوا راياتهم، وأخذوا يدقون الطبول ويعزفون على الناى فى تناغم شديد حتى أصم صوت الموسيقى من بتلك الأودية. وكانوا قد أودعوا بإحدى الروابى، التى تعلو النهر والطريق -الذى لابد لرجالنا من السير فيه- خمسمائة رام منتقين، من أجل الدفاع عن ذلك المعبر. ما إن وصلت طلائع جيشنا إلى تلك الربوة، حتى قام السيد بدرو دى باديا، وفرسان آخرون من أصدقائه -ممن كانوا قد ترجلوا عن خيولهم، ووضعوا أنفسهم فى الصف الأول بمقدمة الجيش- بالهجوم فى حماسة على الأعداء، الذين ترقبوهم وتصدوا لهم، كما لو كانوا جنودًا منظمين. وقد حاربوهم على نحو تعين معه أن يستمر رجالنا فى القتال لفترة طويلة، لكنهم فى النهاية انتصروا عليهم، واخترقوهم، وقتلوا ما يربو على مائتى مسلم؛ على الرغم من أنه قد قتل منا أيضًا ثلاثون مسيحيًا. وكذلك فقد كان لزامًا أن يهب سلاح الفرسان لنجدتهم، لأن ابن أمية كان يسير أمامهم جميعًا فى أبهى منظر، وقد اعتلى فرسًا أبيض اللون، وارتدى جبةً لونها قرمزى، واعتمر عمامةً تركيةً على رأسه؛ وأخذ يتجول من طرف إلى آخر، ويحمّس رجاله. كما حثّهم على التقدم إلى الأمام، والقتال باستبسال للثأر من أعدائهم؛ وألا يهابوا اسم ماركيز بلش، لأن الله يقف إلى جوار عباده فى وقت الشدائد. وإذا لم يمنحهم النصر، فلابد أن يظفروا بميتة مشرفة وهم يحملون أسلحتهم فى أيديهم، وهذا أفضل لهم من العيش فى خزى.

من جهة أخرى، حينما رأى ماركيز بلش أن من فى الطليعة يطالبون بوجود الفرسان معهم جنبًا إلى جنب، أمر ابنه السيد دييغو فاخاردو أن يتقدم بالفرسان إلى الأمام. فعبر من عند ساقية تقع على الجانب الأيسر من النهر، وأخذت الخيول تعبر واحدًا تلو الأخر، لكى لا تختل صفوف المشاة لأن الممر كان ضيقًا. وقد تبعه السيد خيرونيمو دى قزمان Jerínimo de Guzmán مع نفر من الفرسان القرطبيين، والسيد مارتين دى أبيلا مع فرسان شريش الفرنتيرة Jerez de la Frontera؛ فارتقوا سفح الربوة، وواصلوا الصعود بمجهود شاق إلى بعض الكرمات الموجودة فى المنتصف، وهناك هجموا على الأعداء. عندما شهد المسلمون صعود الفرسان إلى أماكن ما كانوا

يعتقدون فى إمكانية أن تطأها الخيل، بدأ اليأس ينتابهم، وظنوا أنهم هالكون؛ فتركوا الموضع والمكان بأسره، ولاذوا جميعًا بالفرار. حينما رأى ابن أمية الهزيمة التى لحقت برجاله، وأدرك إنه لن يتمكن من إيقافهم، أدار هو أيضًا ظهره للمعركة، ووصل إلى منخفض به هوة من الصخور ما بين بالور وميثينا؛ فنزل من على صهوة فرسه، وعقره. ثم توغل فى شعاب الجبال مع ستة فقط من المسلمين الذين تبعوه، مخلفًا وراءه جثة دييغو دى ميرونيس -قائد حصن سيرون-، وأحد حجاب جبل فيلابريس يدعى خوان الوزير -وكان قد أسره لعدم رغبتــه فى التحول عن عقـيدتنا المقـدسة- مشنوقين؛ حيث أراد أن يسهم ذلك المشهد فى تعطيل رجالنا.

واصلت الخيول صعود الجبل لفترة من الوقت، حتى بلغت الأعداء عند القمة، مما أفقد المسلمين تفوقهم. وصل المشاة على مقربة من بالور، فلم يتوقفوا عندها، وتابعوا مسيرتهم حتى المنخفض الذى كان ابن أمية قد عقر فرسه عنده -وكان يقع على مسافة فرسخ تقريبًا إلى الأعلى-؛ فقضوا هناك ليلتهم، نظرًا لوفرة المياه والأخشاب من شجر السنديان. كان جواد ماركيز بلش قد نفق لدى تسلق المرتفع، فامتطى فرسًا آخر، وواصل صعوده باتجاه اليمين، حتى بلغ ميناء لوه مع السيد ألبارو باثان -ماركيز سانتا كروث- والسيد خورخى بيكى Jorge Vique وفرسان آخرين، بالإضافة إلى مجموعة مؤلفة من خمسين فارسًا. بعد مرور خمس ساعات أو أكثر، ترك الماركيز الجبل وتوجه إلى حصن قلهرّة، حيث بدا له أنه ليس من المناسب أن يرجع ليلاً من المنطقة التى يوجد بها الأعداء بينما الجياد متعبة؛ أو -وفقًا لما قاله فيما بعد- أن المؤن الموجودة فى المعسكر لم تكن تكفى سوى لتلك الليلة واليوم الذى يليها -على أقصى تقدير. وكانت الحاجة ملحة لدى القطالانيين على وجه الخصوص، لأنهم كانوا قد تركوا نصف مخصصاتهم فى أدرا، لكى لا يحملوها على كواهلهم. فأراد الماركيز أن يذهب إلى هناك، ليأمر بإحضار بعض المؤن الموجودة فى ذلك الحصن، وإذا لم يكن بها زاد، فسوف يعالج الأمر من خلال وجوده، ويعمل على إرسالها من مكان آخر. عندما لم يعثر الماركيز على أى شىء يمكن الحصول عليه، أرسل فى التو إلى كل من وادى آش وبسطة وغرناطة، لكى يزودوه ببعضها على وجه السرعة.

توجه أسقف وادى آش والسيد رودريغو دى بينابيديس لزيارة الماركيز فى صباح اليوم التالى. وجلبوا معهم ما يربو على مائتى حمل من الخبز والكعك، فعاد بهم فى ذلك اليوم إلى الجيش، فوجده يعسكر فى بالور -التى توقف بها لمدة يومين فى انتظار وصول دوريات أخرى. حينما أدرك الماركيز أنه ليست هناك دوريات، كما أنه ليس لديه أنباء عن وصول دوريات إضافية، قام بإضرام النيران فى المنازل التابعة لابن أمية فى ذلك الموضع، ثم ذهب ليعسكر فى أعلى بقاع ميناء لوه. شرع الجنود يهيمون دون هدى فى ذلك الموضع، ولم يعد ممكنًا إيقافهم بعد أن شاهدوا الأراضى السهلية؛ من هناك توجه إلى وادى آش كل من ماركيز سانتا كروث وماركيز فابارا. أعيا هواء الجبل العديد من الأشخاص، واعترى الباقون الجوع الشديد، حتى بات من الضرورى النزول بكل الجيش إلى قلهرّة، لأن الماركيز كان على ثقة من أنه يمكن أن يقتات الجنود من الأطعمة التى يجلبها الباعة، ريثما يمدّه وزراء جلالة الملك بما يلزمه من مؤن.

عندما عسكر الجيش فى قلهرّة، بدأ الجنود فى مغادرة المعسكر بشكل أكثر وضوحًا، حيث أصبح بمقدورهم المغادرة على نحو أفضل؛ وعلى الرغم من أن السيد خوان دى أوستريا قد بعث لاحقًا بالأب بيرو لوبيث دى ميسا Pero López de Mesa - مأمور المحكمة العليا فى مدينة غرناطة- من أجل أن يزود الماركيز بالمؤن من مدينة وادى آش على نحو عاجل، فإنه لم يتمكن من إرسال كل تلك الكمية دفعةً واحدةً، بحيث تكفى لسد العجز فى الحالة الراهنة. وهكذا مكث الجيش لأيام عديدة فى ذلك المعسكر، وظل يستهلك مؤن ذلك الإقليم دون الاضطلاع بأى مهمة. فى أثناء وجود ماركيز بلش فى قلهرّة، توفى صهره السيد إنريكى إنريكيث فى بسطة على أثر مرض ألم به، فأرسل السيد خوان دى أوستريا عوضًا عنه السيد أنطونيو دى لونا مع ألف من المشاة ومائتين من الفرسان. حيث بقى فى تلك المدينة منذ الرابع عشر من شهر أغسطس، وحتى الخامس عشر من شهر نوفمبر؛ وقد ظل بدلاً منه فى غوطة غرناطة السيد غارثيا مانريكى García Manrique - ابن ماركيز أغيلار Aguilar. لننتقل الآن إلى تناول المباحثات التى أجراها إيرناندو الحبقى فى مدينة الجزائر مع أولوج على، حول قوات الإغاثة التى طلبها منه ابن أمية.

الفصل الرابع

ويتناول ذهاب إيرناندو الحبقى إلى شمال إفريقيا طلبًا للنجدة، والكيفية التى عاود بها ابن أمية تكوين صفوفه بفضل قوات الإغاثة التى وصلت إليه من الجزائر ومن مناطق أخرى.

انطلق إيرناندو الحبقى من إسبانيا فى ثالث أيام شهر أغسطس -وكان ذات اليوم الذى منى فيه ابن أمية بالهزيمة فى بالور-، فوصل إلى الجزائر فى غضون ثمانية أيام، وألح فى الطلب على أولوج على من أجل أن يمده بدعم من السفن والمحاربين؛ وكان قد وسّط فى الأمر بينهما بعض المرابطين من أجل أن يحضّوه على القيام بذلك بدافع الدين. فما كان منه إلا أن نادى بين الناس أن على كل من يرغب من الأتراك أو المسلمين أن يذهب لإنقاذ الأندلسيين -كان هذا هو الاسم الذى يطلقونه فى إفريقيا على مسلمى مملكة غرناطة-، يمكنه القيام بذلك فى حرية. لكن فيما بعد، حينما رأى أن الكثير من الرجال قد هبوا لتلبية النداء، وأن منهم أناسًا رفيعو الشأن، قرر أنه سيكون من الأفضل أن يحملهم بنفسه إلى مملكة تونس -وكان ذلك ما قام به. هذا وقد أصدر عفوًا فى الجزائر يقضى بالصفح عن كل المجرمين والفارين على إثر ارتكابهم لجرائم، إذا ما أرادوا الذهاب إلى إسبانيا للوقوف إلى جوار المسلمين الأندلسيين.

انتقى الحبقى من بين أولئك الناس أربعمائة رام، تحت إمرة رجل تركى شرير من مثيرى الفتن يدعى حسين Hoscein، وركبوا ثمانى سفن -أودع بها بعض الأشخاص كميات كبيرة من الأسلحة والذخيرة لبيعها إلى المسلمين- وأتى بهم جميعًا إلى البشرات. بالإضافة إلى تلك الإمدادات، وغيرها من المعونات التى تم جلبها من تطوان

على متن سفن أخرى كانت محملة بأسلحة وذخيرة جلبها تجار مسلمون ويهود، تشجع أعداء الرب للمضى قدمًا فى مخططهم الآثم، وزادوا من تحصيناتهم، حيث لم يكن هناك جيش مسيحى يرهبون جانبه فى البشرات بأسرها. فيما بعد عاود ابن أمية تجهيز حدوده، بينما قام المسلمون -الذين رجعوا للتحصن فى قراهم- بزراعة محاصيلهم، والعمل فى مزارعهم، وإنتاج الحرير -كما لو كانوا ينعمون بالأمان والراحة فى منازلهم. أما حسين -الذى كان قد بث الأمل فى نفوسهم، بعد أن أخبرهم إن أولوج على قد أرسله امتثالاً لأمر الباب العالى، حتى يتعرف على تضاريس الأرض وأحوالها، وعدد من بها من الموريسكيين القادرين على حمل السلاح- فقد أراد أن يشاهد بقاع نهر المنصورة وألمرية وجبل فيلابريس وسائر أنحاء البشرات؛ وقد أعقب ذلك بالدخول سراً إلى مدن غرناطة ووادى آش وبسطة. بعد أن أخبره القاطنون هناك بكل المعلومات اللازمة، قال لهم إنه يود لو أن له جناحين ليطير بهما إلى مولاه الباب العالى ويقص على مسامعه ما رآه؛ ثم عاد أدراجه إلى شمال إفريقيا، محملاً بالنفائس والجواهر والأسرى الذين قام أهالى البقاع التى قصدها بمنحه إياهم. سوف ننتقل الآن لتناول ما كان يدور فى تلك الآونة فى منطقة وادى ليكرين، والكيفية التى أغار بها المسلمون على بلدة بادول لتأليب أهلها على الحكم، والتغلب على المعقل الموجود بها من أجل تأمين دوريات الحراسة.

الفصل الخامس

ويتناول الكيفية التى هاجم بها مسلمو وادى ليكرين النقطة الحصينة التى أنشأها رجالنا فى بادول، وكيفية إضرامهم النيران فى منازل البلدة.

مع ورود أنباء عن مجىء النجدة من إفريقيا، عاد الثوار إلى عنادهم. وقد تم تنبيه موريسكيى البادول -الذين لم يعودوا قادرين على تحمل التكلفة المعتادة، ومضايقات ونكايات المحاربين المقيمين لديهم فى منازلهم- إلى أن الثوار قد أصدروا أوامر بتوجه رجالهم إلى بلدتهم ونشر الثورة بينهم؛ فقادهم نفر من ذوى البصيرة النافذة من الأهالى، وحزموا أمرهم على طلب الإذن من السيد خوان دى أوستريا، لكى يسمح لهم بالذهاب إلى قشتالة برفقة نسائهم وبنيهم. وفى أثناء تداولهم فى ذاك الشأن، نصحهم قسيس من الكهنة القانونيين لبلدة غوخار Gójar أن يطلبوا من السيد خوان أن يدعهم يتجهون إلى هناك لإعمار ذلك المكان، لأنه بات مهجوراً وكان قاطنوه قد ذهبوا إلى الجبال. وقد أُذن لهم لاحقًا فى القيام بذلك، فبادروا بنقل ديارهم إلى غوخار على وجه السرعة. وما كادوا يغادرون البلدة، حتى تجمع مسلمو وادى ليكرين وبلدان غواخار وبقاع أخرى متاخمة، فبلغ عددهم ما يربو على ألفى محارب -كان من بينهم العديد من الرماة والقوّاسين-؛ وقد عزموا على مهاجمة بادول عند الفجر، ونحر من كان بها من المسيحيين فى المعقل، واصطحاب الموريسكيين إلى الجبال.

انطلاقًا من ذلك العزم، غادرت الجموع لاس ألبونيويلاس فى اليوم الحادى والعشرين من شهر أغسطس لعام ١٥٦٩، فسارت طوال تلك الليلة، وقصدت طريق غرناطة من أجل تضليل دوريات الحراسة، ومباغتة رجالنا وهم غافلون. ثم عادوا

ليسلكوا الطريق ما بين تلك المدينة وبادول، بعد أن انتظمت صفوفهم؛ وبدأوا يتقدمون شيئًا فشيئًا بالكيفية التى اعتادت الكتائب المصاحبة لدوريات الحراسة أن تسير بها. وهكذا اقترتبوا من المكان مع انبلاج ضوء النهار، فاكتشفتهم دورية المراقبة المتمركزة أعلى برج الكنيسة؛ ورغمًا عن أنهم قرعوا ناقوس الإنذار، وقالوا إن أعدادًا غفيرة من المسلمين قادمة من طريق غرناطة، لم يتحرك الجنود أو يشهروا أسلحتهم؛ بل إن هناك من قالوا إن من يتولى المراقبة لابد وأنه مخمور، فكيف يتأتى للمسلمين القدوم من غرناطة؟ وبينما الأمور على هذا النحو، أطلت القوات – فى أحد عشر لواء مرفوعين– من إحدى البقاع التى كان بها صليب منصوب عند مدخل القرية، وذلك فى موضع قريب من منازل البلدة. فوثبوا على المحل فى زخم كبير، قبل أن يتسنى لرجالنا جميعًا اللجوء إلى نقطة حصينة كانوا قد أقاموها حول الكنيسة، فقتل المسلمون ستة وثلاثين جنديًا، واستولوا على ثلاثين فرسًا من إحدى كتائب المحاربين القرطبيين الموجودة بالمعقل، والتى كان يترأسها السيد ألونسو دى بالديلومار **Alonso de Valdelomar**. كما نهبوا القدر الأكبر من المنازل، وحصلوا على كميات كبيرة من الغنائم والنقود؛ ثم هجموا على الحصن ذاته بالحمية نفسها، ظنًا منهم فى وجود عدد قليل من الرجال للدفاع عنه.

استبسل فى الذود عن المكان كل من: القائد بدرو دى ريدروبان **Pedro de Redrovan**– أحد أهالى كورال دى ألماغير **Corral de Almaguer**– الذى كان يتولى رئاسة الحصن؛ والسيد خوان تشاكون –مواطن أنتيقيرة– الذى كان قد تمركز فى ذلك المعقل قبيل يومين، بناءً على قرار من السيد خوان دى أوستريا، وذلك برفقة مائة وخمسين جنديًا من أفراد كتيبته؛ واثنين من القادة الآخرين يدعيان : بدرو دى بيلتشيس –وهو من مواطنى مدينة جيان–، وخوان دى تشابيس دى أوريانا –وهو من أهالى مدينة تروخيو–، وكان قد عاود بناء كتيبته عقب الهزيمة التى مُنى بها فى منخفض الساقية(*)؛ فقتلوا عددًا لا بأس به من المسلمين، وحملوهم على التراجع إلى الوراء.

(*) انظر الفصل الثالث والثلاثين من الكتاب السادس. (المترجمة)

عندما أدرك هؤلاء أنهم لا يمتلكون القوة التى تخول لهم اقتحام الحصن بعد معركة بالأيدى، أرسلوا ما يزيد على خمسمائة رجل ليجلبوا من الكرمات كميات من الأغصان والشوك والقش، ثم أضرموا النيران فى كل منازل البلدة، ظنًا منهم أيضًا فى إمكانية إحراق من بداخل الحصن. بعد أن أضحى الجميع مغطين بألسنة اللهب والأدخنة، لم يوقف المسلمون هجومهم على الأماكن التى اعتقدوا أنه من الممكن اقتحام المعقل منها؛ فباتوا يخرقون المنازل ويثقبون الحوائط فى العديد من الأماكن. بيد أن الشجاعة المشهودة والجهد الوافر الذى بذله قادتنا وجنودنا أفلحا فى التصدى لكل تلك المحاولات، ليس من دون إلحاق ضرر كبير بالأعداء.

كان هناك بيت كبير خارج البلدة، وكان يعيش فيه رجل من إقليم الباسك -مسقط رأسه فى بلدة بيرغارا **Vergara**- يدعى مارتين بيريث دى أروثتيغى **Martín Pérez de Aroztigui**. بعد أن اصطحب الرجل زوجه وأبناءه إلى غرناطة، تصادف وجوده فى داره فى أثناء تلك الليلة، مع أربعة من الغلمان المسيحيين، وثلاثة من أصدقائه الموريسكيين -الذين كانوا قد ذهبوا ليعيشوا فى غوخار، وأرادوا الاحتماء به . كان هجوم المسلمين على تلك الناحية مباغتًا للغاية، فلم تسنح الفرصة للرجل للتحصن داخل المعقل، فقام بذلك فى منزله بعد أن أحكم إغلاق الأبواب بالأخشاب والحجارة. حينما ألفى مارتين نفسه فى خطر محدق، لأن البيت لم يكن به سوى بندقية واحدة، قال لمن بحوزته من الموريسكيين أن يتحدثوا إلى المسلمين ويرجوهم ألا يلحقوا ضررًا بشخصه أو بأملاكه، فهم يدركون أنه صديقهم، وأنه طالما وقف إلى جانبهم فى تعاملاته معهم فى وقت السلم. أجاب هؤلاء أن ما يقوله صحيح، وأنه يتعين عليه أن يسلّمهم النقود والبندقية إذا كان يريد أن يدعونه يذهب فى حرية إلى غرناطة. لكن الرجل لم يكن يشأ أن يفعل ذلك، فقال لهم إنه ليس لديه نقود، وإن البندقية لن تفارقه طالما بقى على قيد الحياة. عندئذ قام الأعداء بالهجوم على المنزل، وأشعلوا فيه النيران من كل الجهات، كما سعوا أيضًا لإحداث فتحة صغيرة فى أحد الحوائط التى تقع ناحية الحقول باستخدام المعاول والفئوس. لم تنقص مارتين بيريث الشجاعة لصد الهجوم، وحينما وجد نفسه يكافح ضد النيران والبنادق والأقواس -التى لم تمنحه الفرصة للإطلال من النوافذ لقذف الحجارة-

صرف انتباهه إلى الحاجة الملحة: فألقى الماء على باب المنزل الذى يشتعل، كما قذف أحجاراً كبيرة باتجاه الحائط الذى كان المسلمون يحاولون اختراقه؛ وقد حاول أيضاً أن يصيبهم بنيران البندقية -ولم يكن قد جرؤ على القيام بذلك إلى تلك اللحظة، ظناً منه فى إمكانية تعطيلهم بالكلمات المعسولة إلى حين وصول النجدة. وقد أظهر فى النهاية براعة فائقة، حتى أن كل رصاصة قام بإطلاقها أسقطت واحداً من المسلمين؛ وبعد أن قُتِل سبعة من أكثر المسلمين قتالاً فى المعركة، ارتأى الآخرون أنه من الأفضل أن يتراجعوا إلى الخارج.

فى تلك الأثناء، كانت المعارك الدائرة فى الحصن وفى المنزل قد مضى عليها ما يزيد على أربع ساعات، فقام رجال المراقبة -الذين وضعهم الأعداء فى ناحية غرناطة- بتنبيههم إلى قدوم رجال على صهوات الجياد، فتراجع المسلمون إلى الوادى دون أن يحدثوا أثراً سوى ما ذكرناه من قبل. إبان وصول المسلمين إلى بادول، غادرها أحد حملة الدروع القرطبيين، فعبر من خلالهم، وتوجه لتحذير السيد غارثيا مانريكى، الذى كان موجوداً فى أوتورا -وهى إحدى قرى غوطة غرناطة-؛ ثم عبر إلى المدينة لينبه كذلك السيد خوان دى أوستريا. كانت القوات التى اكتشف المسلمون قدومها مكونة من ستين فارساً كانوا قد تقدموا المسيرة برفقة السيد غارثيا مانريكى؛ فانضموا إلى أحد عشر جندياً من حملة الدروع كانوا قد مكثوا فى البادول، وخرجوا لاقتفاء أثر الأعداء، فأصابوا بعض من تأخر منهم عن الركب بالرماح. كان دوق سيسا قد لبى النداء من غرناطة لإغاثة الحصن مع عدد وفير من المشاة والفرسان، لكنه وصل متأخراً بعد أن كان المسلمون قد سبقوه بما يزيد عن فرسخ. أمدَّ الدوق البلدة بالمحاربين، وكان ذلك الأمر ضرورياً للغاية، إذ قُتِلَ خمسون جندياً وجُرِح ما يفوق ذلك بكثير؛ فأثنى على القادة لبلائهم الحسن فى التصدى لكل ذلك العدد من الرجال، وتلك النيران المتأججة -التى كانت أشد ما يرهبه الجنود- ، ثم قفل عائداً إلى غرناطة فى تلك الليلة.

الفصل السادس

ويتناول الحوارات التى دارت حول خروج ماركيز بلش إلى قلهرّة، وكيفية استدعاء ماركيز مونديخار إلى البلاط.

على الرغم من الهزيمة التى ألحقها ماركيز بلش بابن أمية فى بالور -على النحو الذى ذكرناه- فقد قام بعض المنتقدين بالانتقاص من دوره فى تحقيق ذلك الانتصار، نظرًا للكيفية التى توجه بها إلى قلهرّة، تاركًا إياه فى البشرات -حيث تمكن ابن أمية بسهولة بالغة من تجميع المزيد من الرجال وإعادة بناء صفوفه من جديد. وكما يحدث دائمًا فى المجالس من تباين واختلاف فى الأهواء والمآرب - مما يدفع ذوى الحكم المعتل أن يسوقوا الحجج الصحيحة والشبهات حول نقاط الخلاف، فيشكون من الأشياء التى قد تستحق الثناء- فقد كان هناك من زعم أن الأعداء لم يكونوا بالكثرة التى تناقلتها الرسائل، وأن الماركيز قد مُنِحَ رجالاً يفوق تعدادهم ضعف ما يحتاج إليه -وفقًا لأقواله- من أجل إخضاع الأراضى. كما قيل إن الماركيز قد أضاع الفرصة لتحقيق النصر بخروجه من البشرات قبل الأوان؛ وإن خروجه كان يهدف إلى إفهام المجلس أنه من الممكن أن تطأ الخيول أراضى البشرات، وهو الأمر الذى كان يبدو صعبًا من وجهة نظر مجلس السيد خوان دى أوستريا نظرًا للنقص فى المؤن. وأنه بعد أن نفدت مخصصات ذلك الجيش الضخم، مكث الماركيز فى المعسكر يستنفد المزيد من الطعام مع من تبقى برفقته من الرجال دون أن يضطلعوا بأى مهمة.

عكرت تلك الأمور على ماركيز بلش فرحة الانتصار، فقد كان الماركيز يقول إنه حذّر مجلس غرناطة -قبيل مغادرته أدرا بأربعين يومًا- من أجل أن يودعوا ما يلزمه

من مؤن وذخائر فى قلهرّة، لأنه كان يدرك أنه سيلجأ إلى تلك البلدة ليسد احتياجاته؛ وأن عدم تلبيتهم لمطلبه اضطره لإخراج الرجال من المكان الذى كانوا سيموتون فيه جوعًا. كما أن المجلس لم يزوده على الأقل بما يلزمه لمغادرة الموقع الذى كان فيه، مما نجم عنه تخلى الرجال عن الجيش فى كل يوم. ألقى ماركيز بلش تبعة الأمر بأكمله على ماركيز مونديخار ودوق سيسا ولويس كيخادا -لأنه كان يدرك إنهم يكنون له العداء. فكان الماركيز يضمر له ضغائن قديمة تجددت مع المهمة التى أسندت إليه وزادت من أفضليته، أما دوق سيسا فهو عدو له على الرغم من كونه ابن أخيه، وكان لويس كيخادا -وفقًا لأقوال الماركيز- منافسًا له وحاقدًا على السعادة التى ينعم بها، كما أنه أدان دخوله إلى مملكة غرناطة دون أن تصدر إليه أوامر فى هذا الصدد من جلالة الملك. إن مهمتنا ليست إدانة تلك الأمور أو تبرئة أصحابها، بل تدوينها من أجل من سيقرأ ذلك المؤلَّف، لذا فإننا سنذكر فقط أن جلالة الملك -انطلاقًا من فطنته الواسعة- حينما شاهد التهم التى بات كل واحد يوجهها إلى الآخر لتبرير موقفه، قال إنه على الرغم من أن الأضرار التى ألحقها بنا المسلمون ليست جسيمة كما قيل، فإنه كان من الضرورى هزيمتهم والقضاء عليهم. وقد قام جلالته -بعدما قضى أيامًا قليلةً فى استطلاع الأمر على نحو أفضل- بإرسال خطاب إلى ماركيز مونديخار فى ثالث أيام شهر سبتمبر يأمره فيه بالتوجه إلى العاصمة، كما أمر المجلس بإرسال بيان بكل المؤن والذخيرة التى تم إرسالها إلى قلهرّة. غادر ماركيز مونديخار غرناطة فى الثانى عشر من الشهر ذاته، ووصل إلى مدريد حيث قضى الشأن الذى أتى من أجله. فيما بعد أمره جلالة الملك بالذهاب معه إلى مدينة قرطبة، وقام بدعوة المجلس هناك؛ وهكذا لم يرجع مرة أخرى إلى مملكة غرناطة، لأن الملك نصّبه نائبًا له فى بلنسية، ثم أرسله بعد ذلك ليصبح نائبه فى نابولى.

الفصل السابع

ويتناول الكيفية التى تحصن بها القائد فرانثيسكو دى مولينا فى البسيط فى أورخيبا، والمناوشات التى دارت بينه وبين المسلمين بسبب قطع المياه.

بعد أن مكث فرانثيسكو دى مولينا فى أورخيبا مع من رافقه من الرجال -على النحو الذى ذكرناه من قبل(*)- بدأ فيما بعد فى التحصن فى البسيط، وهو الموضع الرئيسى فى تلك الطاعة، وشرع فى تجهيزه لكى يمكن الدفاع عنه باستخدام عدد أقل من الرجال. لما كان القائد لديه أوامر من السيد خوان دى أوستريا لضم البرج والكنيسة إلى المعقل الذى يشيده -نظرًا لضرورة إيداع المؤن والذخائر المخصصة للجيش بهما- ولم يكن ممكنًا إقامة التحصينات على نحو مرض لوجود العديد من التضاريس التى تطل عليها من خارج الساحة والأسوار وتشكل عائقًا، بات من الضرورى إنشاء حائطين من الطوب المدقوق -أحدهما من الخارج والآخر من الداخل- لكى يتسنى للجنود الاختباء بينهما، وكذلك حفر بعض الخنادق التى يمكنهم التنقل من خلالها من جهة إلى أخرى. على ضوء عدم توفر مياه داخل المكان، وعدم إمكانية العثور عليها فى أى من الآبار الموجودة على مدى خمسين أو ستين ذراعًا، إذا كان يلزم التزود بالماء من إحدى السواقى التى يستطيع المسلمون منع مائها فى أى وقت. فقد أمر القائد فرانثيسكو بعمل حفر عميقة حول الأسوار لملئها بالمياه، لتضحى ممتلئة إذا ما حاصرهم الأعداء.

(*) انظر الباب السابع، الفصل الأول. (المترجمة)

أراد ابن أمية الهجوم على ذلك المعقل، فأرسل -في ذات اليوم الذي اكتمل فيه الحفر- أحد عشر لواءً من المسلمين لكي يحولوا المياه عن الساقية، وأيضًا لكي يسعوا لإلقاء القبض على أحد الرجال، حتى يستعلموا منه عن أعداد الجنود التي ظلت بالداخل وما لديهم من تحصينات. وصل المسلمون على مقربة من المكان، ومن ثم قاموا بقطع المياه، وتمكنوا من فعل ذلك بسهولة بالغة لأنها كانت موجودة على مسافة نصف فرسخ من المكان. عندما شك فرانثيسكو دي مولينا في المخطط الذي يود الأعداء تنفيذه، وشاهد الألوية المتوجهة إلى المجرى الخاص بالساقية، أرسل القائد دييغو نونييث Diego Nuñez -وهو من أهالي غرناطة- على رأس مائتين من الجنود المسلحين بالبنادق، حتى يحتل المجرى ويدافع عنه ليحول دون تحويل مجرى المياه. سعى القائد لتنفيذ ذلك الأمر، بيد أن أعداد المسلمين كانت غفيرة فلم يجرؤ على تخطي بعض الصخور، وظل يتبادل معهم إطلاق النيران من هناك على مدار وقت طويل. حينما شاهد فرانثيسكو دي مولينا ما جرى، أرسل القائد لورينثو دي أبيلا على رأس مجموعة أخرى من الرجال، وعندما تراءى له فيما بعد أن كل ما قام به ليس كافيًا لإزاحة الأعداء عن موضعهم، ترك المعقل تحت قيادة السيد غابرييل دي مونتالبو Gabriel de Montalvo -القائد الغرناطي- الذي كان يترأس سلاح المشاة ويقود الجنود في ذلك المعقل، وخرج هو إلى الساقية في مائة من حملة البنادق والمعاول وعشرين فارسًا.

عندما أصبح على مقربة من الصخور ألفى القائدين يقاتلان المسلمين، وحينما أبصر القائدان مجيء تلك النجدة، أغارا على العدو على نحو مكنهما من قتل بعضهم، فأرهباهم إلى حد بعيد واستطاعا أن يعيدا المياه إلى مجرى الساقية؛ وقد ظل الجنود يحرسون المصرف حتى حل المساء وهم مستمرون في المناوشة مع المسلمين. عندئذ تراجع فرانثيسكو دي مولينا، ولكي يحمل المسلمون على الاعتقاد إنه لا يزال موجودًا، فيحول دون إقدامهم على النزول وتحويل مجرى الماء من جديد، أمر الجنود بإشعال العديد من الحبال عند أطراف صخور الجبال ما بين الشجيرات وحول الصخور؛ فتمكن من خلال تلك الخدعة الحربية من تعطيلهم، حيث ظلوا طوال الليل يطلقون

الأعيرة النارية باتجاه تلك النيران، بينما سالت المياه باتجاه الخنادق حتى امتلأت عن آخرها. حينما طلع ضوء النهار فطن الأعداء إلى الخدعة وعاودوا قطع الماء، ثم عادوا أدراجهم إلى الجبال دون أن يحدثوا أمرًا آخر. أما فرانثيسكو دى مولينا فقد أراد أن يرى إذا ما كانت الخنادق يمكنها تخزين الماء لعدة أيام، فوجد أنها سوف تجف فى اليوم التالى؛ ههنا أخرج جزءًا من التحصينات إلى الخارج حتى بلغ منخفضًا مطلاً على النهر، فأنشأ طريقًا مغطى على طريقة الخنادق من تلك البقعة، لكى يتسنى للجنود الذهاب للحصول على المياه دون أن يتعرض لهم الأعداء، وهكذا تمكن من تأمين ذلك الموضع آنذاك.

الفصل الثامن

ويتناول الكيفية التى نشر ابن أمية بها الثورة فى لاس كوبياس، ثم توجهه لمحاصرة بيرا، وكيف قامت بلدة لورقة بإغاثة تلك المدينة.

كان عالم اللاهوت ماتيّاس دى إويرتا سارمينتو Matías de Huerta Sarmiento -المولود بمدينة سيغوينثا- هو الحاكم العام لمدينة لورقة. كما أنه -إلى جانب اتجاهه إلى الأدب- كان أيضًا جنديًا، وقد قضى فترةً طويلةً فى وهران فى الوقت الذى كان السيد ألونسو دى كوردوبا Alonso de Córdoba -كونت ألكاوديتى- قائدًا عامًا هناك، فبات خبيرًا ومتمرسًا فى شئون الحرب. ورغبةً منه فى الحفاظ على المناطق التى تقع فى نطاق سلطته، وأيضًا إدراك ما يخطط له الأعداء، أرسل بعض الجواسيس إلى نهر المنصورة. وقد أظهر همةً عاليةً فى ذلك الأمر، وكذلك فى القبض على جواسيس الأعداء، إلى أن وقع بين يديه فى اليوم السابع عشر من شهر سبتمبر اثنان من جواسيس ابن أمية. فأخضعهما للتعذيب حتى اعترفا بأن ابن أمية يتعجل الأمور حتى يتوجه للإغارة على مدينة بيرا، التى ينوى الانتظار بها إلى أن تصله قوات الإغاثة من بلاد المغرب، لكون المكان ملائمًا لذاك الغرض. كما أن مجيئه سيكون دون شك مع حلول شهر أكتوبر، أى فى نهاية شهر سبتمبر، وذلك برفقة كل من يتسنى له جمعه من الرجال؛ وأن موريسكيى قرى بلش تطوعوا لإرسال المؤن إليه فى الخفاء. على جانب آخر فقد كشفا عن هوية المسلمين الذين كانوا قد أسروا خلال تلك الأيام عددًا من المسيحيين من ماريا María وكاراباكا، ومواطنين من قرى أخرى.

فيما بعد أرسل القائد تلك الاعترافات إلى كل من السيد خوان دى أوستريا وماركيز بلش والقائد العام للقوات -الذى كان لا يزال يجوب الساحل بالسفن التابعة له-

حتى يأخذوا جميعًا حذرهم، ويقوموا بإرسال النجدة -بحرًا أو برًا- إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك. كما أرسل ثلاثة فرسان لتنبيه مدينة بيرا لكى يصير القائمون عليها على دراية بالأمر، لأن المسلمين سوف يحاصرونها دون شك؛ وكذلك فقد أرسل بيانًا باعترافات الجاسوسين إلى المجمع الديرانى، وعرض عليهم أن يغيثهم برجال من لورقة إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك. وللتحقق من وصول تنبيه مؤكد إليه وإمكانية إغاثته للمدينة فى الوقت الملائم، كوّن دوريات مراقبة تبدأ إحداها حيث تنتهى الأخرى على مدار الطريق من لورقة إلى موخاكار؛ وقد قام أهالى موخاكار بالأمر ذاته، فنشروا الدوريات من موخاكار حتى بيرا لكى يتبادل الجنود الرسائل والتنبيهات فيما بينهم عندما يحضر الأعداء، فكانوا يرسلون إشارات دخانية فى النهار ويشعلون النيران ليلاً. كما نبههم القائد إلى ضرورة إرسال ثلاثة من الفرسان لتحذيره على وجه السرعة إبان وقوع أى هجوم تحسبًا لتخلف أى دورية عن إصدار التحذير.

رغبةً فى اختبار كيفية التواصل بين دوريات المراقبة، قام القائد فى يوم الثالث والعشرين من شهر سبتمبر بتجربة إرسال الإشارات الدخانية نهارًا وإشعال النيران ليلاً، فبات الجنود يتناقلونها من يد إلى يد بدءًا من بيرا حتى موخاكار، ثم إلى كومو دى غالى el Como de Gali، ثم ربوة إنميديو Enmedio، ثم ربوة غوردو Gordo، وأخيرًا إلى برج ألفونسى Alfonsi فى لورقة. لم يخطئ المسيحيون فى القيام بتلك التجربة، لأن ابن أمية -حينما أدرك أن ماركيز بلش مستقر فى قلهرّة، وأن المكان ليس به جيش ليتصدى له- أراد ان يحتل مدينة بيرا فى تلك المناسبة. فهبط إلى نهر المنصورة مع خمسة آلاف رجل، ثم انضم إليه خمسة آلاف آخرين من أهالى تلك البقاع، وقام بالهجوم على بلدة لاس كويباس التابعة لماركيز بلش، فنشر الثورة بين أهلها -وكانوا جميعًا من الموريسكيين-، كما قام بتدمير بستان بديع كان الماركيز يمتلكه هناك واقتلاع أشجاره، لكى يثأر منه على خلفية المنازل التى كان الماركيز قد أمر بإحراقها فى بالور. لم يتمكن ابن أمية من احتلال القلعة، لأن المسيحيين الذين كانوا قد تجمعوا بداخلها دافعوا عنها، توجه إلى مدينة بيرا، فأغار بجيشه على بيرا

القديمة Vera la vieja في يوم الرابع والعشرين من شهر سبتمبر -الموافق عيد القديس ماتيو-؛ ومن هناك أمطر مدينة بيرا الجديدة Vera la nueva -التي تقع في المنطقة السفلية- بوابل من الأعيرة النارية.

كان الحاكم العام لتلك المدينة هو الأب مينديث باردو Méndez Pardo، وكان قد خرج لتفقد الجيش يرافقه ثلاثون من الفرسان، ثم تراجع إلى المدينة بعد أن ظل يناوش الأعداء لفترة من الوقت؛ حيث أعقب ذلك بإرسال تحذير إلى مدينتي لورقة ومرسية، وذلك من خلال دوريات المراقبة وإرسال فرسان من أجل تنبيههم إلى الأمر -على النحو المتفق عليه. عندئذ أراد ابن أمية أن يزرع الخوف في نفوس المواطنين، فنصب قطعتين كبيرتين من أسلحة المدفعية البرونزية كانتا بحوزته، وشرع في قصف جزء من الجدار القديم، بينما أطلق النيران في نفس التوقيت على المنازل التي أطل الجيش عليها من موقعه. لكن فيما بعد تم تدمير إحداهما، بينما أصاب أحد الجنود الحاملين للبنادق -كان موجوداً في إحدى الكوات- الجندي الذي يتولى إطلاق نيران المدفع الآخر، كما نجح في تعطيل المدفع. في تلك الآونة، كانت دوريات المراقبة تسرع في إرسال إشارات الاستغاثة من نقطة إلى أخرى. وبينما كان أهالي لورقة يستمعون إلى العظة قبيل انتصاف النهار بوقت قليل، وصل جنود دورية المراقبة التابعة لبرج ألفونسين[٥] حاملين تحذيراً إلى القائد العام. حينما تشكك القائد في النهج الذي عليه أن يسلكه، أمر بدق ناقوس الخطر، فاستعرض أهل المدينة، وزود بالأسلحة من لا يملكون منهم سلاحاً. ثم اجتمع مع أعضاء المجلس، وعينوا كلاً من خوان نابارّو دي ألابا Juan Navarro de Álava وألونسو دي أورتيغا سالاثار Alonso de Ortega Salazar لقيادة قوات المشاة، كما اختاروا دييغو ماتيو خيريث Diego Mateo Jerez قائداً للفرسان -وكانوا جميعاً نواباً في مجلس البلدية. في أثناء عملية التنصيب، حضر أحد حملة الدروع من بيرا -وكان قد قطع مسافة تسعة فراسخ- ليخبرهم كيف أن المسلمين قد جاءوا صبيحة

(٥) لا يلتزم مارمول بكتابة اسم واحد للبرج. (المراجع)

يوم الأحد فى ما يربو على اثنى عشر رجلاً، والطريقة التى قصفوا بها المدينة بواسطة قطعتين من المدفعية، ويطالبهم بإغاثتهم.

اتفق الجميع على إرسال قوات إلى المدينة، حيث اجتمع فى الساحة التى يُطلَق عليها السيدة عذراء الغفران -ما بين الساعة الثانية والثالثة من مساء ذلك اليوم- تسعمائة واثنان وستون من جنود المشاة وثمانون فارسًا فى صفوف منتظمة على أكمل وجه. قبل تحرك الرجال من هناك، أرسل القائد العام رسائل تتضمن عدداً من المطالب وخطابات إحاطة إلى كل من مدينة مرسية، وبلدان ثيهيخين، وكاراباكا، وكالاسبارّا Calasparra، وموراتايّا، وإشبيلية، والحامة، وألومبريس دى ألماثارّون Alumbres de Almazarrón، ونبههم فيها إلى توجهه لإغاثة بيرا برفقة أهالى لورقة؛ كما طالبهم بالنيابة عن جلالة الملك أن يقوموا بالأمر ذاته. واصل القائد طريقه، واستمر فى مسيرته طوال تلك الليلة حتى دخل مدينة بيرا -التى تقع على مسافة تسعة فراسخ- مع بزوغ الفجر. لكن عندما بلغ المدينة علم أن المسلمين قد تم تنبيههم إلى النجدة القادمة فى أثناء انشغالهم باختراق الأسوار -حيث لم يبق لديهم ما يقصفوها به- فتخلوا عما يقومون به وتراجعوا إلى لاس كويباس؛ فاجتمع رجال لورقة مع رجال بيرا وأخذوا يلاحقونهم حتى وصلوا إلى نهر المنصورة. من هناك عادت قوات لورقة أدراجها، حيث بدا لهم أنه من غير الملائم المضى قدمًا مع ذلك العدد القليل من الرجال بينما الأعداء كثيرون للغاية، كما أنهم قد حققوا الهدف الذى جاءوا من أجله ألا وهو فك الحصار عن بيرا. وقد قابلوا فى طريق العودة القوات القادمة من مرسية لنجدة المدينة -وكان قوامها ثلاثة آلاف راجل وثلاثمائة فارس.

اجتمع الحكام العموم والقادة للتشاور حول أفضلية ذهابهم جميعًا لملاحقة الأعداء، وعلى الرغم من أن البعض قد قال إنه ما من داع للقيام بذلك لأن بيرا لم تعد محاصرة، فقد كانت أغلب الأصوات مؤيدة لمطاردتهم لكى لا يحدثوا أضراراً فى بقاع أخرى. بعد أن استقر القادة على ذلك الرأى، نشب بينهم خلاف على الشرف: حيث

قال جنود لورقة إن من حقهم أن يكونوا فى طليعة جيش مملكة غرناطة المتوجه لقتال الأعداء، وأن يحتلوا مؤخرة الجيش فى أثناء التراجع -بمقتضى ميزة قديمة للغاية كانوا قد حصلوا عليها؛ بينما أراد رجال مرسية أن يحظوا بذلك الشرف لكونهم يمثلون رأس المملكة وتلك المنطقة بأسرها؛ وكادوا يصلون إلى حمل السلاح حول ذلك الأمر. حينما شاهد الحكام العموم ما جرى عدلوا عن رأيهم، فجمع كل منهم رجاله وقفلوا عائدين إلى مدنهم. أما ابن أمية فقد رجع إلى بورشينا، ومنها توجه إلى القصور فى أندرش، ثم أرسل رجاله إلى المناطق التى يتبعونها.

الفصل التاسع

يتناول كيف قام بعض الجنود - الذين غادروا جيش ماركيز بلش دون أن تصدر إليهم أوامر بذلك- بجرح السيد دييغو فاخاردو حينما أراد إعادتهم إلى الجيش.

كان الضيق الذى يشعر به رجالنا إزاء بقائهم فى معسكر قلهرة دون الاضطلاع بأى مهمة كبيراً للغاية، حتى أنه ما كانت أى تحصينات لتقدر على حجزهم بالداخل؛ حتى أن القادة أنفسهم ربما ارتاحوا لحل تلك الفرق، لأن ذلك كان يمنحهم الفرصة للخروج من هناك بحجة إعادة تشكيلها من جديد؛ وهكذا صار هناك العديد من الألوية لم يبق بها عشرة أفراد. اتخذ ماركيز بلش إجراءاته فى هذا الصدد، وعندما تراءى له أن أعداد الرجال ليست كافية، وأن المؤن والأغذية ليست بالقدر الذى يحتاجه الجيش من أجل الدخول إلى البشرات من جديد، اضطرته الضرورة إلى البقاء فى موضعه واستهلاك ما يرسله إليه الأب بيرو لوبيث دى ميسا يوماً بعد يوم من وادى آش. وقد ألقى عليه بالكثير من اللوم لتقصيره، ولم يكن هو ممن لا يدركون الكيفية التى تدار بها الجيوش، ممن يغامرون بالأمر برمته على حساب سلطة ومكانة القادة العموم. فأخذ يرقب فى هم وكرب كبير الكيفية التى ينهار بها جيشه يوماً بعد الآخر، حتى أنه بالكاد تبقى لديه من يستطيع أن يعهد إليه بأمر الدوريات ونوبات الحراسة - التى كان يأمر بمضاعفتها فى كل ليلة، ليحول دون هجر الرجال للجيش لخوفهم من الأعداء.

تم تنبيه ماركيز بلش إلى أن ما يربو على أربعمائة من الجنود قد اتفقوا على الرحيل معًا، فأوكل مسئولية دوريات الحراسة، فى الليلة التى قيل له إن الجنود سيرحلون فيها، إلى السيد رودريغو دى بينابيديس -الذى كان قد حضر من وادى آش برفقة فرسان دوق أوسونا- وولده السيد دييغو فاخاردو -الذى يترأس لواء فرسان قرطبة التابع للسيد خيرونيمو دى قزمان. فى أثناء قيام السيد دييغو فاخاردو بتفقد المعسكر فى اتجاه غرف المبيت، برفقة السيد خيرونيمو دى قزمان والقائد كاستيّانوس Castellanos -نائب سلاح الفرسان-، أحسوا بخروج أشخاص من الناحية التى يوجد بها السيد رودريغو دى بينابيديس، وكان فى الجهة الشرقية من المكان. فرجع القائد كاستيّانوس لإحضار حملة الدروع القرطبيين -الذين كانوا قد ظلوا عند نقطة الحراسة- ثم توجه كلاهما إلى حيث توجد فرقة أخرى من الفرسان التابعين لأوسونا واستدعياهم، كما لبى النداء السيد رودريغو دى بينابيديس، ثم ذهب الجميع لإرجاع الجنود الفارين الذين أخذوا يتدافعون دون نظام، فأعادوا الكثيرين منهم إلى أماكن مبيتهم. بينما قام آخرون -ممن لم يرغبوا فى التخلى عن الطريق الذى سلكوه- بارتقاء تبة مرتفعة كائنة فى تلك الناحية الشرقية، وحثوا الخطى سعيًا لبلوغ أعلى بقاعها وأشدها وعورة، حيث لا يتسنى للخيول التمكن منهم.

اقتفى القادة آثارهم، حيث دنا منهم السيد دييغو فاخاردو، وقال لهم ألا يقدموا على أمر قبيح كالتخلى عن راياتهم، وأن يعودوا إلى مقار إقامتهم، وأنه يتعهد لهم شخصيًا بأن أحدًا لن يلحق بهم أذى أو ضيرًا جراء فرارهم من الجيش. بيد أنهم لم يرغبوا فى الاستماع إليه أو إجابته، وواصلوا مسيرتهم من دون صوت بعد إشعال فتائل البنادق. حينما شاهد السيد رودريغو ما حدث غضب كثيرًا، ونادى على السيد دييغو فاخاردو، من أجل أن يتعرف الجنود على صوته ويدب الخوف فى نفوسهم، فقال له: "هلم بنا، فلنسرع أيها السيد دييغو، وسوف نقطع عليهم الطريق عند ذاك السفح، ثم نهجم عليهم ليقع منهم من يقع، فهذه هى الطريقة التى ينبغى أن يعامل بها المحاربون الخونة". تسببت تلك الكلمات فى إشعال غضب الجنود العازمين على الفرار إلى حد جعلهم يجيبوا -من فرط حنقهم مما قيل- أن من تلفظ بتلك الكلمات ومن

برفقته هم الفرسان الخائنون والأشرار، وأن عليهم أن يتقـدموا صوبهم وسـوف يرون ما سيؤول إليه الأمر. استشاظ السيد رودريغو دى بينابيديس غضبًا لما أبداه الجنود من عدم احترام لشخصه، وعلى الرغم من أن عدد الفرسان الذين كانوا معًا ومتأهبين للهجوم لم يتجاوز أربعة عشر فارسًا، لأن الآخرين كانوا قد تخلفوا كثيرًا عن الركب، فقد حملهم على الانقضاض على الفارين بمساعدة السيد دييغو فاخاردو، وهم يهتفون بحياة السيد رودريغو دى بينابيديس ويلقبونه بالسيد سانتياغو؛ عندما عبر من خلالهم من كانوا أعلى الربوة، بدا لهم أنهم يعاملونهم كالمسلمين، ففتحوا عليهم نيران بنادقهم.

كان السيد دييغو فاخاردو متجهًا إلى منتصف السفح، وكان بمحاذاته السيد خيرونيمو دى قزمان وأحد حملة الدروع القرطبيون، عندما أصابه الجنود فى ذلك الموضع بعيار نارى اخترق الترس الحديدى الفولاذى الذى كان يحمله إلى جانب المقبض؛ فقطع إصبعًا من يده اليسرى، كما عبرت الرصاصة إلى الجانب الأيمن من صدره واستقرت به. كان وقع الطلق النارى كبيرًا للغاية، حتى أن الفرس وقع على الأرض وألقى السيد دييغو فاخاردو من فوق رأسه فاقد للوعى؛ فترجل كل من السيد خيرونيمو دى قزمان وحامل الدروع عن فرسيهما، ورفعوه عن الأرض. كان السيد دييغو فاخاردو فارسًا مغوارًا، وكان ودودًا ويبدى مشاعر صداقة تجاه جنوده؛ فعندما ألفى إصابته خطيرة، طالب برؤية الترس لينظر إذا ما كانت الرصاصة قد اخترقته ، وحينما شاهد الثقب الذى أحدثته، أدرك أنهم أصابوه فى مقتل. فاستشعر داخله بحزن نبيل لم يجد له عزاءً، وقال إنه يحز فى نفسه أن يتسبب مسيحيون فى وصوله إلى ذلك الحال؛ ثم امتطى جواده فى أفضل وضع تسنى له وعاد إلى قلهرة. وقد قابله فى الطريق ماركيز بلش -الذى كان قد خرج مع سلاح الفرسان بأكمله بمجرد سماعه لناقوس الإنذار- فانتابه غضب عارم إبان رؤيته على تلك الشاكلة، حتى أنه لم يتمكن من التحدث إليه؛ ثم أصدر أوامره إلى أخيه السيد خوان فاخاردو والسيد رودريغو دى بينابيديس -وكان قد عاد هو أيضًا- من أجل أن يأمرا الفرسان والمشاة بقطع الطريق على أولئك الجنود من ثلاث أو أربع جهات، ثم رجع إلى الحصن.

غادر الجنود المعسكر، حيث لم يكن أى شىء يستطيع إبقاءهم؛ ومنذ تلك الحادثة فصاعداً رحل غيرهم الكثيرون، حتى أن ذلك الجيش الذى كان يضم اثنى عشر ألف جندى لم يبق به سوى ما يقل عن ثلاثة آلاف رجل -كان الجزء الغالب منهم ينتمى إلى وحدات الجيش الإسبانى الملقبة بفرق القرويين، بالإضافة إلى الوحدات التابعة للسيد بدرو دى باديًا، التى تحملت قدراً أكبر من المعاناة نظرًا لكونهم أناسًا نظاميين قدامى وملزمون بالمكوث ضمن صفوف الجيش.

الفصل العاشر

يتناول الانتصار الذى حققه السيد غارثيا مانريكى على الناقوس فى وادى ليكرين.

كان الناقوس يجول وادى ليكرين برفقة ما يربو على ألف رجل، محدثين أضراراً ضمن صفوف دوريات الحراسة التى كان تذهب من غرناطة إلى أورخيبا؛ حيث قضوا على المائتى جندى التابعين لكتيبة خوان دى تشابيس دى أوربيانا -التى ذكرناها آنفًا- ما بين الساقية ولانخارون، كما تسببوا فى أضرار أخرى عديدة فى الغوطة ونواحى الحامة. أراد المجلس أن يوقف وقاحة ذلك المارق، فأمر أعضاء المجلس باستدعاء بدرو دى بيلتشيس -الملقب بذى القدم الخشبية(*)، لأن إحدى قدميه كانت قد بُتِرَت من الركبة إلى أسفل واستعاض عنها بأخرى مصنوعة من الخشب- وكان رجلاً له دراية كبيرة بذلك الإقليم بأسره، كما كان يتسم بعلو الهمة. حينما سُئِلَ عن الطريقة التى يمكن اتباعها لنصب فخ للناقوس، قال لهم أن يدعوه هو يذهب فى أثناء الليل إلى لاس ألبانيويلاس وسالاريس -حيث يحتشد أولئك المسلمون- وأن يمدوه بالسلاح، وسوف يعود من هناك فى الصباح؛ كما سيعمد إلى تعطيلهم حتى إخراجهم إلى النهر فى أثناء النهار، لأنه من المؤكد أنهم لن يخرجوا ليلاً. وعلى الفرسان أن يكونوا قد نصبوا لهم كميناً فى الأراضى السهلية الكائنة ما بين بحيرة بادول ودوركال، وهو سيضعهم بين أيديهم على نحو سيتيح لهم قذفهم جميعًا بالرماح.

(*) انظر الكتاب الرابع، الفصل العاشر. (المترجمة)

بدت تلك النصيحة جيدة للسيد خوان دى أوستريا ولأعضاء المجلس، فأصدروا قراراً لاحقًا إلى السيد غارثيا مانريكى من أجل تهيئة رجال الغوطة للاضطلاع بتلك المهمة، فترك السيد بدرو دى بيلتشيس يتقدم فى البداية، ثم قام هو بالاختباء وإعداد كمين مع قوات الفرسان فى المكان الذى حدده له السيد بدرو. كان ذلك الأخير قد انطلق من أوتورا برفقة مائة فارس، وأربعمائة جندى من حملة البنادق -ممن كانوا يقيمون فى قرى الغوطة-، كما اصطحب معه تِيّو غونثاليث دى أغيلار يرافقه مائة رمّاح يتبعون إيثيخا -وكان قد جاء من غرناطة لذلك الغرض-، حيث توجه للاختباء فى بعض الحقول التى تقع أسفل منخفض نهر دوركال قبيل بزوغ الفجر. أما بدرو دى بيلتشيس فقد قصد بلدتى لاس ألبانيويلاس وسالاريس مباشرةً بصحبة جنود الفرق، الذين مكثوا ساكنين فى انتظار قدومه فاراً من الأعداء -على النحو الذى أخبرهم به. وقد نفذ ذلك الأمر فى حرصٍ بالغ، لدرجة أن دوريات المراقبة التى كان المسلمون قد أقاموها فى تلك الناحية لم تشعر بوجوده؛ فى الوقت الذى كانت فيه تلك الدوريات على مرمى بصر رجالنا. شرع بدرو دى بيلتشيس فى إطلاق نيران سلاحه مع طلوع ضوء النهار، فبدأ الجنود فى إرسال الإشارات الدخانية، وخرج عليه المسلمون وهم يطلقون صيحة عظيمة، فأبدى بعضاً من المقاومة، ثم أظهر للأعداء استشعاره للخوف، وشرع فى التقهقر بنظام إلى مكان الفخ.

كانت أعداد المسلمين آخذةً فى التزايد بشدة الساعة تلو الأخرى، حتى أنهم غطوا تلك الروابى؛ وقد ضيقوا الخناق كثيراً على بدرو دى بيلتشيس، فكان لدى اقترابه من بلوغ مكان القوات قد فقد اثنين من رجاله وجُرِحَ بعضهم. كما أضحى المسلمون على مسافة قريبة للغاية منه، مما اضطر السيد غارثيا دى مانريكى -عند رؤيته لمسلمين ومسيحيين قادمين من خلفه- أن يبادر إليهم دون أن ينتظر هبوط جميع القوات إلى المنطقة السهلية -على النحو المتفق عليه. قتل رجالنا ستة من الأتراك -كانوا فى طليعة الجيش- وما يربو على مائتى مسلم، فلاذ الناقوس بالفرار مع كل من بقى معه من الرجال، حيث لجأوا إلى الهوات والوهاد الموجودة عند النهر، وهى مواضع لم يتمكن الفرسان من مطاردتهم فيها؛ كما لم يستطع المشاة اللحاق بهم،

لأنهم لم يصلوا إليهم فى وقت يتيح لهم القيام بذلك. بيد أنه نال فيما بعد جزاءه على ما اقترفه من شرور، حيث أُلقِي القبض عليه، وأمر دوق أركوس بإعدامه فى غرناطة. ظفر رجالنا فى تلك المعركة بثلاث رايات، ورغبةً منهم فى إشاعة الفرحة فى المدينة، دخلوا إليها وهم يجرّون الرايات، كما قام حملة الدروع برفع رؤوس وأيدى المسلمين على أسنة الرماح.

أحس الجميع بالسرور الغامر فى غرناطة، إلا أن بيلتشيس المغوار شكا السيد غارثيا مانريكى، وقال إن خروج الفرسان لتدعيمه قبل الأوان لم يمكن الرجال من أن يطعنوا أولئك المسلمين جميعًا برماحهم فى ذلك اليوم. وحينما أجابه سيادة الرئيس بأن خروجه مبكرًا كان من أجل الحيلولة دون قتل المسلمين له، لكونه رجلاً عاجزًا وقد كان المسلمون خلفه على مسافة قريبة للغاية، رد عليه السيد بدرو فى غضب عارم على النحو التالى: "أنا أدرك جيدًا يا سيدى أنه قام بفعلته من أجل ذلك الغرض، لكن ما الضير فى أن يقتلوا رجلاً مثلى، فى مقابل الإجهاز على ألفى مسلم طعنًا بالرماح؟" إنها إجابة رجل مخلص، كان يود التضحية بحياته فى مقابل خدمة الرب وجلالة الملك.

الفصل الحادى عشر

يتناول التدابير التى اتخذها جلالة الملك فى تلك الأونة واتخاذ القرارات المتعلقة بالحرب الوشيكة.

أقر جلالة الملك فى تلك الآونة أمرين على قدر كبير من الأهمية لتقصير أمد تلك الحرب، وذلك بناءً على الرأى الذى أبداه السيد خوان دى أوستريا وأعضاء المجلس القريبين من شخصه. كان أولهما الأمر الذى أصدره من أجل إنهاء عملية إخراج الموريسكيين الذين كانوا لا يزالون فى غرناطة، وإيداعهم فى أماكن تقع بالداخل؛ حيث راودت جلالته شكوك حول كونهم من يتولون إخبار ابن أمية بكل ما يقوم به المسيحيون، لأن له جواسيس بين صفوف الثوار. أما الأمر الثانى فكان القرار الذى أصدره جلالة الملك لإعلان أن تلك الحرب ستكون بالحديد والنار، وهو أمر لم يكن قد تم الإفصاح عنه حتى ذلك الوقت؛ حيث كان يتم تداول ذلك الشأن فى المجلس الأعلى لشئون الحرب تحت مسمى عقاب المتمردين فحسب، لأن القادة لم يرغبوا فى إضفاء صفة أخرى عليهم. كما أن السادة الموجودين بالمملكة كانوا مستاءين للغاية -وهم محقون تمامًا فى ذلك الشعور- من تلقيب ابن أمية بالملك، أو حتى الطاغية؛ وكانوا يرون أن أفضل اسم يليق به هو الخائن، لكونه قد خان ملكه وسيده الطبيعى داخل إطار مملكته ذاتها.

فى الوقت ذاته تم منح كل المسيحيين الذين يخدمون تحت إحدى الرايات أو فى أحد الألوية ضوءًا أخضر، كما سُمِحَ لهم أن يحتفظوا لأنفسهم بكافة المنقولات والأموال والحلى والماشية التى يستولون عليها من الأعداء؛ كذلك فقد تقرر ألا يدفعوا الخمس

أو أى ضريبة أخرى مفروضة على الأشخاص الذين يقومون بأسرهم. كان الداعى وراء كل تلك القرارات هو إسباغ النعم والعطايا على الجنود فى تلك المناسبة، من أجل تحفيز الرجال -الذين كانوا يشعرون بضيق شديد- على أن يخدموا فى الجيش طواعيةً، دون أن يستلزم الأمر اللجوء إلى طرق أكثر حزمًا؛ حيث كانت قرى أندلوثيا تشعر بالحرج إزاء الشكاوى، التى قصها على مسامعهم الجنود الذين أخذوا فى الفرار من جيش ماركيز بلش. رغبةً فى حمل الجنود على تقبل رواتبهم المعتادة على نحو أفضل، صدرت أوامر بزيادة مكافآتهم تبعًا للنسق المتبع عادةً مع المحاربين: فكان نصيب كل من الجنود حاملى الدروع وحملة البنادق أربع عملات فى كل شهر، بينما يحصل الجنود المسلحون بالرماح -الذى كانوا ينعتون بذوى الرماح الخشنة على ثلاثة عملات. لمّا نفدت الأموال لدى أصحاب الرتب الكنسية الرفيعة وأعضاء المجالس، وسادة الإقطاع - الذين صدرت إليهم الأوامر من أجل إعادة بناء الكتائب التى كانوا يخدمون تحت لوائها، وتزويدها بأكبر عدد ممكن من الجنود، حيث لم تعد تكفيهم الأموال العمومية أو الضرائب على الأغذية، التى سمح لهم المجلس الملكى بإنفاقها على المؤن، لكى يدفعوا رواتب الجنود - صدر قرار مفاده أن يتم دفع رواتب كل جنود المشاة، بدءًا من أول أيام شهر نوفمبر القادم- من الخزانة الملكية، على أن يكتفى أصحاب الرتب الكنسية الرفيعة وأعضاء المجالس وسادة الإقطاع بدفع رواتب الفرسان.

تم إعلان كل تلك القرارات فى غرناطة فى منشور عام صدر فى التاسع عشر من شهر أكتوبر من عام ١٥٦٩. فى أعقاب ذلك تم إرسال نسخ معتمدة إلى سائر مدن وسادة إقطاع أندلوثيا ومملكة غرناطة، لكى يدرك الناس فى شتى الأرجاء المنح والعطايا التى أنعم بها جلالة الملك على المحاربين. لن نتناول الآن الفائدة التى أسفرت عنها تلك التدابير -وكانت عظيمة للغاية- بل سنتحدث عن الكيفية التى دفع بها ابن أمية ثمن الشرور والآثام التى اقترفها، وذلك على أيدى الثوار أنفسهم الذين حكموا عليه بالموت.

الفصل الثانى عشر

يتناول الكيفية التى قتل بها المسلمون ابن أمية، ونصّبوا بدلاً منه دييغو لوبيث ابن عبو.

فى أثناء تنفيذ تلك القرارات من جانبنا، كان دييغو الوزير -أحد أهالى البسيط التابعة لأوخيخار- ونفر من أقربائه من أعداء ابن أمية، يجولون الأراضى بعيداً عن أنظاره خوفًا من أن يأمر بقتلهم، فسعوا للإجهاز عليه بأيديهم من أجل التحرر من ذلك الخوف، وأيضًا لرغبتهم فى الثأر منه نظير الأفعال الوحشية التى ارتكبها فى حق مواطنى تلك الأراضى -خاصةً صهره ميغيل دى روخاس، ورفائيل دى أركوس، والكثيرين غيرهم من القادة والرجال البارزين فى تلك الطاعة وفى طاعة خوبيليس - حيث كان قد أمر بقتلهم، اتباعًا للمشورة التى أسداها إليه زعماء الثوار الجبليين المرافقون له. فى نهاية الأمر أخذوا بثأرهم منه وقتلوه بأيديهم على النحو الذى سنسوقه الآن. كان من بين الأمور التى اقترفها ابن أمية وأشعرت دييغو الوزير بالمهانة الشديدة، أن ابن أمية اصطحب من أوخيخار أرملة من بنات عمومة دييغو -كانت على علاقة بذلك الأخير- فاتخذها خليلةً له رغمًا عن إرادتها. كان هناك من ظن أن سبب حنق دييغو على ابن أمية لم يكن الغيرة، بل كان بداعى الشرف، لأنه سخط من اتخاذه إياها خليلةً له بينما كان من الممكن أن يتزوجها لكونها ذات نسب رفيع. بيد أن الزمن أثبت لنا فيما بعد خطأ ذلك الاعتقاد، حيث شاهدها أناس بعد مرور ست سنوات على تلك الحرب فى تطوان، وقد تزوجت من دييغو الوزير ذاته تبعًا لشريعتهم اللعينة. فى النهاية، وبصرف النظر عما كان، فقد سنحت فرصة جيدة لدييغو لتحقيق ما يطمح إليه،

لأن تلك المرأة المسلمة كانت تشغل منصب أمين السر الخاص بعدوه، وهى أداة الشرور التى يقترفها.

أصبح ابن أمية مكروهًا على نحو غريب، وبات موضعًا للشبهات فى سائر بقاع البشرات، بعد أن تنامى إلى علم أهلها فحوى ما كتبه إلى السيد خوان دى أوستريا وإلى الشعيبى قائد أوخيخار؛ حيث أدركوا أنه يحاول عقد معاهدة مع المسيحيين من أجل تسليمهم الأراضى، وأنه لا يسعى سوى لتحقيق منفعته وتأمين سلامته الشخصية. ربما كانت تلك غايته حقًا، لكنه كان يتسم بالجبن الشديد، فضلاً عن أنه كان مثقلاً بما اقترفه من ذنوب، فلم يقدر على الوثوق فى أحد؛ حيث كان يعلم تمام العلم أن سبب نشوب الثورة سوف يُنسب إلى أشخاص قلائل، وأنه سيبيت من الضرورى معاقبة رأس الثورة. لمّا كان ابن أمية لا يثق ثقةً كبيرةً فى ذاته، فقد أحاط نفسه فى القصور التابعة لأندرش -حيث توجه فى أعقاب الغارة التى شنها على بيرا- بأصدقائه المقربين من الزعماء والقادة بالإضافة إلى ألفى مسلم، وكان هؤلاء يتقاسمون دوريات الحراسة فيما بينهم فى كل ليلة -كل مع من يتبعه من الرجال. كما أنهم لم يغفلون مهام الحراسة فى أثناء النهار، حيث أحكموا تحصين شوارع البلدة، على نحو لا يتيح لأحد الدخول إليها دون أن يروه أو يستشعروا وجوده. على ضوء عدم وثوق ابن أمية فى الأتراك، وسوء العلاقة التى تربطه معهم، أو ربما لعدم امتلاكه لأموال تمكنه من دفع رواتبهم أثناء عدم اضطلاعهم بأى مهمة؛ فقد أرسلهم إلى حدود أورخيبا تحت إمرة ابن عبو-لأنه كان يرغب فى إبعادهم عنه.

كان أولئك الرجال العاطلون جميعًا من القراصنة واللصوص والقتلة، وكانوا قد بلغوا حد اقتراف العديد من الأمور المهينة والفواحش: فانتهكوا حرمة النساء وسرقوا أملاك أهالى تلك الأراضى المسلمين. حينما ورد العديد من الشكاوى فى حقهم إلى ابن أمية، كتب إلى ابن عبو يستحثه على معالجة ذلك الوضع؛ فأجابه ذلك الأخير بأن الأتراك لا يسببون ضيراً لأحد، وأنهم إذا ما أحدثوا أى قلاقل فسوف يتولى معاقبتهم. تم تبادل العديد من المكاتبات بين الجانبين فى ذلك الصدد، وكانت المرأة المسلمة

المرافقة لابن أمية تقوم بتنبيه دييغو الوزير -من لحظة إلى لحظة- بما يدور فى ذلك الشأن، وأيضاً بمشاعر الغضب التى تنتاب ابن أمية تجاه الأتراك. من هنا بدأ دييغو فى التخطيط لفعلته الخائنة، حيث ألّبهم عليه من أجل أن يأتوا للفتك به والقضاء عليه، على النسق الذى اتبعوه. فى تلك الآونة أراد ابن أمية التوجه لنشر الثورة بين الموريسكيين القاطنين فى مطريل ونهب البلدة، دون إطلاع ابن عبو على مسعاه، فأرسل يخبره بأن يجمع الأتراك، ويذهب برفقتهم إلى لاس ألبانيويلاس، وأنه سيصلهم كتاب آخر فى الطريق يحمل الأوامر حول ما ينبغى القيام به. كان لابد لتلك الرسائل من المرور بأوخيخار، وكانت المرأة المسلمة تنبه دييغو الوزير إلى الرسل الذين يتولون حملها، فخرج لانتظاره فى الطريق، ولاقاه فى نهايته بصحبة دييغو دى أركوس وغيره من أصدقائه، فأردوه قتيلاً، واستولوا على الرسالة التى كانت فى حوزته. وقام دييغو دى أركوس -الذى كان قد شغل منصب كاتب سر ابن أمية فى بعض الأحايين، ووقع عدداً من المكاتبات بدلاً منه- بتغيير فحوى الرسالة: فبدلاً من مطالبة ابن عبو باصطحاب الأتراك لاحقًا إلى مطريل، أمره بأن يأخذهم إلى ميثينا دى بومبارون، وفى أعقاب تسكينهم هناك -على نحو لا يتيح لهم الاختلاط مع أهل البلد، أو الرجال المائة الذين يرافقون دييغو الوزير- عليه أن يجردهم من أسلحتهم، ويأمر بنحرهم جميعاً؛ على أن يقوم بالأمر ذاته مع دييغو الوزير بعد أن يتمكن من الإيقاع به.

أرسل المتآمرون تلك الرسالة إلى ابن أمية فيما بعد مع شخص يتسم بالحذر، فما كان منه -بعد أن تعجب من ذلك الحدث الجلل- إلا أن أدرك أنه ما من شك فى صحة ما يُقال عن أن ابن أمية يسعى لعقد اتفاق يسلم بمقتضاه الأرض. وبينما هو متردد وغير قادر على حزم أمره، وصل إلى بابه دييغو الوزير -الذى كان قد قاس الطريق والوقت- برفقة الرجال المائة المصاحبين له؛ فألفاه مضطرباً؛ وقص الرجل على مسامعه كيف أن ابن أمية قد أرسله لكى يأمره بالتوجه لتنفيذ حكم الموت على الأتراك برفقة أولئك الرجال المائة، بيد أنه لا يود الزج بنفسه فى ذلك العمل الوحشى، لأن هؤلاء القوم هم أناس حضروا من أجل الوقوف إلى جوار المسلمين، وضحوا بأرواحهم لكى

يمنحوهم الحرية. بل إنه قد تعب من خدمة رجل ناكر للجميل، وقد تطوع لخدمة شخص لا ينتظر منه مقابل أفضل، لهذا فهو يعتزم الذهاب إليهم لتنبيههم إلى ذلك الأمر لكى يأخذوا حذرهم.

فى أثناء ترديد الرجل لتلك الكلمات، تصادف مرور حسين -القائد التركى- أمام الباب الذى كانا موجودين عنده. كان دييغو الوزير يود التحدث إليه، بيد أن ابن عبو تقدم أولاً لكى لا يسبقه إلى تحذيرهم -مخافة أن يقتله الأتراك- وربما كان السبب هو رغبته فى أن يفوز هو بذلك الفضل. نادى ابن عبو حسينًا وأخاه كراكاش Caracax، وعرض عليهما الرسالة. فما كان منهما إلا أن نبها إلى الأمر كلاً من: نبيل Nebel، وعلى الريس Alí arráez، ومحمد الريس Mahamete arráez، والحسن Hascen، وآخرين من القادة الأتراك. فهاجوا جميعًا وتباينت مشاعرهم بين الخوف والحنق، ثم شرعوا فى إطلاق التهديدات وتعبئة البنادق بالبارود، وقالوا إن هذا هو الجزاء الذى يستحقه من تركوا ديارهم ونساءهم وبنيهم من أجل القدوم إلى هنا لإغاثتهم؛ وبالكاد تمكن ابن عبو من تهدئتهم، فقال لهم أن يطمئنوا لأنه لن يُلحق بهم أحد أدنى أذى على الإطلاق. حينما شهد دييغو الوزير الغضب الذى انتاب الأتراك، ورأى أن مخططه يسير فى الطريق الصحيح، أراد أن يدلل على صدق الرواية؛ فأخرج عشبة تدعى الحشيش -كان الأتراك معتادين على تناولها فى وقت القتال، لأنها تذهب عقولهم وتشعرهم بالسعادة والميل إلى النعاس-؛ وقال إن ابن أميه قد أرسلها إليه لكى يقدمها إلى القادة فى أثناء تناولهم لوجبة العشاء، حتى يناموا ويتمكن رجاله من قتلهم فى تلك الليلة.

هنالك تم الاتفاق على أنه لا يستقيم أن يتولى ذاك الرجل القاسى -الذى يقتل كل الأناس النبلاء- الحكم، بل ينبغى أن يقتله الرجال وينصّبوا ملكًا غيره. قال دييغو الوزير بتولية إما حسين أو كاراكاش، بيد أنهما -على الرغم من موافقتهما على مسألة قتل ابن أمية- لم يريدا قبول اقتراحه؛ حيث قالا إن أولوج على لم يرسلهما من أجل أن يصيرا ملكين، بل لكى يدعما ملك الأندلسيين، وأن التصرف السديد هو وضع الحكم بين يدى أحد أهالى تلك الأرض، على أن يكون شخصًا ذا أصل نبيل يمكن الوثوق فى

سعيه لتحقيق صالح المسلمين، وذلك حتى تأتى الموافقة على شخصه من مملكة الجزائر. لاقى ذلك الرأى استحسان الجميع، فلم يضع الحاضرون الوقت، وقاموا بتنصيب ابن عبو ملكًا -رغما عن إرادته، وبعد إبدائه معارضةً شديدةً فى بداية الأمر. فى النهاية قبل ابن عبو المنصب والشرف الذى منحوه إياه، ووعدهم أن يبادر بالقضاء على ابن أمية، واعتقال سائر القادة والرجال البارزين ممن تربطه بهم علاقات صداقة، وألا يطلق سراحهم حتى ينصاعوا لأوامره فى خضوع تام. كان كاراكاش رجلاً أثمًا ، وكان قد تم نفيه من الجزائر -بمقتضى الجرائم العديدة التى كان قد اقترفها- إبان مجىء أخيه الحسين برفقة قوات الإغاثة التى جلبها الحبقى إلى البلاد. شرع كاراكاش فى وضع رغبات ابن عبو موضع التنفيذ، وكان أول ما قام به هو حمل كل الموجودين على الانصياع لمشيئة ابن عبو بوصفه حاكمًا عليهم لمدة ثلاثة أشهر، إلى أن تأتى الموافقة على توليته ذاك المنصب من الجزائر. ثم توجه فيما بعد إلى أندرش فى صحبة مائتين من الأتراك، ومثلهم من المسلمين، بالإضافة إلى كل من ابن عبو، ودييغو الوزير، ودييغو دى روخاس مع مائة رجل كانوا يرافقونه.

وصل كاراكاش إلى القصور بحلول منتصف الليل، وتمكن من طمأنة دوريات الحراسة عندما قال لهم إنه ومعه مجموعة من الأتراك قدموا من أجل التحدث مع الملك، فتركوهم يعبرون حتى وصلوا إلى مقر إقامة ابن أمية. حطم الرجال الأبواب ودلفوا إلى الداخل، فوجدوا ابن أمية قد خرج إلى أحد الأبواب شاهرًا بندقيته فى يده، فاعتقلوه. قال البعض إنه كان نائمًا بين سيدتين، وإن إحداهما كانت ابنة عم دييغو الوزير. أنا لا أدرى كيفية حدوث ذلك، لأنه كان قد تم تنبيهه إلى ما يدور فى بداية الليل، كما كان لديه فرسان مسرجان ومعدان للرحيل؛ لكنه لم يفصح عن شىء لعدم رغبته فى التخلف عن إحدى السهرات الغنائية الراقصة التى قصدها الرجال على مدار فترة طويلة من الليل. وعندما تعب من الاحتفال واللهو توجه إلى مقر إقامته، حيث كان يوجد أربعة وعشرون جنديًا من حملة البنادق، وما يربو على ثلاثمائة مسلم من الحراس، وكانوا قد أحاطوا بالمكان لكى يباشروا التحرك قبيل بزوغ الفجر.

على الرغم من كل ما قيل، لم يحرك أحد ممن كانوا معه ساكنًا لإنقاذه عندما شاهدوه معتقلاً. فقام ابن عبو ودييغو الوزير بربط يديه بحبل رفيع، ثم عرضوا عليه الجرائم التى ارتكبها وأظهروا له الرسالة. حينما تعرف ابن أمية على التوقيع، قال لهم إن عدوه هو من مهر تلك الرسالة بتوقيعه، وإن تلك الرسالة لم تصدر عنه، واستحلفهم بمحمد وبالباب العالى ألا يدينوه، بل يبقوه أسيرًا لديهم، لأنهم ليسوا قضاة ولا يمتلكون الحق فى الحكم عليه، وأنه رجل مسلم صالح لم يعقد أى اتفاق مع المسيحيين؛ كما أمر باستدعاء الحبقى للتصديق على أقواله. بيد أن المنطق لم يكن له مكان بين أولئك الرجال الهمجيين والممتلئين بالجشع، فنهبوا منزله وأودعوه أحد القصور، وقد رافقه ابن عبو ودييغو الوزير لحراسته حتى لا يبادر بالفرار؛ وقبيل بزوغ الفجر لفا حول رقبته حبلاً رفيعًا وخنقاه، فكان كل واحد يشد فى اتجاه معاكس للآخر. هناك من قال إنه هو نفسه قام بوضع الحبل حول رقبته -لكى لا يستشعر ألمًا شديدًا- وأنه أصلح من هندامه، وغطى رأسه، ثم قال إنه قد تمكن من الثأر لنفسه، وإنه سوف يموت مسيحيًا. وهكذا وضع ذلك الشقى النهاية لحياته الفاسدة، ولوضعه الجديد والمهيب لدى كل من المسلمين والمسيحيين. أكد البعض أنهم قد سمعوه قبل ذلك الحادث بأيام عديدة يذكر كونه قلقًا بشأن حلم كان قد رآه على مدار ثلاث ليال متتالية، حيث رأى بعض الرجال الغرباء يلقون القبض عليه، ويقومون بتسليمه إلى آخرين يتولون خنقه بالخمار الخاص به؛ وأن ذلك هو الداعى وراء تخيله العديد من الأمور، وارتيابه فى الأتراك. وهو ما يمكن أن نستنتج منه أن النفس البشرية حينما تتناول الأشياء التى تبعث فيها الخوف، فإن الإمعان فى تأمل تلك الأمور، يجعلها تتنبأ فى المستقبل بجزء من المنحى الذى ستسلكه. وكما أن الأحداث التى نمر بها فى أثناء النهار تدفع روحنا لتخيل العديد من الوقائع عندما نحلم ليلاً؛ وأننا نشهد تحولها إلى واقع فيما بعد -نظرًا لتعاطف الطبيعة تجاه النفس البشرية-. هكذا فإن ذلك التعاطف ذاته يقوم فى المستقبل -مدفوعًا بتأثيرات روحانية- بتأكيد جزء مما تخشاه أنفسنا، ليس من منطلق الإيمان ولكن بدافع الخوف.

ما من شك فى أن ابن أمية كان على دراية تامة بما كان من شأن الملوك المسلمين، الذين كان الأتراك قد قاموا فى البداية بتدعيمهم فى إفريقيا لكى يضعوهم على سدة الحكم، ثم قاموا هم أنفسهم لاحقًا بقتلهم، واستولوا على كل ما كانوا قد عاونوهم من أجل الحصول عليه؛ فكان يخشى من ذلك المنطلق أن يقوموا معه بالأمر ذاته. فلنرجع إلى روايتنا من جديد، حيث قام الرجال فى صبيحة اليوم التالى بإخراجه ميتًا، ودفنه فى أحد أماكن تجميع القمامة -احتقارًا له على ما اقترفه من آثام. ثم نهبوا منزله، واسترد دييغو الوزير ابنة عمه، كما فرق القادة الأتراك الآخرون النساء الأخريات فيما بينهم. وقد تم تولية الحكم والإمساك بزمام الأمور لابن عبو خلال فترة محددة قدرها ثلاثة أشهر، ثم أرسل كاراكاش تأييده لاختيار ابن عبو إلى حاكم الجزائر بوصفه ممثلاً عن الباب العالى. تولى تلك المهمة محمد بن داوود -الذى كنا قد أسلفنا ذكره فى بداية ذلك المؤلَف(*)- فذهب محملاً بهدية تتكون من أسرى مسيحيين وأشياء خاصة بتلك الأراضى. فى أعقاب ذلك بفترة وجيزة أرسل داوود إليه بالرد بينما مكث هو هناك، حيث لم يجسر على الرجوع إلى إسبانيا مرة أخرى.

منذ تلك الآونة تم منح الملحد مولاى عبد الله بن عبو لقب ملك الأندلسيين، فوضع على رايته كلمات تقول: "لا يمكننى أن أطلب أكثر من ذلك أو أن أرضى بما هو أقل". قام الأتراك باعتقال كافة القادة الذين لم يرغبوا فى الإذعان له، وحملوهم على الانصياع لأوامره، باستثناء ابن مكنون -ابن بويرتوكارّيرو- الذى انصرف إلى نهر المرية برفقة أربعمائة مسلم، وخيرونثيو -الذى كان موجودًا فى منطقة المنكب- وكان يدعى باسم آخر هو أرشيدونى Archidoni. قام ابن عبو بتنصيب خيرونيمو المالح قائدًا على أنهار المرية وبولودوى والمنصورة، وجبلى بسطة وفيلابريس، وأراضى سند وادى آش؛ بينما تولى الشعيبى والحسين -قائد غويخار- زمام البقاع التى تقع فى جبل شلير، وأراضى بلش، والبشرات، بالإضافة إلى وادى وجبل غرناطة؛ كما منحهم

(*) انظر الجزء الأول: الكتاب الثالث، الفصل التاسع ؛ والكتاب الرابع، الفصل الأول. (المترجمة)

امتيازات لكى يطيع أوامرهم كافة القادة الآخرين. فى غضون فترة وجيزة أرسل ابن عبو القائد التركى حسين بهدية ثانية إلى حاكم الجزائر، وإلى مفتى القسطنطينية؛ واستحثه لكى يتوسط فى شأنه لدى الباب العالى من المنطلق الدينى، من أجل أن يزوده بإمدادات من الرجال والأسلحة والذخائر، إلى حين وصول أسطوله الجبار. ثم قام بتنظيم قوات عادية قوامها أربعة آلاف من الرماة، وأمر أن يتولى ألف منهم تبادل الحراسة حول شخصه، بينما يتولى مائتان مهام الحراسة فى أثناء النهار، ويتم وضع دوريات مراقبة ليلاً خارج وداخل المكان الذى يوجد به، لكون هؤلاء الأشخاص موضع ثقته، وكان ينوى أن يحكم البلاد مستعيناً بمشورتهم.

الفصل الثالث عشر

يتناول الكيفية التى جمع بها ابن عبو رجال البشرات، وتوجهه معهم لحصار أورخيبا.

بعد أن مهد ابن عبو للأمور فى البشرات، حشد أكبر عدد من الرجال تمكن من تجميعه، وذهب لاستطلاع الأمور فى وادى ليكرين، كما جال فى أنحاء لوبراس وألقى نظرة على شلوبانية؛ ثم توجه للإقامة عند مصب نهر مطريل، ومن هناك أصدر أوامره بالتحرك للهجوم على حصن أورخيبا. كان قد غادر ذلك المعقل فى تلك الآونة ثمانون جنديًا من فرقة أنطونيو مورينو من أجل شن إحدى الغارات برفقة حامل الراية بيلتشيس، لكن أحد الجواسيس خدعهم، وساقهم إلى كمين نصبه لهم المسلمون، حيث كانوا فى انتظارهم عند هاوية نيغرا Negra، وقتلوهم جميعًا. ظن القائد المسلم أنه لابد من بقاء عدد قليل من الجنود داخل الحصن، مما سيمكنه من احتلال ذلك الموضع؛ فانطلق من كوديار فى يوم السادس والعشرين من شهر أكتوبر يرافقه عشرة آلاف مقاتل، بينهم ستمائة من الأتراك ومسلمى شمال إفريقيا.

فى اليوم التالى –السابق لعيد القديس سيمون خوداس San Simón Judas– وصلت قوات المسلمين على مقربة من حصننا فى أثناء الليل، فنصب الرجال جميعًا كمينًا عند بعض الجادات الكائنة على مسافة تساوى مدى طلقتين ناريتين. فى صباح يوم الأحد التالى، تقدم أربعة من المسلمين إلى الأمام كما لو كانوا يقومون بالصيد، لكى يسعوا فى الخفاء وعن بعد لاستدراج فرقة من الجنود كانوا قد خرجوا على نحو معتاد لاستكشاف المكان ومحاولة تقصى أى أخبار. كان يتم تبديل المقاتلين الموجودين

فى ذلك المعقل كل شهر، لأن الجنود كانوا يتحاشون الذهاب إليه نظراً للعمل الشاق الذى يقومون به داخله؛ فكان السيد خوان دى أوستريا يرسل من غرناطة فى كل شهر الفرق التى ستمكث فى الحصن، وذلك برفقة الحراسة، كما كان الجنود الذين قضوا مدتهم يعودون إلى غرناطة مع الأمتعة الفارغة.

قبيل قتل المسلمين لحامل الراية بيلتشيس والجنود الثمانين، كان قد وصل على النسق الذى ذكرناه ست كتائب مشاة، وكان على رأس ثلاثة منها قادتها وهم: غاسبار مالدونادو، والسيد ألونسو دى أربيانو، وغاسبار ديلغادو Gaspar Delgado -ابن أخ أسقف جيّان، الذى كان يخدم فى الجيش على نفقة عمه مع ثلاثمائة من حملة البنادق-؛ أما الفرق الثلاث الأخرى التى كانت تحت إمرة: أنطونيو مورينو، وفرانثيسكو دى سالانتى Francisco de Salante، وألونسو دى أراوث Alonso de Arauz -قائد قوات إشبيلية-، فقد حضرت برفقة حاملى الرايات، لأن القادة كانوا قد مكثوا فى غرناطة لانشغالهم ببعض الأمور. كذلك فقد أتى لواءان من الفرسان، يتبع أحدهما خوان ألباريث دى بوهوركيس Juan Álvarez de Bohorques، أما الآخر فكان يقوده لورينثو دى ليبيا بدلاً من السيد لويس دى لا كويبا Luis de la Cueva. فى أعقاب تلك الواقعة المحزنة التى تعرض لها جنودنا، بات فرانثيسكو دى مولينا يبالغ فى توخى الحذر، فلم يكن يدع أحداً يغادر الحصن دون أن يتم أولاً استكشاف الأراضى المحيطة جيداً، لأنه كان يدرك أن المسلمين -المعجبين بأنفسهم بعد قتلهم لأولئك الجنود- لن يكفوا عن المجىء لتقصى أخباره ونصب الكمائن للجنود.

كانت إحدى الفرق قد خرجت فى ذلك اليوم لاستكشاف الأجواء فى المنطقة التى قصدها المسلمون الأربعة، فبادر أولئك بالفرار؛ وقام العريف المصاحب للجنود -وكان يدعى فرانثيسكو إيدالغو Francisco Hidalgo- بمطاردتهم دون أن يضع فى اعتباره ما يمكن أن يقابله فى الطريق. انهمك العريف فى المطاردة، حتى أنه ألفى نفسه فجأةً فى أحد الكمائن المنصوبة، فخرج إليه المسلمون من مسافة قريبة للغاية، وأحاطوا به من جميع الاتجاهات وأجهزوا عليه، وكان معه أربعة جنود آخرين يسيرون فى المقدمة؛

أما الباقون فقد استطاعوا التراجع حتى الحصن بعدما تعرضوا لمخاطر شديدة، وتنبيه فرانثيسكو دى مولينا إلى تلك الواقعة. فما كان من القائد إلا أن بعث بلورينثو دى ليبيا، مع ستة من فرسانه وأربعة ممن يتبعون القائد خوان ألباريث دى بوهوركيس - كانوا يقيمون خارج الحصن-، من أجل معرفة كنه أولئك الرجال. فبلغ معهم الموضع الذى كان المسلمون مختبئين فيه، وحينما وجدهم قد تراجعوا بالغ فى التقدم إلى الأمام، حتى وصل إلى المكان الذى يوجد به ابن عبو مع حشود الرجال. أوقف القائد مسيرته حتى يستطلع الأمور جيداً، وكان سيهلك لأن العديد من الرماة هجموا عليه، فقتلوا فرس أحد حملة الدروع وجرحوا فرسه هو، مما اضطره إلى التراجع بعد مشقة بالغة، بينما الأعداء يلاحقونه على الدوام وهم يطلقون صيحات عظيمة، حتى دلف إلى داخل الحصن.

فى ذلك اليوم -الموافق الثامن والعشرين من شهر أكتوبر- حاصر المسلمون المكان الموجود به جنودنا من جميع الاتجاهات، واحتلوا كافة المواضع المشرفة عليها لكى يتمكنوا من رميهم بنيران البنادق. وقد شنوا عليهم هجوماً عنيفاً، وقتلوا بعض المسيحيين، كان من ضمنهم كريستوبال دى ثاياس **Cristobal de Zayas** -حامل راية السيد ألونسو دى أريبانو- وأحد حملة الدروع من كتيبة خوان ألباريث دى بوهوركيس كان يدعى بيسكادور **Pescador**. عندما شهد رجالنا التصميم الذى يتسم به الأعداء، وأدركوا أن أسوار الحصن مشيدة من الحجر المدقوق وأزواج من الأحجار شديدة الانخفاض، حتى أنها لم تكن تبلغ ارتفاع رجل فى بعض الأماكن، بادروا بإصلاحها بأنفسهم فى حماس شديد. كان حملة البنادق قد وضعوا أسلحتهم عند النوافذ الضيقة والحواجز الوقائية، فقتلوا وجرحوا الكثيرين من جنودنا، وجعلوهم يفقدون الحمية التى أضفاها عليهم خوان ألباريث دى بوهوركيس ومن معه من حملة الدروع، الذين أخذوا يدافعون عن إحدى الفتحات التى لم يكن قد تم الانتهاء من تغطيتها -ما بين الثكنة الخاصة بسالانتى وتلك الخاصة بالسيد ألونسو دى أريبانو- وكان من الممكن أن يدخل من خلالها جمع كبير من الرجال بسهولة بالغة. من المؤكد أن العناية الإلهية هى التى

تسببت في الغفلة التي اتسم بها المسلمون في ذلك اليوم، لأنهم لو كانوا هاجموا الحصن من ثلاثة أو أربع أماكن، لتمكنوا من اقتحامه في سهولة، نظراً لانخفاض الأسوار وسوء حالتها، إلى جانب وفرة أعدادهم.

حينما رأى ابن عبو المقاومة التي أظهرها جنودنا المسيحيون، قام بسحب رجاله، وقسمهم إلى أربع مجموعات، وحاصر الحصن من أربعة أماكن؛ ثم قطع المياه عن الساقية، وبدأ في إصدار الأوامر لبدء المعركة. في تلك الأثناء كان فرانثيسكو دي مولينا قد وزع مجموعات الجنود، فأوضح لكل مجموعة المكان الذي ينبغي عليها الدفاع عنه. فوضع في الناحية الشمالية -التي يوجد بها الطريق المؤدي إلى غرناطة- فرقة أراوث برفقة حامل رايتها خيرونيمو كاساوس Jerónimo Casaus؛ وعلى الجانب الأيسر منه تمركز غاسبار مالدونادو مع كتيبته، بحيث أصبحت الكنيسة وراء ظهورهم. كما جعل في منطقة النهر، التي تقع في اتجاه الغرب، كتيبة سالانتي تحت إمرة حامل رايتها ألونسو بيلاثكيث دي بورتييو Alonso Velázquez de Portillo؛ أما الجهة الجنوبية، التي يخرج منها الطريق المفضي إلى مطريل، فتمركز بها السيد ألونسو دي أربيانو؛ بينما وقف غاسبار ديلغادو بين ذلك الأخير وقوات أراوث. ظل قادة سلاح الفرسان بارزين لكي يلبوا النداء على الأقدام أينما دعت الحاجة إلى وجودهم، وقد صاحبهم من أجل الغرض ذاته كل من: السيد أنطونيو إنريكيث، وغونثالو رودريغيل Gonzalo Rodriguel، والقائد ميدرانو Medrano، وفرانثيسكو خيمينيث Francisco Jiménez. وكانوا جميعاً جنوداً محنكين، وكانوا قد شغلوا بتوليهم مهاماً عسكرية، فبعث إليهم جلالة الملك يأمرهم بالذهاب من أجل الخدمة في تلك الحرب، فقام السيد خوان دي أوستريا بإرسالهم في تلك الأيام إلى أورخيبا.

كان أول ما قام به الأعداء هو احتلال المقر المقام به أحد الأفران، وكان قريباً للغاية من الحصن، فلم يكن يفصله عن الأسوار سوى شارع واحد؛ ثم أمر بتجميع كمية كبيرة من أعواد الحطب، وإلقائها عبر النافذة في منزل آخر كان يجمعه والحصن سور واحد، من أجل إشعال النار به وإحراقه. حيث كان رجالنا قد فتحوا نيران

بنادقهم على المسلمين من وراء بعض الحواجز الوقائية المنخفضة التى كانت موجودة فى ذلك البيت، وكان الأعداء يظنون أيضًا أن إحراقه سوف يتيح لهم الدخول إلى الحصن من تلك الناحية. بيد أن الأمور لم تسر على النحو المأمول، لأنهم قبل أن يتمكنوا من إلقاء كمية كافية من الحطب لتحقيق الغرض الذى يطمحون إلى تحقيقه، أمر قادتنا الجنود أن يلقوا عليهم كميات كبيرة من الحصر المشتعلة المغرقة فى الزيت فأحرقت الكمية عن آخرها؛ ثم قذفوهم بعدد كبير من القنابل عبر نوافذ مقر الفرن الذى يشغلونه، حتى بات من الضرورى أن يقوموا بإخلائه ويتراجعوا بعد أن منيوا بخسائر. لم يفلح ذلك الأمر فى إثناء الأعداء عن الاقتراب من الأسوار من جهات أخرى، ليشنوا هجمات عنيفة. قام المسلمون بإلقاء كميات هائلة من الأحجار على من بالكوات وخلف الحواجز الوقائية، حتى أنه بات من اللازم أن يقوم القائد خوان ألباريث بتدعيم تلك الناحية؛ فغطى الجنود بالتروس الدائرية والدروع الخاصة بحملة الدروع، وصد عنهم زخم الحجارة التى تنهال عليهم.

حينما أدرك المسلمون عدم جدوى تلك الطريقة، احتلوا بعض الروابى المحيطة التى تكشف محيط الحصن، ثم وضعوا بعض الرماة فى أحد أبراج الحمام العالية وداخل بعض المنازل المملوكة لآل أبو المست los Abulmestes، والكائنة ما بين قوات غاسبار مالدونادو وجنود السيد ألونسو دى أرييانو. قتل الرماة ثمانية من الفرسان ونفرًا من الجنود وحملة الدروع ممن كانوا يمرون من ناحية إلى أخرى، فأضحى من الضرورى -من أجل درء تلك الأضرار- أن يتم عمل خنادق لكى يختبئ الجنود بها أثناء عبورهم الساحة. وكذلك فقد حفر المسلمون أربعة أنفاق تفضى إلى مواضع مختلفة: فأرادوا أن يمر النفق المتجه إلى مكان قوات غاسبار مالدونادو أسفل الكنيسة -التى كانوا يعتقدون أنها تحتوى على المؤن والذخائر- لكن القائد أقام سقالة عالية لكى يعطل العمال ويتمكن من اكتشاف الأعمال التى يقومون بها؛ كما بادر بإغاثة تلك الجبهة القائدان خوان ألباريث دى بوهوركيس ولورينثو دى ليبيا؛ وكذلك فقد لعبت الدروع دورًا مهمًا للغاية فى ذلك اليوم، لأن الجنود تمكنوا من خلالها من اتقاء وابل الحجارة التى كان يقذفهم بها من بالخارج.

وجّه المسلمون النفق الثانى صوب جبهة القائد ديلغادو، الذى كان قد واصل التقدم إلى الأمام، حتى أنه التقى بجنود الأعداء عند أحد الألغام التى كان رجالنا قد حفروها لتعطيل المسلمين؛ فاشتبك معهم، وقتل رجالنا بعض المسلمون فى الداخل، كما حملوهم على هجر مكانهم، واستولوا على المعدات التى كانوا يستخدموها فى عملية الحفر. أما النفقان الآخران -اللذان كانا يستهدفان ثكنة السيد ألونسو دى أرييانو- فلم يكتمل تنفيذهما، لأن العمال اصطدموا فيما بعد بصخرة صلدة قطعت عليهم الطريق. عندئذ تخلى الأعداء عن العمل فى الخنادق، لأن الأتراك قد شهدوا فشل تلك الطريقة؛ فشرعوا فى إقامة سد من التراب المردوم والحجارة، وذلك فى أحد المنازل المجاورة لأحد الأسوار التى لم تتح للمسيحيين فرصة هدمها. استطاع المسلمون السيطرة من ذلك الموضع على أحد المخابئ المقامة بين جبهتى غاسبار مالدونادو وأراوث. وقد بادروا إلى القيام بذلك فى سرعة شديدة، حتى أن رجالنا لم يكن أمامهم حل سوى التراجع إلى الحائط الثانى للمخبأ، بعد أن تركوا الأول مهجوراً وبات المجال متسعًا للدخول إلى محيطه. أقام جنودنا هناك حواجز مضادة جديدة، لأن المسلمين ردموا الحواجز المقامة بالخارج، بعد أن أغرقوا الشارع بالحجارة والتراب والأغصان، على نحو ظنوا معه أنه سيتسنى لهم الدخول على الأقدام فوق الردم فى سهولة بالغة.

حينما رأى ابن عبو أن المسيحيين قد غادروا كاساماتا Casamata، واعتقد أنهم تخلوا كذلك عن السور واحتموا بالبرج والكنيسة، أمر بشن معركة عنيفة عليهم فى ذلك الموضع. توجهت صوب ذلك المكان حشود الأتراك وخيرة رجال المسلمين، وهاجموا الحصن فى يوم عيد القديسين، حيث ساروا على دقات الطبول وأنغام الناى، وهم يطلقون صيحات حرب مدوية على طريقتهم المعهودة. اتسم هجوم الهمجيين بالسرعة الشديدة، مما مكن الكثيرين منهم من اقتحام الحصن قبل أن يتصدى لهم فرانثيسكو دى مولينا والقادة الآخرون الذين كانوا يتفقدون الثكنات. على الرغم من أن خيرونيمو دى كاساوس -حامل راية أراوث- الذى كان يتولى حراسة تلك الجبهة تصدى لهجوم الأعداء فى حمية شديدة، وكان يجول فى الميدان مغطى بالبارود ودماء الأعداء، فإنه لم يقو على الحيلولة دون دخولهم إلى المعقل، لأن جنودنا أخذوا فى التراجع.

عندئذ وصل فرانثيسكو دى مولينا، الذى قاوم الأعداء فى استبسال شديد، مسلحًا بدرع خفيف ذهبى وشاهرًا سيفه فى يده؛ وقد هب لنجدته كل من: خوان ألباريث دى بوهوركيس، ولورينثو دى ليبا، وحامل الراية بورتييو، كما رافقهم العديد من حملة الدروع والجنود البواسل؛ فتمكنوا من الثبات فى وجه الأعداء.

لعب فرانثيسكو دى مولينا فى ذلك اليوم دور القائد والجندى المغوار، حيث صال وجال من جهة إلى أخرى، يحمس هؤلاء ويتوعد أولئك المتهاونين؛ كما أخذ يقاتل بنفسه حيثما دعته الحاجة إلى ذلك، فتراجع إلى الوراء وطرد الأعداء إلى الخارج. كان أولئك قد رفعوا رايتين على السور -إحداهما من الحرير الأبيض، والثانية من حرير التفتاه القرمزى، وكانت تحمل هلالاً أبيضًا فى المنتصف، وقد طرزت حوافها بالذهب وزينت أطرافها باللؤلؤ؛ وقد سقط حاملا الراية المسلمان اللذان كانا يرفعانهما، فاستلبها منهما رجالنا، وقتلوا ما يزيد على مائتى موريسكى. سقط أحد حاملى الراية على مقربة منهما عند الجهة الخارجية من السور، وقد اخترق فخذيه عيار نارى؛ وعندما أبصر رجاله يبادرون إلى الفرار، أخذ يطلق صيحات عالية ويطالبهم بأن يعودوا إلى القتال، لأن موتهم كالرجال أفضل من فرارهم كالنساء. فلمّا رأى أنه ما من أحد يهب لنجدته، بدأ فى سبهم ونعتهم بالكلاب الجبناء؛ كما رجا المسيحيين أن يهبطوا من معقلهم ويجهزوا عليه، لأن موته على أيديهم أشرف بالنسبة إليه من العيش بين أناس خسيسة؛ فلم يمض وقت طويل حتى هبط جندى من الحصن وقطع رأسه.

فى أعقاب تلك الواقعة، أراد ابن عبو أن يشن هجومًا ثالثًا، فأمر بإيداع ما يربو على ألفى مسلم فى بعض المنازل التى لا سقف لها، والكائنة بمحاذاة سور الحصن؛ فبات الجنود محتمين بالحوائط من الأعيرة النارية التى أطلقها عليهم الجنود المسلحون بالبنادق، بينما شرعوا هم فى إمطارهم بوابل من الحجارة، وبالكاد تمكن الجنود من درئها عن أنفسهم لأنها كانت تسقط فوقهم؛ وقد تمكنوا من شج رأس فرانثيسكو دى مولينا فى أثناء وجوده بالقرب من بوابة غرناطة، وكان قد خلع الخوذة عن رأسه. شن المسلمون هجومًا عنيفًا بالحجارة فى ذلك اليوم، حتى أنهم هدموا جزءًا كبيرًا من

حوائط أحد المنازل التى كان يتخذها القائد ديلغادو مسكنًا له، لكونها من الجير والطوب؛ كما أحدثوا فتحات عديدة فى منازل أخرى، وكانوا سيتمكنون من الدخول عبرها إلى الحصن كما يحلو لهم، لو لم يسارع الجنود بإصلاحها فيما بعد. بادر القائد خوان ألباريث دى بوهوركيس بإغاثة تلك الجبهة، فعالج ذلك الأمر بالهجوم على الأعداء مستخدمًا نفس أسلحتهم؛ حيث حشد أكبر عدد تسنى له تجميعه من الجنود والغلمان، وأمرهم بأن يعاودوا قذف المنازل التى يشغلها الأعداء بالحجارة ذاتها التى ألقوها عليهم. لمّا كان المسلمون لا يمتلكون دروعًا أو خوذات تغطى رؤوسهم مثل المسيحيين، فقد اضطروا إلى الهرب وترك المنازل مهجورة. كانت تلك هى نهاية ذلك الهجوم، ومنذ ذلك الحين لم يجرؤ المسلمون على إلقاء المزيد من الحجارة.

كان مسقط رأس ذلك القائد المدعو خوان ألباريث دى بوهوركيس هو بلدة بيّا مارتين، وهو أخ لقائد آخر يدعى السيد إيرناندو ألباريث دى بوهوركيس -كنت قد تحدثت عنه من قبل(*)- وكان يخدم مع كتيبة المشاة التابعة للبلدة ذاتها؛ وقد أمره السيد خوان دى أوستريا أن يحمل إلى أورخيبا دورية الحراسة الأخيرة المرافقة للمتاع، والتى كنا قد أتينا على ذكرها. لمّا كان القائد مريضًا ولابد من مداواته، فقد منح الإذن إبان بلوغه المعقل بأن يدع هناك حملة الدروع التابعين له، ويرجع إلى غرناطة. حينما علم القائد بوجود شكوك حول قيام المسلمين بمحاصرة الحصن، تراءى له أن ترك الرجال والعودة إلى غرناطة فعل غير مشرف، فقال لفرانثيسكو دى مولينا إنه لا يرغب فى الإفادة من الرخصة الممنوحة له، وإنه سيظل هناك ليلقى مصير الآخرين. أثنى القائد كثيرًا على تصرفه، لأن الجميع كان يتجنب المكوث فى ذلك المعقل؛ ومن المؤكد أن بقاءه كان مهمًا لكونه رجلاً مغوارًا يتمتع ببصيرة نافذة . حينما أدرك ابن عبو الأثر الضئيل الذى أحدثه رجاله خلال الغارات التى قاموا بها، وأن المحاصرين يبدون مقاومة أكبر فى كل مرة، قرر أن يفتح الحصن عن طريق تجويع من بداخله، حيث رأى أن احتلاله للمعابر التى لابد للدوريات من المرور بها عند قدومها من غرناطة،

(*) انظر الكتاب السادس، الفصل الثامن. (المترجمة)

سيعوزهم إلى المؤن بالتأكيد؛ وأن قطع مياه النهر والساقية عنهم، سيجعلهم يموتون عطشًا حينما تنفد المياه المخزونة لديهم فى الخنادق. كانت المياه قد جفت بالفعل فى البداية، لكن فيما بعد نجح الرجال فى تخزين الماء؛ ثم ملأوا الخنادق عن آخرها قبيل وصول جيش الأعداء بقليل، وبات الجنود يشربون منها، على الرغم من أنهم كانوا يواجهون مخاطر عند الخروج لجلبها، حتى حفر الرجال نفقًا فى الداخل لكى يتمكن الرجال من بلوغ المياه من أسفل؛ ولم يعد لديهم سوى ما يكفى ليومين.

على جانب آخر، قام فرانثيسكو دى مولينا فى تلك الليلة -حينما تراجع المسلمون فى أعقاب الهجوم- بتوجيه أوامره إلى جنديين يعرفان اللغة العربية وعلى دراية واسعة بتلك الأراضى، لكى يغادرا الحصن ويطلقا نيران أسلحتهما فى أنحاء مختلفة من أجل تضليل العدو، حتى تسنح لهم الفرصة فى التقدم إلى الأمام خفيةً؛ وكان القائد قد أرسلهم إلى غرناطة برسالة إلى السيد خوان دى أوستريا. ورغبةً منه فى الحيلولة دون إدراك المسلمين حساسية الموقف -تحسبًا لاعتقالهم للجنديين فى الطريق- ذكر فى الرسالة أنه ما من داع لاستشعار فخامته بالألم، لأنه على الرغم من كثرة أعداد المسلمين، فإن هناك ألف وخمسمائة جندى فى حوزته، ولديه كميات من المؤن والذخيرة تكفى لفترة تزيد عن الشهر؛ لذا فإن المعقل فى أمان، حتى أنه يفكر فى الخروج للهجوم على الأعداء. من جهة أخرى، فقد أمر السيد فرانثيسكو الجنديين أن يخبرا السيد خوان شفهيًا مدى النقص الذى يعانوه فى كل من المؤن والذخائر، ومدى أهمية الذهاب لإغاثتهم على وجه السرعة. قام هذان الجنديان بالمهمة فى براعة شديدة، حيث عبرا فى وسط معسكر المسلمين، وتوجها إلى غرناطة وأعلما السيد خوان دى أوستريا بأحوال الحصار. لكن رجالنا كانوا قد تلقوا تحذيرات أخرى عن طريق الجواسيس، وكان دوق سيسا يتهيأ للذهاب والاضطلاع بمهمة الإنقاذ، على النحو الذى سنسوقه فى الفصل التالى.

الفصل الرابع عشر

يتناول خروج دوق سيسا لإنقاذ أورخيبا، وكيفية فك ابن عبو للحصار، وتوجهه للدفاع عن المعبر.

حينما عُرِفَ فى غرناطة المأزق الذى تمر به مدينة أورخيبا، غادر دوق سيسا -الذى كان مكلفًا بمهمة إنقاذها- المدينة مع من بها من المحاربين، إضافة إلى أولئك الموجودين فى بقاع الغوطة، متوجهًا إلى بادول، ثم مضى من هناك إلى الساقية. كان السيد بدرو دى بارغاس **Pedro de Vargas** عريفًا على جنود المشاة، وكان عريف الفرسان السيد ميغيل دى ليون **Miguel de León**؛ بينما ترأس السلاحين السيد خيرونيمو ثباتا **Jerónimo Zapata**، وروى ديّاث دى مندوثا **Ruy Díaz de Mendoza**. مكثت القوات فى ذلك المعسكر لأيام عديدة، وذلك فى انتظار قدوم رجال أندلوثيا، الذين كان السيد خوان دى أوستريا قد أرسل فى طلبهم فى تلك الآونة لكى يصطحبوا باقى الموريسكيين الذين ظلوا فى غرناطة إلى الداخل؛ كما أن القائد أُصيب بمرض النقرس، وأراد السيد خوان دى أوستريا أن يرسل لويس كيخادا بدلاً منه، لكنه تحسن فيما بعد. عندما تم تنبيه ابن عبو إلى أن الدوق قد كوّن جيشًا، وأنه فى طريقه لنجدة ذلك المعقل، قرر -فى ثامن أيام الحصار المفروض- أن يرفعه، ويخرج لانتظار الدوق عند معبر لانخارون، لكى يحول دون عبوره إياه، ويشتبك معه فى معركة تقف التضاريس فيها إلى جانب القائد المسلم. قام ابن عبو بفك الحصار وسحب الجيش فى منتصف الليل ودون إحداث أى ضوضاء، لكى لا يستشعر المحاصرون رحيلهم. لم يدرك من بداخل الحصن ما جرى حتى صباح اليوم التالى، عندما رأى فرانثيسكو دى مولينا أنه ليس

هناك من كائن حي يدب في المعسكر، أمر بفتح أحد الأبواب المفضية إلى خنادق المياه، ثم بعث بحامل الراية بورتييو لاستطلاع الأجواء في خنادق الأعداء.

مثّل ذلك الأمر حدثًا سعيدًا بالنسبة للمحاصرين، الذين أخذوا يشكرون الرب على تحررهم من ذلك الخطر. وقد خرج الرجال إلى معسكر مبيت المسلمين، فعثروا به على كميات وفيرة من اللحوم ومواد غذائية أخرى -كان الأعداء قد خلفوها وراءهم نظرًا لتعجلهم الرحيل من المكان- فاستولى رجالنا على كل ما وجدوه؛ كما قاموا بتحويل الساقية إلى الخنادق وملأوها عن آخرها بالماء، لأنهم -كما أسلفنا- كانوا يعانون من نقص شديد في المياه. في أعقاب ذلك أرسل فرانثيسكو دي مولينا جنديين آخريين بتحذير ثان إلى السيد خوان دي أوستريا، يعلمه فيه برفع العدو للحصار، واعتقاده في أنهم سيتوجهون ليعسكروا عند جبال لانخارون، لكي يحولوا دون مرور قوات الإغاثة من المعبر. في تلك الأثناء عاد الجنديان -اللذان كانا قد توجها في البداية إلى غرناطة- إلى أورخيبا ومعهم رد السيد خوان دي أوستريا، الذي قال فيه إنه قد تباحث في الأمر مع أعضاء المجلس، وإنهم خلصوا إلى إخلاء المعقل ومغادرة الحصن، لكنه لم يصدر القرار حتى يستطلع رأيه أولاً؛ بناءً على ذلك، فإن على القائد أن يرسل إليه الرد؛ وإذا كان يرى أنه من الملائم الدفاع عن الحصن، فليبعث إليه بالأسباب التي تدعوه لذلك، ويذكر عدد الرجال والأمور الأخرى التي سوف تلزمه من أجل القيام بتلك المهمة.

أجابه السيد فرانثيسكو دي مولينا بقوله إن الإبقاء على ذلك الحصن يخدم الرب، ويأتي في صالح جلالة الملك للعديد من الأسباب، وعلى وجه الخصوص فإن الروح المعنوية للمسلمين سوف ترتفع لدى مشاهدتهم لتراجع القوات؛ وبمقتضى ذلك فإنه يتراءى له ضرورة إنقاذ الحصن على وجه السرعة، وإبان وصول القوات، سيضحى من الممكن بقاء العدد الذي يراه كافيًا من أجل الذود عن المكان. بيد أن ذلك الرأي لم يتم إقراره، بل اتفق المجلس على هجر الحصن، وسحب من بداخله من الرجال، لكونه موضعًا تفوق تكلفته فوائده، وليس مناسبًا للعدو. في أعقاب ذلك تلقى القائد رسالةً أخرى من

دوق سيسا مع الجنديين الآخريين، يقول فيها إنه قد بلغ موضع الساقية في طريقه لإنقاذ ذلك المحل، وإنه ينتظر مجيء قوات المدن ليواصل تقدمه؛ كما طالب القائد بإخباره عما في حوزته من طعام، وأن يقول له كم سيكفيه من الوقت، وهو سيتوجه لاصطحابه من هناك في اليوم والساعة اللذين يحددهما، على النحو المتفق عليه. وقد نبهه إلى أن يكون متأهباً للانسحاب في عجالة، لأنه لن يتقدم إلى منطقة أبعد من هاوية لانخارون. أجابه القائد بأن لديه خبزاً يكفيه لخمسة أيام، وبأنه سيكون مستعداً في أي وقت تستدعيه ضرورة الحال. بيد أنه يوجد داخل الحصن ثمانون جندياً جرحى ومرضى، وبعض النساء والأطفال، وكميات أخرى كبيرة من الذخائر، وإنه لابد من بلوغ لانخارون ببعض الأمتعة الفارغة من أجل حملها. الآن سوف ندع فرانثيسكو مولينا في أورخيبا، ونأتي على ذكر ما حدث خلال تلك الأيام لجيش دوق سيسا في الساقية.

الفصل الخامس عشر

يتناول الكيفية التى اشتبك بها ابن عبو مع جيشنا فى المنطقة الواقعة ما بين الساقية ولا نخارون، للحيلولة دون عبوره إلى أورخيبا من أجل إنقاذها.

لجأ ابن عبو إلى الكثير من الحيل لتأخير دوق سيسا، والحيلولة دون مروره إلى أورخيبا من أجل إنقاذ الحصن، لأنه كان يعى أن المسيحيين الموجودين بالداخل لابد سيهلكون عما قريب، نظراً لما يعانوه من نقص فى المؤن. فقام باستعراضات ضخمة لمن فى حوزته من الرجال على تلك الروابى، كما زيّف رسائل تضخّم من قدرات المسلمين؛ إلى جانب ذلك فقد نشر أخبار الظفر بحصن أورخيبا، وموت كل المسيحيين جوعًا. تولى الموريسكيون المعاهدون إذاعة تلك الأنباء فى غرناطة، بينما نشرها الجواسيس فى الريف، وكان هؤلاء وأولئك يقومون بتلك المهمة فى الخفاء، حتى بات دوق سيسا قلقًا للغاية، ولم يعد قادراً على حزم أمره سواءً بالمضى قدمًا مع من برفقته من الرجال، أو انتظار القوات القادمة من المدن -والتى لم تكن قد وصلت بعد. بينما دوق سيسا يتوخى الحذر، ويرغب فى اعتقال أى مسلم يستقى منه الأخبار، اقترح عليه بدرو دى بيلتشيس -ذو القدم الخشبية(*)- أن يأتيه بغايته إذا ما منحه الإذن للقيام بذلك. كان الدوق يود إعفاءه من تلك المهمة، نظرًا لكون هذا الأخير رجلاً معاقًا، كما أن تلك الليلة كانت مظلمة وباتت الأجواء عاصفة مصحوبة بالرياح والأمطار؛ بيد أن بيلتشيس

(*) انظر الجزء الأول، الكتاب الرابع، الفصل التاسع؛ والجزء الثانى، الكتاب السابع، الفصل الخامس. (المترجمة)

المغوار ألح عليه فى الطلب، إلى جانب أن الحاجة كانت ملحة للغاية، مما جعل من الضرورى السماح له بما يريد، حيث أرسل معه فرانثيسكو دى أرويّو -أحد قادة الفرق الآخرين- ورجاله.

خرج القائدان مع بداية الليل، وقاما مع الجنود بنصب كمين فى أحد المسالك الجبلية التى كان لهما دراية بها؛ وبحلول الصباح كانا قد قبضا على ستة من المسلمين كانوا قادمين من المكان الموجود به ابن عبو حاملين رسائل منه. رجع الجمع إلى المعسكر مع صيدهم، وقد أراد دوق سيسا أن يعرف فحوى تلك الرسائل التى كانت مكتوبة باللغة العربية، حيث لم يكن لديه من يجيد قراءتها، فبعث إلى الرئيس يطالبه بإرسال شخص يترجم الرسائل إلى الإسبانية لكى يفسرها. بعث إليه الرئيس(*) بالأب كاستيّو، فترجمهما إلى اللغة الإسبانية؛ وقد كانت -وفقًا لما أنبأنا به لاحقًا- موجهةً إلى قادة كل من: غيخار، ولاس ألبانيويلاس، وغواخاراس. حيث أخبرهم ابن عبو أنه من المناسب أن يحشدوا كل من فى جبهاتهم من رجال ويتوجهوا للانضمام إليه من أجل تحقيق صالح المسلمين، لأنه يود أن يدخل فى معركة مع دوق سيسا -الموجود فى الساقية بغرض العبور إلى أورخيبا وإغاثتها-، وأنهم سيتمكنون من إلحاق الهزيمة به من دون شك. كما أنه تخلى عن مواصلة فرض حصار على أورخيبا لكى يحضر إلى المعبر وينتظرهم عنده، وأن المسيحيين الموجودين فى الحصن باتوا فى حالة أشرفوا فيها على الهلاك عما قريب.

أضاف ابن عبو أمرًا آخر فى الرسالة الموجهة إلى الشعيبى قائد غيبيخار، حيث طالبه أن يخرج فى ستة آلاف من رجاله، ويقوم باحتلال الهاوية الكائنة ما بين الساقية ولانخارون فى أعقاب مرور دوق سيسا، وهكذا سيقطع الطريق على دوريات الإمدادات التى لابد لها من الذهاب محملة بالمؤن؛ وأن ذلك الأمر وحده سيكفى للقضاء على الدوق. من جهة أخرى، فقد أذاع فى غرناطة أن الحصن قد فُقِدَ بالفعل، وأن المسيحيين قد

(*) يقصد رئيس محكمة غرناطة بدرو دى ديثا. (المترجمة)

هلكوا جميعًا، من أجل أن يأمر السيد خوان دى أوستريا دوق سيسا بسحب الجيش، أو على الأقل إبقائه فى ذلك المعسكر. وأنه قد برع فى القيام بذلك، حتى أنه -رغبةً منه فى إضفاء المزيد من المصداقية إلى الخبر- قد أرسل إلى أحد الموريسكيين لكى يبوح به إلى أحد رجال الدين على هيئة اعتراف؛ وفى أثناء وجود السيد خوان دى أوستريا بمفرده فى مقر إقامته فى أحد الأيام، دنا منه أحد القساوسة، وأخبره بالأمر على أنه نبأ أكيد. أسفرت تلك الأخبار عن توخى الأمير الباسل الحذر الشديد، فأمر لاحقًا بانعقاد المجلس، وعرض على أعضائه ما ذكره القسيس، لبحث التدابير التى يمكن اتخاذها فى ذلك الصدد. بعد الأخذ والرد فى تلك المسألة، لم يتمكن أحد من إقناع السيد بدرو دى ديثا بصحة الخبر، حيث قال للحاضرين إن الأمر لابد وأن يكون حيلة من جانب المسلمين؛ وإنه لو كان صحيحًا، من المستحيل ألا يأتى شخص ما ليقص عليهم ما رآه. وقد ازداد يقينه حول كذب الأنباء حينما أخبره السيد خوان دى أوستريا عمن نقل إليه الخبر والكيفية التى وصل بها إلى مسامعه.

عندئذ أمر دوق سيسا بالإسراع فى نجدة الحصن، فقرر المضى قدمًا؛ وأرسل بدرو دى بيلتشيس مع ثمانمائة من المشاة لاستكشاف الهاوية التى تقطع الطريق المستقيم والمنخفض لتفضى إلى تابلاتى. حيث أمره أن يسلك أعلى نقطة به، وأن يتمركز فى البقعة التى يعرج فيها طريق لانخارون على مقربة من أورخيبا، وأن يرسل من هناك من ينبه فرانثيسكو دى مولينا إلى وجوده. كما أرسل فى أعقابه ثمانمائة رجل بغية تأمينه، ثم تبعهم هو مع باقى الجيش -ليصير العدد أكثر قليلاً من أربعة آلاف راجل وثلاثمائة فارس-، لأنه تشكك فى ضرورة احتياج هؤلاء وأولئك إلى قوات دعم. بعد أن شهد الأعداء تحرك رجالنا، قسموا جنودهم إلى قسمين: فتوجه الحسين والدالى -القائدان التركيان- مع الدفعة الأولى لملاقاة قائدنا، بينما ظل الجزء الآخر فى المؤخرة. تأخر الدالى فى الظهور، وانشغل بالمناوشات فى غفلة من جنود الطليعة قبيل لحاقه بهم، وفى تلك الأثناء انفصل ستمائة جندى عن الركب: حيث توجه ثلاثمائة منهم مع الرانداتى للهجوم من المؤخرة، بينما ذهب ثلاثمائة آخرون خفيةً مع الماكوش

للتمركز إلى جوار طريق الساقية، فى منطقة يطلق عليها قلعة الحجر Calat el Haxar. كان ذلك أمراً لم نشهده من قبل سوى مرات قليلة، وهو ينم عن كون الرجال على دراية واسعة بتلك الأراضى، مما مكنهم من الابتعاد عن الجيش مع الجنود فى أثناء الاشتباكات، ونصب كمين دون أن يشعر بهم من فى الطليعة أو القادمون من الخلف.

مع حلول المساء، هجم الدالى بمن معه من الجنود لتدعيم كفة المسلمين فى المناوشات الدائرة بالقرب من المياه عند الهاوية، وذلك على نحو حمل رجالنا على التراجع نحو الجهة التى ظنوا أن الدوق سيجىء منها؛ عندئذ كشف الراندانى الغطاء عن جبهته، وبادر بالانقضاض عليهم. حينما ألفى الجنود أنفسهم بعيدين عن الغوث، وشاهدوا ظلمة الليل تطبق عليهم، تراجعوا إلى مرتفع قريب من الهاوية، بغرض التوقف هناك والتحصن بالمكان. وكانوا سيمسون فى مأمن -على الرغم من تعرضهم لبعض الأضرار- لولا قلة صبر القائد بيريا Perea- المولود ببلدة أوكانيا Ocaña؛ لأنه عندما رأى القوات الآتية لتدعيم المسلمين هجر الربوة، وقد لاحقه الأعداء فى أثناء هبوطه إلى أسفل المنخفض، فمات أثناء محاربته إياهم مع جزء من الجنود الذين كانوا برفقته. مضى الجنود الآخرون إلى الأمام، والمسلمون يطاردونهم، حتى بلغوا موضع معسكر الدوق بعد حلول الليل. فخرج لإنقاذهم ثم عاود التراجع مرة أخرى، لكنه وقع فى الفخ الثانى الذى أعده الماكوش؛ فحينما ألفى نفسه على أحد الجوانب محاصراً من قبل الأعداء، وعلى الجانب الآخر غير متأكد من الطريق وتضاريس الأرض، ومع انتشار الفوضى وحلول الظلام، ومشاعر الخوف التى انتابت الرجال الذين بدأوا فى الفرار، بات من الضرورى أن يتصدى للعدو بنفسه. ظل مع الدوق كل من: السيد غابرييل دى كوردوبا، والسيد لويس دى كوردوبا، والسيد لويس دى كاردونا، وباغان دى أوريا Pagan de Oria -شقيق خوان أندريا دى أوريا Juan Andrea de Oria- بالإضافة إلى فرسان وقادة آخرين، اضطر العديد منهم إلى الترجل عن فرسه والانضمام إلى المشاة، ثم تراجعوا إلى المعسكر مع انتصاف الليل تقريباً على أفضل نحو تسنى لهم.

كانت هناك بعض الآراء التى تقول إن المسلمين لو هجموا على الوتيرة التى ساروا عليها فى بداية المعركة لجابه رجالنا جميعًا خطر الهلاك. بيد أن الضرر قد وقع عندما تحرك بدرو دى بيلتشيس فى توقيت لم يتح للدوق الوصول إلى أورخيبا أو إنقاذ الحصن خلال ساعات اليوم، لأن الوقت لم يكن كافيًا؛ حيث خُدِعَ الكثيرون فى غرناطة بذلك الأمر، ولم يحسنوا تقدير الوقت اللازم على ضوء وعورة التضاريس وعمق الهاوية وضيق الطرق. مات أربعمائة مسيحى، وكان هناك العديد من الجرحى، كما فقدوا أسلحة كثيرة -وفقًا لما أخبرنا به المسلمون. لكن تبعًا لرواية رجالنا -وكنا قد تعلمنا خلال تلك الحرب كيفية إخفاء الخسائر والتغطية عليها- فقد كان عدد القتلى ستين فقط، بينما حدثت فى صفوف الأعداء خسائر ليست بالقليلة، وتحققت للماركيز شهرة واسعة. لأنه مع حلول الليل، ورغم تشككه فى الرجال، وضغط الأعداء عليه، وعجز جسده، فقد امتلك الحرية لتنفيذ ما عرض القيام به على كل الجبهات، والعزيمة لإبعاد الأعداء، والإرادة لتوقيف الجنود الذين كانوا قد بدأوا فى الهرب.

الفصل السادس عشر

يتناول مغادرة فرانثيسكو دى مولينا لحصن أورخيبا، وتراجعه مع القوات كلها إلى مطريل، وعودة دوق سيسا إلى غرناطة.

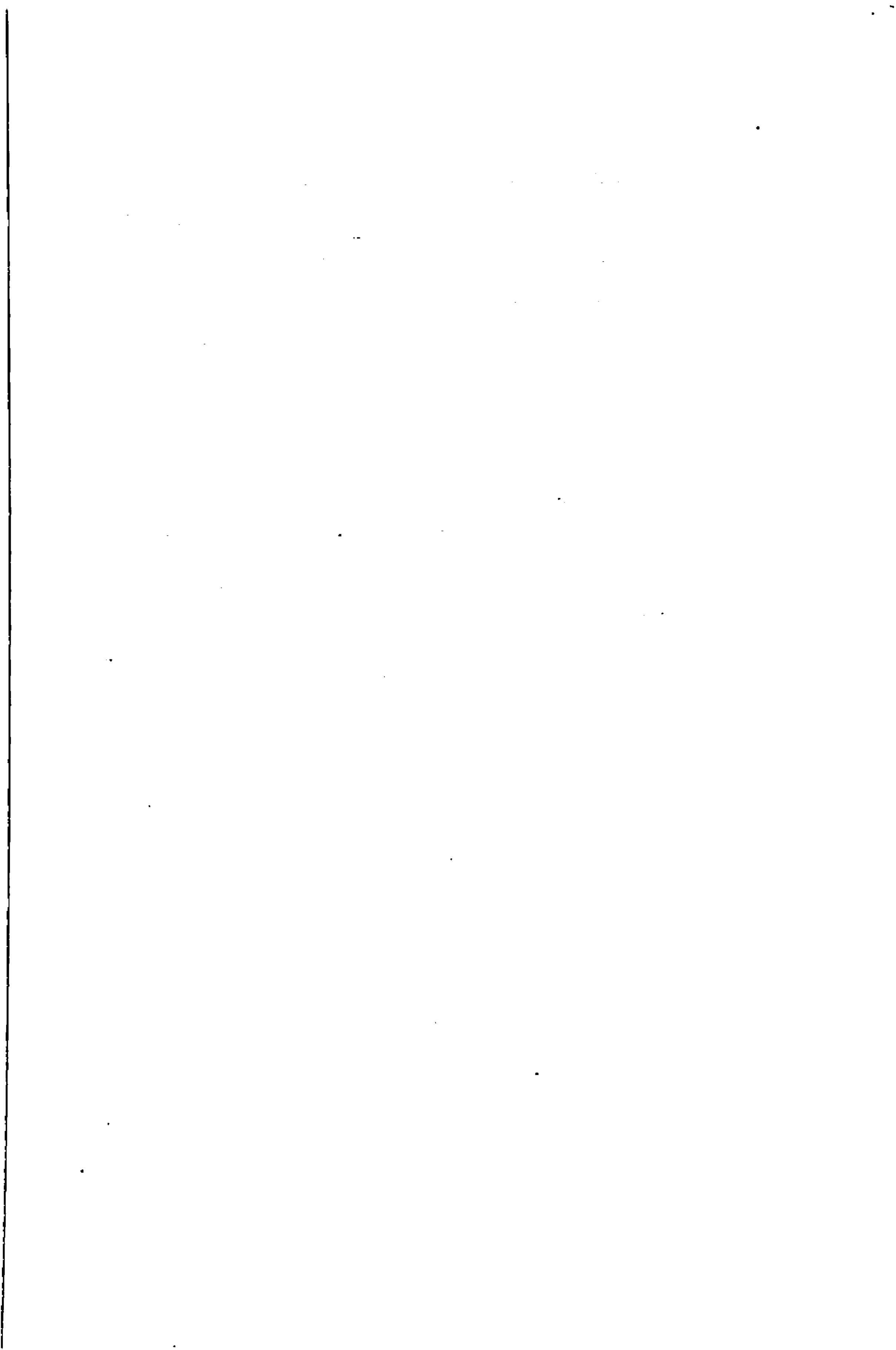
فى تلك الآونة كانت الأيام الخمسة التى حددها دوق سيسا فى رسالته التى بعث بها إلى فرانثيسكو دى مولينا يخبره أنه سيحضر لإنقاذه قد انقضت، ومضت بعدها خمسة أيام أخرى. عندها تراءى لقائد الحصن أنه من الممكن تبرير مغادرته للحصن بمفرده، لأن قدوم الدوق لم يكن الغرض منه سوى إخراجه من هناك. فى ذات اليوم الذى تلقى فيه الرسالة الأخيرة، خرج لاستكشاف الموضع الذى كان جيش الأعداء يحتله؛ وقد اصطحب معه القائدين: خوان ألباريث دى بوهوركيس، وغاسبار مالدونادو، بالإضافة إلى ثلاثة من قادة الفرسان. مر الركب بالعديد من دوريات المراقبة التى كان المسلمون قد شكلوها فى تلك الروابى، حتى بلغ قلعة لانخارون -الكائنة على بعد فرسخين من أورخيبا- وكان بها فرقة من الجنود تابعة له، فسألهم عما لديهم من أنباء حول جيش المسلمين، وأجابوه أنهم لا يعلمون شيئًا ما عدا أن سائر تلك الروابى تكتسى بجنودهم.

عندما فطن القائد إلى أن هدفهم لا يعدو الدفاع عن مدخل البلدة، رجع إلى الحصن من طريق آخر، حيث قام خلال تلك الليلة ذاتها بتسخين مقابض الرماح الطويلة وتلك ذات رأس البلطة، والطرق بها بشدة على بعض قطع المدفعية الثقيلة الموجودة داخل الحصن لتكسيرها إلى قطع صغيرة، ثم دفن الأجزاء المعدنية وأشياء أخرى ثقيلة الوزن كان يدرك أنه لن يتمكن من حملها. كما حمل المرضى والجرحى وعددًا من النساء على

الخيول الخاصة بحملة الدروع على أفضل نحو تسنى له، واتخذ صليبًا عليه صورة المسيح المصلوب رايةً لهم، وقام الجميع بتمجيد الرب فى توقير شديد. أخرج القائد الركب بأسره من الحصن فى الساعة العاشرة مساءً، دون إحداث ضجة بالصناديق التى كانت فى حوزتهم، وسلك بهم طريق مطريل حاملاً معه الصلبان والأيقونات والزخارف الخاصة بالكنيسة. وقد خلّف أربعة جنود فى برج الناقوس، آمرًا إياهم أن يواصلوا قرع الأجراس على النحو المعتاد، إلى ان يغادر الركب الجهة الأخرى من النهر؛ وأن يتراجعوا عندما يشاهدون إشارةً معينةً سيرسلها إليهم باستخدام النيران. وهكذا سلكوا جميعًا طريق مطريل، دون أن يوجد من يعيقهم عن ذلك، حتى وصلوا إليها فى صباح اليوم التالى؛ وهكذا تم إعفاء دوق سيسا من الدخول إلى أورخيبا فى ذلك الوقت، وبات الأعداء وقد خُدعوا.

إبان وصول رجالنا على مشارف مطريل، استشعر أهل البلدة الخوف الشديد، لأنهم ظنوا أنهم من المسلمين؛ ففى ذات الليلة التى غادر فيها رجالنا أورخيبا، جاء أعداء الرب للإغارة على منازل حى الموريسكيين، واصطحبوا الأهالى معهم إلى الجبال -بعضهم كرهًا والبعض الآخر طواعيةً-؛ كما اشتبكوا لفترة من الزمن مع المسيحيين، الذين كانوا قد سدوا رؤوس الشوارع، وأودعوا النساء والأطفال فى الكنيسة التى كانت مشيدة على هيئة حصن. لكن عندما عرفوا أنهم جنود أورخيبا لم يسعهم السرور لرؤيتهم إياهم وقد تحرروا من الحصار الذى فرض عليهم، وأيضًا لأنهم أدركوا أن البلدة ستضحى مؤمنة. ولمّا كان المواطنون يعانون نقصًا فى المؤن، ولم يكن الضيوف الجدد يحملون سوى القليل منها، فقد اتفقوا على الخروج للبحث عما يأكلونه فى بقاع لوبراس وباتابرا Patabra ومولبيثار. فى اليوم التالى خرج القائد خوان ألباريث دى بوهوركيس مع الفرسان وبعض حملة البنادق من المشاة، فأغار على تلك المواضع ونهبها، وجمع الكثير من المواد الغذائية وكميات من التبن -وكان ذلك هو أكثر ما تحتاج إليه الخيول.

عندما تنامى إلى علم السيد خوان دى أوستريا ما قام به فرانثيسكو دى مولينا، أثنى كثيراً على حسن اجتهاده، وأرسل يأمره بالبقاء فى مطريل قائداً على من بها من المقاتلين، فشن العديد من الغارات الناجحة على المسلمين؛ وحينما بات لزاماً التوجه إلى نهر المنصورة، أمره السيد خوان أن يضطلع بتلك المهمة. من جهة أخرى تراءى لدوق سيسا -الذى كان لا يزال موجوداً مع جيشه فى الساقية- أنه ما من داع لمواصلة التقدم، فعرج على لاس ألبانيوبلاس، التى كان قد احتشد بها عدد غفير من الموريسكيين، فدمر ما بها من مواضع، وترك هناك ألفاً من الرجال كمعقل للمسيحيين، ثم ذهب إلى غرناطة. كان أول من نبه رجالنا إلى مغادرة فرانثيسكو دى مولينا أورخيبا، وسحبه لرجاله إلى مطريل، هو أحد الأسرى المسيحيين، الذى ذهب إلى قلهرّة وأخبر ماركيز بلش كيف أن المسلمين قد انتابتهم الفرحة الغامرة فى سائر أرجاء البشرات، وأن سرورهم كان عارماً حتى أن سيده غفل عنه، فسنحت له الفرصة وتمكن من الهرب؛ فأرسله الماركيز بتلك الأنباء إلى جلالة الملك وإلى السيد خوان دى أوستريا.



الفصل السابع عشر

يتناول كيفية نشر خيرونيمو المالح للثورة فى بلدة غاليرا، وذهاب قوات غويسكار لإنقاذ بعض الجنود الذين تحصنوا داخل الكنيسة.

كانت بلدة غاليرا تتبع السيد إنريكى إنريكيث -أحد مواطنى بسطة. كان أهالى البلدة -وكلهم من الموريسكيين- قد طالبوه بإمدادهم بمن يدافع عنهم إذا ما وفد إليهم بعض المسلمين بهدف إشاعة الثورة بينهم، فأرسل إليهم ستين من حملة البنادق مع خادمه ألمارتا Almarta؛ وقد عهد إليه بعدم إعاشة الجنود فى منازل البلدة، لكى لا يثقل على الموريسكيين، فأقام معهم فى الكنيسة، التى تقع خارج البلدة من جهة الشمال، فى أحد السهول الكائنة ما بين البيوت والنهر. كان برج الناقوس حصينًا، فباتت الدوريات تتم فيه ليلاً ونهارًا. فى تلك الآونة كان خيرونيمو المالح يجول منطقة نهر المنصورة وبسطة مع جيش آخر من المسلمين، ويطالب سائر قرى الموريسكيين بالثورة، ويلحق بالمسيحيين أكبر قدر ممكن من الضرر. كما كان يصطحب معه قائدًا تركيًا يدعى كارباخال[٦] ومائتين من حملة البنادق من بلاد المغرب.

أراد المالح أن ينشر الثورة فى غاليرا، لكى يتمكن من تجميع قوات أورثى وكاستييخا هناك، لكونه موضعًا حصينًا -سوف نأتى على ذكره فيما بعد- بيد أن المواطنين اعتذروا منه مبررين ذلك بعدم قدرتهم على اعتناق الثورة فى أثناء وجود

(٦) هذا الاسم غريب بين الأتراك، ونظن إما أنه خطأ مطبعى من الناشر وإما أنه سهو من المؤلف. على أية حال فالقائد التركى يدعى كاراباكا فى مصادر أخرى. (المراجع)

ألمارتا هناك مع أولئك الجنود. من أجل إزاحته من الطريق، دلف إلى المدينة سرًا مائتا مسلم مسلحين بغية قتله؛ وهو أمر كان يمكن تنفيذه بسهولة شديدة، لثقة ألمارتا فى عدم خيانة الأهالى له؛ حيث كان الجنود يصعدون -اثنين اثنين أو ثلاثة ثلاثة- إلى الميدان فى كل صباح لشراء المؤن دون توخى الحذر، كما لو كانوا هم والأهالى نسيجًا واحدًا. رتب أعداء الرب أن يختبئوا فى صباح أحد الأيام على مسافات متتالية فى الشوارع والمنازل، وأن يقتلوا الجنود فى أثناء صعودهم إلى البلدة، ثم يذهبوا إلى الكنيسة ويشعلوا فيها النيران من أجل إحراق من بداخلها. بينما هم على عزمهم هذا فى الليلة السابقة لليوم الذى كانوا سينفذون مخططهم فيه، تراءى لرجل مسلم يدعى أنريكى Anrique من أهالى بورتشينا، كان ضمن الجنود الذين بعث بهم المالح لقتل المسيحيين -وكان من الثوار الجبليين قبل تمرد البلدة- أن هذه فرصة جيدة سنحت له من أجل أن ينال الصفح والغفران على ما اقترفه من ذنوب؛ فعزم الرجل على الدخول إلى الكنيسة، وتحذير المسيحيين من المكيدة التى دبرها لهم الثوار. فألقى بنفسه من نافذة أحد المنازل، على الرغم من أن دورية الحراسة ورجال آخرون من رفاقه المسلمين أحسوا به، فخرجوا فى أثره وشجوا رأسه؛ لكنه سبقهم فى الركض ودخل إلى الكنيسة مع المسيحيين، وباح لهم بالخطة المزمعة لقتلهم، وبأنه يوجد مائتا مسلم فى البلدة قد أرسلهم المالح، وأنه واحد منهم.

شكره ألمارتا كثيرًا على تحذيره إياهم، وبادر بإرسال جنديين إلى غويسكار -التى تقع على مسافة فرسخ واحد من المكان- مطالبًا القائد فرانثيسكو دى بيا بيثيين Francisco de Villa Pecellin، أحد فرسان رهبانية قلعة رباح العسكرية، وحاكم تلك البلدة التى تنتمى إلى دوق ألبا؛ وعالم اللاهوت أويرتا Huerta -القائد العام-؛ أن يغيثوه عن طريق إرسال بعض القوات حتى يتمكن من التراجع مع الجنود القلائل الموجودين برفقته. فما كان منهما إلا أن حشدا المشاة والفرسان فى عجلة شديدة وتوجها إلى غاليرا، لكن إبان بلوغها ألفوا البلدة تموج بالثورة، وكان المسلمون قد حاصروا الكنيسة وهجموا عليها، وأضرموا فيها النيران من أجل إحراقها. وعندما وصل جنود

غويسكار إلى الكنيسة، تقهقهر الثوار نحو البلدة مع قيامهم ببعض المناوشات، مما أتاح للمحاصرين إمكانية الخروج من بعض النوافذ المطلة على النهر بعد بذل مجهود يوازى الخطر الذى تعرضوا له. تراجعت القوات دون الاضطلاع بأى مهمة أخرى ما عدا تأمين عودة أولئك الجنود، فعادوا فى ذات اليوم إلى غويسكار، مخلفين وراءهم البلدة تموج بالثورة ورافعة للسلاح؛ حيث كان هدفهم هو الرجوع للإغارة عليها مرة أخرى بعد الاستعداد بشكل أفضل.

الفصل الثامن عشر

يتناول عودة قوات غويسكار لشن هجوم آخر على غاليرا، والهزيمة التي لحقت بهم، والتي أرادوا على أثرها قتل الموريسكيين الذين يعيشون في غويسكار.

في أعقاب عودة رجالنا إلى غويسكار، تفاقم الغضب الشعبي إزاء مشاهدة ما أظهره أهالي غاليرا من وقاحة لدى قيامهم بالثورة، والمخطط الذي رسمه أولئك المسلمون - المغرقون في الترف الذي أنعمه عليهم مولاهم- من أجل القضاء على الجنود الذين كانوا قد أُرسلوا إليهم من أجل الذود عنهم؛ حتى أن المواطنين في غمار الحنق الذي شعروا به تجاه الأمة الموريسكية بأسرها، كانوا يرغبون في قتل الموريسكيين الذين يعيشون بينهم، وسلب ممتلكاتهم، قبل أن ينقلبوا عليهم في حادث مماثل. في أثناء انتشار ذلك اللغط بين العامة، قام الحاكم بيثيين بحشد كافة الموريسكيين في مخازن الغلال، وهي عبارة عن مخازن بالغة الضخامة تودع بها الحبوب التي يحصّلها دوق ألبا على سبيل ريع الأراضي، مخلفًا الموريسكيات بمفردهن في البيوت. عندئذ هدأ غضب الشعب الذي منى نفسه بنهب بلدة غاليرا، وأرسلوا في طلب جيرانهم من أهالي بلدة بولتيرويلا Bolteruela حتى يرافقوهم، ثم توجهت الجموع فيما بعد للاضطلاع بتلك المهمة؛ وإن قاموا بذلك على نحو فوضوي وغير منظم، بوصفهم رجالاً يتصفون بقدر أقل من الغيرة وقدر أكبر من الجشع عما يجب أن يتسم به من يتصدون لتلك المهمة.

إبان وصول الأهالى إلى غاليرا، شرعوا فى الاشتباك مع المسلمين على مدار يومين من دون أن يحرزوا أى شىء أو يرغبوا فى التراجع. وحينما شهدوا المقاومة التى أبدتها البلدة، وفطنوا إلى أنه من الضرورى وجود أعداد أكبر من القوات، أرسلوا يطلبون الغوث من السيد أنطونيو دى لونا، الذى كان قائداً على مقاتلى بسطة -كما ذكرنا آنفًا. فى تلك الآونة اعتقدت السيدة خوانا فاخاردو -وكانت أرملة السيد إنريكى إنريكيث- أنه من الممكن تهدئة الأهالى، لكى لا يقوموا بنهب الممتلكات؛ فبعثت رسالة مع بعض الفرسان إلى صهرها السيد أنطونيو إنريكيث، من أجل أن يخاطب المواطنين بالنيابة عنها، ويقنعهم بترك الأسلحة والخضوع لما تقتضيه خدمة جلالة الملك. وصل السيد أنطونيو إلى البلدة فى أثناء إغارة أهالى غويسكار عليها، فدنا من المنازل، ونادى على بعض الأهالى الذين يعرفهم بأسمائهم؛ فقال لهم إنه دهش كثيراً لدى معرفته بالحدث الجلل الذى قام به أناس كانوا أوفياء على الدوام، وإنه يدرك جيداً أنهم ليسوا هم منفذوا ذلك الجرم، وإنما المسلمون الغرباء الذين أجبروهم على الثورة قسراً، كما أنه فى يديهم معالجة الأمر، لأنه أتى من أجل الدفاع عنهم، والحيلولة دون أن يلحق بهم المحاربون أى أذى؛ لذا فإنه يرجوهم -حفاظًا على أرواحهم- أن يعودوا إلى الدخول فى خدمة جلالة الملك، وهو سيتولى إعادة قوات غويسكار إلى ديارهم دون أن يتسببوا فى المزيد من الأضرار.

سخر الهمجيون الجاهلون من تلك الكلمات، حيث خدعتهم ثقتهم فى أنفسهم، والثقة التى أكسبهم إياها من يرافقونهم من الأتراك. فلم يفسحوا لمن تمت مناداتهم مجالاً للحديث، وأجاب بعض المسلمين الهمجيين بأن تلك البلدة لا تعرف سوى الله ومحمد؛ وأنه على السيد أنطونيو أن ينصرف من هناك، لكى لا يفتحوا عليه نيران البنادق. تسبب ذلك الرد فى إشعال غضب رجالنا المسيحيين على نحو جعلهم يرغبون بعد ذلك فى قتال البلدة خلافًا لمشيئة قادتهم، الذين كان السيد أنطونيو قد طالبهم كثيراً بألا يوافقوا على ذلك، حيث أخبرهم بأنه سيتولى هو حمل الموريسكيين على الاستسلام،

لأن من أجابوه على ذلك النحو ليسوا هم الأهالى وإنما المسلمون الغرباء. فى نهاية الأمر تمكن الغضب بشدة من عامة الشعب -الذين لم يتعودوا الامتثال للأوامر- فتوجهوا مباشرةً باتجاه المنازل دون أن ينتظروا صدور أوامر إليهم؛ وأخذوا يصعدون الشوارع جماعةً تلو الأخرى، حتى وصلوا على مقربة من الميدان وهم يطلقون صيحات إعلان النصر. كان بمقدور الأهالى الظفر بالبلدة لو كان باقى الرجال قد تبعوهم، ولم يكن فتحها سيتكلف الدماء التى أريقت لاحقًا فى سبيل تحقيقه؛ بيد أن القلق انتاب القادة، لأنهم لم يكونوا يدرون الكيفية التى سيُنظَر بها إلى ذلك التصرف، فمنعوا الناس من الصعود، فأصبح من الضرورى تراجع رجالنا البواسل، ومع تراجعهم قتل المسلمون الكثيرين منهم، كما جرحوا أعدادًا كبيرةً؛ لكنّ المسلمين لم يغادروا البلدة، حيث قنعوا بما حققوه وبدفاعهم عن ديارهم، لأنهم كانوا يخشون سلاح الفرسان.

رجع المسيحيون إلى غويسكار بعد أن منيوا بهزيمة ساحقة، وكانوا يشعرون بغضب عارم تجاه الأمة الموريسكية بأسرها، حتى أنهم -بمجرد دخولهم إلى البلدة- شرعوا فى الصياح -رجالاً ونساءً- متساءلين عن سبب الإبقاء على حياة الموريسكيين الذين قام بيثيين بتجميعهم فى منازل الغلال؛ حيث أن أقاربهم من موريسكيى غاليرا قد قتلوا وجرحوا العديد من المسيحيين، كما أنهم نادوا باسم محمد وديانته فى البلاد؛ وأضافوا إلى ذلك أن من يتولى الذود عنهم هو أسوأ منهم. وفى غمار ثورة الغضب الشعبى، هرع البعض للهجوم على مخازن الغلال، بينما توجه البعض الآخر لنهب المنازل فى الأحياء السكنية التابعة للمسلمين. أما من قصدوا المخازن فقد أضرموا النيران فى الأبواب لأنهم ألفوها مغلقة، كما بادروا بإطلاق نيران البنادق على كوات السراديب -التى كان المسلمون يختبئون بها- وقتلوا بعضًا منهم. كان من الممكن أن يجهز الأهالى عليهم جميعًا، لولا أن النيران التى أضرت بالمسلمين كانت هى ذاتها التى وفرت لهم الحماية: لأن ألسنة اللهب تزايدت إلى حد بعيد نظرًا للغلال التى كانت موجودة هناك، فباتت الأبواب والمداخل والأسقف مشتعلة، وقد أصبحت جميعًا كاللهب المستعر، فلم يجرؤ أى مسيحى على الدخول؛ وهكذا مكث المسلمون فى الأقبية.

فى تلك الآونة، كان من توجهوا لنهب المنازل -الكائنة فى الأحياء السكنية التابعة للمسلمين- قد استولوا على كل ما عثروا عليه بها دون أن يوجد من يعترض طريقهم. فلمّا بادر من هجموا على المخازن باللحاق بهم على أثر أنباء الغنائم، أُتيحت الفرصة لبيثيين لكى ينقذ الموريسكيين؛ فأمر بإطفاء الحرائق، وأخرجهم من الأقبية، ثم حملهم إلى منزل السيد رودريغو دى بالبوا Rodrigo de Balboa، ومن هناك إلى بعض السراديب الموجودة فى الحصن. وقد ظلوا محبوسين هناك خلال أيام طويلة خوفًا من تعرضهم للقتل، حتى أمر جلالة الملك بإيداعهم فى بلدان تقع فى الداخل مع باقى موريسكيى تلك المملكة.

الفصل التاسع عشر

يتناول الكيفية التى تم بها تنبيه ماركيز بلش إلى أن خيرونيمو المالح يتوجه لمحاصرة حصن أوريا، والكيفية التى تمت بها إغاثته.

حينما تنامى إلى علم خيرونيمو المالح أن هناك العديد من الأناس عديمى النفع[٧] فى حصن أوريا، وأن من به يعانون نقصًا فى المؤن والذخائر، راودته رغبة شديدة فى احتلاله، لكونه موضعًا مهمًا للغاية من أجل تطلعاته. وفى أثناء انشغاله بتجميع الرجال واتخاذ تدابير أخرى تم تنبيه ماركيز بلش إلى الأمر، فما كان منه إلا أن أرسل كتابًا من موضعه فى قلهرّة إلى السيد خوان إنريكيث فى بسطة، وإلى السيد خوان دى آرو فى بلش البلانكو. وقد أمرهما الماركيز أن يحاولا -كل من جانبه- تزويد ذلك الحصن باحتياجاته، وأن يخرجا من بداخله من النساء والأشخاص عديمى الفائدة، ويصحباهم إلى بلدان بلش ومواضع أخرى بعيدًا عن الخطر؛ وإذا كان القائد بالينتين دى كيروس -صاحب الحصن- يلزمه المزيد من الرجال فليتركا له من فى حوزتهما.

غادر السيد خوان إنريكيث بسطة يرافقه مائة وأربعون فارسًا، فتفقد جيش الأعداء -الذى كان يعسكر على مقربة من كانييس-، وأرسل شقيقه السيد أنطونيو إلى أوريا مع مائة وعشرين من حملة الدروع، وعدد مماثل من أجولة الطحين على ظهور الخيل، بينما بقى هو من باب الحيلة مع العشرين جنديًا الآخرين، فاستطاع بهذه الطريقة أن يخدع المسلمين وينفذ مهمة الإنقاذ. كما أرسل السيد خوان دى آرو

(٧) يقصد المرضى والجرحى وكبار السن والأطفال والنساء. (المراجع)

أربعين فارسًا من بلش البلانكو يرافقهم مائة من حملة البنادق، فدخلوا إلى أوريا فى أول أيام شهر نوفمبر ومعهم مؤن وذخائر، وحاملين أمرًا بسحب من فى الحصن من غير المقاتلين. عندما تم تنبيه المالح إلى ذلك الأمر، اصطحب معه مائتين من المسلمين المنتقين، وتوجه فى عجلة شديدة ليقطع عليهم أحد المعابر -الذى يتعين عليهم سلوكه للرجوع إلى بلش البلانكو. كان من الممكن أن يلحق المسلمون بهم أضرارًا بالغةً لولا الحرص الذى أظهره قسيس يدعى مارتين دى فالثيس Martín de Falces -كان يعمل كاهنًا قانونيًا لبلش البلانكو- وكان مغرمًا بصيد الحيوانات البرية، وكان ذلك هو السبب الذى جعله على دراية واسعة بكل تلك الأراضى. أراد القسيس التوجه لاستكشاف المكان قبيل مغادرة قوات أوريا، فعثر على الكمين الذى كان المسلمون قد نصبوه، فرجع بعدها إلى القادة وطالبهم بألا ينطلقوا من هناك إلى أن يتم إخلاء المعبر، أو أن يخرجوا فى أعداد أكبر من الرجال بحيث يتمكنوا من المرور.

أسفر ذلك التحذير عن توقف الركب، وقد أعقبه قيام القادة بالكتابة إلى السيد خوان دى آرو يخبرونه بالحالة التى بلغوها، لكى يأمرهم بالنهج الذى يسلكونه لتأمين الطريق. فبعث السيد خوان برسالة إلى المجلس البلدى لمدينة لورقة ليحيطه علمًا بالخطر الذى يجابهه أولئك المسيحيون، وليطالبهم بإغاثتهم بأكبر عدد يتاح لهم من الرجال؛ لأن إنقاذ ذلك الحصن، وإخلاء المعبر الذى احتله العدو وقَطَعَه على الركب هو أمر نافع للغاية. كانت الرسالة قد صيغت بقدر من الاستعلاء، مما أغضب نواب البلدية حينما رأوا الألفاظ التى استخدمت فى كتابتها؛ فأجابوا السيد خوان بأنهم سيراسلون مرسية وكاراباكا أولاً من أجل حشد عدد من الرجال، وعند مجىء القوات فسوف يقومون بمهمة الإنقاذ. فيما بعد أدرك من فى بلش البلانكو السبب الذى حال دون أن يهب أهالى لورقة لنجدة الجنود، فقامت بنات ماركيز بلش -وهن فتيات يتسمن بالفطنة ويتمتعن بقدر وافر من الشجاعة- بكتابة رسائل من جانبهن إلى المدينة وإلى عالم اللاهوت إويرتا سارمينتو -الحاكم العام- يعرضن عليهم الحاجة الملحة المتمثلة فى إنقاذ الرجال الموجودين فى أوريا، ويحثوهم على الاضطلاع بتلك المهمة على وجه السرعة.

أدى ذلك الأمر إلى انعقاد مجلس البلدية مرةً أخرى. على الرغم من أن ثمانية من أعضائه الاثنى عشر كانوا يؤيدون الرأى القائل بتأجيل تلك المسألة حتى مجيء قوات مرسية وكاراباكا، فإن الحاكم العام لم يشأ الأخذ برأى الأغلبية، بل ارتأى تلبية الحاجة الراهنة. فأمر بإخطار بلدان ألومبريس Alumbres، وتوتانا Totana، وليبريًا من أجل أن يتوجهوا لانتظاره فى بلش البلانكو؛ ثم حشد رجال المدينة، وانطلق من لورقة فى خامس أيام شهر نوفمبر يرافقه ثمانمائة راجل ومائة فارس. كان قادة المشاة هم: خوان نابارّو دى ألبا Juan Navarro de Alba، وخوان إيليثيس غوتييريس Juan Helices Gutiérrez، ودييغو ماتيو دى غيبارا Diego Mateo de Guevara؛ بينما ترأس الفرسان خوان إيرنانديث مانتشيرون Juan Hernández Manchiron. وصل الحاكم العام مع تلك الجموع إلى بلش البلانكو، وأقام فى الأرباض الكائنة خارج المدينة، وذلك فى منازل الموريسكيين. كان أولئك القوم -على ما يبدو- قد حزموا أمتعتهم من أجل السير نحو الجبال، وكان يوجد داخل المنازل بعض المسلمين الثوار ينتمون إلى لاس كويباس، فى انتظار قدوم قائد مسلم يدعى فرانثيسكو تشيلين Francisco Chelen كان من المفروض أن يأتى لنشر الثورة فى البلدة. مكثت قوات لورقة فى ذلك الموضع حتى وصول رجال ألومبريس وتوتانا وليبريًا. فى اليوم العاشر من شهر نوفمبر تحركت كل تلك الجموع فى صفوف منتظمة، وتوجهت لقضاء الليلة فى تشيريبيل Chiribel، حاملةً كميات من المؤن والذخائر لكى يودعوها فى أوريا.

أرسل الجيش فى المقدمة رجلين خبيرين بتلك الأراضى، لكى يسبقاه ويقوما باستطلاع الأحوال عند ذلك المعبر، بعد أن وجهت إليهما أوامر بأن يرجعا فى أعقاب ذلك مع بزوغ الفجر وأن يسلكا الطريق ذاته. أمعن هذان الرجلان فى التقدم إلى الأمام، حتى أنهما عندما رغبا فى العودة لتنبيه الجيش إلى ما رأوه لم يتمكنا من ذلك، حيث قطع المسلمون الطريق عليهما؛ فتوغلا فى شعاب تلك الجبال، حتى توقفا فى موضع يقع على مسيرة أربعة أيام من لورقة. عندما رأى الحاكم العام أنهما لم يرجعا -امتثالاً للأوامر التى صدرت إليهما-، تابع مسيرته بعد أن تقدم الركب الجنود الكشّافون.

لدى بلوغ المعبر، ألفى الحاكم العام المسلمين وقد تراجعوا إلى حيث يقضون ليلتهم، فدلف إلى أوريا دون قتال، وأودع بها ما كان فى حوزته من مؤن وذخائر، كما أخرج كل من بها من غير المقاتلين، وأرسلهم إلى بلدان بلش وإلى مواضع أخرى. بعد تزويد ذلك الميدان بالإمدادات، توجه إلى كانتوريا، حيث أحرق أحد مخازن الذخيرة التابعة للمسلمين فى تلك البلدة؛ ثم اشتبك معهم وانتصر عليهم، كما سيرد فى الفصل القادم.

الفصل العشرون

يتناول الكيفية التى عبرت بها قوات لورقة إلى كانتوريا -فى أعقاب إغاثتها لبلدة أوريا- وإحراقها أحد مخازن الذخيرة التابعة للمسلمين فى تلك البلدة، واشتباكهم معهم فى طريق العودة، وإلحاق الهزيمة بهم.

فى أعقاب إغاثة قوات لورقة لحصن أوريا، وإخراج من به من غير المقاتلين، أراد الكثير من الرجال التوجه فيما بعد للإغارة على بلدة غاليرا، لمعرفتهم بانضمام من بها من الموريسكيين إلى الثورة، وإلحاقهم الضرر بأهالى غويسكار. اجتمع القادة للتشاور فى هذا الصدد، بيد أنهم لم يتفقوا على تنفيذه، حيث قالوا إنهم لم يخرجوا من أجل ذلك الغرض، كما أنه ليس من الجيد وضع لواء مدينتهم تحت قيادة القوات التى تتبع السيد أنطونيو دى لونا، دون أن تصدر إليهم أوامر من جلالة الملك بخصوص ذلك. ولمّا كان قد تم تنبيه القادة إلى وجود أعداد ضخمة من النساء وكميات من الثياب والأغنام فى بلدة كانتوريا، وأن المسلمين لديهم مخزن للذخيرة يصنّعون فيه البارود، اتفقوا أن يغيروا على تلك البلدة، فقاموا بتوزيع الذخيرة على حملة البنادق، وغادروا أوريا فى منتصف الليل، بهدف الوصول إليهم فى الوقت الذى يمكنهم من الاشتباك معهم فى معركة صباحية -لكون كانتوريا توجد على مسافة أربعة فراسخ من موقعهم. بيد أن الطريق كان شديد الوعورة، حتى أنهم لم يستطيعوا بلوغ البلدة إلا فى وضح النهار، حيث أشرقت الشمس عليهم فى أثناء وجودهم فى بارتالوبا. وقد ألفوا المسلمين متهيئين لقدومهم، فساق القادة رجالهم فى صفوف منتظمة عبر الحقول، وساروا بمحاذاة النهر نزولاً إلى الأسفل، حتى بدا لهم حصن كانتوريا؛ فأبصروا أعداداً غفيرة

من الرجـال عند الأسـوار وعلى الأسطح، وهـم يطلقون صـيحـات حرب ويـحـدثون جلبـة بأصـواتهم وآلاتهم تصـم تلك الأراضـى بأسـرهـا، وقـد نشـروا الكثـيـر مـن الأعـلام على الشرفات؛ فبادر أولئك فيما بعد إلى قصفهم بقذائف مدفعين كانا لديهم.

أرسل الحـاكم العام كتيبة مـن حملة البنادق ليصـعدوا عبر أحـد السفوح لاحتلال جبل يعلو الحصن، ثم اندفع ومـعه كل مـن تبقى من الرجـال نحـو بوابة الحـصن؛ حـيث شـرع فى قـتـال الجنود الموجـودين فى داخل الحـصن، والذين دافـعـوا عن أنفسـهم بالبنادق والأقواس الفولاذية والمقاليع. استمرت المعركة منذ الساعة السابعة صباحًا وحتى الثـانية مسـاءً. وقد تمكن رجـالنا فى تلك الأثناء من الظفر بالجبل، وتمكنوا من هناك من الإطلال على الأسـوار والأسطح من عل، حتى لم يعد بمقدور أحد ممن بالداخل الاختباء، فقتلوا بعض المسلمين. كما سنحت الفرصة لمن كانوا فى صحبة الحاكم العام من انتزاع الأبواب الأمـامية للحـصـن – الذى كان المسلمـون يضـعـون فيه كل الأغنام– بأسنة المحاريث والفؤوس. حيث دلفوا إلى الداخل –على الرغم من تمكن المسلمين من جرح بعض الجنود عبر النوافذ الضيقة والحواجز الوقائية– ودخلوا إلى مـخزن الذخيرة الذى كان موجودًا ما بين جدارين؛ فـخربوا الآلة التى تقوم بتكرير ملح البارود وتصنيع الذخيرة، وأضرمـوا النيران فى المبنى وأحرقوه بأسره. ولمّا لم يكن فى مقدورهم اقتحام الحصن من دون مدفعية أو سـلالم، قامـوا بإخـراج ألفين وسـبعمـائة من رؤوس الأغنام وثلاثماة من الأبقار، ثم تراجعوا.

أرسل الحاكم العـام فى الطليعة مارتين دى مولينا مـع ثلاثين من الفرسـان وثلاثمائة من المشـاة، على أن ينطلق بتلك السرية ويسـعـى لبلوغ مـوضـع غويركال فـى لورقة خـلال تلك الليلة، لأن المسـيحيين فطنوا إلى أنه سـوف يفد منهـا العديد من الرجـال، استجـابةً للإشارات الدخـانية الكثيفة التى أرسلها المسلمون، حيث كان بعضـهم يستدعى البعض الآخر فى سـائر بقاع نهر المنصورة. ثم بدأ الحاكم العام مسيرته مـع كل الجنود الباقين؛ وعندما أصـبح على مقربة من موضـع ألبورياس، اكتشف وجـود قوات من الأعـداء كانت قادمة من نهر المنصـورة لنجدة كانتوريا، وعندما وجدت تلك القوات رجـالنا قد تراجعوا،

شرعت فى ملاحقتهم. كانت قواتنا قد توقفت لفترة من الوقت حتى تتيح للأغنام فرصة الابتعاد عن المكان. فى تلك الأثناء قام الحاكم سارمينتو بإرسال نفر من الفرسان لمعرفة كنه أولئك الرجال الذين يلوحون فى الطريق، ثم ذهب وراءهم بنفسه، فتعرف على أربعة ألوية للمسلمين كانت تسير متأخرة بعض الشىء عن الركب، وبدا أنها متوجهة للتوغل فى حقول ألبورياس -التى يوجد بها ممر خطير نظرًا لكثافة أيكات الأشجار الملتفة ووجود الترع التى يتم عبورها دون جسور. خشى الحاكم العام أن يلحق به المسلمون الضرر إذا ما بسطوا سيطرتهم على ذلك الممر، لأن الهزيمة كانت لابد وأن تلحق بالصفوف؛ فأظهر وكأنه ينتظرهم للاشتباك معهم عند مداخل الحقول.

فى تلك الآونة كانت الفريسة قد مرت من الجهة الأخرى من الحقول، فما كان من المسلمين -الذين ظنوا أن توقف تلك القوات عن مسيرتها هو استعداد للبدء فى القتال، وأنهم لابد وأن يكونوا قد نصبوا لهم فخًا ما- إلا أنهم حادوا عن طريق النهر الذى كانوا يسلكونه، وصعدوا فى عجلة شديدة أعلى خان يدعى بينا رومانا (بن رمانة) Bena Romana، وبدأوا من هناك فى إطلاق نيران بنادقهم على مؤخرة جيشنا. أرادت قوات لورقة الهجوم على الأعداء فى ذاك المكان، لكن الحاكم العام لم يوافق على ذلك وأمرهم بالمضى قدمًا فى مسيرتهم، وقال إنه هو من سيصدر إليهم الأمر بالقتال حينما يعثر على موضع يمكن للخيول التحرك فيه. فى أعقاب عبور القوات النهر، ورقعة موحلة شاسعة موجودة فى اتجاه متواز، ووصولها إلى بقعة تبعد مسافة نصف فرسخ، تقع بالقرب من مكان يدعى كورّال Corral، قام بتنظيم القوات وصفهم فى وضع الاستعداد للمعركة. وصل الأعداء فى تشكيل ضخم، ونظرًا لدرايتهم الواسعة بتلك الأراضى، فقد بعثوا بثلاثة من الفرسان الأتراك وخمسة من رجال المشاة المسلمين لاستطلاع تشكيلاتنا، والوقوف على الوضعية التى اتخذها الجنود والموقع الذى يحتلونه؛ حيث أنهم قد جاءوا إلى ذلك المكان متأخرين بعض الشىء، ولازالوا يجهلون كنه القوات التى عليهم محاربتها. وبعد أن تعرفوا عليهم، واكتشفوا كمينًا كانت قوات الفرسان والمشاة التابعة للقائد دييغو ماتيو قد نصبته لهم على أحد جوانب الطريق؛ هجموا عليهم وهم

يطلقون صيحات حرب مدوية، وأخذوا يطلقون عليهم نيران بنادقهم والأقواس الفولاذية، بعد أن ظنوا أن عدد رجالنا قليل بالمقارنة مع قواتهم. بيد أن رجال لورقة -الذين لا يهابون أحداً- أغاروا عليهم بعد أن تلوا صلواتهم ومجدوا الرب، حيث سعى الفرسان لقطع الطريق عليهم، وتعطيلهم -من خلال الهجوم الذى شنوه عليهم- حتى قدوم قوات المشاة. كان زخم هؤلاء وأولئك عارمًا حتى أنه لم تتح لهم الفرصة سوى لإطلاق نذر يسير من الأعيرة النارية، لأنهم ما لبثوا أن بلغوا مرحلة الاشتباك بالأيدى. وقد استبسل كل من المشاة والفرسان فى القتال، حيث قضوا على بعض الأتراك والمسلمين ممن كانوا فى الطليعة، وحملوا الباقين على الفرار، واستولوا على خمس رايات.

قاتل فى ذلك اليوم أحد المسلمين الذين كانوا يحملون واحدة من تلك الرايات على نحو يدعو للإعجاب. لأنه بعد أن تلقى طعنتين بالرماح، حيث قام حامل راية الفرسان بإنفاذ رمحه فى جسده، ظل ينازع ويقاتل لفترة طويلة بينما إحدى يديه عالقة فى رمح العدو واليد الأخرى قابضة على الراية، حتى أمر الحاكم العام أحد حملة الدروع أن يدهسه بفرسه؛ وعقب سقوطه على الأرض، لم يتمكن رجالنا قط من استخلاص الراية من يده إلا بعد أن فارقت روحه جسده. كانت تلك الرايات تابعة لكل من: كودبار، وليخار، وألبانشيس، وبورتشينا، وسيرون، وتابيرناس، وبنى تاغلا؛ وكان قد جلبها أحد أبناء المالح. فى أعقاب هزيمة المسلمين وموت ما يربو على أربعمائة وخمسين منهم، هبط الآخرون إلى الأسفل عبر عدد من مخرات السيول؛ ولمّا كان الوقت ليلاً لم يتمكن رجالنا من ملاحقتهم. مات من جانبنا جنديان وجرح سبعة وثلاثون - كان من بينهم خمسة من حملة السيوف-، إلى جانب موت أربعة عشر فرسًا، حيث قام أحد المسلمين بشق بطون بعضها عند مرورها إلى جانب أحد الجدران الصخرية التى كان مختبئًا وراءها وممسكًا برمح فى يده.

كان الظلام قد حل، فسارت القوات بخطى حثيثة إلى أن لحقت بمارتين دى مولينا، وباتت ليلتها تلك فى غويركال التابعة للورقة يحيطها التأمين الجيد ونوبات الحراسة. تسلّم الحاكم العام فى أثناء وجوده هناك رسالة من مجلس بلديته يحثه على

العودة من أجل توخى الحذر وتأمين المدينة، لأن ناقوس الخطر يدق لديهم فى كل ساعة منذرًا بوجود مسلمين؛ فلم تراوده الرغبة فى إجابتها سوى بإرسال مارتين دى مولينا وبدرو دى أوليبير Pedro de Oliver لينقلا إليهم أنباء الأحداث السعيدة. فى يوم تال يوافق الثالث عشر من شهر نوفمبر سار عائدًا إلى لورقة، حيث استقبل الأهالى كل القوات بسرور؛ وقد بقيت الرايات التى ظفروا بها من المسلمين تذكارًا فى تلك المدينة لتخليد ذكرى ذلك الانتصار، كما صوّت النواب فى مجلس البلدية على الاحتفال بذلك الحدث فى عيد القديس ميّان Millán، لأنها توافق نفس اليوم الذى يقام فيه الاحتفال.

الفصل الحادى والعشرون

يتناول بعض التدابير التى اتخذها السيد خوان دى أوستريا فى غرناطة فى تلك الآونة، نظرًا للأضرار التى تسبب بها مسلمو غيخار.

أسفر تأخر اتخاذ التدابير اللازمة للحرب من جانبنا عن إقدام الثوار. كان قد تجمع مع بدرو دى مندوثا الحسين فى غيخار حشود غفيرة من المسلمين، حتى أنه إضافةً إلى الرجال الموجودين برفقته فى المعقل -وكانوا ستمائة رجل-، كان يحتشد فى بعض الأحايين ثلاثة أو أربعة آلاف مع القادة: شعيبى، وشوكونثيو Choconcillo، والماكوش، والموخاخار Mojajar، وآخرين كانوا يتنقلون على نحو وقتى، لأن وعورة تلك التضاريس الجبلية كانت مناسبة للسرقات التى كانوا يخرجون للقيام بها ويتمكنون من العودة فى أمان. لمّا كان هؤلاء يثيرون القلاقل فى غرناطة، ويصلون على مقربة من أسوار المدينة فى كل الأوقات، قام السيد خوان دى أوستريا بوضع بعض المقاتلين فى معاقل، وذلك لتأمين الأراضى والحيلولة دون وقوع أضرار.

أرسل السيد خوان كتيبتى مشاة إلى موضعى بينوس وثينيس اللذين يقعان على ضفة نهر شنيل، كما تم وضع فرقتين من الجنود النظاميين عند ربوة الشمس، لأنه يمكن من ذلك المرتفع العالى كشف سائر الروابى الموجودة فى المكان وصولاً إلى جبل غيخار. وقد صدرت الأوامر بإنشاء حائط من الحجارة المدقوقة يخترق صومعة الشهداء حتى يغلق المدخل الموصل إلى الرابية بأكمله من تلك الناحية؛ كما تولت إحدى الفرق مهمة الحراسة داخل الصومعة، بينما قامت فرقة أخرى بحراسة أنتيكيروويلا، وفرقة ثالثة بتأمين بوابة لوس مولينوس (الطواحين) los Molinos. كان الجنود يتأخرون

فى الخروج عندما يتم دق ناقوس الإنذار، لذا فإن قائد سلاح الفرسان الذى كان ينتظر إصدار القرارات، أمر تيِّو غوتثاليث دى أغيلار أن يخرج بفرسانه -فور سماعه لدقات الناقوس، وفى أى ساعة من اليوم- للبحث عن الأعداء، وألا يضيع الوقت فى انتظار صدور الأوامر إليه. من أجل تأمين مداخل الغوطة، أرسل السيد خوان -بالإضافة إلى المحاربين المقيمين فى قرى الغوطة- السيد خيرونيمو دى باديًا، ابن غوتيّرى لوبيث دى باديًا Gutierre López de Padilla، لكى يتمركز فى سانتا فى مع كتيبة من الفرسان؛ كما بعث بكتيبة أخرى إلى بلدة حصن اللوز بغية تأمين ذلك المعبر.

كانت تلك هى أوضاع مدينة غرناطة، التى أمست محاطة بالمعاقل نظرًا للمضايقات التى يقوم بها مسلمو غيخار، حينما طرح السيد خوان دى أوستريا على المجلس فى أحد الأيام مدى أهمية قيام ماركيز بلش -الذى كان يستنفد المؤن فى قلهرّة دون الاضطلاع بأى دور- بالتوجه مع رجاله للقضاء على أولئك السارقين. كما يمكن خروج جيش آخر من ناحية غرناطة لقطع الطريق على الأعداء الموجودين هناك؛ حيث أنهم لم يتسن لهم بأى حال من الأحوال عبور الجبل الذى كانت تكسوه الثلوج. لمّا تراءى للجميع أنه سيكون تصرفًا صائبًا، وتم إبلاغ ماركيز بلش بذلك القرار، تهيأ للامتثال للأمر وأراد القيام بتلك الحملة؛ حيث أرسل توماس دى إيريّرا سرًا لاستطلاع موقع وعدد الرجال الموجودين داخل المدينة. فى أثناء ذهاب القائد توماس ومجيئه، قام الماركيز بالكتابة إلى السيد رودريغو دى بينابيديس، من أجل أن يدع مدينة وادى آش مؤمنة جيدًا، ويحضر بصحبة كل رجاله إلى قلهرّة، لأنه ينتوى القيام بغارة مهمة. قام ماركيز بلش باستعراض عام للقوات، وأعد كل الأشياء اللازمة لتلك الحملة، لكن فى أعقاب عودة توماس دى إيريّرا، كانت الروايات التى قصها عليه ذات طبيعة حملته على العدول عن رأيه. وذلك إما لقلة عدد رجاله، ووجوب توافر عدد كبير من أجل محاصرة البلدة والهجوم عليها من اتجاهات مختلفة؛ وهو ما كان أمرًا ضروريًا نظرًا لكون المكان مقسم إلى ثلاثة أحياء يقع كل منها خلف الآخر وكلها كائنة وسط جبال شديدة الوعورة.

وربما كان السبب هو إدراكه أن السيد خوان دى أوستريا سيتبع تحركه بالخروج من غرناطة واصطحاب لويس كيخادا معه، حتى ينضم كلاهما إليه إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك؛ وكان ذلك شيء يسعى الماركيز لتجنبه قدر المستطاع.

بغض النظر عن الداعي، فقد قام ماركيز بلش بصرف قوات وادى آش بعد أن شكر لهم المقصد الذى حضروا من أجله، كما أخبر رودريغو دى بينابيديس أنه سيرسل فى طلبه عما قريب من أجل الاضطلاع بمهمة أخرى ذات أهمية كبرى. وعلى هذا النحو تم التراجع عن شن حملة على غيخار حينئذ، حتى تولى تلك المهمة فيما بعد السيد خوان دى أوستريا بنفسه.

الفصل الثانى والعشرون

يتناول إغارة ماركيز بلش على البولودوى.

فى أعقاب مرور أربعة أيام على العدول عن شن حملة على غيخار، حمل بعض الجواسيس تنبيهًا إلى ماركيز بلش، حول قيام ابن عبو بإرسال أعداد ضخمة من النساء لقطف الزيتون فى بلدان نهر البولودوى، وذكروا أن ثمانمائة من المسلمين يرافقونهن لحراستهن. فأرسل الماركيز فى طلب السيد رودريغو دى بينابيديس مرة أخرى مع قواته، بالإضافة إلى سلاح فرسان مدينة وادى آش، كما حشد جيشًا من ألفين وخمسمائة من المشاة وثلاثمائة من الفرسان، وانطلق بهم من قلهرّة قبيل انتصاف النهار بساعتين، دون أن يخطر أحدًا بما هو مقدم على فعله. وصل الماركيز فى تلك الليلة إلى فينيانا؛ وفى الساعة التاسعة مساءً -بعد أن أدرك أن الجنود قد تناولوا طعام العشاء- أمر بدق الطبول ونفخ الأبواق لحشد الجنود، لتبدأ بعدها فرق المشاة فى التحرك: حيث احتل السيد بدرو دى باديًا طليعة الجيش، وتمركز السيد خوان دى مندوثا فى المؤخرة، كما اصطف الفرسان والمرشدون أمام الجيش ثم تحرك إلى سانتا كروث فى البولودوى -وهو المكان الذى أخبره الجواسيس بوجود المسلمين والمسلمات الذين أرسلهم ابن عبو فيه.

كان الماركيز يرغب فى قطع ذلك الطريق على وجه السرعة، لكى يغير على الأعداء -الذين كانوا يبعدون مسافة خمسة فراسخ من موقع الجيش- مع بزوغ الفجر؛ بيد أن الجنود كانت قواهم خائرة للغاية بسبب الجوع والإعياء، كما كانت تلك الليلة قارسة البرودة، فلم يتمكن الماركيز من تحقيق مسعاه، خاصةً أنه كان يتعين على الجيش

عبور النهر فى أكثر من عشر مواضع خلال الطريق. حينما رأى الماركيز أن جموع المشاة آخذة فى التخلف، وأن ضوء الصباح بدأ فى الظهور، بعث بمن يخبر السيد بدرو دى باديّا أن يحث الخطى قدر المستطاع. أطلق القائد العنان لفرسه، وظل يعدو سريعًا حتى دلف إلى الطرق المؤدية إلى بقاع البولودوى وسانتا كروث، لكن مع كل ما بذل من جهد، فإنه عند وصوله كانت أبراج المراقبة قد اكتشفت وجوده، وبدأت فى إصدار الإشارات الدخانية عبر الجبال لاستنفار الناس. عندما أدرك القائد أنهم قد استشعروا وجوده، أرسل السيد رودريغو دى بينابيديس مع مائة فارس عبر الطريق، ثم قام هو باختصار الطريق عبر أحد سبل الرعاة شديدة الوعورة والانحدار، وتوجه لاحتلال مكان يعلو بلدة البولودوى ويقع على النهر ذاته، وهو موجود على ربوة مرتفعة تطل على تلك الأراضى بأسرها.

من ذلك الموقع، أمر الفرسان بالذهاب لمطاردة المسلمين، الذين شرعوا فى الهروب إلى أعالى الجبال وهم يقتادون النساء أمامهم. وصل الفرسان إلى بعض الرجال وقتلوهم، كما أسروا عددًا كبيرًا من المسلمات، واستولوا على الكثير من الأمتعة. واصل السيد رودريغو دى بينابيديس مطاردتهم عبر الطريق حتى صار على مقربة من غيثيخا، فجمع عددًا كبيرًا من النساء وقتل بعض المسلمين الذين كانوا قد لجأوا إلى تلك المنطقة؛ لأنه عندما تم ترويعهم بتلك الطريقة، بادر كل منهم بالفرار إلى حيث اقتاده الحظ، فبات المسيحيون وكأنهم يمارسون معهم القنص. فى تلك الآونة قام المسلمون -الذين كان ابن عبو قد أرسلهم لحراسة النساء- بتلبية نداء الإشارات الدخانية، فعطلوا الفرسان ودخلوا معهم فى مناوشات، وأظهروا أمامهم بعض المقاومة، مما أتاح للكثيرين أن يتوخوا جانب الحذر.

وصلت جموع المشاة حوالى الساعة التاسعة صباحًا، وعندما رأى ماركيز مونديخار إنهم لن يحدثوا وقعًا الآن، وإنهم سيمسى لهم دور إذا ما بادر المسلمون بالحضور، أمرهم بالتوقف عند الطريق -وهم مصطفون كلٌ فى موضعه-، وألا ينفصل منهم أحد عن الألوية وإلا نُفذ فيه حكم الإعدام؛ وقد ظلوا هكذا إلى ما بعد انتصاف النهار،

عندئذ أمر بنفخ الأبواق لحشد الرجال. حضر السيد رودريغو دى بينابيديس فى ذلك التوقيت حال تراجعه عبر بعض التلال الموجودة بالأسفل والمفضية إلى ممر يتعين على من يجتازه النزول إلى النهر قسراً. كان المكان ضيقًا للغاية، مما حتم على الفرسان الاصطفاف والعبور واحداً تلو الآخر؛ وكان العديد من المسلمين يلاحقونهم فى تصميم بالغ، حتى أن بعضهم تمكن من بلوغ صفوف الفرسان. حينما شاهد الماركيز مجيئهم على هذا النحو، أمر بتوجه عشرين من حملة البنادق بسرعة كبيرة لاحتلال إحدى الروابى، حيث تراءى له أنه سيكون موضعًا جيداً ليؤمنوا منه الممر لرجالنا. وصل الرماة فى الوقت الملائم للغاية مما خول لهم تلافى ذلك الضرر، وتمكن السيد رودريغو دى بينابيديس ومن أتى برفقته من الرجال من التراجع.

فى أعقاب تجميع الرجال والغنائم، أصدر ماركيز بلش أمراً إلى المراجع ناباس دى بويبلا لكى يتوجه مع ثلاثين من الفرسان لفرض السيطرة على المعبر المفضى إلى طريق الرعاة -الذى ذكرنا من قبل أنه دخل منه إلى موقعه-، وذلك خشية أن يسلكه الجنود العصاة للهرب بالمسلمات وأن يتسببوا فى إحداث الفوضى. اصطحب المستشار ناباس معه القائد خوان ثاباتا -وهو أحد أهالى البسيط- وغيره من أصحابه القادة، وقد تأخروا فى الطريق أكثر مما ينبغى، حتى أنهم عند بلوغهم أعلى الجبل ألفوا المسلمين وقد سبقوهم للاستيلاء على الممر. عندما أراد أن يخترقهم من أجل ضم قوته إلى القوات الأخرى، قُتِلَ القائد خوان ثاباتا على أثر تلقيه عيار نارى فى الجبهة فى أثناء عبور الجنود، كما تمكن المسلمون من إلحاق الهزيمة بالباقين. كان هناك من لجأ إلى مؤخرة قوات المشاة حيث السيد بدرو دى باديًا، بينما عاد آخرون إلى أسفل النهر حيث نزلوا إلى مدينة ألمرية برفقة المستشار القانونى ناباس دى بويبلا، بعد أن اتخذوا من أحد حملة الدروع الذى له دراية بتلك الأراضى دليلاً لهم. لم يتسن لماركيز بلش العودة لإنقاذهم، على الرغم من أنه أطلق النفير، لأنه كان قد تقدم كثيراً؛ وكان الماركيز يتعجل ارتقاء الجبل للسيطرة على أعلاه قبيل حلول الظلام، ومغادرة تلك الأماكن الضيقة التى لا يتاح للفرسان حرية التحرك فيها. عندما كف الأعداء عن

ملاحقة الماركيز، توجه ليقضى ليلته تلك فى نزل السيدة ماريا، حيث بات الجنود حاملين الأسلحة فى أيديهم. وقد هبت فى تلك الليلة أجواء عاصفة مصحوبة برياح عاتية، حتى أن بعض الأطفال المرافقين للمسلمات توفوا من شدة البرد. فى اليوم التالى عبر الجيش إلى فينيانا، حيث مكث بها يومين، وفى اليوم الثالث وصل إلى قلهرّة. مات خلال تلك الحملة مائتان من المسلمين، كما تم أسر ثمانمائة من النساء والأطفال، والاستيلاء على كميات كبيرة من الأمتعة؛ بينما قُتِلَ بين صفوف المسيحيين ثمانية عشر رجلاً، و كان هناك بعض الجرحى.

الفصل الثالث والعشرون

يتناول الكيفية التى تلقى بها ماركيز بلش أمرًا من جلالة الملك لإغاثة جبهة بسطة، والكيفية التى أغار بها المالح على غويسكار، وما دار خلال تلك الأيام فى تلك الناحية.

فى أعقاب رجوع ماركيز بلش إلى قلهرّة، تلقى أمرًا من جلالة الملك لكى يذهب إلى بسطة، ويسعى لإيقاف العدو -الذى كان يجوب الأراضى ويعسكر فيها-؛ على أن يصطحب معه من كان بحوزته من الرجال، بالإضافة إلى القوات الموجودة فى تلك المدينة تحت إمرة السيد أنطونيو دى لونا، وألف رجل كان ماركيز كاماراسا Camarasa قد بعث بهم فى تلك الأيام من البلدان التى تدخل فى نطاق كاثورلا. انطلق الماركيز من ذلك المعسكر فى اليوم الثالث والعشرين من شهر نوفمبر لعام ١٥٦٩، وذلك برفقة ألف من المشاة ومائتين من الفرسان -حيث لم يعد لديه المزيد من الرجال. غادر السيد أنطونيو دى لونا بسطة امتثالاً لأوامر السيد خوان دى أوستريا، حيث عاد لتولى مهام منصبه كقائد على القوات المقيمة فى غوطة غرناطة. وقد مكث ماركيز بلش فى تلك المدينة لعدة أيام بغية التزود بالأشياء التى تلزمه للبدء فى مهمته.

فى تلك الآونة، توجه خيرونيمو المالح إلى بلدة أورثى مع ما يربو على ستة آلاف رجل، فأخرج كل من يقطن بها من الموريسكيين، وأرسلهم هم ونساءهم وأبناءهم وأملاكهم المنقولة إلى قرية غاليرا. وحيال عدم استطاعته احتلال حصن أوريا -الذى دافع عنه قائده سيرنا Serna، وتسبب فى قتل عدد من المسلمين التابعين له-

مضى إلى كاستيخا، حيث قام أيضًا بحشد موريسكيى تلك البلدة وإيداعهم فى غاليرا. أراد المالح أن يصنع هناك العجين اللازم للحرب، فخبأ بالداخل كميات ضخمة من القمح والشعير والدقيق وغيرها من المؤن. وقد أمر بإقامة مطحنة، وشرع فى تقسيم الشوارع، ليبدأ هكذا فى تحصين تلك المدينة فى همة متناهية؛ وقد اختص بمسألة التحصين ذلك القائد التركى -الذى كنا ذكرنا من قبل أنه يدعى كارباخال[٨]- وكان رجلاً بارعًا فى شؤون الحرب. حينما تراءى للقائد إن ما يحدث هو فرصة جيدة لاحتلال غويسكار، توجه فى إحدى الليالى مع خمسة آلاف رجل لنصب كمين فى إحدى الكرمات التى تقع على مقربة من البلدة؛ وذلك من أجل أن ينبلج ضوء الفجر وقد دلف إلى الشوارع والمنازل دون أن يشعر به أحد، ليضرم بها النيران، ثم يحاصر الحصن -الذى كان يعلم بوجود الموريسكيين محبوسين فى أقبيته. وإذا لم يتمكن من إخراجهم من هناك أو الظفر بالحصن، يلحق بالمسيحيين كل الضرر الذى يتسنى له إحداثه، ويغادر البلدة بعد أن يصطحب معه الموريسكيات.

حدث أنه فى اليوم الثامن عشر من شهر ديسمبر، ما بين الساعة السابعة والثامنة، كان هناك عشرون فارسًا من الغرباء فى الساحة، وقد بكروا من أجل الذهاب إلى حصن أورثى، حينما أبصروا مجىء راهب يتبع مذهب القديس دومينغو يعدو مهرولاً إلى مقدمة الشارع، وقد ارتدى على ملابسه الحلة الخاصة بإقامة شعائر القداس، وأخذ يطلق النفير ويقول إن المسلمين يدخلون عبر الشوارع. لمَّا كان الرجال على أهبة الاستعداد، فقد تجمع معهم عشرة أو اثنا عشر فارسًا من الأهالى، وأسرعوا إلى حيث يتوافد المسلمون تبعًا لما أخبرهم به الراهب. وحينما وصلوا، كان العديد من المسلمين يجولون ويضرمون النيران فى المنازل؛ وبالكاد تم استشعار وجودهم، لأن غويسكار بلدة ضخمة ومستوية ومترامية الأطراف، ولم تكن الأسوار تحيط سوى بالقرية القديمة والقلعة. تمكن الأعداء من الدخول خلسةً إلى الشوارع، حيث لم يكن هناك حراس

(٨) أشرنا من قبل إلى أن القائد التركى يدعى كاراباكا. (المراجع)

أو أسوار دفاعية تحول دون قيامهم بذلك. لكن ســرعان ما أنقذها السور الحقيقى، الذى تمثل فى حماس الرجال الشجعان، حيث تجمع مائتان من حملة البنادق مدعومين بالفرسان وتصدوا لهم. ظل الرجال يقاتلونهم فى استبسال لما يربو على ثلاث ساعات، ولطالما توافد عليهم رجال جدد لتدعيم جانب المسيحيين ممن يحاربون دفاعًا عن ديارهم ونسائهم وبنيهم؛ وفى النهاية، هُــزِمَ الأعداء وحُملوا على الهــرب، بعد أن قتــل منهم ما يزيد على أربعمائة رجل، بينما لم يُقتَل سوى خمسة من المسيحيين.

كان المالح لديه مائتان من حملة البنادق الأتراك، الذين كانوا دائمًا يتولون مهمة تكوين جبهة لتأمين تراجع قواته، ولولا هؤلاء لكانت قد لحقت به أضرار تفوق بكثير ما تعرض له. فحشد قواته فى غاليرا، وخلّف بها عددًا كافيًا من الرجال، بالإضافة إلى كارباخال[٩] ومعه مائة وأربعون من الأتراك؛ بينما مضى هو مع باقى الرجال إلى نهر المنصورة. عم الفرح الشديد أهالى غويسكار وباتوا يلهجون بالحمد إلى الرب لتخليصه إياهم من ذلك الخطر، ومنحهم ذلك الانتصار الشهير. أعقب ذلك بثلاثة أيام وصول قوات الإغاثة إليهم من كاراباكا، وثيهيخين، وموراتايّا –وكان قوامها أربعين فارسًا وخمسمائة من المشاة مصطفين فى نظام محكم. كان الحاكم العام يرغب فى التوجه لفرض حصار على غاليرا، بيد أن ماركيز بلش بعث من يحمل إليه أمرًا منه بعدم الذهاب. وفى غضون ثمانية أيام انطلق هو من بسطة برفقة أربعة آلاف راجل ومائتى فارس. وفى أثناء مروره إلى جوار غاليرا، ترك بها القائد دييغــو ألباريث دى ليون Diego Álvarez de León ومعه حشد من الرجال؛ حيث تراءى له أن المسلمين سيغادرون ولن يقدروا على تحمل الحصار؛ ثم توجه إلى غويسكار مع انتصاف الليل لكى يصدر أوامره حول الأمور التى تبدو له ضرورية. حينما تبين له أن المسلمين يظهرون حالة من الهدوء، وبعد مرور ثلاثة أيام، خرج يرافقه الجيش بأكمله، وقام بفرض حصار على تلك المدينة،

(٩) الاسم الصحيح هو كاراباكا وسيصحح المؤلف الاسم بعد قليل. (المراجع)

وقصفها مستخدمًا ست قطع مدفعية من البرونز ومدفعين حديديين. بيد أنه لم يحدث سوى تأثير ضعيف، لأن المسلمين كانوا يخرجون إلى خارج البلدة كل يوم، ويلحقون الضرر بالمسيحيين دون أن ينالهم أذى، كذلك فلم يتم مهاجمتهم أو الإتيان على أى حدث جدير بالذكر. لندع تلك الوقائع جانبًا الآن، ونذهب لتناول ما كان يدور فى نواحى غرناطة.

الفصل الرابع والعشرون

يتناول الكيفية التى ألحق بها تيّو غونثاليث دى أغيلار الهزيمة بمسلمى غيخار الذين جاءوا للإغارة على غرناطة.

فى تلك الأيام خرج من غيخار أربعمائة مسلم برفقة الشوكونثيو، ووصلوا إلى بيت الديك الكائن بالقرب من مدينة غرناطة، وذلك فى يوم الاحتفال بعيد القديس نيكولاس الموافق السادس عشر من شهر ديسمبر. عندما اكتشفت أبراج المراقبة فى ربوة الشمس وجوده وأطلقت النفير، خرج تيّو غونثاليث دى أغيلار -يصحبه حملة الدروع التابعين لإيثيخا، الذى كان مكلفًا برئاستهم- من بوابة فحص اللوز Fraxal Leuz؛ فنزل إلى نهر حدرّة، ثم صعد بعد ذلك إلى الربوة التى توجد بها كتائب المقاتلين. وعندما تم تنبيهه إلى أن المسلمين يتراجعون صوب غيخار، وأنهم على مقربة من موضعه، اصطحب معه عشرين من حملة البنادق وانطلق فى إثرهم. كان المسلمون قد حشدوا صفوفهم وأخذوا يسيرون فى تؤدة، فلمّا اكتشفوا قدوم الخيول، شرعوا فى إرسال الإشارات الدخانية عبر الروابى، وأظهروا رغبتهم فى القتال، حيث وقفوا على قمة إحدى الروابى وهم يطلقون صيحاتهم القتالية المعتادة. نظرًا لأن حملة الدروع كانوا متخلفين ولايزالون فى الطريق، حيث لم يتمكن أكثر من عشرين فارسًا من اللحاق بتيّو دى أغيلار، فقد أمر هو أيضًا بإيقاف المسيرة، وإطلاق النفير من أجل أن تقوم القوات بحث الخطى.

لم يمض وقت طويل حتى انضم إليه ثمانون من الفرسان، ونظرًا لقول البعض بوجود كمين خلف الرابية التى توقف المسلمون عندها، أرسل اثنين من حملة الدروع

لاستطلاع ذلك الأمر: فتوجه أحدهما إلى نهر شنيل حيث كانت توجد هوات ضخمة، بينما ذهب الآخر إلى الجزء المرتفع من الرابية؛ وقد انطلق كلاهما دون أن يعلم أحدهما بوجود الآخر. عند عودة من توجه منهما إلى ناحية شنيل، قال إنه لا يوجد فى كل تلك الأرجاء سوى المسلمين الذين تم اكتشاف وجودهم؛ أما الآخر فكانت أقواله مختلفة، حيث أشار إلى أن هناك ما يربو على أربعة آلاف مسلم قد نصبوا فخًا خلف الربوة. لكن فيما بعد فطن القائد إلى أن الأول كان يقول الحقيقة: لأنه إذا كانت القوات قد نصبت فخًا، فمن المؤكد أن الأعداء لن يبعثوا بإشارات دخانية؛ وإذا كانوا قد أرسلوها، فذلك يعنى أنهم يطلبون النجدة. عندئذ نظم تِيّو دى أغيلار صفوف الفرسان، وأمر بإطلاق النفير، ثم بادر بالهجوم.

تصدى المسلمون لرجالنا، وقاموا فى أثناء تبادل إطلاق الدفعة الأولى من نيران البنادق بجرح اثنين من حملة الدروع وقتل ثلاثة من الفرسان، أما القائد فقد اخترقت الدرقة مقبض الترس الخاص به. إلا أن الفرسان دهسوهم فيما بعد وألحقوا بهم الهزيمة، حيث قتلوا خمسين مسلمًا وجرحوا الكثيرين، بينما لاذ الباقون بالفرار عن طريق الهبوط إلى تلك الهوات فى اتجاه شنيل، كما خلّفوا وراءهم العديد من البنادق والأقواس الفولاذية لكى تمسى حركتهم أخف. ظل الفرسان يلاحقونهم لفترة طويلة، واستولوا منهم على مائة بقرة وثلاثين من الأمتعة الخاوية عند سفح جبال غيخار، ثم تراجعوا صوب غرناطة مع تلك الغنيمة غير المتوقعة. فى تلك الأثناء استجاب مسلمون كثيرون للإشارات الدخانية، وانقضوا على رجالنا، وأخذوا يشتبكون معهم حتى اضطروهم إلى التخلى عن جزء من الفيء، لأنهم لم يقدروا على اقتياد كل ما غنموه عبر تلك الأماكن المنحدرة والوعرة؛ لكن عند بلوغهم ربوة الشمس -حيث أتيح للفرسان التحرك بشكل أفضل- لم يجسروا على المضى قدمًا. كانت تلك الحملة ذات أهمية بالغة فى كبح جماح المسلمين فى معقل غيخار؛ لأنهم منذ ذلك الحين باتت مرات خروجهم أقل، ولم يعودوا يجرؤون على إحداث أضرار على مسافة قريبة للغاية من المدينة.

الفصل الخامس والعشرون

يتناول الأمر الذى أصدره جلالة الملك بتشكيل جيشين للتصدى للأعداء، وبمرافقة السيد خوان دى أوستريا لأحدهما.

كان الأثر الضئيل الذى خلفه جيشنا فى غاليرا، وتأخير إنزال العقاب بالثوار، هو الداعى لقيام السيد خوان دى أوستريا -الفتى المولع بالقتال، وصاحب الهمة العالية- بإعمال يده فى الكتابة إلى جلالة الملك؛ معبّراً عن ضيقه لإرسال جلالته إياه إلى غرناطة، والإبقاء عليه هناك فى توقيت بات فيه الجميع مشغولين بينما ظل هو عاطلاً، مع كونه آخر شخص يلائمه البقاء من دون فائدة. كما طرح على جلالة الملك رغبته فى شغل ذاته، وبيّن له وضع المسلمين فى البشرات، وأبدى له الخطر المتمثل فى انتقال الثورة إلى مرسية وبلنسية، إذا ما دعّم المسلمون مواقعهم فى كل من: سيرون، وتيخولا، وبورتشينا، وتاهالى، وخيرغال، وكانتوريا، وغاليرا، وغيرها من البقاع التى بسطوا سيطرتهم عليها. كما أوضح لجلالته قدر الفائدة الكبيرة التى ستعم إذا ما تم تناول مسألة الحرب بحمية، ومدى النعمة الاستثنائية التى سيتفضل بها عليه إذا ما منحه الإذن فى مغادرة غرناطة والذهاب لإنهائها شخصيًا.

فى أعقاب تدبر جلالة الملك لكافة تلك الأمور، والتكرم على السيد خوان بالموافقة على تلك الرغبات الحميدة، أمر جلالته بتشكيل جيشين من جديد: أحدهما فى منطقة نهر المنصورة - التى يوجد بها ماركيز بلش- على أن يحل السيد خوان دى أوستريا محل الماركيز؛ وآخر فى منطقة غرناطة، من أجل أن يقتحم دوق سيسا البشرات من تلك الجهة. تم اتخاذ العديد من التدابير، والتزود بكميات كبيرة من المؤن والأسلحة

والذخيرة من أجل تلك الحملة. خرج الكثير من مستشاري المحاكم والمحاكم العليا لإمداد الأقاليم بكافة الأشياء اللازمة. أما أنا فقد أُمِرت بالتوجه إلى مدينتي أبدة وبياسة، وإلى البقاع التي تدخل في نطاق كاثورلا، من أجل تنظيم إمدادات المؤن والذخيرة التي سترد من هناك[١٠]؛ كما قام أعضاء المجالس البلدية بتعيين مندوبين من بلدياتهم، ومنحوهم نقوداً لهم ولشراء لأمتعة. توجه القائد العام لقوات قشتالة إلى قرطاجنة لكي يجلب قطعًا من المدفعية وأسلحة وذخائر وكميات ضخمة من المؤن. تم تنصيب قادة جدد وتكليفهم بتجنيد المزيد من الرجال. كما تم التنبيه على المدن بأن تعيد تشكيل الكتائب التي شاركت بها في الحرب، وعلى من لم يكن قد أرسل فرقًا أن يبادر بإرسالها.

كان ابتهاج المحاربين كبيراً حينما تم الإعلان عن خروج السيد خوان دي أوستريا مع الحملة. توافد على الجيش العديد من الفرسان والجنود الاستثنائيين - الذين لم يكونوا قد تحركوا إلى الآن. حيث التهبت حماسة الرجال، ودب الخوف في نفوس الأعداء، الذين تنبأوا بفنائهم حينما رأوا أن مشيئة ذلك الأمير العظيم ستضع حداً لتأخير حسم المعركة، وهو ما كان يناسب أوضاعهم للغاية. لمّا كان من الضروري مغادرة السيد خوان دي أوستريا لغرناطة، لم يكن من الصواب غض الطرف عن غيخار، حيث عقد السيد خوان العزم على الذهاب بنفسه للإغارة على أولئك اللصوص قبيل اضطلاعه بالحملة. على الرغم من أنه قد واجه بعض المعارضة في هذا الصدد، فقد تمكن من القضاء عليهم على النحو الذي سنسوقه لاحقاً. لنذهب الآن لتناول ما كان يدور في تلك الآونة في منطقة منتميس.

---

(١٠) من المعلوم أن كارباخال كان مشرفًا على حسابات الجيش الإسباني خلال الحرب على المورسكيين. (المراجع)

الفصل السادس والعشرون

يتناول الكيفية التى عاد بها مسلمو جبال منتميس إلى إعمار ديارهم، وإحراقهم لحصن توروّكش، وإحداثهم أضرارًا أخرى بتلك الأراضى.

فى أعقاب فتح القائد العام لقوات قشتالة لحصن فريخيليانا، قام مارتين الوزير وإيرناندو الدرّة وباقى قادة المسلمين فى جبال منتميس بحشد صفوفهم فى البشرات، وظلوا خلال فترة طويلة يرافقون ابن أمية، ومن بعده ابن عبو، ويحصلون على الأجر. خلال الفترة ما بين الحادى عشر من يونيو والثالث عشر من ديسمبر بات الجبل مهجورًا وآمنًا للغاية، حتى أن أهالى بلش صاروا يجولون فى أرجائه دون أن يواجههم خطرًا أو تساورهم شكوك، بحثًا عن الأشياء التى تركها الثوار مخبأة هناك. لمّا كانت هنا مكاسب، فقد توافد العديد من الأفراد إلى تلك المدينة على إثر تلك الأنباء، حتى بدا وكأن المدينة تضم معقلاً كثيفًا، مما كان سببًا وراء عدم تجرؤ المسلمين على العودة إلى تلك الأراضى.

بات الثوار الموجودون فى البشرات يكابدون الجوع والمشقة، وأخذوا يجوبون أراضى بعيدة وهم يعانون العوز الشديد، حتى أن الخريران عقد العزم على الذهاب لاستطلاع الجبل وتفقد الأحوال مع ستين من رفاقه. فلمّا ألفاه خاليًا ويغص بالفاكهة، رجع إليهم وأخبرهم كيف أن منازلهم خاوية، وأن أغصان الأشجار تنوء بما تحمله من فاكهة، وأنه حتى العصافير ليست موجودة لتعكير صفوهم. بمقتضى تلك الأنباء بادر الدرّة بالقدوم مع الرجال جميعًا إلى كومبيتا؛ ومن هناك تفرقت الجموع، فتوجه الخريران إلى سيديًا، وذهب باقى القادة كل إلى موضعه. كان أول ما قاموا به

-اقتداءً بالنموذج الذى شهدوه فى البشرات- هو إحراق الكنائس؛ ومنذ ذلك التوقيت صاروا يجوبون الأراضى ويحدثون أضراراً فادحة: فأسروا المسيحيين وقتلوهم، واستولوا على ما بحوزتهم من ماشية. علاوةً على ذلك فقد وضعوا حصن كانييس دى أثيتونو تحت ضغط شديد، حتى بات لزامًا خروج حامية كثيفة لإمداده باحتياجاتها؛ حيث اضطروا ماركيز قمارش إلى المجىء بشخصه، فى ألف رجل من بلدة اللسانة، من أجل القيام بما تقتضيه الحاجة وتزويده بما يلزم. نظراً لأن الدرّة أصبح يمتلك ما يربو على سبعة آلاف رجل مقاتل فى الجبال وهو على رأسهم، كان يقوم بإثارة القلاقل فى مدينة بلش فى كل وقت؛ حتى صار يبلغ المنازل نفسها، ثم يتراجع دون أن يلحق به أى أذى، لأن الطقس والتضاريس كانا يصبان فى صالحه.

تم الإعلان لاحقًا عن قيام المسلمين بتحصين كومبيتا لكى يقيموا بها جبهتهم المقابلة لبلش، وعن أن أهالى المواضع الشرقية ومنخفض مالقة لا يسعهم انتظار حدوث ذلك من أجل القيام بالثورة. بيد أن تلك الأنباء كانت ملفقة من قبل أشخاص كان يحزنهم رؤية تلك البلدان مسالمة، نظراً للنفع الذى يمكن أن يعود عليهم من جراء نشر الاضطرابات بها. فما كان من أريبالو دى ثواثو -الذى اعتقد فى صحة ما يقال حول كومبيتا- إلا أن حشد ألفًا وستمائة من جنود المشاة، ومائة وستين فارسًا من المناطق التى تدخل تحت نطاق سلطته، وثلاثمائة جندى من التابعين للبحرية -كان السيدان سانشو دى ليبا وبيرينغيل دورنوس Berenguel Dornos قد منحاه إياهم-، وتوجه برفقتهم جميعًا للإغارة على ذلك الموضع مع بزوغ الفجر. لكن المسلمين كانوا قد تلقوا تنبيهًا فى الوقت المناسب، فلم يجرؤوا على الانتظار وتراجعوا إلى الجبال. استولى رجالنا على الكثير من المؤن والأمتعة والأغنام، ولم يوافق القائد على أن تستمر القوات فى مطاردتهم إلى ما بعد ميناء بلانكو؛ كما أمر بتدمير المكان -الذى لم يكن به حصن، أو ما يشير إلى الرغبة فى إقامة حصن- وعاد أدراجه إلى بلش. لم يمض وقت طويل على ذلك الحدث حتى بعث درّة بتسعمائة من المسلمين لإحراق بلدة

ألفارانتيخو Alfarantejo، وفى أثناء عودتهم قاموا بقتل عشرين جندياً كان قائد كانييس قد أرسلهم للحراسة برفقة أحد الحجاب، وذلك فى موضع يدعى تيناخويلا دى كانييس Tinajuela de Canilles.

حينما وردت أنباء إلى المسلمين حول تجمع مسيحيى بلدة توروّكس Torrox فى الحصن، وكونهم يخرجون صباحًا لمزاولة أعمالهم فى الحقل، ويتركون رجلاً واحداً مع النساء، أرسل درّة جماعة من المسلمين ليلاً حتى يختبئوا فى منازل البلدة، ويتحينوا الوقت الذى يكون فيه المسيحيون بالخارج، ثم يحتلون الحصن. أعد الرجال الكمين، وعندما حان الوقت حملوا أحد الكلاب على النباح؛ فلمّا خرج ذلك الرجل قليل الفطنة المدعو إيرناندو دى لا كوبا Hernando de la Coba لتفقد تلك الضجة قتلوه رميًا بأحد السهام. أضرم الرجال النيران فى بوابة الحصن، فما كان من النساء الخائفات -اللواتى ليس لديهن من يدافع عنهن- إلا الاستسلام، فحملوهن أسيرات إلى البشرات. حينما تراءى للقوات أنهم لن يقدروا على الدفاع عن الحصن، أشعلوا فيه النيران وقفلوا عائدين إلى الجبل.

الفصل السابع والعشرون

يتناول الكيفية التى أغار بها السيد خوان دى أوستريا على غيخار، والظفر بها.

غيخار بلدة كبيرة، وهى مقسمة -كما ذكرنا آنفًا- إلى ثلاثة أحياء كائنة فى حضن جبل يتسم بالوعورة الشديدة. يبرز ذلك الجبل من جبل شلير، عند سفح المنطقة الظليلة التى يطلق عليها المسلمون حفرة جهنم، والتى تنبع منها العيون الرئيسة التى يسيل منها نهر شنيل؛ يجرى النهر بين تلك الجبال، وينحدر إلى الأسفل عبر صخور بالغة الوعورة ذات قاعدة غير منتظمة تكثر بها الأحجار، وصولاً إلى بلدة بينيّوس Pinillos. أسفل تلك البقعة بقليل ينضم مجرى النهر إلى نهر المياه البيضاء، الذى يأتى مرورًا ببلدتى كينتار ودودار، عبر وادى أكثر استواءً واعتدالاً. حيث يتجها معًا ليزودا قرية ثينيس بالمياه، ثم يسيرا من هناك إلى مدينة غرناطة. يخرج النهر إلى غوطة مستوية -تمثل أكثر المناظر المتعة حسنًا ونضارةً- حيث تبدو بساتينها وغيلاتها وكأنها حديقة متفردة، أرادت من خلالها الطبيعة -بما أودعته هناك من تنوع فى صنوف الفاكهة- من التلذذ فى أثناء رسمها. وبهذه الطريقة يكون جبل غيخار هو المنطقة الكائنة ما بين هذين النهرين، حيث ينتهى الجبل عند نقطة التقائهما.

كان السيد خوان دى أوستريا يرغب فى الخروج من أجل شن حملة على بقاع بسطة ونهر المنصورة ولمّا كان من المقرر الإغارة على غيخار أولاً؛ فقد نشأت بعض الاعتراضات بين أعضاء المجلس. أما من تبنوا فكرة الاضطلاع بالمهمة الرئيسية، فقد أرادوا صرف النظر عن تلك الغارة لكون فائدتها أقل من أضرارها. لأنه إذا ما

سارت الأمور على ما يرام، فلن تسفر الغارة سوى عن القضاء على ذلك المعقل، حيث لا يوجد مكان يتقدم صوبه الجيش لاحقًا فى تلك الأنحاء؛ وإذا كانت نهاية الأمور سيئة، فسيفقد المسيحيون قدرًا كبيرًا من سمعتهم، لأن هذه هى الحملة الأولى التى يقوم بها السيد خوان دى أوستريا بنفسه. قال سيادة الرئيس بدرو دى ديثا -الذى كان سيمسك بزمام الأمور فى غرناطة- إنه من الملائم أن تضطلع القوات قبل أى شىء بإزاحة أولئك اللصوص من هناك، من أجل تأمين المدينة من الغارات، وحتى لا يخلّفوا وراءهم أى أعداء. كما أن الموضع لا يتسم بكل ذلك القدر من الوعورة، والتعزيزات التى قام بها المسلمون ليست بالغة التحصين، وكذلك فإن المعقل ليس بالضخامة التى يتم تداولها. كما أنه يبدو من غير اللائق أن نود الذهاب فى طلب الأعداء إلى منطقة أخرى بعيدة للغاية، ونترك بعضهم على مقربة من ديارنا.

كان ذلك الشأن بالغ الأهمية، خاصةً فى تلك الحالة. حينما وجد السيد خوان دى أوستريا أن المسألة فائقة الصعوبة، أرسل يستدعى إلى المجلس كلاً من: السيد أنطونيو دى لونا، والسيد خوان دى مندوثا سارمينتو، والسيد دييغو دى كيسادا -وهو رجل ولد وتربى بين تلك الجبال، وله دراية واسعة بشتى أرجائها- من أجل أن يتباحثوا معًا مع أعضاء المجلس أفضل ما يصلح القيام به فى هذا الصدد. عندما لم يتوصلوا إلى اتخاذ قرار، لعدم تأكدهم من طبيعة الوضع فى غيخار، اقترح السيد دييغو دى كيسادا أن يجلب لهم مسلمين أو ثلاثة من البلدة ذاتها، لكى يتسنى لهم إخبارهم بما يودون معرفته. فلمّا قال له السيد خوان دى أوستريا إنه لا يرغب فى تعريضه لذلك الخطر، أجابه بأن الأمر ليس خطيرًا، ولكنه يتطلب بذل الجهد، وأن قدميه هما من سيتحملان ذلك العبء. استحسن الجميع ذلك القول، وتم إسناد المهمة إلى السيد دييغو؛ كما صدرت الأوامر أيضا إلى السيد غاثيا مانريكى وتِيو غونثاليث دى أغيلار لكى يتوجها مع مائتين من الفرسان لاستكشاف المكان من طريق المياه البيضاء؛ بيد أن تلك المهمة التفقدية لم تسفر سوى عن تخفيف الحصار هناك ، وذلك على النحو الذى سنسوقه فيما يلى.

اصطحب السيد دييغو دى كيسادا اثنى عشر رجلاً يمتازون بالإقدام، وفى أثناء تجوله فى قرية حصن اللوز، وعبر جبال لا بيثا -وهى مسقط رأسه- توجه سيراً على الأقدام لتفقد بعض الشعاب الجبلية، التى كان على دراية بوجودها خلف جبل غيخار؛ فقبض على ثلاثة من المسلمين كانوا قادمين من المكان ذاته، وعاد بهم إلى غرناطة. أمدنا الأسرى بالمعلومات حول التحصينات التى قام بها المسلمون، فأخبروا عن وجود الشعيبى داخل المدينة مع أربعمائة من الجنود المزودين بالبنادق من مواطنى تلك الأراضى، علاوةً على ستين من الأتراك والمسلمين المغاربة، وذلك فى صحبة القائد التركى المدعو كارباخال -الذى كنا قد ذكرنا أنه يرافق المالح- وكان ذلك الأخير قد غادر غاليرا خلال تلك الأيام، قائلاً لمن بها من المسلمين أن يهجروها نظراً للدمار الذى سيلحق بها. كما أن الرانداتى والبارتال كليهما فى المدينة، بالإضافة إلى قادة مسلمين آخرين فى صحبة كتائبهم. أضاف المعتقلون أن الجميع يضطلعون بنوبات الحراسة فى عناية شديدة، وأنهم قد قطعوا الطريق الصاعد من المياه البيضاء بواسطة خندق صخرى واسع يتجاوز ارتفاعه سبعة أقدام، حيث يقطع الصخور التى تشكل الشقوق فى السلسلة الجبلية ما بين ربوة وأخرى، ليأخذ هيئة انطلاق السهم من القوس فى المنطقة الشمالية من الحى الأول. فيما يتعلق بالحى الأوسط -الذى كانت القلعة مشيدة به قديماً- فقد شرعوا فى إقامة حائط من الحجر المدقوق فى مقدمة الرابية، وذلك فى البقعة التى يشكل الدخول منها الصعوبة الأقل، لأن سائر النقاط الأخرى محاطة بجبل عال وشديد الانحدار يظلل مياه نهر شنيل.

فى أعقاب استقاء المعلومات من المسلمين الثلاثة، الذين اتفقت روايتهم فيما ذكروه -وهو أمر لم نشهده سوى مرات قلائل خلال تلك الحرب-، أمر السيد خوان دى أوستريا باستدعاء الأدلاء وبعض الرجال ذوى الخبرة الواسعة فى تلك الأراضى. حيث فهم منهم أنه يمكن -عن طريق بذل المزيد من الجهد- الدخول إلى البلدة من مكانين، دون التوقف عند الطرق أو الخندق؛ وذلك عبر تقسيم القوات إلى فريقين: بحيث يصعد أحدهما عبر الجزء المثلث من الجبل، الذى يبرز إلى أعلى عند الجزء المشرف على نهر المياه البيضاء، فى أثناء قيام الفريق الثانى بدورة كبيرة من أجل أن يحضروا ويدخلوا

البلدة من المنطقة الكائنة باتجاه الشرق، فيتجنب هؤلاء وأولئك الدخول إلى بلدة سيبيا Silla، ليهبطوا من البقعة الموجودة ما بينها وبين غيخار عبر سفحى الربوتين دون أن ينقض عليهم الأعداء، لثقتهم فى عدم إمكانية الوصول إليهم من أى جهة أخرى بخلاف الطرق المباشرة.

فى النهاية تم اتخاذ القرار بالموافقة على القيام بالحملة. وهنا نشب خلاف بين كونت تينديًا والمأمور القضائى خوان رودريغيث دى بيّافويرتى حول أيهما ينبغى أن ينال شرف رئاسة مقاتلى المدينة؛ لكون أحدهما هو القائد والثانى هو المأمور القضائى. واضطرا لإحالة تلك القضية إلى المجلس الأعلى، الذى أرجأ الأمر حتى صدرت الأوامر بخروج المأمور القضائى مع القوات. حينما أضحت الأمور جميعًا على أهبة الاستعداد للانطلاق، قام السيد خوان دى أوستريا بتقسيم المقاتلين -الذين كان تعدادهم تسعة آلاف من المشاة وسبعمائة فارس- إلى فريقين. أما الفريق الأول -الذى يضم خمسة آلاف راجل وأربعمائة فارس- فقد غادر غرناطة يرافقه السيد خوان، وذلك فى الساعة الثالثة من مساء يوم الثلاثاء، الموافق الثالث والعشرين من شهر ديسمبر، بغرض الالتفاف حول المكان على النحو المفروض والدخول إلى البلدة من الجهة الشرقية. عند بلدة بياس -التى تناول فيها الرجال وجبة العشاء وارتاحوا لبرهة من الوقت خلال تلك الليلة- استأنفت القوات مسيرتها. أما الفرقة الثانية -التى كانت مؤلفة من أربعة آلاف من المشاة وثلاثمائة فارس- فقد ترك السيد خوان قيادتها إلى دوق سيسا، آمرًا إياه أن يتحرك عند انتصاف الليل، لأنه سيقطع مسافة أقل فى الطريق.

رافقت السيد خوان دى أوستريا وحدات الجيش من المشاة الذين يعملون بأجر، وجزء من أهالى المدينة. حيث قاد طليعة الجيش لويس كيخادا، وكان قوامها ألفين من جنود المشاة بالإضافة إليه؛ بينما تولى السيد غارثيا مانريكى قيادة سلاح الفرسان. أما المؤخرة -التى تضمنت حامل البيرق- فقد صاحبها الأب بدرو لوبيث دى ميسا. كما ذهب المورد العام السيد فرانثيسكو دى سوليس مع سلاح المدفعية والأمتعة. تحرك دوق سيسا مع كتائب الجنود التابعة للمدينة: فانطلق السيد خوان دى مندوثا ورجاله

فى المقدمة، بينما رافق المأمور القضائى سلاح الفرسان، وبات سلاح المدفعية والأمتعة عالةً عليه، ويضاف إلى ذلك عدد من فرق المشاة التى احتلت مؤخرة الجيش. وقد تقدم الجيش بالكامل كتائب المقاتلين المتطوعين. توقف دوق سيسا لفترة طويلة خلال الطريق، حتى يتيح للسيد خوان دى أوستريا فرصة الانتهاء من الدورة التى يقوم بها؛ وحينما تراءى له أن الوقت قد حان، عبر بجوار الجسر -الذى أشرنا إليه آنفًا، والموجود عند نقطة التقاء نهر المياه البيضاء ونهر شنيل- سالكًا السلسلة الجبلية والجزء المثلث من جبل غيخار، وكان دومًا ما يحتل أعلى القمم ارتفاعًا. أمر دوق سيسا بإرسال إشارات نارية، لكى يشاهد السيد خوان دى أوستريا -الآتى من الجهة المقابلة- المكان الذى وصل إليه، ويحث الخطى من أجل أن يستطيع كلاهما الوصول فى التوقيت ذاته، عن طريق تبادل العلامات النارية.

كان الأدلاء المرافقون للسيد خوان دى أوستريا يقودون الجيش عبر طريق بالغ الوعورة، وقد قاموا بالالتفاف لمسافات بعيدة، حتى لم يعد بمقدورهم بلوغ الربوة الكائنة شرقى سييا قبيل ارتفا ع الشمس فى كبد السماء. فى تلك الآونة كان جنود الفرق التى تقود طليعة جيش الماركيز قد بلغوا الرابية الغربية -التى ينبغى الهبوط عبرها- على نحو أسرع، حيث كان عليهم قطع مسافة أقل والسير فى طريق أفضل. وفى سرعة خاطفة، توجهوا للانقضاض على دوريات الحراسة التابعة للمسلمين والموجودة على قمة الجبل. بادر من بالداخل بالفرار لدق ناقوس الإنذار الموجود فى نقطة الحراسة المقامة داخل الخندق الصخرى -وكأنهم هم بأنفسهم من يوضح للجنود المسار الذى ينبغى أن يسلكوه لاقتحام البلدة. أخذ الجنود فى ملاحقتهم دون نظام وفى عزم ماض، حتى أنهم لم يتيحوا لهم فرصة ليتمكنوا من التصدى لهم، وفر الجميع هربًا باتجاه البلدة. عندئذ انقض رجالنا جميعًا على المكان، وساروا إلى الحصن الآخر -وكان المسلمون قد هجروه أيضًا- فاقتادوا أمامهم النساء وبعض الأمتعة المحملة بالثياب، وصعدوا بها إلى جبل شلير، الذى كان يمثل بالنسبة إليهم ملجأ يقع على مسافة قريبة للغاية، فلم يكن يفصلهم عنه سوى مياه شنيل الصافية.

حينما رأى الدوق أنه قد تم اقتحام المكان والحصن، مضى إلى الحى الأسفل ومعبر النهر، حيث كان الرماة المسلمون قد شكّلوا جبهة لكى يتيحوا الفرصة للنساء فى المضى قدمًا. هنالك قُتِلَ القائد كيخادا على إثر ضربة بالحجر تلقاها فى رأسه، علاوةً على خمسة وثلاثين جنديًا -كانوا قد انفصلوا عن الركب طمعًا فى قطع الطريق على الأمتعة والمسلمات اللواتى بادرن بالهرب. كان يمكن أن تصبح الخسائر فادحة، لو لم يكن الأتراك قد غادروا المحل فى اليوم الذى حضر فيه السيد غارثيا مانريكى، ثم تبعهم رحيل الرانداتى والبارتال والقادة الآخرين مع غالبية الرماة. لأن أولئك الرجال اللصوص -الذين لم يكونوا يبتغون شيئًا سوى السرقة، وكانوا قد جاءوا إلى هناك لملائمة الجبال لذلك الغرض- لم يودوا أن يعرضوا أنفسهم لخطر الدفاع عن المكان، واستغلوا فرصة الذهاب لتجميع المزيد من الرجال لينفذوا هجومهم خلف ظهر جيشنا إذا ما أغار على المحل.

قُتِلَ فى ذلك اليوم أربعون من المسلمين، وكان الفىء الذى غنمه جنودنا قليلاً لأنه لم يكن هناك سوى أشياء قليلة تسلب. بالإضافة إلى ذلك فقد تم الاستيلاء على كميات من الماشية والأغنام، وبعض المؤن والثياب التى كانت فى المكان. وقد عثرت أنا -فى المنزل الذى كان يقيم به القائد الشعيبى- على الكثير من الأوراق، كان من بينها الخطاب الذى كان ابن أميه قد أرسله إليه، آمرًا إياه ألا يضطلع بإثارة المزيد من القرى حتى يصدر إليه الأمر بذلك -كما أسلفنا فى موضع سابق. كان المسلمون قد رحلوا، والبلدة قد فتحت، حينما أطل السيد خوان دى أوستريا من الرابية التى كان يتعين عليه هبوطها؛ وقد أظهر أسفًا بالغًا بعد أن رأى أن الدوق لم يدع له ما يفعله. حيث تطاير الشرر من عينيه كما الجمر من فرط الحنق، ولم يدر أيلقى باللوم على الأدلاء لأنهم لم يرشدوه الطريق بشكل جيد، أم يلوم الدوق لأنه لم ينتظر إلى حين قدومه؟ بيد أن الدوق اعتذر منه، وأرضاه إلى حد بعيد، لمّا أخبره بأنه قد أرسل إليه كتابًا فى الطريق مع أحد الجنود، قال فيه إنه يبدو له أن جيشه قد تأخر كثيرًا، وأنه الفرصة قد تضيع إذا ما طلع ضوء النهار واستشعر المسلمون وجودهم، وطلب أن

يشير عليه الأمير فيما يجب القيام به؛ وأنه قد أجابه بأن يفعل ما يبدو له أفضل[11].
وعلى الرغم من ذلك، فإن ما حدث لم يكن بيده، لأن جنود الفرق وثبوا على دوريات العدو على نحو مباغت، ولم يكن يسعه سوى الذهاب فى أثرهم.

بعد كل ما جرى، لم يكن السيد خوان دى أوستريا راغبًا فى التوقف عند ذلك الموضع، فأمر السيد خوان دى مندوثا أن يبقى فى الحصن، الذى كان المسلمون قد شرعوا فى إقامته فى الحى الأوسط، ريثما يقرر من سيمكث به ليكون معقلاً للمسيحيين؛ ثم عاد أدراجه إلى مدينة غرناطة، دون أن يتناول أى طعام على مدار ذلك اليوم. أعقب ذلك بفترة وجيزة توجه السيد خوان دى ألاركون Juan de Alarcón –سيد بويناتشى Buenache– إلى هناك، وقد صحبته أربع فرق من القوات التابعة له وبعض الفرسان. وقد ظل هناك إلى أن قام كل من السيد لويس دى كوردوبا والقائد أورونيا باختزال الحصن فى نطاق أصغر، ليبقى به السيد فرانثيسكو دى مندوثا برفقة خمسمائة من جنود المشاة.

(١١) إذا كان الأمير قد أجابه هكذا فلا ندرى سببًا لغضبه. النص الأصلى هنا لا يوضح سبب غضب الأمير. (المراجع)

الفصل الثامن والعشرون

يتناول مصير الخائن فرج بن فرج.

استرعى انتباهنا أن القارئ لابد أن يكون قد شرع فى المطالبة بمعرفة ما كان فرج بن فرج بصدده فى تلك الآونة -بوصفه الرأس المدبرة لتلك الثورة- ، ظنًا منه أننا قد نسينا أمره. وحتى لا نكون قد أهملنا شأنًا قد يرغب فيه القارىء، فسوف نأتى على ذكره فى هذا الموضع، الذى لن يصبح أقل أجزاء ذلك التأريخ إمتاعًا. كنا قد عرضنا من قبل كيف أن ابن أمية -بعد أن أطلق عليه أهالى بيثنار لقب "ملك"- أراد أن يزيح عن كاهله ذلك الرجل السيئ، فأرسله لكى يتولى تجميع الفضة والذهب والنقود، التى كان الثوار قد استولوا عليها من مسيحيى البشرات ومن الكنائس. فقام ذلك الأخير باقتراف العديد من الفظائع، وطغى فى شتى بقاع تلك الأراضى، مستعينًا بمائتين من الثوار الجبليين كان قد أحضرهم برفقته، حتى أن ابن أمية خشى أن ينقلب وينازعه حكم المسلمين وولاية شئونهم.

حمل ابن أميه فرج بن فرج على الحضور إلى بلدة القصور، وأمره بأن يسلم كل ما جمعه من نقود وذهب وفضة إلى صهره ميغيل دى روخاس، وكان قد جعل منه خازنه -كما أسلفنا. ثم أرسل الثوار الجبليين المائتين إلى مواضع متفرقة، بحجة الاستعانة بهم والإفادة منهم، وأمر فرج ألا يبرح الريف إلا بإذنه وبمقتضى أوامره، وإلا واجه عقوبة الإعدام. فاستطاع على هذا النحو أن يستبقيه معه لفترة طويلة، إلى أن ألحق ماركيز مونديخار الهزيمة بجيش المسلمين، وشرع فى إخضاع الأراضى. عندئذ ألفى الخائن الأكبر نفسه مكروهًا بشدة من قبل المسلمين والمسيحيين،

نتيجةً لما اقترفه فى حق هؤلاء وأولئك من أفعال وحشية فى الأرض؛ فانزوى فى بلدة غيخار، وظل مختبئًا هناك حتى أعاد ابن أمية تشكيل قواته، مستغلاً الاضطرابات التى سادت بين صفوفنا، وعاود نشر الثورة فى القرى.

أدرك فرج بن فرج أنه إذا ما رجع إلى ابن أمية فلن يناله خير، وإذا ما اتجه إلى المسيحيين فستضحى العاقبة أسوأ، فلم يدر إلى أيهما يلجأ؛ حتى قرر أن يحل تلك المعضلة بتسليم نفسه إلى محاكم التفتيش المقدسة، وطلب العفو عما ارتكبه من خطايا، معتقداً أنهم لن يقتلوه هناك، بل سينزلون به عقوبة بدنية. أسر فرج بما ينتوى القيام به إلى أحد المسيحيين الأشرار[١٢] -كان يعمل صبّاغًا، ويسير برفقته-، حيث قال له الكلمات التالية: "يا أخى، نحن نجوب الأراضى بعد أن مقتنا الناس. أما قضيتنا فلم تسر على النحو الذى حسبناه، لأن المسلمين -الصابرين على البلاء بصعوبة- لم يعرفوا كيف يحكمون البلاد؛ فقد حقروا من شأننا، ووضع ابن أمية سكينه على رقابنا. وإذا ما اعتقلنا المسيحيون، أو ذهبنا نحن إليهم، فلن يكون مصيرنا سوى حبل المشنقة. ليس أمامنا سوى سبيل واحد، إذا ما أردنا البقاء على قيد تلك الحياة البائسة لبضعة أيام، ألا وهو الذهاب لوضع أنفسنا بين يدى محاكم التفتيش؛ لأنها إن طبقت علينا عقوبةً ما للتكفير عما اقترفناه من خطايا، فإنها لن تقتلنا. الجميع يعرفوننى جيداً فى غرناطة؛ وبمجرد سعيى إلى دخول المدينة، فلا يمكن أن يقوموا بأقل من اعتقالى أو قتلى، وسوف يخضعونك إلى المصير ذاته إذا ما دخلت برفقتى. وأنا أرى أن تذهب أنت أولاً وحدك، لكى نتخطى ذلك العائق، وأن تمثل أمام قضاة المحكمة، وأن تطلب منهم -نيابةً عنى- أن يأمروا بقدوم فرد أو اثنين من أقاربى، حتى يتسنى لى الحضور فى أمان".

استحسن رفيق فرج ذلك الحديث، واتفقا على أن يغادر الرجل المغارة -التى كانا مختبئين فيها- عند انتصاف الليل لكى يتوجه إلى غرناطة. لكن بحلول ذلك الوقت كان فرج قد نام؛ فما كان من الرفيق إلا أن قرر أن يجهز عليه، حتى يتخلص منه ومن شروره،

(١٢) هل يقصد أنه كان موريسكيًا؟ (المراجع)

لحنقه عليه بسبب اصطحابه معه طوال تلك الفترة، ولعله كان يظن أنه بموته سوف ينال العفو بسهولة أكبر. فرفع حجراً ضخماً وجده بالقرب منه، وانهال به ضرباً على رأسه مرات عديدة، حتى هشم أسنانه وضروسه وفكه، وكسر أنفه وفمه وعينيه ووجهه بأكمله. وظناً منه أنه قد قتله، توجه مباشرةً إلى غرناطة، ولم يتوقف حتى بلغ مسكن رئيس الأساقفة؛ فقال لأحد الوصفاء أن يدخل إلى نيافته، ويخبره بوجود جندى يود أن يطلعه على أمر ما يتسم بالأهمية على هيئة اعتراف؛ فاستمع إليه رئيس الأساقفة، وبعث به إلى قضاة محكمة التفتيش، حيث سندعه ما بين أيديهم.

لنعد إلى الحديث عن ابن فرج، الذى ظل فاقداً للوعى فى المغارة على مدار يوم واحد وليلتين- كما لو كان ميتاً-، حتى وصل إلى هناك على سبيل الصدفة بعض مسلمى غيخار. وحينما شاهدوا ذلك الرجل المسجى على الأرض وقد تورم رأسه ووجهه، وامتلأت جراحه بالديدان، دنوا منه لكى يعرفوا إذا ما كان مسلماً أم مسيحياً؛ فلمّا ألفوه مختناً وما زال على قيد الحياة، حملوه إلى بلدتهم دون أن يتسنى لهم التعرف عليه. وبعد أن برأ والتأمت جراحه، بات مشوهاً كما المسخ، فلم يعد يشبه بنى البشر؛ وحينما كان يتعين عليه تناول الطعام أو الشراب، كان لزاماً أن يلقى إليه الماء والزاد من خلال أنبوب، عبر ثقب صغير بقى لديه فى موضع الفم. عندما فتح السيد خوان دى أوستريا غيخار -على النحو الذى ذكرناه فى الفصل السابق-، كان فرج هناك، وهرب مع المسلمين الآخرين، وفيما بعد ظل يجوب فى أنحاء البشرات يطلب الصدقة. فلمّا استسلمت كافة الأراضى، سلّم نفسه مع مسلمى وادى ليكرين، وتم إيداعه معهم فى المناطق الداخلية. لا يمكننا أن نعلم ماذا حل به أو ما آل إليه مصيره، لكننا سنسعى باجتهاد شديد لمعرفة ذلك الأمر من خلال من ذهبوا برفقته[١٣].

---

(١٣) واضح من هذه الفقرة أنها كُتبت فى أثناء الحرب، حيث كانت الأحداث متلاحقة ولم يكن المؤلف قد علم بعد بمصير فرج. (المراجع)

(الكتاب الثامن)

الفصل الأول

يتناول خروج السيد خوان دى أوستريا للإغارة على نهر المنصورة، وقيام ماركيز بلش برفع الحصار عن غاليرا.

كان لابد من تهيئة العديد من الأمور من أجل الحملة التى كان ينبغى على السيد خوان دى أوستريا القيام بها. تم تجهيز كميات ضخمة من المؤن فى القرى والمدن المتاخمة لغرناطة، وقد عُهِدَ بذلك إلى المجالس ذاتها، حيث أُرسِلت إليها نقود من أجل ذلك الغرض؛ وذلك لتجنب السرقات والرشاوى والاختلاسات التى كان المندوبون والحجاب التابعون للدوريات يقومون بها فى فجور رهيب، وعلى نحو يفوق بكثير ما يمكن لنا أن نسوقه فى هذا الموضع. ولّما كان من الملائم ترك مدينة غرناطة مؤمنة، فقد عيّن السيد خوان قبيل رحيله أربعة آلاف من جنود المشاة لحراستها. أسهم أولئك الجنود المكلفون بحراسة المدينة، علاوةً على وجود الموريسكيين خارج المملكة، وبسط سيطرتنا على مدينة غيخار، وعلى الغوطة ومن بها من حراس، بالإضافة إلى دوريات المراقبة التى كانت تجوب الأراضى، فى تأمين المدينة بشكل كاف؛ و.. ظلت على تلك الحالة طوال المدة التى استغرقتها الحرب.

انطلق السيد خوان دى أوستريا فى اليوم التاسع والعشرين من شهر ديسمبر لعام ١٥٦٩، يرافقه ثلاثة آلاف من جنود المشاة وأربعمائة فارس؛ كما اصطحب معه لويس كيخادا، والأب بيربييسكا دى مونياتونيس -عضو مجلس جلالة الملك- الذى كان يتولى حضور المجلس فى غرناطة بمقتضى أوامر جلالته. وقد عهد السيد خوان بأمر المدينة إلى دوق سيسا، إلى أن يحين وقت مغادرته لها مع الجيش الآخر؛ فما كان من

ذلك الأخير إلا أن انتقل من فوره إلى مقر السيد خوان، وشرع فى إصدار الأوامر – هو والرئيس معًا – فيما يتعلق بالمؤن والأشياء الأخرى الضرورية لتلك الحرب. توجه السيد خوان دى أوستريا فى اليوم الأول إلى بلدة حصن اللوز، التى تبعد مسافة خمسة فراسخ عن غرناطة. وفى اليوم الثانى توجه إلى وادى آش، التى يطلق عليها القدماء اسم أثيورخى Aciurge، ويسميها المسلمون غير عايش Guer Aix[١]. وقد ذهب فى اليوم الثالث إلى غور، حيث ألفى السيد دييغو دى كاستيا وقد حبس كل موريسكيات البلدة فى القلعة، وذلك للحيلولة دون اصطحابهن إلى الجبال، وأيضًا من أجل أن يضمن عدم قيام الموريسكيين بالثورة. فى اليوم الرابع وصل السيد خوان إلى مدينة بسطة –التى كان يسميها المسلمون بطحة Batha[٢]، ويطلق عليها القدامى بسطة Basta– والإقليم التى تقع به.

كان القائد العام لرهبانية قشتالة العسكرية فى انتظاره هناك، قادمًا من قرطاجنة، وقد أحضر معه قطع المدفعية، والأسلحة، والذخيرة، والمؤن –التى أشرنا إليها آنفًا. وكان قد التقى عرضًا مع ماركيز بلش، وقام بتزويده ببعض الأشياء التى طلبها مما كان فى حوزته. مكث السيد خوان دى أوستريا لأيام قليلة فى تلك المدينة، لينتظر قدوم الرجال ويتولى اتخاذ تدابير أخرى ضرورية، على ضوء الاستعجال الشديد الذى اتسمت به الأمور. من أجل التوجه للإغارة على غاليرا، كان لابد من نصب معدات الحرب فى غويسكار. لذا فقد أرسل السيد خوان أولاً –قبيل انطلاقه من المدينة بيومين– جميع العربات والأمتعة الموجودة بالجيش، بعد أن حمّلها بالمؤن والذخائر، وأصدر أمرًا بعودتها لاحقًا لكى تنقل ما تبقى لديه.

كانت كل تلك الإجراءات تتم فى إطار من الشكوك حول قيام ماركيز بلش –الذى أغضبته الفكرة التى خرج بها السيد خوان دى أوستريا– برفع الحصار المضروب على غاليرا، بمجرد معرفته بمغادرة السيد خوان لبسطة. وقد تصادف أن بعض الأشخاص،

---

(١) لم يتحدث المؤرخون المسلمون –فيما نعلم– عن أصل التسمية. (المراجع)

(٢) انظر الملاحظة السابقة. (المراجع)

الذين سمعوه يردد بعض الكلمات، قد نبهوا السيد خوان إلى الأمر؛ وهذا هو ما حدث. ففى الليلة التى تسبق خروج أولى مواكب الأمتعة، قام الماركيز بفض المعسكر، لكن الحظ العثر قضى أن يمكث فيه لأيام طويلة بعد ذلك، وتراجع إلى غويسكار، تاركًا المسلمين أحرارًا حتى يتمكنوا من الذهاب حيثما يحلو لهم. كان من الممكن أن نجابه خطر تدمير الموكب، الذى كان يضم ستمائة عربة وألفًا وأربعمائة حملاً من الأسلحة والذخائر، لو تم تنبيه المسلمين للانقضاض عليه؛ لأنه لم يكن يرافقهم على سبيل الحراسة سوى ثلاثمائة فارس، ولم يصحبهم أى من جنود المشاة.

كان ذلك الموكب فى عهدتى[٣]. وعندما تنامى إلى علمى خلال الطريق أنباء تراجع ماركيز بلش، وأن المسلمين يجولون فى حرية خارج أسوار غاليرا، لم أشأ أن أغامر بالمرور إلى أن يتم تزويدى بعدد أكبر من المقاتلين. وقد أويت فى تلك الليلة إلى ضيعة مالاغون Malagin –الكائنة على نهر بن سُليمة Benzulema–، وقمت بتنبيه كل من السيد خوان دى أوستريا وماركيز بلش بالأمر، من أجل أن يؤمن لى العبور أحد أبراج المراقبة القريبة من غاليرا. وقد استكملت مسيرتى فى الصباح الباكر من اليوم التالى، مع فرقتى مشاة –كانتا تعسكران فى بنى ماوريل– ، وكتيبة من الفرسان كان السيد خوان دى أوستريا قد بعث بها إلىّ. وهكذا تم تأمين الموكب بعد تأخير نصف يوم. لدى بلوغ غويسكار فى تلك الليلة، عاودت إرسال العربات والأمتعة الفارغة إلى بسطة. انطلق السيد خوان دى أوستريا مع الجيش بأكمله، ليصل إلى غويسكار –التى تقع على مسافة سبعة فراسخ عبر الطريق المستقيم، بينما تبعد تسعة فراسخ عبر الدروب– فى رحلة واحدة. لاقى الجيش مشقةً بالغةً خلال ذلك اليوم، لأن المسلمين أطلقوا السواقى، فغمرت المياه الغوطات كلها، التى تحولت إلى أراضى موحلة للغاية، حتى أن العربات والأمتعة لم يتسن لها المرور.

(٣) نذكر بأن المؤلف كان يرافق القوات بصفته مسئولاً عن الحسابات. لاحظ تداخل الاختصاصات، فمسئول الحسابات يقوم الآن بدور قائد يشرف على تحرك مقاتلين. (المراجع)

خرج ماركيز بلش لاستقبال السيد خوان دى أوستريا مع بعض الفرسان على بعد حوالى ربع فرسخ، بعد أن أمر خدمه أن يحزموا ثيابه - فى أثناء ذهابه وإيابه- لكى يتوجه إلى منزله؛ لأنه لم يكن قد أخلى بعد غرف القلعة التى كان يتعين أن يقيم بها السيد خوان دى أوستريا. وكان قد أخّر الأب سيمون دى سالاثار **Simón de Salazar** قاضى البلدة والمستشار فى مجلس مملكة قشتالة-، الذى كان قد حضر إلى هناك منذ ثلاثة أيام بغية إعداد محل الإقامة. لم يتمكن ماركيز بلش من إخفاء المشاعر التى انتابته تجاه مجىء السيد خوان دى أوستريا. على الرغم من أنه قد شوهد برفقة القائد العام لرهبانية قشتالة العسكرية، وهو يتحدث بكلمات طيبة، فقد كان يدرك جيداً أن السيد خوان لا يشعر نحوه بمشاعر الود، وأنه قد كتب إلى جلالة الملك يخبره بأن الماركيز لا يبدو فى نظره الشخص المناسب لإنهاء تلك المهمة.

كان الماركيز قد اطلّع على تلك الرسائل، قبل أن تصل إلى جلالة الملك، وتجاهل أنه على علم بها. كان ذلك هو الداعى وراء تحاشيه التواجد فى مجلس واحد معه أو مع لويس كيخادا؛ ولم يكن يرغب سوى فى الخروج لاستقبال السيد خوان دى أوستريا على سبيل المجاملة فحسب، ثم السير فى طريق العودة إلى منزله دون أن يترجل عن فرسه؛ وقد كان هذا ما قام به بالفعل. لأنه حينما دنا منه لكى يقبل يديه، ويهنئه على سلامة وصوله، رجع معه إلى بوابة الحصن وهو يقص على مسامعه الحالة التى وصلت إليها شؤون الحرب؛ ثم ودعه، هو وكل أولئك السادة الذين كانوا برفقته، دون أن ينزل عن صهوة جواده؛ وسلك طريق بلدة بلش البلانكو مع خاصته، وكتيبة من الفرسان تتبع شريش الفرنتيرة، كان يقودها السيد مارتين دى أبيلا.

الفصل الثانى

يتناول الكيفية التى أغار بها السيد خوان دى أوستريا على بلدة غاليرا، ومحاصرته لها.

فى أعقاب تزايد قوام الجيش، الذى بلغ تعداد أفراده اثنى عشر ألف رجل، أصدر السيد خوان دى أوستريا أوامره إلى القائد فرانثيسكو دى مولينا -الذى كان قد حضر من مطريل امتثالاً لأوامره، لكى يخدم فى تلك الحملة- حتى يذهب برفقة عشر فرق مشاة للتمركز فى بلدة كاستييخا، التى تقع على مسافة فرسخ واحد من غاليرا، وكانت غير آهلة بالسكان. حيث كان من المهم أن نقطع على الأعداء ذلك الممر، لكونه المدخل الذى يتعين على قوات الإغاثة المجىء منه، كما أنه المكان الذى يمكن التراجع من خلاله. انطلق السيد خوان فيما بعد مع باقى أفراد الجيش، ليسلك طريق غاليرا فى اليوم التاسع عشر من شهر يناير من عام ١٥٧٠.

كانت تلك البلدة ذات موقع منيع للغاية، حيث تقع أعلى هضبة مكونة على هيئة السفن الشراعية[٤]. وكان فى أعلى نقطة بها -فى اتجاه الجنوب الشرقى- مبانى قلعة قديمة محاطة بصخور شديدة الارتفاع، يستعاض بها عن الأسوار المهدمة. كان المدخل إلى القلعة عبر القرية ذاتها، التى تشغل سطح القمة كله بالإضافة إلى سفوح الهضبة، وتأخذ شكل دائم الانحدار إلى الأسفل فى اتجاه الشمال الغربى، وصولاً إلى أحد السهول الصغيرة. توجد كنيسة فى الجزء الخارجى من السهل -على النحو الذى

(٤) كلمة غاليرا فى الإسبانية معناها سفينة، وهذا الشرح يوضح سبب تسمية البلدة بهذا الاسم. (المراجع)

أشرنا إليه آنفًا- وكانت تضم برجًا جديدًا شديد الارتفاع يشرف على السهل بأكمله؛ وكان يجرى بها نهر ينحدر من بلدة أورثى، حتى ينضم مجراه إلى نهر غويسكار، وتصب مياهه فى الجزء الأسفل من غاليرا، ليعدل مساره فيما بعد ويقترب من السهل الذى تقع به الكنيسة، وشيئًا فشيئًا يجرى فى اتجاه بلدة كاستييخا.

لم تكن البلدة محاطة بالأسوار، بيد أنها كانت جد منيعة، نظرًا لمدى وعورة السفوح الموجودة بين الأودية والمنازل، وصعوبة ارتقائها. كما كانت المنازل متلاصقة، مما شكّل من جدرانها دفاعًا كافيًا للتصدى لأى هجوم عنيف، وحائلاً يمنع إمكانية قصفها على نحو مجد، لأن بعض المنازل كانت مشيدة أعلى منازل أخرى على امتداد السفوح، بحيث صارت أسقف المنازل الأولى تضاهى أساسات المنازل الثانية. وقد تم إرساء القواعد على صخور صلدة، وظل البناء يعلو حتى بلغ أكثر القمم ارتفاعا. لهذا السبب باتت أسطح البيوت تتسم بقدر كبير من عدم الانتظام، فلم يكن بالإمكان الصعود أو الانتقال من سطح إلى آخر من دون سلالم طويلة. كما أن المسلمين قد أقاموا العديد من الترميمات والدفاعات فى الشوارع، فلم يكن أيضًا بمقدور أحد السير فيها دون التعرض للخطر.

كان هناك شارعان رئيسيان صاعدان من بوابة القرية المشرفة على الكنيسة إلى القلعة. إضافةً إلى كونهما ضيقين للغاية، فقد أحكم المسلمون تحصينهما، بحيث وُضِعَت المتاريس على بعد خمسين خطوة من بعضها البعض؛ كما تم إقامة الكثير من الحواجز الوقائية عند أبواب وحوائط المنازل من كلا الجانبين، لكى يتسنى لهم إلحاق إصابات بمن يعبر الطريق دون أن ينالهم أذى. وحتى يتاح لهم إغاثة بعضهم بعضًا فى وقت الحاجة، فقد ثقبوها وأحدثوا فيها فتحات صغيرة -تتسع بالكاد لمرور شخص عبرها على يديه وقدميه. وهكذا فإنه على الرغم من عدم وجود أسوار، لم تكن المدينة أقل مناعةً -على ضوء ما أُقيم بها من تحصينات- مما كانت ستصبح عليه فى حال وجود أسوار شديدة الضخامة. لمّا لم تكن هناك آبار أو عيون ماء داخل البلدة، فقد حفر المسلمون نفقًا مغطى من المنازل السفلية حتى النهر، حيث كانوا يخرجون فى جميع الأوقات للتزود بالمياه، دون أن يقدر أحد على التصدى لهم.

كان لزامًا على السيد خوان دى أوستريا أن يضرب حصاراً على تلك البلدة المنيعة، التى كان بها ما يزيد على ثلاثة آلاف مسلم مقاتل، من بينهم عدد من الأتراك والمغاربة. قبل أن يقوم السيد خوان بصف جيشه، أراد أن يتفقدها بذاته، فاصطحب معه القائد العام لقوات قشتالة، والسيد لويس كيخادا، وسلاح الفرسان بأسره، وعدداً من الجنود البواسل من حملة البنادق، وطافوا حول البلدة عبر بعض الروابى التى تطل عليها من بعيد. فى أثناء وجودهم على إحدى القمم –التى يمكن كشف المحل منها بصورة أفضل– أدرك المجتمعون أنه من أجل فرض حصار محكم على البلدة، ينبغى تقسيم الرجال إلى ثلاث مجموعات، ونصب أسلحة المدفعية فى ثلاثة مواضع : واحدة باتجاه الجنوب عند منطقة القلعة، وأخرى باتجاه الشرق حيث يوجد أحد الموانع تخترق البلدة بميل، والثالثة باتجاه الشمال عند الكنيسة. أمر السيد خوان الجيش بأن يعسكر فى بقعة ترتفع قليلاً عن الموضع الذى كان يشغله جيش ماركيز بلش، حتى يتاح للرجال إغاثة تلك الثكنات على نحو أفضل، ولكى يضحى المعسكر أكثر ملائمةً للسكنى. أصبح الجيش تحميه إحدى الروابى الكائنة فى اتجاه الشرق بالقرب من النهر، وتؤمنه من نيران الأعداء. كما أصدر السيد خوان أوامره إلى القائد الميدانى السيد بدرو دى باديّا لكى يتمركز مع من بحوزته من وحدات الجيش الإسبانى فى المنطقة الشمالية أسفل الكنيسة؛ وهكذا باتت المدينة محاصرة من جميع الاتجاهات.

فى نفس ذلك اليوم توفى الأب بيربيسكا دى مونياتونيس فى غويسكار لمرض ألم به. وقد سادت الجيش مشاعر الأسى إثر وفاته، لأنه كان رجلاً مغواراً وراجح العقل. وكان قد قضى فترات طويلة خارج تلك الممالك فى خدمة الامبراطور المسيحى كارلوس، وأجاد فى تأدية المهام التى أوكلت إليه؛ كما كان متمرسًا للغاية وخبيراً فى شئون الحرب والحكم.

الفصل الثالث

يتناول كيفية نصب أسلحة المدفعية فى مواجهة بلدة غاليرا، وتنفيذ هجومين عليها: أحدهما على الكنيسة والآخر على البلدة.

كان الأعداء لا يزالون يسيطرون على الكنيسة وبرج الناقوس. ولمّا كانوا يلحقون أضرارًا بجبهة السيد بدرو دى باديّا عبر نيران بنادقهم، وكان من الملائم المبادرة إلى إخراجهم من هناك، فقد أمر السيد خوان دى أوستريا أن يسعى فرانثيسكو دى مولينا -الذى كان يشغل بالفعل منصب قائد المدفعية، بعد أن حل محله نائب مجلس بلدية أبدة السيد ألونسو بورثيل دى مولينا Alonso Porcel de Molina فى التوجه إلى كاستييخا- فى المقام الأول وقبل كل شىء إلى أن يجلب من غويسكار أسلحة المدفعية التى وردت إليها من قرطاجنة وكانت فى عهدة دييغو باثكيث دى أكونيا، وأن يقصف الكنيسة والبرج بنيران المدفعية. وقد أظهر القائد همة عالية فى تنفيذ ما أُمِرَ به، حتى أنه فى ليلة واحدة أنشأ خطًا من غويسكار إلى غاليرا، وأنشأ معبرين خشبيين على النهر استخدمتهما عربات النقل فى عبور النهر، علاوةً على منصة مغطاة ومزودة بالقفف المملوءة بالتراب والأغصان لحماية الجنود. وقبيل بزوغ الفجر بدأ القصف بمدفعين من الطراز الثقيل.

فى أعقاب إطلاق عدة قذائف، حدث ثقب مرتفع وليس بالكبير فى الحائط. فاجتمع مع السيد بدرو دى باديّا كل من ماركيز فابارا والسيد ألونسو دى لوثون Alonso de Luzón وآخرون غيرهم من الفرسان البواسل، وشنوا هجومًا على البلدة، واقتحموا المحل بعد قتل المسلمين الذين كانوا يدافعون عنه، وقد لحقت خسائر

بصفوف المسيحيين. دخلت كتيبتان من حملة البنادق إلى البرج، وحاصرتاه بحيث تمكن الجنود من خلاله من بلوغ المكان بمنأى عن نيران الأعداء. فيما بعد تم البدء فى تنفيذ خندق آخر فى المنطقة الجنوبية، بحيث ينزل إلى أسفل السفح، ويأخذ فى الالتفاف حتى يبلغ الوادى القريب من القلعة. وهناك أقيمت منصة أخرى، وتم نصب ست قطع مدفعية بغرض قصف المنازل الكائنة خلفه، والتى تقع فوق الطمى الذى يحيط به من الخارج. اعتنى السيد خوان دى أوستريا ذاته بتلك المهمة فى حرص بالغ، حيث كان جنديًا وقائدًا عامًا فى وقت واحد. كان من الضرورى الذهاب للبحث عن الحلفاء -التى تدخل فى إعداد الخنادق الترابية- فى ربى بعيدة بعض الشىء، نظرًا لأن الأعداء كانوا قد أحرقوا ما تواجد منها على مقربة من المكان؛ من أجل حض الجنود على القيام بذلك العمل، تقدم السيد خوان الجميع، وجلب حزمته وهو يحملها على كاهله -كشأن الجنود- حتى أودعها فى الخندق. علاوةً على تلك المنصة، فقد تم نصب منصة أخرى تضم عشر قطع مدفعية عند العائق الذى ذكرناه آنفًا -والذى يخترق البلدة بميل عند المنطقة الشرقية-، ليتم من خلاله قصف المنازل وبعض الأسوار الضخمة القديمة التابعة للقلعة، وتجريد الأعداء من دفاعاتهم، وذلك عن طريق هدم المبانى على رؤوسهم فى أثناء شن الهجوم باستخدام أسلحة المدفعية الأخرى. حيث لم يكن هناك مكان يهجمون منه، بسبب وجود واد بالغ العمق وشديد الوعورة فى المنتصف.

بينما الأمور تسير على تلك الوتيرة، لم يخل المشهد من وجود آراء متحمسة باتت تلح فى الطلب على السيد خوان حتى يأمر جبهة بدرو دى باديًا بشن هجوم. حيث قالوا إنه طالما أن أهالى غويسكار كانوا قد دخلوا عبر تلك المنطقة حتى وصلوا بالقرب من الساحة، فإن جنودنا سيقومون بالأمر ذاته؛ كما أن الظفر ببعض المنازل من الموريسكيين، وحملهم على التراجع إلى الأماكن المرتفعة، سيكون أمرًا على قدر كبير من الأهمية. وقد بدا وكأن ذلك النصح سديد إلى حد ما، استنادًا إلى ما كان يمكن رؤيته من الخارج، لأن كل المنازل الموجودة أمام الكنيسة كانت مشيدة من الحجر المدقوق، ولم يكن بمقدورنا مشاهدة أى دفاعات أخرى. بيد أنه إبان الولوج إلى

الداخل، ألفينا التحصينات مقامة على نسق يختلف للغاية عما بدا لنا، حيث لم تتمكن أسلحة المدفعية من أن تنالهم بأذى، ولم يتسن لرجالنا المضى قدمًا؛ بينما استطاعوا هم إحداث خسائر فادحة بين صفوف من يتوافدون عليهم، وذلك عن طريق إطلاق البنادق وإلقاء الحجارة من أماكن مرتفعة، وهم مؤمّنون بغطاء على الدوام.

تم تنفيذ ذلك الهجوم غير الموفق فى أعقاب إحداث المدفعية لبعض الفتحات فى الحوائط. حينما ألفى القادة والجنود العقبات المذكورة، إلى جانب إظهار الأعداء لمقاومة مستميتة، اضطروا إلى التراجع وقد لحقتهم خسائر، بعد أن ظلوا يقاتلون لفترة طويلة. وقد خلفوا وراءهم العديد من الرجال البارزين -ممن ألحوا على أن يكونوا فى الطليعة- محاصرين. كان من بين هؤلاء السيد خوان باتشيكو -أحد فرسان رهبانية القديس سانتياغو، الذى ينتمى إلى بلدة تالابيرا دى لا ريينا Talavera de la Reina- الذى كان الأعداء قد أسروه؛ وحينما شاهدوا شعار الرهبانية الذى كان يحمله على صدره، قاموا بتمزيقه إربًا إربًا فى غضب عارم. كان ذلك الفارس قد وصل إلى الجيش قبيل شن الهجوم بساعتين، ولم يكن قد قام بأى شىء سوى تقبيل يدى السيد خوان دى أوستريا فى الخندق؛ ليهبط بعد ذلك من أجل زيارة السيد بدرو باديًا -الذى كان قريبًا له، وأحد مواطنى بلدته. وعندما وجدهم يرغبون فى المبادرة بالهجوم، أراد أن يكون برفقته؛ وقد أمعن فى التقدم، مما جعله غير قادر على التراجع لمّا حان الوقت.

الفصل الرابع

يتناول الكيفية التي تم بها شن هجوم آخر على بلدة غاليرا، ووفاة العديد من الرجال البارزين.

لم يقم السيد خوان دى أوستريا بتغيير أى من الأمور فى أعقاب ذلك الحادث الأليم. بل إنه لدى رؤيته لضآلة التأثير الذى أحدثه قصف المدفعية فى المنازل، وأنه لم يسفر سوى عن ثقب الحوائط الترابية؛ كما أنه لم يهدم قدرًا كبيرًا من الأرض بما يتيح للمسيحيين الصعود إلى البلدة تحت غطائه؛ قرر حفر نفق على الجانب الأيمن من أسلحة المدفعية المتمركزة فى المنطقة العليا، لكى يدخل الجنود من أسفلها، ويبلغوا جزءًا من سور القلعة، حيث اعتقد السيد خوان أن الحطام الناجم عن نسف تلك المسافة بأكملها، سوف يشكل درعًا كافيًا يتيح للمشاة الصعود إلى الأعلى، والإطلال على الأعداء فى البلدة.

أوكِلَت تلك المهمة إلى السيد فرانثيسكو دى مولينا، الذى تولى حفر الخندق فى همة عالية. فى أعقاب الانتهاء من إعداد الأتون، وإيداع كميات من براميل الذخيرة بالداخل؛ بالإضافة إلى بعض أكياس ممتلئة بالقمح والملح، حتى تزيد من تأجج لهيب النيران؛ صدرت الأوامر إلى فرق المشاة فى العشرين من شهر يناير، لكى ينزلوا إلى الخنادق، ويظهروا رغبتهم فى المبادرة إلى الصعود إلى البلدة عبر فتحات صغيرة كانت المدفعية قد أحدثتها، وأيضًا عن طريق المنازل الكائنة خلف القلعة -والتى تقع أعلى النفق-؛ وذلك من أجل جذب الأعداء إلى تلك المنطقة، والتمكن من نسفهم. تحسبًا لوجوب إغاثة المشاة بالمزيد من القوات، تابع السيد خوان باهتمام ما يدور على جبهة الأعداء،

ومعه كتيبة قوامها أربعة آلاف من جنود المشاة. كان المسلمون غافلون تماماً عن تمكن جنودنا من إقامة نفق فى تلك الناحية، التى كان بها جبال ذات ارتفاع شاهق، حتى بدا وكأنه من المستحيل أن تقوى النيران على إزالتها. وحينما أبصروا دخول الرايات إلى الخنادق، واصطفاف باقى الجنود، أدركوا أن المسيحيين يرغبون دون شك فى شن هجوم عليهم عبر الثقوب التى أحدثتها المدفعية، فهبوا للدفاع عن البلدة، وتمركز ما يربوعلى سبعمائة من الرماة والجنود حملة البنادق فى المنازل التى تعلو النفق، وشرعوا فى إطلاق نيران بنادقهم على بعض الجنود الذين كانوا يسيرون بدون حماية.

عندما حان الوقت المناسب، أُطلِقَت الإشارة لكى يتم إشعال النار فى النفق، مما أحدث انفجاراً هائلاً، حتى أنه أدى إلى نسف الجبل والمنازل وقتل ما يربو على ستمائة من المسلمين. كما نجم عن الانفجار حطام ضخم للغاية من الأتربة والأحجار والأخشاب التى تم نسفها، حتى بدا وكأن الحاجز قد شكّل مدخلاً كبيراً ومتسعاً لإتاحة دخول أى عدد من الرجال إلى البلدة. فيما بعد تم إرسال الجنود المستكشفين، ليروا إذا ما كان يتعين إزاحة أى دفاعات قبل أن تقوم القوات بشن الهجوم؛ وهو ما كان سيمسى قراراً صائباً لولا رغبة الجنود المتحمسين الموجودين فى الخنادق أن يكونوا هم أنفسهم من يتولى تلك المهمة. وقد سادت فرحة غامرة لدى رؤية نفر من المسلمين يخرجون من بين الغبار، كما يجرى عند انهيار أحد المنازل القديمة؛ بيد أنه سرعان ما تعكر الصفو، لأن الجنود تجاهلوا الأوامر وبادروا بملاحقتهم، حيث شرعوا فى ارتقاء أنقاض النفق بدون نظام حتى بلغوا أسوار القلعة.

فى تلك الآونة أمر السيد خوان دى أوستريا بإعطاء إشارة بدء الهجوم، فبادر حملة الرايات إلى الانقضاض شاهرين الألوية فى أيديهم، واندلع قتال يقل فى الاحتدام عنه فى الخطورة. اجتهد رجالنا للدخول عبر فتحة صغيرة كان قصف المدفعية قد أحدثها فى سور القلعة، بسبب عدم عثورهم على مدخل فى أى ناحية أخرى؛ حيث أن النفق لم يكن قد امتد إلى الأمام بالقدر الضرورى، فلم يسفر الانفجار سوى عن نسف الصخور والمنازل الكائنة فى المنطقة الخارجية، فأضحى الأعداء أشد تحصيناً.

وكان المسلمون قد احتاطوا للأمر بدرجة بات لزامًا معها شن معركة من أجل الاستيلاء على كل منزل من المنازل نظراً لتلاصقها وتأمينها. عندئذ هب الأعداء للدفاع عن الثغرة، وألجأوا حملة الرايات والجنود إلى النزول إلى أسفل الحائط لدرء هجومهم. كانت الخسائر التى ألحقها بهم المسلمون عبر الحواجز الوقائية فادحة، وكذلك الأحجار الثقيلة التى ألقوها عليهم من أحد المتاريس المرتفعة التى وقف عندها مسلمو شمال إفريقيا، وكان من بينهم بعض المسلمات اللواتى قاتلن كالرجال، بعد أن زودهن النساء الأخريات والغلمان بقدر كاف من الحجارة، فكانوا يجلبونها لهن ويمررونها إلى أيديهن.

فى أعقاب توقف رجالنا على أثر الأضرار التى منيوا بها -على النحو الذى أسلفناه- بادر حاملو الرايات البواسل إلى التقدم، وتسلقوا أساسات السور واحداً تلو الآخر، لأنه لم يكن بمقدورهم القيام بأمر آخر، لكى يدلفوا عبر الثغرة. كان فى مقدمتهم السيد بدرو ثاباتا، الذى وضع رايته أعلى حائط الأعداء فى استبسال شديد، حتى أنه كان من الممكن أن نظفر بالبلدة فى تلك الليلة لو كان وضع الثغرة يسمح بأن يتبعه واحد أو اثنان من الآخرين. لكن لم يكن بمقدورهم إغاثته، فانقض عليه المسلمون، وأحدثوا به العديد من الجراح، وأسقطوه إلى الأسفل، وقد ظل دومًا ممسكًا بالراية بين ذراعيه، حتى أنه لم يتسن للمسلمين انتزاعها منه، على الرغم من أنهم جذبوها بشدة. ليقوموا بعد ذلك بسد الثغرة فى عجالة باستخدام الأخشاب والأتربة والأقمشة، ويحصّنوها على نحو لم يخول لنا بلوغها فيما بعد.

فى تلك الآونة كان السيد خوان دى أوستريا يرقب كل ما يدور، وقد تراءى له أنه من الممكن الدخول إلى البلدة عبر أسطح المنازل الكائنة بالمنطقة الشرقية. فأمر القادة التالين: السيد بدرو دى سوتومايور Pedro de Sotomayor، والسيد أنطونيو دى غورماث Antonio de Gormaz، وبيرناردينو دى كيسادا، أن يتوجهوا مع حملة البنادق التابعين لكتائبهم ويحاولوا الاضطلاع بذلك الأمر، والسعى لإسقاط المسلمين والمسلمات -الذين يلحقون الضرر بالمسيحيين بقذف الحجارة- من استحكامات القلعة. وقد قام هؤلاء -على الرغم من معرفتهم بمدى الخطر الذى يجابهونه- بتقديم الشكر له على

إنعامه عليهم ومنحهم تلك الميتة الكريمة، ثم تقدموا إلى الأمام، ولدى بلوغهم أسلحة المدفعية حاولوا القيام بما أمروا به، وحاولوا اقتحام البلدة من أنحاء متفرقة. بيد أن جهدهم كان دون جدوى، لأن الأعداء الذين كانوا بانتظارهم مختبئين وراء متاريسهم، أحدثوا بهم جروحًا بالغة بالبنادق والأقواس الفولاذية من خلف التحصينات الدفاعية، حيث قتلوا ما يربو على مائة وخمسين جنديًا، وأصابوا القادة أيضًا.

وهكذا أضحى رجالنا مع تلك العوائق مكشوفين لهجوم لأعداء، دون القدرة على إحداث تأثير آخر. وبعد أن دام الهجوم على مدار أكثر من ساعتين، قام السيد خوان دى أوستريا -لمّا رأى مدى المقاومة التى أظهرها الأعداء، وأنه ينبغى قصفهم بالمزيد من أسلحة المدفعية- بإصدار أوامره بالانسحاب، وقد انسحب الرجال فى وقت كان هو الأفضل لجنود وحدات الجيش الإسبانى التى يرأسها السيد بدرو دى باديّا، والتى كانت قد تعرضت للهجوم بغية اقتحام جبهتها. مات فى ذلك اليوم العديد من المسلمين، لكن الخسائر التى لحقت بالمسيحيين كانت أكبر، حيث قُتِلَ أربعمائة جندى، وجُرِحَ ما يزيد على خمسمائة فرد، كان من بينهم الكثير من الرجال البارزين، كانوا يتصفون بالإقدام كشأن النبلاء الذين يسعون لنيل الشرف، فأعملوا القتل والجرح فى الأعداء - بوصفهم رجالاً أفشلوا مقصدهم- قبل أن تتاح لهم الفرصة لإظهار بسالتهم.

قُتِلَ القادة: مارتين دى لوريتى، وخوان دى ماكيدا Juan de Maqueda، وبالتاسار دى أراندا، وألونسو بيلتران دى لا بينيا، والأخوان كارلوس دى أنتيّون، وفادريكى دى أنتيّون Fadrique de Antillón، وبدرو ميريث Pedro Mirez -حامل لواء السيد أنطونيو دى غورماث-، وآخرون. كما جُرِحَ كل من: السيد خوان دى كاستيّا Juan de Castilla جراء عيار نارى أصاب ذراعه، والسيد أنطونيو دى غورماث -أحد أهالى جيّان- على أثر الأحجار الكثيرة التى ألقيت عليه، والقائد أباركا Abarca الذى أصيب بطلق نارى فى الوجه؛ وقد ماتوا فى غضون أيام قلائل متأثرين بجراحهم. وكذلك فقد جُرِحَ كل من: السيد بدرو دى باديّا، وحامل لوائه بوكانيغرا Bocanegra، وماركيز فابارا، والسيد لويس إنريكيث Luis Enríquez -ابن أخ القائد الأعلى لقشتالة-، وباغان دى أوريا،

والسيد لويس دى أيالا Luis de Ayala؛ علاوةً على القادة: السيد ألونسو دى لوثون، وخوان دى غالارثا Juan de Galarza، ولاثارو دى إيريديا، والسيد أنطونيو دى بيرالتا Antonio de Peralta، وحامل رايته وقائد جنوده السيد بدرو دى سوتومايور، والسيد دييغو ديلغاديّو Diego Delgadillo –حامل لوائه–، وبيرناردينو دى كيسادا، ودييغو باثكيث دى أكونيا، وولده السيد لويس دى أكونيا Luis de Acuña، وبيرناردينو دوارتى Bernardino Duarte، وبيرناردينو دى بيّالتا، وشقيقه ميلتشور دى بيّالتا Melchor de Villalta، وفرانثيسكو دى سالانتى، وحامل رايته بورتييو Portillo، وألونسو دى ألبارادو Alonso de Alvarado –حامل راية السيد ألونسو دى بارغاس Alonso de Vargas–، وبيلاسكو Velasco –يتناول الكيفية التى تم بها شن هجوم آخر على بلدة غاليرا، ووفاة العديد من الرجال البارزين. حامل راية السيد خوان دى أبيلا ثيمبرون Juan de Ávila Zimbrón–، والكثيرون غيرهم ممن لن نفرد لهم ذكرًا فى هذا الموضع لتفادى الإسهاب.

الفصل الخامس

كيف أمر السيد خوان دى أوستريا بحفر نفقين آخرين فى غاليرا، وكيف فتحها بقوة السلاح.

لم يتوقف الألم الذى استشعره السيد خوان دى أوستريا عند حد الأنين والعبرات، لكنه أمر أولاً فى غمار غضبه العارم -المشوب بتقواه العادلة والمقدسة- بدفن القتلى وحمل الجرحى لمعالجتهم. ثم أصدر أوامره بحشد أعضاء المجلس، وقال لهم العبارات التالية: " لقد أرشدتنا الأحزان التى كابدناها اليوم إلى العلاج الأكيد. أنا سأقضى على غاليرا، وسأسويها بالأرض، وأبذرها كلها بالملح. وسأعمل حد السيف الماضى على كل من بداخلها -صغاراً وكباراً- عقاباً لهم على وقاحتهم، وثأراً للدماء التى أراقوها. بادروا بإخطار المهندسين وقائد سلاح المدفعية ألا يهدأ حتى يكون قد حفر نفقين أخرين، على أن يمضيا لمسافة بعيدة أسفل القلعة، حتى ينسفا الحصن الذى لحقت بنا الخسائر عنده، على نحو يفتح السبيل أمام مشاتنا للدخول من تلك الناحية، وما من شك أنه لن يحول بينهم وبين ذلك أى مقاومة. وإذا ما تعجلنا الأمر على النحو الذى ينبغى، فإنى أمل من الرب أن يتزامن نبأ الانتصار مع نفس توقيت نبأ الحادث الأليم، ويصلا معًا إلى مسامع مولاى جلالة الملك".

وما أن تلفظ الشاب الجرىء بتلك الكلمات حتى قوبل رأيه باستحسان الجميع وإطرانهم الشديد. كما أنه ألهب حماسة الجيش وهمته إلى حد بعيد، حتى أن القادة والجنود ازدروا المخاطر، ولم يعودوا يتمنون سوى الرجوع إلى الاقتتال بالأسلحة مع الأعداء، من أجل أن ينتقموا بأيديهم لبنى جلدتهم على الوجه الأكمل. بينما كان رجالنا

يعملون فى الأنفاق، لم يتوان المسلمون المحاصرون عن الاعتناء بأعمال الإصلاح وكل ما ظنوا أن الحاجة تقتضيه من أجل الذود عن أنفسهم، لكنهم كانوا يعانون عجزًا فى الذخيرة -وهو ما شكل أمرًا أساسيًا- لأنهم استنفذوها فى أثناء الغارات التى كانوا قد شنوها؛ كما أنهم فقدوا الجزء الأغلب من المحاربين. لكن رغمًا عن ذلك فقد كانوا يحسبون أن بمقدورهم الدفاع عن أنفسهم، لثقتهم فى الوعد الزائف الذى كان المالح قد أعطاهم إياه حول مجىء المسلمين لنجدتهم بكل ما أوتوا من قوة.

خرج مائتان من المسلمين فى إحدى الليالى للحيلولة دون العمل فى أحد النفقين. وقد تصادف وجود القائد فرتثيسكو دى مولينا، برفقة حامل الراية رينكون Rincón وسرية مكونة من عشرين جنديًا، وقد تعين على الجميع الاشتباك بالأيدى، لأن المسلمين وصلوا إلى فتحة النفق فى عزيمة ماضية، وجرحوا بعض رجالنا. لكن عندما تم إطلاق النفير، تراجعوا بعد أن منيوا بخسائر، ولم يجسروا على الخروج بعد ذلك؛ كما أنهم لم يحفروا لغمًا مضادًا، لأنهم اعتقدوا أنه من المستحيل أن يقدر البارود على نسف جبل بالغ الضخامة وشاهق الارتفاع، كذلك الذى شيدت عليه القلعة، وحسبوا أن النفق الملغم سينفجر عند المناطق الأكثر ضعفًا قبل أن يبلغها. كان هذا هو ما أخبرنا به لاحقًا بعض المسلمين، بيد أن الأمر المحقق هو أنهم لم يجسروا على حفر اللغم المضاد، لأنه كان يستلزم الحفر على عمق يزيد على مائتين وثمانين قدم، من أجل بلوغ النفق وإعاقته. وعلى أية حال فإنهم لم يولوا هذا الشأن عنايتهم، نظرًا لبذلهم جهودًا مضنية فى الدفاعات الأخرى.

عندما باتت الأنقاض جاهزة ويمكن تفجيرها، أمر السيد خوان دى أوستريا سلاح المدفعية أن يقصف سائر الدفاعات من الجهات الأربعة. تولى السيد لويس دى أيالا قصف المنطقة الجنوبية، والمنازل، وما يمكن كشفه من أسوار القلعة بأربعة مدافع. بينما قام القائدان بيرناردينو دى بيّالتا وألونسو دى بينابيديس باستخدام أربعة مدافع لاستهداف القلعة، وكذا المنازل التى يتم اكتشافها من ربوة بارزة بعض الشىء تقع فى المنطقة الغربية. أما السيد دييغو دى ليبيا، فقد قام بضرب المنازل والتحصينات

المنخفضة من ثكنة السيد بدرو دى باديّا الكائنة باتجاه الشمال، وذلك بواسطة مدفعين. كما استخدم السيد فرانثيسكو دى مولينا عشرة من قطع المدفعية من أجل القصف ناحية القلعة، وبعض الأسوار الضخمة القديمة التابعة لبرج القسم -الذى كان الأعداء قد أودعوا به رأس القائد ليون دى رويليس، وهو أحد أهالى بسطة الذين قتلوا هناك فى أثناء وجود ماركيز بلش- وسائر منازل البلدة التى تقع على سفح الجبل من الجهة الشرقية.

فى تلك الأيام كان أحد الفتية الموريسكيين قد فر هاربًا من غاليرا. وقد أطلع السيد خوان دى أوستريا بشكل دقيق للغاية على الحالة التى وصلت إليها شئون المسلمين، وأحاطه الفتى علمًا بما أقاموه من تحصينات، وأكدّ للسيد خوان أن اللغم السابق قد أودى بحياة ما يربو على سبعمائة مسلم من الرماة والقوّاسين. عندها أدرك السيد خوان أن المسلمين سيتحصنون فى المنطقة التى يمكن للغمين الجديدين نسفها، فأصدر أوامره فى العاشر من فبراير إلى كل جنود المشاة لكى ينزلوا إلى الخنادق، وإلى سلاح الفرسان لكى يحاصروا البلدة -تحسبًا لمبادرة الأعداء بالخروج منها. حينما بات الجميع متأهبين وشاهرين الأسلحة فى أيديهم، قام المسؤولون عن الأنفاق بإشعال النار فى اللغم الأول -الذى كان بجوار النفق القديم-، فأحدث انفجارًا ضخمًا تم على أثره نسف الجبل والمنازل وكل ما كان يعلوه. بيد أنه لم يصل إلى القلعة ولم يلحق أضرارًا بالمسلمين، الذين تعلّموا درسًا لا ينسى من الواقعة الفائتة، وكانوا قد تراجعوا إلى المنطقة الداخلية -فى إحدى الساحات الصغيرة الموجودة بالجوار- بعد أن خلفوا وراءهم ثلاثة رجال ليتولوا مهام المراقبة من الأعلى بينما هم نائمون على بطونهم -لأنه لم يكن ليسعهم التواجد على أى نحو آخر-؛ وكانت الأوامر قد صدرت إليهم لكى يقوموا بتحذير من بالداخل بمجرد رؤيتهم لصعود رجالنا، حتى يتاح لهم وقت للتحصن.

فى أعقاب انفجار اللغم الأول لم تكف المدفعية عن إطلاق أسلحتها. وبعد برهة من الزمن انفجر اللغم الآخر -الذى كان باتجاه الغرب-، وقد أحدث دمارًا هائلاً، حتى أن

الأعداء الخـــائفين من ذلك الزلزال الرهـــيب، الذى ارتجـفت له الأرض وأحدث هـــزة فى الرابية بأكملها، لم يصعدوا لتفقد القلعة، ربما لاعتقادهم أنه ما زال هناك المزيد من الألغام على وشك الانفجار؛ كما أن جنود المراقبة لم يجرؤوا على المكوث بالأعلى، لأن طلقات الأعيرة النارية كانت تنهال عليهم من شتى الأرجاء، حتى أنه لم يعد هناك مأوى يمكنهم اللجوء إليه. عندئذ أرسل السيد خوان دى أوستريا ثلاثة رجال لكى يستطلعوا إذا ما كان اللغمان قد فتحا مدخلاً كافياً لشن الهجوم، وإذا كانت لا تزال هناك عوائق تحول دون تنفيذه. وصل أحد هؤلاء الرجال إلى سور القلعة ذاته، حيث كان الأعداء قد وضعوا فى الجزء الغربى منه راية كبيرة ملونة، فانتزعها، وهبط حاملاً إياها فى يده وصولاً إلى الخندق، دون أن يعترض طريقه أحد. إزاء مشاهدة الجنود للقائد لاسارتى Lasarte -وكان هذا هو اسم من جلب الراية إلى الخندق- يصعد إلى الأعلى ويستولى عليها دون مقاومة، تراءى لهم أنه ما من داع لإضاعة الوقت، وغادروا الخندق من دون انتظار إشارة أخرى. وقد أخذوا يرتقون الربوة ما بين المدافع، حتى أنهم احتلوا أعلى القلعة قبل أن يكون الأعداء قد تهيأوا للدفاع عنها. ولمّا كانوا يطلون عليهم من عل، فقد شرعوا فى الاستيلاء على الشوارع والمنازل منهم، وهم يقفزون ما بين أسطح المنازل عبر الممرات ذاتها التى سلكها المسلمون للتراجع.

كان الهجوم الذى شنه السيد بدرو دى باديا مع وحدات الجيش الإسبانى التابعة له فى الوقت ذاته على المنطقة السفلية قد ساعد كثيراً على إلهاء المسلمين والتثبيط من عزيمتهم. حيث مر القائد بطول البلدة عبر السفح الغربى، ثم اقتحمها بحماس من خلال الثغرات التى كان قصف المدفعية قد أحدثها فى حوائط المنازل. وهكذا فإن المسلمين المحاصرين، والمهاجمين من العديد من الجبهات، والذين أفقدتهم سحابة الخوف رشدهم، وقعوا فريسة لأسلحة رجالنا فى أثناء فرارهم منها؛ وفى غمار خشيتهم من أن تنال منهم، كانوا هم من ألقوا بأنفسهم فى التهلكة. كانت هناك ساحة صغيرة بجوار البوابة الرئيسية، حيث شرع المسلمون فى التجمع، فصارت هى المحل الذى شهد مصرع الجزء الغالب منهم.

كانت قطع المدفعية العشرة التى قصف بها فرانثيسكو دى مولينا البلدة ذات تأثير بالغ، حيث اقتحمت جموع الرجال البلدة من تلك الجبهة. ولمّا كانت الأسلحة تكشف الأسطح، فإنها لم تسمح لمسلم بالوقوف عليها؛ كما أن الجنود استخدموا السلالم ذاتها، التى كان الأعداء قد جهزوها للتنقل بين الأسطح، لارتقاء المنازل واستخلاصها من قبضة الأعداء. وقد قام الجنود بخرق أسقف المنازل بالأخشاب الضخمة، وبادروا بإطلاق نيران البنادق عليهم وحملوهم على هجرها. وقد باتوا يبسطون سيطرتهم على البلدة شبراً شبراً، حتى أحدقوا بما يربو على ألفى مسلم وحاصروهم فى تلك الساحة الصغيرة التى أشرنا إليها آنفًا. احتشد بعض منهم فى أحد المنازل رغبةً فى التراجع عن موقفهم، لكنهم ماتوا جميعًا، لأنه على الرغم من استسلامهم فإن السيد خوان دى أوستريا لم يرغب فى الإبقاء على حياة أحد. وقد امتلأت كافة الشوارع والمنازل والميادين عن آخرها بجثث المسلمين القتلى، حتى أنه فى ذلك اليوم لقى ما يزيد عن ألفين وأربعمائة محارب مصرعهم بحد السيف.

بينما كانت المعركة دائرة داخل البلدة، كان السيد خوان دى أوستريا يحيط بها من الخارج برفقة سلاح الفرسان. حينما خرج بعض الجنود –بعدما خلفوا رفاقهم يقاتلون فى الميدان– للاستئثار بالمسلمات اللواتى تم أسرهن، أصدر السيد خوان أوامره إلى حملة الدروع لكى يجهزوا عليهن، فقتلوا ما يزيد على أربعمائة امرأة وطفل. وما كانوا ليتوقفوا حتى القضاء عليهم تماماً، لو لم تحرك السيد خوان شكاوى الجنود الذين كان يتم حرمانهم من مكافأة النصر؛ لكن ذلك حدث حينما أدرك القائد أن البلدة قد صارت فى قبضتنا بالفعل. كما أنه لم يرغب فى الصفح عن أى غلام يتجاوز عمره اثنى عشر عامًا، حيث ظل غضبه يتنامى بشدة عندما أخذ يفكر فى الضرر الذى أحدثه أولئك المارقون، دون أن يودوا قط أن يتذللوا ويطلبوا الاستسلام. وهكذا أمر جنود الحراسة خاصته، المزودين بالرماح ذات رأس البلطة، بقتل الكثيرين منهم فى حضوره. كان من تبقى على قيد الحياة من النساء والأطفال أربعة آلاف وخمسمائة، وكانوا ينتمون إلى غاليرا، وكذلك بلدتى أورثى وكاستييخا، بالإضافة إلى بقاع أخرى. وقد تم العثور على كميات ضخمة من القمح والشعير تكفى لعام كامل، كما غنم القادة والجنود فيئًا ثمينًا من الحرير والذهب واللؤلؤ وأشياء أخرى قيمة خصصوها لأنفسهم.

فى أعقاب ذلك بعث السيد خوان دى أوستريا بكتاب يحمل الخبر الثانى الذى يحمل نبأ الانتصار، ولم تكن السعادة التى تم استقباله بها فى البلاط تقل عن الوقع السيئ الذى أحدثه الخبر الأول حينما بلغ مسامعهم. بلغت الأنباء جلالة الملك فى أثناء وجوده عند عذراء غوادالوبى Nuestra Señora de Guadalupe، وذلك فى طريقه إلى مدينة قرطبة، حيث كان قد أمر باستدعاء مجالس النواب لرغبة جلالته فى مشاهدة قرى أندلوثيا؛ وهو ما لم يكن قد تسنى لجلالته القيام به منذ أن عهد إليه والده الإمبراطور المسيحى الورع بمقاليد الملك، نظراً لكثرة وجسامة المشاغل التى كان يتولاها. بيد أنه لم يتم إقامة احتفالات أو غيرها من مظاهر التعبير عن الفرح، حيث تم الاكتفاء بتقديم الشكر إلى الرب والقديسة مريم العذراء، الذين أعزى إليهما جلالة الملك ذلك الانتصار، لأن جلالته كان ممن يهدفون إلى تحقيق المجد عبر إرساء السلام والوفاق أكثر من نيله عن طريق الحروب الدامية. وقد أمرنى السيد خوان دى أوستريا بأن أتولى تجميع القمح والشعير الذى كان فى حوزة المسلمين هناك، وأن يتم تسوية البلدة بالأرض، وبذرها بالملح. ثم انطلق مع الجيش بأكمله نحو نهر المنصورة.

الفصل السادس

يتناول ذهاب السيد خوان دى أوستريا إلى بسطة، وإرساله من يقوم بتفقد سيرون.

فى أعقاب إصدار السيد خوان دى أوستريا الأوامر بتسوية سائر منازل غاليرا بالأرض وبذرها بالملح، انطلق من ذلك الموضع مع جميع المحاربين قاصداً كويّار. لكن عندما شرعت الطليعة فى التقدم، أدرك أن عربات نقل أسلحة المدفعية والأمتعة لن يمكنها أن تسلك ذلك الطريق. ففى الليلة الفائتة كانت السماء قد أمطرت بغزارة وسقطت ثلوج كثيفة، مما حوّل الأرض إلى مستنقعات وبرك موحلة، وكانت هناك مساحات شاسعة مكسوة بالوحل، لذا بات لزامًا حمل الخيام وكل المركبات التابعة للجيش إلى غويسكار. وقد عهد السيد خوان إلىّ بتلك المهمة[٥]، واستكمل مسيرته برفقة المشاة والفرسان فحسب، آمراً إياى أن أبعث بالقمح والشعير بالقدر الذى يكفى لتلك الليلة فقط. على أن أقوم فى صباح اليوم التالى بتجميع العربات والأمتعة، وتحميلها بجميع المؤن والأسلحة والذخائر التى كانت موجودة هناك، وأن أنقلها إلى مدينة بسطة حيث سيوجد هو.

قضى السيد خوان تلك الليلة فى كويّار، وقد بعثت إليه هناك بكمية من القمح والشعير. عندما بلغت المركبات المدينة فى اليوم التالى، اجتمع الجيش بأكمله، وتم إصدار الأوامر بالتوجه إلى نهر المنصورة. كان أول ما حدث هو توجيه السيد خوان

(٥) فى هذا الجزء الأخير يتحدث مارمول كثيراً عن دوره فى الحرب. (المراجع)

الأمر إلى كل من: السيد غارثيا مانريكى، والسيد أنطونيو إنريكيث، والسيد تيّو غونثاليث دى أغيلار، لكى يتوجهوا إلى سيرون -وكانت أول النقاط التى يتعين محاربتها- على أن يصحبوا مائة وستين رمّاحًا وخمسين من حملة البنادق من كتيبة الفرسان التابعة للسيد ألونسو بورتوكاريّرو، علاوةً على السيدين خوردان دى بالديس Jordan de Valdés وغارثيا دى أرثى García de Arce. وقد كلفوا باستطلاع تضاريس الأرض، وموقع تلك البلدة، والمكان الذى يمكن للجيش أن يعسكر به على نحو جيد. فرغمًا عن أنه قد تم من قبل إرسال من يستكشف المكان من غاليرا، فإن من تولى تلك المهمة لم يتمكن من تنفيذها، لأن أعدادًا كبيرة من المسلمين كانت قد هبت للحيلولة دون ذلك.

وصل أولئك القادة من بسطة إلى كانييس مع حلول الليل. وقد سلكوا طريق العودة إلى سيرون فى الساعة التاسعة مساءً، بعد تقديم الشعير إلى الخيول. بيد أن الظلام كان حالكًا، حتى أن الدليل الذى كان يرافقهم ضل الطريق. حينما أدرك الرجل أنه يتيه فى الأرض، عالج ذلك الأمر بالإفلات من الرجال والفرار عبر التلال. حدث آنذاك أن ابتعد السيد غارثيا دى مانريكى عن الركب لكى يشرب من إحدى برك المياه الكائنة إلى جوار الطريق، ولم يصطحب سوى اثنين من الفرسان. عندما لم يستطع الفارسان الرجوع إلى القائد لاحقًا، اتفقا على رفع أصواتهما لكى يجيبهما الباقون ويتسنى لهما تقدير مكانهما؛ وقد كان هذا هو السبب الذى أدى إلى أن يستشعر المسلمون وجودهم، وفقًا لما عُرِفَ فيما بعد حينما ألفى السيد غارثيا نفسه من دون دليل ومحاطًا بالظلمة الحالكة، قرر أن يوقف مسيرته حتى بزوغ الفجر، وذلك عند أحد التلال الكائنة على الطريق قبل الوصول إلى العين الدافئة؛ حينما طلع ضوء النهار، استأنف سيره بعد أن أرسل الكشافين فى المقدمة. لمّا لم يظهر أى من المسلمين طوال الطريق بأكمله، أدرك الجمع أنهم قد غادروا سيرون. بالغ الكشافون فى التقدم حتى وصلوا على مقربة من البلدة، وكانوا دائمًا ما يسلكون الطريق الذى ينحدر إلى النهر.

كان الأعداء قد أقاموا سياجًا من الخوازيق عند مدخل البلدة الذى يتم الصعود من خلاله إلى نهر سيرون، وأعدّوا فخًا فى ذلك الموضع؛ حيث تركوا اثنتى عشرة بقرة وستة أمتعة عند النهر، لكى ينشغل المسيحيون بالاستيلاء عليها فيهجمون عليهم. لكن تم اكتشاف وجودهم فيما بعد، لأنه لدى بلوغ الكشافين الماشية خرج المسلمون من مكمنهم، وحملوهم على التراجع أعلى طريق النهر وصولاً إلى باقى الرجال. كان أولئك الجنود هم اثنا عشر من حملة الدروع التابعين لكتيبة تيّو دى أغيلار، وقد نقلوا إلى السيد غارثيا مانريكى كيف أنه يوجد وراء ذلك الحاجز من الخوازيق عدد كبير من الأعداء. لم يرغب القائد فى المضى قدمًا أو الرجوع من المنطقة التى دخل منها، ظنًا منه أنه لابد وأن تكون هناك كمائن أخرى بخلاف ما تم اكتشافه؛ فسلك الجنود إحدى السبل التى كان السيد أنطونيو إنريكيث على دراية بها، وعادوا باتجاه كانييس عبر سفح الجبل، بعد أن شغل مؤخرة الركب كل من حملة البنادق من الفرسان التابعين للسيد ألونسو بورتوكاريّرو وحملة الدروع التابعين لإيثيخا.

لدى مشاهدة المسلمين تراجع رجالنا، وثبوا إلى الخارج وهم يطلقون صيحات حرب مدوية، ليتركوا تلك الأودية ويشرعوا فى ملاحقة رجالنا حتى تركوا الجبل. وعلى الرغم من أنه كان لديهم ثمانون فارسًا، فإنهم لم يجسروا على الانفصال عن حملة البنادق، خشية أن يدور فرساننا على أعقابهم ويغيروا عليهم؛ وقد أراد الفرسان القيام بذلك الأمر أكثر من مرة، بيد أن القادة لم يوافقوا على ذلك. كان ذلك التراجع عبر سبيل مخالف لذلك الذى كان جنودنا قد دخلوا منه يحمل قدرًا كبيرًا من الأهمية؛ فلو سلك الرجال الطريق الواضح، كان سيبيت لزامًا عليهم اللجوء إلى الاشتباك بالأيدى، لأن ما يربو على ألفى مسلم كانوا قد قطعوا عليهم ذلك المعبر؛ وهو ما فطننا منه إلى أنهم أحسوا بالجنود فى تلك الليلة التى ابتعد فيها السيد غارثيا مانريكى عن الركب.

كان أحد حملة الدروع التابعين لكتيبة تيّو دى أغيلار يدعى ليبا Leiva قد توجه فى ذلك اليوم لاستدعاء بعض رفاقه، الذين كانوا يتولون مهمة المراقبة من أعلى إحدى الروابى. أبصر الرجل على أحد السفوح عشرة أو اثنى عشر فارسًا يرتدون ثيابًا ملونة،

فاعتقد أنهم حملة دروع ينتمون لكتيبته، لأنهم كانوا جميعًا يحملون ذلك الشعار؛ فذهب إليهم وقال لهم: "تراجعوا أيها الرفاق، هناك كمين منصوب لنا!". قام الرجال بإحاطته، وجعلوه فى المنتصف؛ ثم ألقوا القبض عليه، وحملوه إلى سيرون، لأنهم كانوا من الأتراك ومسلمى شمال إفريقيا، وما كانوا يرغبون فى قتله. كان السيد غارثيا مانريكى قد تراجع دون الاضطلاع بمهمة استكشاف البلدة، وقد رجع إلى موضع كانييس مع غروب الشمس، ليجد السيد خوان دى أوستريا هناك منتظرًا إياه مع باقى الجيش من أجل التوجه لمحاصرة سيرون. فلمّا علم أنه تخلى عن أداء تلك المأمورية نظرًا لقلة من كان معه من الرجال، صدر قرار فى المجلس بأن يتوجه عدد أكبر من الفرسان والمشاة لتولى ذلك الأمر.

الفصل السابع

يتناول ذهاب السيد خوان دى أوستريا لتفقد سيرون، وانتصار المسلمين عليه، ووفاة لويس كيخادا.

فى ذات الليلة التى عاد فيها السيد غارثيا مانريكى إلى كانييس، تم اتخاذ قرار بتوجه ألفين من حملة البنادق المنتقين ومائتى فارس لتفقد سيرون؛ لأن إدراك التدابير التى قام بها المسلمون بات أمرًا ضروريًا للغاية من أجل محاصرة المدينة على نحو يحول دون وصول الإمدادات إليها، ويتيح للجبهات أن تتمكن من إغاثة بعضها البعض حينما تقتضى الضرورة. كان كل من حلّوا بتلك البلدة قد أقروا بالصعوبة البالغة لذلك الأمر، قائلين إنها أراضى شديدة الوعورة، وإنه لا يمكن محاصرتها بسهولة نظرًا لعدم توفر المياه فى بعض الأنحاء. أراد السيد خوان دى أوستريا مرافقة أولئك الرجال بذاته، فانطلق من بلدة كانييس فى الساعة التاسعة من مساء تلك الليلة بصحبة كل من: القائد العام لقوات قشتالة، ولويس كيخادا، وفرسان ونبلاء آخرون من عائلته.

رافقت السيد خوان دى أوستريا ثلاثة من كتائب الفرسان: إحداها تتبع دوق ميدينا سيدونيا Medina-Sedonia وكان يترأسها فرانثيسكو دى مندوثا -أحد أهالى جبل طارق-؛ والثانية تابعة لمدينة شريش الفرنتيرة، وكان يقودها السيد لويس دى أبيلا، نظرًا للوعكة التى ألمت بأخيه السيد مارتين دى أبيلا، وكان قائدًا لها؛ والثالثة خاصة بالبقاع التى تدخل فى نطاق كاثورلا، وكان يقودها إيرناندو دى كيسادا. كما صاحب فرق المشاة كل من: القائد الميدانى السيد لوبى دى فيغيروا Lope de Figueroa، والسيد ميغيل دى مونكادا، وخوان دى إسبوتشى Juan de Espuche، وغيرهم من

القادة والنبلاء من ذوى الشأن. سار الركب طوال تلك الليلة دون توقف، وحينما لاح الفجر قامت فرق المشاة بنصب كمين عند بعض الوهاد الموجودة بسفح الجبل ذاته قبيل بلوغ سيرون. تقدم السيد غارثيا مانريكى إلى الأمام، ومعه مائة رمّاح من كتيبة دوق ميدينا سيدونيا، فصدرت إليه الأوامر بأن يسارع بالدخول إلى المنطقة الكائنة أسفل النهر، متظاهراً أمام الأعداء بقدومه من أجل تفقد البلدة؛ وهكذا فى حال نصب المسلمين لأحد الكمائن، فسوف يخرجون إليه. مضى القائد على النحو المتفق عليه إلى أن بلغ سياج الخوازيق -الذى أتينا على ذكره آنفًا-؛ وإزاء عدم خروج أحد لملاقاته، رجع إلى حيث ترك باقى القوات.

حينما رأى السيد خوان دى أوستريا أن المسلمين لم يخرجوا كما حدث فى المرة الفائتة، أصدر أمراً إلى السيد فرانثيسكو دى مندوثا لكى يتوجه إلى أسفل النهر بصحبة المائة رماح الذين كانوا رافقوه من قبل، بالإضافة إلى المزيد من الفرسان، وأن يتمركز فى الجهة الأخرى من سيرون عند الممر الذى يمكن أن يأتى عبره المسلمون من تيخولا وبورتشينا. ثم قسّم السيد خوان قوات المشاة إلى فرقتين، وعهد بإحداهما إلى السيد لويس كيخادا، لكى يسلك السفح الكائن على الجهة اليمنى من النهر، ويصطحب معه خوان دى إسبوتشى؛ بينما أوكل الفرقة الأخرى إلى القائد العام لقوات قشتالة، لكى يذهب لاحتلال الضفة الأخرى من النهر التى تقع على اليسار، على أن يصحبه لوبى دى فيغيروا. كما أمر سلاح الفرسان أن يسلكوا مجرى النهر مع حامل البيرق الذى يتبعه، وقد مكث هو بصحبة جنود الحراسة الخاصة به من حملة الرماح ذات رأس البلطة، ونفر من النبلاء، وسرية تضم مائة من الجنود، أعلى إحدى الروابى التى تكشف تلك المنطقة بأسرها؛ لأن القائد العام لقوات قشتالة ولويس كيخادا لم يوافقا على تقدمه إلى الأمام، إلى أن يتم التأكد من خلو النهر بأكمله من الكمائن، وإمكانية وصوله على مقربة من البلدة دون تعريض نفسه للخطر.

باشرت جميع القوات السير على ذلك النهج، وبدأ المسلمون فى إرسال الإشارات الدخانية، فهبت لنجدتهم أعداد غفيرة من شتى الأرجاء. وهكذا تمركز أهالى سيرون مع من حضروا من سائر البقاع الأخرى على المنحدرات، وشرعوا فى إمطار الفرسان

الذين يسلكون مجرى النهر بنيران بنادقهم. لذا فقد أمر السيد خوان دى أوستريا حامل بيرقه أن يصعد إلى حيث هو، لأن من برفقته كانوا يمنون بخسائر فادحة بين صفوفهم، حيث كانوا هدفًا لرماة المسلمين. تقدم تيّو غونثاليث دى أغيلار إلى الأمام -وكان قد خرج إلى تلك الحملة برفقة أربعة من حملة الجنود التابعين لكتيبته فقط ليكون على مقربة من السيد خوان دى أوستريا- وتوجه مع اللواء وفرسان آخرين وبعض النبلاء لينضم إلى كتيبة لويس كيخادا، التى كانت تسير رويدًا رويدًا بحثًا عن مكان مناسب تستطيع من خلاله الهجوم على المسلمين، الذين كانوا يحتلون قمم تلك الروابى. وعندما بلغ القائد كيخادا موضع أحد أبراج المراقبة القديمة، التى تقع على رابية مواجهة للبلدة، قبل بلوغ الطريق الذى يصعد من النهر، قسّم الرجال إلى فريقين. تولى تيّو غونثاليث دى أغيلار قيادة أحدهما من أجل الصعود مباشرةً إلى البرج، بينما قاد هو الفريق الثانى ليصعد به عبر موقع قريب من الطريق المفضى إلى سيرون.

شرع الجنود فى الصعود فى استبسال والاشتباك مع الأعداء، حتى حملوهم على التراجع صوب البلدة ذاتها؛ كما أنهم لم يجسروا كذلك على المكوث بها، وهجروها ليرتقوا جبلاً مرتفعًا كان يعلو المنازل. فى أعقاب ذلك ركضت الموريسكيات للاحتماء بالقلعة، التى كان بها عدد كبير من المسلمين الذين لم يكفوا عن إرسال الإشارات الدخانية لطلب النجدة. فى تلك الآونة وصلت الفرقة التى يصحبها السيد لوبى دى فيغيروا، حيث اقتحم الجنود المنازل وبدأوا فى الانفصال عن الركب؛ كما سار بعضهم فى الشوارع حتى بلغوا أبواب القلعة، وقاموا بأسر الكثير من الموريسكيات اللواتى كن يتهيأن للدخول إليها؛ وكذلك فإن العديد من الجنود الجشعين -الذين يعبأون بالربح أكثر من كرامة الأمة- اختبأوا فى المنازل من أجل حماية الغنائم التى ظفروا بها.

فى أثناء حدوث ذلك شرع القائد العام ولويس كيخادا فى استكشاف البلدة، وخلال تفقد القائدين لتضاريس تلك الأراضى، خرج على رجالنا ما يزيد على ستة آلاف مسلم، كانوا قد هبوا من تيخولا وبورتشينا ومواضع أخرى على نهر المنصورة لتلبية الإشارات الدخانية، وقد رافقهم إيرناندو الحبقى والمالح وآخرون من القادة المسلمين.

وصل أولئك إلى الموضع الذى كان به فرانثيسكو دى مندوثا فى الوقت الذى كان الجزء الغالب من حملة الدروع قد ذهبوا لنهب منازل البلدة، وحينما ألفى القائد نفسه غير قادر على التصدى لتلك الجموع الغفيرة من الأعداء، بدأ فى التراجع إلى أعلى النهر وهو يطلق النفير. بعث القائد العام ولويس كيخادا بالسيد ميغيل دى مونكادا مع حشد من الفرسان والمشاة لنجدته وتعزيز الحراسة على ذلك المعبر؛ لكن الوقت كان قد تأخر إبان مجيئه، لأنه التقى الفرسان الذين كانوا يتراجعون فى عجالة؛ فما كان من هؤلاء وأولئك إلا أن تراجعوا وتركوا المعبر خاليًا أمام الأعداء.

هنالك بادر القائد العام بالحضور بذاته إلى المكان، حيث أسرع بتشكيل جبهة من الجنود والفرسان الذين تسنى له جمعهم فى عجالة شديدة، وقد تعاون معهم الجنود الذين كانوا قد انفصلوا عن الركب. من جهة أخرى، فإن المسلمين الذين وجدوا المعبر خاليًا صعدوا إلى سيرون، حيث انضم إليهم من كانوا قد خرجوا هاربين من البلدة، ليدلفوا إليها من المنطقة العليا، فألفوا رجالنا على غير هدى، وقد شُغِلَ الجنود بالسرقة، فقتلوا الكثيرين ممن تصدوا لهم، بينما قام جنود آخرون بإلقاء أسلحتهم فى خسة، وبادروا بالفرار، حيث لم يكن بمقدور الرجال الأكثر شجاعة توقيفهم[٦]. أُصيب السيد لوبى دى فيغيروا بعيار نارى فى فخذه، وكان الأعداء سيقتلونه لو لم يقم حملة الدروع التابعون لإيثيخا بسحبه. كما تولى حملة الدروع أولئك تحرير رفيقهم الذى كان الأتراك قد أسروه وحبسوه فى سجن مظلم. كان الخوف وانعدام الحياء الذى اتصف به بعض الجنود فى ذلك اليوم عارمًا، حتى بدا وكأنه غضب من السماء، لأنهم –دون أن ينتظر بعضهم بعضًا– لم يكونوا يعرفون أين يديرون ظهورهم للهرب من العدو؛ ففروا عدوًا حتى النهر –الذى كان يبعد مسافة ربع فرسخ– بيد أنهم لم يشعروا حتى هناك بالأمان.

---

(٦) هنا كثرت الأحاديث عن جشع الجنود المسيحيين واهتمامهم بالغنائم وتركهم القتال إذا لزم الأمر. (المراجع)

فى غمار تلك الفوضى العارمة، نزل السيد خوان دى أوستريا من الربوة التى كان يعتليها، وبادر بأن يظهر نفسه لرجالنا المسيحيين فى شجاعة، لكى يجابهوا العدو ويقفون فى وجهه، أو على الأقل يتراجعون فى نظام، فقال لهم: "ما بالكم أيها الإسبان؟ مم تفرون؟ أين هى كرامة إسبانيا؟ ألا ترون أمامكم السيد خوان دى أوستريا، قائدكم؟ مم تهابون؟ فلتتراجعوا فى نظام، شأنكم شأن المحاربين، وتوجهوا وجوهكم صوب العدو! وسرعان ما ستجدون أولئك الهمجيين محاصرين من قبل أسلحتكم". أفلح السيد خوان، بواسطة تلك الكلمات وغيرها، فى بث الحماس فى الجنود وتجميعهم؛ وقد أحدق به الخطر المشترك، لأن أعداد المسلمين باتت تتزايد، وكانوا دومًا ما يعززون انتصارهم. بينما كان لويس كيخادا يسير فى ذلك اليوم لتجميع الرجال وتنظيمهم، أصيب بعيار نارى فى الذراع، حيث اخترقت الرصاصة تجويف الكتف؛ فأمر السيد خوان دى أوستريا بسحبه من الموقع، وبأن يتولى تيّو غونثاليث دى أغيلار حمله إلى كانييس لمداواته برفقة فرسان شريش الفرنتيرة. كما قام السيد خوان بالتراجع مع باقى الرجال على أفضل نحو ممكن، فى دلالة كبرى على شجاعته التى لا تقهر؛ حيث هرع لتلبية كل الاحتياجات معرضًا نفسه للخطر. فقد تلقى عيارًا ناريًا من إحدى البنادق فى الرأس، اصطدم بالخوذة القوية التى كان يعتمرها؛ ولولا الصلابة الشديدة للخوذة، لكان قد قُتِل.

فى النهاية، بعد أن لاحق المسلمون مسيحيينا لما يزيد على ربع فرسخ، وألحقوا بهم خسائر طفيفة فى المؤخرة، رجعوا فى تلك الليلة إلى سيرون، وتوجه السيد خوان دى أوستريا إلى كانييس. كان هناك بعض الجنود ممن دلفوا إلى البلدة لم يتمكنوا من التراجع، فتحصنوا فى المنازل والكنائس وظلوا يقاتلون المسلمين على مدار ثلاثة أيام، فدافعوا عن أنفسهم حتى أضرم المسلمون فيهم النيران وأحرقوهم بالداخل. قُتِلَ فى ذلك اليوم ستمائة رجل من جنودنا، بينما كانت هناك أنباء عن أربعمائة قتيل من الأعداء، بالإضافة إلى أسر الكثير من الموريسكيات[(٧)]. هذا وقد فقدنا -علاوةً على سمعتنا-

---

(٧) يحاول مارمول أن يكون دقيقًا، فعندما يتحدث عن قتلى المسلمين يستخدم تعبير "أشيع". لكنه لا يوضح لنا كيف تم أسر الموريسكيات. (المراجع)

ما يربو على ألف من حملة البنادق والسيافين. في أعقاب الظفر بالبلدة، انتشى المسلمون بذلك الانتصار، وأقاموا أفراحًا كبرى. مكث جيشنا في كانييس لعدة أيام، وفي أثناء تلك الفترة توفي لويس كيخادا متأثرًا بجرحه، وقد شعر السيد خوان دي أوستريا بالأسى البالغ لوفاته، نظرًا لما يحس به من حنو تجاهه، فقد كان فارسًا صالحًا، وقد خدم مع والده الإمبراطور منذ صغره، وكان حاضرًا معه في كل الحروب التي خاضها، إلى جانب الثقة الكبيرة التي كان يوليها إليه وإلى إخلاصه، حيث كان يوقره وقد تولى تربيته منذ صغره، عندما كان لا يعلم من هو والده، وكان يناديه بالعم، بينما كان يلقبه هو بابن الأخ.

وصلت أنباء تلك الواقعة إلى جلالة الملك في أثناء وجوده في قرطبة، وذلك من خلال الكتاب الذي أرسله السيد خوان دي أوستريا إلى جلالته في التاسع عشر من فبراير. وقد قص فيه على جلالته كيف لم يتسن له الظفر ببلدة سيرون نظرًا لمخالفة الجنود للأوامر، كما طلب من جلالته تدعيمه بعدد أكبر من الرجال لكي يتمكن من مواصلة تقدمه. في أعقاب ذلك بُعِثَت رسالة إلى مدن أبدة وبياسة وجيّان، التي كان سيمر بها ألفان من جنود المشاة القادمون من قشتالة ومن مملكة طليطلة، تحمل أوامر إلى الجنود بإيقاف مسيرتهم -أينما يصلهم ذلك الكتاب- نحو غرناطة -وفقًا للأوامر التي صدرت إليهم من قبل- ليتوجهوا إلى جيش السيد خوان دي أوستريا. كما تمت مراسلة دوق سيسا لكي يبعث إلى السيد خوان بأكبر عدد من الرجال يتسنى له الاستغناء عنه، على ألا يعاني هو نقصًا في الجنود يحول دون قيامه بالمهام المنوطة به في تلك الأرجاء؛ وتحضه الرسالة على أن يسارع بالدخول إلى البشرات، لما سينجم عن ذلك من إضفاء المزيد من الزخم إلى ما يسعى السيد خوان دي أوستريا إلى تحقيقه في نهر المنصورة. بيد أنه حينما وصلت تلك الأوامر كان قد غادر غرناطة بالفعل، وكان يجمع جيشه في البادول على النحو الذي سنتطرق إليه في الفصل التالي. سوف نترك السيد خوان دي أوستريا الآن وهو يعيد ترتيب صفوف جيشه، لكي نتحول إلى ما كان يدور في تلك الآونة في غرناطة.

الفصل الثامن

يتناول التدابير التى اتخذها دوق سيسا فى غرناطة، وكيف خرج لحشد جيشه فى البادول من أجل اقتحام البشرات.

قبيل مغادرة دوق سيسا لغرناطة، قام باتخاذ التدابير التالية من أجل تزويد المدينة والمعاقل الحدودية بالحراسة والتأمين اللازمين: أن يبقى تحت تصرف كونت تينديا فى حصن الحمراء كل من: القائدين لورينثو دى أبيلا وغاسبار مالدونادو مع كتيبتيهما، وأنطونيو مارتينيث كاماتشو Antonio Martínez Camacho مع خمسين جنديًا؛ أن يمكث بالمدينة ستة من فرق المشاة يقودها كل من: خوان نونيث دى لا فوينتى Juan Núñez de la Fuente، والسيد كريستوبال دى ليون Cristóbal de León، والسيد دييغو دى بيرا Diego de Vera، وفرانثيسكو مونتيسدوكا Francisco Montesdoca، والسيد لوبى أوسوريو Lope Osorio، وبارتولومى بيريث ثوميل Bartolomé Pérez Zumel -قائدًا على تلك الفرق كلها-، وخوان فرانكو Juan Franco قائدًا للجنود. يضاف إلى ذلك ثلاثة من كتائب الفرسان التى تتبع ماركيز مونديخار، ويترأسها السيد بيرناردينو دى مندوثا Bernardino de Mendoza، و مارتين نوغيرا؛ إلى جانب خيرونيمو لوبيث دى ميبا Jerónimo López de Mella ورجاله. كان ذلك الرجل من أهالى ميدينا دى ريوسيكو Medina de Rioseco، وكان رجلاً يمتلك ثروات ضخمة فى تلك الأراضى؛ وقد قطع هو وشقيقه المدعو بلاس لوبيث دى ميبا Blas Lopez de Mella مسافة مائة وستين فرسخًا، من أجل أن يأتى ليقدم خدماته فى تلك الحرب على نفقته الخاصة؛ كما جلب معه ثمانية فرسان من حملة الدروع، وعشرة من حملة البنادق، وفيما بعد باتت أعداد الرجال لديه فى تزايد.

وفيما يتعلق بالغوطة، فقد صدرت الأوامر ببقاء كتيبتى أنطونيو دى باينا Antonio de Baena وبدرو نابارّو Pedro Navarro، مع ستمائة من المشاة. كما أمر بإيداع خمسين من الجنود فى مدينة سانتا فى، ليخدما بها بشكل اعتيادى مع سلاح الفرسان التابع لدوق أركوس Arcos. فى الوقت ذاته، بقى فى الغوطة لواءا الفرسان التابعان للاثارو دى بريونيس Lázaro de Briones وغاسبار دى أغيليرا Gaspar de Aguilera. يظل إيرنان لوبيث Hernán López، مع ثلاثمائة رجل من فرق الحراسة، فى كل من الفخار، وثوبيا، وغوخار. مكثت فى غيخار أربعة فرق مشاة، وقد تولى قيادتها كل من: بدرو دى لا فوينتى Pedro de la Fuente، ولويس كوييو دى بيلتشيس Luis Coello de Vilches، وإيرناندو بيثيرّا دى بيسكوسو Hernando Becerra de Moscoso، والسيد فرانثيسكو دى مندوثا -حاكم الحصن وقائده. وقد أودع ذلك الأخير مائة جندى فى بينيا من أجل حماية ذلك المعر، كما بقيت فى نيبار Níbar كتيبة السيد فرانثيسكو التابعة لجبهة القنطرة.

أصدر دوق سيسا أوامره إلى المأمور القضائى خوان رودريغيث دى بيّافويرتى، لكى يعاود لفت نظر قادة كل تلك الائتلافات حتى تكون قواتهم على أهبة الاستعداد -مشاة كانوا أم فرسان-. وأن يكلّف السيد بدرو دى بارغاس -أحد وجهاء تلك المدينة[٨]- بقيادة فرق المشاة، وأن يتولى خورخى دى بايثا منصب قائد الجند؛ وأن تستمر دوريات الحراسة والنوبات والفرق على النهج المتبع حتى ذلك الوقت. ظلت قيادة شؤون الحرب والسلام فى يد سيادة الرئيس بدرو دى ديثا، وكان السيد غابرييل دى كوردوبا Gabriel de Córdoba يحضر جلسات المجلس معه بوصفه مشرفًا على المقاتلين، وأن يضطلع بتنفيذ ما يتم إقراره هناك، ليتولى بذلك مهام القائد العام. على أن يحضر معهم الجلسات المأمور القضائى وكل من يتراءى للرئيس دعوته، وفقًا لمقتضيات الأمور التى تعن لهم. قام دوق سيسا بإقرار كافة تلك الأمور قبيل مغادرته لغرناطة؛

(٨) كان فى كل مدينة أربعة وعشرون وجيهًا. (المراجع)

وعندما بدا له أن الوقت قد حان، انطلق من تلك المدينة فى اليوم الحادى والعشرين من شهر فبراير من عام ١٥٧٠، ليصل فى اليوم ذاته إلى البادول، وهو الموضع الذى كان ينبغى حشد جميع الرجال به.

كان السيد خوان دى مندوثا فى لاس ألبانيويلاس، التى كان قد قصدها من أجل تجميع الكتائب التى أخذت فى التوافد من المدن وسادة الإقطاع، وقد حضر إلى البادول فى الثالث والعشرين من شهر فبراير. توقف الدوق فى ذلك المقر لعدة أيام، حيث كان ينتظر الرجال والزاد والأسلحة التى كان يتعين مجيئها من مالقة، إلى جانب إقامة الاستحكامات فى كل من الساقية ولاس ألبانيويلاس وبلدان غواخار. أودع دوق سيسا فى لاس ألبانيويلاس السيد غوتيّرى دى كوردوبا Gutierre de Córdoba يرافقه ألف من جنود المشاة ولواء من الفرسان. كما بعث بالقائد أنطونيو دى بيرّيو Antonio de Berrio إلى بلدان غواخار مع خمسمائة من حملة البنادق، وبدون فرسان، لأن تضاريس الأرض ليست موطأة للخيل. وقد أمر أيضًا بإقامة معاقل فى البادول والساقية لتأمين هاتين الجبهتين.

أرسل دوق سيسا إلى خابينا Javena السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس مع خمسين من حملة البنادق، بالإضافة إلى لواء فرسان بياسة الذى يتبع خوان دى كارباخال، حيث كان جلالة الملك قد أمر بإيداعه هناك برفقة بعض الفرسان، حتى يتمكن -لكونه محل ثقة الثوار- من إجراء بعض الاتصالات معهم، لكى يسلموا أنفسهم على النحو الذى كان قد اقترحه، حيث كانت هذه هى اللهجة السائدة آنذاك. فجلالة الملك -كما ذكرنا آنفًا- كان راغبًا فى إحلال الوئام بين رعاياه بدلاً من تحقيق الانتصار عليهم. وحتى لا يبيت الناس من دون عمل ويكتفون بالتهام المؤن فى بادول، فقد أمر الدوق بالقيام ببعض الغارات، فى أثناء تنامى حجم الجيش ووصول الزاد والأسلحة والذخائر المنتظرة من غرناطة ومالقة وغيرها من الأماكن؛ كما تم نصب كمائن للمسلمين الذين يجوبون الوادى.

تم إلقاء القبض على بعض المسلمين، وقد فُهِمَ منهم مخطط الأعداء، وكيف أن الحبقى قد أرسِل إلى نهر المنصورة بوصفه قائداً عامًا، وقيامه هو وكافة رجال البشرات بالتمركز فى أندرش. بالإضافة إلى كونهم لا يهدفون إلى الحيلولة دون دخول جيشنا إليها، وإنما مضايقته عن طريق الإغارة على قوات المؤخرة ومواكب الإمدادات؛ لكى يُلجئوهم إلى التخلى عن تلك المهمة، بعد أن ينال منهم الجوع والإرهاق وعدم إحراز أية مكاسب؛ وقد كان الحبقى والقادة الأتراك من مناصرى ذلك الرأى. وكذلك فقد تم إرسال أربعة آلاف مسلم، مع الرانداتى والماكوش وقادة آخرين، إلى المنطقة الغربية من أجل الغرض ذاته؛ وكان الجزء الغالب منهم ينتمون إلى تلك الأقاليم وإلى جبال منتميس. وقد صدرت إليهم الأوامر بأن يودعوا أربعمائة رجل فى قلعة لانخارون، وأن يسعون إلى الدفاع عنها، حتى يتسنى لهم الانطلاق من هناك والانقضاض على جيش دوق سيسا فى أثناء عبوره. كما عرض عليهم الحبقى أن يهب لإغاثتهم بكل ما أوتى من قوة إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك، وقال لهم إنه يثق فى النجدة التى يتطلع إلى قدومها من الجزائر.

سوف نعرض فى هذا الموضع خطابين، كان أحدهما قد كتبه ابن عبو إلى مفتى قسطنطينة -الذى يتولى منصبًا شبيهًا بالأسقف-، والأخرى من أمين سر أولوج على، وقد كان الداعى منها إفهام ابن عبو أنه لم يتم إغفال ذلك الشأن. وسوف نعود فى أعقاب ذلك إلى استئناف أحداث تأريخنا.

رسالة ابن عبو إلى مفتى القسطنطينية، التى يطلب فيها النجدة من الباب العالى

"الحمد لله. من عبد الله الواثق به، والكائن بحوله وقوته. المحارب فى سبيل الله، أمير المؤمنين، ومعظم الشريعة، هازم المارقين الملحدين، وقاهر الجيوش التى تنازع الله، مولاى عبد الله بن عبو -رفع الله منزلته، ووطّد ملكه. إنه الداعم لثورة الأندلس، من أيده الله ونصره. إلى صديقنا، وعزيزنا الغالى، السيد المبجل والموقر، الشريف،

الكريم، العظيم، المقدام، العادل، المتصدق، التقى، من أنعم الله عليه بالصفح والمغفرة. ثم أما بعد، سلام من الله عليكم ورحمة منه وبركات. أخونا وصديقنا الغالى، لقد وصلنا نبأ منكم، كيف أنكم أخذتكم الشفقة بالأناس المخذولين كسيرى النفس، ولطالما كنتم تولون عناية للسؤال عنا والتأكد من أحوالنا، وكم آلمكم كل هذا الشقاء والضغوط التى أخضعنا لها أولئك المسيحيون! كما أن الملك المعظم القادر قد بعث لنا برسالة مختومة بختمه، يعدنا فيها بإغاثتنا بأعداد ضخمة من أسطول جلالته، وكل ما يلزمنا بعد من أجل الحفاظ على هذه الأرض. ولمّا كنا فى كرب عظيم مع أولئك الأشرار، فها نحن نطرق من جديد أبوابكم العالية، لنطلب الغوث من جانبكم لكى نحرز النصر بأيدينا. لذا فلتعينونا، أعانكم الله العلى القديرعلى الناس أجمعين! ولتنقلوا مطلبنا إلى الملك القدير، ولتحيطوه علماً بأحوالنا وما كان من شأننا، ولتخبروه بالحرب الضروس التى نخوضها فى الوقت الحالى. قولوا لجلالته أن يتفضل بمد يد العون لنا، وأن يبادر بإغاثتنا على وجه السرعة قبل أن نفنى، لأن هناك جيشين مهيبين يتجهان نحونا للانقضاض علينا من ناحيتين. وإذا ما هلكنا فسوف تُسألون عنا، وتحاسبون أشد الحساب يوم القيامة. وأسباب ذلك قد يطول شرحها فى هذا الموضع، ولما كان هذا الرجل لا يملك جهداً أو مقدرةً للمزيد من الأحاديث، فإنى أختم كلامى. سلام الله عليكم ورحمته وبركاته. كُتِبَ فى يوم الثلاثاء، الحادى عشر من شهر شعبان المحرم من عام ٩٧٧، الموافق -تبعاً لتأريخنا- الحادى عشر من شهر فبراير لعام ١٥٧٠. وقد ذُكِر فى العنوان: يسلم إلى السيد النائب السامى والمستشار الأكبر فى قسطنطينة، وفقه الله". عُثِر على تلك الرسالة فى مغارة كاستاريس بين أوراق ابن عبو، وقد أُمِرَ بترجمتها لاحقًا فى غرناطة؛ حيث سلّمها القائد الأعلى لرهبانية قشتالة العسكرية إلى السيد خوان دى أوستريا، الذى أرسلها بدوره إلى سيادة الرئيس بدرو دى ديثا من أجل ذلك الغرض.

رسالة أمين سر ملك الجزائر لابن عبو

"بسم الله الرحمن الرحيم. حفظ الله صاحب المقام الرفيع، السابغ، الجواد، الملك السعيد محمد عبد الله بن عبو. سلام الله عليكم ورحمته وبركاته. نحيطكم علماً أننا قد تسلمنا الكتاب الذى أرسلتموه إلينا بشأن أحوال بلدكم وأعداء دينكم، ونحن ندرك ما نقلتموه إلينا مما قاله ملك إسبانيا، وأنه عازم على القضاء عليكم. سوف نكون نحن من يتولى -بعون الله- القضاء عليه. من أجل ذلك فإننا نرسل إليكم الأسلحة والبنادق والبارود والرصاص الذى ترونه، والذى يمثل جل ما نقدر عليه فى الوقت الحالى. وفيما يتعلق بقولكم إننا لم نقدم لك العون لأن مدننا تفتقر إلى الرجال، فإنى أقسم لكم بالله إنى لا أعلم أن ذلك الأمر قد قيل لكم هنا. بل إننا نرغب فى إغاثتكم لما نحسه تجاهكم من مشاعر الود، ونظراً للمحبة الشديدة التى يكنها لكم جلالة الملك -رفع الله قدره. لذا لا تخافوا، لأن الملك كان لابد له من الذهاب إلى مدن إفريقيا، وأعنى مدينة تونس، لكنه لم يغادر حتى أرسل سفينةً شراعيةً صغيرةً إلى قصر السلطان -رفع الله قدره- على سواحل تركيا، ليحيطه علماً بما كان من أحوالكم. وسوف يقوم ملكنا -حفظه الله- بالانطلاق صوب تلك الأراضى -بإذن الله- عقب الانتهاء من زيارته.

لقد تنامى إلى علمنا أنه اختلف مع ملك تونس حول مدينة تدعى باجة Bexa، وأنه طرده منها، وقد أيد الله ملكنا بالنصر، وسحق جيش الملك الآخر، وقتل ألفين من رجاله؛ وقد فر ملك تونس هارباً مع مائتى فارس، ودخل ملكنا إلى تونس؛ وسرعان ما سيحضر إلى هذه المدينة، ويأتى لنجدتكم، ويبعث بالأسطول الذى سيبحر -بحول الله- ليتولى إغاثتكم ويدعم قصدكم. لقد سمعنا أنكم أسرتم شقيق الماركيز. إن كان ذلك قد حدث، ووقع الرجل بين أيديكم، فابعثوا به إلى الملك، وأرسلوا أيضاً شيئاً آخر قبيل وصوله، من أجل أن نقدمه إلى الملك فى يوم مجيئه ونقول له: "انظر ههنا الهدية التى بعث بها إليكم ملك الأندلس". وهكذا سنزيد من رغبته فى مد يد المساعدة إليكم، فأنتم اليوم قد صرتم جزءاً منا. أستحلفكم بالله أن تقوموا بذلك، ونحن نؤكد لكم أن ما نقوله

هو الصدق، وسوف يطلعكم صديقنا قاسم -وهو أحد رعايانا- على باقى الأمور. لا تنصتوا لكلام الناس، وقوموا بما يخبركم به قاسم. كان هذا ما أردنا إيصاله إليكم. سلام الله عليكم ورحمته وبركاته. الفقير إلى الله، أمين سر مولانا الملك -رفع الله قدره". كانت الرسالة تحوى على ختم أولوج على الذى نعرفه، كما كُتِبَ فى عنوانها: "فليحفظ الله الحاكم العظيم، المبجل، المعظم محمد عبد الله بن عبو". وقعت تلك الرسالة أيضًا فى الأصل بين يدى السيد خوان دى أوستريا، وقد ترجمها إلى الإسبانية الأب كاستيّو بمقتضى أوامره.

الفصل التاسع

ويتناول كيف طاف السيد أنطونيو دى لونا بجبل منتميس، وأقام معقلاً فى صالحة، وإجلاء الموريسكيين من بعض بقاع الشرقية فى مالقة.

إضافةً إلى التدابير التى ذكرنا أن دوق سيسا كان قد اتخذها إبان مغادرته لغرناطة، هناك إجراء آخر كان من الممكن أن يكون على قدر بالغ من الأهمية، لو لم يخذله الناس فى الوقت الحاسم. وكان يتمثل فى إرسال السيد أنطونيو دى لونا ليجوب ويؤمن جبل منتميس وأراضى بلش مالقة، التى كان الدرّة وقادة المسلمين الآخرون يلحقون بها خسائر فادحة؛ وكذلك تجميع الموريسكيين المستسلمين فى بقاع بورخى، وقمارش، وكوتار، وبنى مارغوسا Benamargosa، وإرسالهم إلى أماكن تقع إلى الداخل؛ علاوةً على إنشاء ثلاث نقاط حصينة، وإقامة معاقل فى صالحة وكومبيتا ونيرخا؛ ثم يتبع ذلك بالتوغل إلى المنكب، فى أثناء تفقده للساحل، من أجل إلهاء الأعداء، وإحراق ما لديهم من مؤن وتجويعهم. كانت الأوامر قد صدرت إلى المأمورين القضائيين فى أنتيقيرة ومالقة لكى يدعماه بإمدادات من جنودهم المشاة والفرسان من أجل الاضطلاع بتلك المهمة. فبادرا بتلبية النداء، حيث تم إرسال كل من: السيد فادريكى مانريكى Fadrique Manrique برفقة قوات أنتيقيرة، والسيد غوميث ميخيّا دى فيغيروا فى صحبة رجال لوشة والحامة وقلعة يحصب، وأرّيبالو دى ثواثو مع قوات مالقة وبلش، والأب سوتو مع رجال أرشيدونة؛ ليضحى قوام القوات كلها خمسة آلاف رجل.

احتشدت القوات فى كانييس دى أثيّتونو فى أول أيام شهر مارس، وتوجه الجيش إلى كومبيتا وهو يحسب أنه سيلقى شيئًا من المقاومة؛ وحينما لم يتصد له أحد، واصل طريقه إلى نيرخا، وقام فى أثناء الطريق بالإغارة على حصن فريخيليانا، الذى ظهر عند قاعدته ما يقرب من مائة مسلم، قاموا بالاشتباك مع جنود الطليعة البواسل. فر المسلمون هربًا باتجاه الحصن وهم يحملون لواءهم، فصعد رجالنا خلفهم، وقتلوا ستة منهم بينما انفرط عقد الباقين بين تلك الجبال ولم يُشاهدوا فيما بعد، كما تم أسر إحدى عشرة مسلمة. بات الجيش ليلته تلك فى نيرخا، ومكث فى ذات الموضع خلال اليوم التالى لانتظار المؤونة القادمة من بلش ولوشة. فى تلك الأثناء أرسل السيد أنطونيو دى لونا حملة البنادق لتفقد الجبل من ناحيتين، فقتلوا مسلمين أو ثلاثة، وأسروا ست نساء. حينما تنامى إلى علمه أن الدرّة قد أعد قاربًا للذهاب إلى شمال إفريقيا، اصطحب السيد أنطونيو المسلم الذى حمل إليه النبأ ليريه إياه، فوجده فى طريق غير واضح للعيان، كما وجد فى بقعة أخرى مماثلة قاربًا آخر كان قد بُدِأ العمل فيه، بالإضافة إلى غلاية من القطران ، وأخشاب، فأمر بإحراقها كلها.

حينما أراد السيد أنطونيو الانطلاق من هناك فى يوم السبت الموافق الرابع من شهر مارس، وجد أن جميع الرجال تقريبًا قد هجروه، حيث تذرع البعض بقلة الطعام، بينما تعلل آخرون بإدراكهم أن تلك الحملة لن تؤمن لهم مكاسب ثمينة، لأنه لم يعد هناك سوى أشياء قليلة يمكن الاستيلاء عليها فى تلك الأرض. قال السيد غوميث ميخيّا دى فيغيروا فيما بعد إن السيد أنطونيو دى لونا قد أمره بالتوجه إلى لوشة برفقة أولئك الرجال التابعين للمدن الثلاث، حيث تراءى له إن قوات أنتيقيرة ومالقة وبلش تكفيه، على ضوء ما كان يعانيه من نقص فى المؤن. وعلى أية حال، فقد ألفى القائد نفسه مع ألف رجل فقط، وعقد العزم على المضى قدمًا برفقتهم عبر طريق الساحل المباشر إلى المنكب. لمّا كان من غير الممكن سلك طريق آخر مع الخيول والأمتعة، قضى الجيش الليلة على الطريق عند مصب نهر مييل Miel. إبان بلوغ المنكب، تزود ببعض المؤن من أجل الذهاب إلى لينتيخى Lentejí، الذى كان أحد الجواسيس قد قال إنه يوجد به

خمسة آلاف مسلم؛ وهو ما كان كذبًا، لأنه لم يكن به سوى خمسمائة رجل. خالجت القوات بعض مشاعر الخوف إزاء تلك الأنباء، فاصطحب السيد أنطونيو دى لونا مائتى جندى من ذلك المعقل، وتوجه خلال تلك الليلة للمبيت على مسافة فرسخ ونصف من هناك، فى منتصف الطريق.

فى يوم الثلاثاء الموافق السابع من مارس، انطلق الركب فى الصباح الباكر ليصل إلى البلدة فى الساعة التاسعة، وكان يظن أنه سيلقى الأعداء هناك؛ بيد أنه ألفاهم قد هربوا عند انتصاف الليل إلى الأسفل. قتل الجنود خمسة رجال كانوا قد عثروا عليهم فى المكان، وأسروا واحدًا، واستولوا على بعض الأمتعة. وقد قام جنود المنكب -الذين كانوا قد أضيروا من أولئك المسلمين- بإضرام النيران فى المكان وإحراقه بالكامل. عُثِرَ هناك على قدر من الزبيب، وكميات وفيرة من الزيت، والقليل من الخبز فى المنازل والكهوف؛ فأُحرقت كلها وسكبت. وقد تم اتباع النهج ذاته، من تدمير وإحراق للمؤونة، فى الأماكن التى كانوا يصلون إليها. عُرِفَ من المسلم الذى كان قد وقع فى الأسر كيف أن المسلمين يتوجهون إلى مروج لوبيرا، ونظرًا لأن الوقت كان لا يزال مبكرًا، فقد عزم السيد أنطونيو دى لونا على ملاحقتهم، حيث راح وأمضى تلك الليلة فى إحدى الضيعات التابعة لماركيز مونديخار. أما المسلمون الذين كانوا متقدمين، فقد انحرفوا إلى جهة اليسار قبيل الوصول إلى المروج، وقصدوا ألميخار Almijar.

فى غضون تلك الليلة، وفى أثناء وجود الجيش فى الضيعة، انسحب منه ما يزيد على خمسمائة رجل. ولمّا أراد القائد الانطلاق، ألفى نفسه فى صحبة ستمائة جندى فحسب من بلش ومالقة، إلى جانب عدد قليل من رجال أنتيقيرة، فمضى إلى مدينة الحامة -ووصل إليها فى التاسع من شهر مارس. طلب السيد ألونسو دى لونا من المدينة مؤنًا ومائتى رجل، وقد سار برفقة هؤلاء - بالإضافة إلى مائتين آخرين كان قد راسل المأمور القضائى للوشة من أجل أن يزوده بهم- وما كان قد بقى فى حوزته من الرجال، ليرجع إلى قلعة صالحة، التى كان قد خلّف بها القائد كريستوبال دى ريينوسو

مع الفرسان التابعين لسيد أندوخار وبعض المشاة. وعند دخوله إلى خاركيًا (الشرقية) قام بإجلاء الموريسكيين من الأماكن المريبة دون إثارة شغب أو فوضى، لأنهم كانوا غير محتاطين للأمر. تولى أرّيبالو دى ثواثو إجلاء موريسكيى البورخى، بينما اضطلع السيد فادريكى مانريكى بتلك المهمة فى قمارش، وقام بها السيد أنطونيو دى لونا فى كوتار وبنى مارغوسا؛ وقد توجه الجميع إلى المناطق الداخلية فى يوم السادس عشر من مارس. لمّا لم يكن مع القائد رجال يمكن له تركهم فى كوتار، فإنه لم يقم بها أى معاقل فى تلك المرة.

الفصل العاشر

يتناول الكيفية التى بدأت بها المفاوضات الرامية إلى استسلام الثوار.

كان جلالة الملك تراوده رغبة عارمة فى حمل الثوار على الاستسلام، مدفوعًا بطبيعته الشفيقة، وبما رآه من أن جانبًا كبيرًا منهم لم يكن قد قام بالثورة طواعيةً، أو اقترف آثامًا وانتهك حرمة المقدسات على النحو الذى نهجه آخرون. علاوةً على ذلك فقد كان الأمر يتعلق باتحاد وحلف الأمراء المسيحيين فى مقابل تركيا، التى كانت تهدد شعوب المشرق بأسطولها القوى. ولمّا تعين على السيد خوان دى أوستريا الذهاب بوصفه قائدًا عامًا على جيش ذلك الحلف، فقد كان لابد له من وضع نهاية لذلك الأمر الذى بين يديه. حيث أن البابا بيو الخامس Pio V –طيب الذكر– كان قد أرسل إليه سفيره مع السيد لويس دى تورّيس Luis de Torres –وكان من مواليد مدينة مالقة، وصار فيما بعد رئيسًا لأساقفة مونريال Monreal– لكى يحض جلالته، على السعى إلى تحقيق الوفاق العام والدفاع عن الشعب الكاثوليكى.

على ضوء ذلك التنبيه توجه السيد خوان دى سوتو Juan de Soto إلى الجيش، ليشغل منصب أمين سر السيد خوان دى أوستريا. وبعد التعرف على رغبة جلالة الملك، بدأ السعى الحثيث فى مسألة الاستسلام. كان هناك بعض الرجال البارزين، ممن كانت تربطهم علاقات صداقة مع زعماء المسلمين قبيل اندلاع الثورة، عرضوا أن يتولوا إخضاعهم؛ خاصةً السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس، الذى كان قد ذهب لإقامة معقل فى خايينا –كما أسلفنا– لكى يتسنى له عقد محادثات معهم. وكذلك السيد إيرناندو دى بارّاداس –أحد مواطنى وادى آش– ، وغيرهم ممن أرادوا أن

يتركوا أثراً طيباً فى هذا الصدد، لكى يتلافوا طرد الموريسكيين المسالمين عن طريق إحلال السلام واستسلام الثوار.

كان السيد إيرناندو دى باراداس قد حصل على إذن من جلالة الملك يخول له الكتابة إلى إيرناندو الحبقى -وكان صديقًا مقربًا له-، حتى أنه كان قد قابله فى يوم الخامس عشر من شهر فبراير عند أحد تلال جبل شلير، عندما كان المسلم فى طريقه لتولى القيادة العامة للقوات بدلاً من خيرونيمو المالح -الذى كان قد توفى على أثر مرض ألم به. وكان برفقته خمسمائة من الرماة -بينهم مائة من الأتراك يصحبهم لواء ملون- بينما اصطحب السيد إيرناندو دى باراّدا خمسة فرسان فحسب. تباحث الأمر معه، ونصحه أن يغتنم الصفح والعفو من جلالة الملك، لأن هناك فرصة جيدة مواتية للقيام بذلك؛ وقد وعده هو أنه سيبحث أفضل السبل لعرض الأمر على أصدقائه، وأفهمه أن لا أحد يرغب فى هذا الأمر أكثر منه، وأن هناك العديد ممن يدينون بالرأى ذاته بين صفوف الثوار. وانطلاقًا من تلك الأسس، اتخذا بعض التدابير من أجل استمالتهم إلى ذلك الهدف عبر بعض السبل.

فى خلال سعى الرئيس بدرو دى ديثا إلى أن يدرك الثوار بشكل عام أن هناك مجال لنيل العفو من جلالة الملك إذا ما وضعوا أسلحتهم -وهو ما كان الثوار الجبليون، وأصحاب النفوس المثقلة بما اقترفته من آثام جسيمة، يصدوهم عن تصديقه- عمد الرئيس بحذق إلى إصدار أوامره إلى الأب كاستيّو[٩]، من أجل أن يكتب إليهم رسالة باللغة العربية لاستمالتهم. بحيث يقلل فيها من شأن المساعدة والدعم الذى سيمدهم به الأتراك[١٠]، ويبدد ما لديهم من تطلعات، ويضخم كثيراً من نفوذ جلالة الملك ورحمته، وأن يلجأ إلى حجج مناسبة ينصحهم من خلالها بالبحث عن وسيلة ما للاستسلام.

---

(٩) يتحدث عن ألونسو ديل كاستيّو. (المراجع)

(١٠) كانت السلطات الإسبانية تعلم أن الخطر التركى مجرد أسطورة. هذا ما يشير إليه ماركيث بيانويبا فى كتابه "القضية الموريسكية من وجهة نظر أخرى" ترجمة عائشة سويلم، مراجعة وتقديم جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة. (المراجع)

قام الأب كاستيّو بكتابة الرسالة، ولم يتم إدراج اسم المؤلف حتى يبدو وكأنه أحد المرابطين أو الفقهاء الذين يأسون لأحوالهم لكونهم يودون بأنفسهم إلى التهلكة؛ ثم تم استنساخ العديد من النسخ، التي تولى حملها أحد الجواسيس إلى بقاع البشرات، وألقاها فى أماكن يمكن للأهالى العثور عليها وقراءتها. وقد تمت إحاطتنا لاحقًا إلى أنها أحدثت أثرًا بالغًا بين الرجال ذوى الإدراك الحسن، وبين كل من يرغبون فى استقرار الأوضاع بشكل عام[11]؛ لذا فنحن نوردها فى هذا الموضع، بعد ترجمة نصها إلى اللغة الإسبانية، وقد جاء فيه:

رســـالة إقنـــاع

"بسم الله الرحمن الرحيم. لا حول ولا قوة إلا بالله، والصلاة والسلام على أفضل رسله وعلى آله وصحبه ومن والاه. السلام على من اتبع الهدى وصدق بكلماته، أولئك فى هذه الدنيا هم الفائزون، وفى الآخرة هم المفلحون. القادة، والشيوخ، والزعماء، وقادة الجيوش، وغيرهم من السادة، والأصدقاء، وفاتحى البشرات وأرجائها، سلام من الله ورحمة وبركة عليكم أجمعين، ونسأله من فضله أن يعيننا. هذا هو ما يرجوه لكم صديقكم المقرب، الحريص كل الحرص والمهموم بتحقيق منفعتنا العامة والحفاظ على حياتنا وكرامتنا، من أولى عناية بالغة لدراسة أحداث حربنا، وما نسعى إلى تحقيقه من خلالها، ومن سعى بينكم دومًا يتدبر الأمور التى تحدث، والوقائع التى يمكن أن تقع فى المستقبل، من أجل صيانة أرواحنا وأعراضنا. وبعد أن بت ساهرًا للبحث عن سبيل للحفاظ على ما بدأناه واستكماله، فإنى أجد نفسى فى حقيقة الأمر مدفوعًا بحبى لكم، وواجبى تجاه خدمة الله العلى، لكى أفصح لكم عما يراودنى بصدق فى هذا الأمر،

(١١) يمكننا أن نتحدث عن "حرب الوثائق" فى تلك الفترة. الآن نجد أن السلطات الرسمية تزيف وثيقة لكى تمارس الحرب النفسية ضد الثوار، أما الموريسكيون فقد كتبوا "الألواح الرصاصية" وزعموا أنها أثر مسيحى، ولم يكتشف الفاتيكان زيفها إلا بعد عقود طويلة، وبعد أن أحدثت لغطًا كبيرًا. (المراجع)

آملاً أن أنال العفو يوم العرض العظيم ، يوم لا ينفع مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

ما توصلت إليه، بعد بذل الجهد من جانبي، هو أننا قد أخطأنا وجانبنا الصواب فيما يتعلق بذلك الفتح الذى نسعى جميعًا -نحن الواثقين، والبائسين، والأشقياء- لتحقيقه، استنادًا إلى علات واهية وقوى فاسدة ووعود جوفاء لا تستطيع قيادتنا إلى القصد التى نبتغيه. وإذا ما انصعنا إليها، فلتتأكدوا أننا سوف نهلك من جراء وثوقنا فى نجدة الأتراك لنا وركوننا إليهم. فنحن نرى بوضوح إنهم يهزأون بنا ويخادعوننا ويتمنون لنا الهلاك، فهم لا يسعون إلا إلى الاستيلاء على ثرواتنا ونسائنا وبناتنا -على النحو الذى شهدناه-، وحينما يثرون فإنهم سيرجعون إلى ديارهم ويتركوننا محملين بالهموم والنكايات، ليشرعوا فى ممارسة طغيانهم وآثامهم المعهودة، النابعة من طبائعهم الفطرية. وفيما بعد سيسخرون منا كما فعلوا من قبل، وكما اعتادوا أن يفعلوا أينما حلّوا. وأنا أقول لكم فى حقيقة الأمر أن هذا هو ما حدث بالفعل، وأن الكثير منهم قد أخبرنى أنهم لو لم يدركوا أنهم سيجنون من ورائنا فائدة تفوق ما حصّلوه إلى الوقت الحالى، فإنهم كانوا سينهبون ويستولون على ممتلكاتنا ثم يرحلون؛ وأنه من الأجدى أن يظفروا بها هم من أن يتركوها للمسيحيين. ولا يساورنكم شك فى ذلك، فهم قد شرعوا فى ذلك لكونهم -بحكم طبيعتهم- أناسًا غرباء وهمجيين، وهم يفتقرون كليًا إلى الولاء والشفقة. كما أنهم -بمقتضى الحال- طغاة يتسمون باللؤم، وهو أمر معتاد بالنسبة لأهل المشرق وأهالى شمال إفريقيا، وقد جاء ذلك فى أحد أمثالنا القديمة الذى يتناول ذلك الأمر، وينص على أن "كل ما يأتى من المشرق طيب، باستثناء الرجال والهواء".

هذا هو واقع الحال، ويمكن التثبت منه بالنظر إلى ما يقومون به فى كل يوم، وما أقدموا على فعله فى أماكن أخرى، على غرار ما جرى فى الجزائر، حيث تذرعوا بنجدة ملكها، وانقلبوا عليه فى غمار نشرهم الثورة فى المملكة، كما أخضعوا كل أهلها، وهى ما زالت إلى الآن تحت حكمهم واستبدادهم وتؤدى الجزية. ومن المؤكد أن الأهالى يودون دفع الجزية إلى أى ملك مسيحى آخر بدلاً من تأديتها إليهم. وقد فعلوا الأمر

ذاته فى تونس إبان حكم خير الدين باربارْوخا، الذى تظاهر برغبته فى إغاثة أحد الملوك، ثم ثار عليه ، وهو ما كان سببًا فى هلاك المسلمين -كما نعلم جميعًا. كل تلك الأحداث بالإضافة إلى أحداث أخرى مشابهة وقعت فى زماننا. لذا فنحن نعلمها وندرك مدى قدرتنا على الوثوق فى الأتراك، فلننتبه جيداً إلى أفعالنا وما تحققه لنا، لكى لا يتحقق فينا قول رسولنا ، من أن أمتنا سوف تفنى ما بين البربر والعجم(١٢).

كما يتراءى لى أن الدوافع التى حملتنا إلى السعى وراء هذا الفتح، كالنبوءات التى تعدنا بتحقق ما تتضمنه من أحكام، ليست مؤكدة أو كافية؛ فتلك النبوءات تبشرنا بالفناء أكثر من أى شىء آخر. أما النجدة التى ستصلنا -وفقًا لنصها-، فلا يُذكر كيفية أو وقت قدومها، ولا يوجد بها إشارة إلى وقت محدد؛ وما يقوله بعضها ينافيه ويعارضه ما جاء فى البعض الآخر. فيما يتعلق بالعام الذى سيبدأ فى يوم سبت، فقد أخطأنا فى تلك المسألة أيضًا نظراً لقلة درايتنا، لأن العام الذى تذكره النبوءة يتفق مع تقويمنا القمرى، وليس التقويم الشمسى، كما هو الحال مع السنة التى بدأنا فيها تلك الحرب، فهذا هو التقويم المسيحى ولا يرد ذكره فى نبوءتنا. وإذا ما وافقت بداية العام أحد أيام السبت، فإن ذلك لا يعد مدعاة إلى كونه مخالفًا لأيام سبت أخرى بدأت فيها العديد من السنين الأخرى، وستبدأ فيها فى مرات قادمة، لن نقدم فيها على شن الحرب المذكورة.

بالإضافة إلى ذلك، فإننا نرى بوضوح التعارض ما بين النبوءات، ولا ينبغى أن نعتقد فى أمور مماثلة تحفل بشتى صنوف الاختلاف والتناقض. إحدى تلك النبوءات تقول إنه لن يهلك منا سوى فرد واحد من أصحاب المهن المتواضعة فى أثناء الفتح، وسيكون طحانًا؛ بينما تقضى أخرى -وهى الخاصة بزيد الجرجانى، والتى تعد أصدق النبوءات التى لدينا- بأن من سيتبقى منا بعد ذلك الفتح سيكونون قليلى العدد. وكذلك فإن النبوءات تحوى العديد من التناقضات الأخرى، بالإضافة إلى ذكر أشياء مستحيلة،

---

(١٢) التراث الموريسكى يحفل بالأحاديث الضعيفة والموضوعة. (المراجع)

تبدو وكأنها خيالات خرافية قد نسجت لخداع العوام: كرواية السحاب والطيور، وقصة الملكين جبريل وميكائيل، وقصة يد يوسف، وقصة سيف إدريس ملك فاس، وغيرها من الأساطير المشار إليها في تلك النبوءات. ولا يمكن تصور كونها نبوءات أو أحاديث لنبينا، أو لأي نبي آخر نزلت عليه روح النبوة، بل يجب أن تكون سلوى وملهاة قام بتأليفها نفر من الفقهاء المعاصرين، من أجل إلهاء أسلافنا في ممالك الأندلس تلك والإبقاء على الأمل بداخلهم. وأنا أقسم لكم بالله العظيم أن هذا الأمر قد أكده لي أشخاص ذوو علم ودراية واسعة، قائلين إن ذلك كان المقصد والداعي وراء تلك النبوءات.

ولو كان الأمر بخلاف ذلك، لألفينا ذكرًا لها في القرآن، أو في أي من كتب السنة والشريعة التي أقرها خلفاء وأتباع رسولنا؛ بيد أنه لا أثر لها، وهو ما ينزع منا الثقة تمامًا في إضفاء المصداقية على أي من أجزائها -صغيرًا كان أم كبيرًا. بل إن ما تحويه السنة مخالف لما جاء فيها في هذا الصدد، لأنها ستجلب لنا الدمار الشامل، وسوف يتحقق للمسيحيين الفوز الأبدي بأراضي أوروبا، على النحو الذي ذكره نبينا في الكلمات التالية: "سوف يخرجكم منها الروم، ويودعونكم في أراض قاحلة". علاوةً على ذلك فأنا لا أدري من ذا الذي يمتلك القدرة على التشكيك في سطوة ملك إسبانيا العظيم، وفي أننا -مقارنةً به- نبدو مثل الذبابة بالنسبة للفيل. ونظرًا لما أتينا به من أفعال غير لائقة تجاهه، فبمقدوره أن يقول لنا ما قالته شجرة السنديان الضخمة للحشرة -إذا ما لجأنا إلى التعبير الذي أمدتنا به اللغة لترمز إلى تلك الحرب- حيث ظلت الذبابة تطن داخلها لفترة من الوقت، ثم راحت تطلب منها العفو عما ظنت أنها أحدثته من ضوضاء، فأجابتها شجرة السنديان:"أنت بكل تأكيد لا يلزمك طلب الصفح، لأنني لم أشعر بك حينما دخلت إلى أغصاني، أو عندما رحلت عنها". وأنا أقول لكم في حقيقة الأمر يا إخوتي، إن ذلك الملك المقتدر لو لم يعد تلك الأعمال الجنونية سوى الضجيج الذي أحدثته الحشرة، وأراد أن يثأر منا، فسوف يحصد أرواحنا في ساعة واحدة، ولو لم يرسل إلينا من قومه سوى العرج. وإذا ما وضعنا ثقتنا في النجدة التي

وعدنا بها أولئك الكاذبون المخادعون، فإننا سنزيد من غضبه علينا، وسنهيئ له الدافع الذي يجعله يصنع بنا ما صنعه هرقل بالأقزام، حيث قطعهم جميعًا إلى أشلاء حينما رأى تماديهم في الغي ورغبتهم في الصعود فوقه في أثناء نومه.

كما أنني أود أن أحرركم من أوهامكم، لأنه لو هبت لنجدتكم جيوش الأتراك والعرب وملوك إفريقيا جميعًا، فلن يقدروا على تحقيق أي مكاسب مع ملك إسبانيا لأنه لا يقهر. وفي يومنا هذا يخشى جانبه ملوك الشرق والغرب، ولم نر أن أحدًا منهم جرؤ على التعرض له؛ بل إنهم يمعنون التفكير في كيفية حماية أنفسهم والدفاع عنها في مواجهته، وقد تمكن من الانتصار عليهم عند حدودهم، ولم يستطيعوا التعافي فيما بعد على الرغم من كل ما يملكون من قوة. إذا كان هذا هو حالهم، فما هو باعثنا على الثقة، وما الذي نستند إليه في اعتقادنا أنهم سيتمكنون من التغلب عليه في أراضيه المملوكة له، والتي تدخل في حيازته وضمن نطاق ملكه في إسبانيا؟! إذا ما تدبرنا هذه الأسباب السليمة والمقنعة، فإنه يبدو لي يا إخوتي أن علينا التفكر مليًا فيما نحن مقدمون عليه، وأن علينا أن نكف يدنا عن خيار الحرب، ونسعى إلى سبيل أقل إضرارًا بالنسبة إلينا، وأن نسلك نهج العقلاء الذين يقولون إنه في حال تواجد شرين، فإن علينا اختيار أقلهما شرًا، فأن يكون الانسان أعور خير من أن يكون أعمى.

وأنا أدرك -مما شهدناه من هذا الملك من إنصاف شديد واعتدال- أنه سيقبلنا، فالزمن كفيل بذلك إذا ما كففنا عن إثارة غضبه. فعندما يتم ارتكاب الخطأ على نحو متهور، فإن باب الإصلاح يكون مفتوحًا في البداية، بالقدر ذاته الذي يُغلَق فيه لاحقًا بسبب التمادي في الغي. فكما جاء في قولنا المأثور "من لا يستطيع ربح المباراة، فمن الأجدر أن يحتال على الأمر". وأنا أعلم جيدًا إنه سيتيح لنا تلك الوسيلة، لما شهدناه من تمهله ورويته؛ لأنه لو كان يسعى إلى أمر آخر، لقضى علينا خلال وجبة غداء أو عشاء. وأنا أرى من وجهة نظري أنه لابد أن يكون قد أقدم على ذلك بدافع الشفقة والعطف الذي يشعر به تجاهنا، أو على الأقل تجاه البعض ممن يدرك أنهم لم يشاركوا من قريب أو بعيد في تلك الشرور، وهذه هي الحقيقة في واقع الأمر.

فلنعر انتباهنا إذن إلى صوت العقل ولنأخذ بذلك النصح الجيد، وننهى تلك اللعبة قبل أن تقودنا إلى هلاكنا، والذى سيتم على نحو لن يكون هناك أكبر أو أسوأ منه، حيث سيكون الضياع الكامل لأملاكنا وشرفنا ورؤوسنا. وعسى أن يكون نصحى أجدى من الوعود الجوفاء من قبل الأتراك ومسلمى شمال إفريقيا، أو النبوءات التى أودعنا بها ثقتنا فى حماقة. ولعل ذلك الملك -الذى نحيا تحت رعايته- بمقدوره التحلى بالعطف نحونا، وخاصةً تجاه من يدرك، وتم إبلاغه، بأنهم أبرياء من تلك الحماقة التى أقدمنا عليها، كما هو الحال مع الغرناطيين. حيث أمر أن تشملهم عنايته وأواهم فى أراضيه، دون أن يسمح بأن ينالهم سوء -سواء قل أم كثر- نظير ما أثبتوه من إخلاصهم، من خلال عدم تبنيهم للثورة، أو مجيئهم إلى تلك الجبال الميئوس منها، لكى يقاسوا كل تلك البلايا التى نعانى منها ريثما ننتظر خروج العسل من بطن النمل.

عسى أن يهدينا الله إلى ما فيه صالحنا، ويعيننا على اتباعه، ويثيبنى على قصدى من وراء ما بينته لكم من أمور، وأن يتغمدنا وأولادنا برحمته. واغفروا لى عدم إفصاحى عن اسمى بينما أعلن لكم عن نواياى، فقد أقدمت على ذلك خوفًا من فرية من يرغبون فى المضى قدمًا فى تلك المغامرة السيئة، ولطالما كانت الحقيقة كريهة فى نظر من لا يقدرونها.

كتبها فى البشرات واحد من أصدقائكم المقربين، الذى يسعى لتحقيق الصالح العام للجميع، فى اليوم العشرين من شهر رمضان المعظم لسنة ٩٧٧. فلينعم علينا الله من فضله وبركاته، ويتغمدنا فى رحمته". وقد جاء فى العنوان: "إلى السادة القادة، والزعماء، ونواب مجالس بلديات البشرات رعاهم الله". كان هذا هو نص الرسالة. لنرجع الآن إلى الحديث عن جيش السيد خوان دى أوستريا.

الفصل الحادى عشر

يتناول الكيفية التى أغار بها السيد خوان دى أوستريا على بلدة سيرون، وظفر بها.

فى أعقاب قيام السيد خوان دى أوستريا بتعزيز صفوف جيشه فى كانييس التابعة لبسطة، حيث قضى بها عدة أيام، وبعد تزوده بالمؤن وأسلحة المدفعية والذخائر من أجل الذهاب إلى نهر المنصورة -بعد أن علم أن دوق سيسا قد غادر غرناطة برفقة الجيش الآخر-، انطلق من ذلك المعسكر فى ثمانية آلاف من المشاة وخمسمائة فارس. كانت أول محطة له هى فوين كالينتى[١٣]، وبمجرد وصوله -الذى كان فى وقت العشية- أمر تيّو غونثاليث دى أغيلار أن يتوجه مع الفرسان التابعين له لتفقد سيرون، من بعض الروابى الكائنة على الناحية الأخرى من النهر فى مقابل الكرمات، وألا يبرحها إلى أن يحتل الجيش موقعه. أراد المسلمون القيام بما فعلوه فى المرة الأولى، لكن إبان اكتشافهم لوجود الفرسان، خرجوا هربًا إلى الجبل من أجل انتظار وصول النجدة ومعاودة الهجوم على رجالنا. لكن لدى رؤيتهم لعدم تقدم أحد لاحتلال البلدة، رجعوا فى تلك الليلة للتحصن بداخلها.

فى صبيحة اليوم التالى تحرك جيشنا فى صفوف منتظمة إلى أسفل مجرى النهر، وقد ترأس مشاة الطليعة القائد أنطونيو مورينو برفقة وحدات الجيش الإسبانى[١٤]

---

(١٣) معناها العين الدافئة أو الساخنة. (المترجمة)

(١٤) يختلف المؤرخون فى استخدام مصطلحات معينة، فكلمة "الإسبانى" هنا يفهم منها بشكل غير مباشر أن الموريسكيين ليسوا إسبانًا. هناك مؤرخون آخرون يؤكدون على أن الحرب قامت بين أبناء وطن واحد. (المراجع)

التابعة له، بينما تقدمهم الفرسان. حينما أدرك الأعداء أنه يتجه عامداً لفرض حصار عليهم، لم يأمنوا على أنفسهم في البلدة أو القلعة، فأضرموا فيها النيران ليلاً ، ثم تركوها تشتعل، وعاودوا صعود الجبل على النسق الذي اتبعوه أول مرة. لمّا شاهد السيد خوان دي أوستريا القلعة تحترق، وفطن إلى أن المسلمين قد هجروها، أصدر أوامره إلى تيّو غونثاليث دي أغيلار لكي يتوجه لشغل المعبر ذاته الذي كان قد احتله فرانثيسكو دي مندوثا. كما أمر السيد غارثيا مانريكي أن يبسط سيطرته على المنطقة المرتفعة من الجبل، التي تعلو البلدة من ناحية تيخولا، برفقة ألف وخمسمائة من حملة البنادق؛ حيث كانت تلك هي المعابر التي يمكن للمسلمين الدخول من خلالها بإمدادات الإغاثة. كان ما يربو على سبعة آلاف مسلم قد احتشدوا في بورتشينا -التي حضر إليها إيرناندو الحبقي-، لتلبية الإشارات النارية التي بات أهالي سيرون يرسلونها على مدار الليل بأسره. وفي الوقت الذي كانت قواتنا تسير فيه صوب البلدة، بدأوا يظهرون لهم في أثناء مجيئهم إلى أعلى النهر بسرياتهم وأعلامهم المرفوعة، وهم يدقون طبولهم ويعزفون ألحانهم، على هيئة التقديم للمعركة.

بادر السيد خوان دي أوستريا بإرسال السيد مارتين دي أبيلا لاستطلاع قواتهم مع الرماحين المائة التابعين لشريش الفرنتيرة، فقام بتفقدهم، وأبلغه بأن أعدادهم ضخمة، وأنهم يبدون عازمين على القتال. حينئذ أمر السيد خوان بتنظيم صفوفه، وحث القادة والجنود على الاستبسال؛ ثم ترجل عن صهوة فرسه، وتمركز في الطليعة أمام فرقة المشاة. كان الحبقي قد وضع في طليعة جيشه ثمانين فارساً، ثم أتبعهم بفرقة من المشاة قوامها خمسة وعشرين جندياً في الصف الواحد؛ وكانت القوات قد اصطفت في نظام محكم وكأن أفرادها من ذوي الخبرة الواسعة. كان هناك ذراعان حران من الرماة[١٥] يتقدمان صوب سلاح الفرسان التابع لنا وهما يطلقان نيران بنادقهما، وذلك في محاولة لاستثارة جنودنا وحملهما على شن هجوم غير منظم؛ وهو ما كان تيّو دي أغيلار

(١٥) من الموريسكيين. (المراجع)

سيقدم عليه بالفعل لو سمح له السيد خوان دى أوستريا فى القيام بذلك، لكن هذا الأخير أمره بالبقاء فى موضعه. قام السيد خوان بإبعاد الجانب الأيسر من جنود المقدمة، لكى يتمكن سلاح المدفعية من قصف الأعداء، وهو ما كان كافيًا لإقصائهم من الطريق الذى كانوا يشغلونه ودفعهم إلى العودة إلى الجبل باتجاه الموضع الذى كان يوجد به السيد غارثيا مانريكى؛ فحملوا عليه فى ثورة عارمة، حتى أن اليأس بدأ يدب فى نفوس جنودنا، وبادر الكثيرون منهم بالفرار. كانت قواتنا ستفنى عن آخرها، لولا ما قام به السيد خوان دى أوستريا لدى رؤيته لالتفاف العدو من خلفهم، حيث أرسل لنجدتهم ألفين من حملة البنادق؛ وقد تمكن أولئك من حسم المعركة لصالحنا، حينما شنوا هجومًا عنيفًا على الأعداء الذين صمدوا فى مكانهم لما يزيد عن الساعة.

فى تلك الآونة أصدر السيد خوان دى أوستريا أوامره إلى تيّو غونثاليث دى أغيلار لكى يصعد إلى أعلى الجبل مع مائة من الرماحين، على أن يصحبه اثنان من المرشدين ليدلاه على الطريق؛ لأن تضاريسه كانت بالغة الوعورة، حتى أنها كانت تبدو بالكاد مواتية لكى تطأها الخيول. استغرق القائد ما يزيد على نصف الساعة فى الصعود إلى الموضع الذى كان رجالنا يحاربون فيه، وعندما بلغه لم يكن قد بقى بحوزته سوى أربعين فارسًا من لوائه، لأن الباقين لم يقدروا على اتباعه. تزامن ذلك مع مواجهة السيد غارثيا مانريكى للأعداء، وشروعه فى زحزحتهم عن مكانهم بمساعدة قوات الإغاثة، فأمر القائد أغيلار بنفخ الأبواق، وبادر بالانقضاض عليهم. كانت الفوضى التى عمت جموع المسلمين عارمة، لدى مشاهدتهم للخيول فى بقعة كانوا لا يتصورون أن تتمكن من اعتلائها، مما أفقدهم الحماسة، وجعلهم يفرون هربًا. قام رجالنا بملاحقتهم، فقتلوا وجرحوا الكثيرين منهم، كما ألقوا القبض على البعض، واستولوا على سبعة من ألويتهم؛ أما الحبقى، فقد خلّف وراءه فرسه قتيلاً، وفر هربًا على الأقدام.

فى أعقاب إحراز ذلك الانتصار، باتت البلدة والقلعة فى قبضتنا، حيث أقام جيشنا فى بعض الكرمات المتاخمة للنهر، كما صدرت الأوامر إلى الجنود الممهدين للطريق لكى يدفنوا جثث المسيحيين القتلى، التى كانت لا تزال ملقاة على الأرض منذ

الهزيمة التى منينا بها من قبــل. مكث الســيد خوان دى أوستريا هنــاك لعدة أيام، لأن الزاد الضرورى لمواصلة التقدم كان قد أوشك على النفاد؛ وأمرنى بالذهاب إلى مدينتى أبدة وبياسة، والبقاع الداخلة فى نطاق كاثورلا، من أجل إمداد الجيش بالمؤونة[١٦]، وهو ما قمت به. عندما حان الوقت انطلق الجيش صوب تيخولا، بعد أن خلّف القائد أنطونيو سيدينيو Antonio Sedeño برفقة أربعة من فرق المشاة وكتيبة من الفرسان كمعقل فى سيرون، من أجل تأمين مواكب المؤن. كما ظل كريستوبال كاريّو Cristóbal Carrillo –وصيف ماركيز بيينا– فى القلعة مع مــائتى جندى كان الماركيز قد أرسلهم للاضطلاع بتلك المهمة. لنذهــب الآن لتناول ما كــان دوق سيسا بصدده فى ذلك الوقت.

(١٦) كانت وظيفة مارمول أثناء الحرب تتمثل فى إمداد الجيش بالمؤن، وإن كنا رأيناه يقوم بمهام عسكرية خلال تلك الحرب. (المراجع)

الفصل الثانى عشر

يتناول الكيفية التى توجه بها دوق سيسا برفقة جيشه إلى أورخيبا، وبعض المناوشات التى دارت بينه وبين ابن عبو أثناء إقامته فى ذلك المعسكر.

مكث دوق سيسا فى معسكره الأول طوال ثلاثين يومًا بانتظار الرجال والأسلحة والذخائر التى بُعِثَت إليه من غرناطة، وقد بلغ من شدته أنه بات لزامًا أن يتخذ من: المورِّد العام، والأب بدرو لوبيث دى ميسا، والمأمور القضائى خوان رودريغيث دى بيّافويرتى، معاونين له. لمّا باتت الأمور كلها على أهبة الاستعداد، وقام جلالة الملك بإصدار أوامره بالإسراع فى تلك المسألة نظرًا لوجود السيد خوان دى أوستريا بالفعل فى نهر المنصورة؛ كما أن أى تأخير كان سينجم عنه ضرر بالغ -خاصةً وأن الرجال أخذوا يمرضون بينما يجرى استهلاك المؤن-؛ توجه السيد بدرو دى ديثا لزيارة دوق سيسا، وطلب منه التعجيل بالانطلاق. وفى اليوم التاسع من شهر مارس، تحرك الدوق مع مراجع الحسابات فرانثيسكو غوتيّريث دى كوبيار، وكان يرافقه الجيش بأكمله الذى كان يضم: عشرة آلاف من المشاة، وخمسمائة من الفرسان، واثنتى عشرة قطعة من أسلحة مدفعية الميدان، والكثير من الفرسان القائمين عليها من أندلوثيا وغرناطة -كان بعضهم قد كُلِفَ بتلك المهمة، بينما صاحبهم البعض الآخر من تلقاء نفسه. قضى الجيش ليلته تلك فى بيثنار، حيث وصلت مؤخرة الجيش فى وقت متأخر للغاية، بداعى كثرة الأمتعة وسوء الطريق.

مكث الجيش فى ذلك الموضع على مدار يومين، وفى تلك الأثناء تم اكتشاف وجود بعض ألوية تابعة للمسلمين، إلا أن رغبتها فى المناوشة والمماطلة كانت تفوق عزمها

على القتال. لأنه إزاء مبادرة رجالنا إياها بالهجوم، تراجع الجنود وتوجهوا للاحتماء بقلعة لانخارون، وهى قلعة أسوارها ضعيفة، إلا أن موقعها يتميز بالتحصين فى حال الاشتباك بالأيدى. حينما ارتأى البعض أن يشن الجيش هجوماً على القلعة، لم يوافق الدوق على ذلك قائلاً إن المسلمين ليس لديهم ماء أو زاد فى الداخل، وإنه لابد لهم من مغادرتها خلال تلك الليلة، ليدعوا الممر مهجوراً وشاغراً أمام رجالنا، وهذا هو ما يسعى إليه؛ وقد تحقق بالفعل. فى اليوم التالى، الموافق الثانى عشر من شهر مارس، مضى جيشنا إلى لانخارون، وقد أبدى المسلمون رغبتهم فى شن هجوم عليهم، بيد أن السيد مارتين دى باديًا انقض عليهم برفقة فرسان الطليعة، وطاردهم حتى موضع كانيار، ولقنهم درساً لا ينسى حتى أنهم لم يعد لهم ظهور فيما بعد. عرف رجالنا -عن طريق أحد المسلمين الذين تم إلقاء القبض عليهم- كيف عهد ابن عبو بقلعة لانخارون إلى الرنديدى من أجل الحفاظ عليها بمساعدة أربعمائة من المسلمين. لكن المسلم[١٧] لم يجرؤ على المكوث بها، بل إن من بداخلها غادروها هاربين إبان رؤيتهم لقدوم قوات طليعتنا، وأخذوا يصيحون فى وجوه المسيحيين من الجانب الآخر من النهر.

لم يتسن لمؤخرة الجيش بلوغ لانخارون خلال تلك الليلة، كما ظل الجيش فى ذلك المأوى ليوم كامل فى انتظار موكب المؤن القادم من الساقية، ليبدأ مسيرته باتجاه أورخيبا فى يوم الرابع عشر من شهر مارس. كان فرانثيسكو غوتيرّيث دى كويبار قد غادر ذلك المعسكر، لكى يحيط جلالة الملك علماً بالحالة التى وصلت إليها شئون الحرب، وعاد فيما بعد إلى غرناطة حاملاً الأوامر حول ما يتعين القيام به، وحضر انعقاد المجلس مع سيادة الرئيس إلى أن تم إخضاع الأراضى بأسرها. كان الدوق قد أحسن تنظيم صفوف جيشه، وفقًا لتضاريس الأرض التى سوف يسلكها، لأنه كانت هناك صعوبة فى أن تطأها القوات نظراً لوعورتها. كانت فرق المشاة تنتشر فى صفوف يتكون كل منها من أحد عشر جنديًا، لكى يسهل تشكيلهم فى عجالة عندما تدعو الحاجة إلى ذلك.

---

(١٧) فى أحيان كثيرة يستخدم المؤلف المفرد للدلالة على الجمع. (المراجع)

كما احتلت أذرع حاملى البنادق القمم والممرات الخطيرة على كلا الجانبين، أما مركبات المهمات فقد تم تجميعها وقصرها فى موضع واحد، حيث شغل حملة البنادق الأجناب، بينما وضع سلاح الفرسان فى مكان يتيح له على الدوام الخروج لشن هجماته دون الإخلال بالصفوف. وقد اصطفت كتائب الريفيين البواسل فى المقدمة لاستكشاف الأرض برفقة نفر من الفرسان.

إبان بلوغ الممر الذى كنا نعتقد فى وجود ضرب من المقاومة عنده، ظهر الرنديدى والقادة الآخرون للعيان، وكانوا قد احتلوا قمم الجبال، ومعهم ما يزيد على ثلاثة آلاف مسلم. وقد جاءوا بإمارات تشير إلى رغبتهم فى الدفاع عن المعبر، وشرعوا فى القيام بأعمال وقحة، وشن بعض الهجمات الحماسية -وإن كانت ضعيفة الأثر. أمر الدوق بشن غارة ضخمة عليهم، فانقضت عليهم القوات بحيث لم يفلتوهم، وبادروا بالهرب دون توقف حتى توغلوا فى الجبال، بعد أن منيوا بخسائر ولم يحدثوا إلا أثرًا ضئيلاً، كما خلّفوا وراءهم بعض الأسلحة، وكان من بينها بندقية بديعة تعد الأروع بين ما شوهد فى تلك الأرجاء، لأنها كانت تطلق رصاصة تزن أوقية وربع. فى أعقاب إخلاء المعبر، توجه جيشنا ليعسكر فى البسيط التابعة لأورخيبا، ومكث بها ما يزيد على عشرين يومًا، لإقامة حصن يمكن أن نترك به حامية من ألف رجل، بغرض تأمين دوريات الإمدادات.

فى تلك الأثناء تمكن ابن عبو من إزعاج المعسكر عدة مرات، حيث أرسل أربعمائة من الجنود المسلحين بالبنادق فى يوم التاسع عشر من شهر مارس، فى محاولة لإلقاء القبض على أحد المسيحيين واستقاء الأخبار منه. وقد حضر أولئك فى توقيت كان سيمكنهم من إحداث بعض الأثر، لولا توقع دوق سيسا للأمر قبل حدوثه، حيث بادر بإرسال مائة فارس ومائتين من حملة البنادق، فاشتبكوا معهم لفترة ليست بالقصيرة وتغلبوا عليهم. قتل جنودنا سبعة عشر مسلمًا، واستولوا منهم على إحدى الرايات؛ كما قاموا بأسر اثنين من أهالى البشرات، وعرفوا منهما أعداد الرجال المرافقين لابن عبو فى بوكيّرة، وكيف أنه ينوى القتال عند ذلك المعبر الذى قام بتحصينه. بعد مرور

يومين على تلك الواقعة، أرسل ابن عبو ألفى رجل؛ وفى أثناء حضور دوق سيسا للقداس، لرغبته فى تناول القربان المقدس، وبينما كان راكعًا على ركبتيه أمام القسيس مقيم الشعائر، ظهر ثلاثمائة مسلم من حملة البنادق على الناحية الأخرى من النهر رافعين رايةً بيضاء، ومصطفين فى نظام محكم وكأنهم جنود محنكين.

عندما دقت الطبول إيذانًا بحشد القوات وإشهار الأسلحة، وأخذ الجنود يتجمعون تحت الألوية فى صخب كبير بعد أن شهدوا وصول الأعداء على مقربة من معسكرهم، قام الدوق -الذى تنامى إلى علمه ما كان من أمر القسيس المضطرب- بمخاطبته فى سكون قائلاً له أن يتمالك نفسه ويستكمل شعائر القداس من دون قلق؛ وفى أعقاب تناوله للقربان المقدس فى ورع شديد، بادر بالخروج لتنظيم صفوف قواته. أمر الدوق السيد خورخى موريخون Jorge Morejón -أحد أهالى أنتيقيرة- أن يتوجه للالتفاف خلف ظهور الأعداء مع من فى عهدته من الفرسان، بالإضافة إلى بعض جنود المؤخرة من حملة البنادق. وقد تصدى لهم هؤلاء، وتمركزوا أعلى ربوة صغيرة، ثم شرعوا فى الاشتباك مع رجالنا، فكانوا يخرجون فى جماعات متتالية مكونة من عشرة جنود فى نظام محكم للغاية، كما لو كانوا جنودًا نظاميين فى الميليشيات المقاتلة. وقد تمكنوا على هذا النسق من إقلاق جيشنا، وحمله على إشهار السلاح والتأهب حتى الساعة الرابعة مساءً. عندئذ، وبعد أن قاموا بتحركات تظهر نيتهم فى التراجع إلى الجبل الكائن فى المنطقة الجنوبية، أطلت الرايات مع حشود المقاتلين عند بوكيّرة. بيد أنه بحلول ذلك الوقت كان دوق سيسا قد توقع مخطط الأعداء فى لفت الأنظار إلى ناحية، من أجل الانقضاض من ناحية أخرى؛ فبقى فى المواجهة، وأمر السيد خورخى موريخون بالتراجع، بينما مكث هو مع قواته المصطفة فى انتظار نزول الأعداء.

فطن الجميع فيما بعد إلى أن المسلمين لم يكونوا قد حضروا من أجل القتال، وأن ذلك العرض الذى قدموه كان يهدف إلى إثارة القلق فى صفوف جيشنا، والحيلولة دون إدراك مدى الضعف الموجود فى جانبهم. ظل هؤلاء وأولئك شاهرين أسلحتهم على هذا النحو. وقد أشعل المسلمون كميات كبيرة من النيران فى سائر أرجاء الروابى المحيطة،

وباتوا يطلقون صيحاتهم القتالية، ويدقون الطبول وينفخون الأبواق حتى انتصاف الليل، ثم تراجعوا إلى بوكيّرة بحلول الساعة الرابعة فجراً. كان دوق سيسا شاهراً أسلحته طوال الوقت إلى أن عرف بتراجع الأعداء، وعندها أصدر أوامره بعودة الألوية إلى ثكناتها. لنترك الآن دوق سيسا، الذى سنرجع إليه لاحقًا لذكر بعض الأمور التى وقعت خلال ذلك المعسكر، وننتقل لتناول الأمر الذى صدر فى تلك الآونة بإجلاء الموريسكيين المسالمين من غوطة غرناطة.

الفصل الثالث عشر

يتناول الكيفية التى تم بها إجلاء الموريسكيين المسالمين من بقاع غوطة غرناطة، واقتيادهم إلى المواضع الداخلية، والنسق الذى تم اتباعه للقيام بذلك الأمر.

كان حرمان الثوار من مساندة الموريسكيين المسالمين الباقين فى مملكة غرناطة هو أكثر الأمور موائمة من أجل إخضاعهم إلى الحاجة، وإيصالهم إلى حالة العوز الشديد؛ لأن إيداع الموريسكيين فى بقاع داخلية من المملكة، كان يحول تمامًا بينهم وبين كل السبل المريحة التى تتيح لهم إعادة تشكيل صفوفهم وتعزيزها بالرجال، كما أنها تقطع الطريق على وجه الخصوص أمام ما كانوا يمدوهم به فى الخفاء من تنبيهات وأسلحة ومؤن. كان هذا هو الرأى الذى طالما اعتنقه الأب ألونسو نونيث دى بوهوركيس، وقد توصل أعضاء المجلس بالفعل إلى مشاركته الرأى، وعلى وجه الخصوص دوق سيسا والسيد بدرو دى ديثا. بعد أن دار العديد من المناقشات فى هذا الصدد، وتم طرحه على جلالة الملك، تقرر القيام بذلك الإجراء.

راودت جلالة الملك رغبة عارمة فى تولى السيد خوان دى أوستريا مسألة إجلاء موريسكيى وادى آش، وبسطة، والبقاع التى تدخل فى إطارها، قبيل دخوله إلى نهر المنصورة. وكان هذا هو ما كتبه جلالته فى الرسالة التى بعث بها فى الرابع والعشرين من فبراير، لكى يجرى تجميعهم بأقل قدر ممكن من القلاقل، وإفهامهم أن ذلك الإجراء يتخذ من أجل مصلحتهم، والسماح لهم باصطحاب نسائهم وبنيهم وممتلكاتهم المنقولة. بيد أن السيد خوان لم يقم بذلك لأنه كان موجودًا بالفعل

فى معسكر سيرون إبان تسلمه لتلك الرسالة، حيث تراءى له أنه ليس من المناسب العودة إلى الوراء أو تقسيم الجيش؛ وإنه سيضحى بالإمكان الاضطلاع بتلك المهمة فى ظروف أفضل، حينما تجىء الألوية التى تضم ألفين من جنود المشاة التابعين لقشتالة ولملكة طليطلة، والذين حضروا تحت قيادة السيد خوان نينيو دى غيبارا Juan Niño de Guevara. حيث تتوقف القوات فى أحد الأيام بتلك المدن، لاستعراض الأهالى، لأنه كان من الضرورى أن يتم حبسهم فى الكنائس فى اليوم ذاته -على النحو الذى اتبع مع أهالى البيّازين فى غرناطة- وذلك للحيلولة دون تمكنهم من الفرار إلى الجبال؛ وهو أمر لن يتوانى أحد منهم عن القيام به إذا ما أتيحت لهم الفرصة، نظرًا للأسى الشديد الذى كانوا يشعرون به لإرغامهم على هجر ديارهم؛ وقد كان هذا هو ما كتبه السيد خوان فى رسالته التى بعث بها إلى جلالة الملك.

فى أعقاب ذلك، كتب جلالة الملك خطابًا إلى السيد خوان دى أوستريا فى الخامس من شهر مارس، مبديًا استحسانه لما ذكره السيد خوان. كما أخبره جلالته أن المجلس الملكى قد اتخذ قرارًا -بعدما صدر الأمر الأول الذى أرسل إليه- بعدم الإبقاء على أى موريسكى مسالم فى مملكة غرناطة بأسرها، وأنه يرى أن يكلف السيد بدرو دى ديثا بتلك المسألة، ويزوده بالرجال اللازمين للاضطلاع بها، لكونه أقل انشغالاً منه ومن دوق سيسا. استمر السيد خوان دى أوستريا فى إبداء الصعوبات الشديدة التى تقف فى وجه ذلك الأمر، نظرًا لقلة عدد الرجال المتوافرين خارج صفوف الجيشين؛ وقال إنه لدى إسناد تطبيق القرار إلى الرئيس، سوف يتعرض للصعوبات ذاتها التى يواجهها هو؛ وإنه لا يمكن بحال من الأحوال استقطاع جزء من الرجال الموجودين فى حوزته، وإنه لا يمكن الإقدام على شأن عسير للغاية كإجلاء الموريسكيين من ديارهم من دون اللجوء إلى القوة العسكرية. كما أضاف أنه من الأجدى الانتظار إلى حين قدوم الرجال من قشتالة -على النسق الذى ذكره-، وإلى أن يحقق النتائج المرجوة من المهمة التى يتولاها -بوصفه رجلاً يميل إلى القيام بكل الأمور بذاته. بيد أن جلالة الملك -العازم على أنه من الأحرى عدم التأجيل- أخبر السيد خوان فى رسالة أخرى صادرة فى الحادى والعشرين من مارس، أنه قد عهد إلى الرئيس بتنفيذ تلك

المهمة بمساعدة أهالى المدن، والرجال التابعين لسادة الإقطاع الموجودين فى الأماكن القريبة من غرناطة، وذلك لتفادى تقسيم الجيش؛ كما أنه قد تراءى لجلالته عدم الانتظار إلى حين قدوم الرجال من قشتالة، من أجل الحيلولة دون فوات الفرصة.

صدرت الأوامر إلى السيد خوان عبر تلك الرسالة لكى يبعث بها إلى سيادة الرئيس، وينبهه إلى ما تم إقراره فى هذا الصدد. كانت هناك بعض الشكوك حول بقاء بعض الموريسكيين البارزين من نواب مجالس البلدية، ممن لديهم امتيازات خاصة متعلقة بحيازة الأسلحة، وآخرين ممن لم يحملوا السلاح، وقاموا بتصرفات رائعة تفوق العادة عقب اندلاع الثورة، أو إذا كان قرار الإجلاء شأنًا عامًا لا يستبقى أحدًا. فأبدى جلالة الملك -بوصفه أميرًا عادلاً- رغبته فى الإبقاء على الامتيازات والأفضلية لمن يستحقونها؛ وهكذا صدرت الأوامر تبعًا لذلك. فى أعقاب وصول ذلك الأمر إلى السيد بدرو دى ديثا، أدخل الإجراءات المتعلقة بإخلاء قرى غوطة غرناطة محل التنفيذ. فعين مشرفين على الأمر من نواب مجالس البلدية والرجال البارزين فى المدينة، لكى يتوجهوا لحبسهم فى الكنائس؛ وأن يخبروهم كيف أن جلالة الملك -حرصًا منه على مصلحتهم- يود إبعادهم عن الخطر المحدق بهم، وتوطينهم فى قرى داخلية يعيشون فيها آمنين، إلى حين الانتهاء من تلك الأمور. كما أمر بأن يتركوهم يبيعون كل ممتلكاتهم المنقولة، وألا يسمحوا بتعريضهم لأى نوع من المضايقات. ومن أجل أن يتسنى لهم تصريف الغلال والماشية التى لا يمكنهم حملها معهم على نحو أفضل، أمر الرئيس المورد العام بأن يأخذها كمؤن للمحاربين، وأن يدفع إليهم ثمن القمح والشعير فى التو من نقود الضرائب، وأن يمنحهم مقابلاً عادلاً ومنصفًا للماشية.

أسفرت تلك التدابير عن طمأنة الموريسكيين، وفى يوم أحد السعف[١٨] -الموافق التاسع عشر من شهر مارس لعام ٧٠- تم إيداعهم فى الكنائس فى خضم

---

(١٨) هو يوم الأحد الأخير فى الصوم الكبير الذى يتعبد به المسيحيون على مدار أربعين يومًا، ويعد بداية لأسبوع الآلام. انظر: Diccionario de la lengua española, Real Academia Española, vigésima primera edición, Madrid 1992, tomo I, Pág. 773. (المترجمة)

مشاعر تحوى من الهدوء مقدار ما تحويه من الحسرة، واقتيدوا إلى المشفى الملكى فى غرناطة. وقام خوان سانشيث دى أوبريغون Juan Sánchez de Obregón -أحد الوجهاء الأربعة والعشرين لتلك المدينة- بإجلاء موريسكيى أوتورا مع الرجال الذين كانوا يقطنون هناك. أما موريسكيو أوخيخار -العليا والسفلى- فقد تولى السيد بدرو دى بارغاس Pedro de Vargas إخراجهم بمساعدة الرجال المقيمين فى القرى ذاتها، ورجال آخرين من المدينة؛ بينما تولى السيد مارتين دى لوايسا Martín de Loaysa تجميع موريسكيى تشوريّانا برفقة فرقة من المشاة التابعين لبيّا نويبا دى لا سيرينا Villanueva de la Serena. كان هذا هو الفريق الأول، أما الفريق الثانى الذى اضطلع بالمهمة ذاتها فكان يضم كلاً من: بدرو نونيو، الذى توجه إلى البلوط برفقة قوات مشاة تابعة للمدينة، وألونسو لوبيث دى أوبريغون Alonso López de Obregón، الذى اصطحب رجالاً من الأخوية والدائرة اللتين يتبعهما، وتوجه إلى أرميًا. كما كان هناك خوان مورينو دى ليون Juan Moreno de León الذى قصد بيليثينا Belícena، والسيد دييغو ثاباتا Diego Zapata الذى توجه إلى الطرفى، أما بينوس Pinós فقد ذهب إليها لويس دى بيخار Luis de Béjar -كبير حجاب غرناطة- برفقة رجال كانوا بالمدينة، وكان قد منح بعضهم إلى كل من تقدم ذكرهم، بالإضافة إلى من أحضرهم السيد دييغو ثاباتا معه. فيما يتعلق بالفريق الثالث، فقد ضم القائد السيد أنطونيو دى تيخيدا Antonio de Tejeda -أحد أهالى شلمنقة Salamanca- الذى اتجه إلى الهندين مع فرقة المشاة التابعة له، والسيدين بدرو وميغيل دى ليون، اللذين قصدا غابيا لا غراندى (الكبرى) Gabia la Grande مع الجنود التابعين لميدينا ديل كامبو.

فى أعقاب القيام بذلك، تم إعلان منشور رسمى يدعو سائر الموريسكيين الذين بقوا فى غرناطة وباقى القرى والضياع التى تدخل فى نطاقها أن يغادروها وإلا تعرضوا لعقوبة الإعدام. تجمع موريسكيو الفريق الأول فى تشوريّانا، وتوجهوا فى اليوم التالى إلى سانتا فى برفقة دوريات الحراسة، ومنها إلى إيّورا وقلعة يحصب فى صحبة دورية حراسة أخرى من الجنود. وقد أبقوا عليهم فى تلك المدينة لمدة يوم، من أجل انتظار مجىء موريسكيى الفريق الثانى، الذين كانوا قد حشدوا صفوفهم فى الطرفى،

ثم غادروها صوب موكلين مرورًا ببينوس، حيث استاقوا موريسكيى بلدة موكلين وضياعها، ثم عادت الدورية لاقتيادهم إلى قلعة يحصب، التي اجتمعوا فيها مع الآخرين، وتوجهوا معًا إلى البقاع التالية: ألكاوديتى، وبرج السيد خيمينو (تورّى دى دون خيمينو Torre de don Jimeno، ومينخيبار Mengíbar، وليناريس Linares، ونزل أركيّوس Arquillos، وسانتيستيبان ديل بويرتو Santisteban del Puerto، وكاستيّار، وبيّا مانريكى Villamanrique، وبالديبيناس Valdepeñas، وألماغرو Almagro، والمدينة الملكية Ciudad Real، حيث سلموهم إلى الجهات القضائية للنظر فى شأنهم، وقد أمسوا من قاطنى تلك البقاع.

أما الفريق الأخير الذى توجه إلى الهندين وغابيا، فقد ذهب فى اليوم التالى إلى كولوميرا فى رفقة دورية حراسة ، حيث اصطحبهم أهالى تلك البلدة إلى كامبيو دى أريناس Campillo de Arenas، ومنها سلموهم يدًا بيد إلى كل من: جيّان، وبياسة، وبرج بيروخيل Perogil، وبيّا كاريّو Villacarrillo، وبرج خوان أباد la Torre de Juan Abad، حيث أسلموهم إلى حاكم جبهة مونتييل من أجل أن يتولى توزيعهم على تلك الأماكن. بلغت تلك الأنباء جلالة الملك فى أثناء وجوده فى قرطبة، وقد سر جلالته كثيرًا للسهولة التى تم بها تطبيق الأمر، لأن القادة كانوا قد وضعوا أمامه آلاف المعوقات. كما امتدح جلالته الهمة العالية والعزم اللذين اتسم بهما تنفيذ تلك المهمة. لنترك الآن مسألة طرد باقى الموريسكيين المحاربين -والتى سنتناولها حينما يرد ذكرها-، ولنتوجه إلى السيد خوان دى أوستريا، الذى كان ينتظرنا منذ فترة من الزمن فى نهر المنصورة.

الفصل الرابع عشر

يتناول الكيفية التى أغار بها السيد خوان دى أوستريا على تيخولا، والحوارات التى دارت بين القائد فرانثيسكو دى مولينا والسيد فرانثيسكو دى كوردوبا والحبقى، من أجل إقناعه بالاستسلام.

انطلق السيد خوان دى أوستريا من معسكر سيرون، الذى قضى به عدة أيام من أجل اتخاذ التدابير اللازمة لإمدادات المؤن، فى اليوم الحادى عشر من شهر مارس، وتوجه فى اليوم ذاته على رأس جيشه إلى تيخولا. تقع تلك البلدة على مسافة فرسخ من سيرون إذا ما سرنا فى اتجاه منبع النهر فى الجهة ذاتها. وكان المسلمون قد شيدوها قديمًا على تل يتسم بالوعورة والانحدار، ومحاط من جميع الاتجاهات بصخور شديدة الارتفاع لا تفضى سوى إلى مدخل واحد فقط من ناحية الجبل، ويصعب للغاية بلوغه. أما قاطنوها، فقد هبطوا للعيش عند سفح التل، وعلى مقربة من البساتين والنهر، لأن المساكن القديمة كانت بعيدة للغاية عن متناول أيديهم. وقد قام أولئك، فى خضم الأوضاع التى تلت اندلاع الثورة، بترميم الأسوار المهدمة، واحتشدوا فى البقاع المرتفعة مع نسائهم وبنيهم؛ كما تحصنوا بأفضل السبل المتاحة لهم، حينما أدركوا أن السيد خوان دى أوستريا سوف يشن حملة عليهم، وأودعوا بالداخل كاراكاش برفقة خمسين من الأتراك للتأمين. وانطلاقًا من ثقتهم فى حصانة الموقع ووفرة المؤن، ظنوا أنهم سيتصدون بالداخل لأى هجوم عنيف.

عسكر جيشنا فى الأماكن المنخفضة والبساتين، وبناء على رغبة السيد خوان دى أوستريا فى محاصرة الأعداء وقطع الإمدادات عنهم، أمر السيد بدرو دى باديًا أن

يتوجه مع وحدات الجيش الإسبانى التابعة له لاحتلال الجبل الكائن فى المنطقة المطلة على بورتشينا، والذى يمكن أن تأتيهم النجدة عبره؛ وأن يبسط ألفًا من حملة البنادق فى وحدات الجيش التابعة للسيد لوبى دى فيغيروا سيطرتهم على جبل آخر يقع باتجاه سيرون، حيث يتعين نصب أسلحة المدفعية. كان هناك ألف من المقاتلين المسلمين بداخل الحصن، من بينهم ثلاثمائة من الجنود المسلحين بالبنادق؛ أما البقية فكانت بحوزتهم أسلحة متهالكة لا تمثل أهمية كبرى، وقد أراد هؤلاء الخروج فى بعض الأحايين للاشتباك مع المسيحيين، وكانوا دائمًا ما يتراجعون بعد أن يمنوا بخسائر. أولى السيد خوان دى أوستريا عنايته إلى نصب أسلحة المدفعية لتحيط بهم من ناحيتين، ولم يكن بالإمكان البدء فى قصفهم قبيل يوم الحادى والعشرين من مارس، نظرًا للصعوبة البالغة التى واجهت رفع المدفعية الثقيلة إلى أعلى، وقد بلغت الصعوبة حدًا تعين معه تفكيك أربع قطع مدفعية من البرونز عن قاعداتها، وكانت من النوعية التى يطلق عليها ابتكارات حديثة، حيث تزن الواحدة منها ثمانية عشر قنطارًا[19]، وذلك بغية رفعها فى الهواء بواسطة آلة جديدة. حيث يتم وضع جذعى شجرتين سميكتين وضخمتين للغاية على إحدى الصخور قائمة الانحدار، وتُوضَع أعلاهما قطع المدفعية، حتى يتم رفعها إلى الأعلى باستخدام البكرات والحبال المبرومة -يا للمدى الذى يمكن لعقل وقوة الرجال بلوغه!. كما تم اللجوء إلى الأسلوب ذاته لرفع عربات المدافع، والعجلات، والألواح السميكة، والأخشاب اللازمة لصنع المنصة.

فى خضم تلك الأحداث طلب القائد فرانثيسكو دى مولينا الإذن من السيد خوان دى أوستريا من أجل كتابة رسالة إلى الحبقى ينصحه فيها بالاستسلام، لأنه كان يرى أنه سيأخذ بمشورته. وكان على معرفة بالحبقى قائد المسلمين، وأقام من قبل فى منزله ببلدة الكودية فى أثناء توليه منصب العريف على محاربى وادى آش؛ وكان الحبقى قد أسدى إليه أفضالاً كثيرةً عدة مرات قبل رحيله إلى الجبل. كان الحبقى فى تيخولا قبيل

(١٩) القنطار يعادل مائة كغم حاليًا، وكان يعادل ستة وأربعين كغم قديمًا. (المترجمة)

وصول جيشنا إليها بفترة وجيزة، ولمّا كان رجلاً لا يطيق الحصار فقد غادرها إلى بورتشينا، التى حشد بها جحافل المسلمين فى نهر المنصورة. ونظراً لأن فرانثيسكو دى مولينا كان على دراية بالعلاقة القائمة بينه وبين السيد إيرناندو دى بارَاداس، فقد أراد أن تتم تلك المسألة من خلال ذلك الأخير، لثقته فى أواصر الصداقة التى تربط بينهما.

حينما مُنِحَ فرانثيسكو الأذن الذى كان يطلبه، بادر بالكتابة إليه يبلغه أنه يسره للغاية مقابلته، من أجل تباحث عدة أمور مجدية وضرورية للغاية لصالح المسيحيين والمسلمين: وكذلك تنظيم المسألة المتعلقة بالأسرى، لأن الأتراك كانوا يشكون من أنه حينما يُلقَى القبض على بعض منهم فإنه يتم شنقهم؛ وأنه لا تُراعى معهم قوانين الحرب، بوصفهم جنوداً متطوعين وليسوا رعايا متمردين. كان هذا هو فحوى الرسالة، بيد أن المسلم -الذى كان يتميز بحسن الإدراك- فطن إلى المغزى الذى تمت مخاطبته من أجله، فأجاب بأنه سيبتعد عن بورتشينا فى اليوم التالى لمسافة تبلغ نصف فرسخ، وسوف يصطحب أربعين من الفرسان وخمسين من المشاة المسلحين بالبنادق، وأن على القائد فرانثيسكو أن يحذو حذوه ويخرج فى عدد مماثل من جانبه، وهناك سيتباحثون فى الشأن الذى ذكره. خرج فرانثيسكو دى مولينا إلى الموضع فى أربعين فارسًا -كان من بينهم بعض النبلاء والقادة الذين حضروا لكى يشاهدوا الحبقى والأتراك القادمين برفقته-، وعندما ألفى المسلم ينتظره مع أربعين من الفرسان وخمسمائة من المشاة المسلحين بالبنادق، أرسل من يخبره إنه ليس من الصواب أن يأتى فى عدد من الرجال يفوق من فى حوزته، وأن عليه أن يخلّف وراءه المشاة ويتقدم إلى الأمام فى صحبة الفرسان فقط.

استحسن المسلم ذلك القول، وتقدم القائدان. كان قائدنا بمفرده، بينما حضر الحبقى مع اثنين من الأتراك على كلا الجانبين، لأنهما بوصفهما أناسًا ينزعون إلى الشك، لم يكونا يثقان فى قائدهما، فرغبا فى الحضور والاستماع إلى ما يتم الاتفاق عليه. ظل الرجلان يتحدثان لبرهة من الوقت فى إطار ما تناوله فرانثيسكو دى مولينا فى رسالته،

وخلصت أقوالهما إلى أنه من المنطقى أن يتم إحسان معاملة السجناء، وأن ما خلا ذلك سيكون أمرًا ينم عن القسوة، وعليه فإن هذا هو ما ينبغى الالتزام به لأنه سيسعدهما للغاية. عندئذ أراد فرانثيسكو دى مولينا إبعاد الحبقى عن الرجلين التركيين ليخبره بالشأن الأساسى، فقال له بدافع الصداقة: "هذان الرجلان الشريفان التركيان لابد وأنهما يودان الشرب، وها قد تم إحضار بعض الأطعمة الجافة والمشروبات إلىّ؛ فلنطعمهما ونشرب معًا فى جو من الحوار الودى، وهو ما سيكون مجديًا لعلنا نتخلى عن طعن بعضنا البعض بالرماح غدًا". فطن المسلم إلى الهدف الذى يرمى إليه قائدنا من وراء قوله، فقال إنه سيسعده ذلك. أمر فرانثيسكو دى مولينا أن تُجلَب إليه دابة النقل التى تحمل الأطعمة وبعض قنانى النبيذ[٢٠]، وتقدم التركيان لكى يطعما ويشربا مما فى السلال.

فى أثناء تناول الرجلين للطعام والشراب، تسنى لفرانثيسكو الابتعاد بالحبقى عنهما، وقال له الكلمات التالية: "أيها السيد إيرناندو الحبقى، أنتم تعلمون أننى لم آت إلى هنا إلا مدفوعًا بمشاعر الحب التى أشعر بها تجاهكم نظير حسن الضيافة الذى لقيته فى داركم. وأنا أنصحكم بوصفى صديقًا لكم أن ترجعوا إلى خدمة صاحب الجلالة، وأن تضعوا فى اعتباركم مدى ضيق السجن الذى يضم بين جنباته من يخدمون الطغاة إذا ما رغبوا فى الاستمرار فى طغيانهم؛ وأن من قاموا بخدمة الملكين الكاثوليكيين، وحافظوا على ولائهم لهما، أُسبِغَت عليهم النعم؛ كما أن الأفراد المنحدرين من سلالتهم هم فى الوقت الحالى من الموسرين وأصحاب المقام الرفيع. ولمّا كانت الفرصة سانحة أمامكم لكى تنضموا إلى تلك الفئة، فإنه ليس من الحكمة أن تدعوها تفوتكم". أجاب المسلم على تلك الكلمات بقوله إنه يسعده للغاية تلك المشورة التى يسديها إليه لكونه صديقًا حقيقيًا، وأنه يسره الأخذ بها، بيد أن الأمر يجب أن يتم على نحو لا ينجم عنه إلحاق الضرر بأى من الأتراك أو المسلمين. فردّ فرانثيسكو دى مولينا: "هناك العديد من السبل التى يمكن أن ننتهجها لكى يتسنى لنا الوفاء بذلك.

---

(٢٠) من الغريب أن يشرب الأتراك الخمر، ولعله سهو من المؤلف. (المراجع)

والخدمة التى يسعكم القيام بها فى الوقت الحالى هى تقديم النصح للمسلمين، من أجل أن يتركوا نهر المنصورة ويحتشدوا جميعًا فى البشرات؛ ولاحقًا عندما تجتمعون سويًا فسيمسى بمقدوركم إقناعهم بالاستسلام. فأنتم ترون مدى ضآلة قدرتهم على التصدى لسطوة ملك ذى نفوذ عريض، وهو على أتم الاستعداد ليشملهم بعطفه إذا ما وضعوا أنفسهم طواعيةً بين يديه، لكونهم رعاياه وأبناء مملكته".

أجاب الحبقى بأنه فيما يتعلق بالحصون، فسوف يسعى لأن يرى جلالة الملك منه ما يدل على رغبته فى الانخراط فى خدمته، أما باقى الأمور فإنه سوف يتداولها مع ابن عبو ومع أقربائه وأصدقائه، على أن يمنحه الرد فى غضون عشرة أيام. وهكذا ودعا بعضهما البعض دون أن يفطن الرجلان التركيان إلى فحوى ما دار بينهما -وفقًا لما أكده لنا الحبقى فيما بعد. وقد قام القائد المسلم بكتابة رسالة أخرى إلى فرانثيسكو دى مولينا يطلب فيها الالتقاء به مرة أخرى، ولمّا كان القائد فرانثيسكو منهمكًا فى نصب أسلحة المدفعية، فقد بعث إليه السيد خوان دى أوستريا بالسيد فرانثيسكو دى كوردوبا ليرى ماذا يريد؛ وكان ذلك الأخير قد أتى خلال تلك الأيام إلى المعسكر بأمر من جلالة الملك، من أجل أن يحضر جلسات المجلس بدلاً من لويس كيخادا. توجه السيد فرانثيسكو لمقابلته، فأكد له المسلم الوعد الذى كان قد منحه لفرانثيسكو دى مولينا؛ كما أنه غمره سرور عامر على أثر العرض الذى قدمه إليه السيد فرانثيسكو دى كوردوبا بالنيابة عن السيد خوان دى أوستريا.

الفصل الخامس عشر

يتناول الكيفية التى أغار بها السيد خوان دى أوستريا على بلدة تيخولا، والظفر بها.

فى أعقاب عودة الحبقى إلى بورتشينا فى اليوم الحادى والعشرين من شهر مارس، أمر أن ينادى بين الناس أنه على جميع المسلمين الاحتشاد فى البشرات. وقال إنه لن يجديهم أن يحتموا بالحصون، لأن المسيحيين سيذبحونهم جميعًا على غرار ما فعلوه بأهالى غاليرا، وما سيقدمون على فعله بأهالى تيخولا، لو لم يغادروا فى الوقت المناسب قبل أن تُهدَم الأسوار على رؤوسهم. كما قام بإرسال أحد المسلمين فى تلك الليلة إلى المحاصرين، ليخبرهم بأن يخرجوا من الحصن بأكبر قدر ممكن من السرية، لأنه لن يتسنى له إغاثتهم بأى حال من الأحوال. فى تلك الآونة كانت كافة أسلحة المدفعية قد أضحت على أهبة الاستعداد لقصف المدينة، وكانت قد وردت إلينا معلومات مؤكدة حول أوضاع المحاصرين بواسطة أحد المرتدين الصقليين يدعى فيليبى Felipe -وكان مسقط رأسه فى مدينة ترابانا Trapana- ورجل تركى يدعى مامى Mami، كان قد أتى إلى معسكرنا. حيث تولى ذلك الرجل إخبارنا عن الأناس الموجودين بالداخل، وكيف أن المسلمين قد تملكهم الفزع، حتى أن الأتراك لا يستطيعون حملهم -باستخدام العصى- على التوجه ناحية الأسوار خوفًا من المدفعية. كما أنهم سعوا إلى الهرب خلال الليلة المنصرمة عندما أتى رسول الحبقى، وبما أنهم لم يتمكنوا من ذلك، فإنهم ينتوون مغادرة الحصن والفرار فى أثناء الليلة القادمة عبر بوابة البلدة المفضية إلى النهر، بعد أن فقدوا الثقة فى قدوم النجدة إليهم من بورتشينا؛ على الرغم

من وجود البعض ممن لم يفقدوا الأمل بعد فى إنقاذهم. كما أن لديهم كميات وفيرة من القمح والشعير، وبعض المطاحن اليدوية التى يطحنون فيها الحبوب، وقدر ضئيل من اللحوم، ولا يتوفر لديهم أى صنف آخر من صنوف الزاد، وأنهم يشربون من ماء أحد الصهاريج قُطِعَ عليهم السبيل بحيث لم يعد بإمكانهم التزود بالماء من النهر، فكانوا يوزعون الماء بكميات صغيرة. وهناك أعداد غفيرة من النساء والأطفال، بحيث لن يكفيهم الماء لمدة يومين؛ والمسلمون يميلون إلى تسليم أنفسهم، لولا الأتراك الذين يحولون بينهم وبين ذلك. شرع رجالنا فى قصف البلدة والقلعة فى ذلك اليوم الموافق الثانى والعشرين من شهر مارس - وكان يوم الأربعاء فى أسبوع الآلام - من الصباح وحتى المساء، وذلك من ست جهات. على الرغم من أن الأسلحة القاذفة التى كانت منصوبة فى ناحية القلعة قد أحدثت أثراً بالغاً، وكان يبدو أن قواتنا بمقدورها الدخول عبرها، فقد ارتأى السيد خوان دى أوستريا عدم القيام بذلك، نظراً للعوائق التى عادة ما تتعرض لها الهجمات الليلية. لما كانت بداية تلك الليلة مصحوبة بسحب بالغة الضخامة وظلمة وبعض الأمطار، فقد قام المسلمون -الذين أدركوا أنهم هالكون- باستغلال فرصة تلك الأجواء وغادروا البلدة من مواضع شتى؛ حيث تفرقوا هرباً عبر الأودية الصغيرة والوهاد الجبلية -كل منهم حيثما يقتاده الحظ- فأطلقوا العنان لأقدامهم لتحملهم أينما تشاء وتقودهم حيث تريد[٢١].

استشعر الرجال الذين يتولون مهام الحماية ما يحدث، وأطلقوا النفير حينما أدركوا أن المسلمين يهربون؛ فهرع الجنود إلى موضع القصف، واقتحموا البلدة من خلاله دون أن يلاقوا من يتصدى لهم، على نحو جعل المكان يمتلئ بالمسيحيين فى غضون فترة قصيرة للغاية، وكذلك بالأعداء الذين وقعوا فى قبضة نقاط الحراسة التى انتشرت فى سائر الأرجاء. وقع الكثير من القتلى، وتم أسر أعداد غفيرة من النساء،

(٢١) يورد بيريث دى إيتا قصة هروب الموريسكيين فى ظلمة الليل، ويتحدث عن تواطؤ مسلم ارتدى زى الحراس المسيحيين. (المراجع)

والظفر بغنائم ثمينة للغاية كان المسلمون قد جمعوها فى ذلك المكان المنيع. كان الأعداء سينالهم أضرار تفوق بكثير ما لحقهم لولا الظلمة الحالكة لتلك الليلة، ولولا تمكنهم من معرفة أسماء المسيحيين وكلمة السر الخاصة بهم، وهكذا كُتِبَ للكثير من المسلمين متحدثى اللغة الإسبانية ورفاقهم النجاة.

كانت هناك فوضى عارمة بين صفوف رجالنا، لأنهم غادروا الجبهات ومواضع المدفعية حتى يتوجهوا للسطو على البلدة. وهو ما كان سيشكل أمرًا على قدر بالغ من الأهمية بالنسبة للأعداء لو هب البعض لنجدتهم، على الرغم من أن السيد خوان دى أوستريا أصدر أوامره بتجميع أكبر عدد من الجنود الذين تسنى لهم الفرار، كما أرسل أشخاصًا إلى مواقع المدفعية بدافع اتخاذ الحيطة. لمّا كان العديد من الجنود يفرون بالغنائم، فقد بادر السيد خوان بتشكيل فرقة من أربعين فارسًا تجوب أرجاء سيرون، آمرًا إياهم ألا يسمحوا بعبور أى من الجنود. كاتب السيد خوان دى أوستريا كلاً من السيد خوان إنريكيث فى بسطة وأنطونيو سيدينيو Antonio Sedeño فى سيرون، لكى يلقيا القبض على كل من يتوجه إلى تلك الأرجاء ويبعثا به إليه؛ وقد اتخذ كل تلك التدابير فى سرعة فائقة خلال تلك الليلة. مع بزوغ فجر اليوم التالى صعد السيد خوان إلى البلدة، ويبدو أنها كانت منيعة للغاية، ولم نكن لنستطيع الظفر بها -فى حالة شن هجوم- من دون تكبد خسائر فادحة بين صفوف رجالنا.

أدرك جنودنا فيما بعد أن من فروا من المسلمين سلكوا وهادًا جبلية كان يستحيل على رجالنا إمكانية إعاقتهم فيها. رغمًا عن ذلك كله فقد قُتِلَ وأُسِرَ ما يربو على أربعمائة فرد، أما من هربوا فقد وصلوا إلى بورتشينا يملأهم الرعب والفزع، مما كان الداعى وراء هرب الجانب الأكبر ممن كانوا بالمدينة -كما فعل الآخرون. أما من مكثوا بها، فقد سلموا أنفسهم إلى السيد غارثيا مانريكى بغية الدخول فى رحمة جلالة الملك؛ وكان السيد خوان دى أوستريا قد بعث به برفقة سلاح الفرسان لمعرفة ما يدور هناك. دلف السيد غارثيا إلى الحصن، وجمع بداخله كافة النساء والثياب، لأنه ظن أنهن من

نصيبه لكونهن قد استسلمن إليه هو؛ بيد أن السيد خوان دى أوستريا لم يستحسن ذلك الإجراء، وأرسل السيد خيرونيمو مانريكى Jerónimo Manrique لكى يحتل الحصن مع أربع فرق من المشاة ريثما يصل الجيش، كما أمر لورينثو ديل مارمول Lorenzo del Mármol –شقيقى[٢٢]– أن يستحوذ ، باسم الملك، على كل المسلمات وجميع الممتلكات المنقولة التى كانت بداخل الحصن، من أجل أن يتولى هو تقسيمها بنفسه وهو ما حدث بالفعل.

(٢٢) هكذا نفهم أن المؤلف لديه مصدر آخر للمعلومات. (المراجع)

الفصل السادس عشر

يتناول تقدم السيد خوان دى أوستريا إلى بورتشينا.

انطلق السيد خوان دى أوستريا يصاحبه جيشه من تيخولا فى يوم السبت الموافق الخامس والعشرين من شهر مارس، وكان عشية عيد فصح القيامة المجيد، وذلك بعد أن دمر تلك البلدة وخرب زروعها. وتوجه ليعسكر فى البساتين الكائنة أسفل بورتشينا، وقد بدا له المكان منيعًا للغاية، حتى أنه سر حينما رأى أن الأعداء قد رحلوا عنها. كان قد تبقى بالداخل حوالى مائتى شخص، وكان الجزء الغالب منهم من العجزة الذين لم يقووا على الهرب. عيّن السيد خوان أربع فرق مشاة وكتيبة فرسان، من أجل حماية المكان وتأمين مواكب الإمدادات، تحت إمرة أنطونيو سيدينيو -الذى أمره بالمجىء إلى هناك من سيرون، وبعث بدلاً منه بالقائد إيرنان باثكيث دى لوايسا Hernán Vázquez de Loaysa. أصدر السيد خوان دى أوستريا أوامره بتقسيم المسلمات وسائر الممتلكات المنقولة بين القادة والرجال النبلاء وذوى المكانة العالية من المحيطين بشخصه. وفى اليوم التالى بعث بالسيد فرانثيسكو دى كوردوبا فى ألفين من المشاة وبعض الفرسان إلى حصن أوريا، حيث تنامى إلى علمه أن قائد الحصن لم يرد استقبال نفر من المسلمين الذين قدموا إليه لتسليم أنفسهم، لعدم رغبته فى الإبقاء على حياتهم. بيد أن الأمر الأرجح هو أنه كان يود تعطيلهم حتى يتسنى له تنبيه بعض من أصدقائه القادة، لكى يخرجوا لانتظارهم على الطريق، ويقومون بأسرهم فى أثناء ذهابهم للاستسلام.

فطن من بالجيش فيما بعد إلى ذلك الأمر، فأصدر السيد خوان دى أوستريا أوامره إلى القادة الذين كانوا مهيئين للذهاب وتفقد المكان ألا يقوموا بذلك، وإلى السيد

غرانثيسكو دى كوردوبا لكى يرى إذا ما كانت هناك حيلة أو مكيدة فى الأمر. وإذا ما أتوا لتسليم أنفسهم، فعليه أن يقبلهم، ولا يسمح بأن يلحق بهم أى أذى، لأنه ليس من الملائم أن يتم انتهاج تلك الطريقة التى تمثل عائقًا كبيرًا على ضوء الاستسلام الذى شرع الحبقى فى السعى لتحقيقه. وصل السيد فرانثيسكو دى كوردوبا إلى أوريا، فالفى بعض المسلمين عند جادة كائنة بجوار القلعة، فبادر أولئك بتسليم أنفسهم فى خضوع تام، والاستسلام مع نسائهم وبنيهم لرحمة جلالة الملك. وعندما أراد أن يستعلم من قائد الحصن عن السبيل الذى كان ينتوى اتخاذه لإخضاعهم، وكيف لم يُعلِم السيد خوان دى اوستريا بالأمر، أبرأ نفسه من تلك التهمة بقوله إنهم هم أنفسهم من اقترحوا عليه ذلك الأمر، وأنه لم يبلغ السيد خوان لمّا تبين له أنهم لا يخبرونه بالحقيقة.

عندئذ فطن السيد فرانثيسكو دى كوردوبا إلى سوء نيته ، فتسلم مقاليد الأمور بعقله الراجح وقبل أولئك المسلمين. كما ترك أوامره إلى قائد الحصن لكى يؤويهم عنده حتى يبعث إليه من يأمره بما يتعين القيام به فى شأنهم، كما أمره بقبول كل من يحضر لتسليم نفسه، وإحسان معاملتهم فى شتى النواحى. وهكذا قفل عائدًا فى ذلك اليوم إلى بورتشينا، بعد أن رأى أن المسلمين قد هجروا حصن كانتوريا. إلى هنا سنترك السيد خوان دى أوستريا فى بورتشينا، لكى ننتقل لتناول ما كان دوق سيسا بصدده برفقة الجيش الآخر فى بلدة أورخيبا؛ علاوةً على ذكر ما قام به السيد دييغو رامبريث -قائد قلعة شلوبانية-، والسيد خوان دى كاستيّا **Juan de Castilla**، فيما يتعلق بقلعة بلش التابعة لقرية بن عبد الله **Ben Audalla** وحصن لينتيخى.

الفصل السابع عشر

يتناول الكيفية التى تم من خلالها الاستيلاء فى تلك الأيام على قلعة بلش دى بن عبد الله، وكذلك حصن لينتيخى.

فى أثناء وجود دوق سيسا فى معسكره بأورخيبا، تنامى إلى علمه كيف أن المسلمين قد عينوا رجالاً ليقوموا بدور الحامية فى قلعة بلش دى بن عبد الله، وأن هؤلاء يخرجون لإحداث خسائر بمن يعبرون طريق مطريل وبذلك الساحل بأكمله. فبادر بإرسال السيد خوان دى كاستيًا إلى هناك مع ألف من المشاة ومائتى فارس، كما كتب إلى السيد دييغو راميريث -قائد حصن شلوبانية- ليحيطه علمًا بتلك المهمة من أجل أن يزوده بقوات، ومطالبًا إياه فى إلحاف شديد أن يضطلع هو بذاته بتلك الحملة، لأن القضاء على جماعة اللصوص تلك هو أمر ضرورى للغاية لصالح جلالة الملك. إبان وصول السيد خوان دى كاستيًا إلى شلوبانية، قام السيد دييغو راميريث بإعداد قطعتى مدفعية ثقيلة، بالإضافة إلى قطعتين من الحجم الصغير، من أجل قصف دفاعات المدينة. وللحيلولة دون مغادرة المسلمين للمحل قبيل وصوله، أمر قائد فرقة الجنود فرانثيسكو دى أروبّو لكى يتقدم برفقة فرقته ومجموعة من الفرسان، ويتجه لشغل منازل المدينة -الكائنة أسفل القلعة على سفح الربوة- التى كانت شاغرة فى أثناء الليل؛ بينما انطلق هو من شلوبانية مع باقى القوات بأكملها بحلول مساء يوم السادس والعشرين من شهر مارس. لمّا لم يكن ممكنًا نقل قطع المدفعية مركبة -نظرًا للوعورة البالغة التى يتسم بها الطريق، أمر القائد بتفكيكها وتحميلها على الألواح الثخينة، ثم جرها بقوة الأذرع العارية لمسافة تقارب فرسخين صعوداً إلى أعلى النهر.

دلف فرانثيسكو دى أرّويو فى سرية شديدة إلى المنازل -وفقًا للنظام المتفق عليه- بيد أن الجنود لم يتحلوا بالهدوء اللازم، فاستشعر المسلمون وجودهم، وكانوا قد ساءهم مشاهدة مرور الجموع المرافقة للسيد خوان دى كاستيّا. لكنهم اطمأنوا فيما بعد حينما تحدث إليهم فرانثيسكو دى أرّويو وأخبرهم أنه كان أحد المواكب الكبيرة التى تقوم بجلب الإمدادت. لم يتسن لرجالنا بلوغ الموضع حتى اليوم التالى، نظرًا للعائق الذى مثلته أسلحة المدفعية؛ فقام السيد خوان دى كاستيّا فى تلك الليلة بإرسال أحد جنود المشاة إلى دوق سيسا يطلب منه المزيد من الرجال والدوريات. وقد أرسل إليه ذلك الأخير خمسمائة من حملة البنادق برفقة كل من: القائد خوان دى بورخى Juan de Borge، والقائد إنييغو دى أرّويو سانتيستيبان، والقائد لويس ألباريث دى سوتومايور Luis Álvarez de Sotomayor. فى أعقاب ذلك فرض رجالنا حصارًا على القلعة، التى كانت مشيدة أعلى ربوة مستديرة تتسم بالارتفاع والوعورة والمساحة الشاسعة، ولايمكن ارتقائها وبلوغ أعلاها إلا بعد تكبد أخطار بالغة؛ ثم توجه القادة لتفقد المكان، واتخذوا قرارًا بنصب أسلحة المدفعية أعلى الربوة، فى موضع مستو للغاية ويبعد خمسين قدمًا عن الأسوار. نظرًا لعدم إمكانية صعود الأسلحة على العجلات، فقد حملّها الجنود على الألواح السميكة والأبواب التى تم انتزاعها من منازل البلدة، بعد أن مهّد بعض الممرات الصعبة باستخدام التراب والأحجار.

بعد أن تم نصب أسلحة المدفعية، بدأ القصف فى الأمسية ذاتها بحلول وقت الصلاة. فى أثناء توزيع القائد لويس غودينيث دى ساندوبال Luis Godínez de Sandoval البارود على جنوده، اشتعلت فيها النيران، فأحرقته هو ومن كانوا بالقرب منه. دافع المسلمون عن أنفسهم، وقتلوا جنديين بالبنادق عبر الحواجز الوقائية؛ وحينما أدركوا أن دفاعاتهم الواهية لن تجدى نفعًا، تحدثوا إلى بعض الجنود الذين كانوا يتولون مهام الحراسة أمام بوابة القلعة؛ فتركوهم يغادرونها بحلول منتصف الليل مع نسائهم وثيابهم، بعد أن منحوهم قدرًا وفيرًا من النقود. اتضح فيما بعد أن ذلك الأمر كان متفقًا عليه، لأنه على الرغم من إطلاق دوريات الحراسة للنفير، فقد أخبرهم من أرشدوا المسلمين عبر الطريق أن تلك الجموع هى الدورية التى تتفقد أحوال دوريات الحراسة؛ وهكذا استطاعوا المرور بعد أن احتالوا على القادة دون أن يمكن التوصل لمعرفة

الرؤوس المدبرة لتلك المسـألة، رغـمًـا عن وجـود نفـر ممن ارتيب فى أمـرهـم وقـام دوق سيسا لاحقًا بحبسهم على ذمة تلك القضية.

فى صبيحـة اليوم التالى، وبعد أن رأت قواتنا أن المسلمين لا يطلقـون النيران، أرسل السيد خوان دى كاستيّا من يقوم بتفقد القلعة؛ فلمّا ألفاها خاوية، وليس بها سوى شيخ مسلم وثلاثة من النسـاء لا يقدرون على الحركة، قامت قواتنا باحتلالها. عندما تم إعلام دوق سيسا بما جرى، سر بأن القلعة لم يتم قصفها، وأمر بإيداع مائة من الجنود بداخلها كحامية، لأنها تقع فى ممر مهم. كما أمر خوان غونثاليث كاستريخون Juan González Castrejón أن يتـولى تجمـيع مـائة وخمسين رجـلاً للاضطلاع بتلك المهمة، حتى لا يبيت لزامًا ترك رجال من الجيش هناك. لم يكن الضرر الذى تسبب فيه الجشعون بالقليل عندما سمحوا لألئك المسلمين بالفرار، لأنه -إضافةً إلى وجود سبعة من قادة الفرق، الذين كان يمكن أن تنزل بهم عقوبات رادعة بالداخل- فقد توجه أولئك الرجال لدى خروجهم من هناك، لاحتلال المعابر التى كان يتعين على جنودنا المرور من خلالها للرجوع إلى معسكر دوق سيسا. ولمّا كان العديد من الجنود قد انفصلوا عن الركب، انقض عليهم الأعداء، وقتلوا وأسروا الكثيرين منهم، وعلى ذلك النحو يكونوا قد دفعوا غاليًا مقابل الضرر التى ألحقوه بنا.

فى تلك الآونة، قـام القـائد أنطونيـو دى بيـريّو Antonio de Berrío -الذى كـان ضمن الحامية الموجودة فى بلدان غواخار- بالإغارة على موضع لينتيخى. وكان المسلمون قد أنشئوا به حصنًا، وأقام فيه نفر منهم، فهجم عليه القائد فى عزيمة ماضية، حتى أنهم لم يجسروا على المكوث فيه. انفصل الجنود عن الركب نظرًا للجشع الذى دفعهم لمحاولة أسر المسلمات اللواتى بادرن بالفرار؛ وكان من الممكن أن يهلك الرجال لو لم يقم القائد بالحفاظ على سرية من الجنود دون أن ينفرط عقدها. لأن المسلمين عاودوا تنظيم صفوفهم بعد أن شهدوا وقوع نسائهم وبناتهم فى الأسر، وانقضوا على الجنود غير المنظمين، فقتلوا وجرحوا بعضهم. بيد أن بيريّو هب لنجدة رجالة فى حماسة بالغة، فألحق الهزيمة بالأعداء، وجمع الغنائم، ثم قفل عائدًا بها إلى معسكره.

الفصل الثامن عشر

يتناول المخطط الذى نفـذه ابن عـبـو من أجل قطع الطريق على إحـدى الدوريات التى كانت متجهة إلى معسكر دوق سيسا ناقلةً بعض المؤن.

كان دوق سيسا على أهبة الاستعداد للانطلاق من أورخيبا مع جيشه الرائع، ذى التسليح الجيد والرجـال اللامعين؛ ولم يكن ينقصه سوى الزاد، لأن الجيش كـان قد استهلك كميات لا حصر لها من المؤن فى أثناء وجوده فى ذلك المعسكر. ومن أجل أن يجىء بها فى موكب ضخم، بعث بالقائد أندريس دى ميسا Andrés de Mesa برفقة خمسمائة من حملة البنادق ونفر من الفرسان وسائر الأمتعة، لكى يتولى تحميلها فى الساقية والبادول، إلى جانب مرافقته للإمدادات الآتية من غرناطة. عندما تنامى إلى علم العدو أن موكبًا بتلك الضخامة يتجه إلى البادول، تراءى لهم أن ما من شىء سيخدم غايتهم أكثر من قطع الطريق عليه، فعقدوا العزم على الإغارة على الركب. من أجل أن يتسنى للعدو القيام بتلك الغارة دون أن يتعرض لأى أذى، أمر ابن عبو كلاً من بدرو دى مندوثا الشعيبى والماكوش والدالى أن يتوجهوا مع ألفين من الرجال لنصب كمين للركب وقطع طريق العودة عليه. وفى أثناء اضطلاعهم بتلك المهمة، ذهب هو والرجال الآخرين المتبقين فى حوزته لتفقد جيشنا وإلهاء دوق سيسا.

كان قد مضى تسعة أيام دون اكتشاف وجود أى من المسلمين، أو التوصل لمعرفة معلومات مؤكدة حول مكان وجود العدو؛ فلمّا خرجت إحدى الدوريات لاستطلاع المكان فى هذا الصباح، جلبت معها رجلين مسلمين تم إلقاء القبض عليهما، فعلم رجالنا عن طريقهما كيف أن القوات ما زالت فى بوكيْرة، وأنه قد وفد إليهم العديد من الرجال من

نهر المنصورة. في ذلك اليوم -الموافق الرابع من إبريل- وفي الساعة الرابعة مساءً تم اكتشاف ثلاثة كمائن نصبها العدو في منطقة جبل بوخول، وأعلى الطريق الكائن على الجهة اليمنى والمفضى إلى ميناء خوبيليّ Jubiley. بعث الدوق بالسيد خورخي موريخون مع بعض الفرسان ونفر من حملة البنادق الراجلين لإقصائهم من أماكن وجودهم، فنشبت اشتباكات بينهم، وأخذ المسلمون في التقهقر باتجاه المناطق المرتفعة، مما أغرى الفرسان بملاحقتهم. عندما فطن دوق سيسا إلى ما يجرى، أمر بتدعيمهم بأعداد أكبر من حملة البنادق، لأن المسلمين -حينما أدركوا أن الكفة تميل إلى جانبهم وأن الخيول ليس بمقدورها التحرك في تضاريس الموضع الذى يشغلوه- بادروا إلى الانقضاض عليهم. بيد أن الأحداث لم تكن في صالحهم، لأن حملة البنادق التابعين لنا اشتبكوا معهم في استبسال شديد، حاملين إياهم على التراجع بعد أن منيوا بخسائر، بينما لم يصب بين صفوفنا سوى مسيحى واحد.

فى تلك الآونة اتضح وجود أعداد ضخمة من الأعداء ناحية بوكيّرة، وكان الوقت قد تأخر للغاية، حتى لم تكن قد بقيت ساعة من ضوء الصباح، وكان برفقتهم ثلاثة أو أربعة فرسان؛ وقد شرعت تلك الجموع في الهبوط إلى حيث يوجد الآخرون، مبدين رغبتهم في تطويق معسكرنا. على الجانب الآخر عمد الدوق إلى تنظيم صفوف الكتائب، فدعّم بعض الروابى التى كان قد أودع بها الرجال وأسلحة المدفعية، ووجههم صوب الأعداء، حيث دار قتال محتدم بينهم وبين حملة البنادق، الذين لم يكن يفصلهم عنهم سوى واد واحد في المنتصف. بات المسلمون خائفين، حتى أنهم لم يجسروا على الدنو من رجالنا، الذين عبروا الهوة بعد حلول المساء، وانقضوا على الأعداء حاملين إياهم على التراجع إلى أعلى الجبل، وظلوا يلاحقونهم خلال فترة طويلة، ويعملون القتل والجرح في الكثيرين منهم. حينما أمسى الوقت متأخراً للغاية، أمر الدوق بإطلاق النفير لحشد الجنود، فما كان من ابن عبو إلا أن تقهقر إلى الجبل دون أن يشن أى غارة أخرى، بعد أن خلّف وراءه خمسين قتيلاً من المسلمين. أما إيرناندو دى أورونيا -القائد الكبير سنًا وصاحب الخبرة الطويلة- فقد ارتاب فيما ينتويه الأعداء،

وأخبر دوق سيسا فى ذلك اليوم أن ما جرى كان إحدى الخدع الحربية، وأن ابن عبو لابد وأن يكون قد أرسل قوات لقطع الطريق على موكب الإمدادات، وأنه ينبغى لنا إرسال رجال من المشاة والفرسان لتأمينه.

أكد أحد المسلمين لاحقًا هذا الرأى، وكان ثلاثة من الجنود قد ألقوا القبض عليه فى أثناء مطاردتهم لجيش ابن عبو؛ حيث أقر لنا أن نيتهم كانت إلهاء الدوق. بعد أن أدرك الدوق ذلك الغرض، أرسل السيد مارتين دى باديًا مع خمسمائة من حملة البنادق وثمانين فارسًا لتدعيم الركب، ثم أتبعهم بخمسمائة آخرين من حملة البنادق، حيث تنامى إلى علمه أنه تم اكتشاف وجود مائة وخمسين من المسلمين. كان أندريس دى موسا Andrés de Mosa قد كاتب دوق سيسا فى تلك الليلة من الساقية ليحيطه علماً بقدومه، وقد تأخر تسليم الخطاب كثيرًا، حتى أنه -نظرًا للثقة الكبيرة التى أولاها لمن برفقته من الرجال- كان من الممكن أن يلحق المسلمون بهم أضراراً بالغة، حيث هبط هؤلاء من جبل أورخيبا، وقسموا أنفسهم على أربعة كمائن فى المعبر الكائن ما بين الساقية ولانخارون، فى انتظار عبور الرجال من أجل الانقضاض على موكب الإمدادت، الذى كان قد انطلق من البادول فى الصباح ذاته حاملاً ألفين وخمسمائة من الأمتعة المعبأة، وقدم فى تلك الليلة إلى موضع الساقية.

فى صباح اليوم التالى، سلك الركب طريق لانخارون، ولدى بلوغ المعبر الذى يعلو المنخفض، خرج إليه المسلمون المختبئون فى الكمائن من أربع اتجاهات، وانقضوا عليهم فى حمية شديدة حتى أن الجنود المقسمين إلى طليعة وساق لم يتمكنوا من التصدى لهم والحيلولة دون اختراقهم لمنتصف الموكب وقطع الطريق عليه. انهمك الأعداء فيما بعد فى إراقة المؤن، وتخريب الأمتعة، وانتقاء بعضها ليحملوها معهم لدى رجوعهم إلى الجبال. حينما شاهد القائد أندريس دى ميسا مدى عجزه عن مساندة المقدمة أو التصدى للخطر المحدق الراهن فى ظل تلك الفوضى العارمة -لأن الموكب كان ممتدًا لمسافة تربو على فرسخ كامل من الطريق-، ساق أمامه ما تسنى له جمعه من الأمتعة، وقفل عائدًا إلى الساقية، كما قام بتنبيه كل من لم يكونوا قد عبروا بعد إلى الهاوية.

قاتل السيد بدرو دى بيلاسكو Pedro de Velasco فى ذلك اليوم كما الفارس المغوار، وكان قد حضر -بمقتضى أمر جلالة الملك- للتعجيل بخروج الماركيز ولتقصى أحوال الجيش. قام بالأمر ذاته كل من مواطن سمورة خوان دى بورّاس Juan de Porras، والرجل القرطبى ألونسو مارتين دى مونتى مايور Alonso Martín de Montemayor، ولاثارو مورينو دى ليون Lázaro Moreno de León -قائد حملة البنادق من الفرسان والمواطن الغرناطى- حيث دافع كل منهم عن الجبهة التى كان يشغلها. أما السيد بدرو دى بيلاسكو Pedro de Velasco، فكان سيلقى حتفه حينما قتل العدو فرسه وهو يعتلى صهوته، لولا أن هب لنجدته السيد أنطونيو دى سوتومايور Antonio de Sotomayor -نجل الأب سوتومايور Sotomayor مأمور المحكمة العليا فى غرناطة. قُتل فى هذا الاشتباك اثنا عشر مسلماً، وجرح الكثيرون، بينما كان هناك قتيلان وأربعة جرحى ضمن صفوف المسيحيين. كانت الخسائر ستضحى أكبر بكثير لو لم يصل السيد مارتين دى باديّا فى الوقت المناسب، مما أتاح له إمكانية إنقاذ الرجال واسترجاع القدر الأكبر من الأمتعة التى كان الأعداء قد استولوا عليها. كما اصطحب معه الأمتعة التى كانت قد حُشِدت فى الساقية، وقفل عائداً بسائر المتاع إلى المعسكر فى وقت متأخر للغاية من تلك الليلة.

سلب الأعداء أربعين من البغال المحملة بالدقيق والكعك، وسروا بها سروراً غامراً، كما لو كانوا قد حققوا نصراً مظفراً. ألقت قواتنا القبض على اثنين من المسلمين -أحدهما من البيّازين التابعة لغرناطة، والآخر من بلدة ديلار-، فقال هذان الرجلان فى أثناء تعذيبهما إن من قاموا بالإغارة على موكب الإمدادات كان يزيد عددهم على ألفى رجل، ومن بينهم مائتان من الأتراك المسلحين بالبنادق. كما أن المسلمين قد أمّنوا المعبر الخاص بجسر بوكيّرة، والكائن أسفل بلدة كابيليّرة، وتم عمل إصلاحات واسعة وحفر خنادق ترابية ضخمة فى شتى أرجاء المرتفعات، وكذلك فقد تم اعتراض الطرق والسبل الخاصة بالرعاة بجذوع الأشجار الضخمة للحيلولة دون تمكن الفرسان من استخدامها. فى أعقاب بلوغ الموكب الخاص بالإمدادات أورخيبا، عقد دوق سيسا العزم على الانطلاق فى اليوم التالى، حيث تم توزيع أنصبة المؤن والذخائر على القوات، ووُضِعت كل الأمور فى نصابها استعداداً للرحيل.

الفصل التاسع عشر

يتناول انطلاق دوق سيسا من أورخيبا، وتوجهه للتمركز عند بئر كامبوثانو، وأحد الاشتباكات التي دارت بينه وبين قوات ابن عبو.

على ضوء التنبيهات الذي تلقاها دوق سيسا حول تحصينات العدو، قرر أن يسلك طريقًا مغايرًا لذلك الذي كان ينتويه. حيث ترك ألف رجل كحامية في المعقل الذي أنشأه في البسيط التابعة لأورخيبا، وانطلق من ذلك المعسكر في السادس من شهر إبريل يرافقه كل من: كونت أورغاث Orgaz، وكونت بايلين Bailén، وماركيز فابارا، والسيد خوان دي مندوثا سارمينتو، والسيد روي لوبيث دي أبالوس Ruy López de Ávalos، والسيد غونثالو تشاكون، وغيرهم من الفرسان البواسل. كان الجيش يتكون من ثمانية آلاف من المشاة، وستة آلاف وثمانمائة من الرماة، وخمسمائة وخمسين من الفرسان؛ بالإضافة إلى الرجال الذين جلبهم سادة الإقطاع وغيرهم من ذوي الشأن -وكانت أعدادهم غفيرة. كما كان هناك اثنا عشر مدفعًا، وألف وخمسمائة من الأمتعة، وقد رافقهم السيد بدرو دي بيلاسكو Pedro de Velasco إلى غرناطة، من أجل التوجه إلى الملك لإحاطة جلالته بما كان من شأن التكليفات التي عهد بها إليه.

شرع جيشنا في الصعود إلى أعلى جبل بوكيّرة، حيث كان العدو متمركزًا يستعرض ما لديه من قوات غفيرةً، إضافةً إلى احتلاله للقمم. كانت الكتائب تسير رويدًا رويدًا، بخطى بطيئة للغاية، حتى أنها رغم انطلاقها في الصباح الباكر فإن النهار كان قد انتصف لدى بلوغ طليعة الجيش مشارف بوكيّرة -بعد قطع فرسخ ونصف من الطريق. وذلك على مسافة قريبة للغاية من الموضع الذي كان ابن عبو يشغله مع قواته

عند المعبر فى انتظارنا، اعتقاداً منه أن معسكرنا سيدخل من تلك الناحية. بيد أن الدوق سلك طريقًا ينحدر إلى أسفل النهر على سبيل المراوغة، من أجل أن يسير فى طريق خوبيليس ما بين فيريّرة ونهر كاديار، عند بئر تسمى كامبوثانو Campuzano، توجد على مشارف بورتوغوس . عندما فطن المسلم إلى أنه قد خُدِعَ، أمر بإرسال إشارات دخانية كبيرة لاستدعاء المسلمين إلى حيث يسير رجالنا، لكى يحتلوا معبراً آخر فى جبل بيتريس -كان يتعين على قواتنا المرور به- ويشنوا العديد من الهجمات من أرجاء متفرقة.

أوقف جيشنا مسيرته قبيل عبوره النهر، الذى كانت مداخله ومجراه شديدة العمق، وتمتلئ بالأحجار والصخور التى تجعلها بالغة الوعورة؛ كما كانت المساحة شاسعة، على نحو أتاح للأعداء فرصة الوصول لاحتلال مصب النهر، فى الوقت الذى كان ماركيز فابارا يصعد أعلى الربوة -بعد أن عبر مع طليعة الجيش- وكانت ترافقه كتيبة الحدادين التابعة لسانشو بيليث دى تيران مونتانيس Sancho Vélez de Terán Montañés، وفرسان كونت تينديا، وأربعمائة من حملة البنادق، لاحتلال القمة المرتفعة التى كانت تشرف على الموضع الذى كان ينبغى لجيشنا شغله. فأخذ يقاتل الأعداء حتى وصل إلى بعض الصخور التى تتسم بالوعورة والانحدار الشديدين، حتى أنه لم يتمكن من تخطيها؛ ولّما كان الأعداء على الجانب الآخر، فقد اضطر إلى إيقاف مسيرته والانتظار إلى حين اندلاع القتال

فى تلك الآونة، قام المسلمون -الذين يهبطون إلى سفوح الجبال- بالانقضاض على مؤخرة الجيش، وقد شنوا هجومهم من أنحاء شتى، حتى أنه بات لزامًا على الدوق العودة مع أسلحة المدفعية وجانب من الفرسان. أشرف الدوق بنفسه على اتخاذ كافة التدابير اللازمة، وذلك فى ظل أجواء باردة تكثر فيها الرياح وتمتلئ السماء بالغيوم، مما عطّله إلى غروب الشمس، حينما حضر السيد خوان دى مندوثا برفقة قلب الجيش إلى معسكر الإقامة فى وقت متأخر للغاية، حيث شن رجالنا هجوماً بالبنادق على المسلمين -الذين كانوا يأتون بإشارات تدل على رغبتهم فى القتال-، فحملوهم على التراجع بعد

أن منيوا بخسائر، رغمًا عن شنهم للعديد من الهجمات. مكث القائدان ثينتينو Centeno -أحد أهالى مدينة رودريغو Ciudad Rodrigo- ولويس ألباريث دى سوتومايور برفقة فرق المشاة التابعة لهما، ليكونا بمثابة مؤخرة للجيش بأسره؛ فبقيا فى بعض المنازل الضخمة والكائنة عند أحد السهول وربوة صغيرة متاخمة لمكان وجودهما، من أجل تكوين جبهة فى أثناء عبور رجالنا للنهر. وهنالك انقض عليهم الشعيبى برفقة ما يربو على خمسمائة من الجنود المسلحين بالبنادق، وأفواج أخرى غفيرة تحمل المقاليع والحراب. بيد أن القائدين دافعا عن جبهتهما فى استبسال، وقد هب لنجدتهما السيد لويس دى كوردوبا وإيرناندو دى أورونيا -اللذان كانا يقودان المؤخرة-، فحملوا الأعداء على التقهقر، وقتلوا وجرحوا الكثيرين منهم. إبان بلوغ قواتنا النهر، عاود المسلمون الإغارة عليهم من شتى الأرجاء، كما قاموا بالأمر ذاته فى أثناء ارتقائهم للمرتفع المفضى إلى البئر؛ لكنهم لم يحدثوا سوى أثرًا طفيفًا، حيث بادر بإنقاذ رجالنا كل من البوكى[٢٣] el buque والسيد مارتين دى باديًا وفرسان آخرين ممن بذلوا جهدًا شاقًا على مدار ذلك اليوم.

عندما أدرك الأعداء أنه ليس بمقدورهم تحقيق الغرض الذى يرمون إليه من وراء هجماتهم، صعدوا فى عجالة لاحتلال الرابية التى تقع أعلى البئر من ناحية بورتوغوس؛ إلا أن الدوق -الذى ارتاب فى إمكانية شن هجوم من ذلك الموضع- أمر بتوجيه أسلحة المدفعية صوبهم وفتحها عليهم. وهكذا تصدى لهم، وحال دون احتلالهم إياها، ليبسط هو سيطرته عليها، وذلك من خلال قصفهم بالمدفعية، بالإضافة إلى الفرسان والراجلين الذين وثبوا عليهم فى تلك الناحية. كان جيشنا قد شرع فى نصب معسكره وتشكيل دوريات الحراسة، حينما انسحب ماركيز فابارا. كان هناك قدر من الاضطراب فى أثناء نصب المعسكر، نظرًا لحلول الليل وقسوة الأجواء، وقد جُرِحَ غونثالو تشاكون -الذى كان يرافق ماركيز فابارا- والعديد من الجنود الآخرين. حشد ابن عبو رجاله،

---

(٢٣) هذا لقب شخص لا يرد اسمه. (المراجع)

وتوجه لتكوين جبهة فى مقابل مخيمنا، بحيث يكون النهر فى المنتصف بينهما؛ وقد كان فى موضع قريب للغاية، حتى أن الرماة تمكنوا من إطلاق نيرانهم من جهة إلى أخرى بكامل الحرية، محدثين الخسائر. كما تم إشعال العديد من الحرائق، وظل المسلمون يرمون قواتنا بنيران بنادقهم لما يزيد عن الساعتين؛ وكان وابل الطلقات والحراب التى قاموا بقذفها من تلك السفوح كثيفًا، حتى لم يعد هناك أى موضع بمأمن منها.

سعى الدوق لتعزيز جيشه عن طريق حملة البنادق على أفضل نحو تسنى له فى تلك الجبهة، وكان دائمًا يجول على صهوة فرسه لتفقد وبث الحماس فى ثكنات الحراسة والدوريات؛ حيث كان ظلام تلك الليلة حالكًا، ولم يكن الرجال يرون بعضهم بعضًا سوى على ضوء نيران البنادق. استمر تبادل إطلاق النيران على تلك الشاكلة حتى منتصف الليل، لتسود من بعدها هدنة فرضها الإعياء والأجواء الغائمة. أما المسلمون فقد خلّفوا النيران موقدة، وشرعوا فى مسيرتهم صوب خوبيليس قبيل بزوغ الفجر، دون أن يضطلعوا بأى مهمة أخرى. وإذا ما أردنا أن نذكر الحقيقة، فعلينا القول بأنهم شنوا هجماتهم فى ذلك اليوم على غرار الجنود المحنكين، لكن قواهم خارت وهزموا كما الأدناء. فطن الرجال فيما بعد إلى أنه فى حال قيام العدو بشن هجوم دفعةً واحدةً فى غضون تلك الليلة، فإن جيشنا سيتعرض للمخاطر؛ لأن الفوضى كانت عارمة، فهم من فرط خوفهم بات الكثيرون منهم يختبئون أسفل الأمتعة، لكى لا تنال منهم الطلقات والحراب التى كانت تتطاير فى الهواء. بيد أن عزم القادة والفرسان والنبلاء، إلى جانب التدابير التى اتخذها الماركيز، وكانت ترمى إلى تفكيك قوى العدو دون المجازفة بخوض يوم واحد من المعارك، كان مجديًا للغاية. ويبدو أنه كان هناك توافق بين ابن عبو والدوق فى هذا الصدد، لأن كلاً منهما كان يهدف إلى القضاء على الآخر، وهزيمته مستعينًا بعامل الزمن ونقص الزاد.

الفصل العشرون

يتناول عبور دوق سيسا إلى بورتوغوس، وإرساله من يقوم بتفقد الجبال.

قضى دوق سيسا ليلته بأسرها متنقلاً بين نوبات الحراسة، وقد بذل فيها بنفسه مجهوداً شاقًا. فلمّا بزغ ضوء النهار، أراد أن يرحل عن تلك الأماكن التى تتسم بالوعورة والانحدار، فأصدر أوامره بأن ينتظم الرجال جميعًا فى أماكنهم استعداداً للتحرك. حينما وردت إليه تنبيهات، عن طريق رجلين مسيحيين أتياه هاربين من معسكر المسلمين فى تلك الليلة، عن ذهاب العدو إلى خوبيليس، وأنه قد قام بتحصين القلعة، لأنه ينتوى الاحتماء بها، سلك روابى جبل خوبيليس؛ ودون أن يبلغ بورتوغوس، سار على مدار اليوم بأكمله حتى الساعة الثالثة مساءً عندما وصل إلى موضع كاستاريس، حيث نصب المعسكر فى أحد المروج الكائنة بالقرب منه، عند المكان الذى توجد به المياه -على الرغم من قلتها-؛ وقد أمر أن يبيت الرجال جميعًا شاهرين أسلحتهم، ظنًا منه أن الأعداء سيشنون عليه غارة ما، نظراً لوجود معسكره عند سفح الجبل.

أصدر دوق سيسا أوامره فى تلك الليلة ذاتها إلى السيد خورخى مورخون، لكى يذهب لتفقد خوبيليس برفقة فرسانه والفرسان التابعين لكونت تينديا، بالإضافة إلى أربعة من فرق المشاة كان يترأسهم كل من: السيد إيرناندو ألباريث دى بوهوركيس، وخوان فيرنانديث دى لونا **Juan Fernández de Luna**، والسيد كارلوس دى سامانو **Carlos de Samano**، وإنييغو دى أرّويو سانتيستيبان. استطلع القائد القرية، فلمّا ألفى المسلمون قد تركوها خاوية، وأنه ما من أحد فى القلعة، بادر بالرجوع إلى الدوق. انطلق الجيش من كاستاريس فى اليوم التالى، وذهب للتمركز فى بورتوغوس.

فى أثناء الطريق، اكتشفت السرايا التى تحتل المقدمة وجود أعداد غفيرة من المسلمين، الذين أبدوا بعض الرغبة فى الفرار؛ بيد أن الدوق كان قد صفّ الجنود فى تشكيل متلاحم للغاية، فلم ينفصل أحدهم عن الركب من أجل الاشتباك معهم.

انطلق السيد خوان دى مندوثا والسيد لويس دى كوردوبا من ذلك المعسكر، يرافقهم ألفان من المشاة ومائتان من الفرسان بغية تفقد تلك الأراضى. سلكوا أعالى الجبل الذى يقع أعلى فيريّرة، وانقضوا بغتةً على بلدة بوكيّرة، فنهبوها، وأسروا حوالى مائة شخص عثروا عليهم بالداخل، كما هدموا الترميمات التى كان الأعداء قد قاموا بها، وأيضًا الخندق الترابى الذى أقاموه -وكان بالغ الغرابة والتحصين. جاب القائدان ذلك الجبل بأسره، فقتلوا وأسروا بعض المسلمين، ثم رجعوا إلى المعسكر دون أن يعترض طريقهم أحد، لأن العدو -بعد أن فشل فى تحقيق مبتغاه فى يوم البئر- لم يجرؤ على الانتظار فى خوبيليس، حيث تراجع مع الجيش بالكامل إلى ميثينا دى بومبارون، وإلى مواضع أخرى داخل البشرات.

فطن البعض إلى أن ما حدث كان بمقتضى النصح الذى أسداه الحبقى، الذى قال إنه لن يغامر بخوض معركة مع الدوق -الذى يتفوق عليه فى شتى النواحى-، وإنما سيرهقه عن طريق الدخول معه فى مناوشات، وإخضاعه بتعريضه للجوع. فهو، وإن ألحق به الهزيمة، لن يكون قد حقق سوى مكاسب قليلة، إذا ما شكّل جلالة الملك جيشًا أكبر، وعاود إرساله لمحاربته، وأن أفضل السبل هو إلهائه إلى حين تزويده بالإمدادات من المحاربين الغرباء. كان ذلك بالضبط هو ما أخبرنا به كاراكاش لاحقًا فى أندرش، فقال إنه هو من نصحه بذلك، وإن ذلك كان الداعى وراء عدم إغارة المسلمين على جيش الدوق فى تلك الليلة[٢٤]. فى أثناء بقاء دوق سيسا فى ذلك المعسكر، أصدر أوامره إلى

(٢٤) يقصد الليلة التى أمر فيها دوق سيسا رجاله أن يبيتوا جميعًا شاهرين أسلحتهم، ظنًا منه أن الأعداء سيشنون عليه غارة ما، نظرًا لوجود معسكره عند سفح الجبل. (المترجمة)

الأب كاستيّو -الذى كان يرافقه- لكى يتولى كتابة بعض الخطابات إلى أصدقائه ومعارفه باللغة العربية، ليقنعهم بتسليم أنفسهم، وعدم الإصرار على السير فى طريق الفناء الذى يسلكونه؛ وأن يفهمهم أن جلالة الملك سينظر إليهم بعين الرحمة. وقعت إحدى تلك الرسائل بين يدى الدرّة، فما كان منه -إزاء عدم رغبته فى الاستسلام والبقاء فى تلك الأراضى- إلا أن صعد على متن بعض المراكب، فى صحبة امرأته وبنيه ومن تسنى له حملهم من أصدقائه، ومضى إلى تطوان.

الفصل الحادى والعشرون

يتناول التقدم الذى أحرزه جيش السيد خوان دى أوستريا منذ انطلاقه من بورتشينا وحتى إقامته فى سانتا فى الموجودة فى ريوخا، والتدابير التى تم اتخاذها فيما يتعلق بإخضاع المسلمين.

فى أعقاب الأوامر التى أصدرها السيد خوان دى أوستريا بتدمير تيخولا وتخريب زروعها، وإقامته لمعقلين فى سيرون وبورتشينا، مضى إلى كانتوريا؛ فترك حامية فى ذلك الحصن الذى ألفاه مهجوراً، مؤلفةً من القائد بيرناردينو دى كيسادا برفقة فرقة من المشاة وأخرى من الفرسان. ثم غادر ذلك المكان فى الثالث من إبريل، وتوجه صوب سورخينا دى أغيلار Surgena de Aguilar، التى أودع بها الحامية بقيادة السيد لويس بونثى دى ليون، مع كتيبة الفرسان التابعة له وأخرى من المشاة. وانطلق من هناك فى الساعة الرابعة من صباح اليوم التالى، قاصداً نهر أغواس Aguas الذى يقع على مسافة تزيد على أربعة فراسخ. وقد مكث يوماً فى ذلك المحل فى انتظار إمداده بالزاد، ثم مضى فى السادس من إبريل إلى سورباس، التى ظل بها حتى اليوم الخامس عشر من الشهر. وقد بعث، من مأواه ذلك، بكل من السيد غارثيا مانريكى وخوان دى إسبوتشى مع خمسمائة من الفرسان إلى جبل فيلابريس، آمراً إياهم أن يدخلا إلى تاهالى، ويقيما بها معقلاً، ثم يتجها لتفقد خيرغال.

كان السيد خوان دى أوستريا ينتوى الحيلولة دون تزود المسلمين بالدقيق والشعير من تلك النواحى، لأنه فطن إلى أن هذا هو ما سيعمدون إليه، نظراً لعدم وجود موضع آخر تُحمَل إليهم منه المؤن؛ كما أن الجوع سيدفعهم إلى وضع خاتمة لما يهدفون إلى

تحقيقه مع المسيحيين. ألفى القائدان قلعة تاهالى خاوية، فأودعا بداخلها القائد خوان غاريّدو دى سالثيدو Juan Garrido de Salcedo برفقة فرقة من المشاة وثانية من الفرسان. ثم مضيا لاستطلاع خيرغال، فلم يلاقيا طوال الطريق أى أفواج من المسلمين، بل عثرا على الكثيرين منهم متفرقين فى شتى الأرجاء بحثًا عن الطعام. استولى القائدان على أعداد كبيرة من الماشية، وعثرا على العديد من صوامع القمح والشعير، حيث استخرجا منها قدرا يكفى للمعاقل، أما ما لم يتسن لهما حمله، فقد أمرهما السيد خوان دى أوستريا أن يلقياه فى الماء أو أن يحرقاه، حتى يحول دون استفادة المسلمين منه. ولّما كان مخطط استسلام الثوار الذى أُبرِم مع الحبقى يسير بخطى حثيثة، وكان المسيحيون قد أدركوا أن الجانب الأكبر من الثوار يرغبون فى تسليم أنفسهم، فقد صدرت الأوامر إلى السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس، لكى يخلّف فى خايينا شقيقه خيرونيمو بينيغاس Jerónimo Venegas، وأن يذهب هو للاضطلاع بتلك المسألة، نظرًا لكونه شخصًا يثق المسلمون فى كلمته.

كانت رغبة السيد خوان دى أوستريا تتمثل فى إشراك السيد غونثالو الثغرى Gonzalo el Zegrí –المواطن الغرناطى– فى هذا الصدد، بيد أنه اعتذر عن ذلك، قائلاً إنه سيقاتل المسلمين، لكنه لن يقدم على حملهم على الاستسلام، لأنه لا يوافق على ما بدر منهم من أفعال ، ويبدو له أنهم لا يستحقون أن ينالوا العفو على آثام بالغة الفحش كتلك التى اقترفوها . فى أعقاب الترتيب لتلك المسألة، واتخاذ العديد من التدابير الأخرى التى بدت ضرورية من أجل بلوغ الهدف المنشود، انطلق جيشنا صوب تابيرناس، مخلّفًا فى سورباس القائد ساليدو دى مولينا، مع فرقة أخرى من المشاة ونفر من الفرسان، على غرار الحامية. كما تم تنصيب السيد دييغو دى ليبيا قائدًا للجنود ومشرفًا على كافة معاقل نهر المنصورة –بدءًا من بورتشينا ونزولاً إلى الأسفل. فى اليوم التالى ظل السيد خوان دى أوستريا باقيًا فى المعسكر فى انتظار وصول المواكب التى ستأتى بالمؤن، فأرسل سائر الأمتعة الخاصة بالجيش إلى مدينة المرية لكى يتولى من بها تحميلها، وذلك فى رفقة دورية حراسة كثيفة كانت تشمل القائد العام لقوات قشتالة، الذى كان ذاهبًا من أجل التعافى من حمى كانت قد ألمت به فى تلك الأيام.

هنالك بلغت السيد خوان دى أوستريا فى أثناء وجوده بالمعسكر أنباء اقتراب الجيش التابع لدوق سيسا منه. ولمّا كان من الضرورى المضى فيما بعد إلى نهر ألمرية، لتضييق الخناق على الأعداء فى تلك الناحية، فقد أصدر أوامره بتحميل كافة الأحمال الخاصة بالجيش، والمؤن، والذخائر، فى الأمتعة التابعة للقادة ولذوى الشأن الرفيع ممن مكثوا فى المعسكر، دون انتظار عودة موكب الإمدادات. وفى أعقاب ذلك خلّف القائد بينيا روخا Peña Roja آمراً على ذلك المعسكر، ومعه عدد من المشاة والفرسان؛ ثم غادره فى ذات اليوم -الموافق السابع عشر من إبريل- واتجه ليبيت تلك الليلة فى قرية ريوخا الصغيرة، حيث دفعته الحاجة الماسة للمؤن إلى التوقف بها، نظراً لعدم تمكنه من التزود بها عن طريق البحر بسبب سوء الأحوال الجوية. بيد أن ذلك الشأن تم معالجته لاحقًا، بواسطة مواكب الإمدادات التى أُرسلت إليه من أبدة وبياسة والمناطق التابعة لنطاق كاثورلا.

فى أعقاب سد حاجة الجيش من الإمدادات، تابع مسيرته إلى سانتا فى. وفى تلك الآونة، تم قتل بعض المسلمين، وأسر آخرين أفصحوا عن حاجتهم الماسة والملحة إلى الطعام. فى تلك الأثناء كان جلالة الملك قد أرسل مندوبًا بالفعل إلى السيد خوان دى أوستريا، من أجل أن يقبل من يحضرون لتسليم أنفسهم فى خضوع، وقد أمر -خلال إقامته فى ذلك المعسكر- بنشر مرسوم عام كان فحواه على النحو التالى:

مرسوم بشأن من يسلمون أنفسهم

"أدرك مولاى جلالة الملك أن الجزء الغالب من موريسكيى مملكة غرناطة الذين تمردوا على حكمه تم دفعهم للقيام بذلك، ليس بمحض إرادتهم، وإنما كانوا مجبرين ومكرهين على ذلك؛ حيث خدعهم وغرر بهم عدد من الرؤوس المدبرة البارزة، والمحرضين، والقادة، والزعماء الذين كانوا ولا يزالون موجودين بين صفوفهم، وقد سعى هؤلاء لنشر الثورة بينهم، انطلاقًا من رغبتهم فى تحقيق مصالحهم الشخصية، ومن أجل التمتع واستلاب الممتلكات الخاصة بعموم الناس، وليس بدافع تحقيق أى نوع من المنفعة لهم.

فى أعقاب إصدار جلالة الملك الأمر بتجميع عدد من المقاتلين لمعاقبتهم، وفقًا لما تقتضيه الجرائم والآثام التى اقترفوها، والاستحواذ على الأماكن التى استولوا عليها فى نهر المنصورة وجبل فيلابريس والبشرات، فقُتِلَ وأُسِرَ العديد منهم، وأُجبِروا -بعد إخضاعهم- على أن يروموا الجبال ضالين وعلى غير هدى، وأن يحيوا -مثل الحيوانات المتوحشة- فى الكهوف والمغارات والغابات، ويعانوا الفاقة الشديدة. وقد حركت كل تلك الأمور مشاعر الشفقة -وهى إحدى الفضائل البارزة التى دأب الملوك على التحلى بها- فأراد أن يشملهم بعطفه، باعتبار أنهم أفراد رعيته، وراعه معرفة ما يقاسونه من ممارسات عنيفة واستباحة للنساء وإراقة للدماء وسرقات وشرور أخرى عظيمة من قبل المحاربين، وهى أمور لا يمكن تبريرها. وقد وكّلنا صاحب الجلالة من أجل أن نتمكن -نيابةً عن جلالته- من إسباغ عطفه الملكى عليهم، وأن نقبلهم فى معيته امتثالاً لأوامره الملكية، وذلك على النسق التالى:

يتم التعهد لكافة الموريسكيين الذين تمردوا على الطاعة والفضل الواجبين لجلالة الملك -رجالاً كانوا أم نساء- من أى درجة أو قدر أو مكانة، أنهم إذا ما حضروا خلال عشرين يومًا -من تاريخ صدور هذا المرسوم- للاستسلام ووضع أنفسهم بين يدى صاحب الجلالة، والسيد خوان دى أوستريا الذى ينوب عن جلالته، فسوف يحفظ لهم حياتهم؛ ويأمر بتطبيق العدالة، فى حق من يرون أنهم ارتكبوا الممارسات العنيفة والقمع الذى تعرضوا له ودفعهم إلى الثورة. كما أن صاحب الجلالة سيعمل معهم رحمته المعهودة فى شتى الأمور الأخرى. وتلك المعاملة تشمل هؤلاء، وكذلك من قاموا -علاوةً على تسليم أنفسهم- بتقديم خدمة جليلة؛ كما هو الحال بالنسبة لنحر أو جلب أسرى من الأتراك أو مسلمى شمال إفريقيا المنضمين إلى الثوار، أو غيرهم من أهالى المملكة الذين كانوا قادة أو زعماء للثورة. وأنهم إذا ما امتنعوا عن القيام بذلك، فسيمسون غير راغبين فى التمتع بالرحمة والفضل اللذين أمر جلالة الملك بتطبيقهما تجاههم.

وكذلك فإن كل من تجاوز سن الخامسة عشرة وهو دون الخمسين، ممن حضروا في غضون المهلة المذكورة لتسليم أنفسهم، ووضع كل منهم تحت تصرف مأموري جلالة الملك بندقية أو قوسًا فولاذيًا مع ذخيرتها ، سوف يتم الإبقاء على حياتهم ولن يُعاملوا كالعبيد؛ بالإضافة إلى ذلك فسيكون بمقدورهم الشفاعة في شخصين ليظلا أحرارًا: كالأب أو الأم أو الأبناء أو الزوجة أو الإخوة، وأولئك أيضًا لن يصيروا عبيدًا، بل سيتمتعون بحريتهم الأولية وحكمهم. على أن يتم التنبيه على أن من لا يرغبون في التمتع بذلك الفضل والمنة، فلن يحظى أي ذكر يتجاوز عمره الرابعة عشرة بأية مكانة، بل سيطبق عليهم جميعًا عقوبة الموت دون أن يلاقوا شفقة أو رحمة".

تم عمل نسخ عديدة من هذا المرسوم في سائر أرجاء مملكة غرناطة، وأصدر السيد خوان دي أوستريا أوامر إلى كافة مأموري جلالة الملك لكي يقوموا بموجبه بقبول كافة المسلمين الذين يحضرون لتسليم أنفسهم. وحتى يعلموا المكان الذي ينبغي عليهم اللجوء إليه، أوضح لهم موضع معسكره ومعسكر دوق سيسا والأماكن الرئيسة والأكثر قربًا من نقاط وجودهم. ومن أجل أن يتم التعرف عليهم، ولا يتعرض لهم المحاربون بسوء، فقد أمرهم أن يخيطوا صليبًا من القماش أو النسيج الملون على الكتف الأيسر من ثيابهم، على أن يكون بالغ الضخامة بحيث يمكن رؤيته بوضوح من بعيد. وقد صدر مرسوم آخر في ذلك اليوم يأمر بعدم القيام بأي غارات، لكي لا يعوق ذلك عمليات الاستسلام، لما ينجم عن تلك الحملات من فوضى -على غرار ما حدث في المرة الأولى.

الفصل الثانى والعشرون

يتناول التقدم الذى أحرزه جيش دوق سيسا منذ انطلاقه من بورتوغوس وحتى بلوغه أوخيخار، والكيفية التى قسَّم بها ابن عبو قواته.

فى تلك الآونة، ألفى الثوار أنفسهم فى وضع لا يتيح لهم الدخول فى حرب أو العيش فى سلام. فقد كانت تعوزهم القوة اللازمة للإبقاء على جيشهم. وعلى الرغم من أن الكثيرين منهم كانوا يريدون السلام، فإنهم لم يقدروا على حمل أنفسهم على الاستسلام، نظرًا للآلام التى كانوا يكابدونها من جراء فقد النساء والبنين والممتلكات، فما كان من ابن عبو -الذى لم يفقد حماسته- إلا أن قسَّم رجاله لكى يقطعوا المعابر على مواكب الإمدادات، وذلك عقب رؤيته للجيش التابع لدوق سيسا فى داخل البشرات. فأودع ألفًا وخمسمائة مسلم ما بين أوخيخار وأورخيبا، وألفًا ومائتين منهم ناحية أدرا والمرية، وثمانمائة فى منطقة جبل منتميس. كما أرسل فوجًا آخر إلى جبل شلير وصوب البونتال[٢٥]، لكى يغيروا على طرق غرناطة ووادى آش؛ بينما ترك لنفسه أربعة آلاف من الرماة، كان دومًا ما يوجه ألفين منهم صوب معسكر دوق سيسا من أعلى الجبال والأماكن الوعرة. وكان يظن أنه على هذا النحو سيلهى الماركيز، وسيتسنى له الإفادة من الفاكهة الموجودة فى الأراضى فى راحة أكثر، بينما يدفع جيشنا لمعاناة الجوع.

حينما فطن دوق سيسا إلى المخطط الذى أعده العدو، والأهمية البالغة المتمثلة فى حرمانه من المؤن، وأنه لن يعجل بالقضاء عليه أى سلاح غير نقص الزاد،

(٢٥) جبل موجود ما بين حصن اللوز ووادى آش. (المترجمة)

أمر باقتلاع الأشجار وتدمير البساتين فى سائر أرجاء الإقليم وأينما حلّوا، وبعث بكتائب من الرجال إلى شتى الأنحاء لتفقد المزروعات فى حذر شديد ونظام محكم، مما لم يتح للأعداء القدرة على مضايقتهم أو حتى الإقدام على التصدى لهم. تولى جيشنا تنفيذ ذلك الأمر منذ صدوره فى الثانى عشر من شهر إبريل -وهو اليوم الذى غادر فيه بورتوغوس- وحتى بلوغه أوخيخار. فى أثناء الحملة الأولى التى توجهت إلى خوبيليس، تم اكتشاف وجود بعض المسلمين الذين أظهروا رغبتهم فى الاقتتال، بيد أنهم لجأوا إلى الجبل لاحقًا. أقام الدوق فى المكان الذى كان مهجورًا، لأن المسلمين لم يشعروا بالأمان بداخله أو فى داخل القلعة. وكانوا قد شرعوا فى ترميمها وتقويتها: فأقاموا بالفعل حصونًا تحوى مخابئ، وخنادق من الحجر المدقوق السميك، إلى جانب عمل أحواض ضخمة لتجميع مياه الأمطار، وفرنًا لصنع الخبز، ومخزنًا للذخيرة، ومسكنًا لابن عبو، وذلك سعيًا لتأمين ذلك الموضع الذى كان فى موقع منيع حقًا، حيث لم يكن به سوى مدخل واحد عبر بوابتين، كان الأعداء قد بدأوا فى تشييدهما.

صعد الدوق لتفقد التحصينات، فألفاها على نسق كان سيكبده الكثير من أجل الظفر بها -لو كان الأعداء قد جسروا على الدفاع عنها- لأنهم لو قاموا بوضع مدفع واحد عند المدخل، كانوا سيتمكنون من إلحاق أضرار فادحة بنا. لم يكن المسلمون يفتقرون إلى ذلك السلاح، لأن ابن عبو كان قد طلبها من حاكم الجزائر، الذى منحه إياها مقابل سبعمائة دوقية من الذهب؛ بيد أنه لم يمتلك الوقت الكافى أو الحنكة اللازمة لرفعها إلى القلعة، فأودعها بالأسفل عند النهر، على مسافة نصف فرسخ من المكان- مع ذخيرتها بأكملها. نبه الماركيز إلى ذلك الأمر أحد مسلمى شمال إفريقيا الذين فروا هاربين إلى جيشنا، فبعث الدوق من يأتى بها؛ ولمّا لم يستطيع إخراجها من مكانها، أمر بتفكيكها ودفن أجزائها على نحو يعجز معه العدو عن العثور عليها. انطلق من ذلك المعسكر كل من السيد لويس دى كاردونا والسيد لويس دى كوردوبا بغية تفقد الجبل، وكان بصحبتهما ألفان من المشاة ومائة وخمسون من الفرسان، فرجعا ببعض النساء والأطفال الذين قاموا بأسرهم، وكمية من الماشية.

فى تلك الآونة، أمر الدوق بهدم الترميمات المقامة بقلعة خوبيليس، ثم حشد الرجال وذهب إلى كاديار، ولم يوقف مسيرته بل مضى ليبيت تلك الليلة فى ياتور. فى ذلك اليوم كشف المسلمون عن وجودهم أعلى جبال بيرتشول، فلم يشأ الدوق أن ينصب المعسكر فى البلدة، لقربها الشديد من الجبل؛ بل أقامه بالأسفل عند النهر، وذلك فى وسط بعض الروابى، التى أمر دوريات الحراسة فيما بعد باحتلالها لكى يمسى المعسكر أكثر تأمينًا. لمّا كان الوقت قد تأخر للغاية، أخذ الأعداء فى الاقتراب، وأشعلوا نيرانًا ضخمة على قمم الجبال؛ وهو ما أجبر جيشنا على قضاء الليلة بأسرها شاهرًا أسلحته، ظنًا منا أنهم يودون شن هجوم ما. كان هؤلاء هم ابن عبو والأربعة آلاف رام التابعين له، إلى جانب الأتراك ومسلمى شمال إفريقيا، وأناس كثيرين يحملون المقاليع والحراب؛ وقد حضر هؤلاء رغبةً منهم فى الإرهاب أكثر من الاشتباك، حيث قالوا لمن نصحهم بالقتال إنه ما من داع لأن يذوقوا ملح بارود الذخيرة فى بنادق المسيحيين، لأنهم هم سيتعبون من السير وسيرحلون عن الأرض رغمًا عن إرادتهم. وقد كانت العناية الإلهية حقًا هى ما حالت دون شنهم للهجمات خلال عدد من تلك الليالى، لأنه كان بمقدورهم التسبب فى خسائر.

غادر الجيش ذلك المعسكر فى صباح يوم الجمعة التالى، فبلغ أوخيخار دون معوقات -وكانت أيضًا مهجورة-، فأقام الجيش داخل بلدة البسيط. هنالك أحضر أحد مسلمى خوبيليس السيد دييغو أوسوريو Diego Osorio، الذى أتى إلى دوق سيسا -بموجب أوامر جلالة الملك- حاملاً رسائل تتعلق بمجريات الحرب والتدابير التى يتعين القيام بها فى شأن الاستسلام المزمع. وكان قد خرج من أورخيبا برفقة خمسة عشر من حملة الدروع التابعين لكتيبة أوسونا لحراسته، ظنًا منه أن الجيش موجود فى خوبيليس، لكن الجيش كان قد غادر المحل منذ ساعة. فلمّا ألفى نفسه على مقربة من البلدة، ورأى الشوارع عامرة بالناس، دلف إليها، فلم يلق الترحيب الذى كان يتوقعه؛ لأنهم لم يكونوا مسيحيين، بل مسلمين هبطوا من الجبال لدى رؤيتهم رحيل جيشنا؛ فتركوه يدخل إلى البلدة، ثم حاصروه هو وحملة الدروع جميعًا، واستولوا منه على الرسائل. فى أعقاب تعذيبه، سلّموه إلى ذلك المسلم -الذى كانت امرأته وإحدى بناته

فى الأسر– لحراسته. كان المسلم رجلاً شديد الصلاح، فأحسن إليه، وأبقاه دونما قيود، وقال له إنه إذا أقدم على الرحيل برفقته، فإنه سيحمله إلى جيشنا، على أن يتعهد بمنحه امرأته وابنته.

تعجب السيد دييغو من رؤية تلك الخصال المهذبة في واحد من المسلمين[٢٦]، فوجه إليه الشكر على المعاملة الطيبة التى لقيها منه فى أثناء كونه أسيرًا لديه، ووعده بالوفاء بمطلبه، وبأن يتوسط لدى جلالة الملك من أجل أن يسبغ عليه نعمًا أخرى عديدة. فأجابه المسلم بأنه ليس سجينًا لديه، بل إنه هو الأسير عنده، وإنه يعلم أن لابد له من استرضائه، فى أعقاب اتباعه لتلك الحماقة التى اقترفها المسلمون عندما ثاروا على الأرض التى لم يتمكنوا من المحافظة عليها. وقد وفى الرجل بكلمته، ففى صباح اليوم التالى، حمله إلى جيش دوق سيسا الموجود فى أوخيخار؛ ولمّا كانوا قد بلغوه فى أثناء الليل، فقد توقفوا حتى الصباح، لأن دوريات الحراسة لم تسمح لهم بالدخول إليه. أخبر السيد دييغو أوسوريو الدوق بالمعاملة المهذبة التى لقيها من ذلك المسلم، ورجاه أن يشمله برحمته وعطفه؛ فامتدح الدوق كثيرًا ذلك الصنيع، وقال للرجل بأن يطلب مكافأة، وسيدفع بها إليه عن طيب خاطر. طلب منه الرجل أن يسلمه امرأته وابنته، اللتين أُسرتا فى أثناء الغارة التى شنها السيد لويس دى كوردوبا؛ وأن يمنحه تصريح مرور، لكى يتسنى له الذهاب والمجىء من وإلى المعسكر فى حرية، لأنه ينتوى إطلاق سراح بعض المسيحيين الذين تم أسرهم برفقة السيد دييغو أوسوريو، إلى جانب حمل عدد غفير من الثوار على تسليم أنفسهم ليكونوا تحت رحمة جلالة الملك.

وعد الدوق الرجل بإعطائه امرأته وابنته –اللتين حملتا إلى قلهرّة–، وقام بمنحه تصريح المرور، وبعث به إلى جيش السيد خوان دى أوستريا ببعض التنبيهات. قبل أن يصل الرجل إلى هناك ألقى القبض عليه نفر من المسلمين من أتباع ابن عبو،

---

(٢٦) صورة المسلم فى أدب العصر الذهبى تتراوح بين الإشادة والسخرية. انظر دراستنا "صدى سقوط غرناطة فى الأدب الإسبانى". أعمال مؤتمر الدراسات الموريسكية بمناسبة الذكرى المئوية الخامسة لسقوط غرناطة، تونس، ١٩٩٣. (المراجع)

وحينما عثروا معه على تصريح المرور والرسائل فى صدره، حملوه إلى ابن عبو الذى أمر بشنقه على إحدى أشجار الزيتون، وعقب وفاته جعلوه هدفًا لسهامهم. فى أعقاب تلك الواقعة بفترة ليست بالبعـــيدة، تضرع الحبقى إلى الســيد خوان دى أوستريا ليمنح الحرية لهاتين السيدتين -وكانتا قريبتين له-، فدفع مائتى دوقية لافتدائهما، وأطلق ســراحهما.

الفصل الثالث والعشرون

يتناول عودة السيد أنطونيو دى لونا إلى تفقد جبال منتميس، وإقامته معقلين فى كومبيتا ونيرخا.

فى أثناء وقوع تلك الأحداث فى الجيشين، قام جلالة الملك -بعد إلحاح من قبل دوق سوسا Sosa- بإرسال السيد أنطونيو دى لونا -الذى كان قد أوى إلى إويتور تاخار Huétor Tájar، فى أعقاب إجلاء المسلمين من بقاع الشرقية الأربع فى مالقة، وإقامة معاقل بها، نظراً لوجودها على الطريق الذى يربط البشرات وجبل منتميس بالبقاع الأخرى فى منخفض مالقة وسلسلة جبال رُندة- لكى يعاود الدخول من جديد إلى جبل منتوميث. وأن يجتاح الأراضى، وينشئ نقطة منيعة فى كومبيتا، وأن يودع حامية فيها وفى نيرخا، نظراً لكونهما موضعين لهما أهمية بالغة فى تأمين ذلك الساحل ومعبر المنكب. وبعد أن يفرغ من ذلك، يمضى قدماً إلى الساحل، حيث كانت قد وردت تحذيرات حول حشد المسلمين للكثير من المؤن هناك، من أجل مساعدتهم على البقاء وسط وعورة تلك الجبال ريثما تصلهم النجدة من شمال إفريقيا.

من أجل الاضطلاع بتلك الحملة، أمر جلالة الملك المأمورين القضائيين لمدن الجوار أن يحشدوا الرجال من المواضع التابعة لهم، وأن يعودوا للانضمام إلى جلالته، ويكونوا رهن أمره، فى انتظار الأوامر التى سيصدرها دوق سوسا إلى السيد أنطونيو دى لونا. ولتجنب العائق الذى سيمثله اضطرار الجنود إلى الرجوع مرة أخرى، إذا ما لزم الأمر وتجاوزت مدة الحملة عشرة أيام، أُمِرَ السيد بدرو بيردوغو -مورد مالقة- أن يزودهم بالمؤن الضرورية. كان الغرض الذى يطمح إليه دوق سوسا هو إفشال مخطط الأعداء، وإحباط آمالهم فى العودة إلى إثارة المواضع المهجورة، وإجبارها على معاناة الجوع

وويلات الحرب. وكان الدوق يلح فى الطلب على جلالة الملك لكى يجلى كافة الموريسكيين المسالمين من الشرقية ومنخفض مالقة وسلسلة جبال رُندة، وينقلهم إلى بقاع داخلية، للحيلولة دون استعانة الثوار بهم.

قبل السيد أنطونيو دى لونا بتلك الحملة، بيد أنه تخوف من القيام بها برفقة أناس طامعين يفتقرون إلى الانضباط، فطلب إمداده بجنود نظاميين، وقال إنه ليس من الجيد أن يعاود تعريض شرفه وصيته للصدفة، وطالب أيضاً بتزويده بالمؤن فى كل من:مدينة بلش، ونيرخا، والمنكب، ومطريل. قام دوق سيسا بمنحه فرقتين من المشاة -أحدهما تابعة له والأخرى خاصة بدوق ألكالا-، بالإضافة إلى لوائى فرسان تابعين لدوق ميدينا سيدونيا ودوق أركوس؛ كما صدرت الأوامر إلى الموردين لكى يودعوا المؤونة فى الأماكن التى ذكرها. عاد السيد أنطونيو دى لونا للدخول إلى جبل منتميس برفقة تلك القوات إلى جانب الرجال الذين تم حشدهم من المدن، وبعد جهد بسيط تمكن من اجتياح الأرض بعد مناوشات مع المسلمين -الذين كانوا يرومون تلك الجبال كالمتوحشين-، فقتل وأسر نفراً منهم؛ وكذلك فقد بعض الجنود فى بعض الأحايين، ثم شرع فى إقامة النقطة الحصينة فى كومبيتا.

وضع السيد أنطونيو النهاية للحملة بعد أن أرسل ألف رجل لتفقد نهر تشيّار Chillar، وعودتهم بغنائم قليلة وخسائر مماثلة. وقد خلّف القائد أنطونيو بيريث -النائب فى مجلس بلدية بلش- فى معقل كومبيتا مع مائتين من الجنود، كما ترك فى قلعة نيرخا دييغو بيليث دى مندوثا Diego Vélez de Mendoza مع كتيبة أخرى من المشاة. توجه السيد أنطونيو دى لونا إلى مدينة أنتيقيرة، حيث قدم لملاقاته بدرو بيرموديث -قائد المقاتلين الموجودين فى رُندة- لكى يتلقى أوامره حول السبيل إلى إجلاء أهالى الأماكن التى تقع فى تلك المناطق الجبلية، لأنه حينما تم إخبار جلالة الملك بأن بعض تلك المواضع قد أخذت فى التمرد، تراءى لجلالته أن يخرج أهلها منها قبل أن تجاهر بالثورة، وقد عهد صاحب الجلالة إلى السيد أنطونيو دى لونا بتنفيذ تلك المهمة.

الفصل الرابع والعشرون

يتناول هجوم المسلمين على موكب الإمدادات الذى كان ماركيز فابارا يقوده إلى قلهرّة.

بدأ جيشنا الموجود فى أوخيخار يعانى من نقص المؤن؛ ولمّا لم يكن من المناسب التزود بها من الإمدادات التى بعث بها بدرو بيردوغو من مدينة مالقة إلى بلدة أدرا عن طريق البحر، فقد أمر دوق سيسا بحشد كافة الأمتعة، وإرسالها برفقة دورية حراسة كثيفة العدد من أجل إحضار المؤونة من قلهرّة. كان هذا هو الطريق الأقصر، لأنه من الممكن الذهاب والعودة عبره فى يوم واحد؛ على الرغم من اتسامه بالوعورة والخطورة، نظراً لوجود قوات العدو فى تلك الناحية، كما أنه كان لزامًا على الموكب المرور بميناء رباح. بيد أنه تم التغلب على تلك المصاعب بالهمة العالية وعزم الرجال، حيث أُسنِدَت المهمة إلى ماركيز فابارا، الذى مُنِحَ ألف من المشاة ومائة من الفرسان لمرافقته. انطلق الماركيز من معسكر أوخيخار فى اليوم السادس عشر من شهر إبريل، قبيل بزوغ الفجر بساعة، فبادر هو بالخروج فى الطليعة مع مائتين من المشاة وأربعين من الفرسان، ثم تبعتهم الأمتعة فيما بعد برفقة بعض الجنود الفرادى المسلحين بالبنادق على الجانبين، بينما ضمت مؤخرة الجيش المشاة التابعين لإشبيلية بالإضافة إلى ستين فارساً. شَرع جيشنا فى ارتقاء الجبل بهذه الطريقة، دون أن ينتبهوا إلى الأعداء أو التضاريس، ومن دون حتى أن يبسطوا سيطرتهم على المواضع ذات الأفضلية من أجل تأمين الأمتعة.

حينما أمعنت الطليعة فى التقدم إلى حد مبالغ فيه، وحال العائق الذى مثلته النساء والمرضى والجرحى دون اللحاق بها، كان لابد أن تصبح هناك مساحة شاسعة من الأراضى تفصل بينهم وبين الأمتعة. وكذلك فإن مؤخرة الجيش لم تكن أقل تهاونًا،

حيث سارت بخطى بطيئة للغاية، وتوقفت من أجل تجميع بعض رؤوس الماشية التى تصادف أن أوقعها الأعداء بين أيديهم، مما تعين معه وجود المسافة ذاتها بينهم وبين الأمتعة. كان ابن عبو يراقب الأوضاع عن كثب، وحينما شهد خروج كل تلك الأمتعة دفعةً واحدةً من معسكرنا، ولم يكن يدرى الوجهة التى ستقصدها، أمر القائد العربى Alarabi -الذى كان يترأس تلك الجبهة- أن يتبعها. اصطحب ذلك المسلم خمسمائة رجل، ومعهم الكثير من المحاريث، وقسّمهم إلى ثلاث سرايا: الأولى -التى كان يترأسها بنفسه- تضم مائة من حملة البنادق، والثانية أوكل قيادتها إلى مواطن من أوخيخار يدعى بيثينى Piceni وكان بها مائتا رجل، أما الثالثة فعهد بها إلى مارتيل Martel (de Cenete) -أحد أهالى زناتة[٢٧]. أصـــدر العـــربى أوامره إلى السريتين لكى تقوم إحداهما -فى أثناء إغارته هو على الأمتعة- بالهجوم على مؤخرة الجيش من الأمام، بينما تتولى الثانية الانقضاض على بقية الطليعة بحيث تقف حائلاً بينها وبين الأمتعة.

بمقتضى هذه الخطة قام القادة الثلاثة بنصب ثلاثة كمائن فى مواضع تتيح لهم التخفى جيداً، وتركوا مقدمة الجيش تمر؛ وعندما أضحى موكب الإمدادات فى أكثر أجزاء الطريق ضيقًا، وثب عليه العربى مع جنوده المائة المسلحين بالبنادق بعد أن قسمهم إلى ثلاث فرق. أخذ هو على عاتقه الهجوم على الأمتعة مع أربعين من حملة البنادق، لتتبعه بعدها فى الهجوم الفرقة الثانية ثم الثالثة؛ فلمّا ألفى مقاومة ضئيلة، لأن حملة البنادق -الذين لم يعيروا الحمل الذى يرافقونه سوى قدر قليل من الانتباه- كانوا قد انفصلوا عن الركب بحثًا عما يحقق لهم أى منفعة. اخترق العربى الأمتعة عند المنتصف، مما نجم عنه إرباك سائقى العربات والمرضى والجرحى. فى ذات الوقت أغار البيثينى على فرسان مؤخرة الجيش، وألحق بهم الهزيمة، ليؤدى ذلك إلى هزيمة المشاة، وقد سلك مارتيل النهج ذاته. وقد تحلى هذا وذاك بالسرعة الفائقة والصمت التام عند شن الهجوم، حتى بديا وكأنهما جنديان لهما باع طويل فى الجندية، وليسا مسلمين. أخذ البيثينى يلاحق جنود المؤخرة حتى بدا وكأن رجالنا يلوذون بالفرار. وقد حذا

(٢٧) فى بعض الأحيان يصعب أن نعرف هل لقب "زناتى" مثلاً لقب عائلى أم يدل على اسم مدينة الشخص. (المراجع)

المارتيل حذوه، ليقوما -فيما بينهما- بالاستمرار فى مطاردتهم. تولى العربى قتل سائقى العربات والمرضى وتخريب الأمتعة، وقام الجميع فى آن واحد بالقضاء على الجنود وحملة الدروع. وصلت الأسلحة إلى ماركيز فابارا فى وقت متأخر للغاية نظراً للصمت والخوف الشديد الذى انتاب الجنود، فلم يتمكن الماركيز من تدارك الضرر، رغماً عن سعيه -مع فرقة تضم عشرين فارساً وعدداً من حملة البنادق- للوصول فى الوقت المناسب؛ بيد أن وعورة الطريق، والأمتعة الملقاة، ومعوقات أخرى موجودة بالطريق، حالت دون تمكنه من إدراك ذلك. وفى نهاية الأمر واصل مسيرته -والمسلمون يلاحقونه من الخلف- حتى بلغ نقطة قريبة من قلهرّة.

توفى فى ذلك اليوم ما يقرب من ثمانمائة مسيحى، كان من بينهم ستمائة من المرضى والجرحى الذين كانوا فى طريقهم إلى وادى آش لتلقى العلاج. استولى المسلمون على ستمائة موريسكية كن أسيرات لدينا، بالإضافة إلى ثلاثمائة من الأمتعة المنتقاة بعد أن خربوا العديد من الأمتعة الأخرى، وأسروا خمسة عشر رجلاً؛ وذلك دون أن يفقدوا رجلاً واحداً فى صفوفهم. سادت فوضى عارمة بين سائقى العربات والجنود حتى أنهم جميعاً هربوا من هناك، ولدى وصولهم إلى قلهرّة لاذ الجانب الأكبر منهم بالفرار؛ وهكذا لم يعد هناك من يرجع بموكب الإمدادات إلى المعسكر. وصلت أنباء تلك الحادثة إلى أوخيخار فى الليلة ذاتها، لأن ماركيز فابارا ما أن بلغ قلهرّة حتى بعث بالقائد لاثارو مورينو دى ليون مع ستة من الفرسان لإحاطة الدوق علماً بما جرى. سلك القائد نفس الطرق مروراً على الأجساد الميتة، ووصل قبيل الفجر حاملاً أنباء تلك الكارثة، التى أسف دوق سيسا لها كثيراً، فلمّا ألفى الدوق نفسه من دون أمتعة أو مؤن، عزم على الذهاب إلى بالور لكى يفهم ما جرى من زاوية أكثر قرباً، ليقاتل العدو إذا ما جسر على انتظار قدومه، وكذلك من أجل إرسال الأمتعة التى يتسنى له تجميعها لإحضار المؤن، أو أن يذهب هو للاضطلاع بتلك المهمة؛ حيث كان هناك العديد من المرضى بين رجاله، كما كان ينقصه الرجال الذين رافقوا ماركيز فابارا، فلم يتبق بحوزته سوى عدد قليل لا يتيح له إرساله لتولى تلك المسألة.

الفصل الخامس والعشرون

يتناول ذهاب دوق سيسا لنصب معسكره فى بلدة أدرا.

فى صباح اليوم التالى -الموافق السابع عشر من إبريل- انطلق دوق سيسا من أوخيخار يصحبه الجيش بأسره، بعد أن انتظمت صفوفه، كل فى موقعه، وتوجه صوب بالور وهو يشعر بأسى شديد لرؤيته التخاذل الذى أظهره رجالنا؛ فألفى المكان خاويًا، لأن المسلمين كانوا قد لاذوا بالجبال. فبعث من هناك بجواسيس إلى وادى آش وغرناطة، ليحض سيادة الرئيس بدرو دى ديثا على أن يأمر ماركيز فابارا بأن يعاود تجميع الرجال، وأن يحشد رجالاً آخرين، ثم يحضر إليه حيثما يكون. عمد الدوق خلال تلك الليلة إلى أن يبيت الرجال جميعًا شاهرين أسلحتهم، كما أولى عنايةً بالغةً لدوريات المراقبة ونقاط الحراسة فى منطقة الجبل، تحسبًا لشن الأعداء أى هجوم فى أثناء الليل. وكان هؤلاء قد أطلقوا السواقى، وأغرقوا كلاً من الأراضى التى تُرِكَت بورًا لإراحتها، والأراضى المزروعة المحيطة بالمكان بالمياه؛ وباتوا يراقبون الأوضاع عن كثب عند سفح جبل شلير.

قص علينا أحد المسلمين الذى كان فى صحبة ابن عبو فى ذلك اليوم، أنه إبان سير رجالنا باتجاه بالور، كان يشاهد الجنود الذين يصعدون إلى أعلى تلك المرتفعات من قمة أحد الجبال؛ فلمّا بدا له أنهم منهكون للغاية، قال إن هذا المشهد بديع، وإن النافذة التى يطل منها عليهم فى أثناء مرورهم جيدة جداً؛ كما أنه كان يعتقد أن بإمكانه هزيمتهم بمجرد النظر دون شن أى هجوم آخر. قرر دوق سيسا الرجوع إلى بلدة أدرا، التى كان يعلم أن بها احتياطيًا من المؤن، وذلك بعد أن أخذ فى اعتباره الضرر الذى يمكن أن يتعرض له لو غادر قلهرّة. لأن عقد الجيش كان ينفرط من بين

يديه، كما أن الأعداء الذين يراقبون أحواله من خارج البشرات سيفرضون سيطرتهم على الموانئ، وسيمسى من الصعوبة بمكان أن يتسنى له النيل منهم. علاوةً على ذلك، فإنه لم يكن هناك نقص فيمن تراءى لهم -من المسلمين أو المسيحيين- أنه سيمنى بالهزيمة وسيتم القضاء عليه.

على ضوء تلك الأمور، قام دوق سيسا بجمع الفرسان والقادة للتشاور، وكان هناك البعض ممن يحملون آراءً معارضة، بيد أن السيد خوان دى مندوثا سارمينتو تصدى لاعتراضاتهم، وقال إن الشيء الوحيد الذى سنجنيه من الذهاب إلى قلهرّة هو فقد سمعة الجيش؛ لأنه من المؤكد أن الجنود ما أن يبرحوا البشرات، سيقدمون على فعل ما قاموا به فى أثناء انضمامهم لجيش ماركيز بلش. عندئذ أخذ الدوق بأفضل نصيحة، وبات يقنع القادة والجنود، ويوصيهم بالامتثال للأوامر وعدم الانفصال عن الركب، ثم قفل عائداً إلى أوخيخار. بمجرد مشاهدة المسلمين للطريق الذى سلكه الجيش، أسرعوا بالنزول من الجبل، وفى أعقاب عبور جنود المقدمة والوسط فى جيشنا للنهر، انقضوا على مؤخرته، واشتبكوا مع الجنود لفترة تزيد على ثلاث ساعات بغية تعطيل الجيش. كان دوق سيسا قد وصل إلى صومعة القديس سيباستيان الكائنة بالقرب من أوخيخار عندما أحس بإطلاق النفير، فأمر بإيقاف المسيرة وهرع لتدعيم مؤخرة الجيش. لمّا كانت الاشتباكات تدور فى موضع لا يتيح للفرسان حرية الحركة، عمد إلى الهجوم على الأعداء بواسطة ذراعين من الجنود المسلحين بالبنادق، حيث انتظرا إلى أن أعطاهم الأعداء ظهورهم، وردا لهم جزءًا من الأضرار التى ألحقوها بنا عند ميناء رباح؛ علاوةً على ذلك فقد استولوا على شحنة من العملات كانت قد ضلت طريقها.

وصلت القوات إلى أوخيخار، ووجدت أن بعض الجنود وسائقى العربات الذين كانوا مرضى بالمشفى -الذى كان مقامًا فى أحد المساجد التى كان المسلمون قد خصصوها من جديد لإقامة صلواتهم- قد قضوا. كما عثروا على بعض المؤن المسروقة التى تم تدميرها، وكان كاتب الحسابات قد أودعها فى مخزن الذخيرة نظرًا لعدم توفر أجولة تمكنه من حملها. كانت تلك الأفعال قد قام بها نفر من المسلمين الذين يجوبون تلك التلال، ممن هبطوا إلى منازل البلدة فى أعقاب رؤيتهم لخروج الجيش. أسف دوق

سيسا كثيراً لذلك الأمر، ووبخ بشدة القادة والمندوبين الذين كانوا مكلفين بحشد المعسكر فى ذلك اليوم؛ ثم مضى إلى لوكاينينا دون أن يتوقف هناك، بعد أن أرسل قوات فى المقدمة لاستطلاع الطريق الذى يتعين عليه السير فيه. وحينما أضحى على مقربة من لوكاينينا، وردت إليه أنباء عن احتلال الأعداء للممر، إلا أن ذلك لم يحل دون استكمال مسيرته والمضى قدماً.

عندما شهد المسلمون التصميم الذى تحلى به الدوق، تركوا الموضع الذى كانوا قد بسطوا سيطرتهم عليه، وأخذوا يتراجعون إلى داريّكال. مضى الجيش إلى لوكاينينا، وأضرموا النيران فى منازل البلدة، على النسق الذى انتهجوه فى شتى المواضع التى حلوا بها. ذهب الجيش ليقضى ليلته تلك عند بئر يقع على مسافة ثلاثة فراسخ ونصف من أدرا، وقد بلغه الرجال وهم منهكون ومبللون ويكادون يموتون جوعاً، إلى الحد الذى دفع البعض إلى شراء الرغيف الواحد مقابل ست عملات و النبيذ مقابل دوقية ونصف -ليس انطلاقاً من رغبتهم فى جزل العطاء. شن الأعداء بعض الهجمات ناحية بيرخا، بيد أن الدوق أمر بفتح نيران المدفعية صوبهم، ليتراجعوا فيما بعد. فى صباح يوم الأربعاء التالى، سار الجيش إلى بيرخا بينما الرجال يعانون الجوع الشديد، على نحو لم يقووا معه على مواصلة السير -على الرغم من سيرهم فى أراضى منبسطة- وسقط الكثيرون منهم مغشياً عليهم.

مر الدوق بالبلدة عند انتصاف النهار، وكان دائماً ما يضع الأعداء تحت ناظريه، ومضى إلى آبار المياه التابعة لأدرا على شواطئ البحر، فلمّا باشر صعود المرتفع الذى ينحدر باتجاه البلدة، وجد إيرناندو دى ناربايث-قائد الحصن- الذى كان قد خرج لاستقباله فى خمسين من الفرسان. قضى الجيش ليلته تلك فى البساتين الموجودة خارج الأسوار، وهنالك أمر الدوق بنصب الخيام، لأنه لم يكن يرغب فى الدخول إلى البلدة. كان الجوع الذى يكابده الرجال والحيوانات قاسيًا، حتى أنه فى غضون ساعة لم يبق شىء أخضر فى البساتين والحقول إلا وكانوا قد قطعوه. لكنهم تداركوا ذلك الأمر فى اليوم التالى، وذلك عن طريق الكعك والدقيق الموجودين بمخازن جلالة الملك من أجل ذلك الغرض.

الفصل السادس والعشرون

يتناول ما دار فى أدرا إبان وجود جيش دوق سيسا فى ذلك المقر، والتدابير التى تم اتخاذها من أجل الإغارة على كاستيل دى فيرّو.

فى أعقاب وصول دوق سيسا إلى أدرا، استطلع مع سلاح الفرسان طاعات دالياس وبيرخا وجانبًا من جبل غادور، وذلك فى المناطق التى كان يعتقد بوجود المسلمين بها. رجع الدوق إلى المعسكر ببعض الغنائم، ومكث فى انتظار وصول السفن التابعة للسيد سانشو دى ليبيا، من أجل أن يصعد على متنها ويتوجه للإغارة على كاستيل دى فيرّو، التى كان يضعها نصب عينيه، وكانت آمال المسلمين معقودة عليها. تقع تلك القلعة على الساحل الموجود فى الموضع الذى تشغله طاعة أورخيبا، وكانت تابعة لدوق سيسا. كان أحد المسيحيين الطالحين -المولود لإحدى الموريسكيات- قد باعها إلى الحسين قائد جبهة مطريل مقابل أربعمائة دوقية؛ ومن أجل أن يخرج سالمًا غانمًا كان قد قتل صاحب القلعة غدرًا، أو -كما روى البعض- أن المسلمين كانوا قد أوقعوه فى المكائد التى دبروها له. كانت دوق سيسا تراوده رغبةٌ عارمةٌ فى استردادها قبل أن يقوم المسلمون بتحصينها أكثر مما هى عليه. كان الدوق قد طلب السفن من أجل ذلك الغرض، لأن الذهاب برًا يستلزم قطع سبعة فراسخ من الطرق الوعرة، وهو ما كان سيمثل صعوبةً بالغةً فى اقتياد العربات التى تقل أسلحة المدفعية.

فى تلك الآونة وصلت إلى سواحل دالياس ثلاث سفن محملة بالقمح، والأرز، والأسلحة، والذخيرة التى تم جلبها من شمال إفريقيا. وفى أعقاب رسو القادة الأتراك على الشاطئ، تنامى إلى علمهم أن الثوار يعقدون اتفاقيات من أجل تسليم أنفسهم، فكفروا بقضيتهم، وأرادوا أن يعاودوا الصعود على متن السفن، والعودة إلى أرضهم.

بيد أنهم لم يتسن لهم القيام بذلك الأمر سالمين غانمين، حيث فقدوا القدر الأكبر من الدقيق ومن الأشياء الأخرى التى كانوا قد وضعوها بالخارج، لأن أبراج المراقبة التابعة لنا اكتشفت وجودهم؛ وقد بادر سلاح الفرسان بالتوجه إليهم على نحو لم يتح لهم الفرصة سوى لتحميل الرجال والإقلاع من الشاطئ. استولت قواتنا منهم -بين أشياء أخرى- على جراب مملوء بالكتب العربية، وكان يحوى بضع المصاحف بالإضافة إلى كتاب يدعى "توجيهات الحرب وخططها" Instrucción de la guerra y ardides della، وكان بعض فقهاء الجزائر قد بعثوا بها -على ما يبدو- إلى المسلمين؛ وقد كان تحت عنوان "أحباس لصالح الأندلسيين" Habices para los andaluces، وكأنها كانت مرسلة إليهم على سبيل الصدقة.

حدثت تلك الواقعة فى اليوم السادس والعشرين من شهر إبريل، وقد رست على الشاطئ فى تلك الليلة ذاتها سبع مراكب أخرى كان يستقلها القائد حسين -شقيق كاراكاش- مع نجدة مؤلفة من أربعمائة من الأتراك وإمدادات كثيرة من الأسلحة والذخائر؛ فلمّا تم تنبيهه إلى الاتفاقيات التى يسعى مسلمو تلك الأراضى إلى عقدها، رجع على عقبيه إلى مدينة الجزائر. كان دوق سيسا يمتلك فى حوزته منذ يومين المرسوم الخاص بالاستسلام والأوامر التى أصدرها السيد خوان دى أوستريا بصدد قبول المسلمين الذين يحضرون لتسليم أنفسهم؛ وكان قد حمل الأب كاستيّو على استخراج نسخ منها جميعًا مترجمة إلى اللغة العربية، وبعث بها إلى بقاع شتى فى البشرات برفقة موريسكى يدعى الثامبورى Zambori، وذلك بغية توزيعها على سائر الطاعات فى آن واحد. وعندما تم نشرها فى أدرا فى اليوم السابع والعشرين من شهر إبريل، غادر جيشه فى ذات اليوم ما يربو على مائة جندى، قائلين إن السلام قد عم الأرجاء. كان من الممكن أن يغادر الجزء الغالب من الجنود، لو لم تصل السفن فى تلك الليلة، ويستقلها الجنود فى اليوم التالى للتوجه صوب كاستيل دى فيرّو، وهو الموضع الذى سنعاود الحديث عنهم فيه عندما يحين الوقت لذلك. لنذهب الآن لتناول ما كان يجرى فى شأن الاستسلام.

الفصل السابع والعشرون

يتناول الكيفية التى راسل بها السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس ابن عبو لكى يسلم نفسه، والرد الذى أجابه به المسلم.

يدرك المرء من خلال التدبر فى أحداث ذلك التاريخ مدى الإصرار الذى تحلى به السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس، وذلك فى أثناء وساطته لدى جلالة الملك ولدى أعضاء مجلسه الملكى لصالح موريسكيى مملكة غرناطة من غير المذنبين، الذين دفعهم آخرون إلى اعتناق الثورة رغمًا عنهم؛ وعرضه بأن يأخذ على عاتقه مهمة حملهم على الاستسلام. من أجل أن يضطلع السيد ألونسو بتلك المسألة، كان جلالة الملك قد أمر السيد خوان دى أوستريا أن يبعث به مع نفر من المشاة والفرسان إلى خابينا على غرار الحامية، كما قام دوق سيسا بتزويده بالأمور التى ذكرناها آنفًا. كان السيد ألونسو دى غرانادا قد نفذ بعض الغارات فى تلك الأيام، كما قام بمكاتبة نفر من قادة الثوار من أصدقائه ومعارفه، لإقناعهم بالتخلى عن حمل السلاح وأن يعترفوا بالأخطاء الفادحة التى أقدموا عليها، ويقبلوا العفو الذى أنعم به عليهم جلالة الملك. لمّا بدأ الأمر يسلك المسار الصحيح، كتب السيد ألونسو رسالة إلى ابن عبو قبيل توجهه إلى المعسكر فى يوم الثامن عشر من شهر إبريل من هذا العام[٢٨]، وكان فحواها على النحو التالى:

---

(٢٨) كان السيد خوان دى أوستريا قد استدعى السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس من أجل الاضطلاع بمهمة إخضاع الثوار. (المترجمة)

رسالة من السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس لابن عبو

"السيد ابن عبو: لقد راعنى للغاية أن يقدم شخص مثلكم يتسم برجاحة العقل وينتمى إلى سلالة عريقة على سلك طريق يقوده إلى الهلاك المحقق -سواءً للروح أو النفس- إلى جانب إبادة تلك الأراضى قاطبةً وأهلها. ولمّا كنت آسى كثيراً لذلك الأمر، وأرغب فى تحقيق صالحكم وصالح الجميع، وتدارك تلك المسألة، فإننى أناشدكم باسم الرحمة أن تبعثوا إلىّ بأشخاص محل ثقة لتباحث تلك الأمور معهم. وأنا أتعهد كمسيحى وكفارس بضمان سلامتهم، لكى يتسنى لهم الذهاب والإياب فى حرية من وإلى خابينا حيث سيجدوننى، لأننى أود أن أبحث معهم شئونًا ذات أهمية قصوى بالنسبة لخدمة مولانا الرب وجلالة الملك وتحقيق النفع للناس أجمعين. صدقنى حينما أخبرك أنى أقول الحقيقة دون أى مكر أو سوء نية، وأنا فى انتظار جوابكم علىّ، والذى سيرد لاحقًا. أما حامل هذه الرسالة، فآمل من أجلى أن يلقى كل معاملة طيبة، لأن ما دفعنى لإرساله هى المنفعة التى ابتغى تحققها للجميع، وأنا لدّى رغبة عارمة فى أن نتقابل للتباحث فى هذه الأمور.

خابينا فى اليوم الثامن من شهر إبريل".

علاوةً على الخطاب، قام السيد ألونسو بمنح الرسول تصريح مرور، يحض فيه السيد غوتيرّى دى كوردوبا -حاكم لاس ألبانيويلاس- أن يسمح له بالذهاب والإياب فى حرية، لأنه يتوجه للقيام بمهام ضرورية لصالح جلالة الملك. تسلم ابن عبو تلك الرسالة فى ميثينا دى بومبارون، بينما كان دوق سيسا قد بات بالفعل فى أدرا. وقد أجابه -بناءً على المشورة التى أسداها إليه إيرناندو الحبقى، الذى كان موجوداً آنذاك- على النحو التالى:

جواب ابن عبو

"السيد ألونسو: فهمت من كتابكم مدى حرصكم المحمود على تهدئة الأجواء فى هذه المملكة، وتحقيق مصلحة ملكنا، من منطلق كونكم شخصًا مسيحيًا صالحًا، وهو ما يلزمكم بالسعى لمعالجة الأوضاع من أجل وضع نهاية لكل تلك الشرور

التى ألمت بالمسيحيين وبأهالى تلك المملكة، وإرساء السلام والطمأنينة بها. أما ما تقولون حول القلق الذى انتابكم إزاء تعريض روحى وجسدى لذلك الخطر العارم، فإن الله أدرى بالأصلح من أجل النفس، وأما الجسد، فنحن نعلم أن الملك فيليبى بالغ القوة والنفوذ. بيد أنه يجب أن يكون مفهومًا أنه بمقدورنا تكبيده خسائر فادحة تفوق بكثير ما تسببنا له فيها من قبل؛ فأهل هذه المملكة لم يعد لديهم ما يخسرون، فيما يتعلق بما قد يحل بهم الآن فإنهم قد تجرعوه من قبل. أما ما قد آل وسيؤول إليه هؤلاء وأولئك، فإن تبعته تقع على من لم يتداركوه فى الوقت المناسب، ظنًا منهم أن ما تطرح عليهم هى آراء تافهة، وليست صادرة من أشخاص نبلاء أحاطوهم علمًا بما يقتضيه صالح الرب وصالحهم.

ليس هناك سبب يدعو إلى إلقاء اللوم علىّ أو على أهالى هذه المملكة فى هذا الصدد، لأن الداعى وراء تلك النيران كان مستشارو السوء، وهؤلاء هم من ينبغى تحميلهم الذنب، فكم أصدروا أوامرهم للقيام بالعديد من الفواحش حتى أن أهالى هذه المملكة لم يعودوا يطيقون الحياة! وكيف أضحى بين المواطنين رجال يفضلون تجرع الموت على مكابدة هذا القدر الكبير من المآسى والمظالم التى كانوا يقاسونها. كان هذا هو المسبب لكل تلك الشرور والمضار الحادثة، وكل تلك الميتات التى تعرضت لها مخلوقات بريئة. ولهذا السبب لا يجب إلقاء اللوم على أى من الأهالى، وإنما على المتسببين فى تلك الوقائع، لأنه لو وقع الضير الذى تعرض له هؤلاء الأفراد على أرجح الرجال عقلاً فى المسيحيين قاطبة، لم يكن ليكتفى بفعل ما صنعوه، بل كان سيقدم على اقتراف آثام تفوقها بكثير. وفيما يتعلق بما تقولونه حول إرسالى لرجلين موضع ثقة كبيرة إلى خايينا بمقتضى الأمان والعهد الذى قطعتموه على أنفسكم، فأنا أدرك جيداً أنك كفارس ملتزم به، لكن هناك من سيدينون بآراء مختلفة، وسيقدمون على أفعال مغايرة، لذا فلن يجسرا على الذهاب حتى يعهد إليهما الملك أو السيد خوان دى أوستريا بذلك.

لقد راسل السيد إيرناندو دى بارّيادا إيرناندو الحبقى -قائد هذه الأراضى الثائرة- خلال تلك الأيام المنصرمة، يطلب منه الاجتماع فى وادى آش، لكى يتباحثا سوياً السبيل إلى إخماد تلك النار. وقد توجه الحبقى من هنا إلى نهر المنصورة، حيث كاتبه هناك أيضًا السيد فرانثيسكو دى مولينا والتقى به، وفيما بعد ذهب للتحاور معه السيد فرانثيسكو دى كوردوبا وفرسان آخرون؛ وقد حضر الحبقى لموافاتنا بكل ما جرى، بوصفه رجلاً مخولاً من قبلنا لتولى تلك المهام. إذا ما رغبتم فى الالتقاء به، فعليكم إرسال الأمان من جلالة الملك له، ولن سيذهبون برفقته من جانبنا. لأنه من جهتنا، نحن نتعهد بسلامتكم وسلامة من يصحبكم. من أجل تباحث ذلك الأمر، وتحقيق أهدافه المرجوة، فقد تراءى لنا أنه يمكن التفاوض عن طريق وادى آش، لأن العجلة قد بدأت تدور هناك وبلغت مراحل جيدة. فإن لم يكن ذلك متاحًا، فبمقدوركم الاجتماع به فى أورخيبا، لأنه شخص ستسعدون بمقابلته والتفاوض معه فى أى شأن. كتبت الرسالة فى البشرات بتاريخ الثانى والعشرين من شهر إبريل من عام ١٥٧٠.

مولاى عبد الله بن عبو".

الفصل الثامن والعشرون

يتناول التقدم الذى أحرزه السيد خوان دى أوستريا منذ مغادرته سانتا فى وحتى إقامته فى بادوليس الكائنة فى أندرش، والكيفية التى تابع بها مفاوضات استسلام الثوار.

فى أعقاب إذاعة المرسوم، واتخاذ تدابير أخرى فى المعسكر القائم فى سانتا فى، مضى السيد خوان دى أوستريا مع جيشه إلى تيركى؛ وذلك بغية تضييق الخناق على المسلمين وأيضًا من أجل حملهم على الاستسلام. فلمّا وردت إلى السيد خوان أنباء حول وجود بعض المسلمين والأتراك المنتمين إلى شمال إفريقيا فى فينيكس برفقة أهالى تلك الأراضى، وأنهم يلحقون أضرارًا بنواحى المرية، أرسل فى مواجهتهم كلاً من: خوردان دى بالديس Jordan de Valdés فى ألفين من المشاة، وتيّو غونثاليث دى أغيلار مع المائة رمّاح التابعين لإيثيخا. وقد أمرهما بالإغارة على المحل قبيل بزوغ الفجر، والسعى لنحرهم، لبث الخوف فى نفوس الآخرين وجعلهم يبادرون بالاستماع إلى النصح السديد. انطلق القائدان من المعسكر مع حلول الليل، وساروا طوال الليل، وبلغوا البلدة فى ساعة كانت ستتيح لهم إحداث الأثر المرجو، لولا انتباه أبراج المراقبة ودوريات الحراسة التابعة للمسلمين، الذين استشعروا وجودهم وهرعوا لدق ناقوس الإنذار. وهكذا فإنه عند وصول قواتنا إلى المكان، ألفوا المسلمين يصعدون أعلى الجبل، ونساءهم تسير أمامهم وتحث الخطى قدر المستطاع. أخذ الفرسان فى مطاردتهم، واشتبكوا معهم لبرهة من الوقت، إلى أن أغار عليهم الجنود المسلحون بالبنادق، فهزموهم وقتلوهم. وقد توفى قرابة المائة مسلم وتم أسر أربعمائة من النساء.

تراءى للقائدين أنه ليس من المناسب التوغل أكثر فى الجبل، لأن الأعداء كانوا يسيطرون على الأراضى ويعيدون تشكيل صفوفهم؛ فرجعوا على أعقابهم إلى البلدة، ودلفوا إليها، وقاموا بنهبها. وقد رجعوا إلى بلدة تيركى فى وقت متأخر للغاية من ذلك اليوم ذاته، محملين بالغنائم، ومعهم ألف من رؤوس الماشية التى تسنى لهم جمعها فى عجالة. وصل السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس إلى ذلك المعسكر، وكان السيد خوان دى أوستريا قد استدعاه -كما ذكرنا آنفًا[٢٩]- من أجل الاضطلاع بمهمة حمل الثوار على الاستسلام. وحينما طالع السيد خوان رد ابن عبو على رسالة السيد ألونسو، أمره بمواصلة الحوار الذى كان قد بدأه معه، وأن يعاود مكاتبته فى ذلك الصدد، فبعث إليه أحد الموريسكيين برسالة أخرى، يخبره فيها أنه وفقًا لما كان قد أرسله إليه فى الأيام المنصرمة، وانطلاقًا من رغبته فى تفادى الخراب العظيم الذى سيحل بأهالى تلك الأراضى، فإنه قد بادر فى عجالة بالتضرع إلى جلالة الملك لكى يسبغ عليهم عفوه؛ لإدراكه مدى الرغبة العارمة التى تراودهم من أجل الخضوع لخدمته، ووضع أنفسهم بين يديه الملكيتين.

كما أنه قد حضر إلى تيركى من أجل تحقيق ذلك الغرض -كما تعهد إليه آنفًا-، وهو يود الالتقاء به هو والحبقى وكافة الأشخاص الذين يرغب فى مقابلته إياهم، وفى المحل الذى يحدده. فبعد أن قام من جانبه بتفويت العديد من الفرص، حتى لم يبق هناك سوى ذلك السبيل لتفادى ذلك الموت الجماعى، لم يسع السيد خوان دى أوستريا سوى أن يظهر السرعة اللازمة لحسم الأمر من كافة النواحى فى حزم شديد. لذا فمن الأحرى أن يغتنم تلك الفرصة الثمينة، لأنه على الرغم من إشهار خوان دى أوستريا لسيفه فى يده، فإنه يود أيضًا أن يفيد الموريسكيون من العفو الذى أسبغه عليهم صاحب الجلالة، على النحو الذى شهدوه فى المراسيم التى تم إذاعتها. هذا ويتعين عليهم تثمين ذلك الفضل والمنة المتفردين وقبولهما فى سرور. وليعلموا أن الفضل الأكبر فى سلك الأمور لذلك المنحى يرجع إلى تدخل السيد خوان دى أوستريا، إضافةً إلى

(٢٩) انظر الفصل السابق. (المترجمة)

العرض الذى تقدم به هو بالنيابة عن مواطنى الأمة الموريسكية قاطبةً، لثقته فى ما لمسه فيهم من إبداء الندم. وهو ينبههم فى الوقت ذاته إلى أن المرسوم الذى تم الإعلان عنه لم يكن يرمى إلى إرجاء الحرب ساعةً واحدةً، لكنه يستهدف أولئك الذين يتوجهون لتسليم أنفسهم فى غضون المهلة المنصوص عليها فيه. وأن هؤلاء الأشخاص -وإن كانوا قادة أو رؤساء أو زعماء للثوار- فإن جلالة الملك سيشملهم فى كنفه، ولن يسمح بأن ينالهم أذى أو ضير. كما أنه على ابن عبو أن يتيقن أن ما ورد فى المرسوم واجب النفاذ، لأنه صادر عن السيد خوان دى أوستريا بالنيابة عن جلالة الملك، مما يضفى حصانة لآليات الالتزام بها. وحتى يتسنى له إدراك تلك الحقيقة على نحو أفضل، ويعى مدى الوضوح والرفق اللذين يتعامل بهما السيد خوان دى أوستريا مع هذا الشأن، فإنه يسعده أن يلتقى به وبأشخاص آخرين محل ثقة ممن يمكنهم إشباع رغبته والتحقق من ذلك.

قال السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس كل تلك الأشياء لأن ابن عبو والمرافقين له كانوا قد فهموا المرسوم بطريقة مختلفة، وكان الحبقى قد راسل السيد إيرناندو دى باراداس فى هذا الصدد، ظنًا منه أنه قد تم وقف الحرب على جميع الجبهات فى غضون تسليم الثوار لأنفسهم؛ كما أن المرسوم بدا وكأنه لا يؤمّن القادة. وكذلك فقد كتب الحبقى أن أهالى البشرات، حينما أدركوا أنه سوف يتم إجلاء الموريسكيين من مدينتى وادى آش وبسطة اللتين لم تتبنيا الثورة، صُدِموا واستنكروا الأمر. وقد قام السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس باسترضائهم فى ذلك الخطاب، مطالبًا إياهم بتفهم الغيرة المحمودة التى دفعت جلالة الملك للقيام بذلك التصرف، وأن يفطنوا أنه لا يهدف سوى إلى إبعادهم عن المضايقات والمعاملات السيئة من قبل المحاربين، والتى لا يمكن تجنبها أو مكابدتها. كما أنهم لن يبتعدوا كثيراً عن ديارهم، إلى الحد الذى يحول دون عودتهم إليها فى أعقاب الانتهاء من تلك القضية، مشمولين بالمنن التى سينعم عليهم بها جلالة الملك. وهو قد تضرع إلى السيد خوان دى أوستريا من أجل الإبقاء على الجيش فى ذلك المعسكر لبعض الوقت حتى تطبيق ذلك القرار، وقد أجابه إلى طلبه وسوف يستبقيه طوال ستة أيام. بناء على ما تقدم، فإنه يدعوه إلى إرسال الأشخاص

الذين سيلتقون به فى إطار من الصراحة والوضوح اللذين يستلزمهما الوضع، فهو قد أدرك الرغبة المتوفرة لدى جلالة الملك، ولا ينبغى أن يدع مجالاً لإغلاق أبواب رحمته من جميع الأوجه.

فى تلك الأيام عاد السيد إيرناندو دى بارّاداس إلى الالتقاء بالحبقى فى غابة القسطل الموجودة فى لانتيّرا، وأخبره بأن مسألة استسلام الثوار تسير على ما يرام، وطالبه أن يرجو السيد خوان دى أوستريا -نيابةً عنه- أن يأمر بعدم إجلاء موريسكيى وادى آش إلى البقاع الداخلية، حيث تنامى إلى علمه أنه قد تم حبسهم داخل الكنائس بغية ترحيلهم إلى قشتالة؛ كما عرض أن يأخذ هو على عاتقه تلك المهمة، وذلك على نحو يحمل سائر أهالى البشرات على تسليم أسلحتهم، وإخضاع أنفسهم إلى رحمة جلالة الملك، على أن يشمل الأمر ابن عبو أيضًا. أما السيد خوان دى أوستريا، فعلى الرغم من إدراكه أن الأمر لا يعدو كونه مداولات من قبل الموريسكيين أنفسهم للحيلولة دون إخراجهم من ديارهم، فقد أصدر أوامره بالإبقاء عليهم ريثما يتم اتخاذ تدابير أخرى، وذلك انطلاقًا من رغبته فى تقويض المعوقات؛ على الرغم من أن الكثيرين منهم كانوا يطالبون منذ عدة أيام بأن يُحدد لهم المكان الذى يستطيعون الذهاب إليه خارج مملكة غرناطة، حتى يمسوا بمأمن من ويلات الحرب.

لمّا كان لزامًا أن يتوجه نفر من الفرسان من جانبنا للالتقاء بالحبقى و القادة المسلمين الذين سيحضرون لبحث مفاوضات الاستسلام، فقد أمر السيد خوان بمجىء كل من: السيد خوان إنريكيث من بسطة، والسيد ألونسو حابس بينيغاس من ألمرية، والسيد إيرناندو دى بارّاداس من وادى آش؛ وقد أمرهم وعهد إليهم بالاضطلاع بتلك المهمة معًا إلى جانب السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس، ثم انطلق من تيركى يرافقه الجيش بأكمله فى يوم الثلاثين من شهر إبريل. أقام الجيش خلال ذلك اليوم فى موضع إنستينثيون، ليمضى فى اليوم التالى إلى مسيل كانياخار؛ وهناك قدم إليه أحد المسلمين ليسلّم نفسه -بمقتضى المرسوم-، فتحدث عن مكابدة الثوار للجوع، وكيف أن مكيال القمح بات يُبَاع لديهم بثمانية دوقيات، بينما يُقدر مكيال الشعير بست دوقيات،

ولم يعد بالإمكان التحصل عليهما. تم إرسال عدة نسخ من المرسوم، مكتوبةً ومترجمةً إلى اللغة العربية، من ذلك المقر إلى أرجاء مختلفة، لكى يدرك الثوار فحواه بشكل أفضل[٣٠]. كانت المؤن قد نفدت فى نهر المنصورة، وبات لزامًا أن ينتقل الجيش إلى بادوليس فى أندرش، حيث كان السيد خوان دى أوستريا ينتوى المكوث لعدة أيام، نظرًا لكونه مكانًا ملائمًا لعقد مباحثات السلام أو استئناف الحرب. لذا فقد أمر السيد خوان كافة الموردين والمندوبين المكلفين بأمر المؤن بأن يبعثوا ببعضها إلى الجيش، وذلك من كل من: غرناطة وجيّان وبسطة وأبدة وكاثورلا وبقاع أخرى، على أن يتم إرسالها برًا عن طريق وادى آش؛ أما موردو مالقة وقرطاجنة فعليهم إرسال المؤن بحرًا إلى بلدة أدرا.

إذا ما تركنا نهر ألمرية على الجانب الأيسر، فقد توجه السيد خوان دى أوستريا فى ثانى أيام شهر مايو ليسلك طريقًا بالغ الوعورة والصعوبة -نظرًا لأن الجزء الأكبر منه تشكّله المرتفعات-، وذلك من أجل أن يتمركز الجيش فى بادوليس. كان ذلك الموضع يبعد مسافة فرسخين صغيرين من أندرش، وخمسة فراسخ من أوخيخار، وثلاثة فراسخ من ميناء رباح، وخمسة فراسخ من فينيانا، وثمانية فراسخ من ألمرية، كما كان يقع على بعد خمسة فراسخ أخرى من كل من بيرخا وداليّاس. وهنالك حط الجيش رحاله، حيث تراءى لأعضاء المجلس أنه ليس من الملائم المضى قدمًا، نظرًا للعائق الكبير الذى شكّلته الأمتعة ووعورة الأراضى؛ كما أن الأعداء كان لديهم ميزة تتمثل فى أنهم إذا ما فقدوا أحد المواقع، فبمقدورهم الانتقال إلى موضع آخر، دون أن يتكبدوا خسائر، ومن الممكن أن يلحقوا بجيشنا الخسائر. علاوةً على ذلك فإن المكان كان ملائمًا للغاية على ضوء الأوضاع الراهنة وما كنا نسعى إلى تحقيقه. إلى جانب كون الأرض عامرة بالأشجار، وبها وفرة من المياه، وهى تتميز أيضًا بموقعها الذى يقبل

(٣٠) هذا يؤكد أن العربية -لا الإسبانية- ظلت لغة التخاطب والقراءة بين الموريسكيين حتى عام ١٥٧٠ على الأقل. (المراجع)

إمكانية تحصينه بالقليل من الجهد؛ وهو ما بات أمراً ذا أهمية بالغة من أجل حشد المؤن والجيش داخل البلدة، فى أثناء خروج وحدات الجيش لتفقد الأراضى أو مرافقة مواكب الإمدادات، التى كان لابد وأن تكون ضخمةً ومصحوبةً برقابة لصيقة من المحاربين؛ وذلك لتبديد آمال الثوار فى إمكانية قطع طريقها، والاستيلاء على المؤن التى تجلبها، على النحو الذى قاموا به فى مرات سابقة.

كان المخطط الذى وضعه السيد خوان دى أوستريا يتمثل فى أن يبعث من ذلك المعسكر بأربعة أو خمسة آلاف من المشاة، مع مائتين من الفرسان، حاملين أجربةً ومن دون أمتعة؛ وذلك من أجل أن يقوموا بتفقد الجبل فى المناطق التى تبدو لهم أكثر ملائمة، على مدار خمسة أو ستة أيام، والتوغل إلى الداخل قدر استطاعتهم، وإلحاق أكبر قدر من الضرر بالثوار، ما لم يبادروا بالحضور لتسليم أنفسهم. لم يكن بالإمكان تلافى إحداث خسائر فادحة للثوار، نظراً لوجود دوق سيسا فى أدرا، التى تقع على بعد ثلاثة فراسخ من أوخيخار، وأربعة فراسخ من بالور، وثلاثة فراسخ من لوكاينينا، وأربعة فراسخ من بوكيّرة؛ مما أتاح للمقاتلين غير المنتمين إلى كتائب إحداث الأثر ذاته فى البشرات، وتقديم بعضهم يد العون إلى البعض الآخر إذا ما دعتهم الضرورة إلى ذلك. فى اليوم الذى بلغ فيه الجيش بادوليس، ألفى أعداداً من المسلمين موجودة فى الكهوف المطلة على النهر، والكائنة أسفل البلدة والمعسكر ذاته. ولمّا كانوا يتحصنون بداخلها لكونها منيعة، كما أنها تقع بين صخور شديدة الارتفاع، فقد أمر السيد خوان دى أوستريا بمحاربتهم، وذلك باستخدام القنابل وأسحة المدفعية فى آن واحد والسلالم -وفقًا لما تقتضيه تضاريس كل منها-؛ مما أسفر عنه قتل كافة المسلمين الذين كانوا بداخلها أو وقوعهم فى الأسر، مع حدوث خسائر بين صفوف المقاتلين.

فى اليوم السادس من شهر مايو وصل أحد المسلمين إلى بادوليس، حاملاً رسالة من الحبقى موجهة إلى السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس، فى إطار المفاوضات التى كانت تجرى بشأن الاستسلام. كان فحوى الرسالة يدور حول قدوم الحبقى مع قادة

الثوار الرئيسيين إلى بلدة فوندون الكائنة بأندرش -والتى تقع على مسافة فرسخ من بادوليس-، وبعد أن يقوم بتسليم رهائن من جانبه، فسوف يرافقهم الفرسان المكلفون بملاقاتهم. تم تنبيه السيد خوان دى أوستريا فى اليوم التالى إلى وجود فرق عديدة من المسلمين فى جبلى بسطة وفيلابريس، وأنه يصاحبهم ابن مكنون -ولد بويرتو كاريّرو قائد خيرغال-، والمساحلى Moxahali، والنيغرو (الأسود) قائد ألمرية -الذى يلقبونه بأندريس دى أراغون Andrés de Aragón. وأنهم يجوبون الأرض ويحدثون بها خسائر. وانطلاقًا من رغبة السيد خوان فى معاقبتهم، أرسل السيد بدرو دى باديًا فى ألف ومائتين من جنود وحدات الجيش الإسبانى التابعة له، والسيد دييغو دى أرغوتى فى سبعين من الرمّاحين القرطبيين وثلاثين من رمّاحى إيثيخا، من أجل أن يستطلعوا الجبل ويلحقوا بهم أكبر قدر ممكن من الخسائر.

ظلت تلك القوات تسير من بقعة إلى أخرى على مدار ثلاثة أيام دون أن يحالف المرشدون التوفيق، ويتسنى لهم اقتيادها للإغارة على الأعداء، إلى أن تصادف اكتشافهم لأنوار صادرة من واد سحيق فى إحدى الليالى. مضى الرجال صوبها، ومع بزوغ الفجر هجموا على موضع يقع بالقرب من بعض عيون المياه، حيث كان يوجد ما يزيد على ثلاثة آلاف مسلم، وأعداد ضخمة من النساء، ورؤوس الماشية، والكثير من المتاع. تصدى رجالنا لهم، وخاضوا معركة حامية الوطيس، توفى خلالها بعض الجنود وتم جرح الكثيرين؛ لكن فى النهاية تحلى القادة بالشجاعة الفائقة، فقتلوا ما يربو على أربعمائة من المسلمين، وألحقوا بهم الهزيمة، وحملوهم على الفرار، واستولوا على النساء والمواشى والأمتعة؛ ثم قاموا بتجميع الغنائم، وبادروا بالرجوع إلى المعسكر بعد أن أسروا ما يربو على خمسة آلاف أسير[٣١]. بيد أن الأمور لم تسر على النحو الذى حسبوه، لأن المسلمين عاودوا تشكيل صفوفهم، وانقضوا على مؤخرة الجيش؛ فقتلوا

---

(٣١) إذا كان عدد الموريسكيين ثلاثة آلاف قتل منهم أربعمائة، فلا ندرى كيف تمكن جيش المسيحيين من أسر خمسة آلاف. (المراجع)

اثنى عشر من حملة الدروع –سبعة من قرطبة وخمسة من إيثيخا– بالإضافة إلى العديد من الجنود المتميزين للغاية، كما استردوا القدر الأكبر من الغنائم، التى كانت بكميات ضخمة للغاية، وتشغل مساحات شاسعة من الطريق حتى أنهم لم يقدروا على حمايتها كلها. كان من الممكن أن يصير الضرر أكبر بكثير لو لم يهرع القادة لصد الحملة الشرسة التى شنها علينا الأعداء، وإجبارهم على التراجع. وقد استطاعوا انقاذ ألف ومائة من الأسيرات اللواتى كن يسرن فى طليعة الجيش، علاوةً على كميات من الأمتعة والمواشى، ورجعوا بها إلى بادوليس.

الفصل التاسع والعشرون

يتناول كيفية احتلال دوق سيسا لكاستيل دى فيرّو.

كنا قد تناولنا فى الفصل السادس عشر من هذا الكتاب كيف توجه دوق سيسا إلى أدرا من أجل الإغارة على كاستيل دى فيرّو. حيث حمّل الدوق الرجال على متن تسع عشرة سفينة شراعية تابعة للسيد سانشو دى ليبيا وإحدى السفن، ليبحر من ذلك الميناء فى يوم الثامن والعشرين من شهر إبريل. وفى اليوم ذاته سلمه أحد الجنود رسالةً مكتوبةً باللغة العربية، كان قد استولى عليها -وفقًا لأقواله- من أحد المسلمين. كانت الرسالة موجهة من قائد كاستيل دى فيرّو إلى شمال إفريقيا، وقد حوت بيانًا بأسلحة المدفعية والقوات الموجودة بحوزته فى القلعة، والتحصينات التى كان يقوم بها للحيلولة دون تمكن المسيحيين من الظفر بها. كما طالب فيها زعماء المسلمين والأتراك فى إلحاف شديد أن يرسو بمراكبهم فى ذلك الميناء، قائلاً إنهم سيضحوا هناك بمأمن من المسيحيين، وسوف يتسنى لهم نصب قواعدهم.

سر الدوق كثيرًا لوقوع الرسالة بين يديه، وبمجرد بلوغه كاستيل دى فيرّو فى ذلك اليوم قام بإنزال الرجال من على متن السفن إلى الشاطئ الشرقى الذى يسمى باراريكى Pararique، وكان ذلك الموضع بمعزل عن مدفعية القلعة. ثم أمر باحتلال أحد الجبال التى تطل على المحل، وكان الأعداء قد شرعوا فى إقامة حصن هناك، وكانت لديهم كميات من الجير والرمال والحجارة تم تجميعها من أجل ذلك الغرض. فرفع الدوق قطعتين من أسلحة المدفعية أعلى الجبل بعد جهود مضنية، نظرًا لوعورة التضاريس، وبدأ فى قصف دفاعات البلدة. أبدى المسلمون تصميمًا على عدم الاستسلام،

وبادلوا رجالنا القصف بإحدى قطع المدفعية الثقيلة، وبعض المدافع الأخرى من الحجم الصغير التى كانت لديهم. أما الحسين الذى كان قد اشترى القلعة -على النحو الذى أسلفناه-، فإنه حينما شهد تخاذلاً من قبل أحد المسلمين، الذى قال إنه ليس بمقدورهم الدفاع عن المكان، وأنه من الأفضل لهم تسليم أنفسهم، ألقاه حيًا من أعلى السور؛ وقال إنه سيفعل الأمر ذاته مع كل من يسعى لتسليم القلعة إلى المسيحيين.

فى اليوم التالى أصدر دوق سيسا أوامره برفع قطعتين أخريين من قطع المدفعية الثقيلة، وواصل الجنود بواسطتهما القصف على نحو أكثر تعمدًا، وقد تعطلت القطعة الرئيسية التى كان الأعداء يقصفون قواتنا من خلالها. فى ذلك الوقت نفدت الذخيرة، فأمر الدوق بصنع غطائين من أخشاب ممرات السفن التى يطلق منها الجنود النيران، وذلك لثقب سور القلعة. وقد أرسل فى العاشرة مساءً من يتفقد الموقع الذى ينبغى استهدافه، فالتقى المستكشفون بالحسين، الذى كان قد خاب أمله فى إمكانية التصدى للمسيحيين، فخرج فى ثلاثين من الرجال للاحتماء بالجبل؛ فاعتقلت قواتنا بعضًا منهم، بينما ألقى الآخرون بأنفسهم فى البحر، وأخذوا يسبحون صوب جبل صغير يبرز على الساحل من جهة مطريل؛ أما الحسين فقد لقى حتفه هو وشيخ مسلم آخر من أهالى غرناطة يدعى التيبيلى[٣٢] Taibili.

فى تلك الليلة ذاتها، أجرت قواتنا حوارات مع المسلمين الذين ظلوا داخل القلعة، والذين بادروا فيما بعد إلى الاستسلام. أما الدوق، فقد أبقى على حياتهم ولم يرسلهم للتجديف فى السفن[٣٣]، وذلك للحيلولة دون أن ينتهى به الأمر إلى هدم القلعة. وقد أصدر أوامره إلى كل من: السيد خوان دى مندوثا، وماركيز فابارا، والسيد خوان نينيو دى غيبارا -قائد قوات المشاة التابعة لمدينة طليطلة- بالصعود إليها واحتلالها؛ وقد تم ترميم القلعة، وإعادتها إلى سلطة المسيحيين فى اليوم الثانى من شهر مايو.

---

(٣٢) هذا لقب عائلة مؤلف موريسكى شهير، له كتابات باللغة الإسبانية فى شرح العقيدة الإسلامية. (المراجع)
(٣٣) كان التجديف يمثل إحدى العقوبات التى يمكن أن ينفذها الأسير. (المراجع)

فيما يتعلق بالأتراك الذين كانوا فى داخل القلعة، فقد قام القائد بتوزيعهم على القادة والنبلاء الذين تراءى له أنهم بذلوا مجهودات فى هذا الصدد. كما قام بتحويل مسلمى تلك الأراضى إلى محاكم التفتيش، لكى تتولى معاقبتهم بمقتضى الآثام التى اقترفوها؛ أما من سعوا لمغادرة البلدة، فقد أمر بشنقهم حتى يضحوا عبرةً للآخرين، على أن يتم دفع عشرين دوقية من قبل جلالة الملك تُدفع إلى كل شخص أسر موريسكيًا؛ كما صدرت الأوامر بتقسيم الموريسكيات والمتاع بأكمله بين المقاتلين.

فى أعقاب الظفر بكاستيل دى فيرّو، أبحر السيد سانشو دى ليبيا بالسفن لجلب المؤن من مالقة للبلدة وللجيش، وكان هناك نقص شديد بها بالفعل. نظراً لتأخر السيد سانشو فى الرحلة لمدة خمسة أيام، فقد كان من الضرورى أن يحدث تفكيك للجيش بالكلية، بسبب الحاجة التى كان يعانى منها الجنود، وخاصةً نقص الماء. حيث بات لزاماً التوجه إلى إحدى عيون المياه التى تبعد مسافة نصف فرسخ من المعسكر لجلبها، وهكذا لم يقو الدوق أو القادة على الحيلولة دون انفصال الجنود عن الركب وذهابهم فى سرايا إلى أورخيبا ومطريل؛ وقد قتل المسلمون الكثيرين منهم فى أثناء الطريق. فى تلك الآونة وصلت سفينتان تقلان أتراك على مشارف كاستيل دى فيرّو فى أثناء الليل، وأرسل من على متنهما إشارات، ظناً منهم أن القلعة ما زالت فى يد المسلمين. على الرغم من أن أحداً لم يجبهم، فقد وصلوا إلى الساحل، وهبطوا على الشاطئ دون أن تعير أبراج المراقبة ذلك المشهد الاهتمام؛ لأن الجنود لدى مشاهدتهم لرسو هاتين السفينتين، اعتقدوا أنهما ضمن المراكب التى كانت قد أتت بالإمدادات فى ذات اليوم من المنكب ومطريل وشلوبانية. صعد خمسة عشر من الأتراك إلى القلعة، وحينما بلغوا دوريات الحراسة وأدركوا أنها مؤلفة من مسيحيين، رجعوا على أعقابهم وفروا إلى السفينتين؛ فصعدوا على متنهما، ثم استقلوا مركباً كانت قادمة من مطريل وغادروا المكان دون أن يلحق بهم أذى، بعد أن خلّفوا وراءهم جيشنا بأسره شاهراً للأسلحة. وقد استقل الجيش السفن للعودة إلى أدرا فى اليوم الثامن من شهر مايو، بعد الإبقاء على القائد خوان دى بورخا Juan de Borja ومائة من الجنود كحامية فى تلك القلعة.

الفصل الثلاثون

يتناول التقدم الذى أحرزه جيش دوق سيسا منذ عودته إلى أدرا حتى التقائه بجيش السيد خوان دى أوستريا.

لم تكن الصعوبات التى تعرض لها دوق سيسا فى أعقاب عودته إلى أدرا بأقل مما واجهه فى الماضى، نظرًا لنقص المؤن، وللأمراض التى ألمت بالجنود، وهروبهم من المعسكر، حيث كانوا يفرون بشكل يومى عن طريق البر والبحر دون أن يتسنى له توقيفهم. كان المسلمون فى تلك الآونة على طرفى النقيض إلى حد بعيد: ففى الوقت الذى كان البعض يأتون فيه لتسليم أنفسهم -بعد أن اضطرتهم الحاجة إلى ذلك-، كان آخرون يجوبون الأرجاء محدثين أكبر قدر ممكن من الخسائر؛ فلم يكونوا يفوّتون فرصة أو مناسبة تسمح لهم بالإضرار بالمسيحيين، حتى لم يعد أى فرد أو متاع يغادر المعسكر وينفصل عنه دون أن يأسروه أو يقتلوه. أما أكبر الصعوبات على الإطلاق فكان السخط الذى يعانى منه رجالنا نظرًا لحرمانهم من القيام بغارات؛ وهو الأمر الذى كان يمنعه الدوق، ليس لأنه كانت تنقصه الرغبة فى معاقبة الثوار -فهو دومًا ما كان يتبنى ذلك الرأى-، وإنما لتلافى الأضرار التى كان من الممكن أن يلحقوها بالمستسلمين. تضاءل حجم الجيش إلى حد كبير على أثر كل تلك الأسباب، حيث لم يبق من العشرة آلاف رجل الذين دخلوا إلى البشرات سوى أربعة آلاف، وحتى هؤلاء كانوا آخذين فى هجر الجيش يوميًا بأسرع ما يمكن.

مضى الجيش إلى بلدة داليّاس، ومكث بها لعدة أيام، حيث أتى العديد من المسلمين من سائر بقاع البشرات لتسليم أنفسهم وفقًا للمرسوم؛ ومن لم يتسن لهم المجىء

منحوا تفويضًا بذلك إلى الحبقى بوصفه القائم على إحلال السلام. أسهمت المياه المنعشة العذبة الموجودة فى عيون تلك البلدة فى استعادة الرجال لقواهم فى ذلك المعسكر، لكن إبان مغادرتهم إياها إلى بيرخا -حيث كان يتعين عليهم الحضور لتوفير المزيد من الحماية لمواكب الإمدادات القادمة من أدرا إلى جيش السيد خوان دى أوستريا- تسببت المياه الرديئة والساخنة لتلك الطاعة، والأجواء الحارة التى كان لهيبها يزداد يومًا تلو الآخر، فى ظهور عدة أمراض، مما أسفر عن وفاة الكثير من الرجال. كان ذلك هو السبب وراء الرغبة العارمة التى انتابت الماركيز لانضمام الجيشين معًا، وقد ألح فى المطالبة بذلك قبل أن يفنى جيشه عن آخره.

فى تلك الآونة حدث أن أحد مسلمى شمال إفريقيا من جواسيس ابن عبو، وكان يتحدث اللغة القشتالية بطلاقة شديدة، ويعمل جنديًا فى إحدى فرق المشاة، قد أقنع نفرًا من الجنود الذين كانوا عازمين على مغادرة الجيش، وقال لهم إن له دراية واسعة بتلك الأراضى، وإن بوسعه اقتيادهم عبر البشرات بأسرها فى مأمن من المسلمين والمسيحيين؛ وقد طالبهم بمقابل نظير مجهوداته وخطته، لكى يضفى المزيد من المصداقية على الأمر. صدق الجنود -الذين كان عددهم يربو على السبعين- كلامه، وعرضوا عليه أن يمنحه كل منهم ريالاً؛ فما كان من الخائن الأثيم، بعد أن أخذ منهم العهود، إلا أن أحاط ابن عبو علمًا بالطريق الذى سيسلكونه، لكى يقطع المسلمون عليهم الطريق. غادر الجنود المعسكر بحلول الليل، حيث اقتادهم المسلم صوب ميثينا دى بومبارون.

وردت أنباء إلى الدوق حول ذهاب الجنود، فأرسل على أثرهم لوائين من الفرسان وفرقتين من المشاة. بيد أنهم لم يقووا على جعلهم راغبين فى العودة طواعيةً أو كرهًا، بل إن الجنود قد ذادوا عن أنفسهم فى عزم شديد، حتى أن الفرق اضطرت إلى الرجوع إلى المعسكر دون إحداث الأثر المرجو، نظرًا لعدم رغبتهم فى إراقة دمائهم. أما هؤلاء، فما أن وصلوا على مقربة من ميثينا دى بومبارون، مسترشدين بمستشارهم الزائف، حتى وقعوا فى كمين كان ابن عبو قد نصبه لهم، فتعرضوا جميعًا للموت أو الأسر. خلال تلك الأيام كان قد حضر قائد مسلم من أهالى بيرخا يدعى بيثينى، مع ثلاثمائة

من الجنود المسلحين بالبنادق، إلى معسكر الدوق، ساعيًا إلى أن يستسلم، وأن ينفى عن نفسه الأقوال التى وصلت إليه، عما أثير عن تورطه فى إرسال مسلمين ليلاً لقتل المسيحيين وسرقة الخيول والأمتعة التى تنفصل عن المعسكر. وقد عرض على الدوق أن يجلب إليه خمسة آلاف أو ستة آلاف شخص للدخول تحت راية جلالة الملك، كما أكد إليه أن الأضرار الحادثة لم تكن بناء على موافقة منه، بل إنه شنق مسلمين ممن اقترفوا تلك الأمور بعد تحقيق مصغر للغاية.

أمر الدوق بالإحسان إليه ومعاملته على نحو جيد، وعندما حان الوقت لعودته إلى حيث ترك رجاله، أرسل الدوق معه خمسين من الفرسان لتأمينه. بيد أن البيثينى لم يشأ أن يسلم نفسه لاحقًا، حيث تراءى له أن المنحى الذى تسلكه مفاوضات الاستسلام لا ينبئ عن أنه سينال خيرًا. فحشد رفاقه وقال لهم: "أيها الإخوة، إن المسيحيين يرمقوننا بكره بالغ، وقد ضاعت الأرض من بين أيدينا، ومن السيئ أن نبقى فيها كأعداء، ومن الأسوأ أن نظل كأصدقاء. وأنا أرى أن نلزم جانب الحذر، وإذا ما فقدنا نساءنا وأبناءنا، فسوف نجد نساء أخريات وسيكون بمقدورنا إنجاب أبناء آخرين أينما حللنا". وفى غضون أيام قلائل مضى بهم إلى شمال إفريقيا فى عدد من قوارب الأتراك التى أتت إلى الساحل. فى أثناء وجود دوق سيسا فى ذلك المعسكر كتب إليه السيد خوان دى أوستريا يخبره بحاجته إلى مقابلته للتباحث حول بعض الأمور الضرورية لخدمة جلالة الملك، فأجابه بأنه سيحضر لتقبيل يديه. وهكذا التقى الاثنان عند مفرق الطريق، واجتمعا فى الضيعة التى يطلق عليها لياندرو **Leandro** أو خوان كابابيرو **Juan Caballero**، حيث تناولا الطعام وتدارسا شئون الحرب، ثم قفلا من هناك عائدين إلى معسكريهما. توجه السيد خوان دى أوستريا إلى بادوليس فى أندرش، بينما توجه دوق سيسا إلى بيرخا؛ ولم يمض وقت طويل حتى غادر ذلك المأوى وذهب للانضمام إلى السيد خوان فى بادوليس، ومنذ ذلك الوقت بات يخدم على مقربة منه.

(الكتـاب التـاسـع)

الفصل الأول

يتناول كيف اجتمع الحبقى وقادة آخرون من المسلمين، مع السادة المندوبين في بلدة فوندون في أندرش، من أجل التباحث في شأن الاستسلام.

كان السيد خوان دى أوستريا يظهر تعجلاً شديداً للانتهاء من مسألة إخضاع الثوار في أثناء معاناتهم من الجوع، حيث كان يدرك أنه بحلول نهاية شهر مايو سيصبح لديهم مائدة عامرة من الفواكه التي تنتجها الأرض. كما أنه سيبيت لزامًا إقحام الجيش من جديد، وهو ما يستدعى تكبد تكاليف باهظة وخوض صعاب بالغة؛ خاصةً أن الحبقى كان يدير الأمور على ما يرام. وكان الكثير من الثوار يحضرون لتسليم أنفسهم. كان البعض يأتى مدفوعًا بالخوف من الموت وبالأمل في العفو، وقد حرك آخرين الحبّ الذى يشعرون به تجاه نسائهم وأولادهم الأسارى، والتفكير في افتدائهم، بينما كان الجميع يهدف -في الأغلب الأعم- إلى إحلال السلام والطمأنينة، بعد أن أضنتهم كل تلك الصعوبات والنكبات. في أعقاب اجتماع السادة الذين أوفدهم السيد خوان دى أوستريا في المعسكر الموجود ببادوليس، بعد أن أمرهم بالمجيء لتولى ذلك الشأن، وصل إلى فوندون في أندرش في اليوم الثالث عشر من شهر مايو كل من: إيرناندو الحبقى، وإيرناندو الغالب Hernando el Galip -شقيق ابن عبو-، وبدرو دى مندوثا الحسين، وأحد أبناء خيرونيمو المالح، وألونسو دى بيلاسكو الغرناطي Alonso de Velasco el Granadino، وإيرناندو الغوري؛ وذلك في رفقة اثنى عشر من الأتراك البارزين، وألف من الجنود المسلحين بالبنادق لحراستهم.

في اليوم ذاته راسل الحبقى السيد ألونسو دى غرانادا، ليخبره بقدومه تنفيذًا لما وعد به، لكى يتضرع السيد ألونسو إلى السيد خوان دى أوستريا من أجل المبادرة

بإرسال السادة الذين سيتولون تلك القضية. وقد أشار إليه بأن السلام والرجوع إلى خدمة جلالة الملك هو أقصى ما يتطلعون إليه، على أن يتم السماح لهم ببعض الأشياء غير المتضمنة فى سياق المرسوم. بعد أن وردت أنباء وصول الحبقى إلى فوندون فى أندرش، يرافقه القادة المسلمون والأتراك، إلى السيد خوان دى أوستريا، أمر ذلك الأخير بأن يتوجه السادة المنتدبون للنظر فى مطالبهم، على أن يرافقهم عالم اللاهوت مارين Marín والمأموران القضائيان تورّيخوس وتامارين Tamarín. كان أول ما قام به المسلمون هو التركيز على عدم إمكانية الإبقاء على المراسيم، والأضرار التى ستترتب على دخولها حيز التنفيذ، والمعاملات السيئة التى كانوا يعانون منها من قبل الهيئات القضائية والمأمورين القائمين على تنفيذ أحكامها. حيث شكى القادة من عدم الالتزام بأى من العهود التى تم التوصل إليها معهم منذ إبداء رغبتهم فى الاستسلام إلى ماركيز مونديخار، وأشاروا إلى ما بدر من ألبارو فلوريس فى بالور، وما أقدم عليه بيّالتا فى لاروليس، والنساء اللواتى تم أسرهن فى قلهرّة فى أثناء توجههن لتسليم أنفسهن. كما أظهر القادة أسفهم الشديد إزاء اقتياد الموريسكيين الذين لم يقوموا بالثورة إلى قشتالة، وقالوا إنه إذا كان هذا هو ما يجرى لمن حافظوا على ولائهم، فما هى المعاملة التى يمكن أن يتوقعها الثوار؟

فى نهاية الأمر قالوا إن مسعاهم هو أن يولى عليهم السيد خوان دى أوستريا أشخاصًا يحظون بثقتهم، وأن يقبلوا من يأتون إليهم للاستسلام، ويدخلوهم فى كنفهم، على أن يتوجه كل منهم للبلدة التى ينتمى إليها. بالإضافة إلى السماح لأهل شمال إفريقيا بالعبور فى حرية، لأن هؤلاء ما جاءوا إلا لمساعدتهم، وهم لا يريدون أن ينالهم أذى. وأن يعينهم المسيحيين على إنقاذ نسائهم وبنيهم، وألا يُسمح بإخراجهم من قشتالة، وهم سيبادرون بتسليم كل المسيحيين الأسارى لديهم. إلى جانب أن يُتركوا ليعيشوا فى مملكة غرناطة، وأن يعود من تم إيداعهم بالبقاع الداخلية. كما يتم الإبقاء على التدابير التى كانت موجودة آنفًا، وأنه بمجرد استسلامهم والصفح عما بدر منهم إلى ذلك اليوم، فلابد أن يصدر عفو شامل فى حقهم، دون أن يقوم أى فرد بالطعن فى أى من الأحكام الصادرة بشأنهم.

بادر السادة المندوبون بإرسال السيد إيرنان بايى دى بالاثيوس لكى يقص على السيد خوان دى اوستريا ما جرى. بلغ السيد إيرنان المعسكر بحلول منتصف الليل، واجتمع المجلس للانعقاد فى تلك الليلة. فى أعقاب طرح ما يطالب به المسلمون، كان الرد بأن يجلبوا -قبل أى شىء- تفويضًا من ابن عبو وباقى القادة الذين حضروا للاستسلام نيابةً عنهم، وأن يقدموا معه طلبهم على هيئة توسل، وأن يطلبوا فيه ما يرونه مناسبًا، على ألا يُضمّنوه سوى الأمور الملائمة فقط. حينما أدرك الأعضاء أن الثوار لم يفعلوا ذلك لجهلهم بالأسلوب الذى يتعين اتباعه، بعث إليهم خوان دى سوتو -أمين سر السيد خوان دى أوستريا، الذى كان يتولى أيضًا أمانة سر المجلس- بالنظام الذى ينبغى عليهم التقيد به حينما يودون عرض مطالبهم. رجع السيد إيرنان بايى دى بالاثيوس بذلك القرار إلى فوندون فى تلك الليلة، وقد سر المسلمون بصياغة مطالبهم على ذلك النسق. ومن أجل أن يصاغ الطلب على نحو سديد، تضرع الثوار إلى السيد خوان دى أوستريا لكى يبعث إليهم بالسيد خوان دى سوتو، لكى يكون موجوداً عند الانتهاء من إعداد المطالب، واقترحوا أن يرجع بعدها ومعه التفويض. تفرق هؤلاء وأولئك عقب التوصل إلى ذلك الاتفاق، وقد تعهد الحبقى بالرجوع فى غضون ثمانية أيام إلى المكان ذاته بالضمانات المطلوبة.

الفصل الثانى

ويتناول عودة السادة المندوبين إلى فوندون فى أندرش، والانتهاء من اتفاقية الاستسلام.

صدق الحبقى وعده، ورجع إلى بلدة فوندون فى أندرش فى يوم التاسع عشر من شهر مايو برفقة القادة الآخرين باستثناء إيرناندو الغالب، الذى لم يرغب لسوء نيته فى العودة معهم، نظراً لمشاعر الحقد التى انتابته تجاه الحبقى، لما رأه من اعتناء السادة المسيحيين به أكثر منه. حينما بلغت أنباء قدومهم المعسكر، أمر السيد خوان دى أوستريا الأشخاص الذين كانوا قد شاركوا فى المباحثات فى المرة الفائتة أن يتوجهوا لملاقاتهم برفقة خوان دى سوتو وغارثيًا دى أرثى. فانطلق هؤلاء من المعسكر فى ذات اليوم، وقابلوا فى الطريق عشرة من المسلمين كان الحبقى قد بعث بهم كرهائن، فسلّموهم إلى السيد مارتين دى أرغوتى، الذى كان يتولى نوبة الحراسة مع فرسان كتيبته، ثم مضوا قدماً. إبان بلوغهم موضع فوندون، قدّم إليهم الحبقى التفويض، وصاغ مطالبه على النسق الذى قال خوان دى سوتو إنه ينبغى مراعاته. وقد غادر إيرنان بايى دى بالاثيوس المكان حاملاً إياهم ومتوجهاً صوب المعسكر، حيث قدمهم إلى المجلس.

قضى السادة المندوبون تلك الليلة فى إجراء محادثات هادفة مع المسلمين، وتناول الجميع طعام العشاء معاً. إلا أن تلك المتعة كادت تتحول إلى نقمة كبرى، نظراً لتهاون أحد قادة الفرسان فى معسكر دوق سيسا[1] يدعى بدرو دى كاسترو Pedro de Castro،

(١) هذه من المرات القليلة التى يمارس فيها مارمول النقد الذاتى، إذ يلقى اللوم هنا على الجانب المسيحى. (المراجع)

حيث كتب رسالة إلى الحبقى تسببت فى إثارته، وتهييج كل من حضروا لإجراء مفاوضات إرساء السلام، لأن إمكانية تجنب إنهاء المفاوضات فى ظل تلك الأجواء كان أمرًا محققًا. كان حملة الدروع التابعون لجيش دوق سيسا قد خرجوا بحثًا عن طعام للخيول، وكان الجنود يبالغون فى الابتعاد عن المعسكر فى بعض الأحايين، حتى يصبحوا على مقربة من أندرش؛ فما كان من الحبقى -انطلاقًا من رغبته فى تلافى أى عوائق، واعتقادًا منه أنه يؤدى خدمة للمسيحيين- إلا أن أمر أن يُذاع فى صفوف جيشه ألا يجسر أى مسلم على التعرض لهم بسوء. كما كاتب الدوق فى هذا الصدد، ليحيطه علمًا بالإجراء الذى اتخذه، لكى يصدر أوامره إلى حملة الدروع بعدم تخطى الحدود التى أشار إليها فى خطابه، لأنهم سيكونون بمأمن حتى بلوغ تلك النقطة.

لم يعر دوق سيسا ذلك الأمر اهتمامه، أما بدرو دى كاسترو -الذى أغضبه تجرؤ ذلك المسلم على الرغبة فى رسم حدود لقائده العام، فقد رد عليه -من تلقاء نفسه- بأن عليه هو أن يعلم جيدًا أن كل مرة راودت الدوق فيها الرغبة فى التجول فى البشرات، كان يفعل ذلك رغمًا عنه وعن كل من بها من المسلمين، وأنه سيقوم بالأمر ذاته من الآن فصاعدًا؛ كما أضاف كلمات أخرى تفيد ذات المعنى. كان الحبقى قد تسلّم تلك الرسالة لتوه عندما دلف إيرنان بايى دى بالاثيوس إلى البلدة حاملاً قرار المجلس، فناداه من نافذة غرفته بينما كان برفقته كل من المالح وبدرو دى مندوثا وألونسو دى بيلاسكو، وكانوا جميعًا يستشيطون غضبًا، حتى أنهم قرروا قتل المندوبين، وعدم التحدث فى تلك المسألة مرة أخرى، لأنهم أدركوا أن الأمر لا يعدو كونه خدعة.

بيد أن إيرنان بايى هدأ من روعهم، وعرض عليهم القرار الذى كان يحمله إليهم، واستخدم حججًا سديدة فى إقناعهم بعدم الالتفات إلى كلمات بدرو دى كاسترو. حيث قال لهم أن يضعوا ثقتهم فى السادة الموجودين هناك، لأنهم أقرب أصدقاء لهم، حتى أنهم هم بأنفسهم من وقع اختيارهم عليهم، نظرًا لثقتهم الكبيرة فى أنهم سيسعون لتحقيق مصلحتهم. وأن عليهم أن يدركوا أن أية اضطرابات سيثيرونها، سوف تعود عليهم بأضرار بالغة، فهم لن يرجعوا بعدها من أجل تدبر شئونهم قط، كما أنهم لن

يجدوا مكانًا للصفح عند جلالة الملك. أعطى الحبقى الرسالة إلى إيرنان لكى يعرضها على خوان دى سوتو، ووعده أنه لن يدع أيًا من الموجودين برفقته يغادر الغرفة حتى يجتمع المندوبون. كان أول من شاهد الرسالة هما السيد خوان إنريكيث وخوان دى سوتو، فبادرا بالدخول إلى مقر إقامة الحبقى، وأرسلا فى طلب رفاقهما، وظل الجميع يبذلون جهوداً مضنية معه ومع باقى القادة، إلى أن أعادوهم إلى جادة الصواب، وقد قاموا -دون مغادرة الغرفة- بوضع نهاية لتلك المباحثات على النحو التالى:

يتوجه الحبقى -بالنيابة عن ابن عبو وباقى القادة الآخرين- ليلقى بنفسه تحت قدمى السيد خوان دى أوستريا، مطالبًا إياه بالعفو عن خطاياه، وأن يسلّم إليه الأسلحة والراية. وأن يقوم سمو الأمير بقبولهم -بالنيابة عن جلالة الملك- وأن يصدر أوامره بألا يتم مضايقتهم، أو تحصيل رشاوى منهم، أو سرقتهم. كما أنه سيرسل من يقومون بتسليم أنفسهم مع نسائهم وبنيهم وأموالهم المنقولة إلى الجهات والأماكن التى يتعين عليهم العيش بها، لأنه لا ينبغى لهم البقاء فى البشرات. فى أعقاب الموافقة على تلك الأمور، وغيرها من الأشياء الاستثنائية التى طالب بها الحبقى من أجل ابن عبو وأصدقائه وشخصه، وقد أُقرَت جميعًا، انطلق الحبقى فى ذلك اليوم صوب بادوليس مصطحبًا معه ألونسو دى بيلاسكو وثلاثمائة من حملة البنادق، حيث توجه للاستسلام إلى السيد خوان دى أوستريا بوصفه نائبًا عن جلالة الملك.

دلف الحبقى إلى معسكرنا يصحبه السادة المندوبون وجنوده الثلاثمائة المسلحون بالبنادق، والذين كانوا يسيرون فى صفوف يضم كل منها خمسة رجال، وقد أحاط بهم أربعة من فرق المشاة كانوا فى انتظارهم. فى أعقاب ذلك أمر السيد خوان دى أوستريا الحبقى بتسليم راية ابن عبو إلى خوان دى سوتو، فأمسكها من منتصفها وعبر بها فى المنتصف بين كتائب المقاتلين من المشاة والفرسان الذين كانوا مصطفين وهم شاهرين أسلحة المعركة، حيث قاموا بإطلاق وابل بديع من نيران البنادق دام على مدى ربع الساعة. كان السيد خوان دى أوستريا موجوداً فى خيمته، فى صحبة سائر الفرسان وقادة الجيش، وحينما دنا منه الحبقى، نزل الحبقى من على صهوة فرسه، وذهب ليلقى

بنفسه عند قدميه وهو يقول: "الرحمة يا سيدى! أفض علينا من رحمتك يا مولاى بالنيابة عن جلالة الملك، وتجاوز بعفوك عن خطايانا التى نقر بأنها كانت جسيمة" ثم نزع قطعة قماش مشغولة بالذهب كانت مطوية بصحبته، وأعطاها إلى السيد خوان فى يده، وقال له: "أسلّم إلى جلالتك هذه الأسلحة وهذه الراية بالنيابة عن ابن عبو وسائر الثوار الذين فوضونى للقيام بذلك"؛ عندئذ ألقى خوان دى سوتو علم ابن عبو تحت قدميه.

شهد السيد خوان دى أوستريا كل تلك الأحداث فى وقار شديد، وهو ما كان خير ممثل لعظمة المهمة التى يقوم بها. فأمر الحبقى أن ينهض واقفًا، وأعطاه قطعة القماش الموشاة مرة أخرى، وقال له بأن يحافظ عليها لكى يخدم بها جلالة الملك؛ ثم أنعم عليه بالكثير من الرحمات والهبات. رجع المسلمون الثلاثمائة إلى أندرش، بينما ظل الحبقى فى المعسكر. وقد اصطحبه السيد فرانثيسكو دى كوردوبا لتناول الطعام فى خيمته، وبينما هما يطعمان تباحثا فى أمورٍ تتعلق بصالح المفاوضات، وقاما بتدوينها. فى اليوم التالى دعاه أسقف وادى آش لتناول الطعام، وكان سروره غامرًا لما رآه من إبدائه للندم، وسعادته بما قدمه من أجل خدمة الرب وجلالة الملك. عاد الحبقى إلى البشرات فى اليوم الثانى والعشرين من شهر مايو لكى ينقل لابن عبو وباقى القادة ما تحقق من أمور. فى اليوم ذاته انطلق السيد خوان دى أوستريا من بادوليس، وتوجه ليعسكر فى بلدة كوديا الكائنة فى أندرش.

الفصل الثالث

يتناول الكيفية التى توجه بها السيد أنطـونيو دى لونا إلى بقاع جبل رُندة لإجلاء قاطنيها.

تقع مـدينة رُندة التى كان المسلمـون يطلقـون عليـها حـصن الرند Hizna Rand -وتعنى قلعة الغار- فى البقعة الكائنة فى أقصى الغرب من مملكة غرناطة. وقد شيدها العرب الوافدون فى موقع مستو بعض الشىء، وإن كانت تحوطها جبال شديدة الوعورة، عند نهاية الجبل الأكبر. إلى الغرب توجد حدود مدن جبل طارق، وشريش الفرنتيرة، وإشبيلية. بينما يحدها من الشمال البقاع السهلية فى أراضى أندلوثيا، ومن الجنوب تلك التابعة لمربلة، ومن المشرق أراضى مالقة. وقد حبتها الطبيعة بموقع حصين، حيث يحيط بالمدينة من ثلاث اتجاهات خندق عميق مكون من صخرة قائمة الانحدار، ويجرى به نهر ينبع الجزء الأكبر منه فى المنطقة الموجودة أسفل الجسر الخاص بذلك الخندق. أما باقى المياه التى تصل إلى ذلك الموضع، فيتم تجميعها من عدد من الجداول التى تسيل من الجبال، وهى تجف فى بعض أوقات من العام؛ وهكذا فإن العين الرئيسة للمياه تقع أسفل المدينة ذاتها، بحيث لا يمكن حرمانها من الماء إذا ما فرض عليها حصار. أما البقعة التى لا يحدها فيها الخندق أو النهر -وهى المنطقة الكائنة ما بين الغرب والجنوب- فتحصنها قلعة تمثل دفاعًا كافيًا لتأمين ذلك المدخل. تتسم حدود المدينة بالخصوبة، وهى مكسوة بغيلات من أشجار الزيتون والكرمات، وبها غابات فسيحة لرعى الأغنام، كما أن هناك أراضى مناسبة جدًا لزراعة الغلال.

هناك عدد كبير من المواضع الخاضعة لنطاق سلطة تلك المدينة، وهى موجودة فى الأودية الجبلية، وحيث تجرى فى أرجائها المياه العذبة والصحية التى تمدها بها العيون

والأنهار التى تنبع من تلك الجبال. يخترق الجبل الأكبر تلك الأراضى من مشرقها إلى مغربها، ويحمل فيها اسم جبل بيرميخا، على الرغم من أن المواطنين يطلقون عليه أسماءً مختلفة وفقًا للبلدان التى يقطنوها ويمر بها. أما البداية فهى عند جبل أربوتو -الذى يقع بالقرب من إيستان- لينتهى عند كاساريس وغاوسين، وهما آخر بلدتان فى أبارال أو غرب رُندة algarbe de Ronda، وهى المنطقة الموجودة غربى تلك المدينة. يطلق الأهالى على بدايات النهر النابع من خندق غواغال الكوباسين Guagal Cobacín، ويسمونه غواديارو Guadiaro بعد أن ينحدر لمسافة أكبر إلى الأسفل، وهذا هو الاسم الذى يُعرف به عندما يصب فى البحر ما بين جبل طارق وبرج دوقيسا Duquesa، حاملاً معه مياه أنهار أخرى ترافقه فى المسار. هناك نهر آخر ينبع أعلى إيغواليخا Igualeja -وهو الموضع الأكثر ارتفاعًا فى ذلك الجبل- ويجرى فى وادى أبارال، حيث يوجد العديد من المواضع على كلا جانبيه، ويسميه الأهالى فى تلك المنطقة خينال Genal.

أول المواضع الموجودة على الجهة اليمنى من السفح هى باراوتا Parauta، ويليها كارتاخيما Cartagima، وخوسكار Júscar، وفاراشام Faraxam، وبانديّرى Pandeire، وأتاخاتى Atajate، وبينادالبد(بنى الوليد)، وبنى العبرية Benalabría، وبينامايا Benamaya، والغاتوثين Algatucin، وبنى الرباح Benarrabá، وغاوسين حيث ينتهى الأبارال. أما البلدان الواقعة على السفح الأيسر فهى: بوخيرّة Pujerra، وموكلون Moclón، وخوبريكى Jubrique، وبوتيّاس Botillas، وبينامبدا Benameda، وخينا الوزير Ginalguacil، وبنى إستيبار، وكاساريس التى تقع فى أرض غاوسين. هناك برج قديم فى خوسكار له أربعة أركان، يستخدم كبرج للناقوس فى الكنيسة، وكان مسجدًا فى عهد المسلمين. وإذا ما وقف أحد الرجال على الحاجز الأعلى -الموجود به الناقوس- فسيكون بمقدوره بقوته المجردة أن يحرك الناقوس بشدة مما يسمح بقرعه. نحن لم نعثر على من يخبرنا بالأمور المسببة لحركة الناقوس، لكن بعد اعتلائى له أرى أن الداعى هو دقة الصنع، وهو ما تفصح عنه الأحرف العربية المكتوبة عليه، والتى تفيد بأن من صنعه هو أمهر المهرة فى فن العمارة.

إذا ما عدنا إلى حديثنا، فسنذكر أن النهر طالما كان يجرى باتجاه الغرب إلى أن يبلغ كاساريس، ومنها يعرج إلى الجنوب؛ حيث يخلّف تلك البلدة على الجانب الأيسر، ويتوجه ليصب فى البحر ما بين جبل طارق وإستيبونا. يمر هذان النهران فى شتى الأرجاء - وعلى مسافة فرسخين أو ثلاثة فراسخ من البحر يمكن عبور نهر غواديارو بالمراكب. إن كاساريس وغاوسين هما بلدتان حصينتان نظرًا لطبيعة موقعيهما. حيث يحيط بكاساريس خندق مكون من صخور قائمة الانحدار -على شاكلة رُندة- وهو ما ينطبق أيضًا على غاوسين، على الرغم من أن صخور تلك الأخيرة ليست بالارتفاع الشاهق الذى تتسم به الأولى؛ وكانت غاوسين هى مفتاح الأبارال فى عهد المسلمين. هناك منطقة جبلية أخرى تبعد ثلاثة فراسخ من الأبارال باتجاه الشمال، ويطلق عليها بيّا لوينغا، وكانت تشكّل جزءًا من رُندة، وهى الآن تخضع لسيطرة الإقطاع وتضم سبع قرى. هذا الجبل مرتفع وشاسع، حيث يمتد على مسافة خمسة فراسخ تمثل طوله من الشمال وحتى الجنوب. إذا ما عرجنا فيما بعد على المنطقة الشرقية من رُندة، التى تدعى الشرقية، وهى تعلو بلدة تولوش -التى تعد درة مالقة- وعلى مسافة أربعة فراسخ من البحر، يوجد جبل بلانكيّا Blanquilla، وهو أعلى جبال مملكة غرناطة قاطبةً فيما خلا جبل شلير؛ وهى تضم عيون المياه التى تنبع منها الأنهار الثلاثة.

أول هذه الأنهار هو النهر الأخضر، وهو -كما أسلفنا عند لوصف مربلة- يجرى نحو تلك المنطقة. أما النهر الثانى فيطلق عليه النهر الكبير Río Grande، وهو ينبع ما بين بلدتى تولوش ويونكيرا، ثم يمر أسفل ألوثاينا وصولاً إلى كاسابالما Casapalma، حيث يتحد مساره مع النهر الذى ينحدر من ألورا، ليصب فى البحر على مسافة فرسخ إلى الغرب من مالقة وبجوار تشوريّانا. أما النهر الثالث الذى ينحدر من جبل بلانكيّا، فينبع من منطقة بورغو، حيث يعبر إلى جوار البلدة متوجهًا إلى كل من قلعة تورون -التى كانت حصنًا مهمًا إبان حكم المسلمين لتلك الأراضى- وبلدة أرداليس. عندئذ يتحد معه أنهار أخرى موجودة بعدد من الجبال، لتهوى مياهه من ارتفاع شاهق ما بين صخرتين قائمتين الانحدار موجودتين على مسافة نصف فرسخ أسفل موضع التقائها، وذلك فى المكان الذى يدعى الجرف. وهنالك يدخل النهر من مضيق بالغ

الطول، حيث كانت توجد فى سالف الزمان بلدتان كبيرتان، ما زالت أطلالهما تُشاهد إلى يومنا هذا على مسافة نصف فرسخ من النهر، كانت إحداهما باتجاه الجنوب بينما تقع الأخرى ناحية الشمال. أما البلدة الجنوبية فيدعوها المعاصرون بيّابيردى Villaverde، كما يطلقون على الثانية عبد العزيز Abdelagiz، حيث توجد قرية صغيرة يُقال لها بعد تحريف اسمها أودالاخيث Audalajix[٢]. من هناك يتوجه النهر إلى ألورا، وعند بلوغه كاسابالما - التى توجد على بعد فرسخين نزولاً إلى الأسفل- يضم النهر مساره إلى النهر الكبير الذى أشرنا إليه آنفًا.

بعد أن عقد جلالة الملك وأعضاء مجلسه العزم على إخلاء كل مواضع الموريسكيين المسالمين، التى كانت على أعتاب الانضمام إلى الثورة فى مملكة غرناطة من قاطنيها، لكى يحمل الثوار على التخلى عما كانوا يعولونه عليهم من آمال، ويدفعهم إلى الاستسلام أو يساهم فى التعجيل بالقضاء عليهم؛ وعلى الرغم من أن السيد خوان دى أوستريا كان قد أوقف إجلاء موريسكيى وادى آش وبسطة -وذلك فى إطار مباحثات الاستسلام التى كانت تُجرى فى أندرش- نظراً لعدم ثقته فى أهالى المناطق الجبلية والأبارال فى رُندة، لوجود بعض الثائرين فى تلك الجبال؛ فقد أصدر السيد خوان أوامره إلى السيد أنطونيو دى لونا لكى يذهب لإخراجهم من هناك، مستعيناً بالمأمور القضائى لمدينة رُندة، وبدرو بيرموديث دى سانتيس -الذى يترأس المحاربين الموكل إليهم حماية المدينة-، والمأمورين القضائيين التابعين للمدن الأخرى المتاخمة، بالإضافة إلى أكبر عدد يتسنى له جمعه من الرجال. على أن يقتادهم إلى أماكن داخلية موجودة فى بقاع أندلوثيا وباتجاه حدود البرتغال، وذلك بأقل قدر ممكن من المضايقات، للحيلولة دون إتاحة الفرصة أمامهم للتصدى للمرسوم والأمر الصادر إليهم.

انطلق السيد أنطونيو دى لونا من أنتيقيرة للاضطلاع بتلك المهمة فى العشرين من شهر إبريل، حيث توجه إلى السيد بدرو بيرموديث دى سانتيس من أجل أن يخبره

---

(٢) كانت القرية تسمى "عبد العزيز" لكن الاسم حُرف فيما بعد، ربما لصعوبة نطقه فى الإسبانية أو لعوامل أخرى. (المراجع)

بأمر تلك الحملة. وقد ذهب فيما بعد إلى مدينة رُندة فى ألفين من المشاة وستين من الفرسان، فأكمل هنالك العدد إلى أربعة آلاف راجل ومائة فارس؛ وفى أعقاب ذلك شرع السيد أنطونيو فى تنفيذ الأمر الصادر إليه. فى الوقت ذاته قام السيد أريبالو دى ثواثو بحشد الرجال فى المناطق التى تدخل فى نطاق سلطته، وتوجه بهم لإجلاء أهالى بلدتى موندا وتولوش -اللتين تحدان المنطقة الجبلية فى رُندة من تلك الناحية. حيث لم يكن مطمئنًا إلى الموريسكيين الذين يقطنون بهما، وأيضًا بغية قطع الطريق على أهل المنخفض والشرقية إذا ما رغب أحدهم فى القيام بأمر ما. عندما تم تنبيه السيد أنطونيو دى لونا إلى أنه ينبغى -قبل أى شىء- احتلال المنطقة العليا من الجبل قبل أن يفطن الموريسكيون إلى ما سيجرى، وذلك من أجل أن تحقق الحملة الأثر المرجو، أصدر السيد أنطونيو أوامره إلى بدرو بيرموديث دى سانتيس، لكى يتوجه بصحبة خمسمائة من الجنود للتمركز فى بلدة خوبريكى، لأن موضعها ملائم لتأمين ظهور من سيكون عليهم الذهاب لإجلاء باقى مواضع الأبارال.

فى أعقاب ذلك قام السيد أنطونيو دى لونا بتوزيع الكتائب، وأصدر إليهم الأوامر لكى يقوموا -فى آن واحد، وفى غضون ساعة- بحبس الموريسكيين فى الكنائس والشروع فى إجلائهم. انطلق الرجال فى الساعة الثامنة صباحًا، حيث تراءى لهم أنه ليس من المناسب الذهاب ليلاً، نظرًا لوعورة تلك الطرق غير المألوفة بالنسبة إليهم. أما المسلمون -الذين كانوا قد التزموا جانب الحذر والريبة- فقد صعدوا إلى الجبال مصطحبين أسلحتهم حينما اكتشفوا مجىء قواتنا، وخلفّوا وراءهم المنازل والنساء والبنين والأغنام إلى الجنود لكى ينالوا منهم بمطلق الحرية. ولمّا كان هؤلاء أناسًا حديثى عهد بالجندية وينقصهم الانضباط، فقد شرعوا فى سرقة الثياب وتحميلها، وتجميع العبيد والماشية، كما جرحوا وقتلوا كل من كان يقف فى طريق جشعهم بأى شكل من الأشكال ودونما تفرقة. حينما شاهد المسلمون تلك الفوضى هبطوا من الجبل -مدفوعين بمشاعر الحنق والأسى-، ووثبوا على أولئك الذين أذهب الانغماس فى السرقة عقولهم، وألحقوا بهم الهزيمة. تزايدت وتيرة تلك الفوضى مع حلول الليل،

ولمّا كان بعض الجنود قد تقاعسوا عن الدفاع عن أنفسهم وألويتهم، فقد ترك بدرو بيرموديث بعض الرجال في كنيسة خينا الوزير لحراسة النساء والأطفال والشيوخ الذين تم حشدهم بها، ثم اتخذ موضعًا منيعًا خارج البلدة لكي يتحصن به.

دلف المسلمون عبر المنازل في عزيمة ماضية، فحاصروا الكنيسة، وشنوا عليها هجومًا، فأخرجوا من كانوا بداخلها، ثم أضرموا فيها النيران وأحرقوها هي والجنود دون أن يُمكن إنقاذهم. في أعقاب ذلك انقضوا على بدرو بيرموديث، الذي استبسل في التصدي لهم، وفي نهاية الأمر قتلوا أربعين من الجنود، وخلّفوا الكثير من الجرحى في كلتا الجبهتين، ثم عاود الأعداء الاحتماء بالجبل. عندما أبصر السيد أنطونيو دي لونا تلك الفوضى، والأثر الضئيل الذي أحدثته قواتنا، قام بسحب الألوية برفقة ألف وخمسمائة جندي، وكانوا قد اقتادوا أعدادًا غفيرة من الموريسكيات والغلمان والثياب والماشية، التي باعوها لاحقًا في رُندة كما لو كانت فيئًا قد غنموه من الأعداء. في أعقاب ذلك انفرط عقد ذلك الجيش الصغير، وذهب كل جندي في طريقه، كما هو الحال بالنسبة لمن يحصل على مكاسب ويخشى أن ينال جزاء ما اقترف. أرسل السيد أنطونيو دي لونا الموريسكيين الذين تسنى له جمعهم إلى البقاع الداخلية، كما أذن لقوات أنتيقيرة في العودة؛ ثم انطلق صوب إشبيلية –التي كان جلالة الملك قد أمّها في خلال تلك الأيام– دون الاضطلاع بمهمة أخرى، وذلك من أجل أن يحيط جلالته علمًا بما كان من شأنه، وبما وقع من أحداث، لأن كلاً من أهالي رُندة وكذلك المسلمين حمّلوه مغبة ما جرى، حيث قال هؤلاء إنه كان يتعين عليه أن يبادر بالهجوم على تلك المواضع مع بزوغ الفجر، لكنه قام بشن الهجوم في وضح النهار، كما أن الرجال قد تم تقسيمهم على العديد من المناطق؛ وكانت الأوامر لدى صدورها غير واضحة، مما أتاح للقادة والضباط حرية الحركة. بينما رأى الآخرون أنه قد خرق الأمان والعهد الملكيين –اللذين كانا بمثابة أشياء مقدسة بالنسبة إليهم– وأنه بينما كانوا هم متمسكين بالانصياع إلى الأوامر التي صدرت إليهم، قام هو بسرقة ديارهم ونسائهم وأبنائهم وماشيتهم، بحيث لم يتبق لهم سوى الأسلحة التي بين أيديهم والجبال الوعرة، لذا فقد

لجأوا إليها للحفاظ على أرواحهم. كما أنهم لا يزالون مستعدين لهجرها والعودة للدخول في طوع جلالة الملك إذا ما أُعيد إليهم النساء والبنين والشيوخ الذين حملوا أسرى، وأيضًا الثياب التى يمكن استعادتها عن طريق جهود الوساطة.

أما الأمر الأول، فقد أجاب عليه السيد أنطونيو دى لونا بأنه قد وزع الرجال وفقًا لما تقتضيه التضاريس الوعرة وغير المألوفة؛ وأنه لو كان قد سار ليلاً، لحدث توزيع الرجال بلا تبصر، مما يقود القوات على نحو يفتقر إلى التنظيم والاصطفاف الجيد، مما كان سيتيح إلحاق الهزيمة بهم بسهولة شديدة، لأن الأعداء كانوا متنبهين إلى ما يجرى؛ كما أنه كانت لديهم دراية بالممرات، وكانت ظلمة الليل ستصب فى صالحهم. أما فيما يتعلق بالاتهام الثانى، فإنه على الرغم من أنه يبدو وكأن المسلمين لم يجانبهم الصواب فيما زعموا، فقد كان هناك العديد من المغرضين، الذين حملهم ذلك الأمر فقط على التحول إلى أعداء، وذلك على الرغم مما أظهروه من إجبارهم على القيام بالثورة وانضمامهم إليها حفاظًا على حياتهم. وهكذا تم قبول الحجج التى تقدم بها السيد أنطونيو دى لونا، وتم التغاضى عن الفوضى التى تسبب فيها الجنود. وفى واقع الأمر لم تسفر تلك الحملة سوى عن التعجيل باندلاع الثورة فى تلك الأراضى وإشهار السلاح بها.

فى تلك الآونة وصل أرّيبالو دى ثواثو إلى بلدة تولوش مع الرجال التابعين للبقاع التى تخضع لنطاق سلطته، فأصدر أوامره بحبس موريسكيى تلك البلدة فى الكنيسة على نحو يتسم ببعض الهدوء. بيد أنه لمّا أحاط البلدة بنقاط للحراسة، تراخى الجنود فى القيام بواجبهم، مما أتاح الفرصة للكثير من الموريسكيين لكى يرحلوا إلى الجبال مع نسائهم وبنيهم، حيث جمعوا ما كان بها من ماشية، وتوجهوا للانضمام إلى باقى الثوار الذين يجولون فى أرجاء وادى النهر الأخضر. فى أعقاب إجلاء تلك البلدة من قاطنيها، خلّف أرّيبالو دى ثواثو بها القائد خوان دى باخاريىغو **Juan de Pajariego** مع مائة وثلاثين من الجنود ريثما يفرغ رجالنا من جمع الأموال المنقولة. حينما تم تنبيه القائد إلى أن المسلمين الذين فروا إلى الجبال لديهم ما يربو على ثلاثة آلاف من رؤوس الماشية،

والكثير من النساء والأطفال، وأنه من الممكن هزيمتهم بسهولة لأنهم أناس عزل، قام بحشد مائة وعشرين رجلاً من الحورين وألوثاينا وبقاع أخرى -ممن كانوا يجوبون الأرجاء بحثًا عما ينتفعون به- وتوجه بهم للإغارة عليهم. لمّا بلغ الرجال بوابة لاس غولوندريناس (السنونو) Golondrinas، أبصروا قطعان الماعز عند مسيل ماء المطر الكائن بجوار المرعى الذين يُطلَق عليه لا بارًا Parra، وألفوا ثلاثة من المسلمين يتولون حراستها.

كان الأعداء قد وضعوا تلك الأغنام هناك كضرب من الخداع حينما شاهدوا المسيحيين يبرحون البلدة، ونصبوا كمينًا لقواتنا. فلمّا أصدر القائد أوامره بإيقاف المسيرة عند إحدى الروابى، وبعث بأربعة من الغلمان الذين يمتازون بخفة الحركة لتفقد المكان، خرج المسلمون من مخبأهم وهم يطلقون صيحات حرب مدوية، ليصعدوا فى عجالة شديدة لاحتلال الفجاج الأكثر ارتفاعًا من أجل الانقضاض عليهم. عندما أبصر نفر من المسيحيين الجبناء تلك الحادثة بادروا بالهرب، ولم تفلح تضرعات القائد أو حامل الراية أو الضباط الآخرين، أو التهديدات التى وجهوها إليهم، فى استبقائهم. قام بعض الرجال الذين استشعروا الخجل مما جرى بتشكيل سرية سيئة التنظيم، لأن الأعداء كانوا قد أضحوا على مقربة منهم، بحيث لم يتسن لهم إمكانية ضبطها. وثب المسلمون عليهم فى عزيمة ماضية، فاخترقوا صفوفهم، وقتلوا سبعة مسيحيين، وجرحوا ثلاثين آخرين، ودمروا رايتهم التى كانت من حرير التفتاه وطبولهم. وهكذا بادر الجنود بالتقهقر حتى بلغوا ربوة كورونا Corona، وهى إحدى السلاسل الجبلية المرتفعة التى تشرف على تلك الجبال قاطبةً. هنالك برز لهم جناح آخر من المسلمين، وأخذوا يضيقون عليهم الخناق، بحيث تجدد القتال وقُتل أربعة مسيحيين آخرين وجُرح عشرون.

على ضوء الإعياء الشديد ونقص الذخيرة اللذين عانى منهما رجالنا، أخذوا يلقون بأنفسهم إلى أسفل الجبل، الذى كان يتسم بالوعورة ويفتقر إلى الغيلات؛ فما كان من المسلمين -الذين كانو بالمنطقة العليا من الجبل- إلا أن ألقوا عليهم الأحجار والصخور

الضخمة التى فتوا بها فى عضدهم. كان القائد باخارييغو قد تخلف واختبأ بين بعض الشجيرات، فرجع أحد أبنائه فى استبسال بحثًا عن والده، حيث عبر وسط الأعداء، ووصل برفقة أربعة عشر من الجنود إلى الموضع الذى كان موجودًا به وأعاده معهم. ما من شك فى أن المسيحيين كانوا سيهلكون جميعًا لو لم يهب لنجدتهم القائد لويس دى بالبيديا -أحد أهالى مدينة مالقة- الذى أمّن انسحابهم مع عشرين من الفرسان، بالإضافة إلى قوات المشاة الموجودة فى تولوش؛ ثم خلّفوا وراءهم تولوش مهجورة وحملوا الجرحى إلى ألوثاينا ليتم مداواتهم. فى أعقاب مغادرة المسيحيين للمحل، بادر المسلمون بالنزول إلى البلدة، فحرقوا الكنيسة ومنازل المسيحيين الذين كانوا يعيشون بينهم.

الفصل الرابع

يتناول كيف رجع الحبقى إلى معسكر السيد خوان دى أوستريًا حاملاً القرار، والأوامر التى صدرت إلى السادة المندوبين والتى تلزمهم بتجميع المسلمين الذين يفدون إليهم لتسليم أنفسهم.

رجع الحبقى إلى معسكر السيد خوان دى أوستريا فى يوم الاحتفال بقربان المسيح، والذى كان يوافق فى ذلك العام الثالث والعشرين من شهر مايو، حاملاً القرار بشأن ما تم التفاوض معه بصدده؛ حيث أتى بالموافقة من ابن عبو، والقادة الآخرين، وزعماء الثوار، والأتراك، وعوام الناس على وجه الخصوص، الذين كانت أقصى أمانيهم هى العيش فى هدوء. نظراً لأن موكب القربان المقدس كان قد بدأ مسيرته إبان بلوغ الحبقى المحل، فقد خرج إليه السيدان إيرناندو دى بارّاداس وإيرنان بايى دى بالاثيوس لشغله ريثما تنقضى شعائر الموكب، وظلا برفقته إلى أن انتهت مراسم الاحتفال، التى اتسمت بالهيبة الشديدة. وقد سار الموكب فى طريق تحفه أشجار الحور والزروع النضرة إلى محيط الخيمة، حيث يوجد المذبح الذى سيستخدم لإقامة القداس. وقد اصطفت فرق المشاة والفرسان على جانبيه، وهم يرفعون أعلامهم ويطلقون نيران أسلحة الميدان، كما أطلقوا ثلاث دفعات من نيران المدفعية دام كل منها ربع الساعة.

تضمن الموكب كلاً من أسقف وادى آش، والرهبان والقساوسة الذين كانوا موجودين فى المعسكر، بالإضافة إلى سائر السادة، والقادة، وذوى الشأن، وهم يحملون مشاعل وشموع متقدة فى أيديهم. تولى كل من السيد خوان دى أوستريا والقائد العام لرهبانية قشتالة العسكرية الجزء الأمامى من مظلة موكب القربان المقدس، بينما قام السيد

فرانثيسكو دى كوردوبا والأب سيمون دى سالاثار -القاضى المستشار فى مجلس مملكة قشتالة- بحمل الحوامل الخلفية. وقد كان بالفعل منظرًا جديرًا بالمشاهدة حينما تم تنكيس الرايات والأعلام، وقام الجميع بتقديم الشكر إلى الرب ، والثناء على ما تكرم به من رفق وإنعام مطلقين على ذلك المكان، الذى شهد اقتراف الثوار المارقين للعديد من الفظائع والآثام فى حق الذات الإلهية والبشرية. ألقى العظة فى ذلك اليوم أحد رهبان سان فرانثيسكو، الذى ذرف الكثير من العبرات، وأخذ يلهج بحمد الرب للفضل الكبير والنعمة اللذين أغدقهما على الشعب المسيحى عن طريق تعريف أولئك الأناس بخطيئتهم؛ وقد تحدث حول أمور كثيرة فى هذا الصدد مما أدى إلى تعزية الرجال.

فى أعقاب انتهاء مراسم ذلك الاحتفال، دلف الحبقى إلى المعسكر، حيث تم منحه الضمانات التى أُعدت من أجل إقرار مهمته، ومرسومًا ممهورًا من السيد خوان دى أوستريا يوثق ما سبق التوصل إليه، بالإضافة إلى بعض البيانات الخاصة بالوقت. كما صدرت التكليفات إلى السادة المندوبين الذين يضطلعون بمهمة تجميع المسلمين الذين يفدون لتسليم أنفسهم، من أجل أن يبادر كل منهم بالتوجه إلى الجبهة المنوط بها. أُسند إلى السيد خوان إنريكيث بقاع بسطة، وهاوية بسطة، ونهر المنصورة، وجبل فيلابريس، وأراضى بيرا. بينما عُهد إلى السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس بسائر بقاع البشرات، والجبل، وغوطة غرناطة، وطاعة أورخيبا، وساحل البحر، ووادى ليكرين، ونهر الحامة. تولى السيد إيرناندو دى بارّادا أراضى وادى آش، ولا بيثا، وفينيانا، وأبلا، ولاوريثينا، وغيثيخا، وديلار، وفيريّرة، وقلهرّة. أما السيد ألونسو حابس بينيغاس فقد اضطلع بالمهمة فى نواحى ألمرية ونهرها، وتولى السيد خوان بيريث دى ميسكوا تلك المهمة فى الديرة، والكيف، ونانتيرة، وشريش. كما صدرت الأوامر إلى كل من تيّو غونثاليث دى أغيلار وإيرنان بايى دى بالاثيوس من أجل أن يجمعا كل من يحضرون إلى معسكر السيد خوان دى أوستريا لتسليم أنفسهم.

لمّا كان إيرناندو الدرّة وثوار جبل منتميس يسعون أيضًا لتسليم أنفسهم، وكانوا قد بعثوا إلى السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس برجلين موريسكيين هما

غونثالو غايتان Gonzalo Gaytán -وهو من أهالى كومبيتا- وخورخى عبود حسن Jorge Abud Hascen -وهو من أهالى كانيّاس-، فقد تم تكليف السيد أرّيبالو دى ثواثو بمهمة جلبهم، وذلك برفقة رجل من بلش يدعى ألونسو بيليث دى مندوثا. كانت الأوامر التى صدرت إلى الجميع تقتضى بترك الموريسيكيين يرحلون بإرادتهم الحرة لكى يقيموا فى الأماكن التى تبدو أكثر ملائمةً بالنسبة إليهم، على أن تكون أراض مستوية خارج نطاق الجبال، وأن تكون بعيدة قدر المستطاع عن ساحل البحر. كما تعين عليهما أن يعدّا قائمة بأسماء كافة الرجال الذين تبدأ أعمارهم من الخامسة عشر ولا تتجاوز الستين عامًا، وبيانًا باليوم الذى استسلموا فيه، وبالأسلحة التى سلّموها، وبالمكان الذى يودون الذهاب للإقامة فيه؛ وكذلك فإن عليهما السماح للأهالى ببيع أو حمل أملاكهم المنقولة، دون أن يضعا أمامهم أى معوقات.

اقترح الحبقى أن يتولى أيضًا إخضاع الأهالى الثائرين فى المناطق الجبلية فى رُندة ومربلة، وأن يخبرهم -فى غمار الروح الحماسية التى بثها رحيل أهالى البشرات- بالوجهة التى يتعين عليهم اللجوء إليها، والطرق التى يمكن أن يسلكوها فى أمان. وقد غادر الحبقى المعسكر يحمل أمرًا بتحميل الأتراك ومسلمى شمال إفريقية الذين يجوبون الأراضى على متن السفن، وإرسالهم إلى شمال إفريقيا. وهو أمر يبدو أليمًا، بيد أنه إذا ما تدبرنا مليًا، سندرك أنه كان مهمًا لوأد الأمل فى نفوس الثوار بشأن إمدادات الرجال والأسلحة التى ستقوم بإنقاذهم، كما أن هؤلاء كان باستطاعتهم إقناع الثوار بعدم الاستسلام؛ فهم رغمًا عن قلة عددهم كانت لديهم المقدرة على فعل الكثير. كان الحبقى قد ألح فى ذلك الطلب، بغية إزالة العائق الذى يمكن أن يجهض مهمته؛ كما أنه لابد وأن يكون قد دفعه لذلك الأمر كونه هو من جلبهم من الجزائر، ومن حسن الطالع أن تسنى له إقناعهم بأن يعودوا آمنين ومحملين بالغنائم قبل أن يحل الدمار الشامل.

الفصل الخامس

يتناول كيف توجه السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس لمقابلة ابن عبو.

كـان يتـعـين على السـيد ألونسـو دى غـرانادا بينيـغـاس الذهاب إلى أوتـورا -وهى إحدى بقاع غوطة غرناطة- من أجل تجميع المسلمين الذين سيفدون من الأماكن التى أوكلت إليه لتسليم أنفسهم. وكان السيد خوان دى أوستريا قد أمره بأن يسلك طريق البشرات ويذهب لملاقاة ابن عبو، وذلك لبث الأمل فى نفسه حول صحة كل ما نقله إليه الحبقى، وأن يخبره - بالنيابة عنه- عن الأفضال التى سيسبغها السيد خوان دى أوستريا عليه باسم جلالة الملك، وكيف أنه يأسى لرؤيته مثقلاً بأمور تتنافى وطبيعته الصالحة. كما أن السيد خوان دى أوستريا بعد أن أدرك براءته وصدق نواياه، على النحو الذى أوضحه له الحبقى، سوف يدخله فى حمايته وكنفه، لكى يتسنى له التضرع إلى جلالة الملك -كما سيفعل السيد خوان- لكى يفيض عليه من نعمته وإحسانه. وهو -بمقتضى هذا الأمر- يمكنه البقاء فى داره دون أن يبرحها، فعلى الرغم من أن الأوامر قد صدرت بإجلاء باقى من فى البشرات، فإن ذلك لا ينطبق على شخصه وعلى بعض الأفراد المهمين الذين يرغب هو فى تسميتهم.

كان قد صدر أمر آخر بتوجه السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس إلى ميثينا دى بومبارون من أجل تجميع الأسلحة التى كان بحوزة كل من يحضرون لتسليم أنفسهم، وإرسالها إلى غرناطة، لكن السيد خوان دى أوستريا أمره ألا يحدث أمراً بشأن ابن عبو، لأن الحبقى كان قد أعلن تسليمه لنفسه بتفويض منه. كانت المهمة التى كُلف بها السيد ألونسو دى غـرانادا بينيغاس بين أولئك الأناس الهمجيين الحانقين جد خطيرة،

وقد سر كثيراً لأنه سيستطيع تجنب ســلك ذلك الطريق، لأنه كان يخشى من حدوث أى حماقة ممن اقترفوا الكثير من الفظــائع ينجــم عنها إفشــال الأمر برمته. وحينما أخبر السيد ألونسو السيد خوان دى أوستريا بمخاوفه، أجابه الأمير المغوار بأنه لا ينبغى لنا أن نتوقف عند المخــاطر، لأن الأحداث العظــام لابد وأن تنطــوى على أخطار شديدة.

حينما شهد السيد ألونسو بينيغاس العزيمة الماضية التى تحلى بها السيد خوان دى أوستريا، انطلق من بلدة كودبا الكائنة بأندرش فى يوم الثامن والعشرين من مايو، فى وقت تجاوز الرابعة مساءً؛ وقد اصطحب معه الكاهن القانونى توريّخوس، والضابط سيرنا، وأحد عشر أو اثنى عشر شخصًا آخر. بلغ السيد ألونسو ألكوليا مع غروب الشمس، وكان بدرو دى مندوثا الشعيبى موجوداً هناك، فخرج لاستقباله مع اثنين من الفرسان وخمسين من حملة البنادق والأقواس الفولاذية. قضى السيد ألونسو ليلته بالبلدة، ولم يشأ أن يعلن المرسوم الذى فى حوزته، لأن ذلك المكان يقع فى نطاق المنطقة المكلف بها شخص آخر، لكنه أخبر الأهالى مشافهةً بالأماكن التى يتعين عليهم الذهاب إليها لتسليم أنفسهم، وأنهم سيكونوا آمنين فى أثناء القيام بذلك، وأن عليهم أن يثقوا فى حسن الاستقبال من جانب كل السادة الذين وكلت إليهم تلك المهمة، وأن الإسراع فى تسليم أنفسهم سوف يعود عليهم بالنفع الكثير. أظهر الموريسكيون الغرباء من أهالى غرناطة وغيرها من البقاع خضوعهم التام للالتزام بالمرسوم، بيد أن أهل الأرض شعروا بالأسف الشديد لأنه كان ينبغى عليهم ترك ديارهم، وعلى الرغم من ذلك فقد أخبروا السيد ألونسو أنهم سيمتثلون لما يؤمرون به.

كان الأهالى يخشون المرور على الأماكن التى بها الثوار الجبليون فى صحبة نسائهم، وبنيهم، وثيابهم؛ لذا فقد تضرعوا إلى السيد ألونسو لكى يكتب إلى السيد خوان دى أوستريا، من أجل أن يعهد إلى أشخاص مثل بدرو دى مندوثا الشعيبى وأفراد بارزين آخرين بجلب من يريدون الاستسلام، وذلك على غرار التفويض الذى منحه للحبقى، وذلك حتى يقوموا بتأمين الطرق ومرافقتهم حتى يبلغوا مأمنهم. فقال له إنه سيفعل ذلك، ونبههم لكيلا يبرح أحدهم المعسكر دون أن يؤمر بذلك، وإنه ينبغى

عليهم -عندما يرحلون- أن يدخلوا إلى الأماكن المحددة للاستسلام نهاراً، وليس فى أثناء الليل، لتفادى أى معوقات قد تقابلهم. غادر السيد ألونسو بينيغاس ألكوليا فى صباح اليوم التالى، ووصل إلى البسيط فى أوخيخار حيث أحسن من بها استقباله، وقد أمر بإذاعة المرسوم وتعليقه على إحدى بوابات المدينة، ثم قال لمن كان فيها من المسلمين ما قاله من قبل للمسلمين الموجودين فى الكوديا، ويغادر البلدة بعدها سالكًا الطريق المباشر المفضى إلى كاديار، لأنه علم أن ابن عبو والحبقى فى انتظاره.

كان كلا الرجلين قد ارتقبا وصوله طوال يوم الأحد بالفعل، وكانا قد أرسلا إليه من يخبره بذلك الأمر؛ فلمّا لم يرجع الرسول بالجواب، رجعا إلى ميثينا دى بومبارون، وأرسلا ألونسو دى بيلاسكو مع ستة من الفرسان لكى يتقدم الطريق الذى سيسلكه السيد ألونسو ويقابله. وقد ألفاه على مسافة نصف فرسخ من تلك الجهة من أوخيخار، ورافقه إلى كاديار. كانت تلك القرية تضم العديد من أهالى كوغوييوس وبقاع غوطة وجبل غرناطة، وقد استقبلوا السيد ألونسو بينيغاس بفرحة غامرة وأووه وأحسنوا إليه كثيراً، حيث شعر الجميع بالسعادة لأنباء انتشار السلام فى تلك الأرجاء. حضر إلى كاديار فى ذات اليوم كل من ابن عبو والحبقى مع ثلاثمائة من المسلمين حملة البنادق وخمسين من الأتراك، وتوجهوا سيراً على الأقدام إلى مقر إقامة السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس. وقد انتحى المأمور القانونى توريّخوس بهم جانبًا، وكان حديث ابن عبو برمته يدور حول تبرئة نفسه من الخطأ، وأنه ليس مسؤولاً عن اندلاع الثورة، بل إنه قد قام بحماية المسيحيين الموجودين فى بلدته، كما حال دون إحراق الثوار للكنيسة، ونصحهم بألا يقدموا على تلك الفعلة الآثمة. أضاف ابن عبو أنه فى أعقاب ما جرى كان من أوائل الأشخاص الذين سلّموا أنفسهم إلى ماركيز مونديخار، كما أنه حمل الكثيرين على الاستسلام؛ وأنه قد قبل بتولى منصب قيادة المسلمين قسراً ورغمًا عن إرادته، وهو -نظراً لكونه مسيحيًا فى صميم نفسه- لم يسمح بارتكاب أعمال وحشية فى حق الأسرى المسيحيين، وقد قام بشرائهم بقدر استطاعته للحيلولة دون قتلهم.

وقد ختم ابن عبو حديثه بقوله إنه قد جاء إلى هنا لكى يفعل السيد خوان دى أوستريا به، وبأسلحته، وبكل من معه ما يتفضل به؛ وأنه رهن أوامره، وسيذهب هو

ومن بالبشرات جميعًا حيثما يؤمرون، على الرغم من أنه يرى أنه من الأفضل إرسال كل إلى بلدته التى ينتمى إليها، دون حدوث أى قلاقل قد تتسبب فى إعاقة الأمر الذى يتمنى حدوثه بشدة. كما أن إجلاء الأتراك ومسلمى شمال إفريقيا على متن السفن هو الأمر الذى يوليه جل عنايته فى الوقت الراهن، لأنهم أناس حادو الطبع ومهيأون لارتكاب أى آثام، وهم لا يولون ثقتهم لأى أحد حتى أنهم يلحقون الضرر بالآخرين، وأن هذا هو الداعى وراء جلبه إياهم معه، وذلك للحيلولة دون أن ينشقّوا، فهم أقوياء ويمتلكون اليد الطولى فى الأرض مع الأشرار. وهو -منذ اليوم الذى فتح فيه جلالة الملك أبواب رحمته للخاطئين- بذل كل ما فى وسعه لكى يدرك الثوار مدى الأهمية البالغة لتسليمهم أنفسهم، على الرغم من المعارضة الشديدة التى قوبل بها فى هذا الصدد. أفلح ابن عبو من خلال تلك الكلمات وعبارات أخرى قالها فى إفهام المسيحيين أنه يرغب فى تسليم نفسه، بيد أنه لا يأمن طائلة الخطايا التى اقترفها، فهو كمن تكون السكين على رقبته ويهاب الموت.

وقد أجابه السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس بقوله إن السيد خوان دى أوستريا راض عنه بشدة، وأن عليه أن يعجل بوضع خاتمة لتلك المسألة، لأن ذلك يصب فى صالحه ليمسى هادئًا مستريح البال؛ كما أن ما يتعلق بإجلاء الموريسكيين من تلك الأراضى ومصادرة الأسلحة لا ينطبق على شخصه وعلى بعض الأفراد الذين يقوم بتسميتهم. نجحت تلك الحجج وغيرها فى جعل ابن عبو على ما يبدو أكثر اطمئنانًا، وقد وعد الحضور بأن يمتثل لكل ما يأمر به السيد خوان دى أوستريا، وهو لم يطلب من السيد ألونسو غرانادا دى بينيغاس سوى عدم السعى لجمع الأسلحة على النسق الذى أُمر به -وفقًا للتعليمات الصادرة إليه-؛ وقال ابن عبو إن الرجال الذين جلبهم معه يبتغون صالح جلالة الملك، وتحقيق المهمة التى وعدوه بتنفيذها. سر السيد ألونسو لذلك الأمر، وقال له إنه لم يعد هناك داعى لإحضار رايات أو أعلام أخرى؛ فأمر ابن عبو بنزع تلك الأعلام فى حضوره، ليرجع السيد ألونسو بعدها وفى اليوم ذاته إلى ميثينا دى بومبارون.

الفصل السادس

يتناول كيف أخطر السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس السيد خوان دى أوستريا بما دار بينه وبين ابن عبو.

مكث السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس فى كوديار لمدة يومين ليتحقق من إرادة أولئك الرجال. ورغمًا عن أنه لم يأمر بإذاعة المنشور بشكل علنى، لأن ابن عبو كان قد رجاه أن يرجئ الأمر إلى ما بعد صعود الأتراك على متن السفن، فإنه لم يكف عن بذل جهد مضنى فى سبيل إذاعة فحواه شفهيًا، وطمأنة من ذهبوا لتسليم أنفسهم. فى أعقاب ذلك قام السيد ألونسو بإخبار السيد خوان دى أوستريا -على وجه الخصوص عندما أنبأه الحبقى بأن الأتراك على وشك اعتلاء متن السفن، بمجرد إخبارهم بوجود سفن يمكنهم الذهاب بها إلى وجهتهم- أنه من الضرورى للغاية التعجيل بترحيلهم للحيلولة دون تأليبهم للأهالى؛ لأنهم كانوا ينشرون بين الناس أن المسيحيين لابد أن يكونوا يخططون لإيداعهم جميعًا فى مكان يتيح لهم نحرهم فى غضون ساعة واحدة. وهم يطلبون توفير سفن تجديف لتقلهم إلى وجهتهم، لأنهم لا يثقون فى المصير الذى قد تلقاه أنواع السفن الأخرى. كما نبه السيد ألونسو بينيغاس السيد خوان دى أوستريا أيضًا إلى ضرورة وجود شخص بارز إبان اعتلائهم للسفن، لكى يعنى بألا يحملوا معهم موريسكيات أو مسلمين من أهل الأرض، أو مسيحيين من الأسرى، أو أى شىء آخر من الأشياء الممنوعة. ولكى لا تسفر مسألة المسيحيين الأسرى لديهم فى تعطيلهم، ريثما يسعون لتهريبهم فى الخفاء على متن قوارب أو مراكب أخرى، فإنه حرى بالسيد خوان أن يأمر بإرسال بعض النقود التى تُمنح إليهم لإرضائهم، حيث أن ابن عبو

والثوار الآخرين لم يكونوا قد افتدوا أولئك الأسرى، وهم لا يمتلكون ما يتيح لهم افتدائهم؛ هذا وقد عرض الحبقى أن يقايضهم نظير مبلغ بخس للغاية.

فى أعقاب اتخاذ تلك التدابير وغيرها مما كان لازمًا من أجل أن تسير الأمور على نحو جيد، مضى السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس إلى غوطة غرناطة، حيث اتخذ موضعًا له فى كل من أوتورا وثوبيا، وشرع فى تجميع من يحضرون لتسليم أنفسهم، وقد كانوا كثيرين. قام السيد ألونسو بتوزيعهم على البلدان مع توافدهم عليه، كما تولى طمأنتهم، وتزويدهم بالمؤن، وقد تطلبت تلك الأمور جميعًا بذل جهود مضنية، نظراً لانعدام النظام فى صفوف جنودنا، الذين كانوا يقطعون عليهم الطرق، ويقتلوهم، ويسرقوهم، ويسبون النساء من أجل إخفائهن، واقتيادهن فيما بعد لبيعهن فى المناطق الداخلية. لم تكن الصعوبات التى واجهها مندوبو السيد خوان فى الجبهات الأخرى تقل عما تعرضنا له، حيث قام السادة المندوبون الآخرون بقبولهم على النحو ذاته، ودون أن يتسنى لهم إصلاح تلك العيوب أو تلافيها على الرغم من أن بعض الجنود قد طُبقت عليهم عقوبات رادعة. وقد أرسل جلالة الملك من يأمر المأمورين القضائيين فى المدن وفى معسكرات المحاربين بألا يتعرض المستسلمون لأى ضير، وأن يتم استقبال من يأتون لتسليم أنفسهم بشكل جيد، وأن تتم معاقبة المعتدين.

الفصل السابع

ويتناول بعض الغارات التى شنها عدد من القادة فى تلك الآونة على من لم يتوجهوا لتسليم أنفسهم فى أنحاء متفرقة من المملكة.

صدر أمر عام إلى كافة قادة المحاربين يوجب عليهم ألا يكفوا عن تمشيط الأراضى فى البقاع التى يستشعرون وجود المقاتلين المسلمين بها، وذلك بغية حرمانهم من المؤن، وتجويعهم إلى حد يدفعهم إلى التعجيل بتسليمهم لأنفسهم. كما صدرت إليهم الأوامر فى الوقت نفسه بألا يشنوا أى غارات، لكى لا يتبعها حدوث اضطرابات أو معوقات قد تجهض ما تم الاتفاق عليه مع المسلمين، بيد أن ذلك الأمر كان يتم مداراته فى ظل الحملات التى كان القادة يشنوها على المناطق التى يوجد بها المسلمون المتمردون. فى غمار ذلك الزخم تم شن العديد من الغارات ما بين أجواء الحرب والسلام فى أماكن متفرقة من المملكة، وسوف نسوق بعضها فى هذا الفصل، لأنها كانت بمثابة المهماز التى استخدم لترويض الجانب الأكبر من الثوار، على الرغم من أنه كان يمكن أن يكون الغرض منها هو العكس تماماً.

كان رئيس محكمة تفتيش غرناطة السيد بدرو دى ديثا قد أرسل من غرناطة موكبًا كبيراً للإمدادات إلى وادى آش، وكان يضم العديد من المتاع المحمل بالمؤن، وقد رافقه كل من بارتولومى بيريث ثوميل Bartolomé Pérez Zumel وخيرونيمو لوبيث دى ميبا. وقد سلك هذان القائدان فى أثناء عودتهما الطريق الذى يعلو بلدة لا بيثا من أجل الإغارة على بايى دى إنفييرنو (وادى الجحيم) Valdeinfierno المطلة على غيخار، حيث تنامى إلى علمهما وجود أعداد غفيرة من المسلمين مع نسائهم وبنيهم وماشيتهم؛

وقد انقضوا عليهم بغتةً، فأسروا مائة وثلاثة عشر فرداً دون أن يلقوا مقاومة، كما استولوا منهم على كميات كبيرة من رؤوس الماشية. كان جيشنا قوامه ستمائة من المشاة ومائة من الفرسان، فلم يجسر المسلمون على انتظار قدومهم والتصدى لهم، حيث فروا هاربين عبر تلك الجبال. كان لذلك الهجوم الذى شنه المسيحيون عليهم فى ذلك اليوم أثر بالغ، حيث توجه الجانب الأكبر ممن فروا لتسليم أنفسهم، لأنهم رأوا أن ملاحقة رجالنا لهم فى تلك الأرض تعنى أنهم لن ينعموا بالأمان فى موضع آخر؛ وقد اتخذ رجالنا ممن أسروا عبيداً بعد أن أيقنوا أنهم سيهبطون من موقعهم هذا باتجاه غيخار من أجل إحداث أضرار أخرى.

فى تلك الآونة توجه السيدان دييغو راميريث وألونسو دى ليبا إلى بلدة إترابو ترافقهما قوات مطريل وشلوبانية وبعض الجنود الذين حضروا على متن السفن، وكان قد تجمع بها حشد غفير من المسلمين؛ بيد أنهم لم يحققوا الأثر المرجو، لأن المسلمين علموا بقدومهم وفروا إلى الجبال. تنامى إلى علم المسيحيين أن تلك الحشود، بالإضافة إلى جموع أخرى، موجودة فى بلدة بينييوس دى ريّ Pinillos de Rey، التى تقع على مسافة ستة فراسخ من شلوبانية، كما تبعد خمسة فراسخ عن غرناطة. أبلغ القائدان السيد خوان دى أوستريا كيف أن تلك الجموع مستقرة فى تلك البلدة –على ضوء استسلام أهالى كل من ريستابال ومليخيش القريبتين– بالإضافة إلى ثقة الرجال فى وعورة تضاريس ذلك المكان، فأمرهما السيد خوان بأن يذهبا فى أثرهم، وأن يسعيا للقضاء عليهم دون أن يحلا بالبلدتين الخاضعتين، لكى لا يثيرا القلاقل بين الأهالى. فى أعقاب تلقى ذلك الأمر انطلق القائدان المسيحيان من شلوبانية فى إحدى الليالى مع ألفين من المشاة ومائة من الفرسان، وتوجها فى تلك الليلة إلى دراغون (فج التنين) Dragón[٣]، وهو مضيق صخرى يمتد لمسافة طويلة جداً، يخرج منه نهر مطريل ليمر على بلدة باتاورا Pataura ومنها إلى البحر.

(٣) كان الموريسكيون يطلقون على ذلك المكان القصوبين. انظر الجزء الأول، الكتاب الرابع، الفصل العاشر. (المترجمة)

مضى الجيش فى اليوم التالى إلى بلش بن عبد الله، حيث بلغتهم تحذيرات من قائد الحصن عن وجود قائد مسلم يدعى موشكالان Moxcalan فى تلك الأرجاء، وأنه يحدث أضراراً فادحة برفقة فرقة من المسلمين الغرباء وأهل الأرض، كما أنه اعتاد الحضور إلى منازل البلدة، والتحدث إلى الجنود، وإخبارهم برغبته فى الاستسلام(٤). قرر القائدان -على ضوء ذلك التحذير- أن يوقفا مسيرتهما وينصبا كميناً فى ذلك اليوم عند ذلك الموضع، إلى أن يمسى الوقت متأخراً، لكى يشنا هجوماً على بينييوس مع حلول الفجر. بيد أن المسلم، الذى كان يرقب الأوضاع و شاهد القوات وهى تغادر منبع النهر، بادر بالنزول إلى المضيق الصخرى، فألفى ثلاثة من الجنود كانوا قد جاءوا من مطريل بحثاً عن قواتنا، فقتل أحدهم، وأسر الثانى، بينما فر الثالث وتوجه لدق ناقوس الإنذار لرجالنا فى بلش بن عبد الله. حينما أدرك القائدان أن الأسير لابد وأن يكون قد أفصح عن مخططهم للمسلمين، أمراً بدق الطبول، وقاما بتجميع الجنود فى عجالة وتوجها بهم صوب بينييوس معتقدين أنه من الممكن بلوغ الموضع والإغارة عليه قبل أن يتسنى لموشكالان تنبيه أهله؛ بيد أن جهدهما لم يعد بالفائدة المرجوة، لأن المسلمين كانوا قد تنبهوا إلى الأمر وشرعوا فى الرحيل.

وضع السيد دييغو راميريث سلاح الفرسان فى المنطقة العليا لكى يقطع على الفارين الطريق المفضى إلى الجبل، بينما قام المشاة بفرض حصار على البلدة من الجهات الأخرى التى تسمح تضاريسها بذلك، لأنها كانت تقع فى منطقة شديدة الوعورة، أما الجزء المنخفض منها والمطل على نهر ميليخيش، فكان به وهاد سحيقة. كانت أعداد الرجال الموجودة فى ذلك الموضع ضخمة، فعلى الرغم من تحذيرهم إلى قدوم المسيحيين، لم يتمكن الجميع من التزام جانب الحرص. أما من خرجوا متأخرين وتوجهوا صوب الجبل فقد وقعوا فى أيدى الفرسان ولقوا حتفهم، وأما الباقون فقد ألقوا بأنفسهم إلى أسفل تلك الوهاد مع نسائهم وبنيهم، وتوجهوا إلى ريستابال وميليخيش اللتين كانتا قد استسلمتا -كما ذكرنا آنفاً- وقد تحصنوا هناك لأن

(٤) لا نفهم من النص السبب فى ملاحقة القائد المسلم إذا كان قد أعرب عن رغبته فى الاستسلام. (المراجع)

السيد دييغو راميريث لم يقبل بأن يمضى الجنود قدمًا. تم أسر ثمانين من المسلمات اللواتى لم يتسن لهن الهرب وصرن إماء، أما باقى الأهالى الذين كانوا هناك فقد استسلموا فيما بعد؛ وقد عاد الجيش إلى شلوبانية فى أعقاب نهب البلدة، محملاً بالكثير من الأجولة الممتلئة بالثياب.

كان هناك مسلم آخر فى المنكب يدعى قاسم المؤذن Cacem el Mueden، وكان قد جلب -فى خضم الحرب الدائرة- ثمانمائة من المقاتلين، أغلبهم من حملة البنادق، وأحدث بهم أضرارًا فادحة فى سائر أرجاء الإقليم، وبات يصول ويجول فى الأراضى حتى بلغ أبواب المدينة. حينما أدرك ذلك المسلم أن من معه من الرجال بدأوا يهجرونه ويتوجهون لتسليم أنفسهم، احتمى بجبل مينخار Mínjar مع مائة وخمسين من المسلمين بالإضافة إلى النساء، وكان يخرج من هناك فى بعض الأحيان لشن الغارات. أُحيط السيد دييغو راميريث علمًا بذلك الأمر، فانطلق من شلوبانية فى إحدى الليالى، يرافقه مائة من الجنود الموجودين بالبلدة، وخمسون رجلاً كان السيد لويس دى بالديبيا قد أرسلهم إليه من مطريل، واثنا عشر فارسًا، حيث توجه ليعسكر قبيل بزوغ الفجر على مقربة من الطريق الذى كان يشغله المسلمون؛ وقد قام بتقسيم الرجال إلى ثلاث فرق لكى يقطع عليهم السبل التى يمكن أن يسلكوها للفرار. ثم أمر الجنود القادمين من مطريل بأن يتقدموا لاحتلال أحد المعابر التى كان يتعين على الأعداء المرور بها لبلوغ الجبال الأخرى، كما أرسل خمسين من جنود شلوبانية عبر سفح الجبل ذاته، بحيث يكونوا دائمًا فى مكان أعلى من الآخرين، ويهبوا لنجدة رفاقهم فى الموضع الذى يتراءى لهم أنهم سيحدثون فيه فارقًا؛ بينما تمركز هو مع الخمسين جنديًا الباقين والاثنى عشر فارسًا عند مدخل الطريق ذاته، وكان هو المدخل الوحيد فى المنطقة المستوية.

مع بزوغ فجر اليوم التالى اكتشف المسلمون وجود الرجال الذين يسلكون سفح الجبل، وأدركوا أنهم مسيحيون، فدقوا ناقوس الإنذار لتنبيه المؤذن، الذى كان فى رحابه يتناول طعام الغذاء مع النساء. فحينما رأى أن الجنود قد قطعوا عليه طريق الجبل، وأن أهم شىء فى الوضع الراهن يتمثل فى اللجوء إلى الشعاب الجبلية الوعرة

بدلاً من القتال بالأسلحة، قال لرفاقه أن يتبعوه؛ ثم أخذ عصا في يده، وبدأ في الصعود إلى أعلى الجبل باتجاه المكان الذي كان يشغله جنود مطريل الخمسون، بعد أن اصطحب معه النساء. كان ذلك المسلم لديه مغارة سرية إلى جوار السبيل الذي سلكه، وكانت تقع ما بين شجيرات شديدة الكثيفة مما يجعل من المستحيل اكتشافها، وحينما أصبح بمحاذاتها جعل الرجال يمضون جميعاً إلى الأمام، بينما أودع النساء بالداخل، وقد تلكأ عند الشجيرات ثم دلف إليها على غرار النساء. توجه المسلمون الآخرون للهجوم على المكان الذي يشغله جنود مطريل، فاخترقوا صفوفهم في تصميم بالغ، وسنحت لهم الفرصة للفرار وارتقاء الجبال الأخرى. وكان من الممكن أن يلقى المؤذن المصير ذاته، بيد أنه كان يستشعر الأمان أكثر في داخل مغارته.

لم تسر الأمور وفقًا لتوقعات المؤذن، لأن أحد الجنود كان قد شاهده يدلف إلى الشجيرات، وأخذ يراقبه، فلمّا لم يره يخرج منها إلى مكان آخر نبه جنوداً آخرين كانوا برفقته، فدخلوا ليبحثوا عنه وتصادف أن عثروا على فتحة المغارة. دخل اثنان منهم إلى الداخل، وسارا في أرجائها لبرهة من الوقت دون أن يعثرا على أحد، فلمّا أرادا الخروج منها، التفت أحدهما برأسه إلى الخلف، فأبصر شخصاً في آخر المغارة. كان المؤذن قد تسلح بقوسه في يده، وعندما أدرك أن أمره قد كُشِف أطلقه، فأصاب نصل السهم أحد الجنود في أضلاعه، بيد أنه لم يجرحه، فقد تصادف أن ارتطم السهم بنعل من القنب كان يحمله في حزامه. في تلك الآونة حضر السيد دييغو راميريث، وحينما أبصر ذلك المسلم وقد اتخذ وضع الدفاع، جعل الرجال يخبرونه باللغة العربية أن يستسلم، وأنه سيحفظ له حياته، وذلك للحيلولة دون قتله لأحد المسيحيين؛ فسلّم نفسه في نهاية الأمر واقتيد إلى قلعة شلوبانية. مكث الرجل هناك عدة أيام حتى أرسل في طلبه رئيس محكمة غرناطة السيد بدرو دي ديثا وأعضاء المجلس. وقد أمر هؤلاء بتسليمه إلى المستشار القانوني لشئون الحرب لكيلا يفلت من العقاب جراء ما اقترفه من أخطاء فادحة، فأنفذ فيه حكم الإعدام.

تم أسر النساء الذين عُثِر عليهن في المغارة، بينما فر الجانب الأكبر من المسلمين الذين كانوا بها، بعد أن ألفوا أنفسهم بدون أسلحة، حيث لم تتح الفرصة للبعض

فى حمل أسلحتهم، بينما ألقى البعض الآخر بما كان معهم من أسلحة ليتمكن من الهرب، وقد بادروا بالذهاب لتسليم أنفسهم. كان الأتراك ومسلمو شمال إفريقيا فى تلك الآونة يرغبون فى العبور إلى شمال إفريقيا، بعد أن ارتابوا فى المنحى الذى سلكته الأمور فى البشرات. وعلى الرغم من أن بعضهم كان يثق فى وعود الحبقى لهم، وكان قد عرض تقديم سفن تتيح لهم العبور آمنين إلى وجهتهم، فإن البعض الآخر لم يكن مطمئنًا إلى الإبحار فى سفن تابعة للمسيحيين، وكانوا ينتظرون وصول مراكب من شمال إفريقيا لكى يستقلونها. كان هناك عدد كبير من هؤلاء ومن الثوار فى رأس غاتا Gata الساحلية فى صحبة قائد ألمرية النيغرو (الأسود)[٥] وخمسين من الأسرى المسيحيين فى انتظار العبور إلى شمال أفريقيا، وقد توجه السيد غارثيا دى بيّاروّيل للإغارة عليهم فى مائتى جندى وخمسة وعشرين من الفرسان، بعد أن أصدر إليه السيد خوان دى أوستريا أمرًا للقيام بذلك.

لم يكن بالإمكان خروج تلك الحملة فى سرية تكفى للحيلولة دون وصول أنبائها إلى الأعداء، مما نجم عنه فرار النيغرو (الأسود) مع عدد من الأهالى المسلحين، بينما مضى الأتراك ومسلمو شمال إفريقيا وجانب من الثوار بالإضافة إلى الأسرى المسيحيين الخمسين إلى منطقة أخرى، أما غير المحاربين فقد بادروا جميعًا بالتوجه لتسليم أنفسهم. وهكذا حينما بلغ السيد غارثيا دى بيّا روّيل الموضع الذى أُبلغ بوجود المقاتلين فيه، لم يعثر سوى على ستة أشخاص كانوا قد استغرقوا فى النوم؛ بيد أنه فى أثناء الطريق ألقى القبض على اثنين من موريسكيى ألمرية، ممن كانوا قد غادروا المحل حينما تم تنبيههم إلى قدوم المسيحيين، فعرف منهم كيف أن الرجال كانوا قد تركوا المكان فى تلك الليلة. لمّا أدرك السيد غارثيا أنه لم يتسن لهم الابتعاد كثيرًا، نظرًا للآثار التى عثر عليها رجالنا، توجه للهجوم على منطقة رهبان رأس غاتا -وهى عبارة عن مجموعة من الصخور القريبة من البحر- حيث بسط سيطرته على

(٥) هو أندريس دى أراغون الذى ورد ذكره فى الفصل الثامن والعشرين من الكتاب الثامن. (المترجمة)

المعابر فى تلك الليلة. وفى اليوم التالى، الموافق التاسع من شهر يونيو، قام بتوزيع الجنود الذين يبلغ عددهم مائة وعشرين على أربع فرق، لكى تصعد إلى الموضع من جهات مختلفة بحثًا عن الأعداء - الذين بدوا وكأنهم لم يمضوا قدمًا- على أن يجتمع الجنود معًا عند الجزء الأكثر بروزًا مع بزوغ الشمس.

كان أول من اشتبك مع المسلمين هو القائد بدرو دى أغيلار Pedro de Aguilar، وذلك عندما كان الأعداء يتراجعون بعد أن شاهدوا الكتيبة التى يترأسها بيّابلانا Villaplana تصعد إلى أعلى الرابية باتجاه الموضع الذى كانوا يشغلونه. كان المسلمون قد خلّفوا وراءهم فى الطريق سبعة قتلى من الأسرى المسيحيين الخمسين الذين كانوا فى حوزتهم، لأنهم لم يستطيعوا السير مع تحمل الأشياء التى كانت تثقل كواهلهم. حينما اكتشف كل من الفريقين وجود الآخر، انخرطوا فى القتال بحماس. على الرغم من أن عدد الأعداء كان يربو على مائتين من الرجال المنتقين، فإن جنودنا الثلاثين قد لقنوهم درسًا مستعينين بالموقع الذى كانوا قد احتلوه -وكان منيعًا-، إلى جانب تطلعهم إلى النجدة التى سيمدهم بها رفاقهم. فى ذلك التوقيت ظهر بيّابلانا وفرقته التى كانت تتتبع آثار العدو، وحينما ظن جنود بدرو دى أغيلار أن هؤلاء وأولئك هم من المسلمين بدأت قواهم تخور، وأدار بعضهم ظهره ليلوذ بالفرار. لم يتوان بدرو دى أغيلار بوصفه جنديًا مغوارًا عن إلهاب حماس جنوده بالأقوال والأفعال، حتى جعلهم مهيئين للموت أو تحقيق الانتصار؛ وهكذا تجدد القتال، وتصدى الجنود للأعداء، إلى أن التحق بهم بيّابلانا، مما حسن من أوضاع جبهتنا.

سرعان ما بلغت الفرقتان المتبقيتان -اللتان قادهما خوليان دى بيريدا ودييغو دى أوليبينثيا Diego de Olivencia- أرض المعركة، وكان الأتراك ما زالوا يقاتلون باستبسال شديد، حتى أحدق بهم رجالنا وقاتلوهم بالسيوف، فتمكنوا من قتل القائد التركى وحمل الباقين على الهرب. كان هناك بعض القتلى فى أثناء المطاردة، كما تم أسر خمسة وثلاثين من الأعداء: كان من بينهم أحد أتباع الباب العالى -الذى كان ابن عبو يأتمر بأمره- وثلاثة وثلاثين مسلم من الأهالى كانوا برفقة ألونسو الخيهيثيل Alonso el Gehecel -أحد مواطنى تابيرناس-، بالإضافة إلى خمسين من النساء

والغلمان. أما أثمن ما ظفر به رجالنا فكان تحقيق الحرية المرجوة للمسيحيين الثلاثة وأربعين الذين كانوا يشرفون على الموت جوعًا . كان المسلمون يرغبون فى قتل الأسرى فى اليوم السابق حتى لا يضطروا إلى إطعامهم، بيد أن الأتراك لم يوافقوا على ذلك الأمر، وقالوا إن قتل الأسرى عمل ليس انسانيًا؛ وقد اتفق الجمع على أنهم سيودون بحياتهم، أو سيفعلون بهم ما يحلو لهم، لو لم تصل المراكب التى سيركبون على متنها من شمال إفريقيا فى غضون ثلاثة أيام.

كانت تلك الحملة على قدر من الأهمية، لأنها أسهمت فى حمل الأتراك الآخرين على التعجيل برحيلهم والتقليل من الشروط التى كانوا يطالبون بها. ونحن سنتغاضى عن ذكر الكثير من الحملات التى شنها القادة فى تلك الآونة، بعد أن تمادوا وتجاوزوا فى تنفيذ القرار الذى أصدره إليهم السيد خوان دى أوستريا بشأن معاقبة الثوار الرافضين للاستسلام على نحو يحول دون الإضرار بالطائعين. وقد تعلل القادة بقولهم إن المسلمين قد تذرعوا بصداقتهم لاقتراف أمور ضارة تفوق ما أقدموا عليه حينما كانوا فى معسكر الأعداء، وأنه من المستحيل معاقبة البعض دون إيذاء الآخرين، لأنهم كانوا جميعًا متلاحمين. كما أن الجنود الذين تم تفويضهم إنزال الجزاء بالمخطئين لم يكونوا يعرفون هؤلاء من أولئك، وعندما تعرفوا عليهم أو سنحت لهم الفرصة للتعرف عليهم، لم يكن هناك مبرر بالنسبة للمحاربين يحملهم على التخلى عن الثأر للأضرار التى لحقت بهم على يد الأعداء -بعد أن أضحى بمقدورهم القيام بذلك إلى الحد الذى تم فيه فصل المستسلمين عن الثوار؛ وهكذا تم التستر على العديد من الأمور التى كانت تستحق عقابًا رادعًا فى آونة أخرى.

الفصل الثامن

ويتناول ترحيل الحبقى للأتراك على متن السفن، وكيف أتى أتراك أخرون من جديد لإغاثة الثوار، وعدول ابن عبو عن رأيه.

فى تلك الآونة كانت السفن القادمة من شمال إفريقيا ترسو على ساحلنا فى كل وقت وحين، محملةً بالمؤن والأسلحة والذخائر التى سعى مسلمو أندلوثيا الذين كانوا قد عبروا إلى تطوان والجزائر من قبل لإرسالها إلى الثوار، من أجل تأخير استسلامهم، لأنهم كانوا على دراية بأن تنفيذهم للمعاهدات التى أبرمت كان نتيجة لمعاناتهم ولحاجتهم الملحة. وكذلك فقد أتى إلى الساحل كثيرون غيرهم من القراصنة الأتراك ومسلمى شمال أفريقيا لنقل الأشخاص بالأجر إلى شمال إفريقيا على متن مراكبهم. كان هؤلاء يحققون قدراً كبيراً من المكاسب، لأنهم كانوا يحصلون على نصف الأمتعة والحلى والنقود التى يحملها المسافرون. وكانوا فى بعض الأحيان يسلبونهم إياها كاملة بوصفهم أشخاصًا لا يسعون سوى للربح. على الرغم من أن السيد سانشو دى لييبا اتخذ إجراءات لحرمان الثوار من تلك الإمدادات، وكان يجوب السواحل بسفنه ليلاً ونهاراً، فإنه لم يتسن له الحيلولة دون وصول بعض المراكب إلى اليابسة، وإنزال الرجال والأشياء التى تقلها على متنها، نظراً لأن الرحلة كانت قصيرة للغاية. وقد تمكن على مدار شهر يونيو من الاستيلاء على ثلاثة عشر مركبًا فى أنحاء مختلفة من الساحل.

فى ذات اليوم الذى ذهب فيه السيد غارثيا دى بيّاروّيل إلى رأس غاتا -على النحو الذى كنا قد ذكرناه فى الفصل السابق-، وصلت سفينتان إلى شاطئ كاستل دى فيروّ فى أثناء الليل، وقد صعد على متنها فى الخفاء عدد من الأتراك الذين كان

الحبقى قد جمعهم بغية إرسالهم بجوازات مرور إلى شمال إفريقيا، برفقة الأسرى المسيحيين الذين كانوا فى حوزتهم. بيد أن تلك :خبار وصلت إلى حاكم القلعة، فقام بإطلاق دانة مدفعية واحدة على سبيل الإنذار تحسبًا لوجود سفن المسيحيين فى موضع يخول لها سماع الطلقة؛ وبالفعل لم تكن السفن على مسافة كبيرة، فبادرت بالإبحار إلى تلك المنطقة، واستولت على السفينتين وهما فى عرض البحر، كما أطلقت سراح أولئك المسيحيين البائسين ، وألقت القبض على الأتراك والمسلمين.

أما الحبقى، الذى كان جل ما يرجوه هو إنهاء ذلك الأمر الذى كان قد بدأه، والذى كان يسعى لنيل الشرف والمكاسب عن طريقه، فقد بادر بالمطالبة بمنحه مراكب على وجه السرعة لتحميل من بقى فى الأرض من الأتراك على متنها، وذلك قبل أن يجىء أتراك آخرون ويألبوهم عليه. على الرغم من أن الأتراك كانوا قد طالبوه برغبتهم فى أن يوفر لهم مراكب ملكية قائلين بأنهم لا يعرفون كيفية الإبحار فى مراكب أخرى، فقد ظل يقنعهم ويلح عليهم حتى جعلهم يصعدون على متن سفن صغيرة ويرحلون إلى شمال إفريقيا، بعد أن حملهم على التخلى عن الأسرى المسيحيين الذين كانوا بحوزتهم. لمّا كان الأتراك قد اعتلوا متن السفن، وباتوا على وشك الإقلاع، وصلت إلى الساحل ذاته خمسة قوارب محملة بالرجال، والمؤن، والذخائر. على الرغم من أن قواتنا قد استولت عليها، فإنها ظفرت بها بعد أن كانت قد أنزلت مائتين من الأتراك ومسلمى شمال إفريقيا إلى الشاطئ؛ فتوجه هؤلاء إلى الجبال بحثًا عن ابن عبو، والتحقوا به، ونقلوا إليه أنباء حول انتظار من بالجزائر لوصول السفن من المشرق فى تلك الآونة من أجل القدوم لإغاثته.

كان ابن عبو رجلاً متقلب الأهواء، بيد أنه كان معتدلاً فى فكره يمتلك قدرًا من الإدراك. فكانت لديه الرغبة فى تسليم نفسه والاحتفاظ بالمكانة والمكاسب، لكن تراءى له أن الحبقى يسعى بدوره لتحقيق ذلك الأمر لنفسه ولأقربائه، وأنه لم يعد هو من يمتلك زمام الأمر على النحو الذى أراده؛ فبات يحقد عليه، حتى أنه روادته الشكوك فى عدم صحة ما ينقله إليه؛ لكنه كان حائرًا بين أمرين ، فلم يكن يجرؤ على ترك العنان له، ولم يكن يدرى كيف يقبض عليه، خشية أن يقتله المسيحيون لدى تسليمه لنفسه.

باتت الشكوك والأحقاد تتنامى فى داخل ابن عبو مع مرور الوقت، وعلى الرغم من أنه لم يقم علانيةً بمنع من يرغبون فى الاستسلام، فإنه قرّب إليه الأتراك ومسلمى شمال إفريقيا ومثيرى القلاقل فى البلاد، كما قام بتعطيل الباقين عن طريق إخبارهم بأن المسيحيين يسيئون معاملة المستسلمين، وأنهم لا يلتزمون بما تم الاتفاق عليه فى فوندون فى أندرش؛ وأن الحبقى لم يعن بتحقيق الصالح العام، بل اكتفى بالرضوح لما أراد السيد خوان دى أوستريا أن يمنحه إياه، حيث لم يسع سوى لتحقيق صالحه ومنفعته هو وأقربائه.

وفقًا لما قصه علينا لاحقًا أشخاص ممن أسرَّ إليهم ابن عبو بمكنون قلبه، فإن ما كان يصبو إليه -بعد أن رأى الحبقى وقد تقلد زمام مسألة الاستسلام- هو أن يسلبها من بين يديه ويتولى هو شئونها، وذلك بغية الإمعان فى تأمين مركزه نظرًا لتقديمه تلك الخدمة الجليلة. بيد أن العامة أدركوا جميعًا أنه قد ندم على ما بدر منه بعد أن وصلت إليه الإمدادات الجديدة من شمال إفريقيا، كما أنه بات يأسى لتخليه عن عقيدته وعن لقب الملك الزائف الذى كان سيحوزه طيلة حياته. أما الأمر الأول فقد دللت عليه الخطابات التى كتبها فيما بعد إلى بعض الخاصة الذين كانت تربطه بهم علاقات صداقة، والتى رجاهم فيها أن يتوسطوا بالنيابة عنه لدى السيد خوان دى أوستريا من أجل دخول اتفاق السلام المنشود إلى حيز التطبيق؛ أما الأمر الثانى فقد برهنت عليه رسائل أخرى كتبها إلى أشخاص فى شمال إفريقيا. ونحن سنعرض هذه وتلك فى كتابنا هذا لكى ننال رضاء من سيقومون بقراءته[6]. وهكذا فإن الحبقى حينما ظن أن المسألة قد حسمت بعد طرد الأتراك -الذين كان يتخذ منهم أصدقاءً له- من الأراضى، ازدادت الأوضاع سوءًا، وخاصة بعد تنامى الرغبة فى تدبير ميتة مخزية له على النحو الذى سنسوقه لاحقًا.

---

(٦) مرة أخرى يريد مارمول أن يكون كتابه شاملاً يعرض وجهات نظر مختلفة. (المراجع)

الفصل التاسع

ويتناول رغبة الحبقى فى إلقاء القبض على ابن عبو بعد أن فطن إلى أنه قد عدل عن رأيه، وكيف أمر ابن عبو باعتقاله، وقتله إياه.

فى أعقاب اعتلاء الأتراك متن السفن، توجه الحبقى إلى السيد خوان دى أوستريا لكى يحيطه علمًا بما قام به. على الرغم من إدراك الحبقى لعدول ابن عبو عن رأيه، فإنه كان يثق فى نفسه إلى حد بعيد، ولم يكن يعتد به، حتى أنه لم يعد يكترث لأمره. وقد عرض الحبقى على المجلس أن يحمل ابن عبو على الوفاء بما تعهد به، وإلا فإنه سيحضره إلى المعسكر موثوق الأيدى؛ ولم يطلب سوى تزويده بخمسمائة من الجنود المسيحيين المسلحين بالبنادق، لكى يتوجه برفقتهم، وفى صحبة أصدقائه وأقاربه من المسلمين لشن هجوم عليه. لم يشأ السيد خوان دى أوستريا إجابته إلى مطلبه وإمداده بالرجال، لأنه رأى أنه ليس من الجيد المغامرة بالمسيحيين؛ فأمر بمنحه ثمانمائة عملة ليستخدمها فى تجنيد أربعمائة من المسلمين يمكن الوثوق فى ولائهم من أجل الاضطلاع بتلك المهمة. انطلق الحبقى مسرورًا من أندرش ليرجع إلى بيرتشول -التى كان يوجد بها امرأته وبناته-، لكى يخرجهن من هناك ويحملهن إلى مدينة وادى آش قبل أن يشرع فى تجنيد المقاتلين.

كان الحبقى رجلاً ماكرًا، لكنه كان شديد الاعتداد بنفسه. ولمّا ألفى نفسه مقربًا للغاية من السيد خوان دى أوستريا -الذى كان بالفعل يسبغ عليه الكثير من الأفضال-، ظن أن أحدًا لن يجرؤ على التعرض له بسوء. حينما بلغ الحبقى بلدة بيخن فى اليوم التالى لمغادرته أندرش، شاهد الكثير من المسلمين واقفين فى الساحة، فدنا منهم

وسألهم في تعال ما الذى ينتظرونه؟ ولماذا لم يذهبوا لتسليم أنفسهم في الجهات المبينة لهم كما يفعل الآخرون؟ فلمّا أجابه أحدهم بأنهم ينتظرون أن يصدر لهم ابن عبو الأمر بذلك، رد عليه بأن الاستسلام يسرى على الجميع، وأنه إذا لم يقم ابن عبو بتسليم نفسه طواعيةً، فإنه سيقتاده للقيام بذلك موثوقًا إلى مؤخرة فرسه. وصلت تلك الكلمات إلى مسامع ابن عبو في اليوم ذاته، ليتزايد معها حنقه، فأرسل يأمر بإلقاء القبض على المائة وخمسين تركى الذين كانوا يرافقونه، وعلى كتيبتى المسلمين اللتين كانتا تتوليان حمايته.

استطلع الرسل مكانه بعد أن علموا بوجوده في بلدة بيرتشول، وأحاطوا ببيته في أثناء الليل، بينما هو غافل تمامًا عما يجرى، حيث لم يكن يجول بخاطره أن هناك في البشرات من يجرؤ على التعرض له. حينما شعر الحبقى بالضجة التى أحدثها الرجال، سنحت له الفرصة للخروج إلى الجدول الكائن بالبلدة دون أن يحسوا به، وكان سيفلت هاربًا من الخطر لو لم تشى به ثيابه. فبينما هو عند أحد المنخفضات في صباح اليوم التالى، لمح من يبحثون عنه القفطان القرمزى الذى كان يرتديه، والعمامة البيضاء التى كان يعتمرها. وعلى الرغم من أنه كان على مسافة بعيدة للغاية منهم، فقد تتبعوه عبر تلك الصخور، وألقوا القبض عليه إلى جوار عدد من الطواحين، ثم استاقوه إلى ثوخوريو Cujurio حيث كان يوجد ابن عبو. قام ذلك الأخير فيما بعد باستجوابه، فلمّا سأله الحبقى عن الداعى وراء اعتقاله إياه وهو لم يسئ إليه قط، قال له إنه قبض عليه بوصفه خائنًا، وأنه كان يعمد إلى أن يكذب عليه، كما أنه سعى لتحقيق المنفعة والشرف لنفسه ولأقربائه فحسب.

حدثت تلك الواقعة في يوم الخميس. وقد أمر ابن عبو في يوم الجمعة التالى بشنقه سرًا، ثم إلقاء جثته في مكان تجميع القمامة بعد أن غلفها بالقضبان المضفورة من الأوراق وعيدان القصب؛ وقد مكث على مدار ثلاثين يومًا دون أن يعلم أحد بوفاته. ومن أجل التستر على الوفاة، بادر ابن عبو بإرسال من يخبر امرأته وبناته بأن يرحلن إلى وادى آش، وألا يحزنّ لأنه أسير لديه، وسرعان ما سيطلق سراحه. في أعقاب

وفاة الحبقى، بعث ابن عبو بأخيه إيرناندو الغالب Hernando el Galipe إلى جبال بلش ورُندة لعرقلة استسلام أهلها، وتشجيع من لم يكونوا قد قاموا بالثورة على التمرد. ومن أجل أن يبالغ فى إخفاء الأمر، كتب رسالةً إلى السيد إيرناندو دى باراّداس باللغة العربية. وفيما يلى نصها بعد ترجمتها إلى اللغة الرومانثية:

رسالة من ابن عبو إلى السيد إيرناندو دى باراّداس

"أبدأ حديثى بحمد الله وحده. إن الفوز والنجاة لمن يكرم من يستحق التكريم. يا سيدى وصديقى الذى أكن له وافر الاحترام السيد إيرناندو دى باراّداس، أحيط علم شخصكم الموقر إلى أنكم إذا ما رغبتم فى القدوم لمقابلتى، فلتأتوا إلى أخيكم وصديقكم فى أمان تام، وإذا ما مسكم سوء، فسوف أفتديكم بنفسى ومالى. وإذا ما أردتم التباحث فى شأن معاهدات السلام المباركة تلك، فلتبحثوها معى، وأنا سأنفذ كل ما ترغبون فيه بصدق ودونما خيانة. يبدو لى أن الحبقى لم يكن يخطرنى بأى من الأمور التى كان يقوم بها، بل إنه كان يخفى عنى الحقائق، لأنه كان يسعى لأن يحقق كل ما طالب به لنفسه ولأقربائه وأصدقائه. وأنا أعلم شخصكم الموقر بذلك، حتى تتمكنوا بمقتضاه من التصرف كيفما يحلو لكم، وعلى النحو الذى ترون أنه سيعود بالنفع على المسيحيين وعلينا. أدام الله المعروف بيننا، وجعلكم الله سبباً فى تحقيقه. واعذرونى لعدم قيامى بالكتابة إليكم قبل الآن لأننى لم يكن لدى من يقوم بذلك. سلام الله عليكم ورحمته وبركاته. كُتِبَ فى يوم الثلاثاء".

بادر السيد إيرناندو دى باراّداس بالرد على تلك الرسالة بقوله إنه يسعده كثيراً أن يلتقى معه من أجل أن تدخل مفاوضات الاستسلام حيز التطبيق، وأن يتكرم بإخباره بمكان الحبقى وبما كان من شأنه. عاود ابن عبو كتابة رسالة أخرى باللغة الإسبانية إلى السيد إيرناندو، وكان فحواها على النسق التالى:

رسالة أخرى من ابن عبو إلى السيد إيرناندو دى بارّاداس

"سيدى المبجل. لقد تسلمت ما تفضلتم بإرساله إلىّ، وفيما يتعلق بالتساؤلات التى وردت فى خطابكم حول سجن الحبقى، وإذا ما كان هناك سبب وراءه، فأنا أخبركم بأن الدوافع التى دعتنى لإلقاء القبض عليه هى تلك التى سأذكرها الآن. أما السبب الأول فهو قيامه بخداع سيادتكم وخداعى، لأن الأشياء التى كنت أقولها أنا له لم يكن ينقلها إلى هناك عند ذهابه؛ كما أنه لم يكن يحيطنى علمًا بالأمور التى كان يقوم بها، أو بالأشياء التى كان يتم التباحث حولها. ولّما كنت قد منحته خاتمى، فقد دفع ذلك سيادتكم إلى الظن بأننى على دراية وأنى أقر ما يفعله، بيد أنى أدركت أنه كان يخدع هذا الجانب وذاك؛ كما أننى اكتشفت أيضًا أنه كان قد أعد مركبًا لكى يرحل على متنها مع أبنائه إلى بلاد المغرب. من أجل هذه الأسباب وغيرها فقد أودعته سجينًا لدى إلى أن تصبح معاهدات السلام تلك قيد التنفيذ. وأنا -من جانبى- أرجو سيادتكم أن تعمدوا إلى إنهاء هذه المسألة وإطفاء تلك النار من أجل القضاء على ذلك الشر العظيم. وسوف أطلق سراح الحبقى فى أعقاب ذلك، ولتعلموا سيادتكم أنه لم يلم به أى سوء، وأنه لو كان موجودًا بالقرب منى فى الوقت الراهن لكان كتب إليكم بخط يده. ولتقوموا سيادتكم بتعزية أولاده، ولتخبروهم بأنه على ما يرام، وبأننى أتعهد إليهم -انطلاقًا من مكانتى- بألا أسىء معاملته، وأن أحتجزه فقط لعدة أيام. وأرجو من سيادتكم أن تنهوا ما كنتم قد بدأتموه، لأن الأمور جميعًا ستسير على النحو الذى تأمرون به".

حينما رأى ابن عبو، بعد مرور فترة قصيرة على إرسال ذلك الخطاب، أن السيد إيرناندو دى بارّاداس قد تأخر فى الحضور لمقابلته، قام بكتابة رسالة أخرى إلى السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس كان نصها كالتالى:

رسالة ابن عبو إلى السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس

"سيدى: تعلمون أنه فى غضون هذه الأيام القلائل حدثت فى جبهتنا أمور تتعلق بسير مباحثات السلام، وقد تمثلت فى تشكك أهالى البشرات فى سوء نية إيرناندو الحبقى، حيث اعتقدوا أنه خدعهم. وعندما ذهب الحبقى إليهم لإبلاغهم بما جاء فى المرسوم الذى نص على مغادرتهم للأراضى فى غضون ستة أيام، شعروا بالأسى الشديد لتلك المسألة حتى أنهم حسبوا أنه قد خانهم، ليقوموا فى أعقاب ذلك بإلقاء القبض عليه؛ وأنا أظن أن أمراً سيئًا قد وقع، ونسأل الله السلامة. أنا أرغب بشدة فى وجود سيادتكم على مقربة من دائرة الأحداث، فربما يكون هناك سبيل إلى معالجتها؛ ونحن ندرك أن سيادتكم -بعد الله- لديكم القدرة على إصلاح الكثير من الأمور فى هذا الصدد. ولمّا كنتم قد بذلتم جهوداً عديدة فى ذلك الشأن، فقد بات لزامًا اتخاذ إجراء للانتهاء من هذا العمل المبارك، على أن يحدث ذلك على وجه السرعة من أجل تحقيق صالح جلالة الملك. وإذا ما تصادف عدم تمكنكم من الحضور إلى هنا، فلتكتبوا إلى السيد خوان دى أوستريا لترون إذا ما كان سيحدث أمر فى هذا الشأن. وإذا ما قررتم المجىء إلى أورخيبا أو إلى المعسكر، وتراءى لكم أن يرافقكم الكاهن القانونى تورّيخوس أو بدرو دى أمبويرو **Pedro de Ampuero**، فلتفعلوا، ومن الممكن أن ينجم عن ذلك خير كبير. وإذا ما ارتبتم فى أمر ما، فسوف أبعث إليكم بكل ما يلزم من رجال لضمان سلامتكم".

إلى هنا تنتهى رسالة ابن عبو، التى أرسلها فيما بعد السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس إلى السيد خوان دى أوستريا، الذى كان لا يزال فى مقر إقامته فى أندرش فى انتظار ما ستسفر عنه مفاوضات الاستسلام؛ على الرغم من أنه كان ينتابه قلق شديد بعد أن رأى أن المسلمين لم يعودوا يحضرون لتسليم أنفسهم. ونظراً لأن رسائل السيد إيرناندو دى باراداس، والمعلومات التى وردت من أطراف أخرى، لم تكن قد تمكنت من توضيح سر اختفاء الحبقى بصورة كاملة، وإذا ما كان حيًا أم ميتًا، تقرر فى المجلس أن يقوم السيد إيرناندو دى باراداس يبعث الأمل فى نفس ابن عبو،

ويسعى إلى مقابلته على النحو الذى طالبه به فى رسالته. وعندما لم تتحقق تلك المقابلة، صدر قرار بذهاب إيرناندو بايى دى بالاثيوس بدلاً منه، وأن يستعلم من ابن عبو عما يريد، وأن يفهم ما الذى حل بالحبقى. كما أن عليه أن يسعى للتجسس فى حرص بالغ على الحالة التى بلغتها شئون المسلمين، وعلى المخطط الذى يرمى ابن عبو إلى تنفيذه، وأعداد الرجال المسلحين الموجودين فى حوزته - سواء من الأهالى أو من الغرباء-، وما هى الجبهة التى تضم قوتهم الضاربة، وسائر الأمور الأخرى التى تبدو له ضرورية.

من أجل الاضطلاع بتلك المهمة تم منح إيرناندو بايى دى بالاثيوس التعليمات حول ما يتعين عليه بحثه مع ابن عبو، كما أعطوه رسالة من السيد إيرناندو دى باراّداس يرد فيها على آخر رسالة بعثها إليه ابن عبو، حيث أحاله فيها إلى إيرنان بايى دى بالاثيوس، وأخبره أن بمقدوره بحث شئونه معه على النحو الذى كان سيقوم به مع شخصه هو. ومن أجل أن ندرك بشكل أفضل مدى الازدواجية التى اتسم بها ابن عبو فى إدارة أموره، بالإضافة إلى تكتمه للأمور وطبيعته الآثمة، فسوف نستعرض فى الفصل التالى الخطاب الذى أرسله فى نفس التوقيت إلى بعض من أصدقائه من القادة الأتراك الموجودين فى الجزائر. وسوف نتناول فيما بعد ما قام به إيرنان بايى دى بالاثيوس فى أثناء رحلته.

الفصل العاشر

ويتناول قيام ابن عبو بالكتابة إلى بعض القادة الأتراك في الجزائر، وإخباره إياهم بوفاة الحبقي.

في تلك الآونة تمكنت سفننا من القبض على أحد مراكب مسلمي أندلوثيا الذي كان متوجهًا إلى شمال إفريقيا، وقد عُثِرَ بها -من بين أشياء أخرى- على رسالة مكتوبة باللغة العربية. وقد بدا من فحواها أنها موجهة من ابن عبو إلى نفر من أصدقائه من الزعماء الأتراك الذين كانوا موجودين في الجزائر، وسوف نستعرضها في هذا الفصل، بعد ترجمتها إلى اللغة الإسبانية، بغية إمتاع القارئ:

"الحمد لله الواحد الأحد. من عبد الله الملك إلى القادة: باثكيث أغا **Bázquea Aga**، وكون كوثشاري **Con Coxari**، والباثكيث بستان **Albázquez Bsten**، وأغا باشا **Aga Baxa**، وإلى كافة القادة الأتراك الآخرين من أصدقائنا وحلفائنا. نحن نعلمكم أننا بخير -والحمد لله- وأنه لا ينقصنا سوى حضوركم لكي تكتمل سعادتنا. لابد أن تعلموا أن نبيل والقائد كاراكاش قد دمروا لنا المملكة بأسرها، فقد أتوا إلينا لإخبارنا بأنهم يودون الذهاب إلى أراضيهم؛ وعلى الرغم من أننا لم نرغب في السماح لهم بالذهاب، في انتظار أن يصلنا العون من الله ومنكم، فإنهم سعوا إلى الرحيل، وقد رحلوا بالفعل. من يزعمون هنا أنني قد أذنت للأندلسيين في عقد معاهدات سلام وفي تسليم أنفسهم إلى المسيحيين، فهم كاذبون ولا يؤمنون بالله. لأن حقيقة ما حدث هي أن الحبقي وموسى كاتشي **Muza Cache** وآخرين غيرهم ذهبوا إلى المسيحيين، واتفقوا معهم على أن يسلّموا إليهم الأراضي؛ وقد قام هؤلاء في أعقاب ذلك بالاتفاق مع كاراكاش

ونبيل وعلى الرئيس ومحمد الرئيس. ثم قام هؤلاء وأولئك بتسليمهم ستين من الأسرى المسيحيين الذين كانوا بحوزتهم من أجل أن يزودوهم بسفن لكى يعبروا على متنها بسلام إلى بلاد المغرب.

فى أعقاب عقد ذلك الاتفاق، حضر الحبقى إلى المسلمين الأندلسيين، وقال لهم إن عليهم أن يسلموا أنفسهم جميعًا إلى المسيحيين، والرحيل إلى قشتالة. أما أنا فقد كنت أحسبه يسعى إلى تحقيق صالح المسلمين، بيد أننى اكتشفت لاحقًا أنه كان يبيع الجميع، وقد دعانى هذا السبب إلى إلقاء القبض عليه وشنقه. أما ما حدث هنا عقب رحيل كاراكاش ورفاقه، فهو قيام المسيحيين بشن هجمات علينا، حيث دار بيننا وبينهم معركة ضارية، وقتلنا منهم الكثيرين، بحيث لم يعد لديهم جيش قائم يستطيعون به محاربتنا؛ لكننا نخشى أن يقوم ملكهم بتجميع جيش آخر وإرساله إلينا. وهكذا فنحن نرجوكم أن تبادروا وتجيرونا على وجه السرعة -أجاركم الله-، ولتعاونونا -أعانكم الله.

وأستحلفكم بالله أن تخطرونا بما لديكم من أنباء حول الأسطول القادم من بلاد المشرق. وإذا لم تتوفر على سواحلكم سفن بصورة عاجلة، فلتستأجروها قدر استطاعتكم، لكى ننقل على متنها النساء والأبناء، لأننا نود أن نبقى لنحارب أعداءنا حتى الموت. ولتعلموا أنكم لو لم تغيثونا، فإننا سنقتص منكم فى ساحة العدل الإلهى يوم القيامة. إن برفقتى على Alí وبالكيث Válquez مع مائة وخمسين من الأتراك والعديد من النساء والضعفاء. فلترأفوا بحالهم، فليس هناك من يتعين عليه أن يهب لنجدتنا فى تلك الدنيا أكثر منكم، لأنكم كان لكم يد فى تلك المسألة. كُتِبَت هذه الرسالة بتاريخ الخامس عشر من شهر صفر لعام ٩٨٧ من الهجرة -الذى يوافق فى تقويمنا السابع عشر من شهر يونيو لعام ١٥٧٠ من ميلاد المسيح. وفى النهاية جاء فى التوقيع: محمد بن عبو.

الفصل الحادى عشر

ويتناول كيفية قتل أهالى ألورا للغالب -شقيق ابن عبو- الذى كان قد ذهب لحشد ثوار جبل رُندة.

كان ابن عبو قد بعث فى تلك الأيام بأخيه الغالب من أجل تأليب المسلمين الذين لم يكونوا قد ثاروا بعد، والحيلولة دون تسليم الثوار لأنفسهم، عن طريق إفهامهم بأنه ينتظر قدوم النجدة من شمال إفريقيا، ومجيء أسطول الباب العالى للوقوف إلى جانبهم. كان ذلك المسلم أحد أعضاء وفد أندرش الذى كان قد ذهب لبحث قضية الاستسلام، وحينما بدا له أن السادة المسيحيين أولوا الحبقى اهتماماً يفوق ما أظهروه تجاهه، تولى عنهم وهو فى شدة الغضب، وسعى إلى عرقلة كل ما يجرى. ومن أجل أن يتحقق له ذلك، انطلق إلى منطقة رُندة الجبلية مع مائتين من حملة البنادق، ووصل إلى جبل منتميس فى أثناء وجود أرّيبالو دى ثواثو -المأمور القضائى لمالقة- فى مدينة بلش، حيث كان يسعى لحمل أهالى تلك الأراضى على الخضوع والدخول فى خدمة جلالة الملك.

حينما تنامى إلى علمه أن أحد الموريسكيين المنتمين إلى بلدة قمارش، وكان يدعى بارتولومى مونيوث Bartolomé Muñoz، يعمل على حث المواطنين على الاستسلام، وأنه موجود هناك، أمر بإلقاء القبض عليه. وحينما أراد إعدامه، بادر أصدقاؤه بالذهاب إليه، وقالوا له ألا يسمح بأن يتعرض ذلك الرجل لأى ضرر أو أن يمسه أذى، لأنه أتى بكلمة منه لتحقيق صالح المسلمين، ومن أجل افتداء نسائهم وبنيهم -الذين تم أسرهم- ومبادلتهم ببعض الغلمان المسيحيين الذين كانوا فى حوزتهم. وقد ألحوا عليه بشدة

فى الطلب إلى أن أمر بإطلاق سراحه، وبأن يتوجه فى أعقاب ذلك إلى الجبل؛ ثم أمر أن يُذَاع بين الناس ألا يسلم أحد منهم نفسه وإلا تعرض للموت. لم يتخاذل بارتولومى مونيوث فى التوجه إلى مدينة بلش، وقام بتنبيه أرّيبالو دى ثواثو إلى قدوم ذلك المسلم، وإلى أنه قد جلب معه مائتين من حملة البنادق -من بينهم بعض المنتمين إلى شمال إفريقيا- وأنه لابد له من المرور إلى رُندة. عندئذ أرسل أرّيبالو دى ثواثو إلى مدينة مالقة، وإلى البلدان التى تخضع لنطاق سلطته، من أجل أن يبعثوا بقوات لكى تقطع عليه المعابر التى ظن أنه سيتعين عليه المرور بها للذهاب إلى رُندة؛ وقد عهد بتلك المأمورية خصيصاً إلى المالقى إيرناندو دوارتى دى بارّينتوس.

بعد أن ذاع الخبر فى الأرض بأسرها، انطلق الغالب ورجاله من منتميس، وقد خرج معه بعض أهالى الجبل الذين أرادوا مرافقته، وكان معهم دليل لكى يرشدهم عبر الطرق والشعاب الجبلية الكائنة أعلى منخفض مالقة، والتى ظن الغالب أنه سيعبر منها فى أمان. توفى الدليل فى الطريق، وحينما بلغ المسلمون المحل الذى توجد به بلدة ألموخية Almoxia، أسروا مسيحياً كان يتفقد بعض المصايد، فلمّا سألوه إذا ما كان يستطيع توصيلهم إلى جبل بيرميخا، رد بالإيجاب، لأنه كان له دراية واسعة بطرق ومسالك تلك الجبال. عندما طلب منه الغالب أن يرشدهم إلى قرية صغيرة أهلها من المسيحيين، كان هناك من أخبره بوجودها على مقربة من ذلك المكان. اقتادهم الدليل إلى ألورا، وساقهم عبر مزارع الكرم حتى يصل بهم إلى النهر. سمع المسلم دقات ناقوس، فلمّا بدا له أنها لا تتناسب مع بلدة صغيرة، سأل الصياد عن عدد سكانها، فأجابه الرجل أنهم يبلغون تسعين شخصاً. لم يثق الغالب فى الرجل، فأرسل رجلين -أحدهما من بلنسية والآخر من كالابرا Calabra- لتقصى الأمر؛ وصل الرجلان إلى ألورا، ولمّا كان أهلها قد تلقوا تحذيراً سابقًا، فقد بعثت نقاط الحراسة بإشارة على أنهما ليسا من أهل البلد، فخرجوا لاعتقالهما، وقد عرفوا منهما كيف أن المسلمين موجودون عند الجدول الذى يطلق عليه مورال Moral.

فى أعقاب ذلك قام الرجال بدق ناقوس الخطر، ولمّا كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل بقليل فقد خرج ثلاثمائة من الجنود مقسمين إلى ثلاث فرق للبحث عنهم. حينما رأى الغالب من جهة أخرى أن الرجلين قد تأخرا، وأن دقات الناقوس ما زالت تدوى، أدرك أن الصياد قد خدعه، وأمر بقتله، ثم عاد ليسلك الطريق الذى أتى منه. كان إيرناندو دوارتى دى باريّنتوس قد تمركز مع قواته عند أحد الشعاب الجبلية المحددة التى كان يعتقد أن المسلمين لابد لهم من المرور بها. حينما وصل الرجال الذين كانوا قد تقدموا الطريق لتحسس الأخبار، وكان الظلام حينئذ حالكًا، ظنت دوريات الحراسة أنهم جموع المسلمين التى حضرت دفعةً واحدةً. خرج الجنود لملاقاتهم، فألفوهم مذعورين للغاية، ولمّا أتيحت لهم الفرصة للخروج من ذلك الفج وسلك فج آخر، وقعوا فى أيدى أهالى ألورا؛ وحينما وجدوا أنفسهم محاصرين من قبل المسيحيين خارت قواهم، حيث مات بعض من تصدوا لرجالنا، بينما لاذ الباقون بالفرار.

قام أحد أهالى ألورا ويدعى ألونسو غابيلان Alonso Gavilán بإلقاء القبض على الغالب، الذى كان قد اختبأ بين بعض الشجيرات، واتخذه أسيرًا حتى قتله ميلتشور لوبيث Melchor López قائد قوات البلدة، الذى لم يردعه ما قاله من كونه ملكًا[٧]، حيث قال إنه لا يعرف سوى ملك واحد هو جلالة الملك فيليبى، وأنه لا يعبأ بالمسلمين. لم يبق على قيد الحياة ممن ذهبوا مع الغالب جميعًا سوى عشرين شخصًا، كان اثنا عشر منهم قد أسروا فى ذلك اليوم، وقد تم بيعهم فيما بعد، وأُقيمت بالنقود التى قبضها رجالنا صومعة، وهى ما زالت قائمة إلى يومنا هذا تخليدًا لذكرى ذلك الانتصار، الذى يتم الاحتفال به على نطاق واسع فى تلك البلدة.

حدث فى تلك الليلة أن وصل بعض أهالى ألوثاينا، الذين كانوا فى طريقهم إلى مدينة أنتيقيرة، إلى نهر كاثارابونيلا عند المعبر التى يطلق عليه ممر سالتييو Saltillo، فقام بعض المسلمين الذين كانوا فى انتظار قدوم الغالب بأسرهم وقتلهم، حتى لم يفلت

(٧) لم يكن "الغالب" ملكًا، ولم نفهم لماذا يدعى ذلك. (المراجع)

منهم سوى ثلاثة أفراد. حينما توجّه أحدهم لدق ناقوس الإنذار فى الورا، أرسل أهلها اثنين من حملة الدروع إلى ألوثاينا، لكى تخرج قواتها وتقطع عليهم الطريق عبر الشعاب الجبلية التى كانوا يسلكونها. خرج اثنا عشر من الفرسان وخمسون من المشاة، وتوجهوا إلى بلدة تولوش، بيد أنهم عثروا عند تلك الروابى على العديد من فرق المسلمين التى كانت قد هبطت من الجبال لاستقبال الغالب؛ فرفعوا رايةً بيضاء كرمز للسلام، وسألوهم إذا ما كانوا يرغبون فى إطلاق سراح المسيحيين الذين أُسروا فى كاثاربونيلا، إلا أن هؤلاء أجابوهم بإطلاق نيران بنادقهم؛ فشرع المسيحيون فى التراجع عبر الطريق الموصلة من تولوش إلى كوين والمسلمون يطاردونهم.

استطاع جندى مغوار من حملة الدروع يدعى مارتين دى إيرينثيا Martín de Erencia التصدى لهم. حيث أنه رجع على عقبيه ليواجه الأعداء، وبات يحث أصدقاؤه بشدة على القتال، حتى تمكن رجالنا -الذين بلغ عددهم ما يقرب من ستين شخصًا- من إلحاق الهزيمة بالمسلمين الذين كانوا يزيدون على ثلاثمائة رجل؛ فقتلوا منهم الكثيرين، وكان من بينهم أحد المسلمين الأشرار الذى ينتمى إلى بلدة يونكيرا يدعى ليون León. كان ذلك المسلم، بعد أن تلقى طعنة رمح من واحد من حملة الدروع اسمه خوان دى مويا Juan de Moya، قد طعنه بالرمح وجرح فرسه بحربة كانت فى حوزته؛ وكان سيرديه قتيلاً لولا أن وافته المنية. كان من بين الأشياء التى غنمها الجنود فى ذلك اليوم حصانًا يمتطيه كان أحد الأولياء المسلمين قد جلبه للترحيب بملكه الجديد ومباركته، حيث كانت الثقة التى يودعها أولئك الهمجيين الجبليين فى الغالب عارمة، وكانوا يظنون أنهم سيحققون أمورًا عظيمة فى أثناء وجوده معه.

الفصل الثانى عشر

ويتناول الهجوم الذى شنه مسلمو جبل رُندة على بلدة ألوثاينا، ونهبهم لها.

لم يكن المسلمون الثائرون فى بقاع رُندة الجبلية يتسمون بالهدوء فى تلك الآونة، حيث احتشدوا فى جبل بيرميخا ، ثم خرجوا للسطو على الأراضى. فقاموا بتأليب البقاع الحدودية، واستولوا من أهلها على الماشية والأغنام، ولم يعد المسيحيون قادرين على الخروج لحصد محاصيلهم أو جنى الغلال دون أن يتعرضوا لخطر محقق؛ لأن من كانوا قد تجمعوا تحت إمرة القادة: ألفور Alfor ولورينثو الفقيه Lorenzo Alfaquí والجبيلّى Jubeli بانتظار مجىء شقيق ابن عبو المدعو الغالب، كان عددهم يربو على ثلاثة آلاف، وكانوا يتوقعون إلحاق المزيد من الأضرار بالمسيحيين فى وجوده. جمع الجبيلّى ولورينثو الفقيه ستمائة من المقاتلين فى بلدة تولوش، وفى ثالث أيام شهر يونيو اتفقوا على أن يشنوا هجومًا على ألوثاينا، وهى بلدة صغيرة يبلغ تعدادها حوالى ثمانين شخص. تقع البلدة على مسافة فرسخ من تولوش، وجميع سكانها من المسيحيين، وهم أناس موسرة من رعى الأغنام وزراعة القمح. غادرت القوات بلدة تولوش للإغارة على ألوثاينا، وقد سلكت طريق يونكيرا من أجل الإمعان فى التخفى والمجىء عن طريق جبل خورول Jurol.

كان يسير فى طليعة القوات اثنا عشر مسلمًا على مسافات متباعدة لاستطلاع الطريق، وقد قسموا أنفسهم إلى مجموعات تتكون كل منها من أربعة أفراد. وصل المقاتلون إلى جدول لاس بينياس (الكروم)، وظلوا مختبئين هناك حتى حلول يوم الأربعاء الموافق السابع من شهر يونيو، وذلك عند موضع أشجار الزيتون التى تقع على

مسافة تساوى مدى إطلاق ثلاثة أمثال السهم من البلدة. كانت القوات تستطيع من موقعها كشف الأراضى بأكملها ومشاهدة من يخرجون ويدخلون، وحينما رأوا أن الأهالى يذهبون لحصد محاصيل الغلال وأنهم غافلون تماماً عن وجودهم فى أراضيهم، نزلوا من مكانهم فى الساعة التاسعة من صباح يوم الأربعاء، بعد أن نظموا صفوفهم على هيئة فرق، كل منها يتكون من ثمانية أفراد فى الصف الواحد، وقد سار إلى جوارهم ستة من الفرسان على كلا الجانبين، حتى أنهم بدوا وكأنهم مسيحيين قادمين من بورغو لشن حملة ما، وهو ما عمل على طمأنة أبراج المراقبة التى كان الأهالى قد أودعوها فى أعلى الشعاب. كان من الممكن أن يحدثوا أضراراً تفوق بكثير ما تسببوا فيه لو لم يكونوا قد أوقفوا مسيرتهم من أجل قتل اثنين من المسيحيين كانوا يقومون بالحصاد على مقربة من منازل البلدة. كان أولهما يدعى لويس ديل كامبو Luis del Campo، وقد أردوه قتيلاً بطلقة من نيران بنادقهم، مما تسبب فى إثارة الهرج بين الأهالى؛ أما المواطن الثانى المدعو فرانثيسكو إيرنانديث Francisco Hernández فقد لاذ بالفرار، وقد طارده أحد الفرسان المسلمين، فاستدار وواجهه، واستولى منه على الرمح. وبينما هما يتصارعان لانتزاعه من بين يديه، أتى مسلم آخر اسمه داكا دينيرو Daca Dinero، فأنهكه، وقام المسلمان معًا بقتل امرأته، التى كانت قد حضرت فى ذلك الصباح لكى تجلب للمسيحيين طعام الغذاء فى أثناء قيامهما بالحصاد.

حينما أدرك الأهالى فى أعقاب ذلك أن من يغيرون على البلدة هم من المسلمين، شرعوا فى إشهار الأسلحة ودق ناقوس الإنذار. كان هناك عشرة من حملة الدروع موجودين كحامية فى ذلك المحل، بيد أن ثمانيةً منهم كانوا قد توجهوا برفقة قائدهم إلى كوين، فلبى الاثنان الباقيان -اللذان كانا فى الحقول مع فرسيهما- النداء؛ حيث هرع أحدهما لدق ناقوس الإنذار فى ألورا، بينما دلف الآخر -المدعو خينيس مارتين Ginés Martén- إلى البلدة، فاخترق صفوف المسلمين المرة تلو الأخرى ليمضى قدمًا فى استبسال. ولو كان حملة الدروع العشرة موجودين فى المعقل، بدلاً من وجوده بمفرده، لأحدثوا أثرًا بالغًا؛ بيد أنه بذل جهداً خارقًا فى اقتياد الأهالى صوب القلعة. ألوثاينا بلدة مفتوحة، وبها قلعة قديمة ضعيفة التحصين توجد بها الكنيسة وعدد من المنازل،

وقد احتشد هناك النساء والأطفال في أجواء من الاضطراب، بعد أن اقتادهم إليها السيد المالقي إنييغو مانريكي Íñigo Manrique، الذي تصادف وجوده هناك في ذلك اليوم.

كان حامل الإجازة خوليان فيرنانديث Julián Fernández -الكاهن القانوني لكاثارابونيلا- موجوداً أيضًا في البلدة، حيث كان يتولى المنصب ذاته في ألوثاينا خلال ذلك العام. فما كان منه إلا أن بادر بالتوجه إلى كنيسته لكي يتناول القربان المقدس في حال دخول المسلمين إلى البلدة، لأنه لم يكن بها سوى سبعة من الرجال. بيد أن النساء -اللواتي استلهمن الحماسة من ذلك الفارس ومن الكاهن القانوني- عوضن غياب الرجال في حمية شديدة، وحللن محل الرجال البواسل في الدفاع عن الأسوار الضعيفة، بعد أن اعتمرن قبعات وأغطية للرأس، وقمن بتغطية أثوابهن التي تعلوها المعاطف لكي يعتقد الأعداء أنهن رجال؛ بينما صعدت أخريات إلى برج الناقوس، ولم يتوقفن عن قرع ناقوس الإنذار. قسّم المسلمون أنفسهم إلى ثلاثة أقسام لكي يشنوا الهجوم في آن واحد: حيث توجه الجبيلّي مع اثنين من الألوية صوب بوابة القلعة، بينما ذهب لورينثو الفقيه مع لوائين آخرين إلى ساحة بورغو، أما القسم الثالث فقد حاصر البلدة برفقة سلاح الفرسان لقطع الطريق على من يغادرونها أو يدلفون إليها. وقد شنوا ثلاث هجمات على أسوار المدينة، فقدوا خلالها سبعة عشر مسلمًا تم قتلهم، وجُرِحَ ما يربو على السبعين.

وقد تبادر إلى ذهني أن أسوق في هذا الموضع مدى الشجاعة التي تحلت بها فتاة شابة تدعى ماريا دي ساغريدو María de Sagredo لأضرب بها مثالاً جيداً. فهي حينما شاهدت وقوع والدها مارتين دومينغيث Martín Domínguez على أثر عيار ناري أطلقه عليه أحد المسلمين، دنت منه، وأخذت منه معطفًا صغيراً كان يرتديه، ثم اعتمرت خوذةً، وتسلقت السور حاملةً قوسًا فولاذيًا إلى جانب جعبة النشاب. وقد أخذت تقاتل مثل أي فتى مغوار، ودافعت عن إحدى الثغرات الموجودة في السور؛ كما قتلت واحداً من المسلمين وجرحت الكثيرين بسهام قوسها. وقد بذلت جهوداً مضنيةً في ذلك اليوم، حتى أنها استحقت أن ينعم عليها أعضاء المجلس الملكي ببعض الأملاك الخاصة

بالموريسكيين فى تولوش بمناسبة زواجها. كانت مشاعر القلق التى انتابت النساء فى ذلك اليوم عارمةً. وفى أثناء توجه إحدى النساء إلى القلعة وهى تحمل طفلاً بين ذراعيها، طاردها أحد الفرسان المسلمين ليأسرها، فدخلت إلى أحد البيوت، وخبأت الطفل فى كومة من الروث كانت موجودة بالمكان. وعندما تم إطلاق سهم من القلعة على المسلم اخترق فخذه، واضطر على أثره إلى التراجع، تسنى للمرأة الرجوع لاسترداد ابنها وإنقاذ حياته.

كانت امرأة أخرى لديها طفلة عمرها ثلاثة أشهر فى مهدها، وقد قامت –من فرط اضطرابها– بحمل كومة من القماش بين ذراعيها ظنًا منها أنها ابنتها، وبادرت بالهرب إلى القلعة. حينما دخل أحد المسلمين إلى المنزل عثر على الطفلة فى مهدها، فحملها من قدميها ليضرب بها الحائط، فقام مسلم آخر –كان صديقًا لوالد الطفلة– بانتزاعها من بين يديه، ووضعها على الأرض. وعندما رجعت المرأة إلى المنزل فى طلب ابنتها فى أعقاب رحيل المسلمين، وجدتها على قيد الحياة. عندما شاهد الأعداء المقاومة الشديدة التى أظهرتها البلدة، وأنهم لن يتسنى لهم تحقيق الأثر المنشود، قرروا أن يتراجعوا؛ لأن الرجال كانوا قد بادروا بالعودة من الحقول، وأخذت النساء فى إلقاء الحبال إليهم عند المواضع الأكثر انخفاضًا من السور. تراجع المسلمون فى أعقاب إحراق ما يربو على ثلاثين منزلاً فى الأرباض، وسرقة وتدمير ما كان بداخلها؛ كما حملوا معهم أربعة فتيات أسيرات، وامرأة عجوزًا قاموا بقتلها لاحقًا لأنها كانت تفهم أحاديثهم باللغة العربية[٨]؛ وقد استولوا أيضًا على ما يزيد على ثلاثة آلاف من رؤوس الماشية التى كان الأهالى بالكاد قد حشدوها ليقتادوا جانبًا منها إلى السوق فى أنتيقيرة. عقب عودة المسلمين إلى تولوش، قاموا بتوزيع الغنائم فيما بينهم، ثم ذهب كل منهم إلى وجهته، حيث توجه لورينثو الفقيه إلى جبل غايمون Gaimón، بينما ذهب دييغو الجبيِّلى إلى جبل رُنـدة.

(٨) هذه الإشارة العابرة تدل على مدى انتشار اللغة العربية حتى بين المسيحيين. (المراجع)

وصلت النجدة من البلدان الأخرى فى ذات اليوم، وإن كانت قد تأخرت ولم تتمكن من إحراز أى أثر، فقد أتى من كاثارابونيلا الكاهن القانونى خوان أنطونيو دى ليغيثامو Juan Antonio de Leguizamo مع أربعين من الرجال قام بإرسالهم السيد كريستوبال دى كوردوبا(٩). كما جاء من الحورين السيد لويس مانريكى Luis Manrique مع العديد من الفرسان؛ وقد أعقبه بربع الساعة قدوم قوات من ألارا Alara، وتبعتها قوات كوين. بعد أن اجتمع كل هؤلاء الرجال، وفى أعقاب معرفتهم بالطريق الذى سلكه المسلمون، قرروا الخروج للحاق بهم؛ بيد أنهم لم يتمكنوا من الاتفاق على رأى واحد، حيث ظهر بينهم العديد من الآراء. وصل أرّيبالو دى ثواثو فى التاسعة من صباح اليوم التالى مع قوات مالقة، ثم عاد بعد أن أودع بالمدينة عدداً من الجنود على غرار الحامية.

(٩) هو قائد حصن كاثارابونيلا. راجع الجزء الأول، الكتاب الرابع، الفصل السادس والثلاثين. (المترجمة)

الفصل الثالث عشر

ويتناول توجه إيرنان بايى دى بالاثيوس لمقابلة ابن عبو بدلاً من السيد إيرناندو دى باراداس، وما تم الاتفاق عليه معه.

فى أعقاب صدور التعليمات والأوامر إلى إيرنان بايى دى بالاثيوس بشأن ما يتعين عليه القيام به، انطلق من معسكر أندرش فى الثلاثين من شهر يوليو، وقد اصطحب معه المواطن الغرناطى مندوثا الخايار Mendoza el Jayar، الذى كان قد عمل كأمين سر للحبقى، بالإضافة إلى موريسكيين آخرين ممن كانوا قد حضروا بالفعل لتسليم أنفسهم. توجه إيرنان بايى فى ذات الليلة إلى بلدة سوبرون Soprón، وقضى ليلته تلك فى منزل قائد يدعى موهاهابا Mohahaba، وأرسل من هناك أحد المسلمين إلى ابن عبو ليخبره بأنه قد قدم -من قبل السيد إيرناندو دى باراداس- لكى يتباحث معه بشأن الاستسلام، ويطلب منه أن يمنحه الأمان. حضر إلى سوبرون فى اليوم التالى مسلم يدعى الرقيمىّ Roquemí مع أربعين من الجنود المسلحين بالبنادق، من أجل أن يرافقه ليبلغه بلدة الموسطة Almauzata، حيث كانت هناك أوامر وإذن له بالمضى قدماً، حتى وصل إلى بالور العليا وقضى بها تلك الليلة. كان يوجد فى ذلك المحل رجل مسلم -من أبناء عمومة ابن أمية- يدعى فرانثيسكو دى كوردوبا، وكان من الأعداء البارزين لابن عبو نظراً لقتله لابن عمه، وأيضاً لوجود أمور أخرى بينهما. على الرغم من أن ذلك الرجل لم يتعامل من قبل مع إيرنان بايى دى بالاثيوس، فإنه بدا له رجلاً راجح العقل، فوضع ثقته فيه، وأطلعه على أسراره؛ كما زوده بمعلومات كاملة حول كل ما أراد معرفته عن المسلمين.

فيما يتعلق بالأمر الأول، فقد أخبره على وجه اليقين بأن الحبقي قد مات، كما أنه أوضح له المقصد الخبيث الذى يرمى إليه ابن عبو من قضية الاستسلام، وكيف أنه استبقى خمسة آلاف من المقاتلين جيدى التسليح رهن إشارته فى البشرات. فهو على الرغم من إعلانه أنه لم يتبق لديه أسلحة، فقد أخفى ما يزيد على اثنتى عشرة بندقية وقوس فولاذى، وقام بتسليم الأسلحة البالية. كما أخبره أيضًا بأن هؤلاء المسلمين جميعًا موجودون على بعد سبعة فراسخ، وأنهم قد أودعوا ثمانمائة رجل كحامية فى بيتريس، على أن يبادروا بالحضور وتلبية الإشارات الدخانية التى اتفقوا على إرسالها فى حال وقوع أى حدث. وأنهم بعد أن قاموا بحصد محاصيل الذرة والحبوب فى بقاع السهل، بالإضافة إلى بعض ما تبقى بحوزتهم من أجولة الدقيق والشعير، فقد أصبحوا يمتلكون مؤونة تكفى لما يزيد على ثلاثة أشهر؛ كما أن الأتراك يقومون بتصنيع البارود ولديهم ما يلزم لفعل ذلك. علاوةً على ذلك فهم واثقون فى قدوم قوات لإغاثتهم، حيث لم يمض ستة أيام على مجيء سبعة من الأتراك من الجزائر، وتأكيدهم على أن جانبًا من الأسطول التركى قادم من المشرق لتدعيم صفهم. وإذا ما كان ابن عبو قد تكتم خبر مقتل الحبقي، فإنه كان يخشى أن يحضر السيد خوان دى أوستريا لاحقًا للبحث عنه، كما أنه كان يرغب فى المماطلة وكسب الوقت حتى يرى ما ستسفر عنه مباحثات الاستسلام.

أدت تلك الحجج وغيرها من التنبيهات التى قدمها الرجل المسلم إلى إيرنان بايى إلى اقتناعه التام بإخباره إياه بالحقيقة، فاقترح عليه إيرنان أن يتوسط لدى السيد خوان دى أوستريا بشأنه من أجل أن يشمله برحمته. انطلق الرجلان معًا فى صباح اليوم التالى من ذلك المحل، وتوجها إلى بالور، حيث أرسل ابن عبو من يخبرهما بوجوده هناك؛ وحينما أضحى إيرنان بايى على مقربة من المكان، ألفى رجلين كانا فى طريقهما لإخباره بأن يذهب إلى ميثينا دى بومبارون، فواصل مسيرته، وعندما اقترب من البلدة، خرج إليه خمسمائة من حملة البنادق المسلمين على هيئة القتال، وهم يطلقون نيران بنادقهم؛ بيد أن ابن عبو بادر بإصدار الأوامر إليهم لكى يدعوا ذلك المسيحى يمر حتى يرى الرسالة التى يحملها، فهو لم يكن يهدف من وراء القيام بذلك العرض

سوى إلى بيان أنه لا يزال يتمتع بالنفوذ. في أعقاب ذلك انصرف الأتراك، الذين كان بينهم بعض المسلمين في تمام زينتهم، وكان تعدادهم جميعًا يبلغ حوالي ثلاثمائة من الرماة المنتظمين في صفوف، ثم احتلوا مداخل كل الشوارع المحيطة بها. حينما وصل إيرنان بايي، وترجل عن فرسه لكي يدلف إلى المأوى الذي يوجد به القائد المسلم، استولوا على أسلحته، وفتشوه ليروا إذا ما كان يخفي سلاحًا.

استقبل ابن عبو إيرنان بايي في صلف وسلطان دون أن ينهض من على الأريكة التي كان جالسًا عليها، وقد أحاطت به بعض النساء اللواتي كن ينشدن له الأغاني. ظل ابن عبو على تلك الهيئة في أثناء استماعه إلى الحجج التي ساقها إيرنان بايي دي بالاثيوس، وما ذكره من عروض عديدة تقدم بها السيد خوان دي أوستريا، وذلك بغية إقناعه بتسليم نفسه والدخول في خدمة جلالة الملك، وألا يكون سببًا في جلب الدمار الشامل على الأمة الموريسكية، دون أن يمنحه الجواب. فيما بعد أمر ابن عبو بحشد الأتراك والمسلمين من ذوي المشورة، وردّ كتابةً على الرسالة التي بعث بها إليه السيد إيرناندو دي بارّاداس وحملها إيرنان بايي دي بالاثيوس. ثم أخبر إيرنان بايي مشافهةً أن الله والعالم أجمع يعرف أنه لم يكن يسعى ليصبح ملكًا، وأن الأتراك والمسلمين اختاروه وودوا أن يشغل ذلك المنصب، كما أنه لم يحل دون استسلام الآخرين أو يمنع أحدًا من القيام بذلك، بيد أنه يتعين على السيد خوان دي أوستريا أن يدرك أنه لابد وأن يكون آخر من يسلّم نفسه. وأنه عندما لا يتبق أحد سواه في البشرات، ولن يكون بحوزته سوى القميص الذي يرتديه، فإن محياه ومماته على الإسلام سيكون بالنسبة إليه أثمن من كل العطايا التي يمكن أن يغدقها عليه الملك فيليبي؛ كما أنه من المؤكد أنه لن يمسي تحت قبضته في أي وقت أو على أية شاكلة، وحينما تدعوه الحاجة إلى ذلك، فإنه سيختبئ في أحد الكهوف التي زودها بماء ومؤن تكفيه على مدار ست سنوات، لن يتخلف خلالها عن اللحاق بأحد المراكب التي يعبر فيها إلى بلاد المغرب.

ودّع إيرنان بايي دي بالاثيوس ابن عبو بعد الاستماع إلى جوابه. وقد أوضح إليه السيد فرانثيسكو دي كوردوبا أنه يوجد ستة من المسيحيين الأسرى بين المسلمين الذين كانوا يرافقونه لتأمينه إلى أن يبلغ ميناء ريخون Rejón الكائن أعلى بلدة شريش.

فى تلك الآونة كان يتم إنشاء نقطة حصينة فى بلدة كودبا الكائنة فى أندرش، وذلك بغية تزويدها بحامية مكونة من عدد كاف من جنود المشاة والفرسان لشن هجمات على سائر تلك الأراضى، لأن جلالة الملك كان قد بعث بأوامر تفيد بتكوين جيشين من جديد من أجل معاودة اقتحام البشرات من جهتين مختلفتين. كان القائد العام لقوات قشتالة على رأس أحدهما فى جبهة غرناطة، بينما تولى كل من السيد خوان دى أوستريا ودوق سيسا قيادة الجيش الآخر الموجود فى وادى آش. وقد توجه كلاهما للالتقاء عند منتصف البشرات، وقاما فى الطريق بقطع الأشجار وحرق محاصيل القمح والذرة التابعة للمسلمين المحاربين، بعد أن رأوا التراجع الذى شهدته مسألة مجىء الأهالى للاستسلام. فى أعقاب تجهيز المعقل للقتال، وإمداده بكل الأمور اللازمة، أُودع بداخله اثنتى عشرة فرقة من فرق المشاة وأحد ألوية الفرسان تحت إمرة السيد لوبى دى فيغيروا. عندئذ انطلق السيد خوان دى أوستريا من ذلك المعسكر فى ثانى أيام شهر أغسطس، وقصد مدينة وادى آش -مروراً بميناء غيثيخا- من أجل إعادة التزود بالمحاربين، لأنه لم يكن قد تبقى فى الجيش سوى أعداد قليلة منهم.

عقب مرور ثلاثة أيام على تلك التحركات، حضر إيرنان بايى دى بالاثيوس بالخبر اليقين حول طبيعة الأحوال فى البشرات، وما تراءى له من القرار الذى اتخذه ابن عبو. وهكذا تم اتخاذ القرار بمحاربته، من أجل معاقبته على ما اقترفه من آثام. تم إرسال المكاتبات إلى المجلس فى غرناطة لكى يبادر بالتعجيل فى اتخاذ الإجراءات اللازمة لحشد الرجال الذين سينضمون إلى جيش القائد العام لقوات قشتالة، كما تم اتخاذ الإجراءات ذاتها فى وادى آش، ليشرع رجالنا من جديد فى تكوين جيش من المناطق ذات الكثافة السكانية العالية فى أندلوثيا ومملكة غرناطة.

الفصل الرابع عشر

يتناول كيف عاود ابن عبو الكتابة ليقول إنه يرغب فى الاستسلام، ومعرفة الغرض الذى دعاه للقيام بذلك، وصدور الأوامر باقتحام البشرات.

فى أعقاب رحيل إيرنان بايى من ميثينا دى بومبارون، علم ابن عبو والمسلمون الآخرون من أصحاب المشورة أن جلالة الملك قد أمر بأن يتولى السيد خوان دى أوستريا حشد جيش آخر لمحاربتهم؛ ورغبةً منهم فى تأخير وتعطيل تلك الحملة، لجأوا إلى التحايل على المسيحيين وإيهامهم برغبتهم فى تسليم أنفسهم، فاتفقوا على كتابة رسالة إلى خوان بيريث دى ميسكوا، يعهد ابن عبو إليه من خلالها -فى إلحاح شديد- أن يسعى للتوسط فى مسألة إرساء السلام، ويقول له إنه يرغب فى تسليم نفسه عبر وساطته، وأن يتوجه لملاقاته فى بلدة لانتيرا حيث يوجد، وأنه سيتمكن من بلوغها فى أمان تام. فيما بعد كُتبت هذه الرسالة، وقام ابن عبو بإرسالها إلى وادى آش مع ستة من المسلمين البارزين الذين كانوا قد ظلوا برفقته، كما أمدهم بتفويض منه ومن غيره من كبار رجالات المسلمين ليضفى عليهم قدراً أكبر من المصداقية. قام الرسل بتسليم الرسالة إلى خوان بيريث دى ميسكوا، الذى حملها بدوره إلى السيد خوان دى أوستريا؛ وقد أثارت حيرةً شديدة حينما تمت قراءتها فى المجلس، نظراً للتباين الشاسع بين ما جاء فيها وما كان قد أشار إليه إيرنان بايى دى بالاثيوس. فصدرت الأوامر باستدعائه لمعرفة إذا ما كان من الممكن أن يعدل ابن عبو عن رأيه، فقال لأعضاء المجلس إنه لم يشهد لدى ابن عبو عزماً على تنفيذ أى مما ورد فى الرسالة.

فى أثناء تباحث ذلك الأمر، أتى مسلم آخر برسالة من السيد فرانثيسكو دى كوردوبا -وهو ابن عم ابن أمية الذى كنا قد تحدثنا عنه سلفًا[١٠]- إلى إيرنان بايى دى بالاثيوس، وقد أعلمه من خلالها بما اتفق عليه المسلمون، وطالبه بأن يبادر بتنبيه السيد خوان دى أوستريا إلى ذلك الأمر، لأن جل ما كان يرمى ابن عبو إلى تحقيقه هو تعطيل المسيحيين إلى حين الانتهاء من إجلاء النساء فحسب، حيث أن ابن عبو لم يحد عما شهده وخبره عنه. ومن أجل أن يضفى المزيد من المصداقية على أقواله طالب بمقارنة الرسائل ببعضها، وعندها سيتكشف لهم أن كلتيهما كتبتا بخط يده، لأن ابن عبو كان قد كتب إليه لإخباره بما دار فى هذا الصدد. وهكذا تم التحقق من صدق ما قاله السيد فرانثيسكو دى كوردوبا، وأدرك أعضاء المجلس أن كافة المحادثات التى قام بها ابن عبو فى تلك الأيام كانت زائفة، وأن مسعاه هو أن يموت مسلمًا على النحو الذى وُلِد وعاش عليه؛ ورأوا أن ما ينبغى القيام به هو الاهتمام بإنهاء تلك المسألة وإنزال العقاب الرادع بالثوار المتمسكين بموقفهم، لأنهم لا يرغبون فى التمتع بالنعمة والفضل اللذين أسبغهما عليهم جلالة الملك؛ على ألا نغلق الباب أمام أولئك الذين يأتون لتسليم أنفسهم، وأن نمد المهلة الممنوحة لتطبيق ما جاء فى المرسوم، حيث أدرك أعضاء المجلس أن الكثيرين لم يقدموا على الاستسلام إما لجهلهم بالأمر أو لخوفهم من قلة الأمان فى الطرق التى سيقطعونها.

كان النسق الذى سوف يتبع فى تلك الحملة الأخيرة التى سيتم شنها على البشرات هو التالى: يقوم القائد العام لقوات قشتالة بتجنيد رجال مدينة غرناطة -الذين كانوا قد نالوا راحةً منذ عدة أيام خلت-، وأن يقوم برفقة هؤلاء، وبالإضافة إلى من سيتم حشدهم من المدن المتاخمة، باقتحام البشرات من جهة أورخيبا. على ألا يتوغل السيد خوان دى أوستريا فى البشرات، بل يتمركز فى شريش أو فى أى من بقاع سند وادى آش التى يمكنه فيها التزود بالمؤن، لكى يرسل من موقعه من يقوم

(١٠) انظر الفصل السابق. (المترجمة)

بشن غارات على الأعداء. بيد أنه تم الاتفاق لاحقًا على ألا يبرح وادى آش، وأن تتولى قوات المشاة التابعة لوحدات الجيش الإسبانى وألوية الفرسان الهجوم على ميناء لوه، وأن تقوم باتلاف الأراضى وتخريبها، والقضاء على محاصيل الذرة التى كانت قد شرعت فى النضوج؛ ثم تتوجه إلى كاديار للانضمام إلى الجيش الذى يترأسه القائد العام لقوات قشتالة، وأن تصبح رهن إشارته. أراد السيد خوان دى أوستريا أن يكافئ السيد فرانثيسكو دى كوردوبا على الخدمة التى قدمها لجلالة الملك من خلال إمداده بعدد من التنبيهات حول بعض الأمور، فأمر بأن يُرسل إلى إيرنان بايى دى بالاثيوس تصريح مرور لكى يبعث به إلى فرانثيسكو دى كوردوبا، على أن يكتب إليه رسالة يطالبه فيها بأن يحضر بمفرده لتسليم نفسه، إذا لم يتسن له جلب أفراد آخرين معه، لأن السيد خوان يود أن ينعم عليه ببعض الأفضال. فما كان منه إلا أن رفض الأخذ بتلك المشورة السديدة، وأجاب بقوله إنه يرى أن بمقدوره خدمة جلالة الملك على نحو أفضل من موقعه الذى يشغله وليس بقدومه للاستسلام. وقد حضر فى النهاية لتسليم نفسه فى أحد الكهوف التى هجم عليها جنود جيش القائد العام لقوات قشتالة، وقد تم اقتياده من هناك ليقوم بالخدمة على متن السفن على النحو الذى سنسوقه لاحقًا.

(الكتاب العاشر)

الفصل الأول

يتناول كيف عهد جلالة الملك إلى دوق أركوس بإخضاع مسلمي بقاع رُندة الجبلية، وما تم اتخاذه بشأنهم.

فى أعقاب مغادرة السيد أنطونيو دى لونا لمدينة رُندة، كما أسلفنا فى الفصل الثالث من الكتاب التاسع، شرع الجنود المتمردون الذين انفصلوا عن الركب ومكثوا فى رفقة أهالى المدينة، فى التجول عبر الأراضى لنهب القرى والبلدان. أما المسلمون، الذين استشاطوا غضبًا، واقتنعوا بأقوال من باتوا يفرون من البشرات، فقد بدأوا فى شن حرب مفتوحة لدرء تلك الأضرار عن أنفسهم، بعد أن تحرروا من كل المعوقات. جمع الأهالى النساء والأطفال وما تبقى بحوزتهم من مؤن، وصعدوا إلى أكثر بقاع جبل بيرميخا وعورةً، ليحتموا بحصن أربوتى Arbote الذى يقع على مقربة من إستان، وقد جعلوا البحر من خلفهم حتى يتسنى لهم استقبال مراكب الإغاثة التى ستفد إليهم من بلاد المغرب. مضى الرجال من هناك إلى أبواب رُندة، فأثاروا القلاقل فى الأراضى، وسرقوا الماشية، وقتلوا المسيحيين، ليس بوصفهم قطاعًا للطريق ولكن لكونهم أعداءً معلنين.

عندئذ قام جلالة الملك -بوصفه أميرًا عادلاً ومراعيًا لحقوق الناس- بعد أن تنامى إلى علمه أن أولئك الأناس لم يكونوا من المشاركين فى الثورة، وأن السبب فيما حدث يرجع إلى خطأ القائمين على شئون الحرب، بإصدار أوامره إلى السيد لويس كريستوبال بونثى دى ليون -دوق أركوس، وواحد من كبار سادة أندلوثيا شأنًا- لكى يخضعهم ويقبلهم فى كنف جلالته، وأن يردّ إليهم النساء والأطفال والأمتعة التى سُلِبَت

منهم، وأن يقوم -في أعقاب تجميعهم- بإرسالهم إلى البقاع الداخلية، تبعًا للنسق الذي سيأمره به السيد خوان دي أوستريا. كان جانب من أملاك دوق أركوس يقع في المناطق الجبلية في رُندة، وقد توجه الدوق إلى بلدة كاساريس -التي كان يمتلكها- لكي يغتنم تلك الفرصة، ويضحي على مقربة من الثوار إبان التفاوض معهم بشأن الاستسلام. بادر دوق أركوس بإرسال شخص إليهم نقل إليه أنهم يظهرون رغبة في الاستسلام، وندمهم على ما جرى، أنهم سيرسلون أشخاصًا يتباحثون بشأن إحلال السلام أينما وكيفما يؤمرون، وأنهم سوف يستسلمون. لم يمض وقت طويل حتى أرسل المسلمون رجلين بارزين من أصحاب المقام الرفيع بينهم يدعيان العربيكي **Alarabique** وأتايفار **Atayfar**، حيث هبط كلاهما إلى صومعة تقع خارج حدود كاساريس، وقد رافقهما رجال آخرون ذوو شأن بارز من أهالي القرى الثائرة.

خرج الدوق للحديث معهم في حشد صغير من الرجال لكيلا يثير استياءهم وليظهر لهم ثقته فيهم. وقد تمكن من إقناعهم بكفاءة، فأجابوه بنفس العبارات التي كانوا قد بعثوا بها إليه من قبل، وسلّموه بعض المذكرات الممهورة التي تتضمن أمورًا يتعين منحها لهم. وقد انصرف بعد أن قال لهم إنه سيخطر جلالة الملك بما جاء فيها، وتركهم مفعمين بالأمل. ثم أعقب ذلك بإرسال خطاب إلى جلالة الملك يعلم فيه بما وصلت إليه الأمور، كما بعث إلى جلالته بالمذكرات التي قدّمها له المسلمون. قبل أن يرجع إليه الرسول بالجواب، صدرت إليه أوامر تفيد بأن يقوم بجمع الرجال من مدن أندلوثيا المتاخمة لرُندة، وأن يصبح على أهبة الاستعداد إذا ما لزم الأمر لشن الحرب في تلك الجبهة، في حال رفض المسلمين لتسليم أنفسهم؛ حيث كان جلالة الملك قد أصدر مرسومًا ملكيًا في الحادي والعشرين من شهر أغسطس إلى المدن وسادة الإقطاع في أندلوثيا، آمرًا إياهم أن يصبحوا طوع أمر السيد خوان دي أوستريا بكل ما يتسنى لهم حشده من مشاة وفرسان، بالإضافة إلى التزود بمؤن تكفي لمدة خمسة عشر يومًا، وهي الفترة التي بدت كافية للانتهاء من المهمة التي ينتوون الاضطلاع بها.

في أثناء تجميع الرجال رأى دوق أركوس أنه من المجدى الذهاب إلى حصن كالالوى Calaluy، إذ ربما تدعو الحاجة لاحتلاله فى حال نشوب الحرب قبل أن يتحصن الأعداء بداخله؛ ونظرًا للأهمية التى يمثلها ذلك الحصن، فقد قام الدوق فى غضون أيام قلائل بإرسال فرقة من المشاة لحراسته. فى تلك الآونة وصلت إلى الدوق أوامر من جلالة الملك تمنح الثوار كل ما طلبوه فى مذكراتهم تقريبًا. بادر البعض بتسليم أنفسهم فى أعقاب ذلك، على الرغم من أنهم لم يجلبوا سوى قدر ضئيل من الأسلحة، قائلين إن من مكثوا فى الجبل لم يدعوهم يحضرون ما تبقى منها. كان من بين المسلمين رجل شرير يدعى ميلتشى Melchi، وكان ينسب إليه الهرطقة، وقد فر من سجون محاكم التفتيش، وذهب إلى تطوان ثم عاد منها[1]. قام ذلك الرجل بحشد عامة الأهالى من الجهلاء -الذين كانوا قد عزموا على تسليم أنفسهم- وحملهم على العدول عن رأيهم، حيث أكد لهم أن كل ما يقوم به العربيكى وأتايفار هو خدعة، وأنهما قد حصلا على تسعة آلاف دوقية من دوق أركوس، وأنهما قد باعا فى مقابلها أرضهما وأمتهما والرجال الذين يدينون بديانتهما؛ كما أن السفن قد أتت إلى جبل طارق، وأن مدن وسادة أندلوثيا قد تمردوا على الحكم، وأنه قد تم إعداد الحبال التى سيُشنق بها الرؤوس المدبرة للثورة، وسيتم تقييد الآخرين وإجبارهم على تنفيذ عقوبة التجديف على ظهر السفن إلى الأبد، كما أنه سيتم تعريضهم للجوع والجلد بالسياط والبرد، دون أن يصبح لديهم أى أمل فى مصير آخر.

أسفرت تلك الكلمات، والثقة الكبيرة التى كان يتمتع بها قائلها بين الأشرار، فى سهولة اقتناع أولئك العوام؛ فحملوا السلاح فى مواجهة العربيكى، وقتلوه هو وأحد مسلمى بلاد المغرب الآخرين الذى كان يدين برأيه؛ ومنذ ذلك الوقت أضحت ثورة الأهالى أشد مما كانت عليه من ذى قبل، وعندما كان البعض يرغبون فى تسليم أنفسهم، كان ميلتشى يحول بينهم وبين القيام بذلك عن طريق التهديد. أرسل أهالى

(١) بعض الموريسكيين الذين هاجروا إلى بلاد المغرب عادوا إلى إسبانيا سرًا. (المراجع)

بنى حـابس Bena Habiz رجـلاً مـسلمـاً يدعى البـرقـوشى Barcochi يطالب بتطبـيق المرسوم والعفو الملكى عليهم لرغبتهم فى الاستسلام، فأعطاه دوق أركوس رسالة إلى قائد الجنود الموجودين فى حصن مونتيمـايور (الجبل الأكبر)، يأمره فيـها أن يوليه عنايتـه هو ورفاقـه، وأن يرافقـهم حتى يبلغهم مكانًا آمنًا؛ بيـد أن رجالنا -الذين كان لديهم جشع للاستيلاء على مـا بحوزته، أو كانت تراودهم رغبة لعرقلة استسلام الثوار الذى سينجم عنه إنهاء الحرب- أردوه قتيلاً فى الطريق. أسفر ذلك الانفلات عن تأليب أهالى بنى حابس، وتأكيد الحجج التى ساقها ميلتشى، على نحو لم يفلح معه العقاب الذى أنزله دوق أركوس بالجناة عن طريق شنقهم ونفيهم على متن السفن، للحيلولة دون نشوب الثورة بين جميع أهالى البلدة لتسلك الأمور منحى سيئًا. سوف نتوقف عن تناول تلك الرواية الآن وسـوف نتطرق إليـهـا فى وقت لاحق، وسـوف نسـتـعـرض الآن الطريقة التى اقتحم بها القائد العام لقوات قشتالة البشرات.

الفصل الثانى

يتناول كيف قام القائد العام لقوات قشتالة بحشد الرجال اللازمين لاقتحام البشرات.

فى خضم الاستعدادات التى كانت تجرى فى وادى آش لتجهيز المؤن والذخائر اللازمة للقوات التى ستقوم باقتحام البشرات من تلك الجبهة، توجه القائد العام لقوات قشتالة للقيام بالأمر ذاته فى مدينة غرناطة، فبلغها فى أوائل أيام شهر أغسطس. أقام القائد العام فى مقر المحكمة الملكية، وقد وفر له رئيس محاكم التفتيش السيد بدرو دى ديثا إقامة مترفة، حيث كان الرئيس يؤدى واجبه على أكمل وجه مع مستشارى جلالة الملك. رافق القائد العام فى رحلته كل من: السيد ميغيل دى مونكادا، والسيد بيرناردينو دى مندوثا -ابن كونت كورونيا Coruña-، والسيد لوبى أورتادو دى مندوثا، وسادة آخرون من أقربائه وأصدقائه. كان القائد العام مخولاً من قبل جلالة الملك لتجنيد المحاربين فى المدينة، واستدعائهم من الإقليم، واتخاذ كافة الإجراءات الضرورية لشن الحرب، بوصفه نائبًا للقائد العام؛ وقد تولى من ذلك المنطلق رئاسة المجلس فى أثناء وجوده هناك، فعيّن رؤساء وقادة المشاة وباقى المناصب الأخرى، كما أسند إلىً منصب مورد الجيش التابع له.

فى أعقاب تهيئة الرجال وإعدادهم، والتزود بكميات وفيرة من المؤونة والذخائر، وإيداع قدر كبير منها فى أورخيبا والبادول، انطلق الجيش فى ثانى أيام شهر سبتمبر من عام ١٥٧٠، وبلغ موضع البادول مع غروب شمس ذلك المساء، حيث لحقت به هناك القوات الآتية من المدن، فتعاظم قوام الجيش حتى بلغ عدده خمسة آلاف من الرجال

البارعين وجيدى التسليح. كان قائدا جنود المشاة القادمين من غرناطة هما السيد بدرو دى بارغاس، وبارتولومى بيريث ثوميل؛ أما قوات المدن السبع، والبقاع التى تدخل فى نطاقها، فترأسها السيد ألونسو ميخيًا؛ بينما رافق محاربى لوشة، والحامة، وقلعة يحصب السيد غوميث دى فيغيروا -المأمور القضائى لتلك المدن. كما حضر السيد فادريكى مانريكى مع رجال أنتيقيرة، وقدمت إحدى فرق المشاة من بلدة أرشدونة برفقة قائدها إنييغو ديلغادو دى سان بيثينتى Íñigo Delgado de San Vicente. وقد جاء أيضًا كل من: فرانثيسكو دى أرّويو، وليآندرو دى بالينثيا Leandro de Palencia، وخوان لوبيث، ولورينثو رودريغو Lorenzo Rodríguez، وديغو دى أورتيغا Diego de Ortega، وخوان خيمينيث Juan Jiménez مع كتائب الجنود النظاميين التابعة لهم؛ كما أتى القائد لورينثو دى أبيلا مع ثلاثمائة من حملة البنادق ممن كانوا مع كونت تينديا فى حصن الحمراء. هذا وقد حضر -علاوةً على الألوية التابعة للمدن- فرقة من الرماة يترأسهم المواطن الغرناطى لاثارو مورينو دى ليون.

لم يتوقف القائد العام فى البادول سوى يومًا واحدًا لدفع الرواتب، وقد أمرنى أن أمنح الجنود أربع حصص من الطعام تكفيهم لمدة أربعة أيام، لكى يقوموا بحملها فى أجربتهم، حتى لا تشغل مكانًا فى الأجولة التى ستنقل فيها المؤن والذخائر الخاصة بالجيش؛ ثم توجه الجيش فى وقت متأخر للغاية من رابع أيام شهر سبتمبر للإقامة فى بلدة أثيكيا (الساقية). تحرك الجيش من هناك باتجاه لانخارون وأورخيبا دون أن تقابله أية معوقات فى الطريق، وقد توقف فى ذلك المعسكر ليوم واحد حتى يرتاح الرجال، ولانتظار من كانوا قادمين للحاق بهم، ولكى يتسنى للقادة اتخاذ القرار حول الطريق الذى ينبغى عليهم أن يسلكوه. وصلت فى ذلك اليوم ألوية فرسان قرطبة التى كانت موجودة فى لاس ألبانويلاس، بالإضافة إلى سبعمائة وثلاثين من جنود لاس غواخاراس والمنكب وشلوبانية يترأسهم القائد أنطونيو دى بيرّيو. فى أثناء وجود الجيش فى أورخيبا، انطلق السيد خوان دى أوستريا من مدينة وادى آش فى اليوم السابع من شهر سبتمبر، وذهب إلى قلهرّة التى احتشد بها الرجال الذين سيدخلون إلى البشرات من تلك الناحية للإعداد لذلك الأمر. وقد توجه فى الصباح الباكر من ذلك اليوم ثلاثة

آلاف ومائتان من المشاة وثلاثمائة من الفرسان إلى ميناء لوه لقضاء الليلة به، وقد حملوا فى أجربتهم حصص طعام تكفيهم لأربعة أيام، ورافقهم ألف وخمسمائة جوال كبيرة الحجم محملة بالمؤن والذخائر.

كان قادة أولئك الجنود هم: السيد بدرو دى باديًا -القائد الميدانى لوحدات الجيش الإسبانى فى نابولى-، ومواطن باداخوث خوان دى سوليس Juan de Solís- القائد الميدانى لوحدات الجيش الإسبانى التى تم استدعاؤها من فرنسا[٢]-؛ حيث كانت تلك الألوية قد حاربت مع ملك فرنسا فى قتاله ضد اللوثريين امتثالاً لأوامر جلالة الملك، ثم حضرت فى أعقاب ذلك للانضمام إلى معسكر السيد خوان دى أوستريا فى أندرش؛ بالإضافة إلى أنطونيو مورينو، والسيد رودريغو دى بينابيديس، وقائدى سلاح الفرسان تيّو غونثاليث دى أغيلار والسيد الغرناطى غوميث دى أغريدا. وقد توجهت القوات فى اليوم التالى إلى بالور، حيث حضر إلى هناك السيد لوبى دى فيغيروا مع ثمانمائة من الجنود وأربعين من الفرسان الذين كانوا بحوزته فى أندرش. كان القادة يحملون أوامر كتابية حول ما يتعين عليهم القيام به، وكانت قد صدرت إليهم الأوامر بأن يتولى كل منهم قيادة القوات ليوم واحد يطيعه خلاله القادة الآخرون بوصفه قائدًا عامًا، وذلك للحيلولة دون نشوب الخلافات بين القادة، ريثما ينضمون إلى جيش القائد العام لقوات قشتالة الذى ينبغى على الجميع الامتثال لأوامره.

كان هناك التزام شديد فى العمل بتلك القواعد، وكان يتم فى كل يوم إرسال جنود المشاة والفرسان للإغارة على الأراضى، وتخريب محاصيل الذرة، وإلحاق كل الأضرار الممكنة بالأعداء. تم أسر وقتل العديد من الأشخاص خلال تلك الغارات، كما استولى الجنود على كميات كبيرة من الماشية؛ وقاموا لاحقًا ببيع تلك الغنائم وتقسيم المقابل النقدى على القادة والجنود، كما تم منح خمس القيمة لمن كان يتولى قيادة القوات فى اليوم الذى جلب فيه الجنود الفىء كما لو كان قائدًا عامًا. فى أعقاب إرسال موكب

(٢) استدعاء قوات إسبانية من فرنسا وإيطاليا يدل بوضوح على أن ثورة الموريسكيين كانت تشكل خطرًا حقيقيًا على الوضع الداخلى فى إسبانيا. (المراجع)

إمدادات ضخم من ذلك المعسكر إلى قلهرّة، وجلب كمية جيدة من المؤن والذخائر، مضت القوات إلى بلدة كاديار حيث صدرت إليهم الأوامر بالانتظار هناك إلى حين قدوم القائد العام. وقد قامت القوات بشن العديد من الحملات من ذلك الموضع، عادت على القادة والجنود بالخير الوفير دون أن يلاقوا مقاومةً من أحد.

في تلك الآونة انطلق القائد العام لقوات قشتالة من أورخيبا، ولمّا كان قد ورد إليه تنبيه في الطريق حول احتشاد المقاتلين المسلمين في الأراضي الموجودة في بايي دي إنفييرنو (وادي جهنم)، فقد قام بإخطار رئيس محاكم التفتيش السيد بدرو دي ديثا لكي يأمر السيد فرانثيسكو دي مندوثا -قائد معقل غيخار- بأن يتجه إلى تلك الجبهة مع أكبر عدد يتسنى له جمعه من الرجال. وصل جيشنا إلى بوكيّرة في اليوم الثامن من شهر سبتمبر، وقامت الفرق بقتل ثلاثة من المسلمين، وقطع سائر الأشجار ومحاصيل الذرة المختلفة في تلك المقاطعة؛ ثم مضى الجيش في الصباح الباكر من اليوم التالي إلى بيتريس في فيرّيرة. توجهت فرق الجنود للإغارة على الأراضي، فقتلوا خمسة مسلمين، وأسروا خمس من النساء، وقضوا ذلك اليوم بأسره في قطع الأشجار وتدمير المحاصيل. عندما تنامى إلى علم المسيحيين أن المسلمين قد عاودوا الدخول إلى ديارهم في بوكيّرة عقب رحيل المسيحيين منها، دفعهم ذلك السبب - بالإضافة إلى رغبتهم في الانتهاء من تدمير المزروعات- إلى توجه جمع غفير من الرجال ليغيروا فجراً على تلك الطاعة، حيث تمكنوا من إحداث نوع من الأثر.

مكث الجيش في بيتريس منذ التاسع من شهر سبتمبر وحتى اليوم السابع عشر من الشهر ذاته، حيث عثر الجنود في منازل تلك الطاعة على كميات وفيرة من الزبيب، والتين، والجوز، والتفاح، ونبات القسطل، وغيرها من الفواكه التي تشتهر بها تلك الأراضي، والعسل، وشيء من القمح والشعير -وإن كان قليلاً. كما أن الجنود لم يتوقفوا عن البحث عن الأماكن الخفية التي خبأ فيها المسلمون الثياب. توجه موكبان كثيفان من ذلك المعسكر لجلب المؤن التي تم إيداعها من أجل ذلك الغرض في أورخيبا. لم يضيع القائد العام الوقت دون أن يولي عنايته للأمور الأكثر أهمية، والتي تمثلت

فى شن الحرب -من الآن فصاعداً- بواسطة كتائب من الجنود غير النظاميين تجوب الأراضى للبحث عن الأعداء، ووضع حاميات من الجنود فى المواضع المهمة، فى أثناء إقامة حصن فى محيط كنيسة بيتريس، وإيداع خمسمائة من الجنود به على غرار الحامية. كما أرسل ألفًا وخمسمائة من المشاة وعشرين من الفرسان -مقسمين إلى كتيبتين- للإغارة فجراً على بلدة تريبيليث فى اليوم الرابع والعشرين من شهر سبتمبر، بعد أن أصدر إليهم أوامر بالمكوث هناك على مدار يومين لتدمير الأراضى الزراعية والسعى لنحر كل من يعثرون عليه من المسلمين؛ وقد رافق السيد ميغيل دى مونكادا تلك القوات.

توجه السيد ألونسو ميخيًا لمهاجمة بعض الكهوف الكائنة على الجهة الأخرى من النهر، والتى تمر أسفل بيتريس، بينما ذهب قادة آخرون إلى مواضع أخرى؛ وقد أحدثوا جميعًا آثاراً طيبة، وعادوا محملين بغنائم من الأسيرات المسلمات ورؤوس الماشية، بعد أن خلّفوا وراءهم عدداً من القتلى المسلمين الذين كانوا يجوبون الأراضى بمفردهم. كما قاموا بتخريب سائر الأراضى الزراعية، وجلب بعض الأسرى -كان من بينهم رجل مسلم نبَّه المسيحيين إلى كهف موجود فى أحد الجبال لم يكن أحد ليتمكن من العثور عليه. وجد الجنود فى الكهف شيئًا من الدقيق والقمح والشعير كان المسلمون قد خبَّأوه، وقد عرض عليهم الأسير المسلم أن يكشف لهم عن كهوف أخرى، ووعده القائد العام بمنحه حريته فى مقابل ذلك. بيد أن نفراً من الجنود الذين كانوا يرافقونه أردوه قتيلاً بعد أن استشعروا إطلاق النفير، وهو ما أثار ضيقًا شديداً لدى القائد العام، لأنه لم يكن بالإمكان تلافى وجود الكثير من الكهوف السرية، ولم يكن لديه شخص محل ثقة ليبين أماكنها للمسيحيين.

فى أعقاب تأمين الحصن، وجلب المؤن والذخيرة المتبقية فى أورخيبا والبادول، خلّف القائد العام لقوات قشتالة القائد المالقى إيرنان باثكيث دى لوايستى Hernán Vázquez de Loaysti فى ذلك المعقل مع خمسمائة من الجنود، بعد أن أمره بأن يغير على أراضى ذلك الإقليم ويعيث فيها فساداً. وفى الثامن عشر من شهر سبتمبر انطلق

القائد العام صوب خوبيليس، وبعث فى ذلك اليوم بألف ومائتين من المشاة وسبعين من الفرسان ليعاودوا الهجوم على تريبيليث و على ذلك الجبل بأسره، حيث أدرك أن المسلمين قد عادوا إلى تلك النواحى فى حماية الموريسكيين المسالمين الذين طالما ساعدوهم عن طريق إمدادهم ببعض المؤن. توجه الجيش للانضمام إلى الجيش الآخر الذى كان بانتظاره فى كاديار، وذلك بعد أن خلّف وراءه طاعات بوكيّرة وفيريرّة وخوبيليس وقد منيت بقدر هائل من التدمير وتخريب الأراضى الزراعية، حتى أنه لم يتبق بها ما يمكن الانتفاع به سوى كميات ضئيلة من عرانس الذرة -على الرغم من أن المسلمين كانوا يودون الإفادة منها-، كما كان قد أقام المعقل فى بيتريس من أجل قطع دابر المسلمين والحيلولة دون رجوعهم وفقما يحلو لهم، والقيام بنحر الموجودين منهم فى تلك البقعة. صدرت الأوامر فى ذلك اليوم للقيام بغارات أخرى سوف نسوقها لاحقًا، لأننا سنعير انتباهنا الآن إلى دوق أركوس، الذى لم يكن يهيم دون جدوى فى أرجاء رُندة فى تلك الآونة.

الفصل الثالث

يتناول كيف خرج دوق أركوس ليشن هجومًا على الثوار فى جبل رُندة، وطرده إياهم من حصن أربوتو.

فى نفس الوقت الذى كانت تجرى فيه تلك الأمور فى البشرات، كان دوق أركوس -الذى عهد إليه جلالة الملك بتولى مسألة الثوار فى بقاع رُندة الجبلية[٣]- يتخذ الإجراءات الضرورية لتجهيز جيش ثالث فى تلك المدينة. فجمع أربعة آلاف من المشاة، ومائة وخمسين من الفرسان، وكمية من الزاد والذخيرة تكفى لخمسة عشر أو عشرين يومًا، ثم خرج فى حملة فى اليوم السادس عشر من شهر سبتمبر، وتوجه للإقامة على بعد فرسخ من حصن أربوتو. كان الأعداء قد حشدوا قواتهم هناك، وهو موقع وعر يصعب الصعود إليه، وقد قامت فيه الطبيعة بوضع تركيبات صخرية وكمية كبيرة من الأحجار المحاطة بالعديد من الجروف والوهاد فوق أكثر قمم ذلك الجبل ارتفاعًا، حتى أنها تبدو وكأنها حصن مصطنع قادر على استيعاب عدد كبير من الأشخاص. خلّف دوق أركوس فى رُندة لوبى دى ثاباتا Lope de Zapata -ابن لويس بونثى- من أجل أن يستقبل بالنيابة عنه المسلمين الذين يفدون لتسليم أنفسهم ويقوم بإرسالهم إلى البقاع الداخلية، حيث أن جلالة الملك لم يشأ قط أن يغلق الباب أمامهم، لأن جلالته لم يكن يهدف سوى لإرساء الهدوء والأمان فى تلك المملكة.

لم يحضر سوى نفر قليل من المسلمين لتسليم أنفسهم، لأنهم كانوا مستائين من مقتل البرقوشى، ومن رؤيتهم لخرق المسيحيين لصكوك الأمان التى منحها دوق أركوس

---

(٣) انظر الفصل الأول. (المترجمة)

للأهالى فى رُندة ومربلة، ووفاة ما يقرب من مائة مسلم من المستسلمين لدى مغادرتهم لبلدانهم. لم يوقف الدوق مسيرته من أجل معاقبة المذنبين، لأن أى تأخير كان سينجم عنه الإضرار بالقضية الأساسية، بيد أنه قام فيما بعد بإخطار جلالة الملك بما جرى، فبعث جلالته قاضياً تولى محاسبة الجناة. فى أولى الليالى التى قضاها الدوق فى البقعة التى يطلق عليها فوينفرياً[٤] Fuenfrúa، اشتعلت نيران فى المخيم، ولم يعرف مصدرها، وتم بذل جهد بالغ لإخمادها. فى اليوم التالى بادر دوق أركوس بتفقد الحصن مع ألف من المشاة وخمسين من الفرسان، وشاهد موقع مبيت الأعداء وأماكن المياه، وذلك من أعلى جبل أربوتو المواجه لها؛ وعلى الرغم من أنهم بدوا وكأنهم خارج تحصيناتهم فإنه لم يهجم عليهم، لأن الوقت كان قد أمسى متأخراً، كما أنه كان ينتظر وصول القوات الآتية من مالقة.

فى اليوم التالى أقام دوق أركوس نقطة حراسة على ذلك الجبل، ليس من دون مقاومة من جانب الأعداء، الذين قاموا خلال بعض الوقت بمهاجمة جنود الحراسة ومعسكر الجيش، وخاضوا معركة بطيئة وموسعة استمرت على مدار ثلاث ساعات. كان قوام المسلمين ثمانمائة رام، وكان بعضهم يمتلك أسلحةً يدوية حادة، فحينما رأوا أن ذراعين من الجنود المسيحيين المسلحين بالبنادق قد احتلوا قمة الجبل، تراجعوا إلى حصنهم بعد أن ألحقوا برجالنا أضراراً طفيفة، ولحقت بهم هم بعض الخسائر. قام الدوق بتعزيز الحراسة على ذلك الموضع وإضافة فرقتين من المشاة، لكونه موقعاً ذا أهمية، حتى وصول أرّيبالو دى ثواثو -المأمور القضائى لمدينة مالقة- فى الثامن عشر من شهر سبتمبر يرافقه ألف من المشاة ومائة من الفرسان. وقد قام الدوق إبان وصوله بتحسين موقع المعسكر، ليضحى أكثر قرباً من الأعداء الذين كانوا يحاولون الإيحاء بامتلاكهم أعداداً هائلةً من الرجال.

فى أعقاب ذلك صدر القرار بالهجوم على الحصن، وفى العشرين من شهر سبتمبر قام دوق أركوس بتوزيع القوات، وأصدر أوامره إلى القادة حول النسق الذى ينبغى

(٤) تعنى باللغة العربية "العين الباردة". (المترجمة)

عليهم اتباعه عند ارتقاء الجبل، وأوضح لهم الأماكن التى يتوجب عليهم الذهاب إليها: حيث أمر بدرو بيرموديث دى سانتيس أن يحتل برفقة أحد أذرع قوات الدعم قمتى الربوتين المؤديتين إلى الموقع الذى يشغله الأعداء، على أن يقوم القائد بدرو دى مندوثا مع مجموعة أخرى من الجنود بتأمين ظهورهم من الجهة اليسرى. أما الدوق فقد استبقى لنفسه -مع ألف وخمسمائة من المشاة، بالإضافة إلى قوات المدفعية وسلاح الفرسان- تأمين البقعة الكائنة إلى اليمين من قوات بدرو بيرموديث، وهو مكان أقل وعورة وأكثر انكشافًا، حيث يوجد فيما بين الموقعين فضاء يتميز بوعورة التضاريس، كان المسلمون قد أحرقوه حتى يتسنى لهم التجول من أعلى الصخور بشكل أفضل. كما صدرت الأوامر إلى أرّيبالو دى ثواثو لكى يصعد الجبل إلى اليمين من قوات الدوق مع الجنود التابعين له، ويتقدمهم ذراعان من حملة البنادق؛ على أن يمضى أمامه -على الجهة ذاتها- لويس بونثى مع ستمائة من الجنود المسلحين بالبنادق، عبر غابة من أشجار الصنوبر، وهو موقع يعد خاليًا عن المواضع الأخرى.

كان النسق الذى تم الاتفاق عليه هو أنه لدى خروج القوات من المعسكر يحتمى الجميع بسفح الجبل الذى يوجد به الموقع الذى يشغله العدو، وبأحد الأودية التى شكلّها جدول مياه شديد العمق يقع أسفل الجبل؛ ثم يصعد الرجال رويدًا رويدًا للاحتفاظ بقواهم، على أن يبادروا بالهجوم لدى تلقى الإشارة التى سيتم إطلاقها. على هذا النحو تمت محاصرة الجبل بأسره ما عدا الجزء الموجود عند إستان، والذى لا يمكن فرض حصار عليه لما يتسم به من وعورة؛ وكان رجالنا متلاحمين للغاية حتى أنهم بدوا وكأنهم يمسكون بأيدى بعضهم بعضًا. عقب توزيع الذخيرة على حملة البنادق وتزويد القادة بما يلزم لليوم التالى، أصدر الدوق أوامره إلى بدرو دى مندوثا لكى يتقدمهم مع القوات التى يترأسها بالإضافة إلى عدد من الجنود الممهدين للطريق من أجل توطئة بعض المعابر التى كان يتعين على سلاح الفرسان سلكها. حينما رأى المسلمون أنه قد حاد عن الطريق، وذهب إلى بقعة تراءى لهم أن الجيش لن يتمكن من إغاثته فيها على عجل، انفصل جمع من الرماة عن الركب، وخرجوا مع حلول المساء للاشتباك معه بإطلاق بعض الأعيرة النارية العشوائية، بعد أن تخلف القدر الأكبر من القوات

لينصبوا له كميناً. كان بدرو دى مندوثا شديد الاعتداد بنفسه، فظن أنه سيستطيع الامتثال للأوامر والبقاء فى موقعه دون التعرض للأخطار، فهب لقتال الأعداء فى استبسال شديد، وقد انفرط عقد الجنود الذين أخذوا يصعدون الجبل بدون نظام، ودون أن ينتظر بعضهم بعضاً؛ بينما كان الأعداء يتراجعون فى بعض الأحيان، ويعيدون تشكيل صفوفهم فى أحايين أخرى، كما لو كانوا يحكمون الخناق على رجالنا لإيقاعهم فى الفخ.

حينما شهد بدرو دى مندوثا الخطر المحدق بجنوده، وأدرك عدم قدرته على درئه -لأنه لم يكن بوسعه إيقاف الرجال-، أرسل تنبيهًا إلى دوق أركوس حول ما جرى، عندما كان ذلك الأخير قد بعث بثلاثة من القادة لإعادة القوات، مما تعين معه خروج الدوق بشخصه إلى أعلى الجبل لتفقد موقع المعركة. اخترق الدوق ومن يرافقه من الرجال، بالإضافة إلى من تسنى له حشده من القوات، جموع الجنود الذين انفرط عقدهم وأخذوا يصعدون الجبل، وكان يتمتع بنفوذ شديد خوّل له توقيف الجنود غير المنضبطين المنفصلين عن الركب؛ أما المسلمون الذين كانوا قد شرعوا فى الكشف عن أنفسهم فقد احتموا بالحصن، ولمّا كان الليل قد شارف على الحلول فقد أُتيحت لهم الفرصة لإحداث أضرار فادحة. حينما ألفى الدوق نفسه وقد أمعن فى التقدم عندما اكتشف حشود الأعداء المتربصة، وأنه بات من المستحيل أن يستطيع الحيلولة دون صعود الجنود العصاة، أراد أن يستفيد من عدم انضباطهم، فقام مع أكبر عدد تسنى له جمعه من الرجال بالهجوم على الحصن فى آن واحد، وقد دنا منه كثيراً حتى أنه كان من أوائل من دلفوا إليه.

لم يجرؤ المسلمون على الانتظار، وصاروا يتدلون بالحبال من مواضع متفرقة من الجبل -الذى كان عاليًا وممتداً-، وهنا تفرق جمعهم: حيث ذهب بعضهم إلى النهر الأخضر، بينما توجه البعض الآخر صوب إستان، كما رحل أناس إلى موندا، وسار آخرون إلى جبل بلانكيًا، بعد أن خلّفوا وراءهم خمسمائة من النساء والأطفال

فى قبضة المسيحيين. وهكذا تم الظفر بحصن أربوتو واسع الشهرة ومهاب الجانب، وإن لم يكن الهجوم قد سار وفقًا للنسق المميز الذى أراد الدوق تطبيقه، كما قُتل بعض رجاله بعد أن قاتلوا المسلمين على مدار ثلاث ساعات أو يزيد. نظرًا لانشغال الجنود بجمع الغنائم وحلول المساء لم تتم مطاردتهم، ولكن مع ظهور القمر خرج ألف وخمسمائة من الجنود المسلحين بالبنادق إلى الجهة التى ظن رجالنا أن الأعداء قد فروا إليها، بيد أنهم عادوا إلى المعسكر عندما لم يتمكنوا من العثور عليهم.

الفصل الرابع

ويتناول ما قام به دوق أركوس لاستكمال تلك الحرب حتى عودته إلى رُندة.

في أعقاب الظفر بحصن أربوتو، منح دوق أركوس الإذن للمأمور القضائي لمدينة مالقة بالرحيل، أمراً إياه باستكشاف الأراضي، بينما مضى هو مع باقي الجيش إلى إستان في الثاني والعشرين من شهر سبتمبر، حيث تراءى له أنه من الضروري إقامة معقل في ذلك الموضع، الذي يمكن تزويده بما يلزم في يسر من كل من مدينتي مربلة ومالقة. قام الدوق في ذلك اليوم بإرسال أربع كتائب متفرقة من المشاة دون رايات أو طبول لشن غارات على الجبل باتجاه المكان الذي تراءى له أنه من الممكن أن يوجد به المسلمون، فقامت ثلاث منها بإحراق ثلاث سفن كبرى كانوا قد أعدوها ليعبروا فيها إلى بلاد المغرب. أما قائد الكتيبة الرابعة - القائد مورييو Morillo- الذي كان الدوق قد أمره بالإغارة على النهر الأخضر، فإنه لم يمتثل للأمر الذي صدر إليه، وتوجه مع رجاله للهجوم على قوات المالح عند إحدى الروابي التي كان أهل المنطقة يطلقون عليها ألبورنو Alborno؛ وقد منى رجالنا بالهزيمة لأنهم لم يكونوا على المستوى المطلوب. بادر القائد بالتراجع إلى أن أصبح على مشارف إستان، التي تقع على مسافة قريبة للغاية من معسكر جيشنا، حتى أنه كان بالإمكان سماع دوي البنادق والأسلحة النارية؛ وعندما راود الدوق الشك فيما حدث، بعث إليه بيدرو دي مندوثا لإنقاذه، وقد تمكن ذلك الأخير من اكتشاف وجود الأعداء، فاكتفى بتجميع نفر من الجنود الذين كانوا قد بادروا بالفرار، حيث أنه لم يكن يرغب في المضي قدماً خوفاً من أن يكون المسلمون قد نصبوا لهم كمائن.

توفى القائد موريبو فى أثناء القتال، حيث كان قد عاود الهجوم على المسلمين فى زخم النجدة التى وصلت إليه، وقد قُتل معه الجانب الأكبر من الرجال الذين كانوا يرافقونه. فى الوقت ذاته كان القائد فرانثيسكو أسكانيو Francisco Ascanio – الذى كان أرّيبالو دى ثواثو قد استبقاه فى موندا لشن غارات على تلك الأراضى فى صحبة القوات التابعة لألورا– يشعر بالجشع والرغبة فى الظفر بغنيمة طيبة، فعاد أدراجه إلى أوخين دون انتظار وصول ذلك الأخير، واصطحب معه ستين جنديًا فقط، بالإضافة إلى صاحب الحصن الذى كان يود مرافقته. وقد انقض عليهم المسلمون عند الميناء الكائن أعلى ذلك الموضع، فأردوه قتيلاً هو وصاحب الحصن وما يزيد على ثلاثين من الجنود، بينما لاذ الباقون بالفرار. كما تمكن المسلمون من إلحاق الهزيمة بسرية قوامها مائة جندى تابعة لشريش الفرنتيرة، وكان دوق أركوس قد بعث بها لحراسة رسول كان متجهًا من إستان إلى موندا لكى يحمل من هناك رسائل موجهة إلى جلالة الملك؛ فقتلوا بعض الجنود وسنحت الفرصة للرسول لكى يلجأ إلى موندا.

عندما رأى دوق أركوس أن الجانب الأكبر من حشود العدو موجود فى تلك الناحية، أرسل أوامره إلى أرّيبالو دى ثواثو لكى يرجع إلى موندا برفقة القوات التابعة لكل من مالقة وبلش؛ ثم كتب إلى السيد سانشو دى ليببا حتى يبعث إليه بثمانمائة من جنود غاليرا، وأرسل من يأمر بدرو بيرموديث أن يرحل إلى هناك تصاحبه القوات التابعة لرُندة، بينما ذهب هو مع من تبقى بحوزته من الجيش لانتظار وصولهم إلى موندا؛ فلمّا اجتمعت القوات كلها انطلق الجيش صوب أوخين. وقد قابلهم فى الطريق السيد ألونسو دى ليببا –ابن السيد سانشو دى ليببا– مع الجنود الثمانمائة. أدرك الدوق أن المسلمين ينتظرونهم على مسافة فرسخ من البلدة، فأمر بدرو بيرموديث أن يسلك الجهة اليسرى مع ألف من الجنود المسلحين بالبنادق، وأن يمضى السيد ألونسو دى ليببا إلى أوخين مباشرة عبر جبل يدعى نيغرال Negral، بينما سار هو مع الرجال الآخرين باتجاه كورباتشين Corvachin – وهى أراض تتسم بالوعورة الشديدة وبها وفرة من الأدغال. مضى الجميع على تلك الشاكلة حتى بلغوا أوخين –التى كان يوجد بها

المسلمون- فى آن واحد، فلمّا لم يجدوهم أخذوا يتوغلون فى الجبل حتى أضحوا على مشارف فوينخيرولا Fuengirola دون أن يعثروا سوى على آثار لعدد من الرجال فى أماكن متفرقة، لأن المسلمين كانوا قد انتشروا فى البقاع الجبلية.

رجع السيد ألونسو دى ليبيا مع رجاله إلى غاليرا لأنه لم يكن هناك ما يقومون به، كما شرع أرّيبالو دى ثواثو فى الإغارة على أراضى مالقة، بعد أن ترك أوامر إلى غابرييل ألكالدى دى غوثون(٥) - وهو رجل متفرد ومتفان فى خدمة جلالة الملك، ومسقط رأسه كاثارابونيلا- لكى يتولى حشد رجال من تلك البلدان ثم يمضى ليتفقد منازل النهر الأخضر، لكى يتمكن من قهر أى مسلم متهور قد يندفع من تلك الناحية. فما كان منه إلا أن اصطحب عشرين فارساً وعدداً من المشاة وسار يؤمن الأراضى، وقد قام بأمور على قدر من الأهمية لكونه رجلاً متمرساً فى ذلك المجال. بعد أن أمضى دوق أركوس عدة أيام فى موندا، ونظراً لهطول الأمطار الكثيفة التى تحول دون مكوث الجيش فى المخيم، ترك حاميات فى كل من: كالالوى، وإستان، وموندا، وتولوش، وغنارو Gnaro، وكارتاخيما Cartágima، وخوبريكى؛ ثم رحل إلى مربلة، ومنها إلى رُندة -التى بلغها فى اليوم الخامس من شهر أكتوبر- بانتظار أن ترد إليه أوامر من جلالة الملك حول ما يتعين عليه القيام به فيما بعد. لنعد الآن إلى جيش القائد العام لقوات قشتالة الذى كنا قد تركناه فى البشرات.

---

(٥) ربما كان هذا هو اسمه، وربما كان اسمه غابرييل ويشغل موقع عمدة قرية اسمها غوثون. إن عدم استخدام علامات الترقيم فى النص الأصلى يؤدى أحياناً إلى هذا الخلط. (المراجع)

الفصل الخامس

ويتناول التقدم الذى أحرزه جيش القائد العام لقوات قشتالة منذ أن اجتمعت صفوف الجيشين وحتى عودته إلى كاديار.

فى ذات اليوم الذى وصل فيه القائد العام لقوات قشتالة إلى كاديار، أرسل وحدات الجيش الإسبانى التابعة لكل من: خوان دى سوليس، وبارتولومى بيريث ثوميل والسيد بدرو دى بارغاس، لتولى مهمة حراسة الأمتعة المتوجهة لجلب الإمدادات من أدرا. كانت القوات قد توجهت إلى تلك الأرجاء مرتين مع السيد بدرو دى باديّا وأنطونيو مورينو قبيل مجىء القائد العام، وقامت بنهب بلدة لوكاينينا؛ فكانت الأوامر التى أصدرها إليهم هى أنه ريثما يقوم بارتولومى بيريث ثوميل بالعودة مع موكب الإمدادات إلى بيرخا لتأمينه -لأنه كان يتعين على الرجال المكوث لمدة يوم لتحميل الأمتعة-، تتولى وحدتا الجيش الباقيتان الإغارة على دالياس مع فجر يوم الخميس، وأن تسعيا لقتل كل من يوجد بها من المسلمين وتدمير الأراضى الزراعية؛ على أن تتوجه الوحدتان للانضمام إلى موكب تأمين الأمتعة فى بيرخا يوم الجمعة، ليرجع الجميع إلى معسكر الجيش فى يوم السبت. عاد الجنود الذين كانوا قد توجهوا للإغارة مرة ثانية على طرابلس، وجلبوا معهم مائة وعشرين مسلمةً، وألفين من رؤوس الأغنام، ومائة بقرة، وخمسين متاعًا؛ كما قاموا بقتل عدد من المسلمين. حضر فى اليوم ذاته كل من السيد لوبى دى فيغيروا والسيد رودريغو دى بينابيديس -اللذان كانا قد ذهبا لشن هجمات على السهل- ومعهم ثمانون مسلمة، بعد أن خلّفا وراءهما بعضًا من القتلى المسلمين، وقاما بإحراق ثلاث سفن فى حالة جيدة جدًا كان المسلمون قد أعدوها ليعبروا فيها إلى شمال إفريقيا.

حضر كذلك رجال آخرون كانوا قد ذهبوا إلى أرجاء أخرى وشنوا حملات ناجحة للغاية، حتى أنه بحلول يوم الثانى والعشرين من شهر سبتمبر كانت قواتنا قد جلبت إلى المعسكر ألفًا ومائة أسيرة، واستولت من المسلمين على كميات من المواشى والأغنام والأمتعة، وقامت بتدمير الأراضى الزراعية فى محيط الإقليم، وأمنت الأراضى، حتى أنه فى اليوم الحادى والعشرين من شهر سبتمبر تمكن موكبان من الخروج معًا وفى يوم واحد، ليتجه أحدهما إلى أورخيبا والآخر إلى بيتريس لجلب ما بقى بالبلدتين من مؤن، مع وجود ثمانية من وحدات الجيش الإسبانى العشرة خارج المعسكر للإغارة على الأراضى. تم شن حملات على سائر بقاع البشرات دون استثناء السهل أو دالياس، كما تم الهجوم على بعضها مرتين أو ثلاث مرات، وأحرق الجنود كميات لا حصر لها من أنواع الذرة المختلفة، وعثروا على كميات ضخمة من القمح والشعير فى الكهوف. أحضر الجنود إلى المعسكر فى ذلك اليوم مائتى مسلمة بعد أن أردوا ما يقرب من ثمانمائة من المسلمين قتلى. أمر القائد العام لقوات قشتالة بإطلاق الرصاص على عشرين مسلمًا، وكان قد قضى بقتل أربعة من رجالاتهم البارزين فى اليوم المنصرم، وقد كان من بينهم ميغيل دى إيرّيرا – قائد بيتريس الذى كنا قد ذكرنا آنفًا أن ماركيز مونديخار كان قد عهد إليه بأسيرات خوبيليس[٦]–؛ كما لم يتم الإبقاء على حياة أى ممن تم إلقاء القبض عليهم ممن بلغ عمره عشرين عامًا.

شرع الجيش فى إقامة حصون فى كل من: كاديار، وكوخوريو، وبيرتشول، وميثينا دى بومبارون، وخوبيليس، من أجل إيداع جنود بها على غرار الحامية لكى يداوموا على شن الغارات على تلك الأراضى باستمرار، حتى لا يتبقى للمسلمين مواضع يقيمون بها. أسفرت تلك الغارات عن إحكام الخناق والتضييق الشديد على الأشقياء، الذين لم يعودوا يشعرون بالأمان فى جبل أو كهف أو وهد. فى يوم التاسع والعشرين من شهر سبتمبر توجه أحد مواكب الأمتعة إلى قلهرّة لجلب المؤن، وقد اصطحب ما يزيد على ألف مسلمة بحيث تبقى فى المعسكر عدد يقل عن ذلك بعض الشىء،

---

(٦) انظر الجزء الأول، الكتاب الرابع، الفصل الثالث والثلاثين. (المترجمة)

بعد أن كان رجالنا قد ذبحوا أربعمائة آخرين من المسلمين، وأعدموا ستة وثلاثين منهم. تم إلقاء القبض على مائتين وستين فرداً في كهف ميثينا دي بومبارون، وتسبب الدخان الكثيف الذي أحدثه رجالنا في اختناق مائة وعشرين آخرين. كما شُنق ستون شخصاً آخر في كهف ثان يقع على مقربة من بيرتشيل، وكانت بينهم زوجة ابن عبو واثنتان من بناته؛ وكان هو بالداخل، بيد أنه استطاع الخروج من فتحة سرية مع اثنين فقط ممن تمكنوا من اللحاق به. توفي ستة وثلاثين شخصاً في كهف كاساريس، بينما أُلقِي القبض على اثنين وستين فرداً آخر على قيد الحياة في كهف تيار Tíar؛ وقد عثر في الكهوف جميعاً على الكثير من الأسلحة والمؤونة والثياب. تم الاستيلاء على كهوف أخرى أصغر حجماً من المسلمين بقوة السلاح، وقد هجر المسلمون بعض الكهوف الأخرى حينما شهدوا الدمار الذي حل بجيرانهم؛ وفي نهاية الأمر فقد سلبت منهم جيوشنا مأواهم الأخير.

في أعقاب انتهاء القائد العام لقوات قشتالة من إقامة المعاقل الأربعة(٧)، وتركها مزودة بالرجال والمؤن التي تكفيها على مدار شهر، مضى إلى أوخيخار في ثالث أيام شهر أكتوبر، وأودع بها إحدى وحدات الجيش التي ترافقه، كما ترك وحدة أخرى في لاروليس، ليكون هكذا قد أقام بهما معقلين؛ ثم رحل إلى بيرخا ودالياس من أجل أن يقيم معقلين آخرين، لكي يتم الانتهاء من إنشاء الأربعة في آن واحد -كما حدث بالنسبة للمعاقل الأربعة الأخرى-؛ وفي يوم الخامس عشر من شهر أكتوبر كان قد فرغ من إنشائها، وإمدادها بالمؤن والرجال. أرسل القائد العام لقوات قشتالة من مقر إقامته في دالياس السيد بدرو دي باديّا مع وحدة الجيش التابعة له، بالإضافة إلى الرماحين المائة التابعين لإيثيخا، من أجل شن غارات على مواضع إينيكس وفيليكس وبيكار، وبعد أن كان ذلك الأخير قد ذبح بعض المسلمين الذين كانوا يجوبون تلك الأرجاء، أصدر إليه القائد العام أوامر بأن يمضي إلى كانخايار، ويشن حملات على جبل غادور. وصلت تلك القوات إلى فيليكس مع بزوغ الفجر، وكانوا قد تلقوا تنبيهاً حول وجود عدد

(٧) ذكر المؤلف خمسة معاقل لا أربعة، ولعله سهو. (المراجع)

من المسلمين بها، وقبل أن يبلغوا البلدة خرج المسلمون جميعًا ترافقهم نساؤهم وبنيهم، وساروا إلى مدينة ألمرية يبتغون تسليم أنفسهم. قام رجالنا باقتحام المكان ونهبه، وأسروا بعض النساء والأطفال الذين كانوا قد مكثوا فى المنازل.

عندما تم تنبيه بعض رماحى إيثيخا إلى توجه أولئك المسلمين صوب ألمرية، قاموا بملاحقتهم؛ ولمّا كان عدد كبير من رفاقهم قد رحلوا منذ فترة طويلة دون أن يتسنى للباقين اللحاق بهم، أراد الآخرون أن يعودوا أدراجهم. بيد أنه كانت هناك أعداد كبيرة من المسلمين يتنادون للتجمع فى الأراضى، حتى أنهم عزموا على المضى قدمًا؛ وقد وصلوا إلى المدينة فى الوقت الذى كان السيد غارثيًا دى بيًا روّيل قد فرغ فيه من قبول المسلمين والمسلمات الذين سبقوهم إليه. عندما ود الرجال أن يتم منحهم سائر المسلمين كعبيد، لم يرغب السيد غارثيًا دى بيًا روّيل فى القيام بذلك، وقال إنهم أحرار بمقتضى المرسوم الذى أصدره جلالة الملك، وإنهم حضروا من أجل تسليم أنفسهم وقد عهد إليه جلالة الملك بقبولهم. دار بعض الأخذ والرد فى هذا الصدد، وهو ما نجم عنه إتيان بعض الرمّاحين بأفعال وأقوال غير لائقة، فأمر السيد غارثيًا باعتقالهم. شكا تيّو غونثاليث دى أغيلار إلى السيد خوان دى أوستريا من تلك المسألة، فأرسل سموه قاضيًا للفصل فى تلك القضية، فأمر بإطلاق سراح الرمّاحين وقضى بمنحهم كل أولئك المسلمين عبيدًا لهم.

مكث السيد بدرو دى باديًا والقائد تيّو غونثاليث دى أغيلار فى كانخايار لعدة أيام، وقاما بشن غارات على تلك الأراضى قاطبةً وتأمين القرى الخاضعة، إلى أن صدرت إليهما الأوامر بإجلاء قاطنيها ونقلهم إلى البقاع الداخلية. فى تلك الآونة قام السيد سانشو دى ليبا -الذى كان يجوب أرجاء الساحل بالسفن- بإيداع قوات فى كل من: بابيتا Bábita، وكاستل دى فيرّو (القلعة الحديدية)، وألبونيول، امتثالاً للأوامر التى صدرت إليه فى هذا الصدد. كانت الغارات متواصلة على الدوام، وتم أسر ما يربو على ثلاثة آلاف مسلمة وطفل، وقُتل ما يقرب من ألف وخمسمائة من المسلمين. كما تم الظفر بستة كهوف تتميز بضخامة الحجم، حتى أن رجالنا عثروا فى اثنين منها

فقط على حوالى ثمانمائة فرد. أما الكهف الأخير الذى استسلم من به فى العاشر من شهر أكتوبر -وكان موجوداً فى ديتيار Détiar -فقد كان بداخله مائة من أهالى الأراضى المسلمين، وثلاثون من بلاد المغرب، وأحد الأتراك -كانوا جميعًا مدججين بالأسلحة-، بالإضافة إلى ثلاثمائة امرأة وطفل. كما استسلم السيد فرانثيسكو دى كوردوبا -وهو ابن عم ابن أمية، وكنا قد أسلفنا ذكره فى الفصل السادس عشر من الكتاب التاسع- فى كهف آخر يعلو بلدة مورتاس المشرفة على البحر؛ وقد استسلم كذلك أحد أشقائه، واثنان من القادة الأتراك، وواحد من أبناء عمومة ابن عبو الذى استطاع لاحقًا الفرار من قبضة الجنود الذين كانوا يقتادونه إلى محبسه. وقد أبقى القائد العام لقوات قشتالة على حياة أولئك الرجال، وأمر فيما بعد باقتيادهم إلى السفن(٨).

عقب القضاء على المعاقل التى سبق الإشارة إليها دون أى مقاومة من الأعداء، الذين أُجبروا على التعرض للفاقة الشديدة، بات أولئك يفرون من كهف إلى آخر برفقة نفر من المعاندين على شاكلتهم؛ فلم يكونوا يجرؤون على المكوث نهاراً فى نفس البقعة التى قضوا بها وقتًا من الليل، لأن القائد العام لقوات قشتالة كان يعاود شن الغارات بوحدات جيشه المنتشرة فى شتى الأرجاء. عقب زيارة المعاقل، توجه القائد العام إلى أوخيخار فى طريق عودته فى السادس عشر من شهر أكتوبر ، ليصل إلى كاديار فى التاسع عشر من الشهر ذاته. وجه رجالنا ضربة إلى المسلمين كانت قاصمة وناجحة كسابقاتها، حيث ظفر رجالنا بالعديد من الكهوف، ورجع الجنود إلى المعسكر ومعهم الكثير من المسلمين والمسلمات الذين ألقوا القبض عليهم؛ وقد قام القائد العام لقوات قشتالة بإرسال بعضهم إلى السفن، وأعدم البعض الآخر، بينما وافق على أن يقوم الجنود ببيع الجانب الأكبر منهم لكى يتربحوا منهم. كان الجزء الغالب من المسلمين الذين تم إلقاء القبض عليهم وقتلهم فى ذلك الوقت ممن حضروا لتسليم أنفسهم فى

(٨) أرسل الرجال ليقضوا عقوبتهم فى التجديف على متن السفن، وكان ذلك أمراً معتاداً آنذاك. (المترجمة)

سند وادى آش، وكان الكثيرون منهم قد عادوا إلى مواضعهم، وعثر الجنود على صكوك الأمان التى مُنحوا إياها فى صدورهم. على الرغم من أنهم قالوا إنهم قد قدموا من أجل جلب أقربائهم وأصدقائهم لتسليم أنفسهم، فإن أقوالهم لم تعد عليهم بالنفع، لأن الأنباء التى وردت من هناك كانت تتنافى معها.

فى أثناء الزيارة التى قام بها السيد دييغو دى ليبيا لأحد المواقع الموكلة إليه خلال تلك الأيام، والتى رافقه فيها تسعة من جنود المشاة المسلحين بالبنادق وخمسون من الفرسان التابعين للواء دييغو ميرلين دى أبالوس Diego Merlín de Avalos، قام كل من: غارثيا الثايكال García el Zaycal، والبيثى دى خيرغال Bayzi de Gérgal، والنجار Naguar، مع مائتين من مسلمى الكتائب التابعة لهم بنصب كمين له، وانتظروه فى أحد المعابر القديمة الكائنة ما بين تابيرناس وخيرغال، عند مهبط بيليلشى Belelche. وقد خرجوا من مكمنهم على حين غرة لحملة البنادق الذين كانوا فى الطليعة وحملوهم على الفرار، وقد تبعهم الفرسان. كان بمقدور السيد دييغو دى ليبيا التراجع فى ذلك اليوم لو كان يرغب فى ذلك، بيد أنه تصدى لهم لكونه فارسًا مغوارًا وبارزًا؛ وقد سعى للحيلولة دون فرار الجنود، وإنقاذ الأمتعة التى كانت تحوى قدرًا من النقود الخاصة بجلالة الملك. بيد أن جهوده ومساعيه الحثيثة لم تسعفه، لأن الطريق التى كان يسلكها كانت ضيقة، ولم يكن بإمكان الخيول التحرك فيها، أو باستطاعة الأمتعة العودة إلى الوراء. جُرح السيد دييغو على إثر تلقيه عيارين ناريين أحدهما فى الذراع والآخر فى الضلوع، فسحبه شقيقه السيد فيليبى دى ليبيا من ساحة النزال رغم إرادته. وقد وضع مسندًا على ظهر فرسه ذاته لكى يستند إليه ويحول دون وقوعه، إلى أن بلغا مدينة ألمرية التى مات بها متأثرًا بجراحه. أثبت ذلك اليوم مدى سوء معدن رجالنا، لأنه فيما خلا السيد فيليبى دى ليبيا، وحامل الإجازة سولير Soler -وكان مستشاره القانونى-، وستة من الفرسان، فقد لاذ الجنود الباقون جميعًا بالفرار وخلّفوا قائدهم وحيدًا فى قبضة الأعداء.

الفصل السادس

ويتناول الأوامر التى أصدرها جلالة الملك بشأن إجلاء كافة الموريسكيين الموجودين فى مملكة غرناطة -سواء المعاهدين منهم أو المستسلمين-، وإيداعهم فى بقاع داخلية.

كان جلالة الملك فى تلك الآونة قد أرسل يأمر السيد خوان دى أوستريا، ورئيس محكمة تفتيش غرناطة بدرو دى ديثا، ودوق أركوس -كلاً على حدة- أن يبادروا بكل ما أوتوا من همة وبأقصى سرعة تتسنى لهم تنفيذ الأوامر التى صدرت إليهم بشأن إجلاء الموريسكيين من مملكة غرناطة -سواء المستسلمين حديثًا أو من لم يقوموا بالثورة- وأن يودعوهم فى أماكن داخلية، لأن الأشخاص القليلين الذين بقوا فى الجبل إذا ما فقدوا الثقة فى إمكانية الاستعانة بهؤلاء، فسينتهى بهم المطاف إلى الاستسلام أو الهلاك. بينما كانت الأوضاع على الحال التى أشرنا إليها سلفًا فى البشرات وبقاع رُندة الجبلية، تلقى السيد خوان دى أوستريا رسالة مؤرخة فى اليوم الثامن والعشرين من شهر أكتوبر، ومحررة فى مدريد، تحوى الأمر الثانى والقرار الأخير فى هذا الصدد. لمّا كانت تلك القضية فائقة الأهمية، فقد اتصل أعضاء المجالس ببعضهم البعض، وقرروا العمل بالمرسوم الذى أصدره جلالة الملك ووضعه قيد التنفيذ قبيل خروج القائد العام لقوات قشتالة من البشرات، حيث أن الموريسكيين لم يعودوا يتوافدون لتسليم أنفسهم، كما أن العديد من المستسلمين صاروا يرجعون إلى الجبال؛ وقد تم الاتفاق على تطبيقه على النحو التالى:

يتوجه إلى قرطبة أهالى كل من: غرناطة، وغوطة غرناطة، ووادى ليكرين، وجبل منتميس، والشرقية، وهاوية مالقة، والبقاع الجبلية لرُندة ومربلة. ومن هناك يتم توزيعهم

على مواضع إكستريمادورا Extremadura، وغليقية، وأقاليمهما. أما أهالى وادى آش، وبسطة ، ونهر المنصورة فيذهبون عبر تشينشيًا والبسيط إلى لامانشا، ومملكة طليطلة، وحقول قلعة رباح ومونتييل، ومنطقة القديس خوان، وفى سائر أرجاء قشتالة القديمة Castilla la Vieja وصولاً إلى مملكة ليون. بينمايتنقل أهالى ألمرية بحرًا –على متن السفن التابعة للسيد سانشو دى ليبيا– إلى مدينة إشبيلية. هذا ولا ينبغى أن يذهب أى من المسلمين للمكوث فى مملكة مرسية، أو ماركيزية بيينا، أو المناطق الأخرى القريبة من مملكة بلنسية، والتى كان يوجد بها عدد غفير من الموريسكيين من سكان تلك الأراضى، لكى لا ينضموا إليهم، وأيضًا للخطر الذى سيمثله اتصال بعضهم ببعض. كما يتعين عليهم عدم الإقامة فى قرى أندلوثيا، لأنها تضم الكثيرين ممن اقتيدوا إلى هناك فى بدايات الأمر، والأمر هناك مستقر؛ علاوةً على ذلك فإن هناك صعوبات تتمثل فى إمكانية لجوء من يرغبون فى الهرب إلى الجبال القريبة.

كانت الأوامر التى صدرت إلى الأشخاص المنوط بهم اقتياد المسلمين هى أن تكون أولى نقاط التوقف –عقب مغادرة مملكة غرناطة– فى الأماكن الأكثر موائمة لكى يتم حملهم منها فيما بعد إلى المواضع التى سيمكثون فيها، من أجل مراعاة سلامتهم وراحتهم؛ بحيث لا يبرحوها، أو يتعرضون فيها للسرقة، أو يُحملوا منها إلى جهات أخرى، وهكذا يصيروا هم وأملاكهم فى أمان. وألا يتم السماح بفصل الأبناء عن والديهم، أو النساء عن أزواجهن فى أثناء الطريق أو فى الأماكن التى ينبغى عليهم البقاء فيها، بل أن يكون الأشخاص والمنازل متجاورين. فعلى الرغم من أنهم لا يستحقون مراعاة مشاعرهم، فإن جلالة الملك كان يود الإنعام عليهم بتلك المنة؛ وقد أمر جلالته أن يصحبهم –إلى جانب المحاربين– مندوبون وأشخاص محل ثقة من ذوى المكانة، وأن تكون معهم قوائم ومحاضر بالأفراد الذين عُهد بهم إلى كل قائد، لكى يتولوا نقلهم من بعض المواضع إلى مواضع أخرى، ويمدوهم بالزاد والرجال الذين يرافقونهم؛ كان ذلك يعنى أن المجموعة التى ستنطلق من غرناطة ستتوقف عند المرحلة الأولى.

على ضوء تعجل جلالة الملك فى إنهاء المسألة، ولما كان السيد خوان دى أوستريا رجلاً ليس بالمتباطئ، فقد بادر بإرسال الرسل إلى سائر الأرجاء ليستدعى الأشخاص الذين سيتوجب عليهم الاضطلاع بتلك المهمة. وقد أمرهم أن يقوموا فى أول أيام شهر نوفمبر -وهو اليوم الذى تحتفل فيه الكنيسة الكاثوليكية بعيد كل القديسين- بحبس جميع الموريسكيين -بغض النظر عن قدرهم أو مكانتهم- داخل الكنائس الموجودة فى البلدان التى سيتوجهون إليها؛ وأن يرافقهم المحاربون الذين سيتم توزيعهم على الأماكن من أجل ذلك الغرض، حتى يقوموا بإيداعهم فى البقاع الداخلية؛ وقد تم اتخاذ عدد من التدابير الضرورية من أجل أن تتم الأمور فى أجواء أكثر أمانًا. حيث صدرت الأوامر إلى ثلاثة آلاف رجل ينتمون إلى أندلوثيا وغيرها من المناطق الأخرى، ممن كانوا فى طريقهم لأداء واجبهم كجنود حامية فى المعاقل التى كان القائد العام لقوات قشتالة قد قام بإنشائها، لكى يتولوا إجلاء الموريسكيين من مملكة غرناطة أولاً؛ وأنه لزامًا على القائد العام -فى اليوم الذى يتوجب فيه على الجنود حشد الأهالى- أن ينشر قواته ويسيطر على الممرات الجبلية التى يمكن للرجال أن يعودوا عبرها إلى تلك القرى. وينبغى على السيد فرانثيسكو ثاباتا دى ثيسنيروس -سيد باراخاس Barajas الذى حصل فيما بعد على لقب كونت، وأضحى رئيسًا للمجلس الأعلى لقشتالة، وهو ما استتبع شغله لمنصب المأمور القضائى لقرطبة- أن يتوجه مع قوات تلك المدينة إلى غوطة غرناطة. كما يتوجب على السيد ألونسو دى كارباخال -سيد قرية خودار- أن يتولى مرةً أخرى تجميع رجال، على النحو الذى قام به من أجل إغاثة سيرون[٩]، ويتوجه بهم إلى جبهة بسطة.

وصلت قوات أندلوثيا المقسمة إلى جزأين إلى كل من غرناطة ووادى آش فى آن واحد. مضى القائد العام لقوات قشتالة مع جيشه من كاديار إلى بلدة بيتريس فى فيرّيرة، وفى أول أيام شهر نوفمبر كان قد بسط سيطرته على أربعة عشر معبرًا جبليًا، بواسطة أذرع كثيفة العدد من الجنود المسلحين بالبنادق. انطلق السيد فرانثيسكو

(٩) انظر الكتاب السادس، الفصل السادس والعشرين. (المترجمة)

ثاباتا دى ثيسنيروس من مدينة قرطبة فى مساء يوم الثامن والعشرين من شهر أكتوبر، وقد صحبه مائتان من الفرسان وألف من المشاة التابعون للمناطق الخاضعة لنفوذه، ليضحى فى الهندين -وهى إحدى مواضع غوطة غرناطة- فى الثلاثين من الشهر ذاته. كان قائدا سلاح الفرسان هما السيد لويس بونثى وألونسو مارتينيث دى أنغولو Alonso Martínez de Angulo، بينما ترأس قوات المشاة كل من: غوتييرى مونيوث دى بالينثويلا Gutierre Muñoz de Valenzuela، وإيرناندو خيبيكو Hernando Gebico، وبيرو إيرنانديث دى مونتيغرا Pero Hernández de Monegra، والسيد لويس دى كوردوبا، ولويس إيرنانديث دى كوردوبا -الذى كان يتولى منصب قائد الجنود.

كانت تلك القوات جميعها بكامل عتادها وعدتها، وكانت قد تزودت بالأسلحة والخيول، حتى أنها باتت خير ممثل لأبهة مدينتها وقائدها. وكان الجنود يرفعون الرايات والألوية التى تحمل شعار المدينة: وهو أسد متحفز لونه أشقر داكن على خلفية بيضاء، بالإضافة إلى قلاع وأسود تمثل الإطار. كان حملة الدروع يرتدون ثياباً ملونة، أما نافخو الأبواق والعازفون المصاحبون للقائد فقد لبس كل منهم قميصاً من المخمل القرمزى ومعطفًا صغيراً من قماش قرمزى سابغ، وكليهما مزدانان بالشرائط وكانت الحواشى مزركشة بخيوط ذهبية اللون؛ أما عازفوا الطبول والنايات فقد ارتدوا بزات حريرية ذات ألوان زرقاء وصفراء. كان أكثر ما تم ملاحظته بالنسبة لأولئك الرجال هو تنظيمهم الشديد وانضباطهم. كان السيد خوان دى أوستريا قد أصدر أوامره إلى السيد ألونسو دى غرانادا بينيغاس، وباقى المندوبين الآخرين الموكل إليهم المسلمين المستسلمين، لكى يتولوا إجلاء المقيمين منهم على مقربة من الجبال إلى أماكن أخرى أكثر بعداً عنها، بعد أن يُفهموهم أنهم يفعلون ذلك بغية عدم تعريضهم للخطر فى أثناء مغادرة رجال القائد العام لقوات قشتالة للبشرات.

فى أعقاب اتخاذ كافة الاجراءات اللازمة، تم حبس كافة الموريسكيين -رجالاً ونساءً وأطفالاً- داخل الكنائس والأماكن المحددة فى يوم الاحتفال بعيد كل القديسين، على الرغم من أن تلك المسألة جرت فى بعض المناطق فى إطار من التنظيم يقل عما

كان ينبغى الالتزام به. تم إيداع من تبقوا فى مدينة غرناطة، ومن تم تجميعهم فى بقاع وادى ليكرين وغوطة غرناطة، دون إثارة أى قلاقل أو أعمال شغب؛ ثم أُقتيدوا إلى المشفى الملكى فى غرناطة، وتم تسليمهم إلى القادة الموكلين باصطحابهم إلى مواقعهم: حيث حمل السيد فرانثيسكو ثاباتا خمسة آلاف من الأهالى، بينما رافق الباقين السيد لويس دى كوردوبا -قائد جنود تلك المدينة. قُسم الأهالى إلى قسمين، ونُظم كل منها إلى سرايا تضم ألفًا وخمسمائة من الموريسكيين -باستثناء الشيوخ والنساء والأطفال-، وقد رافق كل سرية مائتان من الجنود وعشرون من الفرسان وأحد المندوبين. اقتاد لويس إيرنانديث دى كوردوبا القسم الأول إلى إكستريمادورا وأراضى بلاسينثيا، بينما توجه القسم الثانى إلى مملكة طليطلة.

كان هناك عدد من الموريسكيين الغرناطيين الذين تم استبقاؤهم فى المرة الماضية، وسعيًا منهم لحدوث الأمر ذاته فى تلك المناسبة قاموا بمساع لدى سيادة رئيس المحكمة بدرو دى ديثا، وتضرعوا إليه لكى يكتب إلى السيد خوان دى أوستريا فى هذا الصدد. وقد أجاب بقوله إنه على الرغم من أن أولئك كانوا قد أظهروا رغبتهم فى خدمة جلالة الملك، فإنه لم ترد إليه أوامر من جلالته تفيد بتفضله عليهم بذلك الأمر فى الوقت الراهن، كما أنه لا يرى الإبقاء عليهم فى مملكة غرناطة. كما أنه كفل لهم -بعد مغادرتهم للمملكة قاطبةً فى غضون ثلاثة أيام- أن يدعهم المسيحيون يذهبون لحالهم، مع أسرهم وأملاكهم المنقولة، إلى البقاع والأماكن التى يرغبون فى ارتيادها، كما أنه سيتوسط بشأنهم لدى جلالة الملك، ويتضرع إليه عقب رحيله من المملكة، من أجل أن يأذن لهم فى الرجوع إلى ديارهم. تم حبس أهالى مدينة وادى آش، والأماكن التى تدخل فى نطاقها، وقرى سند وادى آش، على النسق ذاته وفى نفس التوقيت. كما قام دوق أركوس بتجميع من تسنى له منهم فى البقاع الجبلية التابعة لرُندة ومربلة، وبعث بهم برفقة أنطونيو فلوريس دى بينابيديس -المأمور القضائى لجبل طارق- إلى إيّورا، وهناك جمعوهم مع من حضروا من غرناطة إلى مدينة قرطبة.

أحكم السيد ألونسو دى كارباخال -سيد بلدة خودار- قبضته على الموريسكيين المنتمين إلى جبهة بسطة، ونظرًا لأنهم أقل من كان المسيحيون يأمنون جانبهم،

لأنهم كانوا فى معظمهم من الثائرين وممن لجأوا إلى الجبال، فقد قام بتجميعهم فى الكنائس بطريقة سلمية، بعد أن كان قد أودع نفراً من رجاله فى أثناء الليل فى المواضع التى كان يدرك وجود موريسكيين محل ريبة فيها، حيث أذاع أنه يود أن يوزّع عليهم كميات من القمح وثيران الحرث التى سيستخدموها فى زراعة الأرض فى هذا العام. وقد تمكن بهذه الطريقة، وأيضًا من خلال إطلاق سراح عدد من الموريسكيين - الذين كان الجنود قد ألقوا القبض عليهم وأحضروهم إليه، لأنهم وجدوهم قد حملوا أسلحتهم وتوجهوا إلى الجبل- من طمأنة الأهالى على نحو دفع الكثيرين منهم، ممن كانوا موجودين بالفعل فى الجبال، إلى العودة لديارهم. وقد صاحبهم فى مسيرتهم إلى البسيط -وهو المكان الذى كان ينبغى عليهم التوجه إليه وفقًا للتعليمات الصادرة إليه.

قام أريبالو دى ثواثو -المأمور القضائى لمدينة مالقة- ومن يرافقه من القوات التابعة لمناطق نفوذه من تجميع الموريسكيين الذين تبقوا فى الأماكن الخاصة به على نحو سلمى أيضاً، بيد أنه أوصل الأمور فى بدايتها إلى درجة عالية من الصعوبة، وكان يرغب فى التوسط بشأن عدد من الموريسكيين الذين لم يكونوا قد قاموا بالثورة، إلا أنه لم يكن هناك من سبيل للقيام بذلك، فاقتادهم -بمقتضى الأوامر التى أُرسلت إليه- إلى أنتيقيرة، وقد عبروا من هناك إلى إكستريمادورا وبلاسينثيا. أما أهالى إيثيخا وقرمونة فقد استاقهما غابرييل ألكالدى دى غوثون إلى تولوش وكاثارابونيلا. فيما يتعلق بالسيدين خوان دى ألاركون وميغيل دى مونكادا -اللذين عهد إليهما السيد خوان دى أوستريا فى تلك الآونة برئاسة معقلى نهر المنصورة- فقد خالفا إلى حد بعيد ما يجب اتباعه حيال إجلاء موريسكيى تلك الجبهة، وهو ما تسبب فى حدوث فوضى عارمة، وشروع الجنود الذين يحملون الأسلحة بين أيديهم فى قتل وأسر الأهالى المستسلمين؛ فلمّا شهد المسلمون ما حدث، قام الكثيرون منهم بحمل السلاح والصعود إلى جبل باكاريس. تولى السيد بدرو دى باديًا حشد موريسكيى جبهته بعد أن عانى تقريبًا نفس القدر من الاضطرابات، لأن الأهالى كانوا مقسمين على أنحاء شتى، مما صعّب من إمكانية حبسهم جميعًا فى الكنائس دون أن يفطن بعضهم إلى حقيقة ما يجرى.

كان ينبغى تجميع كافة الأهالى الآخرين فى ثلاثة مواضع. وقد حدثت فوضى عارمة للغاية فى أحد تلك المواضع -وهو الذى تواجد به القائد دييغو بينيغاس-، حتى أن الأوضاع أتاحت الفرصة للموريسكيين لكى يثوروا ويحدثوا قلاقل؛ فأشهر الجنود أسلحتهم وقتلوا ما يقرب من مائتى رجل، ليس من دون حدوث خسائر بين صفوفهم، حيث سقط منهم العديد من القتلى والجرحى. أما من تمكنوا من الفرار فقد صعدوا إلى جبل باكاريس، لينضموا منه إلى جموع الفارين الآخرين، ويشرعوا فى إحداث أضرار جديدة. قام الجنود بنهب منازل البلدة، واتخذوا سائر نسائها إماءً، وهو ما دفعنا للاعتقاد بأن جشع أولئك الجند كان هو السبب فى تلك الاضطرابات، بيد أن السيد بدرو دى باديًا وأدها فى مهدها عن طريق إطلاق سراح الموريسكيات، وإرسال من يقتادهن برفقة باقى أهالى الأماكن الأخرى من المستسلمين إلى مدينة ألمرية، ومنها إلى بيرا والبسيط. هذا وقد حمَّل السيد سانشو دى ليبيا أهالى ألمرية وأراضيها على متن السفن التابعة له، وأقلَّهم إلى مدينة إشبيلية.

وهكذا تم إجلاء الأمة الموريسكية من مملكة غرناطة، ولولا وقوع الاضطرابات التى أشرنا إليها، ما كان سيبقى بها سوى نفر قليل للغاية من أولئك الأفظاظ. وقد قام لاحقًا من بادروا بالفرار -أو الجانب الأكبر منهم- بمعاودة تسليم أنفسهم مرة أخرى، بعد أن أدركوا مدى المعاملة الطيبة التى يلقاها من يتوجهون إلى البقاع الداخلية؛ فتم قبولهم واقتيدوا معهم إلى هناك. أما من لم يرغبوا فى الأخذ بتلك النصيحة السديدة فقد لاقوا حتفهم. عبر الكثير من الموريسكيين إلى شمال إفريقيا، وانخرطوا فى خدمة ملك فاس عبد الملك Abdul Malic، حيث حاربوا مع قواته تحت مسمى الأندلسيين. وقد لعبوا دورًا ليس بالقليل فى إلحاقه الهزيمة بالسيد سيباستيان Sebastián -ملك البرتغال- فى الموقعة التى دارت على مقربة من نهر القصر الكبير Alcázar Quibir، حيث توفى بينما هو ذاهب لإعادة تلك الممالك إلى محمد الشريف Mahamete Xerife -ابن عبد الله- الذى كان عبد الملك قد عزله عن الملك بها، وذلك على النحو الذى سنورده فى الطبعة الثانية من كتابنا إفريقيا، والتى بمشيئة الرب سترى النور عما قريب.

الفصل السابع

ويتناول قيام السيد خوان دى أوستريا والقائد العام لقوات قشتالة بصرف المحاربين، وصدور الأوامر حول كيفية القضاء على الثوار المتبقين فى الجبال.

فى أعقاب إجلاء الموريسكيين من مملكة غرناطة على النسق الذى أشرنا إليه، وإيداعهم فى البقاع الداخلية، قام القائد العام بتوجيه الرجال الذين كان يتعين عليهم البقاء فى معاقل البشرات، ليتركها مزودة بما يلزمها، بعد أن أصدر إليهم أوامره بعدم التوقف عن شن الحملات على شتى الأرجاء. كما أمر كلاً من: فرانثيسكو دى أرّويو، ولويس دى أرّويو Luis de Arroyo، ورينالدوس Reinaldos، وليانـدرو دى بالنثـيـا، وخوان لوبيث، ودييغو رودريغيث Diego Rodríguez، ودييغو دى أورتيغا، وخوان خيمينيث Juan Jiménez، أن يتوجهوا برفقة الكتائب التابعة لهم من الجنود القرويين للإغارة على الأراضى. كانت تلك الكتائب تأتمر بأمر السيد إيرناندو أورتادو دى مندوثا Hernando Hurtado de Mendoza –الذى يشغل الآن منصب القائد العام لسواحل مملكة غرناطة–، الذى يسعنا أن نقول إنه قد وضع الخاتمة لثورة البشرات، حيث بات يلاحق الثوار المعاندين بشخصه ليلاً ونهاراً، وكان يرافق الكتائب مترجلاً شأنه كشأن كافة الجنود الاستثنائيين، إلى أن قضى عليهم فى الجبال والكهوف حيثما وجدوا.

فى أعقاب اتخاذ القائد العام لقوات قشتالة الإجراءات الخاصة بجبهة البشرات، توجه فى اليوم الخامس من شهر نوفمبر إلى مدينة غرناطة، وحينما بلغها منح المحاربين التابعين للمدن الإذن فى العودة إلى ديارهم. وكذلك فقد انطلق السيد خوان دى أوستريا

من وادى آش بعد ذلك بخمسة أيام، ليدلف إلى مدينة غرناطة فى الحادى عشر من ذات الشهر، وكان برفقته دوق سيسا. وقد تم استقبال سموه بحفاوة شديدة من قبل كافة أعضاء المحكمة والقائمين على شئون الحرب، لأنهم كانوا فى حقيقة الأمر يكنون له محبةً شديدةً. فى أثناء إقامة سموه فى غرناطة -والتى استمرت على مدار تسعة عشر يومًا- عمل على إصدار الأوامر حول كيفية القضاء على الثوار المسلمين الذين بقوا فى الجبال، وكذلك فى تسريح القادة والجنود الذين خدموا تحت لواء جلالة الملك مقابل أجر، ولم يعد هناك حاجة لوجودهم؛ حيث أمر بدفع الأموال المستحقة لهم، والإنعام عليهم ببعض المنن وفقًا لما هو متاح فى الوقت الراهن -وكان يرغب فى ألا يقل العطاء عن الخدمات التى قدموها خلال تلك الحرب. وبعد أن أصدر أوامره المتعلقة بمواكب الإمدادات التى ينبغى تزويد المعاقل بها فى موسم الشتاء الحالى، والكتائب التى يتعين عليها شن غارات على الجبال بشكل دورى من أجل ملاحقة ابن عبو والثوار الآخرين، انطلق فى الثلاثين من شهر نوفمبر صوب مدينة غرناطة من أجل حضور مجلس جلالة الملك، بعد أن حل محله القائد العام لقوات قشتالة.

أعقب ذلك بفترة قصيرة أن قام دوق أركوس بحشد رجال فى مدينة رُندة من جديد، وذلك بغية الانتهاء من استئصال المسلمين الذين يلحقون الأضرار بتلك الأراضى. فانطلق على أثرهم برفقة ألف وخمسمائة من حملة البنادق من الجنود والرجال التابعين لسادة الإقطاع، بالإضافة إلى ألف من رعاياه، وكل من تسنى له جمعه من الفرسان. كان قوام الأعداء يبلغ ثلاثة آلاف فرد، وكان من بينهم ألفان من الرجال المسلحين بالبنادق يتزعمهم ميلتشى، وقد أظهروا اعتزامهم الموت أو التصدى للهجوم على الجبل. حينما رُفع ذلك الأمر إلى علم دوق أركوس، أصدر أوامره إلى بدرو دى مندوثا لكى يقوم مع ستمائة جندى مسلحين بالبنادق بالتوجه إلى مصب النهر الأخضر عبر سفح الجبل. كما أمر لوبى ثاباتا Lope Zapata أن يذهب مع ستمائة آخرين من حملة البنادق صوب غايمون Gaimon، عند المنطقة الكائنة باتجاه قرى موندا، بحيث يضحى أحدهما على مسافة نصف فرسخ من الآخر؛ بينما شرع هو فى السير فى تلك المساحة الخالية بينهما مع من تبقى من القوات.

قام بدرو بيرموديث الذى كان يتولى الميمنة بإصدار أوامره إلى كارلوس دى بييغاس Carlos de Villegas -الذى كان يضطلع بتأمين إستان وأوخين مع فرقتين من المشاة وخمسين من الفرسان- لكى يسعى هو ومائتان من حملة البنادق إلى السيطرة على أعلى الجبل، وعلى المنطقة الكائنة خلف الموضع الذى يشغله العدو فى آن واحد. كما أمر أرّيبالو دى ثواثو أن ينطلق من مالقة برفقة ألف ومائتى جندى وخمسين من الفرسان، ويتوجه معهم إلى جبهة موندا. انطلقت القوات فى نفس الوقت من الليل، حتى تصبح وقد بلغت الأعداء، الذين تنبهوا إلى الأمر من خلال سماعهم دوى بعض الأعيرة النارية، أو عبر ما نقله إليهم أحد الجواسيس؛ فهجروا الموقع الذى كانوا يحتلونه، وحسنوا من وضعهم بالانتقال إلى المنطقة التى يشغلها بدرو دى مندوثا -وكانت الجبهة الخلفية- لأن مخرجها كان أكثر اتساعًا. شرع الدوق فى ارتقاء الجبل، وبادر بدرو دى مندوثا إلى القتال فى الوقت ذاته، بينما داوم الأعداء على تحسين أوضاعهم. على الرغم من أن الدوق كان يبتعد عن بدرو دى مندوثا قليلاً، فإنه لدى سماع الأعيرة النارية أدرك أنه يقاتل فى تلك الجبهة، فدنا منه عبر سفح الجبل. ولّما صار على مشارف مكان المعركة القائمة، انقض على الأعداء مع كل من تسنى له جمعه من حملة البنادق والفرسان، بعد أن جعل ولده -السيد لويس بونثى- بالقرب منه.

احتدم القتال لبرهة من الوقت بين كلا الجانبين، ولّما لم يعد بمقدور المسلمين المقاومة صعدوا إلى أعلى الجبل، ومن هناك غادروا مدحورين بعد أن قُتل منهم ما يربو على مائة شخص، كان من بينهم ميلتشى؛ ولو كانت القوات قد بادرت إلى التحرك فى الساعة التى حددها لهم بدرو بيرموديث وكارلوس دى بييغاس لأحدثت المزيد من الأثر. فى أعقاب ذلك تولى الدوق تقسيم الرجال إلى فرق تسعى إلى اقتفاء أثر المسلمين، فقتلوا منهم ثمانين آخرين حيث لم يعثروا على المزيد من الرجال؛ وبذلك عادت القوات أدراجها إلى رُندة، ووُضعت نهاية للحرب فى تلك الجبهة. لّما كان لابد للقائد العام لقوات قشتالة من الذهاب فى الحملة التى شنتها قوات التحالف الذى شكّله الأمراء المسيحيون على الباب العالى، بوصفه نائبًا للقائد العام للقوات البحرية بدلاً من السيد

خوان دى أوستريا، فقد أصــدر جلالة الملك أوامره إلى دوق أركوس لكى يتولى إنهاء ما يتوجب القيام به فى غرناطة؛ فدخل ذلك الأخير إلى تلك المدينة فى العشـرين من شهر يناير فى عام ١٥٧١ لميلاد المسيح.

مكث القائد العام لقوات قشتالة هناك لبضعة أيام قام خلالها بإحاطة دوق أركوس بطبيعة الأوضـاع فى البشرات، بوصفه شخصًا على درايةٍ واسعةٍ بتلك الشئون. فقام بتعزيز كتائب الجنود القرويين التى يترأسها السيد إيرناندو أورتادو دى مندوثا، كما أصدر قرارات فى أمور أخرى متعلقة بخدمة جلالة الملك، بعد استعانته واستطلاعه لرأى رئيس محكمة التفتيش السيد بدرو دى ديثا. وبحلول شهر فبراير من ذلك العام توجه إلى البلاط الملكى، الذى قصده أيضًا دوق سوسا عقب قضاء عدة أيام فى ضيعته. تولى السيد خوان إنريكيث قيادة الجنود ورئاسة القوات فى بسطة، بمقتضى الأوامر التى أصدرها جلالة الملك؛ بينما شغل ذلك المنصب السيد ميغيل دى مونكادا فى نهر المنصورة، وقد أحدث رجالنا آثارًا طيبة فى التصدى للمسلمين الذين كانوا قد ظلوا متناثرين فى تلك الأرجاء، حيث أبادوهم بقوة السلاح، وعن طريق تعريضهم للجوع والنكبات. لم يتبق لنا الآن سوى ذكر المصير الذى آل إليه ابن عبــو ووفاته، وقد تولى إراقة دمائه فى نهاية المطاف السينيث الأخرق، وهو الثائر الجبلى الشهير الذى كان ابن عبو يوليه ثقة واسعة.

الفصل الثامن

ويتناول وفاة ابن عبو، ونهاية الحرب.

كان ابن عبو فى تلك الآونة يجول هاربًا عبر الجبال الكائنة ما بين بيرتشول وتربيليث، وذلك فى أشد مناطق البشرات وعورة. فكان يختبئ من كهف إلى آخر، حيث لم يتبق بحوزته سوى أربعمائة رجلٍ يتبعونه، وكان أكثر شخصين يوليهما ثقته هما: أمين سره بيرناردينو أبو عامر Bernardino Abu Amer، والثائر الجبلى الشهير غونثالو السينيث -الذى أفردنا له ذكرًا فى مرات أخرى. كان ذلك الأخير قد أمضى أربعة أعوام حبيسًا فى سجون محكمة غرناطة العليا على خلفية قتله لأحد الرجال، وقد أُطلق سراحه قبل اندلاع الثورة بعام واحد؛ فاتجه إلى الجبل مع الثوار الجبليين واقترف هناك العديد من الجرائم الأخرى. حينما أدرك السينيث أنه هالك، صنع مركبًا فى الخفاء ليبحر على متنها إلى بلاد المغرب، بيد أن ابن عبو حمل رجاله على إحراقها، وأمره بألا يهبط إلى المرفأ، وأن يجوب الجبال مع باقى رفاقه. وهكذا تسببت تلك الواقعة، بالإضافة إلى أمور أخرى حدثت فيما بينهم، فى استشعاره للمهانة الشديدة، فبات يضمر عداء خفيًا لابن عبو؛ حتى أنه كان يود -وفقًا لما أكده لنا- أن تسنح له الفرصة للانتقام منه.

حدث آنذاك أن تولى غالاسو روتولو Galaso Rotulo -القائد الذى ينتمى إلى ثيوداد ريال (المدينة الملكية)- قيادة معقلى كاديار وبيرتشول، وكان فى حوزته بعض السجناء الموريسكيين من أجل إعدامهم. عندئذ وصل إلى هناك صائغ غرناطى يدعى فرانثيسكو باريّدو Francisco Barredo كانت تربطه فى العادة علاقات الصداقة

والمعرفة مع موريسكيي البشرات قبل أن يثوروا على الحكم، وكان يحضر أشياء من الذهب والفضة ليبيعهم إياها. كان ذلك الرجل على ثقة من أن الموريسكيين لن يمسوه بسوء نظراً لتلك الروابط، فصار يذهب إليهم أيضًا فى وقت الحرب ليشترى منهم الحرير، والذهب، واللؤلؤ، وأشياء أخرى. وبينما كان يجول فى أحد الأيام ويستعرض نفراً من المسلمين الذين كان غالاسو روتولو ينوى إعدامهم بنيران البنادق، جرى نحوه أحدهم، وكان صديقًا حميمًا له ويدعى بيرناردينو ثاتاهارى Bernardino Zatahari، وأقبل عليه ليقبّل يديه، وراح يقص عليه ما كان من شأنه. فما كان من باريّدو إلا أن هدأ من روعه، وحمل الجنود على أن يدعوه يصطحبه ليبيت معه تلك الليلة فى الخان الذى يقيم به؛ وعندما سأله عن ابن عبو، وعمن يرافقونه فى تحركاته، وعن المكان الذى يحتشدون فيه، قص عليه المسلم بصدق كل ما يدور فى هذا الصدد، وكيف أن بيرناردينو ابن عامر والسينيث دى بيرتشول هما أكثر شخصين يضع فيهما ابن عبو ثقته.

كان بيرناردينو ابن عامر هذا صديقًا مقربًا للغاية من باريّدو، فظن ذلك الأخير فى نفسه أنه إذا ما بعث إليه من يتحدث معه، ويعرض عليه أن يتم العفو عن جرائمه، ومنحه أفضالاً أخرى ينعم عليه بها جلالة الملك، فإن ابن عامر لن يتوان عن تأدية خدمة جليلة، ويقنع ابن عبو بالاستسلام، أو أن يقوم هو بتسليمه حيًا أو ميتًا. ههنا سأل باريّدو ثاتاهارى إذا ما كان بوسعه الإقدام على عمل رجولى يظفر من خلاله بحريته، فأجابه بأنه يضمن له القيام بكل ما يأمره به فى سبيل البقاء على قيد الحياة. عندئذ قال له الصائغ: "عليك أن تذهب حاملاً رسالة منى إلى بيرناردينو أبو عامر، وأن تخبره أن يحضر لمقابلتى فى مكان يقع ما بين بيرتشول وترييبليث. وإذا ما نفذت ذلك الأمر كرجل صالح، وجلبت لىّ الرد، سأعمل على أن تنال حريتك، وأن ينعم عليك جلالة الملك من فضله". فلمّا وعده الرجل المسلم بأن يخدمه بإخلاص، أخبر باريّدو غالاسو روتولو بتلك المسألة، وطالبه ألا ينفذ فيه حكم الإعدام ريثما يتوجه هو إلى غرناطة للتباحث فى ذلك الأمر مع أعضاء المجلس، فسُر قائد المعقل بذلك. بادر باريّدو بالانطلاق صوب غرناطة، وبحث الأمر مع القائد العام لقوات قشتالة -الذى لم يكن قد

غادر المدينة بعد- ومع دوق أركوس؛ واقترح عليهما أن يصدر أوامره -من خلال ذلك المسلم- حول الكيفية التى يسلّم بها ابن عبو نفسه، أو السبيل إلى إلقاء القبض عليه أو قتله.

نظر أعضاء المجلس إلى ذلك الأمر فى بداية عرضه عليهم على أنه غير مؤكد، ولكنهم قرروا -بعد أن شهدوا الإلحاح الشديد الذى أبداه بارّيدو، ومدى ضآلة المغامرة التى يمثلها إطلاق سراح واحد من المسلمين- بأن يصدروا إليه أمرًا يسلّم إليه غالاسو روتولو الأسير بمقتضاه. فمنحه إياه، وبعث به بارّيدو برسالة إلى بيرناردينو أبو عامر، بعد أن حذره أنه إذا ما ألقى مسلمون آخرون القبض عليه فى الطريق، فعليه أن يخبرهم بأنه فى طريقه للفرار بعد أن هرب من سجن كاديار. كان غونثالو سينيث قد وضع أبراج المراقبة التابعة له حول الجبال التى تضم الكهف الذى يوجد به؛ وعندما أصبح ثاتاهارى على مقربة منها، خرج إليه خمسة عشر جنديًا، وألقوا القبض عليه وعرضوه على سينيث. فلمّا سأله هذا الأخير عن المكان الذى أتى منه، قال له إنه هارب من كاديار؛ بيد أن الثائر الجبلى الخطير أدرك فيما بعد أنه يكذبه القول، وهدده بقتله إذا لم يخبره بالحقيقة. لم يجرؤ المسلم على التفوه بشىء آخر، فأخرج الرسالة التى بحوزته وقدمها إليه، ثم قص عليه كل ما جرى.

عندئذ قال له سينيث ألا يخاف، لأنه من الأجدى له أن يعقد تلك الصفقة معه من أن يجريها مع أبى عامر؛ وأضاف أن ذلك الأخير بمجرد سماعه لتلك الرسالة فلابد له من قتله بكل تأكيد؛ وإنه إذا ما كان بارّيدو يرغب حقًا فى عقد ذلك الاتفاق، فسيكون هو أكثر مناسبةً لما ينتويه من أى شخص آخر. وقد حثه على كتمان السر لكى لا يفتضح الأمر أمام المسلمين الذين تولوا إلقاء القبض عليه، فأرسل يستدعى أبا عامر إلى هناك، وأعطاه رسالة بارّيدو، فانتابته ثورة عارمة، حتى أنه أراد أن يفتك بالمسلم الذى كان يحملها؛ وكان سيقتله لولا أن أبعده سينيث من أمامه، وقال له إنه لا ينبغى عليه أن يمسه بسوء، لأن ما قام به كان يهدف من ورائه إلى النجاة بحياته. تحدث سينيث فيما بعد سرًا إلى ثاتاهارى، وقال له أن يذهب إلى كاديار، ويخبر بارّيدو

بالنيابة عنه أن تلك المسألة لن تفلح إذا ما سلك ذلك النهج؛ وأنه سيتولى الأمر بشكل أفضل إذا ما حصل له على عفو عام من قبل جلالة الملك عن كل ما اقترفه من جرائم، وتم تسليمه امرأته وابنة له وكانتا ضمن الأسيرات.

توجه المسلم إلى كاديار، ونقل إلى باريّدو ما قال له سينيث أن يخبره به، فذهب لاحقًا لمقابلته ما بين موضعي بيرتشول وتريبيليث. وبعد ان أطالا التباحث في ذلك الصدد، قام سينيث بكتابة رسالة باللغة العربية إلى رئيس المحكمة، يعرض عليه من خلالها أن يحمل ابن عبو على الاستسلام، أو أن يسلّمه حيًا أو ميتًا، في مقابل التأكيد له على الأفضال التي سيسبغها عليه جلالة الملك. كما أنه طلب -بغية الرضا عن تلك الصفقة والتأكد من أنها ليست خدعة- أن ما سيتم الاتفاق عليه والأوامر أو الرسائل التي ستُرسل إليه في هذا الصدد تكون مصاغة باللغة العربية، وبخط يد الأب كاستييو الذي كان يعرفه جيدًا. هنالك أدرك دوق أركوس ورئيس محكمة تفتيش غرناطة وأعضاء المجلس أن اقتراح سينيث سيضع نهايةً للحرب. أمروا الأب كاستييو أن يكتب إليه ما يفيد بأن جلالة الملك قد أنعم عليه بما طلب، وأنه لدى تنفيذه لما تعهد به، فإنه علاوةً على تفضله عليه هو بالمن، سوف ينال المسلمون الذين يجلبهم معه حريتهم، وسينعمون ببعض الهبات.

انطلق باريّدو من غرناطة في اليوم الثالث عشر من شهر مارس لعام ١٥٧١، بعد أن حصل على تلك الضمانات، إلى جانب رسالة تفيد بصدق أقواله، موجهةً إلى ليوناردو روتولو كاريّو Leonardo Rotulo Carrillo -الذي كان يمد يد العون في تلك الآونة من خلال قيادته للجنود وترأسه لحصني كاديار وبيرتشول، على ضوء تغيب أخيه غالاسو روتولو. أرسل باريّدو من كاديار من ينبه سينيث إلى مجيئه، وتوجه لمقابلته - يرافقه ليوناردو روتولو- في نفس المكان الذي التقيا فيه في المرة الفائتة. كانت سعادة سينيث بالرسائل التي حملوها إليه غامرةً، بعد أن رأى الرسالة المكتوبة بخط الأب كاستيّو، وأمرًا ممهورًا بتوقيع رئيس محكمة تفتيش غرناطة، الذي كان يعرف توقيعه لأنه كان قد رآه في مناسبات أخرى؛ وقد عاد الرجلان المسيحيان إلى بيرتشول بعد أن تعهد لهما المسلم بوفائه بالأمور المنوط به تنفيذها على وجه السرعة.

تم تنبيه ابن عبو إلى تلك اللقاءات التى عقدها سينيث مع باريّدو، ونظراً لكونه شخصاً نزاعاً إلى الريبة فقد أراد معرفة ما دارت حوله المقابلات. اصطحب ابن عبو أبا عامر وإحدى فرق الجنود المسلحين بالبنادق، وتوجه إلى الكهف الخاص بسينيث عند انتصاف الليل -وكان موضعاً حصيناً فى الجبل يدعى الحسوم Huzum، كائناً ما بين بيرتشول وميثينا دى بومبارون. ترك ابن عبو الرجال بالخارج، ودخل عليه مع اثنين فقط من الجنود، لكى يوارى اصطحابه للرماة بشكل أفضل، وسأله عمن منحه الإذن بالتحدث مع باريّدو. أجابه السينيث قائلاً: "لقد فعلته بإذن منك يا سيدى. وكنت انتوى الآن المجىء لإطلاعكم على ما اتفقنا عليه. فلتعلم أن نقاشنا كان يهدف إلى تحقيق صالحكم وصالح كل الموجودين هنا، فقد أرسل إلينا رئيس محكمة التفتيش يطلب منا الاستسلام والدخول فى خدمة جلالة الملك، على أن يتفضل جلالته بالعفو عنا، وأن يدعنا نمضى فى حرية لنعيش أينما يحلو لنا. وعلاوةً على ذلك فإنه سيغدق علينا الكثير من الهبات الأخرى، التى بعث بها إلينا ممهورة باسمه فى تلك الورقة". حينما أخرج الرسائل التى حملها إليه باريّدو ليريه إياها، اشتعل ابن عبو حنقاً، وقال إن الأمر برمته خبث وخيانة، وأراد أن يخرج ليستدعى أبا عامر. بيد أنه لمّا بلغ مدخل الكهف - حيث ترك الجنديين المسلمين مع واحد من أبناء إخوة السينيث يدعى بارتولومى، ورجل آخر من أصهاره- ألفى أحد الرجلين قد قُتل بينما لاذ الثانى بالفرار.

كان برفقة سينيث ستة من الرجال، وكانوا جميعاً من أقربائه، فلمّا رأوا ما يعتزم ابن عبو القيام به أرادوا منعه. وبينما هم يتصارعون معه، دنا منه سينيث من الخلف، وانهال على رأسه بطرف البندقية فى ضربة بالغة الشدة خر على الأرض على أثرها، حيث أجهزوا عليه. عندما أدرك أبو عامر ومن برفقته أنه لم يعد هناك من يقومون بحمايته، ألقى إليهم أتباع سينيث بالجثمان من أعلى صخرة مرتفعة موجودة فى مقابل الكهف؛ بيد أن المسلمين الذين كان ابن عبو قد تركهم هناك لم يكونوا فى أماكنهم، لأنهم كانوا قد ذهبوا لزيارة أصدقاء لهم فى الكهوف الأخرى القريبة من هناك. كانت تلك الفرصة مواتية لتطلعات السينيث كما تمناها، وقد سعت للوقوع بين يديه، على الرغم من أنه لم يكن أمراً مستجداً على ابن عبو أن يتنقل من كهف إلى آخر فى أغلب الليالى،

مع اثنين أو ثلاثة من الرفقاء. فى نهاية الأمر كان أول ما نبه أبو عامر إلى الأمر هو مشاهدته للجثة الهامدة؛ ولما كان أولئك الرجال متقلبى الأهواء ويرتابون فى أنفسهم، فقد ذهب كل منهم لحاله، وقد انضم أكثرهم فيما بعد إلى السينيث من أجل التمتع بالامتيازات التى لديه. أما أبو عامر فلم يشأ أن يستسلم، وقد ألقت الكتائب القبض عليه لاحقًا، ومات مسحولاً بعد أن تم تقطيع جسده إلى أربعة أجزاء.

فى أعقاب موت ابن عبو، قام السينيث بإبلاغ ليوناردو روتولو وفرانثيسكو باريّدو -اللذين كانا فى بيرتشول- بما جرى، وطالبهما بإرسال دابة من أجل نقل الجثمان؛ وعندما تم إرسالها حمل الجثة إلى المعقل، وسلمها إليهما. وقد تم اقتياد الجثمان إلى كاديار، حيث تم شق الجسد وإغراقه بالملح للحيلولة دون صدور رائحة كريهة عنه، لأنه كان لابد من اصطحابه إلى غرناطة. لاحقًا تم إخطار دوق أركوس بالأمر، وعاد الرجلان إلى الجبل، حيث توليا تجميع المسلمين والمسلمات الذين جاءوا من أجل تسليم أنفسهم -وكانوا كثر. فلمّا رجعا إلى كاديار ألفيا السيد خوان رودريغيث دى بيّافويرتى مالدونادو -المأمور القضائى لغرناطة والمجلس الملكى- الذى أتى امتثالاً لأوامر الدوق، بغية المساعدة فى إخضاع أولئك الأشخاص؛ وقد مكث المأمور القضائى فى البلدة من أجل ذلك الغرض، وأمر كلاً من ليوناردو روتولو وباريّدو باقتياد جثمان ابن عبو وجموع المسلمين المستسلمين إلى غرناطة.

دلف الرجلان إلى المدينة فى وسط حشد غفير من الناس، الذين كانوا يرغبون فى مشاهدة جثة ذلك الخائن الذى كان يُلقب بملك إسبانيا. كان ليوناردو روتولو فى مقدمة الموكب، يليه باريّدو على الجهة اليمنى، بينما سار السينيث على الجهة اليسرى حاملاً سيف ابن عبو وبندقيته -وقد اعتلى ثلاثتهم صهوة الجياد. وقد تلتهم الجثة المحملة على أحد الأمتعة، والتى أحاطت بها ألواح من الأخشاب تحت الثياب -فبدا ابن عبو وكأنه على قيد الحياة-؛ وقد سار على طرفيها أقرباء سينيث ببنادقهم وأسلحتهم النارية. مشى وراءهم جميعًا المسلمون المستسلمون مع متاعهم وثيابهم، أما من حمل منهم قوسًا فولاذيًا فقد نزع أوتاره، أما حملة البنادق فقد انتزعوا زنادها. كما أحاط بهم على الجانبين كتيبة لويس دى أرّويو، واحتل خيرونيمو دى أوبييدو -مندوب الجنود فى

هذين المعقلين- مؤخرة الموكب يرافقه لواء من الفرسان. دخل الرجال إلى المدينة بهذا الشكل، وسط وابل من الأعيرة النارية أطلقها حملة البنادق، وقد أجابهم بمثيله سلاح المدفعية التابع لحصن الحمراء؛ وتوجهوا إلى مقر المحكمة، حيث يوجد دوق أركوس، ورئيس محكمة التفتيش بدرو دى ديثا، وأعضاء المجلس، وعدد غفير من السادة والمواطنين.

ترجل ليوناردو روتولو، وفرانثيسكو باريّدو، والسينيث، وصعدوا لتقبيل يدى الدوق ورئيس محكمة التفتيش، الذى قدم له السينيث واجب الاحترام، وسلّمه سيف ابن عبو وبندقيته، قائلاً إنه قد سلك نهج الراعى الصالح، الذى جلب لسيده فروة الأغنام عندما تعذر عليه إحضار رؤوس الأغنام على قيد الحياة. أخذ الدوق الأسلحة، وشكر ثلاثتهم على حسن صنيعهم فى هذا الصدد، وعرض عليهم أن يتوسط بشأنهم لدى جلالة الملك من أجل أن ينعم عليهم بهبات استثنائية. ثم أمر فيما بعد بجر جسد ابن عبو، وتقطيعه إلى أربعة أجزاء؛ وقد تم وضع الرأس فى قفص حديدى يعلو قوس بوابة راسترو Rastro المفضية إلى طريق البشرات حيث توجد فى الوقت الراهن. مكث دوق أركوس فى تلك المدينة حتى السابع عشر من شهر نوفمبر من ذلك العام، عندما غادرها إلى دياره بعد أن نُصّب نائبًا للملك فى بلنسية؛ وقد عُهِدَ إلى السيد بدرو دى ديثا رئاسة كل الأمور المتعلقة بالقضاء، والحرب، والممتلكات، والسكان.

لاقى تعمير الأراضى بالمسيحيين بعضًا من الصعوبات فى بادئ الأمر، بيد أن الطمع فى الحصول على الضيا ع التى أمر جلالة الملك بتوزيعها على القاطنين الجدد، والإعفاءات التى منحهم إياها، يسرت الأمور فيما بعد. وهكذا صار الانتقال إلى تلك المملكة هو محور اهتمام إسبانيا قاطبةً، وقد شنت حرب فى سبيل العقيدة والإيمان؛ وأضحت الجائزة التى نالتها إسبانيا فى مقابل المجهودات التى بذلتها والدماء التى أهرقت فيها، هى اجتثاث الأمة الموريسكية التى كانت قد مكثت بها. آه! يا لها من ساعة سعيدة بالنسبة إليك يا مدينة غرناطة المجيدة، عندما خلّصك الملكان الكاثوليكيان إيرناندو وإيسابيل من قبضة الشيطان! لقد رفعا من منزلتك وزيناك بالمبان المترفة، وأعليا من قدرك وارتقيا بك فى شأن العقيدة السماوية والأمور الدنيوية، ليجعلا من

مساجدك الاحتفالية التى كان يُعبد فيها الزائف محمد دور عبادة مقدسة يُعظم فيها اسم مخلص البشرية. وقد حظيت بدلاً من المفتيين، والفقهاء الشرعيين، والوضوء، وصلواتهم، بأساقفة قديسين، ورهبان، ورجـال دين غيورين على عقيدتهم الحقة، ممن يقيمون شعائر القداس الإلهى، ويقدمون القربان إلى قاطنيك، وجعلوك كنيسة سماوية.

لقد جمعا بينك وبين الشعب المسيحى، وجعلا منك ابنة لمن كنت على الدوام عدوة له، وقد أودعاك فى معية الكنيسة الرومانية المقدسة، واسترضياك بالأمراء الكاثوليكيين والرجال المنتقين الذين ينتشر من خلالهم إشعاع الإنجيل المقدس. لقد أبعداك عن تخبط القرآنيين، وجعلاك من أتباع العقيدة الحقة بعد أن كنت أستاذة فى الطوائف والزلات. لقد منحاك عوضاً عن القضاة الذين حكموك وأداروا شئونك بقوانين خرقاء لا أساس لها، حكماً سديداً ومأموراً قضائياً ومجمعاً ديرانياً ومحكمة تنظر فى شئون العقيدة ومحكمة عليا تساوى فيها القوانين بين الشباب والشيوخ، يحكم فيها رجال مختارون، وأساتذة فى علوم القوانين، ورئيساً للمحكمة يشرف على ما يجرى فيها، ويأمر بما ينبغى القيام به.

أنت تدينين يا غرناطة لهذين الأميرين الكاثوليكيين أكثر مما تدينين به إلى من قاموا بوضع أساساتك الأولى، حيث أن المعارك الحربية التى عانيت منها لا تعلو على قدر السلام المسيحى الذى تنعمين به فى الوقت الحالى، من خلال الحكم الرشيد لجلالة الملك المسيحى فيليبى -ابن حفيد صاحبى الجلالة- الذى استأصل الإلحاد الذى ظل فى قلوب المتنصرين الجدد من الإسلام فى مملكتك، ليعهد بك فى وقتنا الحالى إلى ولده الملك المسيحى شديد التقى والورع فيليبى، حرة ومحررة من تلك الأمة، لكى تنعمى أكثر مع الشعب المسيحى. وأدعو الرب الذى أنعم عليك بالكثير من الخيرات والرحمات أن يحفظ ويصون ويقى -بمنه- ذلك الأمير المجيد، وأن يبقى مملكتك النبيلة الفاضلة.

المحتـــويات

(الكتاب السادس)

(الكتاب السابع)

(الكتاب الثامن)

(الكتاب التاسع)

(الكتاب العاشر)

المؤلف فى سطور :

لويس ديل مارمول كارباخال

- ولد فى غرناطة عام ١٥٢٠، وتوفى نحو عام ١٥٩٩.
- اشترك فى الحملة على تونس عام ١٥٣٥، وأمضى اثنين وعشرين عامًا فى إفريقيا، منهم ثمانية أعوام قضاها أسيرًا فى الجزائر.
- خلال ثورة الموريسكيين، عينه الأمير خوان دى أوستريا مفتشًا على مشتريات الجيش الإسبانى.
- له كتابان آخران هما "وصف أفريقيا" (فى ثلاثة أجزاء)، و"الحرب فى البشرات".

المترجم فى سطور :

وسام محمد السيد جزر

- ليسانس اللغة الإسبانية بتقدير جيد جيداً مع مرتبة الشرف (كلية الألسن، جامعة عين شمس، ١٩٩٩).
- دبلوم الترجمة بتقدير ممتاز (كلية الألسن، جامعة عين شمس، ٢٠٠٢).

المراجع فى سطور :

جمال أحمد عبد الرحمن

- من مواليد ١٩٥٦ بقرية بنى مجد (أسيوط).
- حاصل على درجة الإجازة العليا (الليسانس) فى اللغة الإسبانية بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف (١٩٧٩)، كلية اللغات والترجمة، جامعة الأزهر.
- الدراسات التمهيدية للدكتوراه فى جامعتى سلمنكا ومدريد.
- حاصل على درجة الدكتوراه مع مرتبه الشرف من جامعة مدريد المركزية (١٩٨٩).
- فى عام ٢٠٠١ رقى إلى درجة أستاذ بقسم اللغة الإسبانية بكلية اللغات والترجمة، جامعة الأزهر.
- له العديد من الكتب المترجمة والمقالات المنشورة فى مصر والخارج حول موضوعات مختلفة من الأدب الإسبانى والعلاقة بين الإسلام والثقافة الإسبانية.
- عضو اللجنة العالمية للدراسات الموريسكية (اعتباراً من مايو ٢٠٠٩).
- بريد الكترونى: gamalabdelrahman@hotmail.com

التصحيح اللغوى: طارق الشامى
الإشـراف الفنـى: حسـن كـامل